المركز القومي للترجمة

مايكل هاج

الإسكندرية

مدينة الذكرى

ترجمة: فضيلة محجوب
مراجعة: طاهر البربرى

2215

في يوليو 1942، عندما قام روميل بتهديد مصر، وتوقف عند منطقة العلمين، وتم إجلاء نانسي وابنتها إلى فلسطين، وكان زواج دوريل يشهد بالفعل حالة من التوتر الشديد، ولم ترجع نانسي. في العام التالي، التقى دوريل مع إيف كوهين في الإسكندرية، وأصبحت زوجته الثانية، "امرأة غريبة، وفاتنة، بعينين سوداوين، صائبة في كل استجاباتها، أهداها الجزء الذي عنونه بـ"جوستين" ضمن الأجزاء الأربعة في روايته الشهيرة رباعية الإسكندرية Alexandria Quartet - "إلى إيف، هذه الذكريات من مدينتها الأم. أنهى الجزء الأول منه، والذي يحمل عنوان "رباعية الإسكندرية" في قبرص عام 1956. وكتب دوريل إلى صديقه هنري ميللر عنها قائلاً: "إنها قصيدة نثر من نوع ما، إلى واحدة من أحب عواصم القلب، عاصمة الذكريات، وتحمل صورًا لاذعة لسيدات الإسكندرية، هن بالتأكيد أحب النساء إلى نفسي، وأكثرهن كربًا وحزنًا في العالم."، ولكن الذكريات الوحيدة التي تنتظره الآن تعود إلى الأماكن القديمة، والأصدقاء القدامى والغراميات القديمة التي تلاشت منذ زمن.

"الإسكندرية، الأميرة والعاهرة، والمدينة الملكية والمؤخرة؛ فلن تتغير هذه المدينة أبدًا، طالما استمر هياج الأعراق هنا مثل العفن في الراقود. وبدلاً من التقاط الصور في فيلات فخمة تغطيها النباتات المزهرة؛ "حيث كان يقيم نسيم وجوستين حفلاتهما" ، باتت مهجورة أو صودرت أو تُركت للتردي بسبب فقر أصحابها، وتجد البوابات الحديدية الصدئة مفتوحة على مصراعيها على حدائق مهملة حيث فسقيات المياه الرخامية والتماثيل المتهشمة تشهد على ما كانت تحمل هذه الفيلات من عظمة في الماضي.

تصميم الغلاف: نادية كشك

الإسكندرية
مدينة الذكرى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2215
- الإسكندرية: مدينة الذكرى
- مايكل هاج
- فضيلة محجوب
- طاهر البربرى
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

ALEXANDRIA: City of Memory
By: Michael Haag

Copyright © Michael Haag, 2004
Arabic Translation © The National Center for Translation, 2016

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة.   ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤   فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org   Tel: 27354524   Fax: 27354554

الإسكندرية

مدينة الذكرى

تـــأليف : مايكـــل هـــاج

ترجمـــة: فـــضيلة محجـــوب

مراجعـــة : طـــاهر البربـــرى

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هاج، مايكل.
الإسكندرية: مدينة الذكرى / تأليف: مايكل هاج ؛ ترجمة: فضيلة محجوب ؛ مراجعة/ طاهر البربرى.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٦٠٨ ص، ٢٤ سم
١ - الإسكندرية - تاريخ
(أ) محجوب - فضيلة (مُترجم)
(ب) البربرى طاهر (مراجع)
(جـ) العنوان ٩٦٢,٠١١

رقم الإيداع: ٩٧٤٨ /٢٠١٦
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 92 - 0654 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مصادر تم الاعتماد عليها، وقراءات أخرى وتنويه 9

تمهيد: عاصمة الذكريات 15

الفصل الأول: ترام 33

الفصل الثانى: الإسكندرية من الداخل.............................. 105

الفصل الثالث: آه لو أن الحب أبدي.................................. 145

الفصل الرابع: مجتمع الرفاهية : تاريخ ودليل 219

الفصل الخامس: ثنائيات مختلطة كالعادة 301

الفصل السادس: صورة شخصية 347

الفصل السابع: مرايا 409

الفصل الثامن: قلعة بروسبيرو 465

الفصل التاسع: المدينة التى لا تتلاشى 515

خاتمة – الطريق إلى الإسكندرية 557

المراجع 578

إلى لُطفية

ماذا في مدينتنا هذه بالأساس؟ ماذا نستعيد عندما ننطق كلمة الإسكندرية؟

لورانس دوريل

"رباعية الإسكندرية"

مصادر تم الاعتماد عليها، وقراءات أخرى، وتنويه

تم استقاء كثير من المعلومات الواردة فى هذا الكتاب من أناس عرفوا الإسكندرية الكوزموبوليتانية وقد تحاورت معهم أو تلقيت منهم مكاتبات بشأنها أو طالعت يومياتهم وقرأت رسائلهم وشاهدت صورهم الشخصية... إلخ. سواء أخذت المادة منهم هم شخصيًا أو من أصدقائهم أو من أحد أفراد عائلتهم، وقد أشرت إلى أسمائهم ضمن من عبرت عن امتنانى لهم، كما أشرت إلى أسمائهم عندما اقتبست من أقوالهم أو مذكراتهم. ومع ذلك، فى معظم الأحوال وخصوصا مع الحوارات المتبادلة، لم يتم التنويه عنها فى الهوامش، كما هو الحال فى المصادر المكتوبة. زياراتى للإسكندرية مع "إيف دوريل"، أفاضت من ذكرياتها عن هذه المدينة وأضافت قيمة كبيرة لهذا الكتاب، وأيضا نزهاتى مع صديقى "برنارد دى زغيب الذى يُعتبر آخر الإسكندرانيين الذين عرفتهم.

عادة يتم تنقيح الهوامش للكتب أو لمطبوعات أخرى لها اهتمام خاص. أما بالنسبة للقارئ الذى يريد حكايات عامة عن المدينة، وعن دوريل وفورستر وكفافيس فتلك الإشارات قد تفيده كثيرًا.

باستثناء المقالات التى نُشرت فى كتاب "الإسكندرية بين عالمين" (Alexandrie entre deux mondes)، الذى حرره "روبرت ألبرت" (Aix-en-Provence 1988)، وكتاب الإسكندرية بين عامى ١٨٦٠-١٩٦٠ (Alexandrie1860-1960)، وحرره "روبرت ألبرت"، و"إليوس ياناكاكيس"(Paris 1992) لم يُنشر إلا النزر اليسير عن تاريخ الإسكندرية الكوزموبلوتانية المعاصرة.

ولكن القليل من الكتب التى نشرت على شكل مذكرات، ورغم أنها يمكن أن تسهم فى إلقاء الضوء على الظروف السائدة، ويمكن أن تجنح إلى التلفيق، ولذلك لا يمكن اعتبارها مصدرًا تاريخيًا، أو حتى من السجلات التاريخية للشخصيات، ومن هذه المذكرات الخيالية التى كتبها م "Andre Aciman" بعنوان "خارج مصر ـ نيويورك ١٩٩٤".

تم تغطية تاريخ المدينة فى العصر القديم على نحو رائع فى كتاب "بيتر م. فريسر" الصادر عن دار " أكسفورد ١٩٧٢" بعنوان " الإسكندرية فى عصر البطالمة" Ptolemaic Alexandria، وكتاب "ألفرد ج. بيتلر" الذى أتى تحت عنوان "الفتح العربى لمصر ـ الطبعة الثانية" الذى أصدره "بيتر م. فريسر" عن دار نشر "أكسفورد ١٩٧٨"، وكتاب م "Jean-Yves Empereur" وجاء بعنوان "إعادة اكتشاف الإسكندرية ـ لندن ١٩٩٨"، فى حين تم تسجيل التاريخ القديم والطبيعة الجغرافية الخاصة بمنطقة بحيرة مريوط والصحراء الغربية فى كتاب عن تلك المنطقة كتبه آنتونى دى كوسون "Anthony de Cosson" وصدر فى (لندن ١٩٣٥)، وإننى أشعر بالامتنان لكل هذه الكتب لما أمدتنى به من معلومات وفيرة حول المدينة والمناطق المحيطة بها قديمًا.

كما كانت هناك دراستان عن أعمال "فورستر"، وهما: "إ. م. فورستر سيرة حياة" E. M. Forster: Alif (oxford 1979) وهى رسالة ماجستير إعداد ب. ن. فوربانك "P.N.Furbank"– وصدر عن "أكسفورد فى سنة ١٩٧٩"، والأخرى "Morgan : ABiography Of E.M Forter مورجان: إ. م. فورستر ـ لندن أكسفورد ١٩٩٣" بقلم م "Nicola Beauman"، التى تقدم بعض المعلومات الجديدة. صدرت الطبعة الأولى من أصل كتاب "فورستر" (الإسكندرية ـ تاريخ ودليل) فى الإسكندرية عام ١٩٢٢، وصدرت الطبعة الثانية أيضًا فى الإسكندرية فى عام

١٩٣٨ وهذه الكتب ثمينة مثل التبر (الذهب). كما أعيد نشر الطبعة الأولى من الكتاب فى نيويورك فى عام ١٩٦١، ومرة أخرى فى لندن عام ١٩٨٢ مصحوبة بمقدمة بقلم "**لورانس دوريل**"، ثم أعيد نشره فى عام ١٩٨٦ للمرة الثالثة بهوامش منقحة: وتلك كانت نسخًا نادرة. تم جمع كتابى فورستر "(الإسكندرية-تاريخ ودليل إرشادى، والثانى الفراعنة وأثينا **Pharos and Pharillon**) ونشرته دار مريم ألوت فى لندن عام ٢٠٠٤.

كما ظهرت أيضًا سيرتان لـ "**دوريل**": **كتاب جوردون باوكر القوى الذى أتى تحت** عنوان (عبر المتاهة المظلمة **through the dark Labyrinth** – لندن ١٩٩٦)، والسيرة الأخرى جاءت فى سياق بحثى أفضل، وأنجزها "**أيان ماكنيفين**، تحت عنوان (لورانس دوريل-سيرة **Lawrence Durrell: A Biography** لندن١٩٩٨). واللافت للنظر على أية حال فى كلتا الدراستين لأعمال "دوريل" وحياته أنهما يظهران القليل من المعرفة عن حياة "**دوريل**" فى الإسكندرية، وكيف كتب الروايات التى تؤلف رباعية الإسكندرية وهى: "**جوستين**"، و"**بلتزار**"، و"**مونت أوليف**"، و"**كليا**" **Justine, Balthe azar, Mountoive and clea**، تلك الرباعية التى صدرت فى لندن ١٩٦٢.

أما كتاب روبرت ليديل: "كفافيس: دراسة نقدية لسيرته الذاتيه **Cavafy: A Critical Biography**" (لندن ١٩٧٤) فقد كتبه شخص عرف الإسكندرية وقدم صورة صادقة عن المدينة وعن الشاعر. أما أفضل الترجمات لأشعار "**كفافيس**" فهى تلك التى قام بها كل من "**إدموند كيلليو فيليب شيرارد**"وهى "ق. ب. **كفافيس** مجموعة أشعار – **C.P.Cavafy : Collected Poems** لندن١٩٧٥).

خلال رحلة الإعداد لهذا الكتاب، وحتى قبل أن أعرف ببداية تلك الرحلة، أعترف بأننى استفدت كثيرًا من المعلومات والمعارف الموثقة ومن تشجيع ما قدمه عددٌ كبير من الناس ومساعدتهم، وإليهم أقدم جزيل شكرى وعرفانى، من بين هؤلاء مايسة أباظة، وخالد العظم، وحاج أحمد، وماريام اللوط، وناعومى، وموجى، وأثانيسيان، ومحمد عوض، ومحمد بدر، وزينب نيازى بدر، ورالف باجنولد، ونيكولا بيومان، وموريس بيربيرر، وجون بودلى، وجوزيف بولاد، وجون كرومر براون، وأليس برينتون، وجون برينتون، وجوزيه برينتون، وجون بولار، وأدريانا بوتا ـ كالايس، وليزا تشينى، ووليام كليفلاند، وماريو كولوتشين أرتيميس كوبر، وجاكلين كلات كوبر، ومارينجيلا كورتيزا، وروبرت كرسب، ولوسيين داليل، وجيمى دارك، وإيف كوهين دوريل، ولورانس دوريل، وروجر إيفانس، وفرانسيس فيدن، وباتريك ليى فيرمور، واليزابيث وايس فرنش، ومارتا لوريا فولر، ورونالد فولر، وب.ن.فيربانك، وبياتريس جاتشى، وبول جوتش، ومارى مولو هاديكنسون، وهالة حليم، ويوسف حليم، ودينيس هارفى، ومارى بنتلى هونور، وبينلوب دوريل هوب، وجابرييل جوزبوفيسى، وإدموند كيللى، وسير فرانك كيرمود، وفرانسواز كيستيسمان، وجورج كيبريوس، وجورج كيرايكيدس، وكارولين لاسال، وماريا ليونكافالو، وكانون هوارد ليفيت، وروبرت ليدل، وصامويل لوك، وأيان ماكنيفين، وجاكى ماجار، وسيبيل ماجار، وساندرو مانزونى، وألفونسو دى مارتينو، وجاك ماواس، ونيكوليت بنتو ماواس، وتوفيق مجلع، وأناهيدميراميتدجان، وديانا فورد ميتشيل، ومايا مونسترلى، وأنثيا مورتون سانير، وعادل روبى مرسى، وسهيلة نقيب، وأمين نيازى، وآن أوليرى، وهيرتا بابو، ومافيس فوكاس، وفرانك بايك، وريتشارد باين، والأب بير ريتشيز، وسمير رأفت، وجون رودينبيك، وليزلى روف، وجاكى رولو، وسير ستيفين رونسمان،

وجاك سارفاتى، وعمرو شادى، وجين شماس، وفيليب شيرارد، ووجيدة سيد أحمد، ومحمد سرى، ويانا سيستوفاريسن آلان ج. توماس، وفيكتوريا تومبيسون، ودونتانين تورتيلا، ومولى طوبى، وإريك فينسندون، وجواين ويليامز، ونيفين يسرى، وعادل أبو زهرة، ونادين زيدان، وجاستون زنانيرى، وبرنارد دى زغب، وعلى ذو الفقار.

كما أود أن أتوجه بالشكر لدار نشر(**Faber and Faber-Duckworth, (Princeton University Press, The state of Lawrence Durrell)**، وإلى المكتبة البريطانية ومديرها والأساتذة فى كلية -كينجز كوليدج ـ كمبريدج.

تمهيد

عاصمة الذكريات

تقول لنفسك: سأذهب

إلى أرض أخرى.. إلى بحر آخر،

إلى مدينةٍ أخرى بعيدة، وأكثر جمالاً من هذه..

مدينة لم يسبق لك أن رأيت لها مثيلا

أو حلمت بوجودها

لن تجد أرضا جديدة، يا صاح

ولن تجد بحرا جديدا

فسوف تلاحقك المدينة

وستهيم فى نفس الشوارع بلا نهاية

قسطنطين كفافيس من قصيدته "المدينة" ترجمها إلى الإنجليزية لورانس دوريل[١]

عاد لورانس دوريل إلى الإسكندرية فى أكتوبر من عام ١٩٧٧، وأقام فى الفندق المعروف "فندق سيسل" على الكورنيش، حيث تنعكس أشجار النخيل المتراقصة بالخارج فى المرايا الكبيرة المتلألئة فى بهو الفندق، وأنصت إلى رياح البحر وهى تنفذ من عقب بابه. حتى فى أثناء الحرب، كانت الإسكندرية

الكوزموبوليتانية تمثل موجة ناهضة فى المد المُنحَسِر، فقد أصبحت أيام جالياتها الأجنبية معدودة؛ إذ بدأ ترحيلهم بعد ذلك بعشر سنوات، وخشى دوريل من أن تكون ثورة جمال عبد الناصر الاشتراكية التطهيرية قد تسببت فى إهلاك البلد التى عرفها.

فى ربيع ١٩٤١ كان دوريل قد أتم عامه التاسع والعشرين، عندما اجتاح الألمان الأراضى اليونانية؛ هرب مع زوجته نانسى وابنتهما الرضيعة إلى مصر. وقتئذ كانت مدينة الإسكندرية خمسة أعراق مختلفة، يتحدثون خمس لغات كما كانت توجد بالمدينة أكثر من عشر ملل دينية، وخمسة أساطيل بحرية تتحرك عبر انعكاساتها الملوثة بالشحوم خلف بوابة الميناء(٢). والآن، وبعد مرور دهر، يواجه الإسكندرية بخوف وترقب، وكأنه قد أُبعد إلى المنفى بمرور الزمن.

فى يوليو ١٩٤٢، عندما قام روميل بتهديد مصر وتوقف عند منطقة العلمين، وتم إجلاء نانسى وابنتها إلى فلسطين، وكان زواج دوريل يشهد بالفعل حالة من التوتر الشديد، ولم ترجع نانسى. فى العام التالى، التقى دوريل مع إيف كوهين فى الإسكندرية، وأصبحت زوجته الثانية، "امرأة غريبة، وفاتنة، بعينين سوداوين، صائبة فى كل استجاباتها،"(٣) أهداها الجزء الذى عنونه بـ "جوستين" ضمن الأجزاء الأربعة فى روايته الشهيرة رباعية الإسكندرية **Alexandria Quartet** — "إلى إيف، هذه الذكريات من مدينتها الأم"(٤). أنهى الجزء الأول منه الذى يحمل عنوان "رباعية الإسكندرية" فى قبرص عام ١٩٥٦. وكتب دوريل إلى صديقه هنرى ميللر عنها قائلا: "إنها قصيدة نثر من نوع ما، إلى واحدة من أحب عواصم القلب، عاصمة الذكريات وتحمل صورًا لاذعة لسيدات الإسكندرية، هن بالتأكيد أحب النساء إلى نفسى وأكثرهن كربًا وحزنًا فى العالم."(٥) ولكن الذكريات الوحيدة التى تنتظره الآن تعود إلى الأماكن القديمة، والأصدقاء القدامى والغراميات القديمة التى تلاشت منذ زمن.

ما كان دوريل ليعود إلى الإسكندرية لولا أن أقنعته "هيئة الإذاعة البريطانية" بعمل فيلم بعنوان "روح المكان". وتمثلت مهمته فى اصطحاب فريق تصوير من هيئة الإذاعة البريطانية ليطوف المدينة التى أبدع فى تصويرها، أأبدعها من خياله؟ هذا ما ملأ قلبه بالقلق. فى البداية كان دوريل يسير فى الأيام التالية شريدا، يمشى على غير هدى، ثم بدأ يلتقط الخيوط إلى الطرقات التى عرفها، وسلك طريقه فى شوارع الإسكندرية. لقد بدت المدينة أمام عينيه جامدة كئيبة، فالميناء لم يكن يتجاوز كونه مقبرة، ومقاهيها الشهيرة، مثل مطعم باسترادوس وبيدروت، لم تعد تصدح بالموسيقى أو تتلألأ بالأنوار، ويقول: "تلاشت الملصقات والإعلانات الأجنبية، وأصبح كل شيء مكتوبًا باللغة العربية، فى أيامنا كانت ملصقات الأفلام تعلق بلغات عديدة مع إعلان باللغة العربية(٦). أما مكتبته المفضلة" سيتى دو ليفر والتى كانت موجودة فى شارع فؤاد، فقد اختفت تماما من الوجود – وكانت عادة ما تمتلئ بطبعات "لا بلياد" (٧). وجد أكواما من الكتب يُرثى لحالها. كل ما له به كامن فى كلمة "إسكندرية **Iskandariya**"، وهى الكلمة العربية غير المفهومة التى تنتمى لساكنيها، لكنها ترجمة فى الفراغ عارية من المعنى.

"الإسكندرية، الأميرة والعاهرة، والمدينة الملكية والمؤخرة. فلن تتغير هذه المدينة أبدا، ما دام استمر هياج الأعراق هنا مثل العفن فى الراقود*(٨). وبدلا من التقاط الصور فى فيلات فخمة تغطيها النباتات المزهرة، "حيث كان يقيم نسيم وجوستين حفلاتهما"(٩)، باتت مهجورة أو صودرت أو تُركت للتردى بسبب فقر أصحابها، وتجد البوابات الحديدية الصدئة مفتوحة على مصراعيها على حدائق مهملة؛ حيث فسقيات المياه الرخامية والتماثيل المتهشمة تشهد على ما كانت تحمل هذه الفيلات من عظمة فى الماضى.

(*) وعاء ضخم للسوائل يستخدم للتخمير أو التكرير.

وتحدث بيتر آدم، مخرج الفيلم، عن دوريل قائلا: "كان يفرط فى الـشراب، إنسان وحيد، حزين يجلس مرتخيا على البار، فى فندق سيسل[١٠]. فقال له دوريل: "يبدو سخيفا، ولكننى غير مبال، فإن حياتى تنقضى سـواء فـى الكتـب أو فـى الأحلام."[١١] إلا أن حالته المزاجية تغيرت فجأة عندما لمـح عـاهرتين ترتـديان تنورتين قصيرتين من الجلد تدخلان البار: "شكرا لك، شكرا، مصر! أى سحر هذا، أى تمايل ساحر هذا!"[١٢]

تبع طاقمُ الفيلم دوريل، بينما تبع كل من نسيم وديرلى Durreland Nassim (وهو نفس اسم دوريل) وساروا خلف جوستين إلى ما يمكـن أن نـسميه بـالحى الأصلى، المدينة القديمة التى يعود تاريخها إلى الحقبة التركيـة، وذلـك رغـم أن المدينةَ كلها أصبحت أصلية الآن. ويقع هذا الحى ما بين المنازل المهدمة والمفككة خلف شارع التتويج. "المشهد الذى اقتحمناه كان أصليا.. إذ كـان منـزل الفتيـات الصغيرات العاهرات هناك فى الظلام وهن يرتدين ملابس ليلية ساخرة، شـفاههن مطلية باللون الأحمر، وفتيات – لا تتجاوز أعمارهن عشر سـنوات يقفـن علـى قارعة الطريق، هذه البراءة الغريبة من الطفولة والتى تبرق مـن فـستان رائـع، تتعارض تعارضا بائنا مع الشخصية الهمجية لرجل من البحارة الفرنسية والواقـف فى منتصف الغرفة" ـــ هنا جاءت جوستين تبحث عن ابنتها المخطوفـة[١٣]. وقـد كان موضوع ضياع البنات قضيةً تثير الانتباه فى حياة دوريل، وتجده فى كتاباتـه يتحدث كثيرا عن موضوع غشيان المحارم أيضا، كما حمل اغتصاب طفولة بطلته جوستين إشارات إلى أحداث فى حياة "إيف".

بالقرب من مفترق الطرق لما كان يعرف بالمدينة الأوربية، دخـل دوريـل شارعا ضيقا، يسمى شارع شرم الشيخ، إحياءً لذكرى المدينة الواقعة على مـدخل خليج العقبة، والتى استولت عليها إسرائيل فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، لكن

هذا الشارع كان يعرف من قبل باسم "حارة ليبسوس ــ وهو اسم لعالم المصريات الألماني كارل ريتشارد ليبسيوس (١٨١٠-١٨٨٤)، وقد عرفه الأديب الإنجليزي "إي أم فورستر، هنا حيث بدأ التمجيد الأدبي لمدينة الإسكندرية، في رقم ١٠(وهو حاليا يحمل رقم ٤) في الطابق الثاني، وقد عاش قسطنطيس كفافيس آخر سنوات عمره من عام ١٩٠٧ وحتى بداية عام ١٩٣٣ وهي فترة نضجه الشعري، في شقة فوق بيت دعارة.

وقد التقى فورستر الشاعر كفافيس إبان الحرب العالمية الأولى في الصليب الأحمر بالإسكندرية: "لم يجل بخاطره قط أنني ربما أحببت عمله، أو حتى فهمته.. وأذكر بهجتنا، ذات ليلة معتمة في شقته، عندما بدا أنني كنت "التالي". عندما كان يشعر بالسعادة كان يقفز ويشعل شمعة، ثم أخرى، بل ويقسم السيجارة إلى نصفين وأشعل النصفين وقدم قطعة لبان مع كسرات صغيرة من الخبز والجبن، وحديثه كان يتمايل على عالم البحر المتوسط وعلى الكثير من الحياة الكامنة بداخله."(١٤) ومنذ ذلك الحين، فعل فوستر ما هو أكبر من أي شخص آخر ليجمع أعمال كفافيس، فقد ذكر بعد ذلك بسنوات قال بعد : "لم أقدم سوى القليل من أجل ذيوع شهرته. لقد كان ذلك هو أفضل ما فعلت تقريبًا"(١٥)

وفي عام ١٩٧٧، وجد دوريل أن شقة كفافيس تحولت إلى بنسيون صغير من النوع الذي ورد ذكره ووصفه في روايات الشرق الأوسط، على أنها شقة بسيطة وسيئة السمعة."(١٦) كانت الشقة تبدو بنسيون أمير، فعلى الرغم من حالتها الرثة، فقد كانت تحتفظ بظلال وأسرار منحت أحد ضيوف كفافيس انطباعات عن شقة سكنها "بطل من حكاية أسطورية من حكايات الكاتب الألماني هوفمان". (١٧) وفي رواياته، قدم دوريل مبلغ الإيجار إلى "بالتاسار"، غرفة أبلتها تقلبات الزمن، بها كرسي خيزران له صرير شديد مستمر طوال الليل، وهي المكان الذي تلا فيه

شاعر المدينة العجوز قصيدته "البربر" The Barbarians[١٨]؛ وقدم له أيضا نفس المدى المتسع من الحوار الذى وصفه فورستر فى بداية لقاءاته مع الشاعر بقوله: "تحدث بالتاسار Balthazar باستطراد (وهو شبه نائم) من نشاط عمون Ammon ملك مملكة هاربون Harpoon Kingdom ومعاركهم، أو الخمر المريوطية، والتى أشار إليها الشاعر الرومانى، وليس التاريخ، وجعلها سببا فى اعتلال مزاج الملكة كليوباترا.[١٩] وقد آلت الشقة مؤخرًا إلى القسم الثقافى فى القنصلية اليونانية، وتم تحويلها إلى متحف لتحقيق أهداف نبيلة، رغم أنه يجب عليك أن تنظر إلى الصور القديمة بها لتستعيد العبق العربى البيزنطى الذى كانت تتمتع به خلال فترة حياة كفافيس. فلون الجدران بين أحمر وبنفسجى زاه، وقد أعيد طلاؤها باللون الأبيض أو بلون فاتح، كما بدا مكتبه، وسريره، وبعض قطع أثاثه على قدر من الأناقة والترتيب فى غرف غير مناسبة، وبدا قناع موته يستند وسادته مثل كرنبة رائعة فى سوق فلاح.

كان كفافيس يخصص الصالون الأحمر الصغير المؤدى إلى الشرفة للخاصة من زواره، وفى هذا الصالون ذات مساء، رسم فورستر على قصاصات من كتاب مدرسى باليونانية، "يُتبع" "الرب تخلى عن أنطونيو" " The God Abondons Antony". القصيدة التى قُدر لها أن تصبح محور ارتكاز فى كتاب فورستر: "الإسكندرية: تاريخ ودليل "Alexandria: A History and a Guide"، تحكى قصة بلوتارك Plutarch فى تلك الليلة التى سبقت معركة أنطونيو الأخيرة ضد أوكتافيوس "سمع صوتا موسيقيا رائعا ينساب فى وسط المدينة باتجاه البوابة الخارجية، والتى تؤدى إلى معسكر العدو." [٢٠] لقد كان الإله ديونيسيس الذى أحبه أنطونيو وبادله الحب، ومر على طريق كانوبى نحو بوابة الشمس. وفى قصيدته، يستبدل كفافيس كلمة دايونسيوس أو هرقل فى مسرحية وليام شكسبير التى تحمل

عنوان "أنطونيو وكليوباترا " Antony Cleopatra بكلمة الإسكندرية، مشيرا إلى أنه كان بالمدينة دائما "قوة تشبه قوة الرب تنقل العقول الفانية مستخدمة تصورات شعرية لذاتها." (٢١)

وكان دوريل حينئذ يتبع الموسيقى الراحلة عن المدينة ناحية الشرق، والتى تتخذ نفس الطريق القديم الذى كان يعرفه باسم شارع فؤاد إلى كفافيس وفورستر بشارع "روزيتى، لكن تغير اسم الشارع أثناء حكم الزعيم "جمال عبد الناصر" مرة أخرى حتى أصبح يحمل اسم شارع الحرية، ثم سرعان ما جاءوا إلى شارع باستروديس، وهو المقهى الذى يذهب إليه نسيم وبلتزار لتناول مشروب عرق التمر، وذلك حسبما جاء فى رباعية داريل. وبدأت علاقة دوريل وإيف فى هذا المكان فى عام ١٩٤٣. وعن ذلك تقول إيف: "لقد أحسست وكأننى ممسوسة. وبهذه الطريقة أستطيع أن أقول= إننى لم أعد كما كنت، فلم يكن لدى ما أقوله فى الأمر. كان أمرًا محسوسا، كما أن لارى كان يحس به أيضًا مثلى، إذ كان غراما متبادلا. وهذا هو ما يسمونه "الحب من أول نظرة".

وفى مكان يبعد قليلا، وبالتحديد فى ٦٣ شارع الحرية أمام مبنى البلدية، تقدم دوريل بطاقم إذاعة الـ"بى بى سي" ومر على مبنى جميل من الشقق حيث كانت امرأة أخرى عاشت خلال تلك الفترة التى قضاها بالمدينة، وذلك على الرغم من أنهما لم يتقابلا فى الإسكندرية(٢٢)؛ وإنما مرت عشر سنوات بعد الحرب وقبل أن يتقابلا أول مرة فى قبرص بينما كان ما زال مشغولا فى كتابه جوستين Justine. ثم كتب إلى ميللر فى عام ١٩٥٦ يقول: "لقد أصبت بنوبة حزن شديدة، وفتور بعد رحيل إيف مع ابنتنا، والتى افتقدتها كثيرا، إلا أن الحظ ابتسم لى وأهدانى فتاة جميلة من فتيات الإسكندرية وقعت بين أحضانى ومنحتنى القوة الكافية للاستقرار والانتهاء من الكتاب.(٢٣)

كانت هذه الفتاة هى كلود فينسندون، زوجته الثالثة وعلى حد قوله: "أفضل امرأة تزوجتها [٢٤]"، وهى فتاة تنتمى إلى واحدة من أغنى وأشهر العائلات فى الإسكندرية. وقد طافا معا فى خيالاتهما أرجاء المدينة التى عاش بها من قبل مع إيف، ولكن من خلال كلود دخل مملكة إعادة الاستكشاف، حيث ساعدته ليعيد كتابة كل من المدينة وقصة حياته- تقول له: "أتعرف، يا ديرلى، أردت أن أقوم بعمل يشبه إعادة ترتيب المدينة لك حتى تستطيع أن تعود إلى الصورة لتراها من زاوية أخرى، فتشعر بالراحة والاسترخاء." [٢٥]

وانتقلا من قبرص إلى فرنسا ليعيشا فيها، هناك حيث كان إلهامها له هو السبب وراء استكمال رباعيات جوستين "Quatret –Justine" التى طبعها فى عام ١٩٥٧ إلى جانب كتاب بالتاسار **Balthazar** وكتاب مونتو أوليف "**Mountolive**" الذى طبع فى عام ١٩٥٨ وأخيرا كتاب كليا "**Clea**" الذى طبع فى عام ١٩٦٠ فى حين وضع الكثير من جوانب شخصية إيف فى روايته جوستين، وضع بنفس الطريقة الكثير من شخصية كلود فى عمله "كليا". كما أهدى لها الكتاب أيضا بقوله: اسمها هو "اسم الروح التى تحرسني". ويبدو هذا الإهداء كعبارة مقتبسة من ذلك المطبوع على المجلد الثالث بعنوان "**Mountolive**". [٢٦] ومع حلول أعياد الميلاد لعام ١٩٦٦، نُقلت كلود إلى المستشفى وشخّص الأطباء حالتها بأنها تعانى من التهاب بكتيرى يمكن أن تتعافى منه، وفى أول يوم من أيام العام الميلادى الجديد تُوفيت كلود على إثر إصابتها بسرطان الرئة، ورحلت كلود تاركة دوريل، حسب وصفه هو، "شاردا فى غموض هائل" [٢٧]، إلى الحد الذى خشيت أسرته من أن تتعرض قواه العقلية لمكروه.

وقبل شهرين من عودته إلى الإسكندرية فى عام ١٩٧٧، كان دوريل قد طلق زوجته الرابعة، السيدة غيسلين دى بويسون **Ghislaine de Boysson**، وهى عارضة أزياء فرنسية. لم يدم زواجهما طويلا، وقد اعترف دوريل بأنه كان زواجًا موصوفًا بسوء الاختيار من البداية، ولكنه أثر فى حالته المزاجية: "لقد مررت بسنة كئيبة، تضمنت وقوع الطلاق وكل ذلك." [٢٨] وبعد أن أصبح عمره خمسًا وستين

سنة وبعد أن أصبح وحيدا، عاد دوريل إلى المدينة التى شكلت حياته، وكانت قصيدة "المدينة"هى قصيدته المفضلة من بين قصائد كفافيس[٢٩] التى قام بترجمها ووضعها فى نهاية كتابه جوستين **Justine**.

أراد المخرج بيتر آدم من دوريل على وجه الخصوص أن يكتشف المنزل الذى قضى فيه حياته خلال الحرب، وبالرغم من أنه نسى العنوان، فإنه كان يعلم الطريق إلى الشوارع بما يكفى. ولكن قبل وصوله إلى بوابة الشمس المختفية، التفت لليمين إلى شارع نيروتسوس، ثم حول الإستاد وإلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القاهرة، حيث الدخول إلى شارع محرم بك المجاور فى جنوب المدينة، عندها وبالصدفة عثر على المنزل القديم رقم ١٧ (وهو حاليا رقم ١٩) بشارع المأمون.

تبدل حال دوريل واعترته حالة من السعادة والسرور، وأحس فجأة كما لو أن السنين لم تمر وأن عجلة الزمان قد عادت إلى الوراء، فصاح وهو يندفع إلى درجات السلم: "هنا جلسنا نتناول العشاء"، ثم قال وهو ينظر إلى الحديقة "وهناك، كان ذلك الإستديو الخاص بالسيدة التى تمتلك المكان، وهو الإستديو الذى كانت تعمل به "كليا"[٣٠]، وهو يتذكر أمليا آمبرون وصديقتهما كليا بادارو، الرسامة التى كانت أيضا نموذجا لشخصية كليا التى قدمها فى رواياته، ويقول: "بالتأكيد إنها أغرب مشاعر أجد فيها نفسى بعد نحو أربعين سنة مضت فى هذه الحديقة الغريبة التى يمتلكها مهندس معمارى إيطالى، وفى هذه الحديقة وفى البرج الصغير الذى قمت بإصلاحه فى سقف البيت ونظمت فيه قصيدة **Prospero's Cell** إلى جانب عدد من القصائد الأخرى فى عملى الصورة الشخصية **"Personal Landscape"**، وعشت سنتين ونصف السنة فى هناء وترف وحياة مرفهة فى الإسكندرية فى أثناء الحرب. وقد كانت فترة رائعة للكتابة، بمعنى أنه رغم ظروف الحرب كانت لحظات تطلق طاقات الفكر حول ما سوف تكتبه، فلا يوجد مستقبل مرتبط بأى شيء يفعله الإنسان. ولكن ربما يكون جيدا من ناحية كونه قد كثف حياة المرأ وأجبره على أن يؤدى ما يجب عليه فعله دوما، وتحديدا ألا يفكر فى أمر الغد، بل يعيش يومه فقط."[٣١]

تعاقبت الذكريات فى ذلك اليوم عليه، كما لو أنه فتح حافظة مليئة بالأوراق والصور والأغلفة، وتذاكر السينما، صورة التُقطت (لبواب مصر، "مثل عيش غراب ضرير يجلس على كرسيه"" [٣٢]: إلى جانب "أكوام من الأوراق القديمة أو تذكرة أوتوبيس أو تذكرة دخول متحف الإسكندرية ملتصقة بكتاب يروى حكايات السنين التالية حتى تتذكر أجزاء كاملة من أمور جديرة بالكتابة عنها" [٣٣]. ودعتهما السيدة "عفت ناجي" الساكن الحالى للمكان، التى ينظر إليها بيتر آدم على أنها ("شخصية بالغة الجمال والروعة" فهى مزيج يجمع ما بين آنيس نين Anais Nin وإسحاق دينزن ISAK DINESES)، [٣٤] دعتهما إلى لجتماع فى ذلك المساء، وتمتلئ غرفة الجلوس لديها باللوحات التى رسمتها هى وبعض اللوحات التى رسمتها كلى، التى تقول عنها لدوريل: إنها توفيت سنة ١٩٦٨ إثر إصابتها بمرض سرطان الثدى.

وسرعان ما شاع الخبر فى أنحاء الإسكندرية بأن الكاتب الشهير لورانس دوريل موجود بالمدينة. وفى عشاء آخر، دعا إليه أدهم نجيب وزوجته الإنجليزية تاليا فى فيلتهما المقابلة لنادى سبورتج، لاحظ بيتر آدم أن "لارى مثير جدا ومأخوذ بسحر وأناقة النساء الفرنسيات واليونانيات واليهود الأصليين، وهو ما يعتبر النتاج الحقيقى للإسكندرية الذين ورد ذكرهم فى الرباعية the Quartet [٣٥]. وقد انصب جُل اهتمام هؤلاء الأفراد على أن يعرفوا مِنَ المؤلف مَن هم الذين اشتركوا فى رواياته. يقول دوريل: "لقد كانوا مزيجًا رائعا "رغم اعتراف دوريل بأن مدى هذه الشخصيات لم يكن واسعا. ويتابع قوله: "فعدد الناس الذين يقابلهم المرء فى الحياة ليس بالكبير – أعنى الأفراد الذين يتركون بصمتهم عليك" [٣٦]. ثم ركز بصره على فتاة شعرها كستنائى غامق وعيناها لامعتان تفيضان حيوية، هذه الفتاة اسمها "لوسيان دَليل" وتنحدر من أصول يونانية أرمينية، وأضافها إلى مجموعة يعتبرها تحمل نفس صورة جوستين.

غير أن دوريل، الذى يكره المناسبات الاجتماعية، قد ترك انطباعا فى نفس الآخرين مفاده أنه لا يعيرهم أدنى اهتمام. إذ تعلق على ذلك تاليا بقولها: "لم يكن لطيفا بشكل خاص، ولم يكن لطيفا مثل بيتر آدم والآخرين معه"، بينما قال دوريل لآدم بعد ذلك: "إن جمال تلك السيدات يأتى نتيجةً لضعف فى نسبة ذكائهن، فهو أشبه بممارسة الحب مع قطعة كريم شانتيه(٣٧). وكان يعيد الحديث عن موضوع قديم، مثل قوله لميلر بأنه لم يكن هناك ما هو أجمل ولا أتفه خلال الحرب من الفتاة الإسكندرانية، ففراغهن هو دلال. تخيل أنك تمارس الحب مع فراغ". (٣٨) إلا أن موقفه من النساء كان شبيها باستجابته للإسكندرية، إذ كان موقفا مليئا بالتناقض والتضاد دائما، كما كانت إشاراته لا تضيف كثيرا عن اللحظة، بل كانت تشير إلى الكثير من خيبة أمله فى الحياة فى علاقاته بالسيدات اللاتى كن يتركنه أو يمتن بين يديه ويتركنه يغوص فى بحر الأحزان.

وبعد خمس سنوات من عودته للمدينة، تحديدًا عام ١٩٨٢، كتب دوريل فى مقدمته للطبعة الأولى لكتاب فورستر: الإسكندرية: تاريخ ودليل " Alexandria : A History and a Guide" يقول "لقد غاصت الإسكندرية ثانية فى غياهب النسيان، ولا بد أن يُغفر لى إذ وجدت أن المدينة الحالية كئيبة ولا تحتمل."(٣٩) ولكن حينما كان هناك، بدا له وكأن الإسكندرية ما زالت صورة تترجرج. وبعد لقائه بلوسيان، كتب إلى ميلر بأن للإسكندرية فضلا عليه فى أنها آوته إلى جوستين، لتثبت بأن شجرة الورد العجوز لا تموت" (٤٠) وعلى ظهر الصورة كارت لسيسل كتب عليه لصديقه القديم، آلان توماس، فى لندن يقول: "ما أدهشنى كثيرا هو أنه لم تحدث الكثير من التغييرات على مدينة كفافيس وما فيها، كل نواحى التناقضات الساحرة حارة جدا بالجنس، مثل شريحة لحم مشوية، صورنا فى حديقة مهجورة من الأمبرونز حيث قضيت آخر سنتين من سنوات الحرب – وهو جمال شعرى غريب

أشبه بفيلا كليوبولوس فى جزيرة رودسRodes، آه من غدر الذاكرة، لقد نسيت كثيرا من جراء كتابته!"[٤١]

لم يكن دوريل وحده هو الشخص غير الحاسم فى استجابته تجاه الإسكندرية، بل كانت تلك سمة يتصف بها كفافيس وفورستر أيضا. ولكن المدينة كانت تطاردهما، فالمدينة العالمية قد أعيد تشكيلها على خيوط هشة من الذاكرة. وعلى عكس مدينة روما أو أثينا وما تحويان من آثار عديدة، فإن مدينة الإسكندرية تحمل الكثير من الخصوصية، فيها (بعض الأماكن) مثل قبر الإسكندر الأكبر، كما أنها المدينة التى شهدت قصة الحب بين كليوباترا وأنطونيو، وهى المدينة التى توجد بها مكتبة الإسكندرية، والقيصرية وغيرها من الأماكن - ولم يتبق شيء تقريبا على نحو مادى هناك. ولو كانت الكثير من الآثار قد بقيت بها إلى يومنا هذا، لما كانت لتلح عليك بهذه الصورة، وإنما الخيال يتركك للأحلام، وتصير الأحلام بالنسبة للبعض ملموسة ومحسوسة وحقيقية - "فالمدينة التى نتصورها (وإن كانت كلها حقيقية)، تبدأ وتنتهى فى صدورنا، وتستقر جذورها فى ذاكرتنا". [٤٢]

أما الجذور فترجع إلى الحضارة الغربية ذاتها، إذ أتى على مدينة الإسكندرية زمان كانت فيه مركز العالم الهيلينى، كعبة الفنانين والشعراء والعلماء يقصدونها من كل أنحاء دول البحر المتوسط، وتجذبهم إليها الرعاية الملكية للبطالمة وسط بيئة من اليونانيين واليهود الهيلينين وكذا المصريون. فكثيرا ما كانت تحمل فنونهم مرحا ودعابة، وكانت صورهم التى أصبحت بالية فى الوقت الحالى، صورا أصيلة فى ذلك الوقت، إذ كانت تحمل كما يقول فورستر: "حركات سريعة ومشاهد وعيون، وأثداء وصدور، كلها نشأت فى الإسكندرية"، كما فى المقطع الشعرى المزين للجدران الذى يحمل تلميحات وإشارات تصف أحد أمناء المكتبة الأوائل بالتالى:

"من الذى نحت الحب وأقامه بجوار الحوض،

ظانا أنه بالماء سيطفئ مثل هذه النيران؟(٤٣)"

لقد احتفظت المكتبة بالتراث الأدبى لليونان ومنحت الوظائف لأعظم شعراء العصر الهيلينى: نذكر منهم على سبيل المثال ثيوقريطيس والذى وصفه خلفاؤه بأنه هوميروس مرسم الإسكندرية، والذى أظهرت قصيدته الرعوية الخامسة عشر صورة حية للحياة اليومية فى المدينة، وكذلك الشاعر أبوللونيوس **Apollonius** من جزيرة رودس والذى مثل نموذجا للشاعر الرومانى فيرجيل والشاعر كليماخوس **Callimachus** الشهير بقصائده الساخرة والذكية، والشهير أيضا ببعض قصائده الأكثر تأثيرا والمكتوبة باللغة اليونانية.

وكان المتحف، الذى كانت المكتبة جزءًا منه، بمثابة إسهام فكرى بالغ الروعة للبطالمة، فقد كان المتحف يضم قاعات كبيرة وفسيحة للمحاضرات، ومختبرات علمية ومراصد فلكية، وصالات للطعام، وحديقة عامة وحديقة حيوان. لقد كان المتحف فى الإسكندرية أشبه بجامعة، إلا أن أساتذته وعلماءه وأدباءه كانوا يقدمون على التعليم فى المتحف طواعية. وكان من بين الرياضيين والعلماء الذين تعلموا فى ذلك المتحف، العالم الرياضى إقليدس الذى أثبت فى نظرياته الرياضية وفى الهندسة المستوية والفراغية الكيفية التى يمكن من خلالها توليد المعرفة من الطرق المنطقية وحدها، كما كان العالم إراتوستينس **Eratosthenes**، الذى حدد قطر الأرض، من العلماء الذين حضروا إلى متحف الإسكندرية، وكذلك العالم الفلكى أرستاخوس ساموس **Aristarchus of Samos** الذى سبق الفلكى "كوبرنيكوس بنحو ١٨٠٠ سنة، وهو صاحب نظرية مركزية الشمس للكون، إلى جانب الطبيب إيراسيستراتوس **Erasistratus** الذى كان قد أوشك على اكتشاف الدورة الدموية وكان أيضا أول من قام بالتمييز بين أعصاب الجهاز الحركى والجهاز الحسى.

فيما بعد، وخلال العهد الرومانى، ازدهرت الفلسفة ، حتى إن الأفراد هنا، هؤلاء القاطنين بين الصحراء والبحر، بحثوا فى قضايا الكون بطريقة لم يعهدها أحد فى مصر من قبل، وذلك رغم أنهم لم يشككوا فى وجود إله للكون كما فعل الفلاسفة السابقون فى اليونان. وهكذا نشأت فى الإسكندرية وتطورت بها العديد من المسائل الفلسفية التى كان من بينها الأصول اللاهوتية للمسيحية المبكرة ومحاولة الربط على المستوى الفكرى بين ما هو بشرى وما هو إلهى من خلال الأفلاطونية، أو الربط على المستوى الروحانى من خلال الحب.

ولقد ساعدت جيوش كثيرة قبل الغزو العربى لمصر فى عام ٦٤٠-٦٤٢ على تدمير ما تحمله المدينة من حيوية، إلا أنه بالتأكيد على مدى ما يقرب من ١٢٠٠ سنة، تراجعت المدينة كثيرا، فأصبحت قرية بائسة يقطنها خمسة آلاف نسمة عندما رست سفن نابليون على سواحل المدينة على مقربة منها عام ١٧٩٨. ويعتبر حفر ترعة المحمودية فى عام ١٨٢٠ فى عهد محمد على هو الأمر الذى أعاد الحياة إلى الإسكندرية من جديد. ومحمد على، كما نعلم، هو الحاكم الطموح والمغامر العثمانى الذى كان ميالا للحضارة الغربية والذى ينحدر من شمال اليونان، ونصب نفسه حاكمًا على مصر بعد أن أُجبر نابليون على الانسحاب من أمام نيلسون. فقد أسهمت الترعة التى تربط بين نهر النيل وبين ميناء المدينة الغربى فى توفير مدخل للإسكندرية مع الإمكانات المعاد ترتيبها للمناطق العليا من مصر، كما أعادت مصر إلى المواجهة مع البحر من جديد. وبهدف جذب رؤوس الأموال والخبرات الأجنبية، منح محمد على أراضى لليونانيين والإنجليز والفرنسيين والأرمن والجاليات الأخرى فى قلب المدينة الجديدة فى توزيع الأراضى لتشجيعهم على الاستقرار. وقد عمل محمد على على توسيع الميناء الغربى الخاص به حتى جعله أكبر موانئ البحر المتوسط. وفى خلال قرن من

الزمان، تضاعف سكان الإسكندرية حتى وصل إلى نحو نصف مليون نسمة، وهو نفس العدد تقريبا الذى كان موجودا فى عهد الملكة كليوباترا. وكان أغلب هؤلاء السكان من اليونانيين والإيطاليين، هذا إلى جانب اليهود والسوريين واللبنانيين وغيرهم ممن غرسوا جذور عائلاتهم هناك. وعلى هذا النحو، فإن جميع ما يعرف حاليا بوسط الإسكندرية والساحل الشرقى باتجاه حى المنتزه، كان قد أصبح موطنا عالميا.

وقد أدت الاستثمارات البريطانية والفرنسية فى إنشاء قناة السويس، التى تم افتتاحها للملاحة الدولية فى عام ١٨٦٩، إلى تزايد الاهتمام الأجنبى بالبلاد، وخصوصا بريطانيا التى كانت مهتمة بها لتأمين طريقها إلى الهند. وفى عام ١٨٨٢، قاد الزعيم أحمد عرابي[٤٤]– وهو مصرى عمل وزيرا للجهادية (الدفاع الآن) – ثورة شعبية ضد حكومته، عارض فيها ميولها باتجاه تركيا وأوروبا. واندلعت الثورة فى الإسكندرية، وقُتل فيها ما يربو على المائة والخمسين فردا من الأوربيين، فرد الأسطول البريطانى على ذلك بقصف حصون ميناء الإسكندرية، فأدى هذا القصف إلى اندلاع عدة ثورات أخرى أدت إلى حرق جزء كبير من المدينة الأوربية. وعندئذ دخلت القوات البريطانية إلى مصر وتمت هزيمة أحمد عرابى، والبلد، رغم أنها من الناحية الوطنية تخضع للمصريين– أو بالأحرى تخضع فى الأساس لأبناء وأحفاد محمد على وأتباعه وخصوصا الطبقة الأرستقراطية من الأتراك الشراكسة – الذين أصبحوا "يشكلون موضع اهتمام خاص لبريطانيا"، وسرعان ما أُعطى لهم نفوذ أكبر بعد اندلاع الحرب فى عام ١٩١٤، عندما تم إعلان الحماية البريطانية على مصر. وبعد إلغاء الحماية البريطانية فى عام ١٩٢٢، تم إعلان استقلال محدود لمصر ولكن لم تحصل البلاد على الاستقلال الكامل إلا عام ١٩٣٦، بل وحتى فى ذلك الوقت كان الوجود

العسكرى البريطانى مستمرا فى صورة تحالف مدته عشرون عاما. وتعتبر فترة نصف القرن من الزمان، أى ما بين عامى ١٨٨٢ وبين عام ١٩٣٦، هى ذروة نجاح مدينة الإسكندرية العالمية فقد امتدت فرص التعايش معا - والزمن يساعد فى الحافز على التعايش- بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية.

ولقد مات كفافيس قبل النهاية، رغم أن رسالة الانهيار والنهاية فى أشعاره كانت توحى بذلك، ظن فورستر أن مستقبلها "شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن التجارية الكبرى مستقبل تحوم حوله الشكوك"(٤٥). ومع مرور الوقت، أكمل دوريل **The Alexandria Quartet** "رباعية الإسكندرية". ويقول: "خرجت إلى الشارع وفى نفسى ابتسامة، مرة ثانية لكى أشكل دائرة فى الحى الذى كان لا يزال ينبض بالحياة الواقعية الساخرة للرجال والنساء... تمهلت فى خطواتى مستغرقا فى أفكارى أحدث نفسى بعبارات هذا الحى الكامل من الإسكندرية، إذ إننى كنت أعلم أنه سيطويه النسيان عما قريب ويعود لزيارته أفراد تأسرهم الذكريات التى عاشوها فى هذه المدينة، هذه الذكريات العالقة فى أذهان كبار السن مثل بقايا عطر على كم الجاكت: إنها الإسكندرية عاصمة الذكريات"(٤٦).

لقد عرف كفافيس وفورستر ودوريل جميعا ذلك العطر: "تنشقت عبير الصيف الدافئ الذى يفوح من جسدها وفستانها - العطر الذى سميته "أبدا فى هذه الحياة **Jamais De La vie**"(٤٧)، ولا أدرى لماذا سميته كذلك. وعلى أساس كونى مأخوذا تارة بالفشل وتارة بالعظمة، كنت أسمع لبرهة رنينا ما بين المدينة العالمية المعاصرة وتلك المدينة التى أنشأها الإسكندر الأكبر منذ زمن بعيد على هذا الشاطئ الأفريقى.

لقد تلاشت المدينة الكوزموبوليتانية هذه الأيام ولم يبـق منهـا أى تـاريخ رسمى، ولم يبق من وثائقها إلا بعض القصائد وبعض الروايات وبعض الـذكريات وبعض الكتب السياحية والرسائل الجامعية. إلا أنه رغم ذلك يوجد أيـضا رسـائل ويوميات وكذلك شهادات شفهية لشهود عيان بالمدينة على ما شهدته حياة المدينـة وهناك الشوارع وخطوط الترام وأساليب العمارة المتفككة للمدينـة ذاتهـا، كلهـا تستعيد ما قد مضى.

الفصل الأول

تـــــرام

أتينا إلى الإسكندرية فى نفس الوقت، ولكن كان هذا قبل عامين من توطـد صداقتنا. رأيتك أول مرة فى ربيع عام ١٩١٦ عندما كنت أقف مـع فـورينس فى "أبو النواطير". كنت فى ترام "باكوس" بشريطه الأزرق، رفعت عينى عن الأرض عند مرورك بى، "رائع" هكذا ظننت، وكان الصباح منعشًا ومشمسًا."

(من خطاب "إى إم. فورستر" إلى "محمد العدل "فى سبتمبر ١٩٢٢[١])

كان الأديب الإنجليزى إى إم فورستر يقيم فى الإسكندرية، خلال معظم فترة الحرب العالمية الأولى، نبت الحضارة الأوربية يترعرع فى رفاهية على الساحل الأفريقى، لقد كان يشك فى أنها تمثل بالنسبة له ملاذًا آمنًا من الخوف[٢]، ولكنه قدم إلى المدينة وهو يحمل معه عقلاً يحمل أعمق أحداث عمره الجسام، هنـاك قابـل شاعرًا يونانيًا تسمه الحكمة ورقة المشاعر[٣]. رجل كان يرى التاريخ مجالاً خصبًا لأفكاره وخياله، وفى وقت كانت الإسكندرية بالنسبة له ملاذا آمنا ونقطـة ارتكـاز وأداة يفتح بها طلاسم الحاضر فى خضم الكارثة التـى تجتـاح القـارة الأوربيـة وتستأثر بالاهتمام الأكبر، "أدركت تمامًا سحر المدينة وعبق التـاريخ وغموضـه وقررت أن أكتب عنها" كتيبًا إرشاديا يتحدث عن نفسه[٤]، ولكنه لـم يكـن كتيبًـا عاديًا، بل كتيبًا يساعدك على أن تُعلم الطريقة التى تُحب بها، وربما لم يكـن هـذا الكتاب ليُكتَب أبدًا لو لم يجد فورستر لأول مرة فى حياته الطريـق إلـى الحـب والمجون فى الإسكندرية.

كان إدوارد مورجان فورستر Edward Morgan Forster فـــى الـــسادسة والثلاثين من عمره عندما رست سفينته في ميناء بورسعيد يوم ٢٠ نوفمبر ١٩١٥، ثم ركب القطار عبر الزقازيق وطنطا ودلتا نهر النيل متجها إلى الإسكندرية، كـــان يتوق لرؤية مصر، ولكن خاب رجاؤه. فالمناظر الطبيعية للريف تبدو كأنهـــا هـــى ذات المناظر التى رآها فى طريقه من كامبريدج إلى سيرى، والأثر الـــذى تتركـــه مناظر المحاصيل والترع والأشجار.. فتصوير المناظر مختصر من قصص ألـــف ليلة وليلة "لرجل زار الهند، بدا الأمر مثيرا للغيظ، فالشرق الحقيقـــى يبـــدو دائمًـــا محجوبًا فى ركن قصى ترفرف حواشى ثوبه الرقيق بعبير غامض. (٥)

قبل ثلاث سنوات زار "فورستر" الهند. كانت رحلة لتلـــك الـــبلاد قـــصيرة استغرقت خمسة أشهر ووصفها بأنها زيارة مكلفة جدًا، وإن كانت زيـــارة ممتعـــة ومريحة طوال حياته، عندئذ سافر وهو فى لهفة شديدة لرحلـــة مثيـــرة للحـــواس وللطريقة التى أعد بها الرحلة "سيد روس مـــسعود"، وهو شاب غير متحفظ يفيض عاطفة قوية كان قد التقاه فى إنجلترا فى عام ١٩٠٦، كان ينتظر أن يسلك طريقه إلى أكسفورد، وقد تعهد "فورستر" أن يعلمه اللغة اللاتينية، وبدلاً مـــن ذلـــك فإنـــه أدخل البهجة على قلب أستاذه بأقاصيصه عن عظمة المغول فى الماضى، يتـــذكر "فورستر": "لقد أخرجنى من ضيق الحياة فى الحى الذى أسكنه والحياة الجامعيـــة، لقد فتح آفاقا جديدة أمامى، وتعرفت على حضارات جديدة، كما ساعدنى فى فهـــم قارة بأسرها" (٦)، وكتب "فورستر" فى يومياته يقول "لقد تزامن ذلك مـــع مـــشاعر حب جارفة أحسست بها تجاه مسعود، رغم عدم يقينى بأن هذه المشاعر متبادلة إلا عندما تلاقينا بعد غياب طويل فى يناير عـــام ١٩١٣ آه..آه.. آه.. وكـــان اللقـــاء ممتزجًا بالدموع". (٧)

سبقت زيارته للهند إصدار عدة روايات ناجحة منها "حيث تخاف الملائكة أن تحط" Where Angels Fear to Tread التى صدرت فى عام ١٩٠٥، والرحلة الأكثر امتدادًا The Longest Journey وصدرت فى عام ١٩٠٧، وغرفة تطل على مشهد A Room with a View "التى صدرت فى عام ١٩٠٨، ثم كتابه نهاية هواردس " Howards End الكتاب الذى كان سببا فى شهرته الأدبية وصدر الكتاب فى عام ١٩١٠، ثم تبع ذلك فترة مجدبة لم يبدع شيئا جديدا، وتفسير ذلك هو ما قاله "فورستر "فى مذكراته فى ١ نوفمبر ١٩١١ كتب يقول: "فى الليلة الأخيرة كنت وحيدًا وانتابتنى ثورة شيطانية عارمة تجاه أمى لتذمرها الدائم منى وتصيدها لأخطائى، رسمت صورة قلمية قمت فيها بسحب رف الموقد بذراعى واندفعت خارجًا أو قطعت عنقى، بعدها كنت أرتعش غارقًا فى دمائى، كتبت ذلك على أمل أن أتبين كم هى سخيفة ومن ثم أرفض التسليم بقبولها مرة أخرى،(٨) كانت محاولة وحيدة كتفسير لذلك فى أوائل العام التالى وذلك عندما حل شهر نوفمبر الماضى، أدعى أنه لم يكتشف مطلقًا، ولكنه اكتشف بعدها بشهور أن ٣١ أكتوبر هو ذكرى وفاة والده. فبعد ولادة "فورستر" بعامين وفى ١ يناير ١٨٧٩ توفى والده بعد صراعه مع السل فى "بورن ماوث" تاركًا أرملة فى الخامسة والعشرين ترعى يتيما وحيدًا وتغدق عليه عاطفيًا وبدون مشاكل مادية، كان ذلك هو أساس العطاء المتبادل والذى سيلعب دورًا حيويًا فى حياة "فورستر".

الرواية الشرقية التى بدأها فورستر بعد عودته الحزينة من الهند، والتى شرع فيها باسم A Passage to India فى عام ١٩٢٤، إذ كان يتعثر فى كتابتها مع نهاية عام ١٩١٣.

وبدلاً من ذلك بدأ فى كتابة روايته "موريس Maurice" والتى يدافع فيها عن العلاقات المثلية وينادى بقبولها، ومدافعًا عن شخصية "موريس" لصديق له ينتقده كتب "فورستر" يقول: "إن الرجل الذى أقدمه فى كتابى يتكلم بالكاد، طيب إلى حد

كبير ولكن المجتمع يسحقه، فهو يعيش حياته متخفيًا وخائفًا يتحمل أعباء هائلة من الشعور بالذنب... لا بد أن تلوم المجتمع بدلا من لوم موريس، وكن راضيًا عندما يكون رجل ما – حتى فى رواية- قادرًا على أن يعيش حياته كأفضل ما يستطيع!... إن دفاعى الأخير فى أى محاكمة نهائية على لسانه سيكون "أننى حاولت جاهدًا تجميع شتات حياتى مُستخدما كل المزايا والمساوئ التى ولدت بها".(٩) ولكن آماله التى كانت تتجسد فى أن نشر كتاب "موريس" يمكن أن يعيد شحن بطاريات الإبداع لديه كان يحد منها إدراكه أن هذه الرواية لا يمكن نشرها حتى يموت هو أو تموت إنجلترا.(١٠)

لم يمر الكثير من الوقت حتى قامت إنجلترا بغزو بلجيكا، وفى يوم ٤ أغسطس ١٩١٤ أعلنت إنجلترا حالة الحرب. وكما كتب المؤرخ العسكرى "تيريان": "كل اعتراضات محبى السلام، وكل الباحثين عن الأمان، وكل آمال الحرية تبددت، فلقد بدأت الحرب العالمية الأولى، ومعها بدأت كل عمليات التغير الضخمة والخاطفة والمخيفة التى عرفها الإنسان".(١١)

كتب فورستر لصديق له بعد نشوب الحرب بشهور قليلة يقول متنبئًا: "لا تستغرق فى الرومانسية، أو تفترض أن قوميات صغيرة ومزدهرة مآلها إلى زوال، أيا كان من يكسب الحرب، فإن نتيجتها هى هزيمة الحضارة فى أوربا"، ثم أردف مؤكدًا "الأمر سواء، أنا واثق من أننا لم نكن نستطيع أن ننأى بأنفسنا عن الحرب"؛ لأنه كان يعتقد أن هجوم الألمان على فرنسا من خلال بلجيكا يمثل تهديدًا مباشرًا للأمن فى إنجلترا وكان مقتنعًا بصحة قرار إرسال الكثير من القوات المُدربة عبر القنال الإنجليزى.(١٢)

لقد تحطم حلم الحرية، ولكنه كان يظن أن الأمر لا يجب أن يصل إلى هذا الحد، عندما كتب "فورستر" قبلها بأربع سنوات فى كتابه "Howards End" إذا

تكررت ملاحظات معينة بدرجة كافية لتصبح حتمية التحقيق، كالملاحظة التي تقول: "إن إنجلترا وألمانيا تتجهان إلى الحرب"، في كل مرة كان يُعطي الكثير من اهتمامه للحرب [١٣]، ولما أصبحت الحرب حقيقة واقعة حل به اليأس واعتبر هذا الأمر نصرًا للغوغائية. لم يكن هناك تجنيد إجباري بعد، و"فورستر" لن يتطوع للجندية، صحيح أنه لا يعتبر نفسه فوق مستوى عامة عوام البشر ولكنه لن يسلم نفسه لهذه الهستريا السائدة والخضوع التي تقابل بها من العامة والتي تقوم بسحق القيم الفردية تحت الغرائز الجامحة للدهماء. ولكن وعلى النقيض من رفاقه في "كامبريدج" و"بلوم سبيري" والذين كانت عواطفهم ضد الحرب، ولكنهم يتعللون بأنه ليس في وسعهم أن يفعلوا شيئًا حيالها، كان "فورستر" يشعر أن الأمر يعنيه، فلقد كتب في مذكراته بتاريخ ٤ أغسطس "أشعر أن الحرب قد نشبت بسببي، فإذا مُت فإنها ستتوقف، ولكنها مستعرة لتعطيني بعض الخبرات إذا ما كنت مؤهلاً لاقتناصها".[١٤] وكاستجابة للإحساس بالفشل الذي كان يكتنف العالم الذي يعرفه كما كان يشمله هو في حياته الشخصية والأدبية كان قد عقد العزم على أن يجعل نفسه مفيدًا على الأقل وحصل على وظيفة كمفهرس بالإضافة إلى وظيفة مؤقتة كمسئول للدفاع المدني في المتحف الوطني، حيث كان يتم حفظ أكثر اللوحات قيمة، وقال لأصدقائه: إنه إذا مات ضربًا بالقنابل فإنه سيموت على وجه ملائم محاطًا بتحف فنية من الدرجة الثانية.

لقد كان شبه ميت بالفعل، قال يصف حياته في منزل والدته في سيري في أغسطس ١٩١٥: "إنني أعيش حياة فتاة صغيرة طالما كنت مقيدًا بالمنزل، إنها لا تشبه أيضًا التوقف عن الكتابة لأدخل السرور على قلب أمي، فهي تريدني أن أكون في الخامسة من عمري مرة أخرى، ولذا فإن الشعور بالسعادة أمر مستحيل بالنسبة لها".[١٥]

تصاعدت حدة الحرب فى إنجلترا، مع تزامن الوزع الدينى والتعطش للدماء مما أصاب "فورستر" بالإحباط، وكان واثقًا أن ذلك سيقوده فى النهاية إلى الجنون التام، وقرر فى النهاية أن كل ما يمكن أن يفعله المرء فى هذا العالم الذى أصابه الجنون هو أن يأخذ بيد الفقراء المعذبين والمطحونين فى محاولة منه لتخفيف آلام الحياة عليهم(١٦)، كان يفكر فى الالتحاق بفرقة للمُسعفين المتطوعين فى إيطاليا، ولكن أمه كانت خائفة عليه من أخطار هذا العمل، وبدلاً من ذلك فإنه قام بتسجيل اسمه فى فرقة للصليب الأحمر بالإسكندرية كباحث عن المفقودين يقوم بسؤال الجنود الجرحى عن رفاقهم الجنود المفقودين.

وعلى الرغم من أنه مدنى ولم يكن عسكريًا فقد ارتدى الزى الكاكى، وتحمل حياة الجنود القاسية، ومع ذلك كان عليه أن يقوم بتدبير شئون طعامه وحياته عموما. استأجر حجرة فى فندق "ماجستيك" الذى تم بناؤه على طراز حديث ويطل على الحدائق الفرنسية التى تمتد شمالاً من قصر محمد على فى قلب المدينة، ويقول كتيب الفندق فى ذلك الوقت: "إنه يحتوى على كل وسائل الراحة والرفاهية الحديثة" (١٧)، كان الدخول إلى فندق "ماجستيك" من شارع "رو دى ليجليس إيكوسيي" والذى كان يمتد بطول الجانب الشرقى من الحدائق مارا بكنيسة القديس أندرو والقنصلية الفرنسية إلى الميناء الشرقى، بينما يقع على أقصى الركن الشمالى للفندق شارع "تيمبل مينييس"، وسمى باسم المعبد الذى تم بناؤه فى عام ١٨٧٣ بتمويل من "يعقوب ليفى مينييس". وما أن استقر فى الفندق كتب لأمه رسالة يطلب أن ترسل له بودرة كولينوس لتنظيف الأسنان، وأضاف "لا يمكن للمرء أن يكره الإسكندرية... لأنه من الصعب أن يكره البحر أو الصخور، ولكن فى حدود علمى لا يوجد شيء آخر فى المدينة حتى الآن، إلا أنها مدينة نظيفة تضم بشرا من جنسيات شتى ومياه بحرها زرقاء".(١٨)

تغيرت أسماء الشوارع، والحدائق، فما كان يسمى "**بليزينت ستريب** (**الشريط البهيج**) **Pleasant Strip**" فى عهد "**فورستر**"[١٩] أصبح الآن "**ميدان عرابي**" توجد فيه محطات الترام بطول الشارع، أما فندق "**ماجستيك**" فقد تغير اسمه وشكله تماما، وتم تحويله إلى مكاتب تجارية. مدخله مظلم، تتناثر حوله أكوام القمامة كما كان مأوى للعاطلين الكسالى، وخلفه مصعد محطم أشبه بالمشنقة، معطل دائمًا أو معلق بين طابقين، ولكن الصعود إلى طبقات المبنى عن طريق سلالم درجاتها قديمة ومتهالكة ترتفع بك إلى الطوابق العليا وطرقاتها الشاهقة ونوافذ الردهات بدون زجاج، وحجرات واسعة ضخمة، لا معنى لحديثك مع السكرتيرات الصغيرات المحجبات ورغم ذلك من المظاهر التى تحيط بهن لن تجد شيئا حولهن يذكرك بأن هذا المبنى كان من قبل فندقًا ساحرا، ولا يمكن أن يفهمن رغبتك فى أن تنظر من الشرفة للتمتع بمشاهدة المناظر المحيطة. لقد حدث تغير كبير فى الإسكندرية فى المظهر وفى طبيعة سكانها وتاريخهم الذى ينفصل عن تاريخ المدينة ذاتها.

عزم "**فورستر**" فى بادئ الأمر على البقاء فى الإسكندرية ثلاثة شهور، ولكن مدة إقامته امتدت لأكثر من ثلاث سنوات، أكثر من مجموع زياراته للهند قبل وبعد الحرب. ومثال للتطور الذى طال فندق "**ماجستيك**" هو العدد الكبير من الأحياء العصرية لمدينة الإسكندرية التى عاش فيها "**فورستر**" إذ يمكنهم تتبع رحلة التطور الذى حدث للمدينة حتى اليوم، إنها رحلة تقليدية.

كتب منذ عقد مضى يقول فى "**A Room with a View**": "لقد سئمت يا سيدتى لوسى، أرجو أن نحررك يوما من أسر الكُتيبات السياحية الإرشادية، إنها تُرشدكِ بالطبع، ولكنها تلمس سطح الأشياء فقط دون جوهرها. [٢٠] أن تسافر بدون دليل سياحى فأنت تخاطر بعدم التعرف على "**الجيتو** إذا صادفتك واحدة منها ولكن لن تتاح الفرصة لمصادفة الفروق الثقافية والاجتماعية غير العادية بالنسبة لك، ربما لحسن الحظ يمكنك أن تقابل شخصًا مريبًا أو شخصا يمكن أن تُحبه من حيث لا تقصد، وكلتا الحالتين حدثتا مع "**فورستر**" إبان وجوده فى الإسكندرية.

كانت أولى انطباعات "فورستر" عن الإسكندرية وكما روتها أمه انطباعات متحفظة وثرية إذا ما قورنت بدراسة نشرت فى عام ١٩٠٩، فكل الاهتمامات العلمية والفنية والهندسية يتم خنقها بأنشطة المدينة التجارية الشاقة، وتؤكد صراحة أن الشئون التجارية، وحالة التجارة، وحركة الأسهم والسندات كانت من أساس المناقشات اليومية فى الأندية والشوارع وأرصفة السفن وفى عربات الترام والقطارات، وباختصار فإن كل مكان فى هذه المدينة كان يشتهر بأنه كان مكانًا للصراع بين الديانات والأعراق والعداء الشديد للآخرين وأنها الآن مكرسة بالكامل لعبادة الآلهة الجديدة المتمثلة فى المال، الذى يستغرق معظم جهود وتكريس أتباعه.(٢١)

لم يكن اهتمام السائحين بالإسكندرية وافرًا، "كانوا يصلون إلى الميناء الغربى وبعد أن تطأ أقدامهم الأرض يهرولون إلى القاهرة حيث الشمس المشرقة والأمطار الخفيفة وهناك الكثير الذى يمكن مشاهدته. وهناك أيضا يقل الكلام عن التجارة والأعمال." لا يقيمون فى الإسكندرية لدراسة الفن الإغريقي- المصرى، ولكن بعد قضاء يوم واحد فى شارع "شريف باشا" يهرعون إلى الجنوب، ولذلك فإن الإسكندرية كئيبة فى الشتاء وهو موسم السياحة لمصر، أما فى الصيف فإن القاهرة لا تطاق حيث الحرارة الشديدة، كما أن الآلاف من الطبقات الثرية فى القاهرة اعتادوا على قضاء شهرين أو ثلاثة أشهر على شواطئ البحر المتوسط، ومن ثم فإن ذلك يكون موسم المرح لهؤلاء المصطافين وللإسكندرية أيضًا، ولكن حينما ينفق السياح بسخاء فى المدينة فإن هؤلاء المصطافين لا ينفقون كثيرا لأنهم يعرفون الأسعار السائدة. وعادة يكون المصطافون من كبار الموظفين الذى يقضون بضعة أيام إجازة من أعمالهم فى القاهرة، وبعض رجال الأعمال الذين لا يستطيعون السفر إلى أوروبا، وبعض الفئات من أهل المشرق والذين يعودون إلى

القاهرة أكثر ثراءً، وعندئذ وحتى ولو كانت وسائل الترفيه نادرة فإن الاستحمام فى البحر هى وسيلة الترويح الرئيسية المتاحة.

وتطرح هذه الدراسة رأيها فى أسى وتقول: "إن كان هناك أمل فى التخلص من هذه المادية المقيتة والملل فمن خلال استكشاف آثار الماضى، وفى أعقاب أفول القرن الماضى تم الكشف عن أثر تحت الأرض لحمار يرعى فى العشب بالقرب من "عمود السواري"، وأسفر ذلك عن الكشف عن مقابر كوم الشقافة الحقيقية، حيث قدم أبرع النحاتين براهين ساطعة فى أعمالهم الفنية فى المزج بين المعتقدات الكلاسيكية والمعتقدات المصرية القديمة وبفضل هذه الاكتشافات، يمكن فى غضون سنوات أن تكون مدينة الإسكندرية مدينة تجارية كما تكون مدينة أثرية وفنية أيضا." (٢٢)

فى الحقيقة إن أهل الإسكندرية قانعون بتجاهل السياح لمدينتهم وذلك لإحساسهم بأنهم ليسوا جزءا من مصر، فأحيانا يقومون بزيارات إلى القاهرة بغرض التجارة أو لأى أمر من الأمور السياسية، ولكنهم كانوا يزدرون ما يلاقونه من عنت فى سبيل البحث والوصول إلى مكان ما فضلاً عن مظاهر حداثة النعمة فى العاصمة. إن الإسكندرية مدينة لم يشيدها العرب، كما لم تكن مقرا للحاكم البريطانى فى مصر ولكن الجاليات الأجنبية تكاتفت فيما بينها – رغم تنوعها الدينى والعرقى – فى بناء مدينة الإسكندرية، فاستقرت عائلاتهم هناك، كما أن كثيرًا من الأجيال التالية تشعر بالفخر والتباهى بانتمائها للمدينة. أما بالنسبة للتركيبة الاجتماعية وأوجه الحياة المختلفة فى المدينة فتستمر الدراسة المؤرخة عام ١٩٠٩ فى الكلام بأن السكان هم خليط متنوع، تمتزج فيه الطبقات الدنيا من المصريين والأجانب بشكل لا يمكن حدوثه فى القاهرة، كما أن الطبقات المتميزة كانت تعيش فى وئام وتجانس مع بعضها البعض، وسادت حالة من الرضا والتى

تُعزى عموما إلى وجود المجلس البلدى لمدينة الإسكندرية- والتى كانت المدينة الأولى فى الشرق الأوسط التى تتمتع بحكم ذاتى، فقد تم إنشاء المجلس البلدى فى عام ١٨٩٠، بينما وُجدت الحكومة المحلية فى القاهرة فى عام ١٩٤٧- وبسبب غياب جيوش الموظفين الحكوميين لم تلعب السياسة فى المدينة إلا دورًا بسيطا فى الحياة اليومية لنفس الأسباب المحتملة". (٢٣)

فى أثناء الحرب العالمية الأولى كان عدد سكان مصر ١٣ مليون نسمة تقريبًا (مقارنة بعدد السكان حاليا الذى يزيد على ٧٠ مليون نسمة) منهم على الأقل نحو مائتى ألف من جنسيات أجنبية، وإجمالا فإن عدد سكان مدينة الإسكندرية يصل إلى نصف مليون بينما كان عدد سكان القاهرة ضعفها تقريبًا، ولكنها كانت المدينة الأصغر والتى يقطنها نصف عدد الأجانب الموجودين فى مصر كلها، من بينهم ٣٠ ألفًا من اليونانيين.

ولكن حق المواطنة والأصول العرقية للمواطن لم يكونا متوافقين دائمًا، كان من بين هؤلاء ٢٥ فى المائة تقريبًا من بين هؤلاء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يونانيين، وعلى سبيل المثال لم يكونوا مواطنين يونانيين، وبنشوب الحرب فإن عدد السكان الذين كانوا من رعايا العثمانيين بمن فيهم ذوو الأصول اليونانية، والأرمينية والسوريون واللبنانيون واليهود وجدوا أنفسهم بلا وطن، أو اعتبارهم مواطنين روسًا وبلغاريين وفرسًا أو من شمال إفريقيا أو مصريين. قامت بعض القوى الأجنبية- الفرنسيون خصوصا - فى محاولة منها لزيادة نفوذها فى مصر بشراء، أو بالأحرى منح أوراق جنسيتها للبعض، بينما كان الكثير من البريطانيين من مواطنى مالطة، أو جبل طارق، أو قبرص.

صحيح أن عدد السكان الذين ليسوا من أصول مصرية أكثر مما تشير إليه الأرقام الرسمية، وربما كانت تصل إلى ما يقرب من ربع عدد السكان أو ثلثهم.

أما من حيث الدين فلم تكن المدينة أقل تنوعًا، فالمسيحيون كانوا يتمثلون فى اليونانيين الأرثوذكس، واليونانيين السوريين الأرثوذكس، والأقباط الأرثوذكس، والكنائس الأرمينية، والذين كانوا يتبعون الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وبالمشاركة مع الكنيسة الأم فى روما، ثم الموارنة، واليونانيون الكاثوليك، والأقباط الكاثوليك، والأرمن الكاثوليك، ثم الكنائس الكاثوليكية للكلدانيين، ثم البروتستانت، والإنجيليون وكنائس طائفية أخرى. كان تعداد اليهود فى مصر فى ذلك الوقت فى أثناء الحرب العالمية الأولى حوالى ستين ألفا يعيشون فى المدينتين الرئيسيتين، منهم خمسة وعشرون ألفا فى الإسكندرية، وثلاثون ألفا فى القاهرة، ثلث اليهود كانوا يحملون الجنسية المصرية، كما كان خُمس عددهم من الأجانب (معظمهم من الإيطاليين خاصة الطبقات العليا من اليهود السفارديم فى الإسكندرية، ولكن كان بينهم يهود فرنسيون وبريطانيون)، فى حين أن نصفهم تقريبا لا ينتمون لأى بلد، كما كانت المدينة تضم الكنائس والمعابد والمساجد للمسيحيين واليهود والمسلمين.

كتب "إيفارستو بريشيا" مدير المتحف اليوناني- الرومانى فى دليله السياحى عن المدينة قديمًا وحديثًا: "ربما يميل المرء إلى الاعتقاد بأن مثل هذا التنوع فى الأعراق، واللغات، والأديان والسلوكيات لا يمكن أن تضمه مدينة تكون من أساسيات خصائصها التحلى بالتسامح المطلق، والاحترام المتبادل"، وتم نشر هذا الكتاب فى فرنسا عام ١٩١٤ قبل الحرب مباشرة، كما ظهرت طبعة باللغة الإنجليزية فى عام ١٩٢٢.

ويردف قائلاً: "تُعد مدينة الإسكندرية المثال الحى على أن الكثير من الكبرياء، والتطرف الممقوت، والغلو فى الوطنية، والكثير من التطرف الدينى يمكن أن يقل تدريجيًا، بل يمكن أن يختفى إذا ما أتيحت الفرصة لمختلف الأعراق أو الجنسيات للتعايش فيما بينهم ويحتفظ كل منهم بعقائده ومبادئه وتقاليده الاجتماعية والأخلاقية، وفى نفس الوقت يتبادلون الاحترام، ولا يدعى أحد منهم أنه صاحب أفضل العقائد والمثاليات أو الادعاء بأن عقيدته المثالية يجب أن تكون السائدة". (٢٤)

فى المنطقة الخلفية لبحيرة مريوط حيث تمتد مصر وحيث تقع مدينة الإسكندرية والتى تضم مختلف الأجناس منعزلة، كما يُذكر عنوان الكتيب الإرشادى قُراءه (إن المدينة فى مصر ولكنها ليست منها)، وهو تعريف ينطبق عليها قديمًا وحديثًا بنفس المقدار، ففيها يتعلم الرعايا الأجانب بعض العبارات العربية الخاصة بالمطبخ، وذلك حتى يمكنهم التفاهم مع الطهاة والخدم المصريين، ومع ميدان محمد على وبامتداد شارع شريف باشا فى وسط المدينة، وباتجاه الشرق بطول شارع "روسيتي" أمام الحى الأنيق للمربع السكنى الخاص باليونانيين، وخارج الحى تقع الفيلات الأنيقة لمنطقة الرمل، يسهل أن تجد مغسلة مصرية ولكن يصعب أن تجد متجرًا واحدًا لمصرى.

وباستثناء أقلية من السكان الغربيين والمصريين الأثرياء، فإن السكان الأصليين للمدينة وهم الأفقر والأكثر عددا يعيشون فى المنطقة الغربية من ميدان محمد على فى الحى التركى القديم جنبًا إلى جنب مع الطبقات الدنيا من الأوربيين فى الشوارع الضيقة المكتظة بشقق الإيجار وتجاه "عمود السواري" إلى الجنوب الغربي، حيث موقع "راكوتيس أو الإسكندرية القديمة" مساكن المصريين من خفر السواحل ورعاة الأغنام كانت معروفة للإسكندر الأكبر عندما قام بتأسيس مدينته

العالمية على شواطئ قارة إفريقيا فى عام ٣٣١ ق.م، وكما كان الأمر بالنسبة للمدينة اليونانية القديمة قام هو أيضًا بإعادة إنشاء الإسكندرية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، السكان الغرباء عن المدينة كانوا يتكونون من المصريين البسطاء الذين هجروا محط رؤوسهم وجذبتهم المدينة تحت إغراء النشاط الاقتصادى لمؤسسى المدينة القادمين إليها من وراء البحار، والذين لا يقاسمونهم خلفياتهم الثقافية إلا بالكاد.

كانت نظرات مدينة الإسكندرية تتجه صوب البحر، كما أنها مدينة تنتمى إلى البحر الأبيض المتوسط شأنها شأن مدينة "نابلس"، ومدينة "جنوه"، ومدينة "مرسيليا"، و"أثينا"، ولقد أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة السائدة فى مطلع القرن العشرين، ثم سادت اللغة الإنجليزية إلى حد ما فى فترة تالية، ولكن كما يمكن أن تلاحظ على الشواهد الحجرية للمقابر القديمة كانت اللغة الإيطالية سابقًا هى اللغة السائدة ولا زالت حتى الآن مسميات مثل "روب فيشي- ملابس قديمة"، "والزجاج القديم "وهى نداءات وصيحات لباعة الروبابكيا فى شوارع الإسكندرية.

كان اليونانيون يشكلون القاسم الأكبر من الرعايا الأوربيين فى الإسكندرية يسيطرون على مجال محلات البقالة بما يملكونه من مهارة وطاقة فى هذا المجال، بالإضافة إلى الصناعات الغذائية، وصناعة المشروبات الغازية، والمشروبات الكحولية والسجائر وحلج وتصدير القطن، ولكن بناة المدينة كانوا إيطاليين وهم من المهندسين والمعماريين الذين ساهموا فى إنشاء مدينة الإسكندرية الحديثة.

كتب الرحالة "دوجلاس سلادين" فى عام ١٩١٠ وهو يصف المدينة التى ولدت من جديد بعد الحرائق التى حدثت من جراء أعمال الشغب والقصف البريطانى بالقنابل فى عام ١٨٨٢:- "ربما استوحيت فكرة الشوارع فى المنطقة

من الميناء وحتى محطة السكك الحديدية من نظيرتها فى مدينـــة "نـــابلس"، وفـــى الواقع فإن الشوارع قد تم استيرادها من الخارج، فـــبلاط رصـــف الـــشوارع تـــم استيراده من صقليه وشمال إيطاليا، هناك ميناءان فى الإسكندرية يفـــصل بينهمـــا شريط من اليابسة، هذا الشريط كان عبارة عن الطريق المُعبد الذى شيده بطليموس ويسمى بالهيبتاستاديون **Heptastadion** وهو الميناء الشرقى وهو خلـــيج دائـــرى يتميز بالجمال والروعة التى كانت تكبر حوله مدينة "إسكندرية"جديدة وتضارع مرة أخرى مع خليج نابلس.

كان الميناء الغربى **(Eunostos)** أو الميناء الآمن لقـــدامى الإغريـــق، هـــو الميناء التجارى الذى كان يعج بالنشاط على غرار ميناء "**جنوة**"، والذى كان بالكاد يمكن أن يتسم بسمات الحياة الشرقية على مينائها مثيلاً لما يمكن أن يتـــسم بـــه أى ميناء إيطالي[٢٥]، بينما كان بطول ترعة المحمودية التى تجاور جنـــوب المدينـــة، تُعطى الفيلات المتهدمة التأثير البهيج لتلك التى كانت منشأة على بحيـــرة فينـــسيا، والتى كانت تضم قصورًا تحيط بها الحـــدائق إذا أمكـــن فقـــط أن تكـــون حولهـــا مساجد.[٢٦] وباختصار يعتقد "**دوجلاس سلادين**"أن الإسكندرية هى مدينة إيطاليـــة: فنباتاتها جاءت من إيطاليا، وفيها زهور برية، كما أن المناخ فيها يماثل المناخ فى إيطاليا تقريبًا، هبوب رياح وأمطار، وأيضًا سماء زرقاء تتسم بالتقلبـــات العنيفـــة، شوارعها أشبه بالشوارع الإيطالية، كذلك اللغة الإيطالية هى اللغة السائدة، وحتـــى أطلالها من الأطلال الرومانية، فإذا لم يكن من أجل جامع قايتباى، حيث كان يجب أن تكون "**فاروس**"، وبعض المنارات المتناثرة فى الشريط الذى يمثل الإســـكندرية القديمة بين القلعتين، فلا يمكنك أن تُصدق أنك فى مدينة إسلامية".[٢٧]

لكن الآثار الملموسة لمدينة الإسكندرية التاريخية والتى كانت شـــاهدة علـــى مركزها في وسط الحضارة الغربية غير موجودة بالكامل تقريبًا، ومع ذلـــك فـــإن

خيال الماضى ينبعث من صورة الإسكندرية لدرجة غير عادية، كانت روما والقسطنطينية وهى المدن المنافسة لها فى الماضى كانتا دائمًا مأهولتين منذ العصور القديمة وتحتفظان بآثارهما كذاكرة تاريخية ملموسة، ولكن إسكندرية البطالمة تم زيادتها بالبناء عليها بواسطة الرومان والبيزنطيين ثم فى سنوات أفولها بواسطة العرب وتم فيها إعادة استخدام الأنقاض الأثرية فى عملية إعادة البناء، طبقات من الأنقاض التى تكونت عبر القرون قبل أن يتم هجر هذه المواقع كليةً فيما عدا المدينة التركية قبل أن تطمر طبقات الغرين الطريق المُعَبد والذى كان يطلق عليه (Heptastadion)، والذى لم يلق الاهتمام فى الماضى سواء بإلغائه كلية أو الحفاظ عليه، والذى كان فى يوم من الأيام مرصوفًا بالرخام اللامع الذى يخطف بريقه الأبصار حتى إن الفرسان العرب بقيادة عمرو بن العاص كانوا يضطرون إلى حجب عيونهم عند دخولهم المدينة فاتحين فى عام ٦٤٢م، أما نابليون فلم يجد غير "عمود السواري"، وهى مسلة "سيزاريم" (كليوباترا)، وبعض الأعمدة والتى ربما كانت تُشكل جزءًا من الجمنازيوم القديم وجانبًا من الحائط الرومانى على الشاطئ الشرقى لا تزال آثارها باقية أعلى من مستوى الأرض، ولذا فإن الإسكندرية تبدو وكأنها مقبرة ضخمة وصامتة.

صاحب إعادة إنشاء المدينة تطورات سريعة، وكان على "إيفارستو بريشيا" أن يعترف فى كتيبه الإرشادى أن إسكندرية اليوم مُتهمة بإهمال الآثار الباقية من ماضيها التليد وتجاهلها، ففى نشاطهم المحموم لرفع الأنقاض والبناء تسببوا فى تحطيم العديد من الآثار الثمينة أو طمرها ربما للأبد،(٢٨) أغلب الاكتشافات التى حدثت بينما يقومون بالحفر من أجل بناء الإنشاءات كانت بالطبع بطريقة عارضة، ولكن وعلى أية حال وكما يوضح "إيفارستو بريشيا" هنالك بعض المؤشرات الدقيقة التى تُحدد منهج التنقيب عن الآثار: "على قدر التدمير الكامل لصروحها

وعدم التأكد من الطبوغرافيا أو السمات السطحية للمدينة، فإن الإسكندرية ولسوء الحظ تنال قصب السبق في العظمة عن أى مدينة أخرى في العالم القديم" (٢٩) هناك أوصاف لمعاصرين، أكثرها شهرة وتفصيلاً هي تلك التي أوردها "سترابو"والذى زار المدينة في القرن ٢٤ قبل الميلاد، ولكن على الرغم من وصفه للمعابد والآثار والقصور، فإنه كان دائمًا من المستحيل تحديد مواقعها بالضبط، لدرجة أنه حتى الآن فإن **الموسيون** الشهير والمكتبة وأيضًا مقبرة سوما ومقبرة الإسكندر كلها تبدو عصية على خبراء الآثار، كما أن تحديد أماكن وجود بقايا هذه الآثار هو نوع من الرجم بالغيب.

وليست هناك مدينة في العالم لها هذا الشكل الواضح والدائم: سلسلتان من تلال الحجر الجيرى تمتدان بالتوازى مع طول الشاطئ، السلسلة الداخلية تحمى الإسكندرية وتثبتها ضد ترسبات الطمى في مصر، أما السلسلة الخارجية فتعمل حاجزًا للأمواج المتلاطمة كما تُشكل ميناء للسفن. إنها ملامح خالدة و لا مثيل لها في مصر والتي ربما لو عاد الإسكندر للحياة لكان في مقدوره أن يتعرف على المدينة. ويُخبرنا "بلوتارك **Plutarch**" لقد تم بناء مدينة الإسكندرية هنا في هذا المكان نتيجة حلم رجل أشيب وقور انتصب واقفا يتلو عبارة من الكتاب الرابع لملحمة الأوديسا **The Odyssey** جزيرة في بحر هائج، يسمونها "فاروس"تمتد بعيدا عن مصر. (٣٠)

في صباح اليوم التالى استيقظ الإسكندر من نومه وقام بزيارة جزيرة "فاروس"، فرأى بعينيه المزايا الطبيعية للمكان فقال إن "هوميروس" **Homer** إضافة إلى سماته التي تثير العجب، فإنه معمارى ثاقب النظر، وأمر بتشييد مدينة إغريقية رائعة آهلة بالسكان هناك وتحمل أولا اسم الإسكندر.

الإحساس بالوجود فى الحاضر والذى يأخذ شكل الماضى ولا يزال يعيش حتى اليوم بينما تذرع الطريق الرئيسى للمدينة، والشعور بأن الأرض تميل برفق كلما أوغلت بعيدًا تجاه الميناء الشرقى، وأنك تتبع للحافة الداخلية للمنحدر طوال الطريق القديم، "**الطريق الفخاري**"**Canopic Way**. الأبحاث المنهجية التى تم إجراؤها فى القرن التاسع عشر كتلك التى قام بها "**محمود الفلكي**"، و"د. **تاسوس نيرتوسوس**" والتى تتعلق بتخطيط الشارع فى المدينة القديمة وعلاقتها بالمدينة الحديثة، وذلك عندما تساءل "**إيفارستو بريشيا**" فى مقدمته التى أوردها فى كتيبه الإرشادى عما أضحت إليه المدينة الصاخبة حيث لا يوجد عاطل واحد، وحيث هناك الفنانون، والشعراء، والفلاسفة، والنقاد الذين يصقلون مواهبهم الراقية، وحيث الميل إلى جنى المكاسب يتساوى مع حبهم للمرح والسعادة، وحيث النساء بقدر ما هن جميلات بقدر ما هن ضعيفات ومنقادات،[٣١] ينتابك الشك أنه يعتقد فى إمكانية إعادة اكتشاف نفسه فى شوارع هذه المدينة العالمية.

أما بالنسبة "**لفورستر**" والذى جاء فى أعقاب الكارثة، فإن مثل هذه الأفكار كانت بعيدة جدًا عن مخيلته. أصبحت الإسكندرية فى إبريل ١٩١٥ مركزًا للعمليات الحربية للموقعة التى جرت فى "**جاليبولي**" بتركيا والتى انتهت نهاية كارثية للحلفاء، والتى كانت تهدف إلى تخليص مضيق الدردنيل من قبضة تركيا وتهديد القسطنطينية، وابتداء من الإبرار الأول على خليج "**جاليبولي**" للقوات البريطانية وقوات الأنزاك (الأسترالية والنيوزلندية) وحتى انسحابهم النهائى فى نهاية العام، أصبحت مستشفيات الإسكندرية غاصة عن آخرها بقوافل الجنود الجرحى والمشوهين فى الحرب.

كان فندق "**ماجستيك**" مناسبًا تمامًا لمهمة "**فورستر**" فى خلال الأشهر الأولى كباحث عن المفقودين فى الصليب الأحمر والذى كان مركزه الرئيسى يبعد بضع

دقائق فقط سيرًا على الأقدام شرقًا تجاه مبانى "**سان مارك**" علـــى ناصـــية شــــارع "**سان مارك**"وشارع "**البورصة القديمة**"، من هنالك يمكنه أن يبـــدأ فـــى العاشــــرة صباحًا ليبدأ نوبته فى زيارة المستشفيات، ثم يعود للفندق لتناول الغداء، ثـــم يعـــود مرة أخرى للمستشفيات حتى نهاية دوام عمله فى الساعة السابعة مساء، ثم يبدأ فى إعداد كتابة تقاريره التى يتم إرسالها إلى "مكتب الحرب "فى لندن، ومن هناك يـــتم توزيعها على أقارب الجنود، صحيح أنه عمل يسبب الإحباط، فعندما يحصل علـــى أى خبر خاص بالجنود المفقودين، غالبا تكون أخبارا سيئة، ولكنه كان يجد بعـــض العزاء فى عمله أنه قد يكون مفيدا لبعض الجنود الجرحى كما كان يعيـــرهم كتبـــا للقراءة ويقوم بكتابة رسائلهم لأقاربهم، أو يقوم بإصلاح ساعات الجنـــود، ليجـــدهم ممتنين وشاكرين مساعيه.

لقد وجد "**فورستر**" نفسه بطريقة غير متوقعة يفيض بمشاعر بطولية وعلـــى العكس من وعوده المطمئنة لأمه بأنه لن يتورط فى أى أعمال قتالية، ثمـــة تهديـــد بغزو تركى، وبرغم كونه مدنيا فإنه سيكون على جبهات القتـــال، كانـــت حملـــة "**جاليبولي**" ردا على محاولة تركيا الاستيلاء على قناة السويس وغزو مصر فى عام ١٩١٥، وظل تهديد الأتراك مستمرًا فى سيناء طوال العام التالى، وتمكن عمـــلاء تركيا وألمانيا من إقناع "**السنوسي**" والبدو في الصحراء الليبيـــة بـــالهجوم علـــى الحدود الغربية لمصر، ولكن وللعجب الشديد فقد تم عزل الإســـكندرية عـــن هـــذه الأحداث من خلال فرض الرقابة على المطبوعات، وقد وصف أحـــد المـــواطنين الإنجليز المقيمين بالإسكندرية كيف أن الغموض كان يغلف المدينة مثل الـــضباب الكثيف الذى يظهر بعض الأشياء القريبة ولكنه يطمس البعيد بسدود منيعة. (٣٢)

ولكن المشهد لم يكن قريبا ولا بعيدا بل كان غامضا بالنسبة "**لفورستر**" الذى ما إن وصل حتى اتصل بروبين **فورنيس**" بمجرد وصوله، وهــو أحــد معارفــه القدامى فى "**كينجز كوليدج**" والذى أصبح رئيسًا لقسم الرقابــة علــى المطبوعــات الصحفية ومقرها فى الإسكندرية وليس فى القاهرة وذلك لأنها تتميــز فــى قطــع الاتصالات مع الخارج، فى خلال بضعة أشهر من مجيئه من "**كينجز كوليدج**" بــدأ فورنيس دخول مجال الخدمة المدنية فى مصر إذ بدأ وظيفته من برجــه العــاجى، فكتب لصديقه "**جون مانيراد كينيز**" فى عام ١٩٠٧ "لقد كنت دائمًا شرطيا أو مفتش مباحث فى هذه المدينة الفوضوية، يوميا أغذى عيونى بزوجة حاكم ويلز السكيرة، وعاهرات جركسية مطعونة، أو أتفحص مؤخرات الغلمان الذين يتعرضون للواط، وأقوم بالتحقيق فى حوادث متسولين ماتوا وأكلتهم الديدان".[٣٣]

لقد كان مطلعا على غرائب المقتطفات اليونانيــة **The Greek Anthology**، وأشعار غزل فاضح يزيد عمرها عن ألف سنة من عصور الإمبراطورية الهيلينية إلى البيزنطية وبدأ ينشر ترجمات الشعراء الأقدمين فى المدينة. بينما كان للرجــل مذاق أدبى غريب"، يتذكر "**لورانس جرافتى سميث**" نائب القنصل فى الإســكندرية إبان الحرب "إن ذوق الرجل على المستويات الأخرى كان ذوقًا أدبيًا رفيعًــا فــإن ذوقه فى مجالات أخرى كان واسع الأفق ومتحررًا على نحو شامل، كما تقاســمنا بعض الرحلات الغريبة.[٣٤]

كان على "**فورنيس** "والذى سيُدعى فيما بعد "**سير روبنسون**" قــضاء كــل حياته المهنية فى مصر، ففى عام ١٩٢٠ وما بعدها شغل منصب المندوب السامى البريطانى فى القاهرة، بينما كان مستمرًا فى تكريس جهوده للبحوث الأدبية كتابــه "**كليماخوس وترجمات من مختارات الإغريق الأدبية**" وقد نشره فى لندن بين عامى

١٩٣١و ١٩٣٢، وظل الكتاب فترة طويلة يتم الاقتباس منه فى هذا المجال، كما عمل أستاذًا للغة الإنجليزية فى جامعة فؤاد (جامعة القاهرة حاليًا)، ثم استأنف عمله القديم السابق إبان الحرب العالمية الثانية رئيسًا للرقابة على المطبوعات.

أحب "فورنيس" "عايدا بوركجريفنك" وهى سيدة فى أواخر الخمسيناتات، فى عام ١٩١٠مات زوجها النرويجى والذى كان يعمل مديرا للإمدادات والتموين فى المحاكم المختلطة بمصر، وكانت عايدا سيدة أمريكية الأصل ابنة أحد ملوك القمح فى منطقة الغرب الأوسط فى أمريكا، تعلمت الغناء الأوبرالى قبل الزواج، وغيرت اسمها من "آدا" إلى "عايدا" بعض حضورها عرضا لأوبرا عايدا "للموسيقى الإيطالى فيردي" أثناء فترة شهر العسل، وكان "فورنيس" الذى يبدو مشوش الفكر شبيهًا بمالك الحزين، وعرفها كسيدة رومانسية وجياشة العاطفة تقوم بقيادة سيارتها فى المدينة وهى تغنى بعض أغانى الأوبرا للموسيقى الألمانى ريتشارد فاجنر بأعلى صوتها، كان الرباط الذى يجمعهما حبا أفلاطونيا ورغم ذلك فقد كان حبا قويًا، كما كان يعتمد على مساعدتها فى بدايات مشواره فى الحياة المهنية، وخصوصا كانت "عايدا بوركجريفنك" هى التى قامت باختيار معظم الموظفين الدوليين فى إدارة الرقابة على المطبوعات ومن بينهم "بيرسلس أنستاسياديس" والتى كانت صديقة "قسطنطين كفافيس" لفترة طويلة، كما صادقت أيضًا "جورج أنطونيوس" الذى كان يتميز باللطف والكياسة وسرعان ما أصبح كلاهما جزءًا من الدائرة المقربة من "فورستر".

كتب "فورستر" فى ٢٩ ديسمبر ١٩١٥ إلى مسعود يقول "لا أدرى إلى متى أبقى هنا، "أشعر بأننى لست فى وطنى وأنا بينهم (المصريين)، وإن كنت أشعر بين الهنود بأننى فى وطنى."[٣٥] ورغم اعتراض مسعود على عروض الصداقة التى كان يقدمها "فورستر" طوال ثلاث سنوات من قبل فقد ظلا صديقين، وخصوصا

عندما وجد مسعود هدفًا آخر لعواطفه، إذ بدأ "فورستر" باستخدام مراسلاته في التحامل على مصر في مقارنات يجريها مع الهند، "الشخص غير الإنجليزي الوحيد الذي رأيته هنا هو شخص سوري فهو شخصية لطيفة مسلية جدا، سأتناول معه العشاء غدًا، وسأخلع الزي الرسمي، وأصحبه إلى السوق الشرقية، لنجد ما يمكن رؤيته، ولكن يجب أن تعرف أنه لا يوجد شيء كثير يمكن رؤيته."(٣٦)

أما السوري **"جورج أنطونيوس"**، فقد كان يبلغ من العمر ٢٥ عامًا وهو سكندري من عائلة فلسطينية يحمل الجنسية البريطانية، مسيحي أرثوذوكسي يوناني، يجيد اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربية، وقد التحق بكلية فيكتوريا، وهي مدرسة للبنين وإدارتها إنجليزية في ضاحية **"الرمل الشرقية"**، كما التحق بكلية **"كينجز كوليج - كامبردج"** تماما مثل **"فورستر"**، و**"فورنيس"**. كان **"جورج أنطونيوس"** يعمل في إدارة الرقابة على المطبوعات توطئة لحياة مهنية متميزة في الشئون الشرق أوسطية، في البداية مع البريطانيين ثم حصل بعدها على وسام (الإمبراطورية البريطانية **CBE**)، ثم بعد ذلك من عام ١٩٣٠ في القضية العربية الفلسطينية. ثم في عام ١٩٣٩ ذهب إلى لندن في وظيفة أمين عام للوفد العربي لمؤتمر المائدة المستديرة بشأن القضية الفلسطينية، وقد ذاع صيته في العام الذي سبق كمؤلف لكتاب **"اليقظة العربية The Arab Awakening"** والذي قال عنه **إدوارد سعيد** "إنها من أفضل الدراسات العربية عن النضال من أجل الاستقلال".(٣٧)

في عام ١٩١٥ كان **"جورج أنطونيوس"** شأنه شأن الكثيرين من العرب خارج مصر يرى ضرورة التحالف مع بريطانيا على أمل تحريرهم من ضعف العثمانيين.

ولكن "فورستر" بنظرة فاحصة على العالم الذى يعرفه بعيدًا عن الإسكندرية يرى فقط مظاهر التفسخ، فكتب إلى مسعود فى نفس شهر ديسمبر وهو ينتظر النزهة التى يصحب فيها جورج أنطونيوس للمدينة، كتب يقول : "كل ما أهتم به هو انهيار هذه الحضارة للأبد ". (٣٨)

وعلى الرغم من أن "فورستر" كان فى المدينة لأكثر من شهر، وعلى الرغم من أن السوق الشرقية كانت بالكاد أكثر بُعدًا جهة الغرب من فندق "**ماجستيك**"، بينما كان المركز الرئيسى للصليب الأحمر من جهة الشرق- فإن "**فورستر**" لم يغامر أبعد من ميدان محمد على الذى كان يتوسط المدينة.

يطلق الإنجليز على "**ميدان محمد علي**" لفظ "**قصر محمد علي**" وكان يقع فى قلب المدينة ويضم البورصة وفيها بورصة القطن، وبورصة الأسهم والسندات وعلى الجانب الشرقى منها، والكنيسة الإنجيلية للقديس سان مارك وملاصق لها (مبانى القديس سان مارك والتى تتبعها)، والمحاكم المختلطة على الجانب الجنوبى منها،(٣٩) يوجد تمثال برونزى لفارس يمثل محمد على نفسه فى الوسط (على الرغم من أنه لا توجد كتابة عليها تميزها فى تناقض مع التعاليم الإسلامية التى تحرم تماثيل آدمية أو حيوانية)، مقهى أنيق، ومطاعم ومحلات تحيط بكل المكان.

كما أن الميدان هو تذكار لذلك الصيف من عام ١٨٨٢ والتى يؤرخ بها السكندريون لتاريخ مدينتهم فيقولون "قبل الأحداث"، و"بعد الأحداث"، بعيدًا إلى الشمال شارع الراهبات "**Rue des Soeurs**" وهو شارع طويل بدأت فيه أحداث الشغب، ويعود اسمها إلى دير الكاثوليك الرومان والمدرسة، وبالرغم من السمعة السيئة التى اكتسبها حينئذ للخدمات التى يقدمها للبحارة، بينما بعدها بشهر واحد

وفى الميدان نفسه فإن الثائرين تم دفنهم تحت أشجارها، وكــان قــد تــم تقييــدهم وربطهم إلى جذوع الأشجار قبل أن يتم إطلاق النار عليهم.

كان لدى "**فورستر**" نسخة من الدليل السياحى، يقرأ منه، خلف ذلك الميــدان المزدان بالأشجار يظهر الحى الوطنى وهو يقــدم صــورة جميلــة للحيــاة فــى الشرق،(٤٠) على الرغم من أنها لم تذكر شيئًا محددًا يمكن مشاهدته، ولكن كتيــب "**إيفارستو بريشيا**" كان مفيدا، ويبدو أن "**فورستر**" لم يكن قد حصل علــى نــسخة بعد، رغم أنه اعتمد عليها بعد ذلك كثيرا. وعوضا عن ذلك فإن دليلــه الــسياحى خلال الشهور الأولى من إقامته فى الإسكندرية كانت الكتابات التى كتبها "**جــورج أنطونيوس**"، وقد أدرج اسمه مع الذين يدين لهم بالعرفان بــسبب مــساعدتهم فــى إعداد الكتاب السياحى والخاص عن المدينة ومبانيها الجميلــة ومــساجدها غيــر المعروفة على نطاق واسع.".(٤١)

ولكن بعد ذلك بدأ "**فورستر**" فى إعداد كتابه: **Alexandria : A History and a Guide** "**الإسكندرية: تاريخ ودليل**" بدأه فى أكتوبر ١٩١٨، قبل شهر واحد مــن نهاية الحرب، وقبل ثلاثة شهور من مغادرته لمصر، كما لم يتمكن مــن مراجعــة مسوداته النهائية حتى فبراير ١٩٢٢.

كانت نزهته مع "جورج أنطونيــوس"هــى أول مواجهــة لفورســتر مــع المصريين، فلم يعجبه كل ما رآه، فمثلا كتب فى أغسطس عام ١٩١٦ يقول "فــى خلال عشرة شهور كرهت كل شــيء: الــصوت العربــى والشخــصية العربيــة وطريقتهم فى رؤية الأشياء وطريقتهم فى الأكل والإخراج أو الــضحك أو أى شــيء يفعلونه" إلا أن هذه النظرة أزعجته كثيرا: "فهى نفــس المــشاعر التــى أحــس بهــا واستهجنها فى العلاقة الأنجلوهندية مع السكان الهنود.. مشاعر بغيضة ومخزية."(٤٢)

فالنفور من القيم الجمالية عند فورستر يتألف من التناقض الشديد الذى أحسه من سلوك أحد المخبرين المصريين فى قسم الشرطة والذى دعاه لزيارة "غـرزة" لتدخين الحشيش يديرها شخص مالطى أعور: "دخلنا الغرزة فوجدنا فيها شلة مهذبة يدخنون المخدرات، جالسين خامدين ومسطولين. بينهم فتاة عربية صغيرة حافية القدمين منهكة القوى، أما الشباب فيلعبون الورق والصمت يلف الغرفة المقفلة. دخل ثلاثة شباب متأنقين، يرتدون قبعات قش، يقصدون الباعة الإيطاليين فى المحل، ولكن عندما رأوا فورستر ورفيقه الشرطى يسحب نفسا أو نفسين من الجوزة انصرفوا." "وكأن ما فعلوه هو سبب مجيئهم إلى هنا."[٤٣] لقد وجد فورستر الشلة مسلية، وبدونهم كان سيشعر بالوحدة". بعد أيام أخبره المصرى بأنه أبلغ الشرطة عن الرجل المالطى، فشعر فورستر بالاشمئزاز، أضاف المصرى: "هذا عملي؛ مخبر فى الليل وموظف بالنهار. وأحاول الاحتفاظ بالمهمتين. "فالأمر بالنسبة لفورستر أنه فى حال عدم احتفاظه بالمهمتين منفصلتين فهى خيانة للأمانة وفساد للأخلاق.: "فقط كان يعتبر ملقاطا لأبناء البلد هنا، ويؤدى عملا فاسدا تماما."[٤٤]

كان رد فعل فورستر لحياته فى الإسكندرية يختلف عن مشاعره تجاه الهند. فعندما زار الهند قبل الحرب، ذهب إليها لينشئ صداقات يفتح من خلالها خياله على البلد. فهذه البلد الكبيرة كانت هادئة إلى حد ما، ولكن فى الحكم **Raj** مطمئنا. ولم تضغط عليه الآراء السياسية، ولكنه كان مشاركا برأيه لرفيق رحلاته روبرت تريفيليان **Robert Trevelyan** وجولدزورثى لوز ديكنسون **Goldsworthy Lowes Dickinson** وأصدقائه الليراليين الآخرين من الحركة الوطنية الحاكمة، والاستقلال هدف بعيد المنال.[٤٥] وعندما غادر فورستر الهند فى عام ١٩١٣ كان انطباعه عن الهند حالما: "بلا ريب فإن المضحك أن تعشق قارة.. ولكن يبدو أننى أحببتها فعلا."[٤٦]

لقد كانت الهند حلما لأمة بأسرها، نموذج أحكم غلقه فى عام ١٨٧٧، أى قبل عامين من مولد فورستر، عندما تم إعلان رئيس وزرائها بنيامين ديزرائيلى بأن الملكة فيكتوريا إمبراطورة الهند. وكان ديزرائيلى ينتمى لحزب المحافظين، ومن مسئوليته إسكات الليبراليين المعارضين، الذين رأوا أن الإمبراطورية لا يمكن توزيعها ولكنها مسئولية. فقال دزرائيلى "إن المعارضين يخطئون عندما يرون كل شيء من زاوية مادية متجاهلين أهمية الأفكار الأخلاقية والسياسية التى تخلق الأمم العظيمة، من خلال تأثيرها على الإنسان المتميز عن الحيوان.. فيتعين على إنجلترا أن تحسم أمرها بين المبادئ الوطنية والعالمية. وهذه قضية ليست بسيطة. فإما أن تقتنع بأن تكون إنجلترا مريحة ونموذجا يحتذى.ويتشكل وفقا للمبادئ الأوربية ومواجهة مصيرها المحتوم أو أن تكون بلدا عظيما- بلدا إمبراطوريا – بلدا يكون فيه أبناؤك حين يشبون، يشبون نحو الأهداف السامية ويكتسبون التقدير ليس من أبناء بلدهم وحسب بل من جميع أنحاء العالم."(٤٧)

ثم ذهب فورستر أولا إلى الهند وقد اقتنع الليبراليون بأن الإمبراطورية هى جزء من مجموع أشياء منظمة، وليست أقل، وكما فهم دزرائيلى، لأنها تروى غليل الإنجليزى إلى رومانسية القرن التاسع عشر المختلطة بمشاعر المهمة الوطنية أن يأتى بمكاسب واستحقاقات التنوير والتقدم إلى العالم. وبعبارات اللورد كورزون، نائب الملك فى مطلع القرن العشرين، فإن الهند، "هى أكبر شيء يحققه البريطانيون فى أى مكان من العالم" (٤٨) والانسحاب منها يعنى خيانة الهند وتخلى إنجلترا عن مبدئها المثالى.

حقا إن فورستر، فى كتابه "Howards End" ذكر أن "المؤيد للحكم الإمبريالى ليس كما يظن أو يبدو. بل هو شخص مدمر."(٤٩) ولكنه كان يشير إلى نمط مازال يؤمن بعالم أفضل حيث يلعب الإنجليز دورا وأخذه على محمل الجد قبيل أن يتركه صديقه الهندى مسعود سعيد ميرزا والذى كان مصاحبا فورستر فى

رحلة برية، قد انفجر غاضبا ضد الإنجليز. "ربما بعد خمسين سنة أو خمسمائة سوف نطردكم."[٥٠] بعد مرور عشر سنوات من هذه العبارة تكررت ثانية في صرخة فشل وخسارة انتهت بكتاب "A Passage to India" ولكن في كتاب Howards End خطأ من الإمبريالية يكمن في القمع أقل من الاقتلاع، وهنا اعترض فورستر على تفسير دزرائيلي للرومانسية: إن المؤيدين للحكم الإمبراطوري يتأهبون لطريقة "العالمية، وبرغم أن طموحاته التي تتشبع بها الأرض والتي ورثها ستكون كئيبة."[٥١]

وقد استطاعت أيضا والدته أن تستوعب المعنى حينما كتب فورستر إليها يقول إن الإسكندرية كانت مدينة عالمية نظيفة: فلم تقدم المدينة شيئًا لتفصله عنها. فإن قيمه ومشاعره كانت موجهة نحو "روكسنيست"، منزله في "هارتفوردشاير" Hertfordshire حيث عاشا معا من عمر خمس سنوات حتى بلغ سن الخامسة عشر والذي كان نموذجا مباشرا إلى Howard End:

"عاش هنا جنس أكبر، ننظر إليه بقلق. البلد التي زرناها في عطلة نهاية الأسبوع، كانت وطنا فعليا، وأهم جوانب الحياة، والموت والفراق ولهفة الحنين والحب، لها أقوى العبارات في تلك الميادين. ليست كلها الحزن، فالشمس تشرق بدونها. وطائر السمان يغرد على أغصان الورد. والأطفال يمرحون في صخب على أكوام القش الذهبية... في تلك المزارع الإنجليزية، في أي مكان، يرى المرء حياة مستقرة وكاملة، مجموعة في صورة واحدة لتغيرها، ولشبابها الدائم، مرتبط – مرتبط بدون مرارة حتى إن كل البشر إخوة."[٥٢]

وعلى الجانب الآخر لهذه الرؤية الشاملة وللحب كانت المدينة: "كرهت هذا التدفق المستمر على لندن. إنها نموذج لنا في أسوأ حالتنا– حالة من التشوه، كل

الصفات سواء كانت الحميدة أو السيئة والمختلفة، تتابع، وتتدفق، للأبد [٥٣].
فالإمبريالية والكوزموبوليتانية **cosmopolitanism** والمدنية كلها تؤدى إلى نهاية واحدة، وعندما أشارت هيلين إلى لندن تسلل إلى الأحراش باتجاه هوارد إيند **Howard End** وقال لمارجريت، "إن لندن ما هى إلا جزء من شيء آخر. وإننى أرى بأن الحياة سوف تنتهى فى كل أنحاء العالم." [٥٤]

كانت لندن باستثناء هذه الحضارة البدوية والتى غيرت الطبيعة البشرية بقوة و فتحت الباب على مصراعيه للعلاقات الشخصية تضغط بشكل أكبر، أكثر مما لو كانت موجودة من قبل. ففى ظل المدينة العالمية الكوسموبوليتان، إذا خلت فلن نتلقى مساعدة من الأرض. وتصبح الأشجار والمروج والجبال مشهدا وقوة إلزامية مارسوها ذات يوم على إنسان لابد أن يكون مؤتمنا بالحب وحده. أتمنى لو أن الحب مساوٍ للمهمة."[٥٥]

ورغم أسلوب فورستر الوصفى الإبداعى الذى طاف بنا فى وسط الإسكندرية على الأقدام أو فى الحنطور وزيارته إلى الضواحى الشرقية من منطقة الرمل **Ramleh** جعلت السفر بالترام ضرورة – الرحلة التى تحمل شيئا من الروعة : "أرادت شيئا كبيرا، وأرادت أن تصدق بأن هذا الشيء جاء إليها على جناح السرعة إلى رصيف الترام" [٥٦]، فى حين أنه يكتب عن لوسى فى كتابه **A Room with a View**. رايات صليب حُمر على عدد من الفيلات على امتداد حى الرمل، وكلية فيكتوريا التى تحولت إلى مستشفى عسكرى وأبعد من ذلك عند المنتزه، وهو المنتجع الصيفى للعائلة الملكية، السلامليك (وهو مربع سكنى للرجال أقامه الخديوى عباس الثانى فى مطلع القرن العشرين بطريقة تدخل البهجة والسرور إلى عشيقته النمساوية) وقد أصبح دار السلامليك دار النقاهة المفضل للجنود. فى يوم ٩ يناير ١٩١٦ زار فورستر إلى قصر المنتزه أول مرة ولفترة

طويلة بعد بلوغه السابعة والثلاثين، وقف على بوابته الغربية، لمح في دهشة علامة باهتة – مكتوبة من عهد سكن الخديوى: ممنوع الدخول فى هذا الطريق حتى لو سقط السور."[٥٧] هنا وفى أماكن أخرى خلال جولاته كان يتصرف بحنو مع الجنود البريطانيين،"[٥٨] وعلى مدى الشهور التالية، ودون بحثه، كان يقرأ بصوت مسموع مشاهد من روايات تشارلز ديكنز وتوماس هاردى، وتولستوى.

"أنسجم مع الجنود ومع الآخرين الذين لا يهتمون بشيء أو بأوهام إراقة الدماء." لقد أحب الجنود لشرفهم وجسارتهم وكراهيته مشهد جراحهم وتشوهاتهم التى يكابدونها وتعاطفه معهم، فجزاء الحرب موت داخلى. "فالحرب هى استبدال كل الأشياء الجميلة الكبيرة – مثل الحب، والسعادة، والتأمل واليأس– وتضليل الرجال بمظهرها الخارجي".[٥٩] لقد أثارت حفيظته الرقابة على المطبوعات، فغضب من الروايات الرسمية المحرفة حول القتال ضد الأتراك على طول قناة السويس. إذ قرأ مذكرات الجنود لأنه كان يرى أن الأدب العظيم "يساعدنا على التجرد من الخوف والكراهية ومن الدين العشائرى. "فتلك الكتب "عالم من العظمة، عالم من الروح يساعدنا على تحمل المخاطر والجحود كما نجد فيها إجابة كامنة عن الحقيقة"[٦٠]

وقد قرر فورستر فى يناير أن يستمر فى الإسكندرية، وكان سعيدا بعمله ومنسجما لحالة المدينة؛ "فالطقس رائع، وملاعب التنس فى نادى سبورتنج مزدحمة نهارا والمواخير ليلا".[٦١]وفى تنقلاته بين المستشفيات بدأت ترتسم عليه ملامح الرومانسية. "تعال هنا..مصطفى باشا، تعال هنا.. فى سيدى بشر" صاح رجل ضخم الجسم كأنه يستحضر نفرا من الجن، كان هذا الشخص هو ناظر محطة ترام الرمل "نعم.. نعم هنا بوكلى وجليم **Bulkeley and Glymenopoulo**[٦٢] "زعق،

بينما انصاع فورستر وركب العربة السحرية. بدأ يلقى محاضراته علـــى الجنــود حول تاريخ الإسكندرية فى ماضيها وحاضــرها، وإذا أصــبح الفــضاء منطقــة عسكرية، لركب المترو وانطلق فيه بحرية خلال الزمن. "أول نصف ميل من خط الترام ويجتاز الأماكن ذات الشهرة التاريخية" سيكتب فى دليله وصف رحلته بــدءا من خروجه وانتهاء إلى محطة الرمل. "كل بوصة من هذه المدينة كانت فى يــوم من الأيام إما مقدسة أو ملكية. ملاعب كرة القدم على اليسار.. هنا كانت قــصور البطالمة.. وجدران المتحف تشهد بعظمة العالم القديم. على اليمين، المنظر يطــل على المسرح القديم، حيث شــهد عروضـــا لمــسرحيات أســخليوس **Aeschylus** ويوربيدس **Euripides** تشهد بعظمة اليونان. فلم تشهد عين ما تحقق، ولن يتصوره عقل. لقد حل محله اليوم صخور رملية وحصباء."(٦٣) فى دليــل فورســتر تمــر وتتوالى المحطات تباعا، الأزاريطة **Mazarita** "كنيسة القديس مارك، حيث دفــن فيها، ترتفع لعنان السماء شامخة على شاطئ البحر، وراءها لا ترى شيئا آخر."

هنا فى الشاطبى **Chatby**: تم العثور على طرق قديمة ومــصارف. وفــى "كامب شيزار **Camp Cesar** : لم يأت قيصر إلى هنا أبدا."وهذه منطقة كليوبــاترا "لم تشهد كليوباترا هذه المنطقة أبدا.. فقد غادرت المكان من موقــع عنــد قاعــدة الجرف على حافة البحر، وهذا قبر بطلمى **Ptolemaic** جدرانه مطلية، ولكن حتى لو وصف شخص هذه الأشياء فإنها قد تهدمت."وهذا مــسجد ســيدى جــابر **Sidi Gaber** : وهو مسجد بناه أحد أولياء الله الصالحين، الذى ظهرت كراماته ليلاً وهو يطير ليرعى الأطفال، إلخ. هنا محطة "مصطفى باشا: على اليمين على الطريق تل أبو النواطير **Abou el Nawatir** وهى أعلى منطقة قريبة من الإسكندرية، منظــر ساحر." (٦٤)

وقد تداعى تل أبو النواطير بسبب كثرة الاستخدام حتى بات من الصعب رؤية التل من عربة الترام فقد أخفته المبانى الشاهقة المحيطة. يتذكر "جرافتى سميث" فى خلال الحرب العالمية الأولى، وهو منزل صغير كان المسكن الصيفى للمندوب الحكومي- يقف المنزل وحيدا شامخا، وغير بعيد عنه بعض الفيلات الفاخرة التى كانت تشاركنا الجانب الأرستقراطى." (٦٥) حاليا نفس المنطقة تسمى "رشدي" فإذا ارتقيت المنطقة فستمر على فيلا بعد فيلا ولكن فى الغالب بيعت حدائق تلك الفيلات لتقام فيها مبان سكنية لتكون مثل المنطقة السكنية البريطانية، أقيمت بعد رحيل فورستر، ولم يعد لها شكل حاليا.

كتب فورستر إلى "فيرجينيا وولف" فى ١٥ أبريل ١٩١٦ "أتصور أن الحضارة هنا سوف تنتهى، لقد ماتت فى القاهرة فعلا، القاهرة التى تضم مراسلى الحرب و ١١٩ لواء الأندية المرتبكة ورجال جادين. ولكن الأمر مختلف فى الإسكندرية إذ تستطيع أن تقرأ كتبا وتستحم" (٦٦) كان يكتب من حديقة فيلا فورنيس **Furness** على تل أبو النواطير، حيث قطعة مدفعية، وهى من قطع السلاح البريطانى القديم من عام ١٨٨٢، موجودة بالقرب من الرمل، الإسكندرية تبدو أنها بعيدة عن الحرب الأوروبية الحالية: المحلات مازالت تتباهى بأنها قدمت لولى عهد فيتمبرج **Wurttemberg** وشركة الترام كانت تعلن "ملجأ للشابات **Schutz fur junge Madchen**" كان لدى فورستر مشروع كتاب غامض عن الإسكندر الأكبر (مثل **Maurice** وإن لم ينشر الكتاب")

وكلمة **Furness** كانت ترجمة لـ **Anthologia Palatina** وأحيانا كان فيها جماعة فى منزل ليفانتين **Levantine**. "إلى متى قد يستمر؟ ياه !" (٦٧)

بعض من أصدقائه الكثيرين كانوا يحملونه المسئولية. "أنا عشت تماما على Furness والذى يبدأ مع مطلع أبريل يستريح من النفقات الحياة علـــى الفخامـــة - فالراتب الذى كان يتقاضاه فورستر من الصليب الأحمر قليل ولا يكفيه، وفعلا كان يعتمد على الدخل الخاص به، الذى كان يأتيه من إنجلترا - ويكتب فى رسالته إلى فيرجينيا وولف (٦٨) "كما أننى أعطى دروسا فى اللغة الإنجليزيـــة مقابـــل أربعـــة جنيهات إسترلينية فى الشهر لشاب يونانى مهـــذب" واســـمه بيرســـل أناستاســـيد Perciles Anastassides فقد ولد وتربى فى إنجلترا، وأى مساعدة يتلقاها فى اللغة الإنجليزية فلن يزيد مبلغها عن مجرد تلميع احتياجاته من الدروس الخفية أكثر من قناع خفى لرعايته.

ولقد كان أناستاسيد تاجر قطن يعيش على ناصية شارع رشيد وشارع يونج غرب المتحف اليونانى الرومانى، وهو شاب يهوى الرسم وله اهتمامـــات ثقافيـــة، كان صديقا مقربا لقسطنطين كفافيس منذ نحو سنة ١٨٨٩ وإلى حد ما كـــان مـــن مؤيديه، فكان يُعيره الكتب وقد دفع له مصاريف أول زيارة له إلى اليونان فى عام ١٩٠١ ، وربما صاحبه فى بعض المضاربات التى قام بها فى البورصة حيث دفع له راتبًا باعتباره موظفا حكوميا. لقد كان هو الذى قـــدم Furness إلـــى كفـــافيس، واكتشف الرجلان أنهما يشتركان فى الكثير من الاهتمامات، يتذكر كفافيس، فيمـــا بعد، حوارا دار بينهما حول The Greek Anthology المختارات الأدبية اليونانيـــة "وقد كانت تعبيراته محكمة بليغة ورائعة "ووصـــف Furness بأنه "أفـــضل رجـــل مثقف من أصول طبقة فنية." (٦٩)

وكان اللقاء بين كفافيس وفورستر حينما حان، أهم لقاء أدبـــى فـــى القـــرن العشرين- كتب فورستر "أظن أنه من حسن حظى أنه فى ظروف الحرب الرهيبة التى كنا نعيشها أتيحت لى الفرصة للقاء أحد أعظم الشعراء فـــى عـــصرنا". (٧٠) -

وليس من الغريب تلك الادعاءات التى شاعت حول من قام بدور الوساطة. وفقا لتقاليد عائلة أنطونيوس **Antonius** أن جورج أنطونيوس هو الذى قدم فورستر إلى كفافيس. بينما ذكرت مصادر أخرى أنه كان أنستاسياديس هو من أسَهَم فى هذه المعرفة، على حين قال فورستر، بعد سنوات من اللقاء، إن "فورنيس **Furness** هو الذى اصطحبنى لرؤية كفافيس فى عام ١٩١٦-١٩١٧."(٧١)

وأيا كان الشخص الذى ساعد فى اللقاء بين فورستر وكفافيس، فلقد كان أنستاسياديس هو حلقة الوصل الرئيسية وربما كان الفريق اليونانى الذين تناول فورستر العشاء معهم فى يوم ٧ مارس عام ١٩١٦حينما تم تقديمه أول مرة إلى كفافيس. وقد شهد اللقاء نادى محمد على فى شارع رشيد **Rue Rosetta**(٧٢) وهو على بعد عشر دقائق سيرا على الأقدام من فندق ماجيستيك **Majestic** حيث كان فورستر مقيما فيه. ولقد كان فورنيس **Furness** وأصحابه أعضاء، وسرعان ما سجل فورستر العضوية فيه أيضا. كان النادى فخما وعالميا، وقد استحوذ على اهتمام رجال البنوك وتجار القطن وذوى الأملاك الذين يجلسون فى الشرفة يطالعون النساء الجميلات المتسوقات على طول شارع شريف باشا، أما فى داخل النادى فهناك ردهات وأريكات مريحة، ومكتبة وقاعات للقراءة والموسيقى وموائد للعب القمار.

وقد تعاقبت أمسياته الأدبية مع أصدقائه اليونانيين الجدد، ولكن صداقة فورستر لكفافيس وتقديره لخياله الشعرى المتميز قد استغرق بعض الوقت لينضج. مرت ستة شهور قبل أن يصف كفافيس بأنه "عضو من الطراز الأول فى المجموعة"(٧٣) وبعد مرور سنة لم يكن فورستر متأكدا مما يفعله له، كتب إلى جولدزورثى لويس ديكنسون **Goldsworthy Lowes Dickenson** فى يوم ١٠ يناير

١٩١٧ بأنه وجد كفافيس "شخصية رقيقة، فهو مثقف ومرهف الحس- ولديه قدرات هائلة ولكنه خصصها فى إعادة ترتيب وبعث الماضى." (٧٤)

فى غضون ذلك، حاول فورستر أن يستبعد ماضيه، وتابع بإصرار حريته الشخصية فى حاضر مدينة الإسكندرية. بعد شهر من تعرفه على الشاعر فى نادى محمد على وخلال بقائه مع فورنيس **Furness** فى أبو النواطير، أول شيء لمحته عين فورستر (ذات صباح مشرق) لمح محمد العدل، وهو شاب يعمل محصل تذاكر فى الترام. فى الأيام التالية وفى نفس الموعد يقف فى محطة مصطفى باشا – ينتظر مجيء الترام المتجه إلى باكوس. لقد ميز الترام بلونه الأزرق(٧٥)، كان يلاحظه يتحرك بين الركاب دون أن يدوس على أقدامهم. و ذات مرة حينما ركب فورستر مع فورنيس رأى محمدا يضحك مع جندى، ثم حينما وصل إلى محطة الرمل، لمس زرا من بذلته بعد زر آخر بعد ملاطفة للوداع لقد كانت جميلة، وابتسما، فقال فورستر : "إن الشاب تمتزج فيه دماء أفريقية سوداء" (٧٦) وافقه فورنيس.

ولكن إشارة محمد إلى الجندى ذكرت فورستر كيف أنه شعر فى نفسه بالإحباط الجنسى. بعد أسبوع من وصوله إلى فيلا فورنيس، كتب فورستر إلى صديق: "لقد استمرت هذه الوحدة مدة شهور ... إننى متأكد من أن بعض الناس المهذبين الذين أقابلهم يوميا يريدون أن يساعدونى إذا عرفوا ولكنهم لا يعرفون، فإنهم لا يفهمون ماذا أريد... أجلس معهم وأميل عليهم مقابل أشياء بسيطة – وتنتهى اللحظة وتظهر بعض الخيالات فى منامى."كان يشير إلى الجنود الذين قابلهم فى المستشفيات:

"أمر فظيع أن تعيش فى حرمان، تكبته الآن وفيما بعد ولكنك لا تستطيع أن تقتله ولا تريد أن تقتله." (٧٧)

ربما كانت بريطانيا أفضل قوة شرطة منذ الإمبراطورية الرومانية، ولكن ميزان القوى الحالى قد خلق مطلوبون جديدة. حتى لو اتضح تماما فى نهاية عام ١٩١٤ بأن الملايين من الرجال مطلوبين للقتال فى الحرب، فإن تجنيد جيش ضخم فى التاريخ البريطانى اختيارى. اعتقد فورستر بأنه حسم التزاماته وانضم للصليب الأحمر، ولكن فى يناير ١٩١٦ وافق للبرلمان على قانون التجنيد الإلزامى وفى يونيه قرر الصليب الأحمر أن يأذن للعاملين فيه القادرين على الخدمة العسكرية. كان مزاج فورستر مضطربا. قال لرئيسه فى الصليب الأحمر فى مصر إن قتل إنسان آخر أمر فظيع ويثير الاشمئزاز، وتم التصريح له بالعودة إلى إنجلترا حيث يعرض قضيته أمام المحكمة بأنه من معارضى الضمير. ولكن فى ذات الوقت"أصدقاؤه المخلصون والمتعاطفون معه(٧٨) تدخلوا مع الجيش الذى أبلغ الصليب الأحمر بأنه قد استغنى عن فورستر"، ثم إلى أمه: "إننى أشعر بالخزى من لعبة شد الحبل. إن لم أستطع تفادى الجيش بالوسائل الواضحة، إذن فمرحبا بالفساد! فضلاً عن أن يكون هناك ضمير!."(٧٩)

ثم كتب فى ٢ يوليو إلى فلورنس بيرجر -وهى زوجة طالب جامعى من أيام الدراسة فى كوليدج كنج College King والتى اكتشف أنها صديقة حميمة- كتب يقول لها : "إننى فنان، فبعد أسبوع من التوتر فهذا الشخص من حقه أن ينطق بهذه العبارة البذيئة – ويجب على الفنان (نعم! إننى أسعى إلى أن أقول أيضا!) أن يعيش حياته". ثم يهمس قائلا : "ذكرت هذا لك لأننى لا ينبغى أن أقوله لأمى – فليست أمامى فرصة مناسبة لتعرف شيئا عن تلك الروح المثيرة." (٨٠)

كانت الإسكندرية مدينة من المدن غير النظيفة ولكن تجد فى بيئتها ومحيطها سحرا يجذبك إليها [٨١]. من "أبو النواطير" ينزل جنوبا باتجاه بحيرة حضرا Lake Hadra تقع مقابل حدائق قصر النزهة، والتى كانت ضاحية إليسيس Eleusis، حيث عاش هناك الشاعر كليماخوس Callimachus. لقد قرأ عن كليماخوس وهو جامعة كامبريدج، ولكن لا يمكن أن تكون موضعا للمقارنة مع الماضى والآثار القديمة وقراءة أبيات الشاعر فورنيس فى قصيدته in situ :

أخبرني أحدهم، هيرقليطيس عن نهايتك

بكيت وتأملت كم مرة أنت وأنا

غابت الشمس مع كلامنا، حسنا وتتمدد

الخرائب المهجورة في كل مكان، صديق كاريان

ولكن عندليبك، وأغانيك مازالت تتردد

حتى إن الموت القابض على كل شيء لن يقتلها. [٨٢]

إن حافة البحيرة والحدائق إلى الجنوب كان ترعة المحمودية، وهى الشريان الذى أعاد الحياة إلى مدينة الإسكندرية فى عهد محمد على، ولم تكن الترعة تلتف على طول الجانب الجنوبى للمدينة المعاصرة، بل كانت ربما تتبع نفس طريق الترعة القديمة، إلى منطقة كانوباس Canopus (حيث اعتاد أهل الإسكندرية الخروج فى قوارب للترفيه عن أنفسهم ولعبادة سيرابيس Serapis [٨٣]. هنا يتناول فورستر العشاء فى مطاعم متوسطة.[٨٤] ويتابع سيره على شاطئ الترعة فى اتجاه الغرب ومياه المريوطية فى الشمال، إلى الجانب المجاور للبحيرة من أشجار النخيل والموز وحدائق الخضروات لا تبعد كثيرا عن منطقة "كوم الشقافة" ومحطة

الجابرى Gabbari، حيث ترقد قرية صيد صغيرة أقيمت على خليج صغير، اعتقد أنها قرية يابانية. وقام فورستر بنزهات طويلة سيرا على الأقدام على طول ساحل البحر المتوسط، والذى كان فى تلك الأيام على مرمى بصر من ترام محطة الرمل. وقد تم بناؤه بين عامى ١٨٦٠ و ١٨٧٩، كانت إضاءة خط محطة الرمل قد تغيرت فى عام ١٩٠٤، إلى خط إضاءة كهربائى. فى فصل الشتاء كان المكان مغطى بنباتات جليدية والزعفران والزهور البرية، حتى إن الرمل وضع مع براعم متفتحة مشرقة كأنها مطلية بالذهب. أما فى فصل الربيع وحتى فصل الخريف فالشاطئ يمتلئ على مرمى البصر بهواة السباحة على الشواطئ الرملية والخلجان الصغيرة ويمتد لمسافة تسعة أميال من الميناء الشرقى إلى المنتزه، وربما يقترب من مدينة مثل كليوباترا، ورأى فورستر من نفسه أنه يستطيع السباحة دون ملابس "فالمشى على طول الساحل من الإسكندرية إلى محطة الرمل نزهة ساحرة دائما- جرف متفتت وشواطئ رملية ممتدة وصخور مسطحة وأطلال منازل قديمة ومقابر تعين المرء على اكتشاف مدى غوص موقع المدينة." وفى مكان كيب لوكياس Cape Lochias هناك أقام البطالمة قصرهم الملكى لتنسم عبير البحر العليل كل ذلك حاليا تحت ماء البحر المتوسط، أطلال الموقع الضيق من السلسلة Silsileh، حيث تم فى عهد العرب تربية الخنزير. فاريلون Pharillon المصغر ليس أكثر من وميض تذكيرى لعظمة الفراعنة التى تحلقت على اللسان المقابل للميناء. "لا يوجد طريق شرق السلسلة Silsileh. إن الدافع لمشروع فخامة الكورنيش أخفق، والمشهد الرائع حل محله كآبة قياسية لأن البيئة هى أكبر المدن."(٨٥)

يذهب فورستر إلى السباحة قبل الإفطار، يتذكر فى مبانى القديس مارك، بعد ذلك فى الصباح، وبعد ذلك يتسلل إلى المطعم الإيطالى الصغير، ثم نقل إلى المستشفى "(٨٦) وكتب إلى ديكنسون فى ٢٨ يوليو يقدم لها لمحة عن الجنية

الأرضية: "والمنتزه بين أيكة من شجيرات وطرق تظللها النباتات المزهرة العطرة، وعلى صخورها البحرية نتوءات ساحرة من صخور ورمال، ومئات من الشباب. يمشون عراة الصدور والسيقان حفاة يرتدون شورتات قصيرة زرقاء وقمصانًا زهرية شاحبة تؤكد على بشرتهم القمحية الرائعة، وهناك يقضى الكثير من أولئك الشباب نهارهم عرايا، دون إحساس بالخجل أو توبيخ (الكلمتان الأخيرتان تم شطبهما)... لقد سعدت بالمنظر، ولكنى فى ذات الوقت حزين جدا، لقد جاءوا من منطقة سيئة، كل هؤلاء الشباب، وفى غضون أسبوعين، وفى أقل من أسبوعين سيعودون إليها: زبد الموج يوحى بجمال أخاذ.. فى كل مرة أخرج من هذا المكان وأفكر فيها" جمالها الطبيعى يضعفه الموت والشيخوخة والفقر والمرض، ولكن العالم الذى لا يجب أن يعذب نفسه من الاستفزاز المتكلف؟ فمن الواضح أنه ليس فى يومنا وليس فى حياتنا الوطنية"(٨٧)

ربما فى المنتزه كان من الممكن أن يمارس الجنس مع جندى على الشاطئ. فى ١٦ أكتوبر كتب إلى فلورنس بارجر يقول: "أمس ولأول مرة فى حياتى انتزعت الاحترام عنى." لقد أحس بمجيء اللحظة منذ بضعة شهور وعندما حانت لم يجدها رائعة ولا قذرة، بل تركت فيه حزنا. فلم يجد شيئا حميما فى العمل، لا شيء إنسانيًا، لا شيء أبعد من إشباع النهم الجسدى، وهذا يبدو تأكيدًا على أن روحه متعلقة بالحياة" مشدودا بعاداته التى اكتسبها طوال سبع وثلاثين سنة، من إرادته الحرة، أو طموحاته. ثمة سيل جارف فى نفسى لا يهدأ أبدا" ولكن لم يكتشف منفذا: "حياتى.. محكوم عليها بتهذيب الكلمات ومحكوم على بالوحدة بدنيا. "ولكن الرسالة تلح : "حسنا عزيزى، هذه أخبار غريبة يتلقاها ما ترون، ولكن عليك أن تتلقاها لأنك الشخص الوحيد فى العالم الذى أود أن أحكى له."(٨٨)

ولكن ثمة شيء آخر حول ثقته، ففضلا عن قدرتها على التحمل وراحته فى معرفة بأنك "مثلى تحب أن تروى الأشياء."[٨٩] كانت فلـورانس بـارجر أيـضا صديقة لوالدته وعاشت وحيدة بعيدا بمسافة خمسة أميال بعيدا عـن منزلهـا فـى منطقة ويبريدج، سيورى Weybrige Surrey، كلتا السيدتين عند دعوة فورسـتر، عرضتا خطاباته، فيما عدا تلك الخطابات التى يتعمد فيها وصف عيون فلـورنس، والتى كانت تحمل رعشة التحدى.

شيء فى آخر الربيع، أو فى مطلع الصيف، كانت عايـدا بورتـشجريفينك Aida Borchgrevink قد وجدت غرف فورستر مع وصيفتها الـسابقة "أيـرين" اليونانية الطائشة من كورفو حيث اللغة الإيطالية كانت ممزوجة باللغـة الفرنـسية حتى عام ١٨٤٨، كما لو أنها توقفت لتكون فقط فى الإسكندرية. كانت أيرين تمتلك عقارين: أحدهما فى شارع سابا باشا Saba Pasha لا يبعد كثيرا عن عقار عايـدا، والآخر فى منطقة كامب شيزار قريب من المدينة، وبدت دائما أنها كانت تتنقل بين العمارتين، تسحبه وراءها وتشعره وكأنه، كما يقول "أشبه بدمية. كانت تتسلى بـه، وهو يتمتع باعتراضاتها التافهة ويأكل الكثير حتى يسعدها، ويتقبل عطفها، قال ذات مرة "لقد نسيت تماما أننى فى منفى."[٩٠]

لو أن أيرين كانت شخصية غريبة الأطوار، فإن عايـدا بورتـشجريفنك روح متمردة تحلق فوق الأعراف والتقاليد. وقد وصفها فورستر بأنها فاتنة ذكية وعاطفية، لقد كانت بين الذين يستحوذون على اهتمامه خلال مشاكله فى التجنيد. بيتها المـريح المليء بالكتب الكائن على جرف فوق خليج ستانلى فى قلب محطة الرمل.

(ضاحية ممتدة حيث يعيش البريطانيون والأجانب"كما كتب لها فيما بعد فى دليله، "الحدائق الجميلة الخاصة هى أفضل شيء فى مـصر")[٩١] وبـالقرب مـن

محطة سابا باشا حيث الترام الأحمر لمنطقة فيكتوريا والذى يمشى فى طريق ساحلى مباشر يأخذه فورستر ليذهب إلى المنتزه. كان غالبا ما يقطع رحلته عندها ليتناول الغداء فى حديقتها الغناء، ثم يمشى إلى الخليج حيث علم نفسه السباحة، يقول فى نفسه "عمل روتينى، "قدمه لتكرار الحياة فى المدينة"[٩٢] "رغم أنه كان يشير إلى الطريقة التى بدأ فيها يستحوذ على اهتمامات عايدا، مظهره الأشعث، وعادته فى الوقوف على ساق واحدة لاويا الأخرى حولها جعلها تظنه خجولا، ولكنه كان يفاجئها بمداعباته الجريئة، وملاحظاته غير المتوقعة وهو حاليا يسر لها بشيء حول أشواقه الجنسية.

ففى مزاحها وربما فى دافعيتها وحتى فى حذرها، فإن قراءة شخصيته أصرت على استدعاء ريكى بعد اكتمال فيليب من خلال إصرارها على استدعاء ريكى، بعد بطل رواية " The longest Journey والتى تحتويها التفاصيل والموضوعات هى فى كثير من الأحوال تقليد لإبداع حياة فورستر. بعد سنوات طويلة أطلق على الرواية "واحدة من أسعد الروايات التى كتبتها، "لقد جاءت دون معرفتى، "ومن خلال إحساس سحرى بأننى زرتها".[٩٣]

البقرة هناك- هكذا بدأ روايته "The Longest Journey بدأ الحوار بين طلاب الجامعة، فى غرفة ريكى فى جامعة كامبريدج. "كانت فلسفة، موضوعهم، يتناقشون فى وجود الأشياء. هل الأشياء موجودة فقط عندما ينظر إليها المرء؟ أو أنها موجودة بذاتها؟ فكل ذلك مهم، ولكنه فى ذات الوقت أمر صعب. بدا الأمر تبسيطا للمسائل، لقد كانت أمورا مألوفة، حقيقية وبالتأكيد والحقائق التى فسرتها تصبح مع الوقت مألوفة وراسخة أيضا. فهل الشيء موجود أم لا؟ فهذا أفضل من التقرير بين الموضوعية والشخصية." [٩٤]

ولكن فى أول يوميات فورستر فى مقدمة The Longest Journey ذكر أن البقرة ليست موجودة هناك، "فالفكرة التى تسرى فى الرواية كلها، هى أن الإنسان يكتشف أنه أخ غير شرعي"[٩٥] كان ذلك فى عام ١٩٠٤، ولكن بعد ثلاث سنوات اكتشف أن الاختيارات الأخلاقية هى التى قدمها من خلال موضوعه: ريكى يكتشف أن الحقيقة حول ستيفن، الذى لا يعرف عن علاقاتهم شيئا، ويقرر أنه يجب أن يقول الحقيقة."[٩٦] فقد كان هدف زوجة ريكى هى أن تستأثر بزوجها. فلم يكن أى منهما أخرق مثل ستيفين ولكن كانت ريكى تضغط على موضوعه: بدا لى أن هنا وهناك فى الحياة تلاقيا مع شخص أو حادثة رمزية، فهى ليست شيئا فى ذاتها ولكن للحظة تبدو أنها تقف لمبدأ خالد. نقبل الموضوع كله، بأى ثمن كما قبلنا الحياة. ولكن إن خشينا من رفضها، فإن اللحظة التى نتحدث عنها تمر فإن الرمز لم يظهر ثانية- ولكن فى مؤخرة روحه قد عرف بأنها المرأة التى قهرها."[٩٧]

وفى حالة الإخفاق فى قبول ستيفين كشقيق له، فإن واجبنا هو أن نعترف بأن كل إنسان كائن تافه."[٩٨] – بينما كان ريكى يعانى من العواقب الأخلاقية من إخفاقه فى مواجهة الحقيقة. وتنتهى رواية The Longest Journey عندما يقوم ريكى بإنقاذ حياة شقيقه، على حساب التضحية بحياته. وبالنسبة للقارئ أمر غريب وعمل غير سار لمحو الذات. ولكن بالنسبة لفورستر فهى تحمل حقيقة سيرة ذاتية: العلاقات الشخصية يتم تشجيعها فى جامعة كامبريدج، ولكن فورستر يئس من أن حب شقيقه "قد يكون ممكنا له، وفى لندن، على سبيل المثال قد دفعها لتجوب حديقة هايد بارك Hyde Park والتسكع فى المراحيض العامة. فهذه الحياة أو تلك هى التى تفتقر للروح وهى أقصى ما يبلغه – فى الواقع حتى عام ١٩٠٩ عندما كان فى الثلاثين من عمره كان حاله أسوأ من ذلك إذ طبع نحو ثلاث روايات، فهل عرف منها فعلا كيف تتم المعاشرة الزوجية. "فقط ارتباط " كتب فى روايته

"Howards End" بعد اكتشافه "... والحب الإنساني سوف يبلغ ذروته. فلم تعد الحياة في الشظايا.. فقط الارتباط والبهيمة والناسك، سرقا من العزلة وهي الحياة، التي تموت."(٩٩). ولكن في خريف عام ١٩١٦ بعد ممارسة الجنس مع جندى، خاف من أن يكون مصيره للأبد يسكن في أطراف معزولة من شظاياه وطوال أسابيع غاص في اكتئاب ونشر الكآبة بين أصحابه.

في أوائل نوفمبر، انهار، "ذات الشيء المتأنق، ليقوم بأول زيارة" كتب إلى فلورانس بارجر **Florence Barger**. في البيت عند تشارلز ليفيكس في ١١ شارع رشيد من العباسية في الحي اليوناني وهي منطقة أوربية ثرية متفرعة من شارع رشيد نحو بوابة الشمس. عاش ليفيكس وهو بريطاني ويعمل بالمحاماة في المحاكم المختلطة كما كان أيضا يهوديا وروحا معلما في جمعية الإسكندرية الصوفية. كان الجميع يتحدثون عن العقائد والآداب وفي روح المدينة الهيلينية المسيحية "قد وجدوا تعاليم التجسد في رواية **Howard Ends** ثمة اهتمام كبير وتسامح بين الجاليات المختلطة هنا"قال فورستر لفلورنس، رغم أنها مدينة رائعة بتنوعها الثقافي حيث تختلط الأديان في عنصرها، لا تترك مجالا لم "تعرفه جامعة كمبريدج باعتبارها فكرة".

يضعها على الفراش، ويدللها في ليفيكس -"حمامات ساخنة، وثلاثة خدم من العرب يقفون على رأسي" (١٠٠) فكر فورستر كيف أن **القديس أثناسيوس Athanasius** وهو بطريرك الإسكندرية في القرن الرابع الميلاد، دمر تناغم المدينة الهيلينية القديمة من خلال نشر تعاليم الأرثوذكسية المسيحية في إنكار الذات والتي اعتبرها فورستر تحولاً خاطئًا تبنته الحضارة الغربية.

بعد أسبوعين من زيارة ليفوكس تقيأ، ورغم أن أيرين كانت تقوم بتقديم سوائل ساخنة من أعشاب طبيعية، فإنه استمر في التقيؤ. اصطحبته للطبيب الإنجليزي، وشخص حالته بأنه مصاب بالصفراء، عندها تم إرساله إلى المستشفى

العسكرى المطلة على بحيرة مريوط. كانت المستشفى جميلة مع شروق أول شعاع للشمس فى الصباح، وصفاء الأشجار، "فقد بدا لى أحيانا وكأننى فى الهند."(١٠١) لقد اعترف بسعادته، فلم يكن مكلفا بعمل، لقد أحب الفراغ، ولكن تلك السنة التى قضاها فى الإسكندرية- وحتى ذلك اليوم- تركت فى نفسه إحساس محصور فى خندق. ثم انتقل إلى المنتزه ليستكمل علاجه ونقاهته.(١٠٢)

فى أول يناير ١٩١٧، عندما بلغ سن الثامنة والثلاثين، عاد إلى مسكنه وراح ينسخ من رواية والتر باتر **Marius the Epicurean** قطعة من ماركوس أورليوس من المدينة المثالية، ولكنه كان يشعر أنها تكمن هناك أبعد من فهمه عما كانت فى مدينة أفلاطون **Plato**، فقد كان ماركوس "مقتنعا بأنها كما تتضمن الرقة والشفقة والفضيلة والحكمة والجمال فهى صفات ليست كافية". (١٠٣)

فى غضون بضعة أيام بدأ يتابع محصل الترام "محمد العدل" ومن خلاله أصبحت مدينة الإسكندرية مدينته الفاضلة.

عادت أيرين فى وقت متأخر فى أول يناير فى عام ١٩١٧، ركب فورستر ترام باكوس وجلس هناك حيث كان يحتفظ محمد بمعطفه. كانت الليلة باردة، وطلب محمد منه أن ينهض ليأخذه. لم يتحدثا من قبل، وقد كان فورستر سعيدا باكتشاف أن محمدا يعرف الإنجليزية وفى المقابل تبادل كلاهما نظرات الإعجاب على سلوكهما. وبعد ذلك إن تكرر اللقاء فى محطة الرمل، فإن محمدا يبادره بالتحية. وبعد ذلك فى مارس، قدم له فورستر ثمن التذكرة، فقال محمد "لن تدفع شيئا" (١٠٤) وهو يذكره بواقعة المعطف، ويذكر له كم كان لطيفا معه إذ قدم له السعادة.

فى الليلة التالية بينما كان فورستر عائدا إلى محطة الرمل أهداه نسخة من مجلة بنش **Punch** للكاريكاتير. كان فورستر يكتب بعض الملاحظات عن علامة

محمد ورقم ٦٨ ويضع دبوسا أبيض وأزرق، ولكنه لا يعرف اسمه ولا جدول عمله، ويتوانى عبثا. وذات مرة وجد ترام محمد. ركبه وقدم لمحمد سيجارة ولكن محمدًا رفضها وقال إنه نادرا ما يدخن لأن "وزير المالية لا يسمح لي بذلك."[١٠٥] واعتبر فورستر هذا إشارة للبقشيش وعرض أكثر من أجرة التذكرة، وقال له أن يحتفظ بالباقى، غير أن محمدًا قبض يده وترك القروش تسقط على الأرض. منظر مضحك يرسمه فورستر حوله بعد أن جثا على ركبتيه ليقنع محمدا بأن يقبل البقشيش. وبدوره فإن تردد محمد أسعده كثيرا، في ذلك الوقت زار فورستر منزل أحد معارفه، كانت عشيقته هناك، وكذلك عشيقة أحد أصدقائه- وهى فتاة ذكية تحدثت معه عن ديستيوفيسكى. حسدتهما على طمأنينتهما وليس على علاقتهما. "لقد كان مداهنة واستحياء وأساسًا تجاريًا: والتى وجدت فيها – ليس خطأ ولكنه بعيد عن الإثارة الجنسية بشكل كبير."[١٠٦]

وقد استمر الغزل حتى أبريل ومايو، وفورستر يقضى الساعات الطويلة ينتظر الترام المطلوب، والمحصل المرغوب، وهو طوال الوقت يجد الوسيلة ليرتب اللقاء لكى يبدو لقاء مصادفة. ذات مرة بينما كان فورستر على موعد مرتبط بالمستشفى فى المنتزه، قال محمد "أريد أن أسألك سؤالا عن المسلمين وأرجوك أن تجيب عنه بصراحة يا سيدى."ولكن لم يسعفه الوقت للإجابة وقال إنه سوف يلحق به فى رحلة العودة، وقد طلب فورستر من محمد بأن يحدثه عن كيفية قضائه وقته. ثم سأله محمد: "لماذا يكره الإنجليز المسلمين. فقال فورستر "إنهم لا يكرهون المسلمين. فرد محمد "بل يكرهونهم، لقد سمعت أحد الجنود يقول لزميله فى الترام "هذا مسجد لممارسة الرذيلة (عذرا أيها المسلمون) اعترض فورستر على ذلك قائلا إن أعز أصدقائه هو مسلم، وقد ذهب إليه فى الهند ليزوره. بدأ محمد يفكر فى طريقة أفضل فى إنفاق المال: "لو كنت غنيا لبنيت مستشفى للعيون، ثم مسجدا."[١٠٧] ثم أنفق الباقى على نفسى، ويفعل كما يفعل فورستر يسافر ليرى العالم.

وعرف فورستر وقت دوام محمد، وبدأ يتخلى عن فكرة أن اللقاءات التي يجريها معه مصادفة، كما كان يتجنب المناقشات الطويلة حتى يدفع تذكرة الترام، ولكن خلال رحلاتهما المتكررة معا كانا يقضيان وقتا جميلا يتبادلان فيه أطراف الحديث. ولكن الحادثة التي استحقت التوبيخ في لحظات ركوب المترو الممتعة، والتي سببت أزمة العلاقة بينهما، فهي ما كان ذات مرة حين صعد مفتش التذاكر واكتشف أن فورستر استقل المترو بدون تذكرة، التفت إلى محمد غاضبا. بعد ذلك سأله فورستر عما حدث، فقال محمد: "لقد طردني من العمل."أحس فورستر بالرعب وقال "هذا أمر مؤسف" ولكن محمدا قال "لماذا؟ لقد قمت بعمل جيد "وحاول أن يغير الموضوع، وسأله كم المسافة من هنا إلى الهند. "صاح فورستر "لا أعرف ولا أهتم! متى أراك ثانية؟"(١٠٨)

في صباح اليوم التالي ذهب فورستر لزيارة فورنيس **Furness** الذي استدعى ناظر المحطة وعاد بأخبار طيبة وبأن كل شيء على ما يرام. ورغم التعاطف، فقد طلب من فورستر بأن يكون حذرا- "من الظروف العامة والمتفرجين... إلخ. – كما نصحه بأن يعود للترام الذي فات محمدا. فتجاهل فورستر النصيحة: "بل على العكس، تقدمت للأمام وهو الشيء الذي تباهيت به طوال حياتي". "قال محمد له إن هذا الموضع قد سقط من اهتمامي، وسأله إن كان قد قابل ناظر المحطة. فأجابه فورستر بالنفي، ولكن عندما سأله في طريق عودتهما إن كان يمكنه أن يقابله، فأجابه محمد بكل امتنان"في أي وقت وفي أي مكان وفي أي ساعة." (١٠٩)

كان محمد يبلغ نحو سبعة عشر عاما عندما رأى فورستر أول مرة في ربيع ١٩١٦ خلال بقائه مع فورنيس، ولم يزد عن الثامنة عشر عندما بدأت علاقتهما. كان آخر لقاء بينهما في فبراير ١٩٢٢، وعندما مر بمصر ثانية في

طريق عودته من زيارته الثانية إلى الهند. فى إنجلترا فى غضون بضعة شهور تناول مذكرة وبدأ يكتب "رسالة" إلى محمد، استمر يكتب فيها بين الحين والآخر وطوال سبع سنوات. وأخيرا فى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٩، كتب فيها :

إلى محمد العدل :

الذى توفى فى مدينة المنصورة فى الثامن من مايو ١٩٢٢ وعمره يناهز الثالثة والعشرين، مات بعد معاناة من داء السل الرئوى، كما ماتت أمه، ومات أبوه وشقيقه وابنه، جميعهم ماتوا قبله، ثم ماتت ابنته، أرملته التى تزوجت بعده.

وإلى حبى له.

لقد بدا فورستر فى "خطابه "كأنه يعود إلى تلك الليلة فى مايو ١٩١٧ عندما قال له محمد "فى أى وقت وفى أى مكان وفى أى ساعة: "الليلة يجب أن أكتب إليك بكل اشتياق حتى لو كنت مضطرا لتمزيق صفحات الرسالة فيما بعد. لا بد أننى أحببتك بنفس الطريقة ولكن كيف يأتينى الإحساس ويختفي! لقد جاءنى ذلك الإحساس عنوة عندما وافقت أول مرة أن تقابلنى. فنزلت من الترام فى محطة سيدى جابر ثم عرجت على البيت فى الظلام." (١١٠)

ومحطة سيدى جابر لم تكن المحطة التى يجب أن ينزل فيها فورستر من الترام. فمن هناك كانت المسافة سيرا على الأقدام طويلة إلى أيرين، سواء فى عودته إلى كامب شيزار أو محطة سابا باشا، (حيث كان يعيش أحيانا) وربما يتذكر تحذير فورنيس فى ذلك الصباح، لقد كان مبتلى بالكثير من الحذر وكأنها عاطفة مشبوبة فى منزل متعثر من حيث هو فعل. فإن التأثيرات المانعة والمشوهة من مخاوف الكثيرين وتأثيراتهم على عقلية فورستر. وفى خلال أحداث الحرب العظمى على الإسكندرية، كان يخوض معركة شخصية وقد رأى أن المعركتين

مرتبطتان: فهو ليس جنديا ولكنه كان يقاتل ضد أهوال الحرب غير الإنسانية، يناضل من أجل العواطف والعلاقات الخاصة.

كان ثمة خوف من متابعة فورستر المحمومة لمحمد محصل الترام، بينما هو يعترف أنه انتهك تلك العلاقة بالنسبة لفلورانس في ٢٩ من مايو ١٩١٧: "لقد غمرني قلق شديد من تلك العلاقة الجميلة." ولكنه اعترض في نفسه، لا ضير من الإحساس بالخوف، فالخوف هو عاطفة المواجهة بأمانة، ما كان سببا للفساد الذي يضغط على العادة وعلى العرف الاجتماعي محاولا أن يجعله يتصرف بزيف وخداع.[١١١] فهذا العالم هو الذي عرفه في إنجلترا وعالم أمه، والذي احتفظ فيه بطفولته، وبعد ثلاثة أيام تالية، مشيرا مرة أخرى إلى محمد، قال لفلورانس عن مروره إلى البعد الجديد: "أشعر أنني رجل ناضج." [١١٢]

كان شوقه يفوق حدود العالم الاجتماعية والعاطفية التي كان يسعى لتحقيقها في رواياته، ولكن مع رواية **Howards End** ضرب الحائط، وهو يعترف بأن ما كتبه عن الهند بعد حادثة مسعود، "شيء يفوق مجال العمل والسلوك: مياه الأنهار ترتفع عن الأرض لتربط نهر الجانج بنهر جومنا **Jumna** ويلتقيا" [١١٣]- وهذا شيء أكبر من أي حيلة يمتلكها روائي، بركة بالنسبة لنهر الجانج ونهر جومنا يقال إنه يمكن جمعهما معا في نقطة التقاء النهرين عند ساراسواتي، استثناء خفي من عين الإيمان. هنا يأتي الحجاج الهندوس ليغتسلوا ويطهروا أنفسهم من الذنوب والعواقب الأخلاقية المتراكمة من أفعالهم الماضية. ولكن رغم أن فورستر استطاع أن يهب السعادة إلى الأخوات شيلجل **Schlegel sisters** في شكل زواجهم المثلي الصريح في رواية **Howards End** فإن بحثه عن الارتواء ظل خفيا ومخيبا للآمال، كما أنه لم يستطع أن يتباحث مع نفسه من خلال كتابة **Maurice**، وهي روايته الصريحة عن الجنسية المثلية.

أما فى الإسكندرية فقد أصر فورستر على أن يربط العاطفة بالجسد وفى محمد العدل وجد البركة التى كان يبحث عنها. فى تلك الليلة من ليالى مايو نزل فورستر فى محطة الرمل فى سيدى جابر واتفقا على اللقاء فى مكان يسميه محمد "حدائق الشاطبي"[١١٤]: لم يكن يعرف اسمها الحقيقى فشرح له محمد المعنى وأن الحدائق كانت قريبة من الشاطبى فسُمى كل شيء باسمه. تذكرة الترام احتفظ بها ضمن مذكرات لقاءاته: وعلى ظهر التذكرة كتب: "الأزاريطة وليس محطة الرمل على الطريق عند العمود".[١١٥]

فى منزله المضطرب من سيدى جابر: "من خلال الرمل فهو لا يقصد الضواحى الشرقية، ولكن محطة ترام الرمل فى المدينة لم تجذب انتباهه فى أثناء لقائهما هناك، بدلا من ذلك محطة واحدة هى الأزاريطة وفى الطريق منه إلى حدائق البلدية (حاليا حدائق الشلالات) فى دليله يصف فورستر الحدائق بعد الخط التالى من جدران العرب وتقاطع طريق عند ترعة "فرخة **Farkha Canal** القديمة التى كانت حتى بداية القرن العشرين مرتبطة بترعة المحمودية، والبحر: "فكلتا الترعتين كانتا تستخدمان، وانقلبت الحصون إلى لوحة رائعة من الروابى أو ما بقى من صلوات الماسونيين، وبالرغم من القليل الذى يستحقونه لأنفسهم، فقد اتضح تماما أنها تجمعت وبدت مثل قطعة من العصور الوسطى تحت نور القمر، فى حين يتم حفظ ماء القناة فى حوض صناعي هو مسكن للبط، فإن الحدائق يجب أن يتم استكشافها على الفور." [١١٦]

حتى من محطة الترام فى الأزاريطة، يمكن رؤية العمود يرتفع من الطرف الغربى من الحدائق. قصبة موحدة من عهد البطالمة مأخوذة من جرانيت أسوان، وربما من المبنى الضخم من الناحية الملكية المحيطة. يحيط بجانبى المبنى تماثيل سيخمت **Sekhmet** وهى إلهة الحرب برأس أسد، وقد تم نصب العمود لإحياء

ذكرى استعادة مدينة الخرطوم بواسطة الجنرال كيتشنر فى الثانى من سبتمبر ١٨٩٨، بعد ثلاث عشرة سنة من سقوطها فى أيدى الإمام المهدى Mahdi فى السودان ووفاة الجنرال جوردونGordon.

هنا فى مايو ١٩١٧ تم أول لقاء بين محمد المصرى الأنيق والمعتز بنفسه وفورستر الإنجليزى مقدما له الكعك. جلس الاثنان على أريكة أمام مشهد بط يسبح. "لا أهتم بالكعك، ماذا دفعت لهم؟ كم من القرون مضت وأنت تشتريها؟" (بعد ذلك ذكر لفورستر أنه يعتقد أنهم مخدرون.) ثم قال فجأة "أتود أن ترى مسكن بؤسي؟ سيكون مريعا."[١١٧] ثم مشيا إلى الأزاريطة ليأخذوا الترام إلى باكوس، بينما كان محمد يسلى نفسه بتوزيع الكعك بين الركاب.

باكوس حى مزدحم جدا وفقير، وكما أنه منطقة هادئة للطبقة الفقيرة، ومنزل محمد يقف فى وسط حديقة تظللها شجرة الجكرندة، (نموذج تقليدى لبيت متواضع فى منطقة باكوس، وربما لا يشبه ذلك البيت الذى عاش فيه محمد، الذى كان فى ١٢ شارع الكنواتى وهو متفرع من شارع مصطفى باشا، هنا فى ١٥ يناير ١٩١٨ حيث ولد جمال عبد الناصر، ابن ساعى البريد وحاكم مصر القادم). إن محمدا قد يستخف بقدره بطريقة ساخرة ويقول "مسكن البؤس"ربما بشيء من المبالغة، فحياته بسيطة جدا، غرفة واحدة تبدو لفورستر غرفة بائسة وخالية من الأثاث- فتح محمد صندوقا يضم كل مقتنياته، نثرها أمامه، وقال "مش كثير ولكنها نظيفة، لقد عرضت عليك كل ما عندى."[١١٨] ثم جلسا معا على السرير والطعام بينهما وراحا يتبادلان أطراف الحديث، ولأول مرة ينطق محمد باسم فورستر ويحدثه عن حياته. فقال إنه حضر إلى الإسكندرية قبل أقل من سنتين من مدينة المنصورة فى شرقى الدلتا، حيث تعلم القراءة والكتابة كما تعلم اللغة الإنجليزية فى مدرسة التبشير الأمريكية American missionary. بينما بقيت أسرته فى المنصورة، ولكننى

"أشعر دائما أننى منفصل عنهم آكل وحدى، وأعيش بعيدا عنهم وأفكر بطريقة مختلفة. ربما لم أكن ابن أبى."شعر فورستر بعدم الارتياح من سنوات حرمان محمد ولكنه كان متأكدا من نضجه، واستقلاله وأخلاقه، كتب إلى فلورانس، "نادرا ما كنت أصدق ابن مصر، فلا يوجد فى جسمه ولا فى عقله طمى النيل." (١١٩) وكان محمد مثيرا حتى إن الإنجليزى قد دخل بيته، قال له وهو يودعه "هذه أسعد ليلة فى حياتى."(١٢٠)

ثم عاد فورستر إلى غرفة محمد وقدمه إلى بعض أصدقائه، القابلة السورية، ومصرى يدير مكتبا للزواج، يتحدث الإيطالية، ولكن اهتمام فورستر كان منصبا على محمد: "إننى مفتون بشخصيتك وكلامك" كتب إليه رسالة فيما بعد: "وأبحث عن علامات توحى بأننا نتبادل المشاعر الحسية، "لاحظت أنك تضع يدك فى جيب الجاكت حينما نلتقى." (١٢١) الآن فقط نطق باسمه "محمد" ولكن لم يذكر شيئا عما فعله فى الحياة.

كان لقاؤهما الثالث، هى لحظة من السعادة - فى غرفة فورستر بمنزل أيرين فى محطة الرمل، فى منتصف شهر يونيه، و"بدأت الملاطفة."فى "خطابه" يتذكر فورستر كيف لعب الشطرنج ثم رقد على السرير:

"لمست ركبتك- انحنيت نحوى، مددت يدى ولمست شعرك، قلت لى "إن شعرى قصير ولكنه مجعد"ولمست شعرى وقلت "شعرك جميل" ومالت رأسى إلى رأسك، وعلى الوسادة، وضعت ذراعك الأيسر تحت رأسك. ثم تبعتها أول قبلة لنا.. وبالنسبة للباقى.. كان المساء مشوشا، رأيت كتلة فى بنطلونك، ففككت الأزرار، كما فككت أزرارى، أول شيء قلته لك "إننى مغرم بك؟" قد تكون هذه العبارة أثارت استياءك وتقول "ماذا تقصد؟" ثم هممت عندما رأيت حالى رغم

أننى كنت مهيأ لك. شيء ما أثار ضجرك. وعندما لمستك ثانية، دافعت عن نفسك وأوجعت يدى. لم تنصرف عن سريرى، ولكنك لم تدعنى أقترب منــك وصـــدفة خدشت وجهك، سال الدم، هنا انتبهنا. ذهبنا إلى المغسلة لنوقف الدم، ظننــت أنــك كنت تؤمن بالخرافات وأنك ستنتقم منى لأننى آذيتك، ولكن فى اليوم التالى، تقابلنـــا فى الترام وضحكنا معا مما حدث." (١٢٢) لقد استخدم فورستر نفسه عبـــارة "نـــاعم بالسعادة" فى وصفه لفلورانس ما قد حدث، فإن معناها " منحة"ولكن محمد يجب أن يدافع عن نفسه أمام عنف فورستر. وصفه ذات مرة بأنه أشبه "برجل جـــاء لـــيملأ ساعات الحائط" (١٢٣) فى الحقيقة، كان فورستر رجلا اعتاد علـــى الوصـــول إلـــى طريقه من خلال صياغة عبارات تبدو عكس ما حدث، رغم أنه بمعنى آخر للكلمة فإن استخدامه كلمة "مبارك" كان دقيقا تماما، فمعناها الحقيقى هو أن يجعلها مقدسة من خلال العلامة بالدم أو التضحية.

فى آخر يونيه كتب إلى جولدزورثى لويس ديكنسون قائلا: "لا أعرف كيف ستنتهى. ولكن كيف ينتهى أى شيء؟ يجب على المرء أن يعمل كما لـــو أن شـــيئا يدوم."(١٢٤)

لن يستغرق وقتا طويلا..

توضحها سنوات من الخبرة

وفى السطور التالية من "فى المساء **In the Evening**" والتى نـــشرت فـــى ١٩١٧ وكتبها فى السنة السابقة، إحساس بالضياع يسود فى شعر كفـــافيس. ومـــا يعوضه هو تذكر إحساس تختلط فيه الحياة بالمدينة:

ذكرى أيام اللهو

عاودنى صدى تلك الأيام

حريق من أيام الصبا الذى اقتسمناه

تناولت الرسالة ثانية

قرأتها مرات ومرات حتى ذبل الضوء

وفى أسى خرجت للشرفة

خرجت لأغير أفكارى عند آخر ما رأيت

شيء ما فى هذه المدينة التى أحببتها

حركة ضعيفة فى الشوارع، وفى المحلات [١٢٥]

كان كفافيس قد بلغ الرابعة والخمسين فى عام ١٩١٧، حينما تعرف عليه فورستر، وقد كان فى قمة نشاطه الجنسى المثلى، لأكثر من ثلاثين سنة. أما وقد صبغ شعره، وبدأ يعتنى ببشرته، فراح ينسحب إلى الذاكرة باستمرار ليستعيد ذكرياته. ولكن فى أيام صباه فى الإسكندرية، بدا وكأن لم تكن له علاقات جنسية، ولم يعرف عنه يوما أن كانت له علاقة دائمة مع أى صديق، ولكن، كان كفافيس سخيا فى دفع النقود من أجل الجنس:

الغرفة رخيصة وقذرة

متخفية فوق حان مشبوه

...

وهناك على فراش عادى مستوى

أحببت جسدا..

"ذات ليلة "(نشرت فى عام ١٩١٥) [١٢٦]

عندما كان كفافيس فى العشرينيات والثلاثينيات من عمره، ويعيش مع أمه فى شارع دى لا جار فى محطة الرمل، كان يدفع رشوة للخادم ليقلب له السرير ليبدو أنه قضى ليلته فى البيت ثم انسل إلى ضاحية العطارين **Attarine** أو إلى أبعد من المطردة فى الجنينة فى شارع أنستاسى **Anastasi** الموازى لشارع الراهبات **Des Soeurs**. هنا على الأطراف القذرة من المدينة الأوربية، شباب يونانيون أغلبهم من المهاجرين الفقراء يقومون بأعمال شاقة ولساعات طويلة فى مقابل أجور هزيلة، عمال فى محلات البقالة، أو سعاة فى حانة يعملون سبعة أيام فى الأسبوع، وعطلة يوم واحد فى السنة هو شم النسيم، وهو عيد الربيع فى مصر ويعود تاريخ الاحتفال بهذا العيد إلى عهد الفراعنة، والذى كان يصادف عيد "اثنين الفصح" فى الكنيسة الأرثونكسية. "كل ذلك الشقاء والحركة جعل أجسامهم رشيقة وخفيفة"كما لاحظ كفافيس، "أنهم كانوا يميلون دائما إلى النحافة. وجوههم بيضاء حين يعملون فى داخل المحلات بينما فى خارج المحلات تميل بشرتهم إلى السمرة، وعموما بشرتهم جميلة وشاعرية." ولكنه لم يكن محايدا بالنسبة لظروفهم الاجتماعية والتى يعارضها مع الشباب الثرى المريض وهو من الناحية النفسية قذر، أو سمين بسبب كل أنواع الطعام الدسم والمشروبات والأسرة الوثيرة.[١٢٧] لقد كان مفتونا بجمال أولئك الشباب الفقير ورأى أن يعوضهم عما يفتقرون إليه، رغم أنه لم يحاول أن يستغلهم، لقد كان منجذبا لقدراتهم. من الغرف العلوية فى الليل تسمع الصرخات والصيحات من المواخير حيث تتناول الفتيات والشبان كل طعام ومذاق: هنا من أجل حفنة من القروش كان شباب قصائد كفافيس يقدمون له أجسادهم المنهكة:

فى الأمسيات، وبعد قفل المحلات،

ثمة شيء يشتاق إليه

....

قميص لبنى جميل معروض فى أحد المحلات

يبيع جسده بنصف قرش أو قرشين

سألت نفسى إن كانت الإسكندرية العظيمة

من العصور القديمة تتباهى بولد

أكثر فتنة وبهاء وجمالا..

.. ليس لدينا تمثال أو صورة له،

مندفعا فى محل الحداد المسكين

مجهدا من العمل، منهك القوى، يعرض على إغواء رخيص

ثم يهده الجهد تماما.

"أيام من ١٩٠٩" "١٠ و ١١"

(نشرت فى عام ١٩٢٨) (١٢٨)

فى المدينة القديمة، يقول كفافيس فى هذه القصيدة، إن الجمال تم تشريفه فى الرخام. وكذلك تناقض الحاضر مع الماضى، ويقترح كفافيس شيئا إضافيا: إن الشذوذ الجنسى يعتبر حالا فى الإسكندرية فسادا أخلاقيا كبيرا، أما فى ماضى الإسكندرية العظيمة وفى العصور القديمة فقد كان الشذوذ الجنسى أمرا طبيعيا، كان يحتفل به النحاتون والرسامون ويهتف له الشعراء فى المقتطفات اليونانية **The Greek Anthology** تماما مثل أغلب أشكال الإثارة الجنسية الهيلينية. وإن كان الأمر كذلك، فلماذا يستهجنونه الآن؟ إنه الجدل الذى نسج طريقه خلال شعر كفافيس، هنا فى قصيدة وحيدة غير مألوفة ولكن أكثر من كونها انسجاما يبدع بين قصيدة وأخرى وبين الماضى والحاضر.

ولكن كما عرف عن كفافيس (فى مكان آخر من شعره، كان شديد التـدقيق فى اهتمامها بالتفاصيل التاريخية غير المعروفة) إن اللواط لم يكن لديه هذا الموقف فى الإسكندرية القديمة. فالشاعر كليماخوس Callimachus الذى كـان فورسـتر يقارن به، بالرغم من أنه كان ينشر بحرية شعره الجنسى الماجن، لم يعتبر منبـوذا لكونه لوطيا، يعانى من عشق الشباب، وقد صاغ إحدى قصائده. فما كان الأقدمون يحتفلون بالجمال الجسدى، ولم يبدُ أى نوع من الدهشة بأن الرجل قد يرغب أيـضا فى عناق وحب رجل جميل آخر. ولكن كان هذا فى سـياق الخنثـى وخـصوصا الممارسة بين الشباب فى سنوات المراهقة الأولى وقبولهم المسؤوليات الاجتماعيـة للرجولة. إن اللوطية تعتبر بغيضة لسببين: السبب الأول للحفاظ على التناسل فـى العالم؛ إذ إن معدلات الوفيات عالية، والسبب الثانى هو الرجال الأحرار الذين تقـع على عاتقهم المسئولية المدنية كاملة فى وضع هيكل بناء الاجتماعى، للحفاظ علـى مكانتهم السيادية والمتعلقة خصوصا بالنساء والعبيد. فالسماح للمرء فى أن ينخرط فى علاقة مع رجل آخر يعنى أن يضع نفسه فى مكانة المرأة من الناحية الجنـسية والناحية الاجتماعية. والنتيجة هى عهـر الرجـال مخـاطرة بعقوبـات قانونيـة واجتماعية غليظة أشد من العقوبات التى تتعرض لها الإناث، بالإضافة إلى النفور من طمعهم وشراهتهم التعويضية. كان الشاعر اليونانى القديم كليمـاخوس يرثـى حال ضياع الفضيلة فى عالم يكون فيه الأثرياء من الرجال يعرضون عليـه ثمنـا للإشباع، ويكون موردا قصيرا يصبح على المدى الطويل ازدراء متزايدا: "أكـره الشاب الذى يستطيع أى رجل أن يمتلكه ولا يعمل. أشرب من نافورة عمومية، كل الأشياء المشتركة تثير اشمئزازى." كان كفافيس محظوظا لأنه عاش فـى مدينـة الإسكندرية المعاصرة حيث الشباب الرخيص، ولكنه أيضا كان يعرف كليمـاخوس

Callimachus اللوطى الوحيد الذى لم يتقبله المجتمع، مثلما يجب أن يعترف بـأن الإسكندرية فى شعره هى المدينة المثالية، كان حزينا من خفة اليد.

فى يناير ١٩١٧ أبدى فورستر استخفافه بأن القوى الإبداعية لكفافيس كانت مكرسة لمراجعة وإحياء الماضى، ملاحظة من المحتمل أن ترتكز علـى الحـوار فقط، وبالنسبة له على ما يبدو أنه لم يعد قادرا على قراءة أى من شعر كفـافيس. ولا أن يشاركوا فى التفاصيل الحميمة لحياتهم، وغير قادرين على تقديم – كـذلك- الملاحقات المختلفة.

(اليونانيون يدفعون نقدا، والإنجليزى يقوم بتحويل العملة بما يسميه الحـب) هل يستطيع أن يقدم لكل منهم نصيحة عملية، فى الأغلب تـشجيع عـام. كانـت صداقتهم أدبية وحتى كانت فقط بداية، ولكن فى النهاية غيـرت رؤيـة فورسـتر للتاريخ كله.

كتب فورستر إلى روبرت تريفلين فى أغسطس ١٩١٧ "إن الهـروب مـن حرب الإسكندرية أمر لا نظير له: هروب الرقص السورى. البدو يضعون البيض، الفرنسيون يقدمون المحاضرات حول الثقافة للفرنسيين. أمـا الإيطـاليون فـإنهم يشيدون القنصلية جديدة فى مواجهة محطة الرمل. لقد شـاهد الإنجليـز مـسرحية كانديدا Candida أو كاشف الرذيلة "Vice Detected" (١٢٩)

ولكن هروبه المفضل هو اللغة اليونانية، فاليونانيون هم الجالية الوحيدة هنـا التى تسعى لفهم ما يتكلمون عنه، وحينما تكون معهم يعنى أن تعيد الـدخول إلـى عالمهم الأكاديمى المنقوص. فهم الوحيدون المهمون فى شرق مدينـة فينتيمجليـا Ventimiglia: مدينة قذرة، خادعة، غير أرستقراطية، متنقلـة ومغلفـة بـأحلام هيلينية وبيزنطية – غير أنهم يثورون ولديهم رغبات إبداعية، ويطوف عليهم فـى

النهاية. من خلال اللغة اليونانية كان اهتمام كفافيس: لقد قرأت قصيدة أو قصيدتين من (أشعاره) وكنت أظن أنها جميلة." (١٣٠)

انتقل التعارف بين فورستر وكفافيس من اجتماعات نادى محمد على وأمسيات أدبية فى الضاحية اليونانية. يروى فيها ما يتردد من الشارع القريب من مركز المدينة ويسعى لرؤية الجنتلمان اليونانى وهو يرتدى قبعة من القش، واقفا ساكنا عند زاوية من العالم. لقد كان كفافيس فى طريقه إلى مكتبه وربما اختفى بإشارة بسيطة من اليأس. ولكن إن عاد من مكتبه إلى شقته ربما يقتنع فى أن يبدأ بصياغة عبارة قوية"عبارة تتحرك من المنطق إلى نهايتها الخفية، ولكن فى النهاية ثمة شيء دائما مثير ومشرق أكثر مما يدركه المرء. يلقيها بسهولة متساوية باللغة اليونانية أو الفرنسية أو الإنجليزية، عبارة تحمل مستمعها أحيانا طوال الطريق فى عودته إلى الشقة. "إذ تتعامل مع سلوك مخادع للإمبراطور ألكيسيوس كومينوس **Alexius Commenus** فى سنة ١٠٩٦، أو مع الزيتون وأسعاره المحتملة أو مع ثروات الأصدقاء، أو مع جورج إليوت، أو اللهجات المحلية من آسيا الصغرى."ففيها يكتشف فورستر بأن شيئا يخرج من نطاق ما عرفته كمبريدج، كفكرة، بالنسبة لثراء المثقفين والنظرة الإنسانية، رغم نضج آرائها الخيرية، يشعر المرء بأنها فى زاوية واحدة من الكون: إنها عبارة شاعر." (١٣١)

حاليا يقوم فورنيس باصطحاب فورستر لزيارة شقة العائلة المعتمة" (١٣٢) فى شارع ليبسيوس **Lepsius** حيث عاش الشاعر سنواته الخمس والعشرين الأخيرة من حياته التى بدأت من عام ١٩٠٧ حتى مطلع عام ١٩٣٣. لم يكن يقصد البقاء هناك طويلا، وحتى فى سنة ١٩٢٥، كان يقول لأحد أصدقائه، "هل أترك المكان أو أدخل الكهرباء؟"(١٣٣) كان كفافيس بوجه عام يعيش فى البيت بين نحو خمسة أو سبعة من الأصدقاء الذين يهتمون بزيارته، يقضون الساعات عندما كانت غرفه تطل على الشارع الشرقى للحديقة للمستشفى اليونانى وكنيسة القديس سابا، خلفها يغوص فى ظلمة شديدة، يقول فورستر: "لقد كانت لقاءاتنا فى العتمة." (١٣٤)

ولم يضئ لهم شعر كفافيس الذى لم يترجم بعد إلى اللغة اليونانية، صحيح أنه من الصعب نشره بالمعنى التقليدى للعبارة. ولكن بعض قصائده، كانت تظهر أحيانا فى بعض المجلات الأدبية اليونانية الرئيسية التى تصدر فى المدينة مثل Nea Zoe أو مجلة Grammata ولكن غالبا كان كفافيس يطبع كل قصيدة على حده وبطبعة خاصة، ومن ثم فإن القصائد المطبوعة يتم جمعها فى ملفات ويتم توزيعها على مجموعة منتقاة من جمهور القراء. "وكونك مفهوما فى مدينة الإسكندرية ومقبولا فى أثينا هو أقصى طموحاته." (١٣٥) يذكر فورستر، أن إمبراطوريته الأدبية كانت تمتد إلى أقاصى العالم حيث تنتشر اللغة الإنجليزية، رغم تنازل كفافيس، الذى كان يتحدث عن شكسبير وكأنه عاش خارج أسوار المدينة التى لا تتكلم غير اللغة اليونانية. "(١٣٦) كما أن فورستر أيضا وقف بدون تلك الجدران ولكن كفافيس كان يتحدث كثيرا عن التاريخ، والتجربة وحساسية اللغة حينما يقول، "عزيزى فورستر لن تفهم شعرى أبدا". (١٣٧)

وفى واحدة من الأمسيات فى شارع لبيسيوس Lepsius – ظهرت قصيدة "الله يتخلى عن أنطونيو" واكتشفت بعض تزامن الأحداث بين سياقها اليونانى والمدرسة العامة اليونانية. لقد كان كفافيس مندهشا."آه ولكن هذا جيد، عزيزى فورستر، هذا رائع فعلا "ورفع يده، تولى المسئولية وصاحبنى فيها. فهى ليست معرفتى أننى لمسته، ولكن رغبتى فى أن تعرف وأن تتلقى." (١٣٨)

فى ساعة من منتصف الليل
نسمع فرقة موسيقية تمر
تعزف موسيقى فاتنة– وأصواتهم الساحرة –
لا تنعى حظك بأنه يهبط أخيرا،
فقد أخفق سعيك فى الحياة، بينما كانت خططك أوهاما
ولكن مثل إنسان يستعد، مثل رجل شجاع
يودعها، الإسكندرية يرحل عنها.

ووراء ذلك، لا تخدع نفسك ولا تقل كان حلما

إذ أخطأته أذنك.

لا تهبط إلى تلك الأماني الخاوية

كإنسان يتأهب طويلا، مثل شجاع

مثل إنسان يستحق تلك المدينة

يمضي راسخا نحو الشرفة

ويسمع بحب

ولكنه بصلوات الناس وشكاواهم

(آه! نشوة غالبة!)

استمع إلى شدو الموسيقى الرائعة للفرقة الصوفية

ويودعها، يودع الإسكندرية، التي تخسرها.(١٣٩)

الإسكندرية هي عاصمة خيال كفافيس -"ملكة العالم اليوناني/ عبقرية كل المعارف، وكل فن"(عظمة البطالمة") وبرغم مواقع القصائد التاريخية التي تتنقل خلال الشتات اليوناني من إيطاليا إلى اليونان إلى أسيا الصغرى، إلى سوريا ثم إلى بلاد فارس، فإن الإسكندرية القديمة تستحق الرقم الأعظم. إنها الإسكندرية، المدينة الروحانية (إن كانت فعلا ماتت) فأين ترى القصور والآثار التي تذهلك، ("المنافي") حيث إن الجميع رائعون، متألقون، قادرون وخيرون، كل شيء يتناولونه يفيض حكمة"("قيصرون"- وهو ابن كليوباترا ويوليوس قيصر وقد عرف باسم بطليموس الخامس عشر المعروف بقيصرون أو قيصر الصغير - المترجم) ولكن في كل قصيدة موضوع هو الفشل."(١٤٠)

فعلى سبيل المثال فى قصيدته "ملوك الإسكندرية" والتى نشرت فى عام ١٩١٢، فإن الجماهير يتحولون إلى قدرة للعطاء من الإسكندرية، تم تنظيم احتفال كبير أقامته كليوباترا وأنطونيو، حيث تم تسمية أبنائهما ملوكا على أرمينيا وميديا وبارثيا وصقلية وسوريا وفينقيا، حيث إن قيصرون هو الابن الأكبر لكليوباترا ووريث يوليوس قيصر الذى أعلن عنه بأنه ملك الملوك:

..اليوم دافئ ورائع،

السماء صافية زرقاء

أما جيمانيزيم الإسكندرية، فانتصار للفن

مظاهر رجال البلاط

قيصرى يفيض ألقًا وجمالا

...

وأهل الإسكندرية يتسابقون لرؤية العرض

يملؤهم الحماس والتهليل

باليونانية والمصرية والبعض يهلل بالعبرية

وهم مفتونون بالمشهد الرائع

رغم أنهم يعرفون تماما كم هو رخيص

يا لها من كلمات جوفاء يصوغها الملوك.[١٤١]

فالحقيقة التاريخية هى أن العطايا ليست كلمات جوفاء ولا عظمة بلا مغزى، بل هى جزء من واقعية أنطونيو، فإن طموحات الإمبراطورية الهيلينية الجديدة البعيدة المنال، ترتكز فى الإسكندرية. ونفس الشيء، فنحن نعلم أن الأشياء لا تصلح بهذه الطريقة، وهى أن كليوباترا وأنطونيو هزما فى معركة أكتيوم بعد ثلاث سنوات فى سنة ٣١ قبل الميلاد، وانتحرا فى السنة التالية وكان انتصار أوكتافيوس موجها لنفس الحشود فى الجيمانيزيوم، واعدا الإسكندرانيين بالمزيد من التساهل والرفق لأن مدينتهم كانت رائعة جدا، ولأن الإسكندر هو مؤسسها- ثم قُتل قيصرون. ("من الأمور السيئة أن يكون لديك كثير من القياصرة) [١٤٢] ولكن بالنسبة لسعادتهم فى المشاهدة وبهجتهم فى الخوض فى الأحلام، فإن الإسكندرانيين عند كفافيس يعرفون أيضا: لن تستمر طويلا/ فسنوات الخبرة توضح ذلك"- ثلاثة آلاف سنة من الخبرة فى المدن اليونانية والممالك والإمبراطوريات والأحلام كلها سقطت مرة بعد مرة من سخريات التاريخ.

وعندما جاء فورستر إلى الإسكندرية اعتقد بأن الحرب قد تضع نهاية للحضارة التى عرفها، ولكنه أصر على الأقل أن يقاوم الموت الداخلى. ثم اكتشف أن كفافيس، يقف فى شرفته، والتى تكشف مجالا أوسع لمنبوذ المجتمع. لم يكن نموذجه هو الإسكندر، الذى أسس الإسكندرية ولكن أنطونيو الذى ودع الإسكندرية: وسقطت أمام الرومان وأمام العرب، لقد رأى كفافيس الفشل والضياع باعتبارهما التجربة المركزية للإسكندرانى، مدينته الأصلية العالم الجريح من أيام الحضارة الهيلينية، والتى تحدث عنها ليشير إليها بأنها هى الحضارة الكلية لبنى البشر. ومثل الجماهير فى "ملوك الإسكندرية"حاول انتزاع ما يمكنه من اللحظة التاريخية.

• كان فورستر ومحمد يتقابلان كل أسبوعين فى غرفة أحدهما- غير أن ساعات عمل محمد الطويلة فى الترام منعت من تكرار اللقاء على فترات متقاربة-

ويتمتعان بما كان يسميه فورستر "التفاهم الجسدى إن لم يكن توافقا". ولكـــن حتـــى تلك اللقاءات غير الدورية انقطعت فى وسط يوليو بخطاب من محمد يقول فيـــه إن والدته توفيت وأنه مسافر إلى المنصورة لتشييع جثمانها. كان فورستر غاضبا مـــن غيابه، وفى نهاية يوليو اعترف لفلورانس بأن لديه ما يدفعه لطبيعة علاقتهما: "قلت لك منذ أسابيع – بأننا افترقنا باحترام، لم نستكمل العلاقـــة تمامـــا، وتمنيـــت _ أن نتجاوز الاعتراضات التافهة. لقد جعلنى أرى أننى ما يجب أن أفعل هـــذا.. إننـــى شارد حاليا– لقد أصبحت مشكلة كبيرة على، أن محمدا يجب أن يتحـــدث بهـــدوء وضعف وشغف: "وبمجرد أن يعطى فإنه ســـوف يعطـــى.. أعلـــم أنـــه ســـوف يساعدنى."[١٤٣]

فى أغسطس تضاءلت فرص اللقاءات الحميمة عندما حـــضر الأخ غيـــر الشقيق لمحمد من المنصورة ليقيم معه فى باكوس (حيث جلس فـــى أحـــد أركـــان الغرفة والتى كانت ستكون لنا")[١٤٤] بينما فى شقة أيرين فى الرمل زادت شكوكه، بدأ هو ومحمد يقضيان ساعتين معا كل أسبوع فى أحد المنتجعات العامة، يلتقيـــان ويفترقان هناك ولم يركبا الترام معا. وفى صباح يوم أحد قـــام محمـــد وفورســـتر بزيارة عمود السوارى ومقابر كوم الشقافة ومن ناحية أخرى خرجا إلـــى حـــدائق النزهة أو أحيانا فى المساء يعودون إلى البط فى حدائق البلدية فى وسط المدينة.

أما بخصوص الترتيبات والمحاذير فإن حلاوتـــه وظرفـــه رائعـــان. إننـــى خجول، خجول أن أطلب منه أن يتصرف كما أريد."[١٤٥]

وفى المقابل حافظ محمد على كبريائه: فعمله لم يترك لـــه فراغـــا كبيـــرا– ويضيف قائلا: "فأنا مستاء باستمرار من حالتى الصحية".[١٤٦]

ثم يستثنى فورستر ويقول له، "لم أعد أريد المزيد من الأصدقاء فلـدى مـا يكفينى حاليا."[١٤٧] ولكن أحيانا تبدو ملاحظاته تطرق المرارة أو ربما ثمة معرفـة ساخرة بأن الموافقة والتحمل هو قدره وأكثر مما يعرفه فورستر. "وجدت بأن قدرًا من الكذب مطلوب وضرورى للحياة."[١٤٨] كانت تلك حكمته فى الحياة، ولكن مـع فورستر كان مستقيما وبسبب من يلاحقه فهو قد يسمح. التملق والتأثر من اهتمـام وعاطفة فورستر، قدمها له بدون تمثيل ولكن بعاطفته القوية.

كانت نزهاتهم الخارجية تدخل البهجة عليهم من خلال حماقة محمد وسحره، ولكن وراء كل هذا كان هناك وضوح ونضج وخصوصا تلك الدعوة التى تـروق لفورستر. لقد اعتبرها فى بادئ الأمر وقاحة أن يدعوه محمد بـ "فورسـتر" لكنـه بعد تروٍ قرر الموافقة عليها، حتـى تـم تـصميمها لتكـسر الحـواجز الماديـة والاجتماعية. وبذات الطريقة كان سعيدا عندما انتقده بعنف على مظهـره: "تعلـم، فورستر، بأننى – رغم أنى أكثر فقرا منك ولكنى لا أرى ذلك فى معطف. فأنـا لا ألومك– ولا أمدحك– ولكن لم يرنى أحد، وقبعتك بها ثقب، وفـى حـذائك ثقـب، وكذلك فى جوربك ثقب"[١٤٩]

وفى أحسن الأحوال كان فورستر يبدو شخصية خسيسة وأخـرق، ولكـن بالنسبة إليه فإن الغرابة تكمن فى مكان ما. كان محمد يرتدى دائما طربوشا وبذلـة واحدة يرتديها فى خروجهما معا، وعندما يكونان معا فى باكوس يرتـدى محمـد جلبابا طويلا وفوق الجلباب عباءة، كان الجلباب يفتقر إلى الأناقة: يضع فى قدميـه قبقابا، ولكن لا يهم أينما كانوا "يمكن ملاحظة تقاربنـا ": ووصـف لفلـورانس أن محمدا لسوء الحظ لونه أسود.. لا يشغل باله أن جاء للدنيا بهذا اللون، إنها مـشيئة الله التى منعت أمه من أن تدق وشما لعصافير صغيرة على جانب عينيـه. ونقـاط على معصمه تفى بغرضها.[١٥٠] بالطبع كان التقارب جزءا من الإغـراء، ولكـن

بالنسبة لفورستر بدا وكأنه تحرر. ويقول "إن علاقتهما ليس فيها شيء من المهابة إذ يبدو أن المسيحية لها فكرة أساسية عن الرومانسية.. فلا أحد يخاف من أنه يرتكب عملا مشينا."(١٥١)

غير أن محمدًا وبعد أن استمع إلى فورستر وهو يفلسف الأمور عن الصواب والخطأ، كتب إليه قائلا، تأكد بأن آرائك الدينية لا تثير استيائى طالما أنك تحترم معتقداتى كما أحترم معتقداتك. لقد قلت من قبل إن الله يعرف ما حدث، وما يحدث وما سوف يحدث. فإنه يعلم بأن بعض البشر يعتنقون أفكارا شيطانية ولذلك فهو خلقهم، ولكنه لم يأمر بأن تخوض فيها."(١٥٢)

ومع ذلك فإن فورستر مضى فى طريقه ليجد أن كل ما يراه متناقض. والأهم من ذلك أنه كان يوفر لنفسه مستمعا لآرائه- ولكن ليس فى الإسكندرية، بل فى كل مكان ومهما كانت نوازعه، ولكن لا يوجد شيء معروف بالنسبة لاستمرار علاقته بمحمد (فورنيس ظن أن المسألة قد تلاشت تماما، عايدا بورتشجريفنك **Aida Borchgrevink** لم تكن معروفة فى ذلك الوقت، بينما آخرون بمن فيهم كفافيس ربما لم يتم الحديث عنهم) كان جمهور فورستر فى إنجلترا حيث كتب عن علاقاته العديدة مع أصدقائه المثليين، لم تكن منتظمة كما لم يكن فيها تفاصيل يحتفظ بها لفلورانس برجير. من بين قرائه كانت جولدزورثى لويس ديكنسون (التى كانت تميل إلى إشباع جنسى عن طريق الحذاء **shoe- fetishist** رغم أنها لم تلق أى اهتمام من أى عاشق من الشباب)، وإدوارد كاربنتر (مؤلف كتاب الجنس المتوسط **The Intermediate Sex** وإلهام لموريس **(Maurice**) وكان من بينهم أيضا ليتون ستراتشى (وهو الجنسى المثلى المتوهج عميد جماعة بلومسبرى **Bloomsbury Group** والذى أكمل كتابه **Eminent Victorian**.) وستراتشى الذى كان رأيه الشخصى فى روايات فورستر أنها روايات من "المرتبة الثانية"(١٥٣) كتب

يقول "إن مواقفك المرئية يمكن أن تكون مقبولة رغم أننى أفترض أنك تحاول أن تخفى مواطن الضعف. وربما تبالغ فى الرومانسية- سواء لمصلحتى أو لمصلحتك" (١٥٤).

"البدر وعلامات زرقاء على زهور الربيع، وقف يراقب غروب الشمس. والعصافير - تزقزق كما لم تزقزق فى إنجلترا- تأوى إلى أعشاشها فى الميدان السفلى."كان الوقت فى نهاية شهر أغسطس ١٩١٧، وفورستر يكتب إلى فلورانس بيرجر من شرفة نادى الخديوية فى شارع البورصة. السكان الأصليون فى المدينة وخصوصا من الطبقة الدنيا يعيشون فى تخلف العقل وقذارة الجسد، وليسوا أهلا للجمال والصفاء، يخرجون فقط ليحصلوا على ما يريدون. وهذه نظرية أقررت بها - بعد طول تردد، وقد انهارت كغيرها من النظريات. "فعلاقته بمحمد كانت "انتصارًا على العبث والصعوبات الظاهرية.. فعندما كنت معه، كنت أدخن وأتحدث بهدوء وبشكل مباشر، أو مهما يكن فإننى قد رأيت ما هو أبعد من سعادتى ومودتى، لمحات سريعة من السعادة، الآلاف الآخرون وأسماؤهم التى لم أسمع بها من قبل، وعرفت بأن قدرًا كبيرًا من التاريخ غير مسجل. لم يمر بحياتى شىء كهذا من قبل. كثير من الصداقة والتسامح، ولكن ليس هذا " (١٥٥)

أراد فورستر من خلال حبه لمحمد أن يحب كل الإنسانية. وبشكل مجرد، كلما استطاع أن يشغل اللحظات بالسعادة من خلال ثرثرة مع عصفور غريب. ولكن الحقيقة هى أن محمدا قد اعترض، فمشاعره نحو المصريين لم يُخفها أبدا. فى ذات الشهر وخلال زيارته لفورنيس فى المحافظة بين شارع العطارين وشارع الراهبات. كتب فورستر على ورقة الرقابة الرسمية خطابا إلى فلورانس: "لقد انتهى شهر رمضان قبل ساعة وكل الأغنام التى كان المصريون يسمنونها فى داخل وخارج المنازل للعيد سيتم ذبحها. ولكن لى أخفى عليك مدى اهتمامى بعادات المصريين. مساء أمس ارتديت ملابسى المدنية وخرجت، وكما كنت أفعل

غالبا مرة فى الشهر، خلال أحياء المواخير والأحياء الأخرى لأهل المدينة. كانت نسمات خفيفة من الرياح الشرقية ... لا يوجد شيء قوى لا لون : لا توجد ملابس أوربية ولا طعام ولا حتى ثرثرة أوربية... هذا كل شيء. أتساءل أحيانا إن كنت أنا أو (الحرب) مَن يتحمل المسئولية، ولكنى لا أظن ذلك: إننى على قيد الحياة حتى إن تلك الأشياء الأخرى ساكنة فى مكانها." (١٥٦)

فى ذات الشهر حينما كتب إلى مسعود، "إننى أشعر بالسأم أكثر مما تتخيل من الإسكندرية، سئمت من الشوارع ومن الترام. والمرء هنا من الشرق كما لو كان فى لندن. فكل شيء بلا لون ومبتذل."لقد قابل أحد المصريين وقد أعجب به، "إذ يذكرنى بك أحيانا"، ولكن عموما لا أحب المصريين."(١٥٧)

رغم أن فورستر وجد أصدقاء صالحين وإثارة فى المدينة (كوزموبوليتان) وخصوصا من بين اليونانيين، كانت الحرب من ناحية ومحاولاته الفاشلة للبحث عن شيء مهم من بين سكانها الأصليين من ناحية أخرى قد تركتا فيه إحساسًا بأنه وقع فى شرك الإسكندرية. لقد جعل كفافيس من المدينة عالمه الخاص، يربط بين الماضى والحاضر، يربط بين الدنيء والنبيل مخضبين الكل بإحساس، ولكنه فعل ذلك ليحافظ على هويته الحضارية اليونانية. لم يتحدث اللغة العربية، ولم يدخل منزلاً مصريًا، يرفض حضارة مصر القديمة بتعليق يقول فيه "لا أفهم تلك الأشياء الضخمة الجامدة"(١٥٨) ونادرا ما يعترف بالفتح الإسلامى لمصر ولم يدع أحدا من السكان المحليين لعلاقة. ولكن عندما استمع كفافيس إلى موسيقى المدينة استمع إلى الغناء الصوفى الجماعى، ففى ذات ليلة خرج فورستر مع محمد ليستمع إلى بعض الموسيقى المحلية، فوجد أن موسيقيا أصلع يعزف على العود، ويصاحبه طبلة إيقاع صغيرة. إن هؤلاء الناس هم غالبا ليسوا فنانين أو مبدعين كما أن لهم تصرفات صبيانية. (١٥٩)

فى الحقيقة إن الاختلافات الاجتماعية والثقافية والعرقيــة بــين فورســتر ومحمد لم تكن بعيدة عن المجال العقلى لأى منهما، وجعلت كل واحد منهما يتعامل بحذر مع الآخر. فى سبتمبر تحايل فورستر على محمد وأخبره بأنــه يعمــل فــى الصليب الأحمر ثم قال محمد بدوره، : "يجب أن أكون حرا- فإن لم أشأ أن أقابلك يجب أن أقول "لن أقابلك"، فإن لم أكن متأكدا، يجب أن أكون قادرا على أن أقــول "ربما"لذا يجب أن تحترمنى كما أحترمك."(١٦٠) أحب فورستر هــذا الــرد، ومــرة أخرى اعتبر رد محمد انتصارًا للاحترام والثقة على حــواجز الجــنس والطبقــة الاجتماعية، إلا أن محمدا لم يكن متأكدا بأنه قادر على المساومة: هل رأيت يومــا أن رغبتك تقودك إلى أن تكون عارفا بوظيفة محصل الترام؟ وهل فكرت يوما فى الشفقة والعار بالنسبة لك؟ "كانت هذه آخر ما كتبه فى نهاية شهر سبتمبر، عنــدما وافقه فورستر ثانية على ممارسة الجنس. ولكن محمدا رفض ذلك العرض وقــال "أبدا! أبدا لن أفعل". (١٦١)

وفى صيف ١٩١٧ أتيحت الفرصة لفورستر أن يترك المدينة. إذ قالت لــه منظمة الصليب الأحمر فى شهر يوليه إن الباحثين مطلوبون فى مدينــة ســالونيك شمال اليونان، وبدون أى تردد رفض الذهاب، "لأسباب شخــصية وعامــة." (١٦٢) ولكن في أغسطس، أعاد التفكير فى أخذ إجازة ليزور بلده، أمه فى مرضها الأخير كانت تمرضها واحدة من أخلص صديقاتها، "كان حزينا"(١٦٣) فلم يكن هناك، وحتى بعد وفاة الصديقة فى سبتمبر مازال يشعر بأنه منجذب. ولكن الخطر يكمن فــى أن ذهابه إلى بلده ربما يكون إلزاميا. نقل مشكلته إلى أصدقائه غير أن أصحابه كانوا ينفرون من المحنة التى أصاب بها نفسه: فــورنيس وأنطونيــوس نــصحاه بعــدم الذهاب، وربما نصحته عايدا أيضا، وعندما تحدث مع محمد عن قلقه مــن تهديــد

التجنيد الإلزامى الذى قد تسببه له أمه، نصحه أيضا بألا يذهب، لأن أمه لن تكون سعيدة فى حال أنهم أخذوك جنديا فى الحرب."(١٦٤)

وفى سبتمبر كتب إلى فلورانس على نحو غامض، "للمرة الثالثة منذ أن حضرت إلى مصر فإن شيطانى يوسوس لى بأن أقوم بشيء كبير وعظيم وخطير."(١٦٥) ثم أنكر أمام فلورانس أن علاقته مع محمد انتهت إلى: "أنها كانت علاقة غريبة بشكل كبير، ولا تستحق أى اهتمام."(١٦٦) ولكنه لن يسلم من تحدى أمه، ولكن على ما يبدو أنه سمع فى الشوارع همسا بضرورة أن يعيش.

كانت أعمال وأفكار فورستر توحى بانحرافاتنا: إذ كتب مقالا فى ذلك الوقت لجريدة الأحد "ذى إيجبشيان ميل **Egyptian Mail** مقالاً بعنوان " **Diana's Dilemma**". وبدأ المقال بقراءة فورستر لملصق إعلان فيلم سينمائى : ديانا وماضيها المشبوه وإحساسها بأنها لا تستحق الرجل الذى أحبته، فألقت بنفسها فى بحيرة كومو، ولكنه أنقذها وتزوجها وعاشا سعيدين. وقد رأى فورستر تلك الملصقات من قبل، تعلن عن مشاكل ميرا وليديا وجولييت وسكافا، وسيلفيا، وجراتسيا: "شعرت إلى حد ما أنها لن تقدم لى شيئا جديدا. "فقط أحداث ماضية وتتغير من فيلم إلى فيلم بحث عن النسيان بشكل مختلف فى نياجرا أو ويندرمير أو القناة العظمى **Niagara, Windermere , or the Grand Canal**.

ثم راح فورستر يتذكر كيف أنه بعد ظهور أحد تلك العروض يرى محل فاكهة: "يظهر فى الظلام وكأنه مربع ضوء ليس أكثر من شاشة السينما، ولكن البرتقال والخيار والموز والمشمش كل هذه الفاكهة تلمع فى المحل مثل جواهر، أو تكومت على أرضية أمام استراحة مظلمة يقابلها شعاع حيث يتحرك عربى مثل ساحر.. إن مشكلة ديانا مملة. ومحل الفاكهة يتجاوزها مثل الشعر، مثل موج البحر وهو يرتطم فى السد المقابل، يروى الكثير عن الحب أكثر من كل مياه كومو **Como** المقدسة رغم أنها ثمينة وفاحشة."

فورستر يحتفظ بصورة محمد الممزقة معه لبضع سنوات. وهى الصورة الوحيدة التى حفظها من الضياع من تذكرة الترام ذهابًا وعودة. من الإسكندرية إلى كليوباترا لحظات من الحب.

وهذا يعنى الكثير فبداية مقال فورستر تعلن أنه كان يقرأ إعـــلان " **Diana's Dilemma** وهو ينتظر الترام فى محطة الرمل وقد اقترب من نهاية مقالـــه عنـــدما قال إن الفيلم الذى رآه لم يكن جميلا ولا رومانسيا تماما مثل شارع مبتذل مـــشيت فيه متجها إلى الترام. كان الوقت ليلا، وفى الليل سحر يفوق الفن ويفـــوق النهـــار. ولكن العالم مفعم بالخبرات العادية يبدو أنه يئن من الشكوى: فانحراف الإنسان لن يجده فى أى فيلم، إنه هنا، هنا. "ووقف ثانية فى محطة الرمل، أمام محل الفاكهة" (١٦٧) ولكـــن الإضاءة كما تعتقد أنها أكثر تعبيرا عن مزاج فورستر، فهو ينتظر الترام الـــذى يهـــدر بعجلاته معانى الحب والشعر ومحصل التذاكر، الذى يمشى مثل ساحر.

فى أكتوبر كتب فورستر إلى فلورانس، "أرسلت برقية اليوم بأننى لن أحضر. لقد زال القلق. ويجب ألا أحضر(فإذا حضرت) لرؤية أمى، فيسكون عبئا عليها كثيرا. وشوقى لرؤيتها جزء من مشاعرى العامة والتى تكونت من اللمسة وعدم الجدوى والابتذال، ومن تلك الحياة سواء فى السلم أو فى الحرب، فهل فى مقدور المرء أن يعيش إلا مرة واحدة! وأننا أكبر بسنتين، وفى اعتقادى أن الحرب لن تنتهى ولن تقود الإنسان إلى زمن أفضل، بل لن يسعف الأم اختيار تعبير جميل عنها.

وفى ذات الخطاب، ولكن بعد نحو سبعة فقرات، عرض فورستر سببا آخر لزوال قلقه. فقبل بضعة أيام كان هو ومحمد قد حاولا أن يجدا وقتا يقضيانه معا فى بيت البؤس Home of Misery: لقد افترق الصديقان المحترمان بطريقة بسيطة وحتمية، وكما تمنيت- وليس من أجل متعة حقيقية ولكن بسبب سقوط آخر الحواجز، وبلا شك، فلديها الكثير مما تفعله مع هدوء بالى المفاجئ." (١٦٨)

كان شهر أكتوبر هو وقت الرحيل - "فكل شيء يتحطم هنا" (١٦٩). أرسلت فورنيس بطاقة بريدية إلى المفوض السامى فى القاهرة، حيث أصبح المندوب السامى للشرق وفورستر قادرًا على إقناعه بهذه الخدمة. ولقد كان يحاول أن يجد لمحمد وظيفة حكومية براتب أفضل. وعوضا عن ذلك_ رأى فورنيس فى افتتاح مركز عسكرى فى قناة السويس، حيث يمكن تكليفه بعمل مخابراتى صغير"أن يصير جاسوسا" (١٧٠) إلا أن محمدا قال بشجاعة نادرة، يتقاضى راتبا من الإنجليز ويبلغ عن مواطنيه، فإنه وحل تماما. ولكن فورستر لم ير الموضوع من هذه الزاوية. "أنا وهو فكرنا بطريقة بغيضة. وعلى أى حال فإنها وظيفة ممتعة كما أنها مربحة أكثر من عمله الحالى، وهو كغيره من الناس ليس لديه إحساس بالحقيقة إلا عندما يتعامل مع صديق. فهى - على الأقل- لن تؤذيه. ولأننى رأيته مسحوقا ومنهكا ومرهقا فى وظيفته الحالية التى أفقدتنى مبادئ أخلاقى فقد تمنيت له أن يجمع مالا ليستريح أحيانا.

كان افتراقهما مؤسفا، غير أن فورستر كان يرتجف على مستقبله والذى شعر أنه هدف صعب المنال، والآن أخيرا قاما بممارسة الحب"كانت علاقتنا عميقة جدا وراسخة من أن تهتز أو تنفصل."

ثم حل عائق آخر عندما وافق محمد أخيرا على أن يعطيه صورته. أرسل فورستر الصورة إلى فلورانس، ملخصا لها بأن "منشة الذباب والتى كانت تخصني"(١٧١) أعطاها إلى محمد ليحتفظ بها كتذكار ويتصور بها- "تقولين أنها ثمينة ولكنى أظن العاج ليس من بين الأحجار الكريمة" (١٧٢) كان هذا تعليق محمد، ولكن المنشة تحمل ذكريات جميلة بالنسبة لفورستر إذ أحضرها من الهند. "محمد العدل - فى سنة ١٩١٧، صورة بالمنشة"، ثم كتب فورستر على ظهر الصورة. بعد ذلك تشققت وتمزقت الصورة - يبدو أن فورستر كان يحملها معه لسنوات طويلة، وحافظ عليها من التلف، تذكرة الترام الوحيدة لصقها من ظهرها، قصة حبه مع محمد والمدينة القديمة: من الإسكندرية إلى كليوباترا." (١٧٣)

سافر محمد إلى القناة فى ١١ أكتوبر، يتذكر القطار وهو يتسلل من المحطة، "لا تنسنى، لا تنسني-" بالنسبة لفورستر فقد ترك وراءه الإسكندرية وهو يشعر أنه قد تم إسدال الستار، "الكثير بالنسبة لمحمد" (١٧٤) قال وهو لا يعلم إن كانا سيتقابلان ثانية أم لا.

الفصل الثاني

الإسكندرية من الداخل

تبدأ مادته كشاعر بخبراته وحواسه: اهتماماته بالشجاعة، والجبن، واللـــذات الجسدية، وهكذا. إنه يبدأ من الأعماق الداخلية، لكنه لا ينظر أبدًا إلى نفسه أو مـــا يشعر. والتاريخ يومئ إليه ويستدعيه طيلة الوقت، وخاصة تاريخ بنى جنسه.

"الأشعار الكاملة ق. ب. كفـــافيس" إ. م. فورســـتر فـــى كتابـــه "تحيتـــان للديمقراطية" (Two Cheers for Democracy) سنة ١٩٥١

فى أعقاب رحيل محمد ومجيء الشتاء شعر فورستر أن الإسكندرية "مدينـــة موحشة متحجرة ليس فيها ما يجذب المرء على التجول فى شـــوارعها إلا زيـــارة عمود السوارى.[١] إضافةً إلى أن رحيل روبن فورنيس إلى القاهرة قد زاد شعوره بالنفور والابتعاد عن كل ما يتعلق بإنجلترا، حتى كتابة الرسائل كانت صعبة جـــدًا عليه ـــ حتى بدا ما وراء العالم سرابا. وقد أسهم هذا التناقض بين حالة الإسكندرية وحال إنجلترا فى زمن الحرب فى مزاجه "تَرَفٌ هنا، وبُؤسٌ هناك"، وأخذ يـــرفض دعوات العشاء التى يقول فيها – "لم أكن أستطيع أن أتحمل الجانب السعيد من هذه الأحداث[٢] ـــ لكنه أقر بأن الأمر ما كان إلا نزوة عابرة ولم يكن اتجاهًا، وســـوف يعاود الذهاب إلى ولائم العشاء بمجرد زوال هذه النزوة عنه. فى هذه الأثناء، كان يتناول طعامه فى غرفته بهدوء فى كامب شـــيزار ويعـــزف علـــى آلـــة البيـــانو مقطوعات لشوبان وفرانك وفيردى وشومان وبيتهوفين. وقد كان خاصـــةً يعـــزف

مقطوعات لبيتهوفن كنوع من الاحتجاج وذلك منذ أن حضر حفلاً أقيم فـي حـي الرمل حيث طلب أحد المدعوين أن يسمع سوناتا ضوء القمـر لبيتهـوفن، ولكـن المضيفة صاحبة الحفل اعترضت على ذلك قائلةً إن الموسيقى الألمانية قد تعرضهم للخطر. هنا تدخل فجأة ضابط شاب قائلاً "كلا، ليس فيه مشكلة إطلاقا، فقد قال لى أحدهم وقد كان محيطًا بهذه الأمور إن بيتهوفن بلا شك بلجيكي"".(٣)

وقد كتب فورستر إلى فلورنس فى فبراير سنة ١٩١٨ "لسوف ترى بالتأكيد فى مقالاتى الصغيرة كيف أصبح عقلى المصرى مبتهجًا ويقظًا وكيـف لـم يعـد يتماشى مع الطابع الإنجليزي"،(٤) لأنه حينئذ عندما يحاصره ألـف سـبب وسـبب يدعوه ظاهريًا للشعور بالوحدة والعزلة، كانت الحياة قد بدأت تدب فيه من داخله. لقد عرف مع محمد سحرًا خاصًا بمثابة تحرير للمشاعر اعتمدت كثيرًا على قدرته على وضع علاقته مع محمد فى إطار خيالى تدفعه العاطفة. الآن رحل محمد ولكن بقـى مصدر وحيه، أخذ فورستر قلمه ليكتب عن المدينة التى جعل منها مستقرًا له.(٥)

وقد علق فورستر فى مقاله الذى كتبه للإيجيبـشيان ميـل **The Egyptian Mail** تحت عنوان "فراعنة" على معالم المدينة وسكانها وتاريخها. فـى منتـصف شهر ديسمبر ١٩١٧، وبدعوة من رجل الأعمال أناستاسياديس، قام بزيارة سـوق تداول القطن فى البورصة إذ بدا له صراخ واهتياج المتداولين فى البورصة شـبيهًا بتلك التى تطلقها الأرواح المعذبة فى بيت الرعب فى حدائق الملاهى: "ما كانـت لتصلنا القمصان القطنية ولا الصوف القطنى ولا بكر القطن لولا معانـاة هـؤلاء التجار فى الإسكندرية، ليس هذا فحسب بل إن الإسكندرية نفسها ما كانت لتـنهض من جديد بعدما داهمتها أمواج عاتية، وما كانت أيضًا حدائق فرنـسية ولا كنيـسة إنجليزية فى بوكلى وربما حتى ما كانت هناك مصارف للمياه.(٦)

ولكن روح فورستر المرحة كانت تخفى هدفًا دفينًا بين ثناياها: إنقاذ أشعار المدينة العتيقة من براثن التجديد. كان قد تم بناء الكورنيش، أو الرصيف الجديد كما كان يطلق عليه آنذاك، سنة ١٩٠٦ حول الميناء الغربى، وقد كتب عنه بريتشيا فى دليله عن المدينة لقد كان "عملاً عظيمًا أثرى المدينة بمتنزهاته البديعة، وقد تم تجميله فيما بعد بالقصور والصروح والتماثيل ولكم نأمل أن يشكل بيتًا قَيِّمًا للفن والجمال".(٧) وقد كتب فورستر فى مقاله "الرصيف الجديد" الذى نشر فى ديسمبر ١٩١٧:

> إنه لأمرٌ مثيرٌ للاهتمام حين يخفق عملٌ عامٌ ضخمٌ كهذا فى الوصول إلى مخيلة العامة. فإذا ما سألْنا مواطنينا عن أكثر الأشياء التى بهرتهم فى أنحاء المنطقة فقد يجيبون "النصب التذكارى لُبمباي" أو قد يجيبون بطريقةٍ أكثرَ بهجةً "الكوزموغراف"ولا يعيرون بالا للقوس الحجرى الذى يقبع وراءهم فى شموخٍ... غير أن الرصيف الجديد غاية فى الروعة، إلا أنه تاريخيًا قد خَلَفَ الطريق المُعبد القديم الذى شيده بطليموس والذى كان فى الماضى يفصل بين الميناءين القديمين، وهو لا يستحق أن يتوارى فى طيات النسيان. فإذا ما شوهد من الجنوب، حيث يغلفه الضباب فى الصباح، يبدو جماله أخاذًا كما فى قصص الأساطير؛ وإذا ما شوهد من أقصى الشمال فهو يشكل حلقة كاملة تلتف حول دائرة من المياه الزرقاء. وإنى لأضمرُ له إعجابًا شديدًا إلى الحد الذى يُخوِّلنِى الحق فى ذكر مساوئه، اثنان عددًا لا ثالث لهما: فالمياه ترتطم به وتَصْطخبُ عاليةً ناشرةً رذاذها كما أن له رائحة كريهة... ولا يأبه بالرصيف كثيرًا، وإذا كان للناس ملابسٌ قد اعتادت البلل وأنوفٌ

اعتادت الروائح الكريهة فهذا شأهم؛ فالأسماك تحيا بدونهما. ولم يُقَم هذا الرصيف ليدلل أجسادًا فانية، وإنما أقيم ليمتد يمينًا ويسارًا فى قوس متناغم بديع وإن كان يوحى بالشعر من خلال الرياضيات — وهو الهدف الوحيد من بنائه، وإنه لهدف خليق بالمدينة التى شيدها العالمان إراتوستينس وإقليدس.(٨)

وقد كتب فورستر فى مقال له فى مارس ١٩١٨ بعنوان "صور من الإسكندرية: بين الشمس والقمر" أن الإسكندرية كانت "مدينة الروح"، ولم يكن ليشير بذلك إلى المدينة الحالية ذات الطابع الحديث والتى لم ينل طريقها الرئيسى سوى الأناقة والبهاء. ولكن، من غير شك، كان طريق رشيد ذات يوم الطريق القديم المقدس الذى يتم عبره نقل الرفات المحنطة لمومياوات المصريين القدماء، وكان يبدأ عند بوابة الشمس (بجانب حدائق البلدية) ويعبر المدينة حتى يصل إلى الميناء الغربى (بالقرب من شونات أو مستودعات القطن بمينا البصل)، "حيث تقف بوابة القمر لتنهى ما بدأته الشمس". وكان هذا الطريق المقدس "على امتداده يعج بمشاهد خلابة لا مثيل لها... وكان يصطف على جانبيه كليهما أعمدة رخامية على امتداد أقصى طرفيه، كما كانت الحال مع طريق النبى دانيال، وكانت نقطة التقاء الطريقين (حيث يقف المرء الآن ينتظر فى يأس قدوم ترام) إحدى أعظم الممرات فى تاريخ العالم القديم... وهناك (تحت مسجد النبى دانيال) يرقد جثمان الإسكندر الأكبر. وهناك إذ يرقد يكسو جسده الذهب موضوعًا فى تابوت من زجاج... لم يتبق من كل ما صنعه من أشياء شاهدة على أمجاده سوى طريق؛ الطريق المحاذى لطريق رشيد؛ إذ قام كل من المسيحيين والعرب بالقضاء على ما تبقى من أعماله إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على اتجاه هذا الطريق.(٩)

الأمر الذى يساعد المرء حتى يكون له رؤية خاصة عن مدينـــة الـــروح ألا يكون إنجليزيًا. وقد قدم فورستر فى مقاله "صور من الإسكندرية: الموسيقار هاندل فى مصر" والذى نشر فى ٦ يناير بوصف حضوره للحفل الموسيقى للموشح الدينى المسيح للموسيقار هاندل الذى أقيم فى كنيسة سان مارك الواقعة فى ميدان محمـد علي. وموسيقى هاندل تحرك مشاعر أغلب الإنجليز وهم يستمعون إليها وقد كتب: "إن هذه الموسيقى توقظ فينا ذكريات كثيرة، ذكريات حلوة وأخرى سخيفة" لدرجـة "أننا ننسى بأن هاندل لم يكن إنجليزيًا". كان أيضًا ممن شملهم النـسيان فـى هـذا الركن من سان مارك عازف الأرغن؛ لأنه "– دون أى ذنب – كان عربيًا... ظـل وجهه باسمًا لطبيعته البشوشة على أمل أن يرد عليه أحد تحيته عرفانًا لجهده غيـر أننا قد بلغ منا الوقار مبلغًا فلم نبادله الابتسامة... كان فى داخله يـرى أن مـصر والشرق متمثلون فى هذه الكنيسة –الشرق الذى ولد فيه ديانة هاندل والآن يستقبلها بدون حفاوة. ونسبةً لهاندل فإن القداس سطحى بسيطٌ للغاية يفتقر للعمـق؛ فتـشدو الأصوات العذبة "وسيقوم الراعى بإطعام خرافه" أعذب ما يكون فى المغتـرب. لا شيء هنا ذا مغزىً روحي". (١٠)

كان فورستر فى مقالاته، بكل طرافة وسخرية، ينأى بنفسه عن بنى وطنـه، عن أولئك الذين كانت أحاسيسهم ورؤاهم زائفة فى كل الأحوال، عن أولئك الـذين كانوا أيضًا يغضون أبصارهم عن حقيقة مصر، وتحت ذلك كله كان يكمن غضب: ذات يوم كانت توجد "حضارة أكثر قدَمًا وأكثر قُربًا ومودةً"،(١١) كما كتب فى مقاله عن الطريق القديم الذى كان يعبر مدينته التى سمّاها مدينة الروح.

كان فورستر، كما وضح ذلك فى مقاله "موسيقار يعيش فى مـصر" الـذى نشر فى ٢١ أكتوبر ١٩١٧، يجد نفسه أكثر ارتياحًـا بـين سـكان الإسـكندرية

الشرقيين الذين كانوا يدّعون أنهم يشكلون جزءًا من الإرث البيولوجي لإقليم شرق البحر المتوسط:

تتشكل الحضارات المصرية من قرابة الحضارات الثلاث: هناك مصر الفرعونية التي لم تزل تحرك مشاعر السائحين وكبار الروائيين إلا أنها لم تعد تعني شيئًا بالنسبة للسكان المحليين، وهناك مصر العربية التي نعيش فيها بصورة أو بأخرى وبالكاد نستمد وجودنا منها – وهي تعتبر حضارة حقيقية فإنه يستعصي علينا فهمها، والثالثة الأخيرة هي مصر الشرق – ذلك الحزام الساحلي الواقع على البحر المتوسط الذي كان، منذ عهد هيرودوت، يخضع لسلطان النفوذ الأوروبي. وأنا شخصيًا، كأوربي، أشعر بحنين لهذا الحزام الساحلي؛ فهو يثير اهتمامي بل يثير في نفسي شعورًا رومانسيًا، ورغم صغر مساحته فإنه أولاً وأخيرًا كثير النفع، فهي حضارة كانت دومًا وينبغي أن تكون أبدًا حضارة للاصطفاء والاغتراب، ولكن رغم هذه العيوب؛ فقد واصلت البقاء قرنًا بعد آخر، أحيانًا ما كانت تندثر تحت رمال الجنوب ولكنها ما تلبث دومًا أن تظهر من جديد. ارتبط مصير طائر صغير – لا أذكر اسمه – بحيوان وحيد القرن يلازمه أينما ذهب يقوم عنه بمهام مختلفة لا يقدر وحيد القرن على القيام بها بنفسه، وبالفعل فمصر الساحلية ما هي إلا طائر صغير قابع في نشاط ويقظة مختف عن الأنظار على ذلك الحيوان الضخم المتمثل في إفريقيا، وقد لا يكون هذا الطائر نسرًا أو بجعة لكنه على عكس مضيفه وحيد القرن يمكن أن يمرق بخفة في الهواء ذي اللون الأزرق الذي يضفيه عليه النهار وهو يزقزق من حين إلى حين.

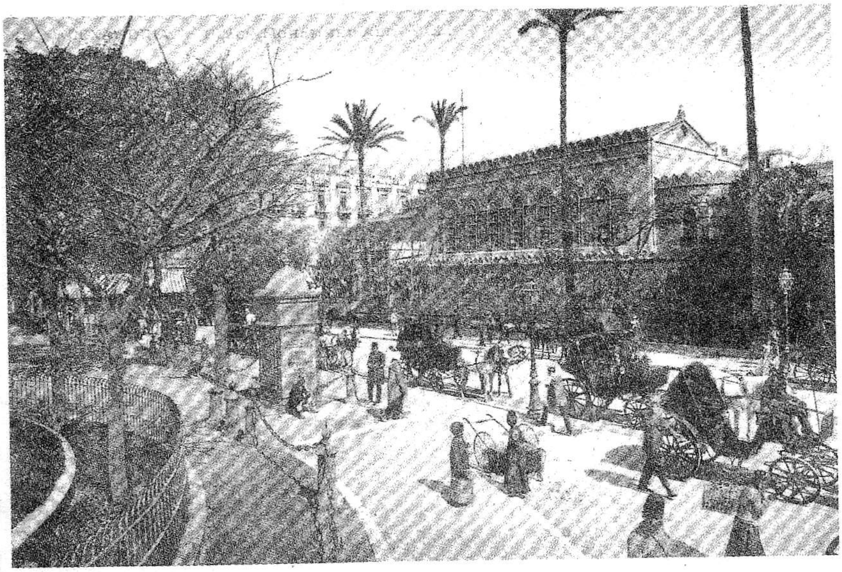

بطاقة بريدية لكنيسة سان مارك الإنجيلية. تم بناء هذه الكنيسة في منتصف القرن التاسع عشر على أرض قدمها محمد على للجالية الإنجليزية. واعتمد في عمارتها على الطابع المعماري للكنائس القديمة غير أن واجهتها تعلوها عناصر زخرفيه عربية

وأردف قائلاً "إن الملاحظات التى ذكرناها قبل كانت من وحي بعض الموسيقى التى شهدها مؤخرًا فندق سان ستيفانو بالإسكندرية: قصيدة سيمفونية ألفها موسيقار محلى يسمّى إنريكو تيرني"– ليس موسيقارًا مصريًا وإنما موسيقار يعيش فى مصر، فمثله كمثل من سبقوه من الفنانين من زمن البطالمة والبيزنطيين "فتجد دومًا هذا الإجهاد للعينين من النظر فيما وراء الأفق، دومًا هذا الابتعاد عن الإسكندرية، تلك المدينة، كالحيوان الضخم، شاسعة وعديمة الشكل وعاجزة عديمة النفع. قد كان أحدث إنتاج هذه الحضارة الساحلية تلك الموسيقى من إبداع الموسيقار تيرنى والتى تعد، فى أشد عذوبتها وتلهفها، موسيقى الاغتراب.(١٢)

كان إنريكو تيرنى، وهو من أصل إيطالى يهودى قد ولد بالإسكندرية، فى سن فورستر تمامًا، وقد كانا هو وزوجه، فاوستا سيالنتى ـ صحافية وروائية ـ يواصلان إضافة إسهامات مهمة للحياة الثقافية للمدينة حتى الخمسينيات من القرن العشرين حتى غادراها إلى إيطاليا. وربما قد تقابل الرجلان فى ربيع سنة ١٩١٦ عندما كان فورستر يعد حفلاً للموسيقى الكلاسيكية فى المنتزه للجنود، وكان ذلك فى الوقت الذى كان يقيم مع فورنيس فى أبو النواطير، وأغلب الظن أنهما تعارفا من خلال أحد جيران تيرنى، عايدة بورتشجرى الأوبرالية. وبحلول فصل الصيف صارا صديقين، وقد كان فورستر يذهب إليه ليقيم معه قرب خليج ستانلى إذ كانا يسبحان ويتبادلان عزف الألحان القوية للموسيقار ريتشارد واجنر وماء البحر يغمرهما.

وقد تقابل الرجلان على الغداء، بعد أن نشر المقال، حيث قص تيرنى على فورستر عن واقعة حدثت معه مؤخرًا فى المصرف الخاص به؛ إذ لاحظ أن عميلاً قد ترك عدد من العملات الورقية فئة المائة جنيه على طاولة المصرف، عندها جرى وراء العميل وأعاد إليه المال فشكره الرجل بحرارة، إلا أن تيرنى استوقفه وقال له "هل أنت تعلم يقينًا أنه يحق لى كما ينص البند رقم ١٩٣ فى مكافأة قدرها ١٠ فى المئة من مجموع ذلك المال"، فأجابه العميل "أنا أعلم ذلك، لكننى أحترم شخصك وقوامك الفنى احترامًا شديدًا لأضع القانون موضع التنفيذ"، فقال له تيرنى " لا أوافقك فى هواجسك" والذى قال لفورستر إنه حينئذ كان يسعى فى المحكمة وراء حصوله على المكافأة. لقد بدت الواقعة تقليدية بالنسبة للإسكندرية حيث لا يراعى فيها البعد الأخلاقى كما لو أنه كان يتفق مع انحدار أراضيها. ولأنه لم يكن هناك كارثة يهوى فيها المرء؛ إذن فلم يكن يترتب على المضى قدمًا على حافة الهاوية "خطر أو شجاعة أو جمال"(١٢).

كان الشاعر اليونانى كفافيس هو الاستثناء؛ إذ كتب لــه فورســتر "إمــا أن تنطوى الحياة على الشجاعة والإقدام أو تفقد معناها كليًا" (١٤)، لكن لا ينبغى للحياة أن تأخذ "شكلاً اعتياديًا ولا مظهريًا"(١٥). وفى قصة هزلية قصيرة تحمــل عنــوان "بيراكليزى فى الجنة" أرسلها فورستر فى صيف ١٩١٨ إلى روبــرت تريفيليــان، صور فورستر أناستاسياديس واقفًا على درج يمتد إلى ما لا نهاية لأعلى ولأســفل، وكان يقول "لا بد أن يأتى أحدٌ عما قريب، هنالك سوف أعــرف فــى أى اتجــاه أمضى، فقد يفترض المرء أن يتجه صوب أعلى غير أن هذه الأماكن تخدع المرء أيما خداع"، عندها يظهر كفافيس ولكن هابطًا الدرك. لمَ يذهب فى الاتجاه الخاطئ؟ "إنها نزعة ندم، عزيزى بيرى، إنها نزعة ندم"، ولكن يحتج أناستاســياديس قــائلاً "لكن من المؤكد أن الأحداث كلها بأعلى"، ويجيب عليه كفافيس "ربما أندم وربمــا لا، فى كلتا الحالتين، سأهبط سأهبط" ويختفى فى الأسفل. ويردد أناستاسياديس على نفسه "ما عسانى أن أقول فى رجل ذى شأن مثل هذا الرجل؟ عجبًا على رجل لــه مثل هذا الشأن يمتلك الموهبة العلمية ويهبط لأسفل رغم ذلك، أقــسم أن كفــافيس يعلم، وعلاوة على ذلك فأنا فنان، سوف أقوم بالمخاطرة" ثم يهرع أســفل الــدرك خلف كفافيس لكنه يصطدم بتيرنى الذى كان يصعد الدرج، فصرخ "يا له من حادث بغيض!" ويجيب أناستاسياديس صراخه بصراخ "أتدعو نفسك فنانًا! فالأحرى بــك أن تتجه لأسفل لا لأعلى، أسفل لا أعلى!"(١٦)

فى تلك الأيام، وخلال العقدين الأولين من القرن العــشرين، كانــت مدينــة الإسكندرية تتربع على عرش الأدب اليونانى، فى حين لم تكن أثينا ســوى قريــة ريفية كادحة تدور فى ظل دولة حديثة العهد ولها تطلعــات قوميــة. كــان ممــن يرتادون شقة كفافيس الواقعة فى ١٠ شارع ليبسيوس (شارع شرم الــشيخ حاليًــا) شعراء وكتاب وممثلون وموسيقيون وفنانون مبــدعون، وقــد شــاركهم كفــافيس

اهتماماته الأدبية والتاريخية، كما كان من بين المترددين عليه دبلوماسيون يونانيون وفرنسيون وبريطانيون وأصدقاء مثل أحد أقطاب تجارة القطن وجامع التحف أنتونى بيناتشى والذى كانت أخته، بينولوبى دلتا ـ الكاتبة ـ تمد كفافيس دومًا بمشروبه الروحى المفضل ماستيكا بطعم الينسون من مدينة خيوس اليونانية. وكان يمكن لأى شخص أن يأتى إليه بصحبة من يشاء من أصدقائه، إلا أن كفافيس كان يضع فوارق فى ضيافته؛ إذ كان يدخرُ أفضل مشروباته الروحية لمن يُكنّ لهم احترامًا عميقًا ويقدم للآخرين، إذا ما احتملهم من البداية، مشروبًا روحيًا أقل جودة وكان يطلق عليه "مشروب بالاماس" نسبة إلى الشاعر اليونانى المعروف فى ذلك الوقت الذى كان يعتبره كفافيس شاعرًا من المرتبة الثانية.

وقد كان زوار كفافيس، قبل أن يهبطوا سلالم الطابقين حيث كان يقطن هو، يمرون بين صفين من البغايا اللواتى كن يقمن بدعوة المارة من نوافذ منزل البغاء القابع فى الطابق الأول؛ حتى إن الشارع يعرف بين أواسط أهل الإسكندرية الظرفاء بشارع كلابسيوس. وقد كان كفافيس يقول عن هؤلاء الصبايا اللاتى كن يقطن الطابق السفلى "يا لهن من مسكينات! لا بد وأن يأسف المرء لحالهن، إنهن يستقبلن أناسًا يثيرون الاشمئزاز، وحوشًا، ولكن" ـ هنا كان صوته يأخذ نبرة حماس دفينة ـ "كن يستقبلن أناسًا كالملائكة، حقًا ملائكة!" (١٧)

مخازن (شون) مينا البصل. كان يتم تنظيف وكبس القطن فى بالات فى منية النصر بالقرب من الميناء الغربى ليتم تخزينه فى هذه المستودعات لحين شحنه للتصدير.

لم يذكر فورستر شيئًا عن البغايا اللاتى ربما لم ينتقلن إلى هذا المكان إلا بعد الحرب العالمية الأولى، كما لم يكد يقول شيئًا تقريبًا عن الزيارات التى كان يقوم بها لشقة كفافيس أو عن نزعات كفافيس. ولكن بقيت شهادات أناس آخرين فى

ذلك الوقت ومن جاء لاحقًا. أما الآن فقد تم إعادة ترقيمه وتسميته ٤ شارع شرم الشيخ وفقد كل من المبنى والشارع ما كانا يتمتعان بهما من سحر ورذيلة معًا بعد أن صارت حالته إلى أسوء حال، ولكن إبان العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، كما كان يتذكره جاستون زنانيري؛ كان ينضم إلى كفافيس "وقت بزوغ الفجر ووقت غروبها" فى شرفته التى كانت تطل على حدائق المستشفى اليونانى وما يجاوزها من كنيسة سانت صابا البطريركية، أما اليوم فقد اكتظ بورش إصلاح السيارات. كانا يجلسان، وفى يديهما كأسان من الزبيب، وقد يتحدثان عن الحضارة البيزنطية. "هذا النموذج للشعر والعاطفة والجنس" كانت تلك كلمات زنانيرى "أين يمكننى أن أجد مكانًا أفضل منه لأعيش فيه؟" فأجابه كفافيس "فى الأسفل، حيث تجد الماخور والبغايا، وهناك الكنيسة التى تغفر الخطيئة، وهناك المستشفى الذى نموت فيه." (١٨)

كان وقت بزوغ الفجر أفضل أوقات اليوم عند كفافيس يستقبل فيه زائريه، وقد كان يفتح أو يغلق مصاريع نوافذه وكذلك يرفع أو يسدل ستائرها بحيث يحدد قدر سقوط الضوء على زائريه، وعندما يدخل الغرفة وجه جميل فيوقد شمعة أو اثنتين يضيء بهما الغرفة بينما يقبع هو فى الظلام فلا يُرى منه شيء. وذات يوم فى أثناء تلك الزيارات، جاء تيموس مالانوس - كان شابًا يافعًا خلال الحرب إلا أنه أصبح فيما بعد ذا نفوذ قوى على كفافيس - ليعرض عليه شعره: "لقد مكثت حتى وقت متأخر فى غرفة الضيوف، لكنى أذكر أنه للحظة شعرت أن روحه كلها تركزت فى نظرته وفى لمسة يده مستعدًا لينقض على بحركة تشبه حركة النبات آكل اللحوم".(١٩) وتلك كانت إحدى المواقف القليلة جدًا التى سُجلَت لكفافيس والتى لم يحاول فيها أن يدفع بطريقته؛ إذ شعر مالانوس بالتنافر ولم ينتج من الموقف شيئًا. وبدلا من ذلك، كما يذكر زنانيرى، كان هو وكفافيس "يرتادان الملاهى الليلية، وكان كفافيس معتادًا قضاء الليل هناك ويلاحق الشباب بنظراته وعندما يعود لمنزله يدون انطباعاته فى مذكرات، وكما سترى فى بعض أشعاره حيث

يقول فيها إن الرجال كبار السن يركنون إلى ذاكرتهم". فـي ذلـك الوقـت كـان زنانيرى أديبا ناشئا، لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره عندما التقى كفافيس فى ١٩٢٦، وبعد مرور سبعين عامًا كان يعيش كراهب كاثوليكى فى باريس فى مكان يطل على شارع فوبور سان أونوريه، وعندما سئل عما كان يجرى بينـه وبـين كفافيس بجانب الشعر، أجاب "كان الشعر الشيء الوحيد الذى كنا نتبادل فيه الحديث مع كفافيس! كانت علاقتى بكفافيس تنحصر فى الأمور الفنية فقط –الشعر والروح البيزنطية، ولم يجل بخاطرى قط أن أرى كفافيس أى شيء آخر سـوى شـاعر". وهكذا، حينما كان يشعر كفافيس بالوحدة فى الليل كان يخرج إلى الشوارع يبحـث فى الحانات والمقاهى عن الشباب الفتى البائس من مثل سبيروس وچورچ، الاسمين اللذين تم ذكرهما، أو ميكانيكى السيارات، ويدعى توتو، الذى كـان يـؤثره علـى غيره، ويقوم بغوايتهم بالمال لكى يصعدوا معه إلى شقته.

لقد قابل سكان الإسكندرية، لسبب وجيه، وهو الارتباطات التاريخية عن طيـب خاطر حتى إنه صار أمرًا لا مفر منه، وفوق كل شيء ما أبداه شاعر المدينة فى هـذا الشأن، وقد صاغ فورستر هذا الأمر بطريقة أدبية حقًا عندما قال إن "الملوك والأباطرة والبطاركة قد وطئوا الأرض التى تفصل ما بين مكتبه وشقته".(٢٠)

كان كفافيس يعمل لحساب مديرية الرى، وهـو واحـد مـن أقـسام وزارة الأشغال العمومية، حيث كانت لـ "الدايرة التالتة (المنطقة الثالثة)" (٢١) مكاتب فـى مبنى يقع بالقرب من نهاية خط الترام الواقع على الطرف الشرقى لشارع محطـة الرمل.(٢٢) وقد كان من الممكن أن يتذكر المسلتين اللتين كانتا، وهو مـا زال فـى ريعان شبابه، شامختين على مقربة من الشاطئ، إحداهما منتـصبة بينمـا كانـت الأخرى منكفئة على وجهها ونصفها مدفون تحت الرمال، وقد كانتا علامة بـارزة على موقع معبد القيصر أغسطس، أقامتـه كليوبـاترا تخليـدًا لـذكرى يوليـوس قيصر أو مارك أنطونيو إلا أنه تم استكماله بغرض عبادة القيصر أغسطس الـذى

أعطى لنفسه تلك الصفة بعد أن أحرز انتصاره على مصر. كان هذا المعبد مشيدًا بأسلوب عظيم وفخم، بديع في شكله، يكسو الذهب والفضة جميع جوانبه، كما كانت تحوطه أروقة ومكتبات وحدائق تغلفها القداسة. وقد تحول فيما بعد إلى الكنيسة البطريركية. ولكن لم تبق المسلتان قائمتين في مكانهما إلا في عهد هذا المعبد؛ إذ في القرن التاسع عشر تم التخلي عن "مسلتي كليوباترا"، انتصبت المسلة – التي كانت مستلقية آنذاك – على ضفة نهر التايمز بمدينة لندن، ووضعت المسلة الأخرى في سنترال بارك في وسط مدينة نيويورك. والآن بينما كان كفافيس يعود أدراجه إلى منزله متخذًا طريق المسلة، يمكنه أن يتذكر بدقة أين كان موقع المسلة التي ذهبت إلى نيويورك والتي كانت منتصبة في موقع المنطقة الثالثة التابعة للري.

ارتبطت مع كفافيس مظاهر أخرى من الارتباطات التاريخية وهو يدنو من شارع ليبسيوس، حيث عبق التاريخ وإحساسه بالصلة الحميمة التي تربطه مع العالم اليوناني؛ إذ جعل كل ذلك لكنيسة سانت سابا البطريركية تأثيرًا قويًا كغيرها، أما بالنسبة لموقع الكنيسة البطريركية الأرثوذكسية اليونانية في الإسكندرية وليبيا ومدن بينتابوليس الخمسة الواقعة شرق ليبيا الحالية وإثيوبيا ومصر جميعها فهي تنحدر مباشرةً من معبد القيصر أغسطس.(٢٣) بنيت كنيسة سانت سابا سنة ١٦٨٧م،(٢٤) على موقع كنيسة عتيقة وجدت سنة ٦١٥م، وكانت تمثل الكنيسة التي احتفظت بولائها للبيزنطيين وإمبراطور مجمع خلقيدونية المجمع المسكوني الرابع سنة ٤٥١م، عندما تحول أقباط مصر المسيحيون في اتجاههم العقائدي إلى أن المسيح عليه السلام ذو طبيعة كهنوتية واحدة. ويظل البطريرك مستقلاً، كما كان دومًا، لا يدين بالولاء لأي سلطة كنسية أعلى منه، وهو يصنف على مستوى العالم في المرتبة الثانية فقط بعد بطريرك القسطنطينية الشمولي.

على الرغم من أن كفافيس كان يعتقد أن الأديان كلهـا "ملفقـة"،[٢٥] كـان يحضر قداس يوم الجمعة الحزينة أو جمعة الآلام ويقف وسط المؤمنين حينما يمـر موكب جنازة السيد المسيح ببهائها وسحرها عبر البطريركية:

عندما أذهب إلى هناك، داخل كنيسة اليونانيين،

بالبخور الذى يعبقها،

وترانيمها الطقسية وتآلف ألحانها،

والحضور المهيب للقساوسة

وهم يرفلون فى أرديتهم المبهرة

وإيقاع حركاتهم المهيبة

تنصرف أفكارى إلى الأمجاد التليدة لسلالتنا

وفخامة تاريخنا البيزنطي

"فى كنيسة In a Church"

(كتبت فى عام ١٨٩٢، ونشرت فى عام ١٩١٢) [٢٦]

بطريقة مماثلة سلمت المستشفى اليونانى كل متعلقاتهـا ـــ بـصورة حتميـة ـــ تقريبًا، حينما كانت أعمال الحفر تتم قبل تشييدها فى عام ١٨٨٠، وتـم الكـشف عـن أساسات ضخمة لمبنى أثرى مزدان بتماثيل رخامية أعتقـد أنـه قـصر الإمبراطـور هادريان **Hadrian** الذى زار مصر عام ١٣٠ ب.م. كما اكتشفت عدة تماثيل أخـرى فى منطقة قريبة، كان منها تمثال هائـل لمـاركوس أوريليـوس **Marcus Aurelius** وتمثال هيلينستى لهرقل، كما أشار نقش إهدائى مخصص لإيزيس بلوسـيا **Isis Plusia**

اكتشف فى تقاطع شارع النبى دانيال وشارع المستشفى اليونانى، إلى وجود معبد لهـذه الإلهة والذى ربما امتد تحت منزل كفافيس فى شارع ليبـسويه **Lepsius** (وهـو اسـم لمهندس فرنسى شهير يعرف الآن باسم شارع شرم الشيخ).

قسطنطين كفافيس، صورة له عام ١٩٠٣، وقد ظل يـستخدم هـذه الـصورة الشخصية وغيرها لـسنوات تاليـة. وعنـدما طلـب منـه ناشـر الجراماتـا Grammata **صورة حديثة له رد عليه كفافيس أنه يفضل أن يغيـر التعليـق بعبارة "كفافيس منذ سنوات".**

وأوحت هذه الاكتشافات وغيرها – وكان من بينها تتبع لتخطيط شوارع أثرى للإسكندرية – أن هذا هو المكان الذى كان يمثل قلب المدينة القديمة، واعتقدت بريتشيا Breccia أن المعبد The Museion والمكتبة كانا فى المنطقة الواقعة بين شارع المسلة Missalla وشارع المستشفى القبطى وشارع النبى دانيال وشارع رشيد Rosette وشارع شريف باشا. وفى Alexandria ad Aegyptum (أو الإسكندرية ومصر فى "العصرين البطلمى والرومانى ") قالت بريتشا إن شارع روزيت هو Canopic Way (الطريق الكانوبى، ويعرف حاليًا بشارع أبى قير)، وشارع النبى دانيال هو شارع سوما، واضعة مقبرة الإسكندر (سوما) فى مكان قريب من هذا التقاطع، وهو على بعد بضع درجات من شارع ليبسويه.

وأثناء عودته لمنزله من شارع المسلة، كان كفافيس يمر على اثنين من أكثر الأماكن المفضلة لديه وهما مقهى السلام وقصر البلياردو Billiard Palace [٢٧] وقد أخذ الثانى هذا الاسم بسبب المناضد ذات الأسطح الرخامية الموجودة أمامها، وبعض الشباب الذين ينتقلون جيئة وذهابا بين الشارع وبين مناضد لعب البلياردو الستة عشر ومناضد لعب البلياردو الفرنسية الموجودة بالصالات الخلفية؛ وقد يمكث كفافيس بالساعات فى هذا المكان فى شرب بعض المسكرات وقضم البلح، وتظل أفكاره تتأرجح بين أحلام اليقظة والنزوة، (كما تشير الأبيات التالية):

لابد وأن عمره قد قارب الثانية والعشرين عاما

ولكنى على يقين من أنه فى هذا الزمن البعيد

كنت أستمتع بذات الجسد

...

هناك، حيث كان يجلس على الطاولة المجاورة

كنت أتابع كل حركة يقوم بها – ومن تحت ثيابه

كنت أرى أطرافه التى أحببتها – أراها عارية

"الطاولة المجاورة" "The Next Table"

(كتبت فى يناير من عام ١٩١٨)[٢٨]

ويعد "الزمن البعيد" لكفافيس – حينما كان "يستمتع بالجسد ذاته "– حكاية من نوع خاص. كذلك، فهو على الأخص تجربة شخصية تغلفها اللذة الحسية، حيث كان هذا التجمع من الشباب الوسيم من مرتادى المقهى جزءًا من موكب القادة والملوك الطيفى. وقد كان هنا على الأرجح– بطول شارع المسلة– المكان الذى قابل فورستر فيه كفافيس وهو يقف فى "زاوية ضيقة من العالم "، وأقنعه أن يخرج (ما عنده) من أكثر العبارات تعقيدا وكثافةً، "عبارة الشاعر" [٢٩]. والتى ربما قد حملتهم على العودة إلى شارع ليبسويه قبل أن تنتهى. وهناك – مثلما كان يفعل كفافيس وزنانيرى قبل عقد مضى– أخذا يتجاذبان أطراف الحديث حول الشعر والماضى، وحول ما تعبر عنه مقولة زنانيرى "الإسكندرية – ليس حديثًا معادا ولكنه استكمال لحديث." [٣٠]

وعلى الرغم من أن كفافيس كان يعمل موظفًا حكوميًا فى مديرية الرى الثالثة فإنه لم ينس على الإطلاق أنه ولد لأب موسر، غير أن الظروف التى تحيط به، والعسر الذى أتى من بعد يسر كانا جزءًا من حكاية كبيرة كذلك، حكاية التاريخ الطويل المحفوف بالخطر للشتات اليونانى الذى يفخر (كفافيس) بانتمائه الثقافى إليه، وقد صرح أنه ليس يونانيًا، ولكنه يعتبر نفسه إغريقيًا، بالمعنى الوصفى لهذه

الكلمة، وموضحًا ارتباطه بتراث أقل نقاءً ولكنه مع هذا لا يــزال يحــتفظ بكامــل فخامته، من مرسيليا إلى الهند، ومن بحر قزوين لشلالات أعالى النيل، (فى تلــك المساحة التي) امتد العالم المأهول بالسكان، **oecumene**، بها، بحــسب مــا كــان القدماء يعرفونها وقتها، أو البشرية قاطبة؛ وحيث كانت اللغة والثقافة اليونانية هى القاسم المشترك بين الشعوب المتحضرة؛ الحضارة الهيلينستية، ميــراث الإســكندر، التى كان كل فرد فيها إغريقى الفكر أو المنهج إن لم يجر الدم الإغريقى فى عروقــه، عالم لم يكن يتألف من قوميات بل كان ذا صبغة دولية وعالمية. وأخذ كفافيس – مــن خلال مشاعره لهذا التاريخ، ومن خلال المكان واللغة – يطالب بهذا الميــراث لنفــسه ولمدينته، (ويتضح هذا من خلال الأبيات التالية) :

حسنًا نحن هناك تقريبًا Hermippos

بعد غد على الأرجح – حسب ما يقول القبطان.

ويكفى أننا نخوض عباب بحارنا

فهذه مياه بلادنا – قبرص وسوريا ومصــــر–

لماذا يغلب الصمت عليك؟ فلتسأل قلبك

ألم تشعر، أنت أيضا، بسعادة أكثر

كلما ابتعدنا عن اليونان؟

ما الغاية من خداع أنفسنا؟

فليس ذلك من سمة اليونانيين، أليس كذلك[٣١]؟

"العودة من اليونان Returning to Greece" (كتبت فى ١٩١٤)

ولد قسطنطين كفافيس فى ١٨٦٣، وكان الأصغر بين سبعة أولاد لرجل وامرأة استقرت جذورهما لأجيال عدة فى المجتمع اليونانى المزدهر فى القسطنطينية. وكان كلا الجانبين من عائلته يدعى انتسابه لأسلاف بارزين، مثل حاكم مولود وفىّ وكبير كهنة أنطاكى من ناحية سلالة الأب، وكبير كهنة قيسارية من ناحية الأم. كما كانت أسرة والدته تدعى انحدارها من سلالة بيت دوكاس الإمبراطورى البيزنطى. ومن ناحية أخرى، فإنه من المعتقد أن عائلة كفافيس نشأت على الحدود الأرمينية الفارسية، حيث اكتسبوا هذا الاسم، وهو المشتق من "ayakkabici"، وهو اللفظ التركى لصانع الأحذية[٣٢].

وتبع بيتر والد كفافيس أخاه إلى إنجلترا، حيث أنشأ فى ١٨٤٩ "إخوان كفافيس "، وهى شركة استيراد وتصدير مقرها فى لندن، وكانت تتاجر فى القطن المصرى ومنسوجات مانشستر. وفى نفس السنة، أثناء زيارته للقسطنطينية، تزوج بيتر من هاريكليا، ابنة أحد تجار الماس، وعند عودته معها إلى إنجلترا عام ١٨٥٠، حصل على الجنسية البريطانية. وبعد خمس سنوات، أخذ بيتر عائلته إلى الإسكندرية حيث أسس بى. جيه. كفافيس وشركاه، وتاجر فى القطن والحبوب، وكان له فروع فى القاهرة ولندن وليفربول. وباستفادته من حرب القرم، التى رفعت أسعار الحبوب، وفيما بعد الحرب الأهلية الأمريكية، التى دفعت المصانع الإنجليزية إلى التحول إلى مصر من أجل الحصول على إمداداتها من القطن، فإن بيتر استطاع بسرعة أن يصبح أحد التجار البارزين فى الإسكندرية، كما تمكن بثرائه وحيويته وثقافته أن يندمج فى أرقى الأوساط، حتى اكتسب صداقة كل من الخديوى سعيد والخديوى إسماعيل.

وولد قسطنطين كفافيس فى أوج ازدهار القطن فى شارع شريف باشا الراقى، فى عام ١٨٦٣ التى مثلت خطًا فاصلاً، حيث إن العائلات اليونانية التى

أتت إلى الإسكندرية قبل ذلك التاريخ، والتى أسس أفرادها التجارة اليونانية والصناعة المصرفية فى المدينة، ظلت تتمتع بالأسبقية الاجتماعية على هؤلاء الذين قدموا بعد وصول إسماعيل إلى سدة الحكم وصعود التأثير ورأس المال الأوربيين، وبخاصة التأثير ورأس المال البريطانيين. ولكن توفى بيتر فجأة فى ١٨٧٠، تاركًا أعماله مع القليل من العقارات لعائلته، وتبوأ أولاده الكبار محدودو الخبرة مناصب قيادية فى الشركة بالإسكندرية وليفربول ولندن، بينما كانت هاريكليا تقيم مع ابنها الأصغر الباقى فى رعايتها فى كل مدينة بالدور. وفى عام ١٨٧٦، أفلست الشركة وضاعت ثروة الأسرة، وعادوا فى العام التالى إلى الإسكندرية، حيث عمل إخوة كفافيس فى الوظائف التى تمكنوا من الحصول عليها، سواء ككتاب أو مديرين فى شركات يونانية أخرى.

وقد طبعت وفاة والده وفقدان رأس مال العائلة تأثيرًا عميقًا على كفافيس، وكذلك فعلت سنوات دراسته فى إنجلترا، حيث ظل تأثير الأدب واللغة والعادات مصاحبًا له طيلة حياته. وحتى يوم وفاته كان يتحدث اليونانية بلكنة إنجليزية، وربما كان "يفكر"فى أشعاره باللغة الإنجليزية أولاً قبل أن يكتبها باليونانية. وكذلك لم تعجز أحداث ١٨٨٢ عن ترك انطباعاتها لديه؛ ففى ٥ يونيو من ذلك العام، حتى قبل أحداث الشغب فى شارع الراهبات، أرسل إليه أحد أصدقائه السكندريين خطابًا من إنجلترا قائلاً له: "أرى فى الصحف أن جميع الأوروبيين يفرون من مصر، ولا أستطيع أن أمنع نفسى من الضحك حين أتخيلك وأنت تفر حاملاً فى إحدى يديك مظلة وفى اليد الأخرى كيسًا بينما يتبعك ما يقرب من مائة بربرى. فهل يثير هذا الباشا الأحمق القلاقل كما يقولون؟ فإنه يستحق صفعة على وجهه لوقاحته الفجة، ولا أستطيع فهم جلادستون الذى يصر على ترديد أنه من المستحيل فعل شيء، أو أى شغب من هذا النوع، وإذا كان دزرائيلى هنا، لاستطاع أن يدبر ذلك فى شكل

جماعة منظمة على دق الطبول."(٣٣) وكانت تلك هى النظـــرة الحقيقيـــة لليونـــانيين المصريين، وقد يكون من المدهش أنها ليست من الرؤى التى وافق عليها كفافيس. وكانت أسرة كفافيس من بين آخر هؤلاء الذين رحلوا على مضض، مبحرين إلـــى القسطنطينية قبل القصف بأقل من أسبوع.

وفى ١٨٨٥، عاد كفافيس ووالدته مرة أخرى إلى الإسكندرية حيث عاش معها حتى وفاتها فى ١٨٩٩. وربما كانت لديها نزعة إلى التملك، وكانت كلما كبـــرت فـــى السن يزداد خوفها من البقاء وحيدة، وكان ذلك سببًا آخر يدفعه إلـــى الانتظـــار حتـــى تذهب إلى النوم قبل أن يخرج خلسة فى الليل ويتجه إلى العطارين. وقد قال أحد كبـــار أبنائها: "كل حياتها كانت غير طبيعية، وكان عليها أن تتعايش مع هـــذا الـــنمط غيـــر الطبيعى وإلا ماتت!"وعلى الرغم من شكوى قطسنطين من أنه كـــان شـــبه مـــستحيل بالنسبة له أن يتفق على موعد أو يقبل دعوة خشية أن تجعله طلباتها يلغى خططه فـــى اللحظة الأخيرة، بالرغم من ذلك فقد كان مكرسًا نفسه لها، وكانت تقول عنه: "أعتقد أن الشخص الوحيد الذى سيبكى من أجلى إذا مت هو كوستاكى.(٣٤)"

وفى الوقت الذى بدأت فيه الأسر الثرية فى الانتقال من وسط المدينـــة إلـــى محرم بك أو إلى أبعد من ذلك فى الرمل، عاشت أسرة كفافيس أولاً فـــى شـــارع توفيق، الموازى لشارع شريف باشا وإن لم يكن على نفس طرازه، ثم فى شـــارع محطة الرمل والذى كان يتمتع بالاحترام وحسن والسمعة ولكنه كان يعـــج بتجـــار المتعة من الجنسين، حيث كانت الإناث تصطف على أحد جانبى الـــشارع، بينمـــا يعرض الذكور أنفسهم على الجانب الآخر منه.

وعلى الرغم من الموارد المالية لعائلة كفافيس كانت محدودة، فإنهـــا كانـــت تتمتع بوضع اجتماعى جيد، وسرعان ما اندمجت الأم وأبناؤها فى طبات المجتمـــع

السكندرى، فكانوا يترددون على قصر الخديوى فى رأس التين، ويشاهدون السباقات فى نادى سبورتنج، ويذهبون إلى كازينو سان ستيفانو من أجل الترفيه، كما كانت تتم دعوتهم لحضور الحفلات الراقصة وغيرها فى الفيلات الفخمة المملوكة لليونانيين وغيرهم من أبناء المشرق. وذات مرة فى أحد الأسابيع، كانت هاريكليا "فى البيت"تستقبل الزوار، وتبدو فى قائمة ضيوفها دائرة الأثرياء والجنسيات المتعددة، التى انتقلت إليها عائلتها، والتى تضم الكثير من العائلات الإنجليزية والفرنسية، ومن بينهم عائلة كارفر وألدرسون، وعائلتا دبانه والزغبى من سوريا ولبنان، وعائلات بناتشى وكوريميس وأنتونى أس وسينادينوس وزيزينيا وزرفوداتشى اليونانية. وكان الثراء عاملا رئيسيًا لتحقيق المساواة فى المجتمع السكندرى، وكانت فى مقابله تظهر جماعات من المتملقين، وكان زخرف هذه الحياة يتمثل فى أشياء مثل شراء الألقاب، وجمع القطع الفنية، بالإضافة إلى الاستعانة بالمربيات الإنجليزيات بشكل دائم تقريبًا. وحيث لم تكن عائلة كفافيس ثرية، أو حتى حديثة الثراء، فإن جون شقيق كفافيس قد نظم أبياتًا من الشعر يستنكر فيها بأسلوب ساخر إحدى العائلات التى اتسمت بتلكما الصفتين: "كانت عائلة زرفوداتشى تقيم هنا لفترة، وكنت أقابلهم كثيرًا بعض الشيء، وحين كنت أنحنى لهم، كانت وجوههم المتجهمة تلين بتعبير يقصد به الابتسام."(٣٥)

وقد عرضت أسرة بناتشى على كفافيس وظيفة فى شركة تصدير القطن المعروفة باسم كوريمى بناتشى وشركاه، ولكنه رفض، ربما لأنه لم يرد أن ينظر إليه كرفيق لليونانيين، فكان يفضل أن يحافظ على استقلاليته، وعدم شهرته، كموظف مدنى صغير، وكمواطن بريطانى (ولكنه حصل فى وقت ما بعد ذلك، وفى تاريخ غير معروف، على الجنسية اليونانية) يعمل تحت مدراء بريطانيين فى الدائرة الثالثة للرى، حيث كان يشرف على المراسلات باللغة الإنجليزية. وكان

رؤساؤه فى الرى يعاملونه باحترام كما كانوا مفتونين بمعرفته الواسعة، وكثيرًا ما كانوا يدعونه إلى مكاتبهم، ويحثونه على إلقاء حديث مطول عن المسائل التاريخية. وقد قال ذات مرة: "لدى مقدرتان، كتابة الشعر وكتابة التاريخ"[٣٦]، وعلى الرغم من أنه لم يكتب التاريخ قط، فإن ولعه بالتفاصيل التاريخية كان يضفى الحياة على الماضى، وكان يستطيع أن يمتع مديريه الإنجليز بحديثه عن الشخصيات البارزة فى المدينة العريقة، كما لو كان يكشف أسرار علاقة غرامية سرية قائمة فى الوقت الحالى فى العالم السكندرى بالخارج.

وقد بدأ عمله فى الرى عام ١٨٨٩، وكان يدين بمنصبه لجورج زنانيرى باشا، وهو من أصل سورى مسيحى، ولكنه فوق ذلك مواطن بريطانى، وكان مؤثرًا فى الدوائر المالية والإدارية للمدينة. كما كان يدين أيضًا إلى مايكل زنانيرى، أخى الباشا، والذى كان رئيس الحسابات فى الرى (وكان جاستون زنانيرى، ابن الباشا، كريمًا وكانت الأوقات التى تقضى معه غير شاقة). وكان من المفترض أن يبدأ عمله فى الثامنة صباحًا، ولكنه لم يصل قط قبل التاسعة والنصف (وكان رؤساؤه الإنجليز يصلون بعده أيضًا)، وكان عليه البقاء حتى الواحدة حين كان المكتب يغلق لبقية اليوم، مما كان يتيح له حرية قضاء فترة بعد الظهيرة العرضية فى تكملة دخله ببعض السمسرة فى البورصة. وحتى هذه الساعات القصيرة لم تكن موجهة بأكملها لشئون الرى: "كان كفافيس شديد المكر"، هكذا ذكره إبراهيم الكيار، الذى عمل تحت إدارته، "فكان يغطى مكتبه بالملفات، فيفتحها ويبعثرها فى كل اتجاه ليعطى انطباعًا باستغراقه فى العمل، فكان يجيب دائمًا على التليفون قائلاً: "أنا مشغول بشدة"[٣٧]. وفى بعض الأحيان، كنت أنا وزميلى ننظر من خلال ثقب المفتاح، وكنا نراه يرفع يديه إلى أعلى مثل الممثلين، ثم يرسم على وجهه تعبيرًا غريبًا كما لو كان فى حالة نشوة، ثم ينحنى إلى أسفل لكتابة شيء ما،

وكانت تلك هى لحظة الإلهام. وبطبيعة الحال، كنا نجد ذلك مضحكًا فتنطلق قهقهاتنا.(٣٨)"

وكان جورج فالاسوبولوس، وهو محام وأحد رجال كينجز كولدج ويعيش فى ٩ شارع الفاطميين فى الحى اليونانى، يجمع كل من فورستر وكفافيس فى شارع ليبسيوس. ويرشد فورستر فى مسألة الأشعار بلغتها اليونانية الأصلية، أكثر مما كان كفافيس نفسه يفعله، وكان يقدم له ترجمات أنيقة وصحيحة كذلك، وفقًا لتقييم كفافيس. وكان فالاسوبولوس هو الأداة التى اختاراها لترجمة الأشعار إلى الإنجليزية، حتى يتمكن فورستر من تقديمها إلى متحدثى الإنجليزية. ولكن فالاسوبولوس كان يعمل ببطء: فحتى فى نهاية العشرينيات من القرن العشرين، ورغم كل مداهنات فورستر، فقد نشر بالكاد أكثر من اثنتى عشرة قصيدة لكفافيس فى إنجلترا. غير أنه أصبح ظاهرًا بعد ذلك أن بطء فالاسوبولوس كان مرتبطًا بنفوره للأشعار "المثيرة"، التى رفض أن يترجمها، قائلاً إنها قد لا تؤدى إلا إلى الإضرار بسمعة كفافيس، كما أنه لم يتحدث بشأنها، كما يبدو، إلى فورستر(٣٩).

ولكن ربما كان من الصعب بالنسبة لفورستر ألا يكون على دراية بشعر كفافيس اللوطى، وبالتحديد بعد فبراير ١٩١٨، حين لحقت الفضيحة بالمجتمع الأدبى اليونانى فى الإسكندرية بمحاضرة عن كفافيس ألقاها ألكساندر سينجوبولوس، وهو صديق شاب لكفافيس وفيما بعد أصبح الوصى الأدبى له، وقد كتب كفافيس نفسه هذه المحاضرة بالفعل. وكان كفافيس ينشر أشعاره الجنسية منذ عام ١٩١٢، ولكنه كان من الممكن ألا تعتبر لوطية أو حتى مبدية لأفكاره ومشاعره الخاصة، وذلك لأن الضمير لم يكن ضروريًا فى اليونانية؛ وكان كفافيس كثيرًا ما يحذفه، فكان يمكن أن يبقى جنس المحبوب غير معروف، ولأنه كان أحيانًا يبعد نفسه باستخدام ضمير الغائب بدلاً من ضمير المتكلم: "وهو يقسم بين

الحين والآخر أن يبدأ حياة أفضل / ولكن حين يأتي الليل... / يعود ضائعًا إلى نفس المتعة المميتة"("هو يقسم"، المنشورة فى ١٩١٥). ولكن المحاضرة، باستخدام أسلوب "ربما يكون رأى كفافيس... وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بذلك"، بلغ حد "الإعلان الصريح عن حرص كفافيس على المتع الحسية: فلا يمكن أن يكون هناك بعد ذلك أدنى شك فى تطابق الشاعر مع عمله، أو أن الأشعار التى تم تحليلها كانت سيرة ذاتية له، وأغلب الظن أن معظم الناس قد أدركت أنها أشعار لوطية"(٤٠)، وذلك وفقًا لما كتبه فيما بعد روبرت ليدل، كاتب سيرته.

وقد ظهرت أيضًا العديد من أشعار كفافيس اللوطية فى "كراماتا" فى أثناء الحرب، وقد نشر "كراماتا" كل من ستيفين بارجاس، صاحب الاسم المستعار نيكوس زليتاس، الذى كان يدير مكتبة "كراماتا" فى شارع دبان الممتد شمالاً من شارع شريف باشا. وكان كفافيس فى بعض الأحيان يذهب إلى هناك متأخرًا فى الليل حاملاً قصيدة له أنهاها لتوه: "لقد أحضرتها إليك الآن يا نيكو، حتى أستطيع أن أذهب لأنام فى سلام". وفى مناسبة أخرى كان يقول: "خذها يا نيكو، فإنها تحرق أصابعي"(٤١). ومن المرجح بالتحديد أن يكون فورستر قد لاحظ المقال المكتوب عن روبرت بروك، والذى أرسله فيرنيس من القاهرة فى عدد أكتوبر عام ١٩١٧، وكان يحتوى أيضًا على ثلاث قصائد جنسية لكفافيس، وهى "التفاهم" و"مقبرة لانيس" و"تذكر أيها الجسم..."(تذكر أيها الجسم ليس فقط كم أحبك آخرون / أو فقط الفرش التى ترقد عليها / ولكن أيضًا تلك الرغبات المتوهجة بصراحة / فى العيون التى تنظر إليك / وترتعش أمامك بصوت مسموع - / ولم تحبطها سوى عوائق صادفتها).(٤٢) وكانت القصائد بلا شك باللغة اليونانية، كما كانت محاضرة سينجوبولوس، ولكن لم يكن ذلك ليمنع فورستر من إدراك مغزاها؛ بل إنه يبدو أيضًا أن فورستر لو كان قد علم بشأن شعر كفافيس الجنسى، لما أصبح شديد الاهتمام به وربما لم يناقشه أيضًا مع كفافيس. والدليل على

ذلك، أن اللذة الحسية التى عبر عنها كفافيس لم تكن هى ما أثار فورستر، ولكن ما أثاره هو نظرته للتاريخ[٤٣] .

وكتب كفافيس فى ١٩٠٧، وهى السنة التى انتقل فيها إلى شقته فى شارع ليبسيوس: "الآن أصبحت معتادًا على الإسكندرية، وأغلب الظن أنى حتى لو كنت ثريًا، لبقيت هنا. ورغم ذلك، كم يزعجنى المكان، فكم هى مقلقة هذه المدن الصغيرة وكم تأتى بالأعباء – فما أنقص الحرية. وأنا أرغب فى البقاء هنا (ولكنى بعد ذلك، أجدنى مرة أخرى غير متأكد على الإطلاق إن كنت أرغب فى البقاء) لأنها مثل بلدى الأصلى، فهى مرتبطة بذكريات عمرى. ولكن كم يحتاج رجل مثلى، غير تقليدى إلى حد بعيد، إلى مدينة كبيرة، ولنقل لندن." [٤٤] ولكن وفقًا لما جاء فى هذه السطور الأخيرة القليلة من "المدينة"، التى كُتبت مسودتها فى ١٨٩٤ ونُشرت فى ١٩١٠، فقد انتهى به الأمر إلى إدراك أن المفر لا جدوى منه:

سوف ينتهى بك المطاف دائمًا فى هذه المدينة، لا تأمل فى غايات أخرى
فى مكان آخر ... فى أشياء أخرى فى مكان آخر:

فلا توجد لك سفينة، ولا يوجد طريق.

والآن وقد أضعت عمرك هنا، فى هذا الركن الصغير،

فقد أهلكته فى كل مكان بالعالم.[٤٥]

وبالنظر إلى الوراء فى "أيام ١٨٩٦"، نرى أن كفافيس كان يعتبر المجتمع السكندرى قبل الحرب العالمية "ضيق الأفق تمامًا"[٤٦]، ولكنها لم تكن فقط شكوى شخص لوطى، فقد كتب أيضًا فى شبابه عن كرهه للمدينة بسبب ما بها من "كل هذا العبث" [٤٧]. فالمكان قد يبدو سطحيًا ومملاً، وبيئته الثقافية محدودة، ومن

المرجح بالفعل أنه لم يبدأ فى إنشاء صداقات مع رجال إنجليـز وفرنـسيين مـن المقيمين فى المدينة حتى وقوع الحرب، حيث كان ينضم بانتظـام إلـى صـحبة نظرائه من المفكرين. ولكن فى الوقت نفسه، تغلب كفافيس علـى علاقـة الحـب والكراهية المضطربة التى ربطته بالإسكندرية، فقد كتب فى مسودة قديمة لكتابـه "المدينة": "أنا أكره الناس هنا وهم يكرهوننى / هنا حيث عشت نصف عمرى."(٤٨) ولكن فى النسخة المنشورة من القصيدة، استبدل بهذه الـسطور مـا يلـى: "أينمـا توجهت، وأينما نظرت، / أرى حطام حياتى السوداء": ولا يمكن الفرار من الواقع بلوم الإسكندرية على ما حل بك من بلايا، فالمدينة هى كيـف تـصنعها أنـت، إذ يمكنك أن تصنع أية مدينة. ومن ثم، بتحكمه فى الزمان والمكان، جعل كفافيس من الإسكندرية عاصمة لفنه.

وهذا التطور فى تفكيره أصبح جليًا فى ١٩١٧، حين جمع قصائده المنشورة فى مجلد ليتداوله أصدقاؤه، وقد بدأت مجموعة القصائد بقـصيدة "المدينـة" علـى الرغم من أن المجموعات التالية كانت مكبرة ومحتوياتها معاد تنظيمها، بحيث يعاد نسج الماضى والحاضر، والفكر والحس، فى قالب متطور. وكانت "المدينة دائما ما تأتى أولاً، وكأنك باختراق جدرانها دخلت عالم كفافيس. وكان تطور كفافيس خلال حياته يظهر فى مشاعره تجاه مدينته: ففى عام ١٩٢٩، أى قبـل وفاتـه بـثلاث سنوات، قام بنشر "فى نفس المكان"، حيث تحولت "الحطام السوداء"إلى صورة ذاتية لإبداعه الخاص المعبر عن الانتصار:

يا منظر البيوت والمقاهى والحي

التى رأيتها ومشيت خلالها لسنوات:

لقد ابتدعتك فى فرحى وفى حزنى،

بالكثير من الأحداث، والكثير من التفاصيل،

وقد تحولت كلك بالنسبة لى إلى كتلة من المشاعر.(٤٩)

وقصيدة "المدينة "هى بقوة قصيدة بطولية، ولكن يوجد أصداء مع عبارة "الرب يتخلى عن أنتونى ". وفى كلتا الحالتين فإن حياتك فى انهيار والهروب مستحيل، فما يتبقى لك هو أن تعيش بصورة كامل، فى حالة واحدة فى هذه اللحظة، وفى اللحظة الأخرى تعيش فى هذه المدينة. بالنسبة لكفافيس فإن اللحظة والمدينة صالحتان كشيء واحد فقط، ولقد وصلت إليها من خلال التاريخ. كان بطله هو أنتونى والذى كان أشبه برجل شجاع وقف فى الشرفة وراح يستمع بعاطفة إلى الإسكندرية التى يشعر بأنه يخسرها. "وعلاوة على ذلك، لا تخدع نفسك، ولا تقل بأن هذا حلم": كلمات تنطبق كثيرا على كفافيس وهو يخرج من شرفته فى المساء:

لقد انقضت تلك الحياة الجميلة

ولكن كيف بقى ذلك الأريج الفواح

وذلك الفراش الوثير الذى نرقد عليه

أى مباهج نقدمها لأبداننا. "(٥٠)

وبينما قدم مسعود إلى فورستر الحضارة لقارة أخرى، فإن كفافيس قدم نفسه لتفسير آخر للحضارة والتى ظن أنه عرفها. لقد علمته الحضارة الغربية أن الانتصارات من ضمن الحدود الضيقة لليونان خلال الحقبة الكلاسيكية الذهبية القصيرة– فهناك المارثون وسلاميز و بلاتيا – ثم فقدت الاهتمام. كتب كفافيس عن هزيمة –ثيرموبيلى وسينوسيفالى وماجنيسيا وبيدنا وكورنيث فى زمن رابطة

أخيون Achaeon League وأكتيوم والقسطنطينية ومرة أخرى ومرة ثالثة الإسكندرية- ولكن فى عمل ذلك تغطى كلمة كبيرة وعالم أوسع من كراسة مدرسة فى اليونان.

فى كفافيس سمع فورستر صوتًا يتحدث من عبر القرون الغابرة ومن حضارة أخرى، بأن الحضارة اليونانية قد انهزمت، ولكن فى شخصه وفى منفاه البعيد، لم تتكسر ولم تخبُ شعلتها "لقد ضجر من النقاء العرقى وكذلك من المثالية السياسية.. فالحضارة التى يحترمها كانت غير شرعية سادت فيها الصفة اليونانية وإليها، زمن بعد زمن، تأمل بأن تدفع لتعديل وإمكانية تغير. فإن انمحى الأصل لا يهم فقد أدت مهمتها." (٥١)

أما بالنسبة إلى فورستر، فإن الإنجليزى المضطرب قد تمرد على الإنجيل البسيط من أفراد شعبه، ووقف الشاب اليونانى وقبعته القش على رأسه، ومن زاوية تاريخية فى عام ١٩١٨، وبينما يطرح سؤاله الأبدى: كيف تنتهى، وكيف تنتهى دائما؟ فإن كفافيس المازح والجاد تحدى فورستر بما يظهر فى ذلك الوقت بأنها فكرة مستحيلة : "لا تنسَ أبدا اليونانيين فإننا مفلسون. وهذا هو الاختلاف بيننا وبين اليونانيين القدامى، عزيزى فورستر، وبيننا وبين أنفسنا. عدنى يا عزيزى فورستر بأنك – بجنسيتك الإنجليزية وبقدرتك على المغامرة – لن تفقد أبدا مصدر قوتك، وإلا سوف تكون مثلنا، قلقين ومخادعين وكذابين."(٥٢)

فى نوفمبر عام ١٩١٧ قرأ فورستر ديوان تى إس إليوت "بروفروك وملاحظات أخرى Prufrock and Other Observations" والذى صدر فى تلك السنة، وكتب فيما بعد،"إن المؤلف قد أثاره حفلات الشاى ولم يخف من أن يصرح بذلك.. هنا كان احتجاج، احتجاج ضعيف وأكثر تجانسا ليكون ضعيفا. لماذا، فى

ذلك العالم الرعب الشديد، كان ممكنا فيما عدا إشارات بسيطة من المعارضة؟ فهو الذى قارن نفسه بالحرب، فأطال قامته وتوجه بالكلام إلى أرماديلو-أرماجيدون: "انصرف"، وسقط جسمه فجأة على كوم من التراب. من يمكن أن يلتفت إلى شكوى السيدات وصالات الرسم تحفظ قدرا ضئيلا من احترامنا لأنفسنا، فإنه ماض فى تراث الإنسانية".

وقراءة فورستر لشعر إليوت فى ذلك الخريف تزامنت مع تطور فكرته بأن حياة الإسكندرانى تبدو تافهة وحسية ومزرية كانت مفضلة وقد تكون استجابة إنسانية إلى استقامة الرأى والهسيتريا والكراهية التى تغذيها الحرب. لم تكن القصائد منغمسة فى الملذات، فمازالت قصائد بريئة من المرح الجماهيرى،" (٥٣) وبالنسبة إلى فورستر تعتبر قصائد "أغانى حب من الفريد بروفروك"(والتى تبدو فيها النساء يأتين ويمضين / يتحدثن إلى مايكل أنجلو) قصائد "إسكندرانية"(٥٤) ففى هذه القصيدة ربما كان يفكر فى الأنشودة الخامسة عشر للشاعر اليونانى القديم ثيوقريطس، يصف الحياة فى الحى اليونانى فى القرن الثالث قبل الميلاد، وحواره هنا بين جورجو وصديقها "براكسينوى أشبه بما "تسمعه اليوم فى أى من صالات الرسم الصغيرة من منطقة كامب شيزار أو الإبراهيمية، فكما يكتب فى تاريخه ودليله: "إن التاريخ هو كثير من الشئون العسكرية والملوك. والأنشودة الخامسة عشر تصحح الخطأ. فقط من خلال الأدب يمكن أن يستعيد الماضى وقد أثار ثيوقريطيس هنا باستخدام الرقية المزدوجة للأدب والواقعية – مدينة كاملة من الموتى وملأ شوارعها بالرجال. وبينما يبدى براكسينوى على الألبسة، فإنه يتساءل "لماذا تبدو الشخصيات واقفة وتتحرك، إنها ليست قوالب جامدة بل شخصيات حية." (٥٥)

لم يكن فورستر نفسه رجلاً مثبط الهمة من حفلة شاى، كما كتب إلى فلورنسا، وليس لديه أى اعتراض مبدئى على تناول العشاء فى الخارج. فربما كان يفكر فى مأساة الحرب فى إنجلترا، فى الغارات الجوية وصفوف توزيع الطعام، ولكنه لم يكن كارها لسهولة حياة الرفاهية فى الإسكندرية. لقد كانت فى عمومها للحفاظ على إيمانه الراسخ، وكما كتب إلى سيجرفيد ساسون فى ربيع وصيف عام ١٩١٨ من كونه فى حرب مع العالم: يتذكر قائلا "شن حرب دفاعية" وخجل من الهروب."[٥٦] فيحدوه أملان فى المستقبل، بأن يحدث ساسون عن فكرة "عصبة الأمم"والأمل الآخر هو "فتور عام وإجهاد"مثل كل القوى التى تضل فى هذه الأيام."[٥٧]

ورغم أن فورستر لم يتحدث كثيرا عن المجتمع الإسكندرانى، فإنه من الصعب عليه تجنب زيارة البيوت العريقة فى المدينة لأصحاب مزارع القطن وأقطاب البنوك فى الشركة لهؤلاء الأصدقاء مثل فورنيس وتيرنى وأنتونى وس وأنستاسيد وفالاسوبولوس وكفافيس نفسه. تيموس مالانوس يتذكر كيف أن كفافيس يتباهى بعلاقاته الاجتماعية معلنا: "مساء غد أنا مدعو إلى منزل أنتونى بيناشى "وفى سعادة: "عندما كان فى صحبة المجتمع الراقى. فى تلك اللحظات، قال ميلانوس "نحن الأصدقاء العاديون لدينا انطباع بأن أولئك الناس قد حرمونا منه تماما وللأبد." [٥٨]

وقد تم تقدير كفافيس مثل أى واحد، حيث إن سخاء عالم مسيين وسيفرى والسجاد العجمى واللوحات الفنية الفرنسية كانت موجودة أيضا على القطن. وقد قام محمد بجلب زراعة القطن فى القرن التاسع عشر وبعد ذلك بعقود أصبح القطن المحصول الرئيس فى الزراعة لمصر كما أصبح سلعة تصديرية تخدم الاقتصاد خلال النصف الأول من القرن العشرين ويمثل نحوا من ٧٠ إلى ٨٠% من

المجموع الكلى لصادرات مصر. فيما عدا مدينة ليفربول، لم يتم التعامل فى تجارة القطن على نطاق واسع أكثر من تجارة القطن، فى الإسكندرية وكثير من مشاريع البنية التحتية فى مصر كان يتم تمويلها من أرباح القطن بل كانت مدينة الإسكندرية كلها بشكل مباشر أو غير مباشر تستفيد من هذه التجارة. كانوا يطلقون عليه "الذهب الأبيض"وقد كان القطن لمصر ولأقطاب تجارة القطن فى الإسكندرية ثروة هائلة وضخمة.

يجنى الفلاح المصرى، القطن ويرزمه، ولكن الأوروبيين يقومون بمعظم الأعمال غير اليدوية، ويكون اليونانيون بينهم متسلطين، فى الأقاليم كملاك أراض ووسطاء وتجار قطن، وفى الإسكندرية كمؤمنين، سماسرة، أصحاب بنوك ومصدرين. فى الثروة والحضارة، كانت تمثل الطبقة العليا من يونان الإسكندرية عالما مستقلا عن البائعين والبقالين، المعلمين، والصحفيين، الموظفين المحليين، عمال التبغ وحراس الفنادق الرخيصة فى المدينة، ويظنون أنهم يحافظون على روابط وثيقة الصلة باليونان ودائما ما يقضون الأشهر الصيفية هناك، ولديهم فخر فى التحدث، حتى فى المنزل، باللغة الفرنسية والإنجليزية التى تعلموها من مربياتهم. وهو ما يوضح لماذا لم تصبح اليونانية هى اللغة المشتركة فى الإسكندرية (علاوة على ذلك أن معظم أسمائهم ترد بالفرنسية، كما هو معتاد وسط طبقات الإسكندرية العليا- فى ذلك الوقت- على سبيل المثال أنتوان بيناشى، ميشيل سالفاجوس، جان شوريمى وهكذا). تنحصر اللغة اليونانية بين الطبقات الوسطى وطبقة العمال والمثقفين ومن بينهم كوستانين كافافى، الذى كان من الوارد رجوعه عن لغته الوطنية، إذ لم يكوّن أبوه ثروة من القطن ولم يفقدها أبناؤه.

هؤلاء اليونان الأثرياء، إذ لم يعيشوا فى رملة- حيث كان من المحتمل أن يحصلوا على منزل آخر فى أى وقت- قاموا فى نهاية القرن التاسع عشر ببناء

"فيلاتهم" الرائعة فى الشرق فى نهاية المدينة داخل منحنى حائط العرب الذى يرجع إلى القرن التاسع، التى يمكن رسم بقية آثاره، التى كانت فى ذلك الوقت أفضل من الآن، من محطة سكة الحديد الرئيسية حول الحدائق المحلية، و قممهم على بوابــة الشمس المختفية فى المدينة القديمة، حيث إن شارع روزيت كان يمتد من المدينــة مثل شارع أبو قير. لم يكن اليونان الوحيدين الذين عاشوا فى هذا الحى، ولكن قال الكثير من الناس إنه أطلق عليه الحى اليونانى، فى حين كان يطلق عليه الإنجليــز "البلوبونيز".

فى الواقع فهم يأتون من أى مكان ولكن البلوبونيز (حيــث يهــاجر معظــم فلاحيها إلى أمريكا) وحيث كانوا متأثرين بشتى الحــضارات قبــل مجيــئهم إلــى الإسكندرية. ومازال يعيش فى المدينة اليونانية أعضاء من أسرة جورج أفيــروف. قد جاء أفيروف من موستوفو، وما هى الآن إلا مدينة جبلية فى شــمال اليونــان، ولكن من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، عندما تتمتع بمزايا خاصة من عند الباب، كانت منزل العديد من عائلات تجار كريستين الأغنياء. أفيروف، الذى جمع ثروته فى الإسكندرية، عاد إلى اليونان قبل موته عام ١٨٩٩. وهناك تبــرع بمبلغ ضخم من أجل ترميم إستاد أثينا القديم، حيث أقيمت أولى الألعاب الأولومبيــة الحديثة عام ١٨٩٦، وقدم للأسطول اليونانى أول سفينة حربية. جاءت عائلة جون كاثيلى من رودس. وهو تاجر قطن يملك مجموعة من سلعة رودين-أيزنيك باهظة الثمن ويدير مزرعة نموذجية بالقرب من أبو قير، حيث يقدم قطيع الجاموس أجود أنواع الألبان والزبد لانتقاء الزبائن، كان كاثيلى يدير ثروته بنفسه، حتى أفلس عام ١٩٢٩، و تحررمن جزيرته السلفية وباقى دوديكانيس من التعــاليم الإيطاليــة. إن بيناشى، شوريمى وسالفاجوس(أقوى ثلاث عائلات يونانية فى الإسكندرية، يقيمون علاقات متبادلة ويتاجرون فى القطن) قد لجأوا من شيوس إلى سيروس، إنجلتــرا

ومرساى على التوالي- ربما تكون عائلاتهم من أصل جيونيس (الأكثر اقتراحا من الأكثر قرابة من عائلة بيناشى و بوناشيو)، لشيوس، مشهد فظيع من عـــام ١٨٢٢ الذى صدم الأوروبيين والذى دفع ديلاكروا إلى رسم أشهر أعماله إذ كانـــت غيــر مروعة بالقدر الكافى مذبحى سيو، التى كان يقوم بها الجيـــونيس لفتـــرة طويلـــة. هؤلاء كالعديد من العائلات اليونانية فى الإسكندرية- السينادينوس، مصارفة مـــن تريستى رغم أنهم فى الأصل من شيوس، الكاسافيتى من زاجورا، التوزيساس من ميتسوفو إلى المكان الذى ولد فيه محمد على فى كافالا، حيث إن قـــصورهم فـــى الإسكندرية أصبحت البورصة فى ميدان محمد على، بعد عودتهم إلى اليونان فـــى القرن التاسع، الكافافيس من قسطنطينية إلى منشستر، ليفربول، لندن- جاءوا مـــن المـــراكز التجـــارية اليونـــانية الهـــامة فى ظل القـــوانين التـــركية، حيث كـــانوا جـــزءًا من الطبقة الوسطى التجـــارية بين الإمبراطورية العثمانية وأوروبا. فهـــم كانوا من البيزنطيين.

ولكن فورستر عرف أن هناك ما يجرى وراء التجمعات المتألقة الموجـــودة فى المنازل العظيمة فى الإسكندرية أكثر من الكسل الذى تظاهر به أو تمناه. فقـــد حولت حرب استقلال اليونان عام١٨٢٠ مدينة خرجت سابقًا مـــن الإمبراطوريـــة العثمانية، إلى الأمم المتحدة اليونانية، تطمح إلى إعادة بناء الأراضـــى فـــى آســـيا الصغرى للحكم اليونانى، خاصة سميرنا على حساب أيجن ومنطقته الخلفية وأيضا القسطنطينية، مراكز اليونان القديمة والبيزنطية وحيث لا يزال يعيش اثنـــا مليـــون يونـــانى. فالحلم للكثير من النـــاس يبقى مســـألة مقدسة. إن أصحـــاب كافـــافى، البيناشى، كـــانوا فى قلب المسألة التى تملأ غرف رسم اليونـــان ومقـــاهيهم فـــى المدينة- الفكرة العظيمة.

قدم رئيس وزارة العدل اليوناني، المشهور ألفتريوس فنزويلا الفكرة العظيمة، وفكر الإنجليز خلال حملة داردانيل فى طلب العون من اليونان، مقدمين أراضى فى آسيا الصغرى مقابل دخول اليونان الحرب، ووافق فنزويلا ولكن الملك المؤيد للألمان قام بإقالته. وبعد شهر، فى إبريل ١٩١٥، جاء فنزويلا إلى الإسكندرية، باحثا عن دعم للمهجرين الذين لديهم النفوذ.

وقد استقبلت الإسكندرية فنزويلا استقبالا حافلا مصطحبا بالطرب. وبدت الإسكندرية وكأنها ترتدى ثوبًا أزرق وأبيض وهى ألوان علم اليونان، ويهتف خمسة وعشرون ألفًا قائلين: اليونان مسببو الزحام فى طريقه، كما أنه كان مسافرا فى سيارة مفتوحة من مطار نادى اليونان إلى قلب المدينة. وقد جاء العديد من المواطنين المؤيدين لفنزويلا إلى مصر هاربين من التعصب والرجعية السائدين فى اليونان، فى حين أن آخرين جاءوا من أماكن بعيدة لا يسكنها اليونان ولكن لا تزال تحت الحكم العثمانى. وجد تجار القطن وأصحاب المتاجر، هنا فى الإسكندرية، مجالاً لمهاراتهم التجارية، وعاشوا فى حماية الإنجليز وكانوا يؤيدون سياسة فنزويلا للتحالف. وكانوا قريبين من الفكرة العظيمة، التى تتماشى جيدا مع وعيهم لمهمتهم الحضارية وتضرعهم لماضيهم المجيد من أجل تأكيد وجودهم فى مصر.إذا كنا بحاجة إلى براهين إضافية لصحة الوجود اليونانى واستمرار ، فما علينا إلا النظر حولنا : قامت الإسكندرية الحديثة محل المدينة القديمة التى أنشأها الإسكندر الأكبر.

لقد تم الترحيب برئيس الجالية اليونانية الأكبر بحماس عندما كان يلقى خطابه للترحيب، وهو ميشيل سينادينوس من عائلة ثرية من مصدرى القطن وتربطه بالإمبراطور شوريمي-بناشى صلات عمل وقرابة وطيدة.

جاء رجل الدولة اليونانى، ألفتريوس فنزويلا (اليساري) إلى الإسكندرية عام ١٩١٥ من أجل الحصول على دعم مواطنيه الأثرياء ومنهم أنتونى بناشى (اليميني) وهو وثيق الصلة بكافافى. يعد فنزويلا الممثل الرئيسى للفكرة العظيمة، حلم تأسيس يونان أفضل على شاطئ أيجن فى كل من أوروبا وأسيا. ولكن انتهى الحلم بين النيران والمذابح فى سميرنا عام ١٩٢٢، فى حادث لفت انتباه يونان الإسكندرية.

فى شارع روزيت بالقرب من البطريركية الأرثوذكسية اليونانية، طريق قصير من شارع لبسيوس، ربما يكون كافافى هناك مع صديقه أنتونى بناشى، الذى كان والده أيمانيويل رئيس الجالية سابقا. كان بناشى الكبير أحد أثرياء الإسكندرية، من الأثرياء الديسبورة فى اليونان، وقد أقام هيمنة شخصية هائلة للبنك الوطنى فى اليونان. كان يجتمع فنزويلا مع أيمانيويل بصورة شخصية وكان يقنعه بالاستيطان فى أثينا، حيث سيصبح المحافظ قريبا، مساعدا كذلك قضية الفنزواليين فى نضالهم ضد الملك، حيث سيصبح قريبا مرشد يونان الإسكندرية. هل تتخيل كافافى فى النادى يستمع إلى فنزويلا الذى يصرح بحلمه (يونان العظيمة، يونان بها خمسة بحار ومحيطان)، ويفكر فى أنتونى وابن كليوباترا، فى الأفق التى لم يتم فتحها بعد، والسلطات الملكية الآسيوية التى سوف ينعمون بها.

تم انتخاب فنزويلا مرة أخرى وزيرًا للعدل عام ١٩١٥، وكان يدافع فى هذا الوقت عن حملته فيما يخص التحالف مع الجيش البريطانى وحلفائه إيطاليا، وفرنسا، وروسيا وتحقيق الحلم القديم وهو الدولة البيزنطية الجديدة، ولذلك عندما أصبحت سياسته غامضة اتهم فنزويلا الملك بالتصرف غير الدستورى. ويسرى الآن انشقاق فى المدينة، بلغ أوجه فى أكتوبر ١٩١٦ مع تصريح فنزويلا بوجود

حكومة مؤقتة فى سالونيكا (تسالونيكي) التى أدركها الحلفاء بعد شهرين عندما استقر الجيش البريطانى والفرنسى فى المدينة.

وقد تابع فورستر هذه الأحداث عن كثب وكان يدونها فى خطابات، عندما كان يكتب لترافليان عن يونان الإسكندرية يحوط الحلم الهيلينى والبيزنطى. وبعد شهر، فى سبتمبر ١٩١٧، نشر مقالته (انحرافتنا: موسيقى الأحد) فى ميل، حيث كان يصف المستمعين الشرقيين فى حفلة بتهوفن مثل السوريين، الفرنسيين الإيطاليين، اليهود، الأرمن وبدلا من اليونان الملكيين والفنزواليين. الشيء الطريف، كالمعتاد من فورستر، أنه يشير إلى الشيء الذى يمكن أن يمسه شخصيا.

ذهب إلى اليونان مرة واحدة، عام ١٩٣٣، وأخذته السفينة إلى قنيدس فى أسيا الصغرى حيث- بدلا من حد اليونان الحديثة نفسها- أصبح العالم اليونانى القديم قائمًا بالنسبة له. هنا حيث بقايا مقام الإلهة ديميتر، الذى تم نقل تمثالها إلى المتحف البريطانى حيث أصبح جزءًا من العبادة فى حد ذاته:"ديميتر وحدها وسط الآلهة لها صفة أبدية حقيقية "، وكتب بعدها بعام: "لها، تقام صلوات الوثنية من قبل الرجال المتألمين والنساء المتألمات، لأنها تفوق كل مثل هذا النوع".

المتحف البريطانى الموجود به الإلهة ديمترى "دافئ ومريح"، يظنون أن لا يمكن لمسها، تعد اليونان لفورستر وحدة كاملة، تفوق المكان والزمان. لكن الآن فإن محاولة تجسيد فكرة اليونان الروحية عن طريق الصراع فى المنازل وفى أسيا الصغرى فإنها بمثابة شيء خطير يثير الخلاف والفرقة بين الناس. وفى الإسكندرية نفسها ليس كل شيء من أجل الفكرة العظيمة، وكفافى، الذى لديه أصدقاء على الجانبين وعلى الأقل أخ معارض صريح، يلتزم الصمت المتكافئ.

ربما يكون هذا سببا من الأسباب ليس غير، متعلق بشعوره تجاه الحرب عامة أو تجاه أمه أو محمد، لماذا رفض فورستر "من الأسباب الشخصية والعامة" طلب الهلال الأحمر في صيف ١٩١٧ من أنه لا بد من الذهاب إلى حصن الفنزواليين في تسالونيكي.

تقدم البريطانيون في نوفمبر هذا ضد الأتراك في يافا، ودخل الجنرال أللبني القدس في ديسمبر. وتحمس يونان الإسكندرية هؤلاء الذين كانوا يدعمون الفكرة العظيمة للحملة الفلسطينية ورأوا دخول البريطانيين في الأراضي المقدسة مبشرًا لطموحهم في أسيا الصغرى. ومع حرب اليونان وهزيمة الألمان والإمبراطورية العثمانية في نهاية عام ١٩١٨، حصل فنزويلا على الفرصة التي كان يبحث عنها. في مايو ١٩١٩، في ظل الاحتلال البريطاني، الفرنسي، الأمريكي؛ فقد رست السفن الحربية اليونانية في سميرنا. ها هي بداية الكارثة بالنسبة لليونانيين، الكارثة التي بإمكانها أن تهز الإسكندرية.

الفصل الثالث

آه لو أن الحب أبدي

لابد أن يعتريني شعور بالفرح حال موافقة جمعيتكم المتميزة التي ترأسونها على إعادة نشر كتابي "الإسكندرية": فهذا الكتاب ملك على مشاعرى، إذ كتبته فى أيام ثقيلة على ولا بد أن أراها مطبوعا.

إى إم فورستر إلى جاسبر يتس برنتون، رئيس الجمعية الملكية للآثار فى الإسكندرية، ٥ فبراير ١٩٣٦. [١]

"الإسكندرية بالرغم من أنها مدينة عالمية تضم عناصر من مختلف أرجاء العالم فهى تُعد ملتقى للحضارات"هذه هى الكلمات التى بدأ بها "فورستر" الفصل الافتتاحى للكتاب الإرشادى والذى يتحدث فيه عن بحيرة مريوط التى يمتد حدها الغربى إلى داخل الصحراء الليبية. وقد كان تجواله ما بين الماكس والعامرية "أفضل تجوال نهارى سيرًا على الأقدام بالقرب من الإسكندرية" متوجهًا نحو الشاطئ الجنوبى إلى منطقة تدعى كينج مريوط حيث وجد أن "الحياة النباتية المحلية فى هذه المنطقة هى واحدة من أفضل البيئات النباتية على مستوى العالم".[٢] وقد قضى فورستر فصل الربيع لمدة ثلاثة أعوام متتالية فى الإسكندرية حيث استكشف هشاشة هذه المناظر الطبيعية المحيطة بالجانب الغربى من البحيرة عند الاتجاه لمسافات بعيدة نحو الغرب حتى أبوصير - تابوزيريس ماغنا القديمة- والمعبد البطلمى "أوزيريس" والمنارة الحديثة (أطلق عليها منذ العصور الوسطى اسم برج العرب) على غرار الشكل الفرعونى ولكنها أقل فى الحجم بما يقرب من

١٠ أمثالها. لم يتم إعادة بناء المدينة وأصبحت المناظر الطبيعية التى كانت موجودة بجانب البحيرة درسًا لـ"فورستر" عن كيفية تلاشى الأشياء بشكل نهائى.

يمتد الحوض الرئيسى لمريوط بلونه الأزرق ومساحته الشاسعة إلى جنوب الإسكندرية وتنتشر على سطحه جزر الخيزران. وقد كانت هذه المنطقة منذ خمسة آلاف سنة هى موقع مملكة الحربون التى احتلها نارمر - ويطلق عليه أيضًا اسم مينا- وهو أول فرعون لمصر الموحدة. وعلى الرغم من انتهاكات المصانع منذ عهد "فورستر" فإن المنطقة لا زال يغلبها الطابع البدائى، حيث تنتشر الأكواخ القصبية بطول الشاطئ والقرى الصغيرة تختفى تحت خط الأفق حيث تنتشر الأماكن الزراعية ويتحرك الصيادون بقواربهم فى المياه الضحلة الهادئة لهذه البحيرة، ويمتد نحو الغرب جزء من البحيرة بين تلين متوازيين: أحدهما تل ساحلى من الجير والآخر تل داخلى منخفض. وتضم هذه المنطقة "عناصر شرقية الطابع "مثل البدو والجمال وتحمل أيضًا طابع "الهدوء والعظمة"مما يذكر فورستر بالأراضى السبخية الأسكتلندية "المنطقة بالكامل تثير لديك مشاعر عديدة وخاصة فى أوديتها، واللون الأرجوانى الداكن الذى قد يسود المكان نتيجة لانتشار الأراضى السبخة،(٣) وفى فصل الخريف، تتجمع أعداد لا حصر لها من البط والإوز والسمان فى المستنقعات الممتدة إلى الأراضى الرطبة والأماكن التى تنتشر فيها ظاهرة السراب وصولاً إلى الصحراء الواقعة بين الإسكندرية والعلمين.

فى عصر البطالمة كانت هناك قناة تربط مريوطيس - حسب التسمية اليونانية لها- بالنيل بالقرب من مدينة كانوبس وكانت بمثابة سلة الغذاء والمؤن لمصر التى كانت تمر خلال مرفئها الذى كان يستقبل أطنانا من المؤن أكبر من مرفأى الإسكندرية مجتمعين، وقد كان لسان هذه البحيرة الممتد غربًا- وقد كانت تغذيها المياه بصورة أفضل من الآن- يعزز انتعاش التمدن فى المناطق المطلة

على البحيرة مقارنة بالبحيرات السويسرية والإيطالية اليوم. زراعة البردى والنباتات المائية الضخمة "Water Beans" التى يصل طولها إلى عشرة أقدام وتحمل أوراقا كبيرة كأسية الشكل فى المناطق الضحلة ونجد أيضًا كروم العنب وبساتين الزيتون والتين التى تنتشر بالشواطئ المحيطة بينما تقع الحدائق والبيوت الصيفية للأثرياء من أبناء الإسكندرية بين المزارع. شهدت زراعة الكرم - بشكل خاص- كثافة كبيرة وكانت الشتلات يتم استيرادها بعشرات الآلاف من مختلف دول البحر المتوسط. هذا النوع من الكرم كان يستخدم فى إنتاج نبيذ عالى الجودة. ويرى أثينايوس- فى كتاباته فى القرن الثانى بعد الميلاد مستعينًا بمصدر قديم- أن الكرم من المحاصيل التى كان يعاد استيرادها فقد تم اكتشافه لأول مرة فى بلينثين الواقعة شرق تابوزيريس ماغنا القديمة.

ويذكر هوراس أن كليوباترا كان لديها حديقة غناء وكانت تبحر باليخت الخاص بها فى مياه البحيرة وكان ذهنها يميل إلى الدعاية لأوكتافيان كما كانت مصابة بعدم اتزان بسبب احتساء نبيذ مريوط،(٤) ولكن فورستر يذكر أن أوكتافيان كان "واحدًا من أبغض رجال العالم الناجحين وأنه كان يرى أن كليوباترا فى المستقبل ستكون لا شيء سوى واحدة من السوقة المنغمسين فى الملذات، كما كان يرى أن نائب الملك يجب أن يتصف بالمكر".(٥)

استمرت السلالة البطلمية الحاكمة لفترة ثلاثة آلاف سنة وطوال تلك الفترة اتصف "المصريون بظاهرة التسامح ". ويرى فورستر أن عظمة هذا الحكم تكمن فى التركيب المعقد للدولة التى كان البطالمة يحكمونها؛ ففى "صعيد مصر حافظ البطالمة على تقاليد الفراعنة الراسخة هناك والحضارة الهلينية (حضارة بلاد اليونان القديمة) فى المناطق الساحلية مع استمرار التواصل مع ثقافة البحر المتوسط" (٦)، وعندما تعلق الأمر بسلطة الحكم وقصرها على السلالة الحاكمة

البطلمية، ذكر أحد المؤرخين أن البطالمة رأوا أنه من الأفضل أن لا يتبعوا نظـام حكم اليونان وأن يحذوا حذو الفراعنة، فلم يكن إيزيس وأوزوريس زوجين فقط وإنما كانوا أيضًا إخوة وهذا يعنى "المحافظة على الحكم فى سلالة العائلة".(٧) ويقول فورستر "ترى السلالة الحاكمة أنها تختلف اختلافًا كليًا وجزئيًا عن العامة وأنهم ثمرة إلهية متمثلة فى أفرادهم من الذكور والإناث(٨) وقد كانت كليوباترا السابعة - آخر هذه السلالة الحاكمة البطلمية - هى الأكثر ألمعية فى هذه الأجيال التى جاءت نتيجة لسفاح الأقارب.

ونظرًا لكون أنطونيو عاشقا لكليوباترا وكان يتم تشبيهه بالإله أوزيريس - يقابله الإله ديونيسوس إله الخمر لدى اليونان. وكان المتعبدون يعبرون البحيرة للوصول إلى معبد الإله فى تابوزيريس فى أيام الأعياد، حيث أصبح اللسان الغربى لبحيرة مريوط منتجعًا ومزارًا لسكان المدينة. وفى أثناء الإبحار من جزيرة لأخرى يحتسى الناس الجعة والنبيذ أسفل تعريشات الكرم فى شكل حانات صغيرة قبل النزول من السفينة للابتهاج والاستمتاع بالظل الذى توفره أوراق نباتات الخروع الضخمة بالقرب من الشاطئ والتمتع بالشعور بالعزلة أيضًا، وبحلول المساء، ينتشر ضوء المشاكى وأصوات الغناء وسط ظلمة المياه أثناء حركة المراكب النشطة فى سيرها تجاه الديار إلى الإسكندرية.

ولكنه فى كتابه "**صور موجزة للإسكندرية:المكان المعزول**"(**Alexandria Vignettes: The Solitary Place**) الذى طبع فى "**ميل**"فى مارس ١٩١٨، رأى فورستر أن مريوط "تراجعت بشكل عام عن الحضارة وأصبحت الروح السائدة فى المكان- دون أن تتحول إلى الطابع البدائي-هى البساطة الشديدة والبعد عن الزخرف"، إلا أن هذه الأجواء كانت تختلف فقط بانتشار الزهور البرية فى يناير

وفبراير ومارس بألوانها الأرجوانية والبيضاء وأزهار شقائق النعمان والحوذان القرمزى والأصفر ونباتات حشيشة السعال والقطيفة البرتقالية الصغيرة والخشخاش والقراص والبنج والخُباز وبقلة الخطاطيف واللبلاب والبليحاء العطرية، إلا أن هذا الزخرف لا يمكن مقارنته بذلك الزخرف الذى ينتشر فى إنجلترا فى فصل الربيع بشكل مرتب والمتقدم، حيث ينتشر هذا الزخرف هنا بشكل فوضوى وسريع، "موكب الربيع يمر مرور الكرام كما لو كان شعاع ضوء ملون منتشر على الأرض وليس نتاجًا للأرض ذاتها فإذا أراد الشخص أن يلتقط عدة ورود لوضعها فى إناء على منضدة ذات طراز سكندرى، سيبدو هذا الأمر بالنسبة له كحلم ضخم، وتحول فورستر من كتابة الأنشودة الرعوية إلى كتابة المرثاة الشعرية: "وبمرور السنين اتخذت هذه المنطقة مظهرًا بدويًا غير عادى حيث اختفت مظاهر الحضارة تحت الرمال ونمت الزهور فى الأوانى الفخارية الأثرية فهل سيحدث نفس الشيء للأوانى المصنوعة من القصدير وللأسلاك الشائكة المنتشرة لدينا؟ على الأرجح لا، فالإنسان الآن أمامه أشكال أخرى من الحياة نادرًا ما تسمح له بزراعة الزهور، فستُدفن الأوانى المصنوعة من القصدير القديمة أسفل الجديدة وهو ما يعنى فى رأيى انتصار الحضارة، فالبصمة الأخيرة التى سيتركها الإنسان على هذا الكوكب والتى تمثل ما يمجده الإنسان المتحضر هى الغطاء الصلب للماكينات والقبور.

فى فبراير ١٩١٨، كتب فورستر خطابًا لصديقه فلورنس حول محمد قائلاً: "أفضل ما صادفته فى حياتي" (٩) فلم يكن هناك فى الإسكندرية أحد يمكننى أن أتحدث معه عدا محمد. وقد كان فورستر قلقا للغاية من العزلة الهائلة لمشاعره، والآن عادا يتقابلان فى شهر مارس وفى هذه المرة كان فورستر يقول لنفسه عندما يعود محمد إلى الإسكندرية يجب أن يأتى ليعيش معى فى منزل إيرينى. وفى هذا

الوقت عندما ابتعدت الحرب عن مصر أكثر وظهرت آثارهـا علـى المـواطنين المصريين العاديين اختلطت مشاعر فورستر بين حب صـديقه محمـد وكراهيـة الحرب.

ولاحظ فورستر حدوث تغيرٍ ملحوظٍ فى شخصية المصريين منذ بداية العام، فقد كانت مشاعر المصريين تجاه البريطانيين هى الـود والـصداقة ولكـنهم الآن يستقبلوننى بالصمت. وقد كان الأتراك فى هذه الفترة موجودين على هضبة الجليل وكانت الحملة الموجهة إلى دمشق تواجهها مصاعب جمة، كانت القوات البريطانية تعتمد على المؤن التى تأتيها من مصر، وكان الفلاحون محملين بهمومهم يجبرون على الانضمام إلى الجيش لنقل المؤن إلى الجبهة لقاء مقابـل لا يعوضـهم عـن أراضيهم التى تركوها دون حرث فى قراهم، وفى أثناء انتظار فورسـتر لـصديقه محمد وسيره بين مناطق المصرين داخل المدينة سمع الناس يرددون أغنية حزينـة تقول:

"بلدى..... يا بلدي

والسلطة خدت ولدي"

توقع فورستر أن محمدا يكذب عليه فى الخطاب الذى أرسله إليه من القنـاة يقول فيه إنه لن يستطيع المجيء إلى الإسكندرية، ونطق بكلمات لاذعة متهمًا إيـاه بالكذب، ولكنه حضر بمرض بسيط ودخل المستشفى والتقط عدوى بالحمى التـى كادت تقتله، ولكن القصة كما يراها فورستر الذى كان يعتقد أن محمـدًا اسـتخدم حجة المرض مبررًا ليخفى مشاعره ويقضى إجازته فـى المنـصورة بـدلاً مـن الإسكندرية، ورد محمد على فورستر قائلاً "ما الأكاذيب التى وجدتها فى خطـابي؟ إننى أذكر أننى لم أخبرك بأى شيء كاذب فى خطابى، لقد أصـابنى هـذا الكـلام

بالضيق الشديد، من فضلك عاود مراسلتى بسرعة، وأضاف أنه يعانى من انتكاسات المرض والتى عاودته وأنه من المحتمل أن يعود مرة أخرى إلى المستشفى.(١٠)

لقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى يصدق فورستر ما قاله له محمد، وألقى فورستر باللوم على الجيش البريطانى وموقفه تجاه المصريين سواء أولئك الذين كانوا يرسلون المؤن إلى الجيش فى فلسطين أو الذين يعملون فى القناة، فقد كان البريطانيون يرون أن المصريين لن يمرضوا وإذا وصل بهم المرض إلى درجة تجعلهم قد يتعرضون للموت فلا يهم يمكن إرسالهم إلى المستشفيات التى كانت بدورها بؤرًا لنقل الأمراض، وعندما أخبره محمد عن استعداده لتقديم الرشوة ليحصل على سرير بينما الآخرون يموتون ولا يجدون من يرعاهم، رد فورستر قائلاً:

"الجيش يتخلص منهم كما لو كانوا قاذورات"(١١)، وأراد فورستر أن يرى محمدًا ولكن نظرًا لانتشار وباء التيفود فى منطقة القناة، كان على محمد أن يمكث خمسة أيام فى الحجر الصحى قبل أن يعود إلى الإسكندرية، الأمر الذى لا تسمح به وظيفته، وفى خطاب أرسله محمد إلى فورستر "شعورى الآن هو نفس شعورك، أعتقد أننا لن نتقابل ثانية"فشعر فورستر بالعجز واليأس وأرسل إلى فلورنس خطابًا فى نهاية شهر مارس يقول فيه "إن الأحداث المأساوية تلقى بظلالها علينا". (١٢)

ولكن فى شهر مارس كانت الحالة الصحية لمحمد جيدة بما يكفى لقضاء إجازة من عدة أيام فقدم إلى الإسكندرية، ولم تكن شائعة عمله جاسوسًا للبريطانيين فى القناة إلا وسيلة حيوانية لن تسبب له أى أذى.(١٣) وعلى الرغم من أن محمدًا لم يكن يحمل آثارًا من طمى النيل، فإن البريطانيين عاملوه كالقاذورات، وبدأ فورستر

يشعر بالحنين إلى وطن الشقاء: "الذى جعلنا نتعارف ونثق فى بعضنا بعضًا ثقة مطلقة".(١٤)، وكتب فورستر إلى صديقه فيرنس ليرى إمكانية أن يجد وظيفة لمحمد فى الإسكندرية ووعده بأن يعطيه نقودًا إلا أن محمدًا رفض: "ومر اليومان كدقيقتين، ومع ذلك شعرت أن هذا أفضل، فإذا خرجت للسير مع نفس الصديق كل يوم قد أشعر فى بعض الأحيان بالحاجة إلى صديق آخر، ولكننا الآن سنشعر بالقلق واللهفة لرؤية بعضنا بعضا لمدة ٦ أشهر حتى نحصل على هذه السعادة"، ومن الجدير بالذكر أن "فورستر" أحب محمدًا لمثل هذه الملاحظات، وقد كان دائمًا ما يجد فيه البساطة والعاطفة الجياشة والنضج والنظرة الواقعية كما أنه لم يرى أن صداقته بمحمد كانت تميل لصالحه، وفى نفس الوقت، تذكر "فورستر" رد فعل إيرينى العام قبل الماضى عندما رفض أن أقوم باستضافة محمد فى غرفتى: "عندما تلاحظ أن شخصًا مثاليًا يتعامل معك بشكل غير المعتاد وبسخط" (١٥) هذا هو ما كتبه فورستر إلى فلورنس حول إيرينى وسأله فلورنس بعد ذلك عن عدم تركه لهذا المنزل بدلاً من قضاء الإجازة القصيرة مع محمد فى باكوس فى منزل صديق محمد المأذون الشرعي- أو الجلوس على سفح التل الجيرى فى المكس لمشاهده لسان بحيرة مريوط الممتد نحو الغرب.

وقد كتب "فورستر" ليشكر كل أصدقائه من أهل الإسكندرية الذين ساعدوه فى إعداد كتابه وقال "بالإضافة إلى كل ما سبق، أود أن أشكر السيد/ جى إتش لادلوف الذى أُعد هذا الكتاب بناء على اقتراحه والذى لولا مساعدته ما كنت استكملت هذا الكتاب"(١٦) لادلوف هو رجل كبير فى السن "يتمتع بجمال الشكل والعقل"يعمل موظفا فى أحد مكاتب البريد وهو باحث غير متفرغ كان يعيش مع زوجته "ذات الشخصية القوية والمنظمة"(١٧) فى جليم على بعد محطة ترام واحدة من حى سابا باشا، لا نعرف الكثير عن عائلة لادلوف ولكن من المؤكد أنهم كانوا

يعيشون أيامًا جميلة وكان للسيدة/لادلوف صديقة فى مصر هى السيدة/آن كنج-نويل بلونت، بارونة وينتوورث وحفيدة اللورد بيرون وزوجة ويلدفريد سكاوين بلونت الشاعر والرحالة المعروف الذى كان نصيرًا صريحًا لعرابى باشا والتأميم. لم يكن عمل لادلوف فى مكتب البريد ضروريًا. وكان لادلوف يعرف المدينة جيدًا وأرشد "فورستر"إلى الكثير من المناطق الهامة والتى لم يكن مسموحًا بدخولها. وعلى الرغم من كونه بريطانيا فإن والده كان ألمانيا لذا أحبه فورستر كثيرا؛ حيث كان "فورستر"يستغل الجذور الألمانية له كفرصة ليحقق انتصارات خاصة عليه بعيدًا عن أجواء الحرب الدائرة، ولهذا السبب أهداه "فورستر" النسخة الأولى من كتابه "الإسكندرية: تاريخ ودليل إرشادى" (Alexandria: A History and A Guide).

وفى ١٩٢٣ أرسل دى إتش لورنس إلى فورستر خطابًا بعد نشر الدليل كتب فيه "يا لها من وظيفة مسلية يمكنك أن تشغلها، فلطالما تذكرت سعادتك بعد زيارة معرضNational Gallery وتصفح كتالوجات الصور".[١٨] لقد كان عمل فورستر بمثابة وسيلة تعالج آثار اندلاع الحرب، فتم نشر كتاب "الإسكندرية"بعد انتهاء الحرب، وقد كتب "فورستر" إلى تريفيليان فى أغسطس ١٩١٨ قائلاً: "مما لا شك فيه أن الحقيقة كان يتم إخفاؤها علينا فى الحروب السابقة، ولكن لم تكن هناك بدائل متعددة للوسائل الرسمية، إنه مما يصيب الإنسان بالوهن كأكوام الجثث المتعفنة، وتجبر الإنسان فى الاتجاه بمشاعره نحو التطهر بالخيال أو الحنين للماضي"[١٩] ولكن فى هذه المرة لم يكن ما أعجبه كتالوج صور، ولم يكن هو نصف حى، على العكس تمامًا فقد وقع فى الحب الذى أحياه وساعده على امتلاك زمام قدراته الإبداعية. وفى بداية شهر نوفمبر، بعد شهر واحد من كتاب الإسكندرية كتب إلى

والدته والسعادة تغمره يقول: "لم أكن أفكر فى كتابة كتاب آخر ولكن حقيقة قدرتى على التركيز أصبحت بالنسبة لى مصدرًا للسعادة".(٢٠)

ومع ذلك، كان قراره لكتابة الدليل قرارًا خاصًا فلقد كــان الكتــاب الرائــع "Alexandrea de Aegyptum" لبريشا وهو كتاب تاريخى كبيــر يــذكر الــسمات الأساسية للمدينة الحديثة- مطبوعًا بالفعل وكان مكتوبًــا باللغــة الفرنــسية- منــذ ١٩١٤، كان "فورستر"يعرف جيدًا أن إصدار نسخة إنجليزية كان وشيكًا، ففى بداية ١٩١٧ تم الانتهاء من ترجمة هذا الكتاب إلى الإنجليزية وكان من المعتزم نــشره بمجرد انتهاء الحرب. لقد كان بريشا مديرًا للمتحف اليوناني- الرومــانى وكــان كتابه بمثابة الدليل الرسمى للمدينة ولذا كان سوق بيع هذا الكتاب مضمونًا.

كان السبب وراء شعور "فورستر" بالعرفان فى الحقيقة لما اقترحــه عليــه لادولف هو إصراره وحاجته للتعبير عن تجربته الشخصية مع الإسكندرية، والتــى كانت تجربة مزدوجة فقد كانت حسية من ناحية وعقلية وروحية من ناحية أخرى، فكما أن تأثير كافافيس على فورستر كان واضحًا بشكل خاص فى الناحية العقليــة والروحية شمل تأثيره أيضًا العلاقة القوية التى ربطت فورســتر بــصديقه محمــد والتى فجرت بداخله مشاعر الحنان والحب. وكانت النتيجة وفقًا لكلمات لــورينس دوريل الذى كان أحد أبناء الجيل التالى لفورستر والذى تأثر بكتاب فورستر واتبع خطواته أنه: "عمل فنى صغير يحتوى على عدد من أفــضل النــصوص النثريــة لــ"فورستر" وتعبيرات تتميز بلباقة لا يمكن لأحد أن يكتبها سوى مؤلف قــصص بارع وموهوب، كان الكاتب الذى عاش منعزلاً هنا خلال الحرب العالمية الأولــى يشعر بالسعادة البالغة ربما لوقوعه فى الحب ولشعوره بالسعادة فى الحياة والــذى كان يظهر فى كل بيت شعرى بقصائد الحب التى كتبها. وعلى النقيض تمامًا وعلى

الرغم من هذه الكلمات، فإننا نجد أن الكتاب تغمره مشاعر الوحدة، إنها مشاعر وحدة إنسان صقلته التجربة يتحدث مع نفسه ويمشي وحده". (٢١)

ويعود هذا الدليل وما يحتويه جزئيًا إلى تعامل فورستر مع النصوص النثرية. إذ إن كتاب "الإسكندرية"يختلف كليًا عن كتاب " **Alexandrea de Aegyptum**" فى منهجه والذى يخالف أسلوب "**الدليل السياحي**"الذى يعنى بوصف ما يراه الشخص بنفسه بتقديم رؤية حول اللامرئى واشتمال الصفحات على عبارات مثل "مكان هادئ"و"بقايا قليلة" و"يجب البحث عنه بروية" و"يفترض خطأً أنه كان فى هذا الموقع"و"اختفى" و"لا يوجد ما يستحق أن تراه". ولكنه أحب هنا فى الإسكندرية وركب الترام أو سبح فى البحر وتطورت المدينة فى مخيلته فتخيل إنشاء مقبرة الإسكندر الأكبر فى تقاطع الطريق القريب من شقة كافافيس وتخيل أثناء انتظاره الترام فى محطة الرمل إنشاء معبد قيصر أمام عينيه ونظر إلى المرفأ وقلعة قايتباى وتخيل الفراعنة الذين وقفوا فى هذا المكان فى يوم من الأيام.

ينقسم كتاب فورستر إلى جزءين متساويين تقريبًا أحدهما خاص بالتاريخ والآخر دليل لمدينة الإسكندرية. ويرى فورستر أن "الدليل له أهمية ليست بالكبيرة فمعالم الإسكندرية ليست ممتعة فى حد ذاتها ولكنها تفتننا إذا ما نظرنا إليها من الناحية التاريخية والماضي". (٢٢) إذا نظرنا إلى كتاب فورستر "الإسكندرية"(**Alexandria**) الوقت من ناحية، والمكان من ناحية أخرى فإن المحاولات العديدة للانتقال فيما بينهما تؤدى إلى الخلط الواضح بين الفئات المختلفة. بدأت حقيقة الإسكندرية تتكشف وكما قال لنا فورستر بدأت حقيقة كليوباترا تتكشف لأنطونيو: "لم تجعله يشعر بالملل وحيث إن الارتباط بالمتع الحسية يؤدى إلى الرتابة قامت كليوباترا بشحذ عقل أنطونيو وتوجيهه إلى المباهج التى تتوحد فيها الحواس مع الروح، وقد رجع اختلاف شخصية كليوباترا إلى

هذا"(٢٣)، ويقوم فورستر بتوجيهك إلى الحب الذى جعله يعيش فى مدينة من خياله، كما قال دوريل فى كتابه "**رباعية الإسكندرية**": "عندما تكون فى حالة حب مع إنسان آخر يقطن فى مدينة تتحول المدينة إلى عالم خاص بك".(٢٤)

فى الإجازة الأسبوعية الثانية فى شهر يوليو ١٩١٨، ذهب فورستر إلى المنصورة لزيارة صديقه محمد الذى تُوفى والده مؤخرًا وغرق أخوه فى النيل بسبب إصابته بتشنج فى العضلات، فورستر رأى محمدًا وقد تملكه الحزن الشديد وغمره الشعور بالأسى وتثاقلت عليه الهموم والمسئوليات، لقد ورث محمد بيت الأسرة المطل على زقاق طويل ضيق وقد وصف فورستر هذا المكان بأنه حى قذر "آه يا صديقى الظروف هناك غير صحية".(٢٥) كتب فورستر خطابًا إلى فلورنس يذكر فيه أن معظم حديثه خلال زيارته لصديقه محمد كان دائرا حول إمكانية أن يتزوج محمد من أرملة أخيه ليربى أبناءه الذين يحبهم كثيرًا، لم يشعر فورستر بالغيرة قط فقد حصل فورستر على اهتمام صديقه محمد طوال الفترة الماضية مما جعل إجابة السؤال الذى كان يسأله لنفسه دائمًا فى الماضى: "كيف سينتهى الأمر؟ إذا كانت ستنتهى حقًا". وعلى العكس قام "فورستر" بتشجيع صديقه وقام بكل ما يستطيع ليشعره بالسعادة.

وقام محمد باصطحاب فورستر للتجول فى أنحاء المنصورة والتى كانت مركزًا تجاريًا مزدهرًا لمحصول القطن والمنتجات الأخرى التى تشتهر بها منطقة شرق الدلتا التى انتشرت فى أماكنها المأهولة بالسكان الطرق المحاطة بالأشجار والمنازل الأنيقة التى بنيت على الطراز الأوربى، وتوجد بالمنصورة عدد من القنصليات وفرع للمحاكم المختلطة ومسرح والإرسالية الأمريكية حيث تعلم محمد، وقع فورستر فى حب المنصورة وكورنيش النيل والمقاهى المنتشرة هناك حيث يجلس الناس يتحدثون لساعات طويلة، وسعد فورستر كثيرًا بالتعرف على أصدقاء

محمد الذى يتكلم عدد منهم اللغتين الإنجليزية والفرنسية وكان عم أحـــدهم طبيبًـــا تخرج فى جامعة لندن، ولم يذكر محمد لأحد من هؤلاء الأصدقاء أنه كان يعمـــل فى الإسكندرية محصلاً فى الترام.

وأصبحت مشكلة إيجاد وظيفة لمحمد مشكلة حيوية فلم يعد بمقدوره البقـــاء لفترة طويلة بعيدًا عن المنصورة ولكن إذا أعيد استدعاؤه للخدمة فى الجـــيش فـــى منطقة القناة فهذا يعنى البقاء فى الجيش لفترة غير محددة فالألمان كانوا لا يزالون يهددون باريس ولم يكن أحد يعرف متى ستنتهى الحرب، وشعر فورســـتر بـــالألم الشديد لعدم استطاعة فلورنس أن يجد وظيفة مناسبة لمحمد أو أن يذكر لـــه هـــذا الموضوع مرة أخرى، ومرة أخرى ضغط فورستر على محمد ليأخذ منه مبلغًا من المال بينما يقوم فورستر بالبحث عن وظيفة له فى الإسكندرية، ووافق محمد علـــى الذهاب إلى الإسكندرية فى الشهر التالى، وفى اليوم الأخير لمحمد وفورستر كانت حالة فورستر جيدة مما جعل "فورستر" "يشعر بالفخر الشديد والسعادة" وفـــى هـــذه الليلة مكث جميع الأصدقاء يضحكون ويجذبون بعضهم الـــبعض: "سأضـــربك يـــا مورجان"، "سأقتلك يا إدوارد" حتى ناموا جميعًا. وقال فورستر لصديقه فلورنس إن الظروف لم تتهيأ لهم بهذا الشكل من قبل وإنه شعر "بعمق مشاعره لمن حوله" فى هذه الإجازة، وعلى متن قطار الإسكندرية شعر فورستر بالسعادة البالغـــة لقدرتـــه على التكيف والاندماج فى هذه الحياة البسيطة الفطرية ليس فقط فـــى المنـــصورة وإنما فى كل مكان زاره هناك. وقال لفلورنس: "ولننتهى من هذا الأمر، لقد سافرت إلى هنالك بالدرجة الثالثة". (٢٦)

لقد كان السفر فى قطار الدرجة الثالثة وسيلة للتذمر ضد الحرب وإصـــرارًا على رؤية أشكال الحياة البسيطة وحياة المستضعفين فى بلد، حسبما جاء فى خطابه

إلى سيجفرايد ساسون بعد أسبوعين من عودته من المنصورة، "يتسلل فيها الحرب والنزاع إلى أعماق الإنسان". (٢٧)

لقد كانت جميع الرسائل التى كتبها "فورستر" عندما كان فـى الإسـكندرية بمثابة مجموعة من الآراء المناهضة للحرب على أعلى المستويات داخل المجتمـع البريطانى، ومن الذين عرفهم مثل بيرتراند راسـل الـذى نـشر كتابـه "**مبـادئ الرياضيات**" فى الأعوام ما بين ١٩١٠ و١٩١٣ والذى جعله يكسب شـهرة كبيـرة باعتباره أعظم علماء المنطق بعد أرسطو ولكنه سجن فى بداية سنة ١٩١٨ بـسبب مقالته المناهضة للحرب والتى اعتبرت مقالة تحريضية، فأرسل فورستر له رسالة فى السجن قائلاً: "أرسل لك خالص حبي"(٢٨). ومنذ فصل الربيـع كـان فورسـتر يراسل صديقه ساسوون – سليل أسرة لها باع طويل فى مجال المصارف بلنـدن– الذى أثار عمله فى الجبهة شعورًا كبيرًا بكراهية الحرب وكان يقرأ فى هذه الفتـرة "**نهاية آل هوارد**"(**Howards End**) وكان يأمل فى مقابلة فورستر لأول مرة عندما كان على متن السفينة التى كانت تنقل وحدته من فلسطين إلى فرنسا والتى وصلت بعد ذلك إلى ميناء الإسكندرية فى مايو، ولم يستطع ساسوون الانتظار حتى يتـرك السفينة فكتب قصيدته" الموكب المتجه إلى مارسيليا" والتـى أظهـرت تـأثير رد فورستر "تقديم الدعم إلى الرجال الآخرين"وكان فورستر يقصد بهذا طبقة الضباط– و"الذى سرعان ما يتلاشى"، وقال فورستر لقد كانت القوات بكامل بهائها وأناقتهـا. وكان رأى فورستر مناقضًا لرأى ساسوون فقال: "ليس لأنهم يعانون ولكن لأنهـم منهكون ولأن الشيطان الذى يحكم هذا الكوكب رأى أن الضعفاء هم المحكوم عليهم بالمعاناة".(٢٩)

وعلى الرغم مما سبق ولمقاومة سيطرة الحرب والغريزة القوية التى توجه الإنسان إلى إشعال الحرب، قال فورستر "أشعر كثيرًا بالسعادة لأسباب شتى، إن الإسكندرية القديمة – على سبيل المثال– تثبت لى دائمًا أنها صديقى الذى يُشعرنى بالمتعة، أقوم ببناء مدينة ضخمة هادئة للغاية فى خيالى من خلال قراءاتى لكتب الآثار والكتب الأخرى لتكون مدينة إقليدس وأفلوطين وتيموثى القطة التى لم أرها بعد، جميعهم كانوا هنا فى الإسكندرية وإن كانوا فى فترات تاريخية متفاوتة. تم نبح "**هيباتيا**" هنا فى الإسكندرية وفيها أيضًا أحبت كليوباترا وماتت" (٣٠)، كلهم فى بقعة واحدة، ورغم أنهم عاشوا فى عصور شتى، ولهم آراء متفاوتة، وحياة كل منهم مختلفة عن الآخرين، فإنه سيستحضرهم جميعًا فى المدينة العالمية التى تتجسد فى خياله.

كان "**فورستر**" فى مثل هذا الوقت تقريبًا يقوم بالإعداد لإلقاء محاضرة فى "**الجمعية الصوفية**" عن التصوف والفلسفة الدينية لدى الفلاسفة والمتصوفين فى الإسكندرية القديمة، ومنذ مرضه فى "**لوفو**"فى الحى اليونانى لأكثر من عام ونصف قبل أن يستأنف الانتظام فى حضور اجتماعات "الجمعية الصوفية"، وسيذكرها فيما بعد فى كتابه "**الدليل الإرشادي**" عندما يقوم بوصف ما كان يبدو آنذاك الميناء الغارق لفترة ما قبل التاريخ لرأس التين (والذى كان فى وقت ما جزيرة "**فاروس**"، قائلاً: "المفكرون الدينيون بحماسهم الزائد عن المتوقع، قاموا بالربط بينها وبين الحضارة الغارقة "**أطلانتس**" (٣١) وعلى الرغم من الشك الساخر الذى كان يتميز به "**فورستر**"، فإن المفكرين الدينيين كانوا يثيرون اهتمامه بالنسبة لمجالات عديدة، كانت كبيرة الكهنة بريطانية المولد من أتباع الاشتراكية وتدعى "**آنى بيزانت**"، والتى كانت تعيش لفترة من الوقت فى الهند حيث المركز الرئيسى "للجمعية الصوفية"، وقامت فى عام ١٩١٦بتأسيس "**الرابطة الهندية للحكم المحلي**"،

ومنذ عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٢٣ كانت رئيسة حزب "**الكونجرس الوطني الهندي**". وصفها وزير الخارجية البريطاني "**أدوين مونتاج**" في مذكراته عندما التقى بها في نيودلهي في عام ١٩١٧ مع وصفه لشخصيات أخرى مثل "**غاندي**"، "**جيناه**" الذي سيقوم بتأسيس دولة "باكستان" فيما بعد "كواحدة من العظماء الحقيقيين في عالم السياسة في الهند".(٣٢)، كان الأكثر أهمية بالنسبة لـ"**فورستر**" هو الدور الذي لعبته "**الجمعية الصوفية**" في نشر أفكار عن الديانات الشرقية مثل "**الهندوسية**"، و"**البوذية**" في الغرب، قام المفكرون الدينيون "المتصوفة" بالترويج لشكل من أشكال الإخاء العالمي وكانوا ينشرون ضمن تعاليمهم أن كل الأديان في طبيعتها شكل واحد من أشكال الحقيقة المحجوبة التي يمكن أن يستوعبها الفرد عن طريق فهمه المباشر لكل ما هو إلهي.

لقيت المحاضرة التي ألقاها "**فورستر**" في "**الجمعية الصوفية**" طريقها إلى كتابه عن الإسكندرية في المقدمة التي يحاول أن يشرح فيها الوسيلة التي يمضي بها موكب تاريخ حياته لترتيب فعاليات الإسكندرية منذ إنشائها، وهذا التاريخ تم تقسيمه إلى فترات زمنية: اليونانية- المصرية، والمسيحية، والعربية، ثم الحديثة، ولكن بعد العصر المسيحي تعتبر فترة فاصلة، "**المدينة الروحية**" التي ترى الفلسفة السكندرية والديانة متصفتين بصفة الوثنية والمسيحية: ويبدو أنه من الأفضل أن نقوم بالفصل بين هذه المواضيع من جانب لأنها ستقوم بتسلسل الأحداث الرئيسية ومن جانب آخر لأن الكثير من القراء قد لا تستهويهم هذه الموضوعات".(٣٣) ولكنها قامت بشد انتباه "**فورستر**" أكثر من أي شيء آخر عن الإسكندرية.

قام الحكام البطالمة بتجميل مدينتهم عن طريق الاهتمام بفن العمارة والعلوم والتعليم والشعر، ولكن إذا أصبحت الإسكندرية مجرد عاصمة إقليمية للإمبراطورية الرومانية فما الذي يتبقى من مجدها وعظمتها؟ كان رد "فورستر":

"هذه ليست مقاييس لحيوية المدينة، هنالك جوانب العظمة التى لا يستطيع الملـوك منحها كما لا يمكنهم سلبها، وعندما تفقد استقلالها فإنها على الفور تجد التعـويض فى استكشاف المملكة التى وقعت فى نطاقها".(٣٤)

وعلى العكس من المدينة الحديثة فإن الإسكندرية فى الفترة من القرن الأول إلى القرن الرابع قبل الميلاد لم تكن مدينة عالمية للبشر فقط بل للأفكار أيضًا، ومع ذلك كانت العاصمة الفكرية لعالم اليونان- والإغريق كما أصبحت ينبوعًا للفكر فى الغرب لفترة مقبلة بلغت ألفى عام، هذه مدينة موغلة فى القدم، عاش وتعلـم فيهـا اليهود والمسيحيون، فضلاً عن أولئك الذين لا يدينون بديانة معينة جنبًا إلى جنـب. هنا ازدهرت الأفلاطونية وارتفعت إلى مراتب الصوفية، وهنا اندمجت مع التعاليم اليهودية، وهنا اكتسبت التصوير فى كلهما المسيحية واليهوديـة أسـسها الفلـسفية والعقائدية.

كما كانت اهتمامات "فورستر" المبكرة بالمدينة والتى من خلالها تمكن مـن تمهيد الطريق فى أن يتتبع بطريقة نقدية تـشكيل قـيم الحـضارة الحديثـة. قـال "فورستر"على لسان "مارجريت" فى كتابه "نهاية آل هوارد": "إننا نهتم بالمال كمـا نهتم بالجُزر، إننا ننسى أنه من المؤكد أن يكون تحت أقدامنا وجود كل شيء..ففى الليلة الماضية عندما كنا نتجاذب أطراف الحديث هنا حول المدفأة، بدأت أفكر فـى ماهية كل كائن حى فى هذا الكون هو عبارة عن مادة، وأن أعماق الجحيم ليس فى غياب الحب، ولكن فى غياب العملة"....معظم الناس الآخرين هم الـذين بالأسـفل تحت سطح البحر (أو الفقراء)، ما يمكن اعتباره مزحة هنا هو أمر واقع بالأسـفل هنالك". (٣٥)

كان "فورستر" راغبًا فى الاحتفاظ بعالم "نهاية آل هوارد"، على الرغم من أنه لم يكن لاهيًا عن الميزة التى تدعم قيمها، تلك القيم القائمة على الحب والحياة الروحية، ولكن كما كانت تعلم "مارجريت": "بالمنطق لم يكن لهم الحق فى البقاء على قيد الحياة، ولكن أملهم كان فى ضعف المنطق" [٣٦]– والذى كان يعنى به "فورستر" قوة الحب، وهذا هو ما كان يعتقد أنه جوهر الفكر فى الحياة الروحية للمدينة القديمة، "كان ملتصقًا بفكرة الحب، وكثير من السخافات الفلسفية، والموضوعات الدينية الخالية من التشويق، والتى تحملنا على التماس العذر للذين يعتقدون أن أفضل شيء فى الدنيا من المحتمل أن يكون هو أفضل شيء فى السماء".[٣٧]

كان من ضمن الفلاسفة الذين تحدث عنهم "فورستر" عندما تطرق إلى مختلف الأديان والأعراق والقوميات التى تجمعت فى "ليفوو" "أفلوطين"، الذى جذبته رؤيته للأمور بشدة، ولم تختلف تلك الرؤية كثيرًا عن رؤية الفلاسفة المتصوفين أنفسهم. وكما ذكر "فورستر" مرارًا بعدها فى كتابه "الإسكندرية" فإن "أفلوطين" من المحتمل أنه قد ولد فى صعيد مصر، ولكن لا يمكن لأحد أن يجزم بذلك، لأنه كان متحفظًا فى الحديث عن هذا الأمر قائلاً: إن حلول روحى فى جسدى كان فاجعة كبيرة، الفاجعة التى كان لا يرغب فى التحدث عنها".[٣٨] وأيًا كانت أصوله فإن ثقافته يونانية على وجه التأكيد، وإنه وفد إلى الإسكندرية فى بواكير حياته فى القرن الثالث بعد الميلاد لدراسة الأفلاطونية الجديدة على يد "أمونيوس ساكاس"، وهو عامل شحن وتفريغ سفن على الميناء وكان قد هجر الديانة المسيحية، وكان تلاميذه يضمون من ضمن ما يضمون الفيلسوف الوثنى "لونجينوس"، وفيلسوف اللاهوت المسيحى "أوريجين".

كان "**أفلوطين**" يعتقد فى وجود الله وكان يطلق على كينونته العليا "**الواحد**"، "**الواحد**" وحدة واحدة، وليس هناك أكثر من ذلك مما يمكن قوله فى هذا الصدد، ولكن هذا الواحد يتجلى فيضه كما ينجلى الضوء من الشمس، أو كما يفيض الينبوع، ويفيض هذا الضوء على مراحل حتى يتغلغل فى أبسط الأشياء فى الحياة التى نعيشها، ولكن هذا "**الواحد**" لا ينقص منه شيء نتيجة لما ينبعث منه، ولكنه يحتوى الكل، وهو هائل فى تجليه وفى تطهيره، وكل شيء فى داخلنا يشتاق إلى أن يعود مرة أخرى إلى هذا "**الواحد**" العظيم.

هذا الهبوط من روحه إلى جسد مادى، وهذا الانفصال عن الله، وهذا الحرمان من الاتحاد فى "**الواحد**" ما كان يجعل أفلاطون محزونًا من أنه قد وُلِد، ولكن رغم أن هذا الحزن، ورغم أن هذا الأسى يسكن هذا العالم المحسوس، لكننا نجد فيه الجمال الذى ينادى أرواحنا إلى الجمال الكامن فى العوالم العليا، ويستخدم "**أفلوطين**" هنا لغة الحب الحسية، فإن الحبيب تغمره الدهشة الهائلة والإثارة من رؤية وجه جميل، أو جسد جميل، لأنه فى عقله الباطن لديه مخزون من جمال أعظم، والمحب ينهل من جمال المحبوبة بأحاسيسه، ولكنه يعشق حقيقة عندما ينجح فى أن يطبع جمال المحبوبة فى روحها، أين يقع الطريق؟ كيف يمكن رؤية الجمال الذى لا يمكن الوصول إليه؟ يتساءل بذلك "**أفلوطين**" بينما يقوم بتدريس كيفية الوصول إلى الرؤية:

"دعنا نفر إلى أرض الأجداد المحبوبة، فهذا هو الرأى الأصوب، ولكن ما الوسيلة للوصول إلى عرض البحر؟ أرض الأجداد هنالك حيث جئنا منها لأول مرة، وهنالك حيث يوجد الأب، وماذا يكون مآلنا حينئذ؟، وما وسيلة الفرار؟، هذه ليست رحلة تقوم بها سفينة، السفينة تنقلنا من أرض إلى أرض أخرى فقط، كل هذه الأشياء يجب أن تنحيها جانبًا ويجب أن ترفض مجرد رؤيتها، ويجب أن تغلق

عينيك، وتستدعى بصيرة أخرى توقظها من أعماقك، بصيرة شاملة مكتسبة بالولادة، ولكن القليلين منا يمكنهم استخدامها.

تراجع وانظر إلى داخلك... ستجد بصيرتك الشاملة، قم باستدعاء ثقتك الكاملة، تقدم للأمام، **لن تحتاج إلى مرشد بعد الآن**، ابذل ما فى وسعك واشحذ بصيرتك.(٣٩)

ربما تحدث "**أفلوطين**" مع بعض التجار الهنود على أرصفة ميناء الإسكندرية، كما يعتقد "**فورستر**" والذى يرى أن هناك أفكارًا متوازية بين أقواله والكتابات الدينية فى الهند، فمن وجهة نظر "**أفلوطين**" يمكن عبور الفجوة بين الإنسان والإله عن طريق النظر إلى داخل أنفسنا، لأن كل واحد منا هو صورة مصغرة من العالم، كل منا إله". كتب "**فورستر**" عن "**أفلوطين**" بتعاطف واضح مع أفكاره، ونقل عنه العبارات السابقة، والأكثر من ذلك، ربما كان معجبًا بالعبارة "**لن تحتاج إلى مرشد بعد الآن**" وقد نقلها عنه فى عنوان الصفحة الأولى لكتابه الإسكندرية: "لأى بصيرة يمكن استقدامها لتوائم البصر إلى ما يمكن رؤيته".

عندما كتب "**فورستر**" فى كتابه عن الإسكندرية أنها تقع على حافة الحضارة، والصحراء تمتد بعيدًا خلفها، فإنه أضاف قائلاً: "حقيقة وجود هذه الصحراء لا يتذكرها معظم قاطنى هذه المدينة، ولكنها لعبت دورًا عظيمًا فى تاريخها خاصة فى العصر المسيحى، ولا يمكن لأى واحد دارس لتاريخ المدينة أن ينكر دورها".(٤٠) جاءت اللحظة التى لم يعد بمقدور "**فورستر**" أن يتجاهل عندها الصحراء أكثر من ذلك فى يونيو ١٩١٨ عندما خرج لرحلة طويلة بالقطار والجمل إلى "وادى النطرون".

الأديرة المسيحية الأولى فى العالم تم إنشاؤها هنا فى العقود الأولى من القرن الرابع، وحتى اليوم فإن الأربعة التى لا تزال باقية ومسكونة باستمرار حتى الآن يبدو عليها أنها تنتمى إلى عالم آخر، الجدران العالية للدير والتى تم تعليتها فى القرن التاسع لحمايتها من غارات البدو، تعطى انطباعًا بأنها سفينة نوح تحمل المؤمنين فى بحر الصحراء، ولكن المنشآت الأصلية فى وقت من الأوقات نصفها كانت منشآت أكثر تواضعًا، يصفها سائح من القرن الرابع بقوله: "كان الطريق للوصول إليها غير معروف وبدون علامات مميزة، ولكن يجب أن تصل إليها عن طريق علامات وإشارات النجوم، الماء شحيح ونادر الوجود...ولذا فإنه هنا فقط يمكن أن يُعد الإنسان لحياة القداسة (لأنها بقعة مرعبة لا يمكن أن يتحملها أحد إلا هؤلاء الذين يملكون عزيمة صلبة وإرادة هائلة)، ولكن اهتمامهم الأول هو الحب الذى يبدونه لبعضهم البعض وتجاه أى شخص يمكن أن يصل إلى تلك البقعة بالمصادفة".(٤١)

هذه الأديرة مذهلة، لموقعها وحتى لديكوراتها التى وإن كانت فقيرة إلا أنها جميلة، وفوق كل ذلك لتاريخها، كتب "**يوسبيوس**" وهو شاهد عيان للمدى الرهيب الذى وصل إليه الإمبراطور "**دقلديانوس**" فى عام ٣٠٣ "تعذيب المسيحيين فى أيام الإمبراطورية الرومانية وصل إلى حدود مرعبة كما حدث فى مصر فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، لم يلتفتوا إلى التعذيب بأشكاله المرعبة، ولكنهم كانوا يتكلمون عن تفانيهم لله رب الكون بجرأة كما لم تهن عزائمهم وكانوا يضجون بالسعادة ويطلقون ضحكات عالية وهم فى حبور وهم يستمعون إلى الحكم النهائى عليهم بالموت". (٤٢)

بحث القليل منهم عن المأوى فى الصحراء، ولكن فقط بعد أن أصدر "**قسطنطين**" إعلانه العفو عن المؤمنين فى عام ٣٠٣ وعندما أصبح الهرب لا مبرر

له، وبدأ "**الهروب الكبير**"، كان الاستشهاد يُعطى طريقًا مباشرًا إلى الجنة، ولكن أصبح هذا الطريق يمكن الوصول إليه أيضًا عبر الصحراء. كان رد الفعل المصرى ذلك غريبًا، حيث إن غالبية النساك والرهبان كانوا من الوطنيين تقريبًا كأفراد (وهذا يؤرخ لبداية الكنيسة القبطية المصرية). هجر المصريون مدنهم ومزارعهم فى واحدة من أعمال الفوضى المدهشة إلى البرارى القاحلة بهدف ترك كل الممتلكات والامتيازات الدنيوية تحدوهم الرغبة إذا أمكنهم ذلك حتى فى هجر أحاسيسهم بأنفسهم من أجل التقرب إلى الله.

كان "**فورستر**" يفضل أن يحتفظ الرهبان بيقينهم لأنفسهم، ويحتفظوا بأنفسهم للصحراء، وبالأخص بمفهومهم للحب الذى تم تأسيسه على اعتراضهم على هذه الدنيا. كان "**أفلوطين**" يعتقد أن هذا العالم منبعه هو الله، وأن الحب يمدنا بالوسائل التى تجعلنا نعود إلى الله، وهذا هو الدرس الذى كانت "**هيباتيا**" المعلمة الأخيرة للأفلاطونية الجديدة تلقيه فى مكتبة الإسكندرية القديمة. ولهذا السبب، وبقدر ما كانت الإسكندرية أجنبية، فإن رهبان وادى النطرون كانوا يكرهون المدينة واتخذوا منها عدوًا لهم.

عندما أصبحت المسيحية إجبارية فى أواخر القرن الرابع وطوال سيادة الإمبراطورية الرومانية، اندفع الرهبان إلى مدينة الإسكندرية، وقاموا بتدمير "**السرابيوم**" معقل الوثنية والمكتبة العظيمة أو المكتبة (الأم) مع المكتبة (الابنة) والملاصقة للميناء الشرقى، وقاموا بإنشاء دير فى موقعها. كتب "**فورستر**" يقول "لم تكن الوطنية بمعناها الحديث موجودة آنذاك، فلقد كان عصر الدين لا عصر الوطنية، ولكن المشاعر العنصرية كانت تتدثر تحت عباءة الدين". وفى غزوة أخرى وقعت عام ٤١٥، وبينما هم يعتريهم القلق بشأن تتويج إيمانهم قبل العودة إلى أديرتهم قاموا بقتل "**هيباتيا**" فى مدينة القيصرية، وبمقتلها اندثرت الروح

الإغريقية، تلك الروح التى كانت تناضل من أجل اكتشاف الحقيقة والجمال، والتى قامت بخلق مدينة الإسكندرية".(٤٣) يمكن اعتبار هذا الأمر هو الجرح المميت بالنسبة لـ"**فورستر**"، لم يكن هنالك التوتر السائد الذى خلقته المسيحية قبل النصف الأخير من القرن الثالث، لم تكن هناك الأرثوذوكسية المتعجرفة التى يمكن أن تتهم الآخرين بالهرطقة، فلقد درس "**أفلاطون**" جنبًا إلى جنب مع "**أوريجون**" وهو من الآباء الأوائل للكنيسة المصرية وكلاهما كان تلميذا للفيلسوف "**أمونيوس ساكاس**"، الذى تحول من المسيحية إلى الوثنية، ولذا فإن أغلبية المسيحيين كانوا يؤمنون بكثير من المعتقدات المخالفة لأصول الديانة، ويقر "**فورستر**" بأن تأكيدات الأرثوذوكسية المبكرة أن المسيح هو الرابط بين الله والإنسان هى فكرة بشرية، أعمال الباحثين الإغريق هى التى رفعت الديانة البسيطة لفلسطين وجعلتها عالمية ونقلت إليها التعاليم التى يقوم بتدريسها الوثنيون" (٤٤)، ولكنه فى أحد الملاحق ساق مقتطفات عديدة من أناجيل غير معتمدة موافقًا عليها، مثل ذلك الموقف الذى سألت فيه امرأة المسيح قائلة: متى يأتى يوم الدينونة فقال لها: "عندما تطرحين ثوب الحياء جانبًا، وعندما يصير الاثنان واحدًا، والرجل مع المرأة، ولا يكون هنالك رجل أو امرأة".(٤٥)

ولكن مع القوة المتنامية للأرثونكسية كتب "**فورستر**" فى القسم الذى خصصه لحياة المدينة الروحية: "يجب أن ننتبه للمسيحية الآن وهى تتحول وتصبح أكثر قسوة".(٤٦)، وبمجرد أن تم الاعتراف بالمسيحية بواسطة الدولة فى أوائل القرن الرابع وأصبحت الديانة الرسمية للدولة مع نهاية القرن وأصبحت السيادة ليست فقط للمسيحية على الوثنية ولكن لمجموعة من المسيحيين على مجموعة أخرى، إذ كان لها طموح واضح واستطاعت أن تستقطب خدمات جهابذة السياسيين. قال "**فورستر**" "كان هنالك على سبيل المثال "**أثناسيوس**": وهو يعتمد

على إثارة رجل الشارع العادي" (٤٧) وكان يعتمد على مقدراته الفكرية، انتقاداته اللاذعة، العنف البدني، التصميم الذى لا يلين، أدار حججه تجاه "**أريوس**" حول "**طبيعة المسيح**" المتضمنة فى "**العقيدة النيسية**"(٤٨)، وهى واحدة من الوثائق المهمة فى تاريخ الكنيسة إلى اليوم.

لثلاثة قرون أو أكثر كانت طبيعة المسيح ميدانا للمعارك سواء فى داخل الإسكندرية أو بين الإسكندرية والقسطنطينية ونتج عن هذه المعارك تولد الكراهية بين المسيحيين من جهة وبين المصريين والإغريق من جهة أخرى.

وكان قدوم العرب للمدينة فى عام ٦٤٢ فيه الراحة من كل هذا العناء، "ليس من السهل معرفة لماذا سقطت الإسكندرية، حيث لم تكن هناك أسباب مادية لذلك، ولكن هنالك ما يدفع للاعتقاد بأنها سقطت لأنها كانت بلا روح (٤٩)، ففى خضم المعارك المحتدمة بين المسيحيين حول الحقائق المتعارضة قدم لهم العرب حقيقة واحدة وبسيطة فى جوهرها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وكما ارتحل الله عن "**أنتوني**" فى قصيدة "**كفافيس**"، فإن الحب كان قد رحل عن الإسكندرية، ودخلها الإسلام بقوة من خلال نكوصهم عن الحب" (٥٠) ودخل المدينة بدون اعتراضات تُذكر، لم يتم تدمير الكثير حتى الآن، يستمر "**كفافيس**" فى وصفه: " وعندما دخل فرسان عمرو بن العاص إلى مدينة الشمس، كانت صفوف الأعمدة الرخامية لا تزال قائمة على طول طريق "**كانوبس**" عبر الميناء، وكانت "**منارة الإسكندرية**" لا تزال أعجوبة قائمة آنذاك. كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة يقول: "لقد استوليت على مدينة فيها ٤٠٠٠ قصر، و٤٠٠٠ حمام، و٤٠٠ مسرح، و١٢٠٠ محل بدالة، و٤٠٠٠٠ من اليهود". (٥١) لا توجد دراسات بصدد هذه اللامبالاة (٥٢)، حيث إن العرب لم يكن فى مقدورهم معرفة قيمة الكنز الذى حصلوا عليه، فقط يعرفون أن الله قد وهبهم مدينة كبيرة وقوية، لم يدر فى خلدهم أنه لا توجد مدينة على الأرض

تعادلها، وأن علوم الإغريق هى التى قامت بتخطيطها، وأنها مهد الفكر المسيحى. ربما دارت فى أذهانهم أساطير باهتة عن الإسكندر، وأكثر قتامة عن كيلوباترا، ولكنهم لم يكونوا يملكون الحس التاريخى، لم يدركوا ما دار فى هذه البقعة من العالم، وعلى الرغم من أنه لم تكن لديهم أى نوايا لتدمير المدينة، كما يبقى عليها طفل كنوع من التسلية لرؤيتها، فإنهم لم يقوموا بتطويرها فوق ما يقرب من ١٠٠٠ عام". (٥٣)

لم يأت محمد إلى الإسكندرية فى أغسطس، وبدلاً من ذلك أرسل خطابًا إلى "فورستر" يخبره فيه أنه مريض، كان يبصق دمًا ويفقد وزنه وكان على ثقة تامة بأنه مريض بالسل، وكتب يقول فى يأس "لا يصيبنى الاضطراب كثيرًا لمرضى، فأنا أعتقد أن الموت هو الطريق الوحيد للراحة من هذا العالم المضطرب". وورث محمد بعض الأموال بالإضافة إلى المنزل، وبمجرد أن غادر "فورستر" المنصورة قرر محمد أن يقتحم مجال أعمال القطن ليتحين الظروف التى نتجت عن الحرب وتضاعف أسعار القطن وذلك بأن يقوم بالشراء من القرى النائية وبيعها للمتعهدين، ولكن القلق من الظروف المادية والإرهاق الناتج عن طول ساعات العمل ساعدتا فى إحباط شهيته للطعام وبالتالى فى ظروفه الصحية، قام "فورستر" بإرسال بعض النقود إليه ليتمكن من شراء المزيد من اللحوم واللبن لطعامه حتى يتمكن من استرداد عافيته، كما قام بالنيابة عنه ببعض المهام فى الإسكندرية وكان يتابع تقلبات معنوياته بين اليأس والرجاء فى الأمل، ورغم أن خطط زواجه من أرملة أخيه قد باءت بالفشل فإنه قرر أن يتطلع على حد قوله: "فى أن أعيش كرجل سعيد فى منزل الأسرة"(٥٤).

أثبتت الرحلة الأخيرة التى قام بها "فورستر" فى نهاية الأسبوع من شهر يوليو إلى المنصورة كنقطة تحول فى نهاية الحرب. فقد تم دحر الهجوم الألمانى

فى موقعة "مارين" الثانية، وببداية شهر أكتوبر قام البريطانيون والفرنسيون والذين انضم إليهم الأمريكيون فى إبريل عام ١٩١٧ بدفع الألمان إلى التراجع بعزيمة لا تلين، كما كان الأمر مشابهًا تمامًا بالنسبة للأتراك، ففى بداية شهر أكتوبر تم الاستيلاء على دمشق، وبعدها بشهر واحد تمامًا فى ١١ نوفمبر كانت الحرب العالمية قد وضعت أوزارها. حتى الأنباء التى وردت من المنصورة كانت طيبة، كتب محمد إلى "فورستر" فى ٢ أكتوبر يقول: "كان يوم أمس هو اليوم الأول لى فى الزواج، كان يومًا سعيدًا، لقد كنت أشعر أن اليوم كان ساعتين فقط، فلحظات السعادة تمر بسرعة".(٥٥)

كما وجد "فورستر" ناشرًا لكتابه الذى ينتوى نشره كتاريخ ودليل إرشادى، كانت دار النشر هى "وايتهيد موريس المحدودة" والتى تقع فى ١٥ شارع شريف باشا، والتى لم تكن من ضمن أنشطتها نشر الكتب على الإطلاق، فقد كانوا يعلنون عن أنفسهم كمطبعة للكتب وبيع الأدوات المكتبية، وصناع للأكليشيهات وسجلات الحسابات، وكانت صناعة سجلات الحسابات صناعة ضخمة فى الإسكندرية، وكان هذا الناشر يعتبر فرعًا لمؤسسة فى لندن، وكان المدير الإقليمى لهم هو "مستر مان"، وهو رجل يشبه لون بشرته لون التبن ومتقلب وعصبى إلى حد بعيد، كما كانت أفكاره ضحلة عما يجب أن يفعله فى عمله، وليست لديه أى فكرة عن فصل الألوان أو الطبعات التجريبية".(٥٦) قام "مستر مان" بإبرام عقد اتفاق وكما أسماه "فورستر" فيما بعد "مستندًا غريبًا"(٥٧)، ولم يكن ما سيحصل عليه مقدما معقولاً، ولكن كان كل ما يهمه فى ذلك الوقت هو أن يكتب كتابًا ويراه مطبوعًا، حيث لم يحدث ذلك منذ نشر كتابه "نهاية آل هوارد" فى نهاية عام ١٩١٠.

أوشكت الحرب على أن تضع أوزارها فى خلال هذا الشهر، وبدأت أعداد الجرحى تتناقص فى المستشفيات، وبدأ "فورستر" فى إعداد كتابه عن الإسكندرية

فى المساء بعد العودة من العمل. كتب لعمته يقول: "ليس هناك الكثير مما يمكن رؤيته هنا، ولكن هنالك الكثير مما يمكن التفكير فيه"،(٥٨) فى غضون الأشهر الحالية بدت أعماله الصحفية كما لو كانت إعدادًا لما هو آت، فلقد كتب سلسلة من المقالات الساخرة عن شخصية المدينة القديمة:

كانت هنالك رحلة الإسكندر إلى واحة "**سيوه**"، حيث تم تفسير تحية أحد الكهنة فى معبد "آمون" بالخطأ سواء بالسماع أو فى النطق وتم اعتبار الغازى الشاب من "**الآلهة**"، مما تم اعتباره سلوكا غير قويم فى قصور البطالمة وأسهم فى أفول عصرهم، كانت رحلة الفيلسوف "**فيلو**" المضطربة إلى روما لشرح أسباب عدم قدرة أتباعه اليهود عبادة "**كاليوجولا**" كإله ليجد أن الرجل الذى تم تنصيبه كإمبراطور وإله للإمبراطورية الرومانية كان رجلاً تام الجنون، وأن "**أثناسيوس**" قد تم رفعه من مجرد "ولد شقى ومؤذ" إلى أن يصبح مطرقة فى يد المسيحيين الأرثوذكس، كل مقالة كانت بطريقة أو أخرى تدور حول ادعاءات السلطة، والحقيقة والدين، ولكن تم إعدادها لتصبح مناسبة لعمود عن الشائعات فى جريدة "**الميل**"، كما قام بمراجعة كتاب "**أولاد الفراعنة المحدثين**" وهى دراسة للمؤلف "**س.هـ.ليدر**" عن الأقباط، كما قرأ للمؤلفين "**بلوتارخ**"، و"**درايدن**"، و"**وليم شكسبير**"فى "**أنطونيو وكليوباترا**"، وكان يكتب على حد قوله "نوعًا ممتازًا من الكتب الإرشادية متضمنًا جزءًا لا بأس به من التاريخ.....كان الغرض من هذه السلسلة هى أن تحكى عن التاريخ". (٥٩)

أصبح محتمًا على "**فورستر**" ومع اقتراب الحرب من نهايتها بأن يُخبر "محمد" بأنه سيغادر الإسكندرية فى القريب العاجل، وأدى به هذا إلى الوقوع فى نوبة جديدة من الإحساس بالكآبة وأجابه محمد قائلاً: "أشعر بالضعف الشديد..أعتقد أننى أميل إلى الهزال أكثر وأكثر، أنا لا أتطلع إلى الأمام سواء لمستقبلى أو لحياتى العملية، صديقك التعس- محمد العدل(٦٠).

في حوالى منتصف شهر نوفمبر، وبعد الهدنة مباشرة، ذهب "فورستر" إلى المنصورة لمدة أسبوع حيث وجد الأمور أفضل مما كان يتوقع، وعلى الرغم من أن محمدًا كان يساوره القلق بشأن النقود وبشأن وضعه الصحى، فإنه كان يزداد فى الوزن ويتمتع بزواجه، وعلى حد قوله: "إنه لم يكن يعيش فى الدنيا من قبل"(٦١)، التقط "فورستر" بعض ملامح عروس محمد "جميلة" وقال لفلورنس يصفها: "هى صغيرة السن وتتميز بالبساطة وأخاذة، كنت أحب أن أسمع ضحكاتهما معًا، إنها تشبه حيوانًا ريفيًا أليفًا صغيرًا وجميلاً، وسيحيطها بالحب والحنان"، شعر بالامتنان للطريقة التى استقبله بها، فلم يكن من المعتاد فى تقاليدهم أن يُستقبَل أوروبى فى منزل رجل متزوج، ولكن وحتى الآن لم يكن "فورستر" يعرف كيف يذهب محمد إلى مدى أوسع من التلطف معه مستجيبًا على مضض لرغباته الجسدية، كما يحاول أن يبدو مبتهجًا فى حضوره على الرغم من مرضه ومتاعبه المادية. ولكن بالمصادفة انزلق لسانه بملحوظة تحمل المرارة عندما سأله "فورستر" أن يبحث له عن بعض المزامير الريفية (ناي) كهدايا يصطحبها معه عند العودة لإنجلترا، فقال محمد: لماذا لا تأخذ معك هدايا أغلى ثمنًا، وأشار إلى نفسه وإلى زوجته وهو يستكمل قوله: لماذا لا تأخذ معك زوجين مصريين؟

ورتب "فورستر" ومحمد للتقابل مرة أخرى فى شهر يناير، لقد رتبت لمقابلته بين الحين والآخر حيث إن الغياب يمكن أن يخلق أوهامًا، قبل أن يغادر المنصورة نجح "فورستر" فى أن يجعل محمدًا، وبعد كثير من الإلحاح أن يقبل أن يُقرضه سبعين جنيهًا من أجل أن يُسَيِّر بها أعماله، كما أخبر "فلورنس" أنه سيجعلها هدية لمحمد عندما يرحل، حيث إن هذا المبلغ يساوى تمامًا المبلغ الذى سيتسلمه من دار نشر "وايتهيد موريس" وبصريح العبارة فإن "فورستر" كان قد كتب "الإسكندرية" خصيصًا من أجل محمد.

وصل "فورستر" إلى الإسكندرية وعمره ٣٦ عامًا، رجلاً بلا خبرة عن الجنس أو الحب، طفل كان أسير والدته بالمنزل، وكان ذلك هو السبب بنفس القوة بالنسبة للحرب والذى جعله يغادر إنجلترا، والآن فى ١ يناير ١٩١٩ أصبح "فورستر" فى الأربعين من عمره، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يهرب كلية من اعتماده على أمه فإنه من ناحية أخرى استطاع أن يفرغ شحناته العاطفية فى الإسكندرية وفى أن يجعلها وطنًا له.

ذهب لرؤية محمد فى وقت ما من منتصف شهر يناير ووجده قد زاد وزنًا، لم يبصق دمًا منذ أشهر، كما لم يعد يعانى من مشاعر الإرهاق الكئيبة، على الرغم من أنه وعلى حد قوله " على حافة ما يمكن اعتباره الراحة من كل هذا العناء"، كتب "فورستر" إلى "فلورنس" يقول: "أتوقع أن أبحر وأنا أتمزق من مشاعر القلق، وأتركه واقفًا على قدميه، ولا أنكر على نفسى الشعور بالرضا من التفكير فى أننى عاونته فى الوقوف على قدميه. خرج هو ومحمد فى صباح اليوم الأخير لهما معًا فى نزهة طويلة سيرًا على الأقدام عبر الحقول، تمامًا مثلما عبر الدلتا من بورسعيد إلى الإسكندرية منذ ثلاث سنوات مضت، المناظر الطبيعية كانت تبدو شبيهة بمثيلتها فى "كامبريدج" بطريقة مذهلة، مسطحات ممتدة من الترع، وفى الأفق البعيد مزارع وأشجار يغلفها الضباب، ولكن هذه المرة، وبدلاً من أن يرفض مصر لأنها ليست الهند فإنه كان يرنو إليها بعين الحب[٦٢].

عاد "فورستر" إلى الإسكندرية بحلول اليوم السادس عشر من الشهر، وفى نفس اليوم ذهب فى جولة حول شارع شريف باشا، وقام بتوقيع عقد النشر مع دار نشر "وايتهيد موريس". وفى يوم ٢١ يناير قام بتوديع "**كفافيس**"، و"**فالسبوليس**"، و"**لودولف**"، و"**آل أناستاسيديس**"، و"**أنطونيوس**"، و"**تيرني**"،"**عايدة بوركجريفنك**"،

"إيرين"وكل الأشخاص الآخرين الذين ملأوا حياته، وأبحر إلى "مرسيليا"وفى اليوم الأخير من الشهر كان قد عاد أدراجه إلى إنجلترا(٦٣).

وبعد ذلك بخمسة أسابيع، وفى يوم ٨ مارس ١٩١٩ بالتحديد شبت ثورة فى مصر. كانت دول الحلفاء تبذل الوعود طوال عام ١٩١٨ لشعوب أوروبا والإمبراطورية العثمانية، أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية "وودروه ويلسون" فى الأول من يناير من ذلك العام بيانه ذا النقاط الأربعة عشر والتى تجسد مبادئ "تقرير المصير العالمي"، ثم قامت الحكومة البريطانية بالتأكيد لمجموعة من الوطنيين السوريين الذين التقت بهم فى القاهرة أن الاستقلال المطلق لكل المناطق التى تحررت من الاحتلال العثمانى بواسطة القوات العربية سيتم الاعتراف به، وأخيرًا وفى شهر نوفمبر أكد إعلان بريطاني-فرنسى مشترك أنه سيتم تشجيع تكوين حكومات وطنية من شعوب دول سوريا وبلاد ما بين النهرين. كانت "سوريا" آنذاك تعنى على وجه العموم المنطقة المسماة تاريخيًا باسم "سوريا الكبرى"، والتى كانت تضم ما يسمى "سوريا" اليوم بالإضافة إلى الأردن، لبنان، وفلسطين، كل هذه الدول بالإضافة إلى العراق وشبه الجزيرة العربية كلها تلقت تأكيدات بأنها ستحكم نفسها بنفسها، لم يتم ذكر اسم مصر، ولكن المصريين كانوا يفترضون أن طموحاتهم الوطنية والتى تعود إلى ثورة "أحمد عرابي" فى عام ١٨٨٢ سيتم الوفاء بها. كانوا يشعرون أن توقعاتهم ستتحقق نظرًا لإسهاماتهم التى بذلوها فى الحرب والتى لا تقل عن تلك التى بذلتها سوريا الكبرى أو عرب الحجاز، ولأن البنية الأساسية والسياسية لمؤسساتهم تعتبر أكثر تقدمًا بكثير عن نظيرتها فى أى مكان بالشرق الأوسط.

بعد يومين من الهدنة وانتهاء الأعمال العسكرية فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، وبوفد منتخب من أعضاء المجلس التشريعى والتى تم تعليق أعمالها عشية اندلاع

الحرب وبرئاسة "**سعد زغلول**" قامت بدعوة المندوب السامى البريطانى فى القاهرة "**سير ريجنالد وينجيت**" وقدمت له المطالب الوطنية فى الاستقلال، كان كل أعضاء الوفد من الرجال المعتدلين الذين يتفهمون المصالح والاهتمامات البريطانية، كان برنامجهم وكما ذكر "**وينجيت**" يتمثل فى الاستقلال الكامل لمصر، مع الاحتفاظ لبريطانيا بالحق فى متابعة ديون القطر ومنحها تسهيلات معينة فى "**قناة السويس**"، كما تعهدوا بعقد معاهدة صداقة دائمة مع بريطانيا التى اعتبروها الحليف المقرب لمصر، كما كانوا يتطلعون إلى إنهاء مبكر للأحكام العرفية والرقابة على الصحف، استمع "**وينجيت**" إلى الوفد وأبدى تعاطفه مع مطالبهم وقام برفع الأمر برمته إلى "**لندن**".

قدر "**وينجيت**" وكان على حق فى تقديره- أنه على الرغم من أن الوفد كان يمثل الرأى الوطنى العام، فإنه لم يكن يمثل الحكومة المصرية، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يتفق فى المفهوم مع "**سعد زغلول**"، كانت الحكومة فى وضع دقيق حيث كان عليها أن تتعامل مع ثلاثة مسارات مختلفة، أن تتسم بالمرونة فى تعاملها مع بريطانيا، وأن تستجيب للسلطان "**فؤاد**"، وأن تستحوذ على احترام رجل الشارع العادى من المصريين.[٦٤]على الرغم من التمييز بين المصريين الوطنيين وأولئك الذين ينحدرون من أصول تركية-جركسية طوال عقود من الزمان فإن الأمر ازداد سوءًا منذ عصر محمد على من خلال الزواج المتداخل، والتعليم، وتقدم المصريين إلى الوظائف العليا فى الجيش والحكومة، فلقد كان رئيس الوزراء وأعضاء حكومته كالسلالة الحاكمة التى كانوا فى خدمتها من الأتراك- الجراكسة (إلا الأقباط الذين كان الأمر بالنسبة لهم إجباريًا) تلقوا تعليمًا أجنبيًا وملامحهم عالمية، وذلك على العكس من "**سعد زغلول**" الذى كان يشبه "**أحمد عرابى**" وكلاهما يحملان ملامح فلاح مصرى مألوف، رغم أنه يمكنك أن تخمن من خلال

ملامح "زغلول" المنغولية أنه يحمل فى تركيبته" شيئًا أجنبيًا متراكمًا منذ آلاف السنين عندما كان يتم حكم مصر من خلال أفراد من الأكراد أو التركمان أو ممن يحملون جذورًا من آسيا الوسطى.

ولد "**سعد زغلول**" فى عام ١٨٦٠، كان ذكاؤه ودأبه سببًا فى أن يترك مدرسته فى القرية إلى جامعة الأزهر الإسلامية فى القاهرة، حيث نال إجازة القانون وأخذ فى الترقى حتى أصبح قاضيًا لمحكمة الاستئناف الوطنية، وحيث إن القانون المصرى كان مستمدًا من القانون المدنى الفرنسى فإنه شرع فى تعلم اللغة الفرنسية، وهنالك شائعة مفادها أن علاقة غرامية ربطت بينه وبين الأميرة "**تازلى فاسيلي**" وهى ابنة شقيقة الخديو إسماعيل قد مهدت له السبيل فى حياته المهنية، ثم كان زواج "**سعد زغلول**" من كريمة رئيس الوزراء، حينئذ لفت انتباه اللورد كرومر القنصل البريطانى والحاكم العام إليه بشدة، وقام بتعيينه وزيرًا للتعليم فى عام ١٩٠٧، وذكر فى حيثيات تعيينه "نظرًا لقدراته واستقامته وشجاعته، وإذا لم أكن مخطئًا فإن "**سعد باشا**"سيكون له مستقبل مشرق".(٦٥)

ولكن ما جعل "**سعد زغلول**" محبوبًا من الشعب هى صورته كابن النيل البسيط، وكانوا يلقبونه ببساطة "**بالمصري**"، لم تكن الحكومة تتصرف بدون علمه، كما أن "**سعد زغلول**" قد طلب "**وينجيت**" بناء على العلم المسبق للسلطان وكذلك مجلس الوزراء، تم التطرق إلى موضوع الاستقلال بنفس الطريقة لبريطانيا عن طريق "**رشدى باشا**" رئيس الوزراء الذى اقترح على "**وينجيت**" أن يذهب هو وأحد وزرائه وهو "**عدلى باشا**" إلى "**لندن**" لتوضيح قضيتهم على أعلى مستوى، ولكنه أصر على أنه لن يحمل الرأى الوطنى إلا إذا اصطحبه "**سعد زغلول**" ورفاقه أيضًا. أبرق "**وينجيت**" إلى "**أرثر بلفور**" وزير الخارجية أن تتم دعوة الوفدين إلى لندن.

وصل الرد بعد أسبوعين إلى "وينجيت" وقد أخطروه فيه بأن "استقباله للوفد المتطرف والمعادى لبريطانيا (٦٦) أمر غير ملائم، وأنه لا يجب السماح لهم بمغادرة مصر". يمكن مقابلة "رشدي" و"عدلي" فى وقت لاحق من العام القادم، ولكن فى هذا الوقت فإن حكومة جلالتها مشغولة للغاية فى الإعداد لمؤتمر "باريس" والذى سيبدأ أعماله فى ديسمبر، وبالطبع فإن رئيس الوزراء "لويد جورج"، و"بلفور" سيكونان هنالك للبحث فى تطلعات وآمال السلام بين الـ ٣٩ دولة الممثلة فى ذلك المؤتمر، ولكن مصر ليست من بين هذه الدول، ولا يمكن اعتبار شئون العلاقات البريطانية-المصرية شأنًا عالميًا، حيث إن وجهة النظر السائدة فى بريطانيا هو أن تظل مصر جزءًا من الإمبراطورية البريطانية مع منحها بعض الحكم الذاتى.

كان الرد البريطانى الذى يحمل الكثير من الازدراء يمثل لطمة على وجه كل الأطراف المعنية فى القاهرة، ولذا تقدم كل من "وينجيت"، و"رشدي" باستقالتيهما، وتم رفض الاستقالات، ولكنهما تقدما بها مرة أخرى، وفى خضم الضجة والغضب الشعبى العارم، رأى السلطان أنه قد يكون من المناسب أن تتشكل حكومة جديدة، وتزايدت خشيته على مصير عرشه، وقام القائد العام للقوات البريطانية فى مصر بالقبض على "سعد زغلول" وثلاثة من رفاقه وقام بنفيهم إلى "جزيرة مالطة"، استيقظت مصر فى صباح اليوم التالى على صيحات الثورة، تنادى الطلاب بالإضرابات والمظاهرات، حمل رجال الدين المسيحي هذه النداءات إلى المساجد، كما حملها الشيوخ إلى الكنائس، امتلأت الشوارع بهتافات الاستقلال، والهتاف بحياة سعد زغلول، تم قطع طرق السكك الحديدية والتلغراف، وتم عزل القاهرة والإسكندرية، أما فى الريف فإن مرارة الفلاحين من التجنيد الإجبارى خلال فترة الحرب كعمالة يدوية وقائدى إبل انفجر فى نوبات عنف شديدة،

وهجمت الجماهير على القطارات فى الأماكن المتطرفة وقتلوا الجنود والمدنيين الذين يستقلونها.

دام الوجه الدموى للثورة المصرية لفترة قصيرة، ومع مرور الوقت وصل الجنرال "أللنبي" محرر "القدس" فى نهاية مارس كمبعوث خاص على مستوى عال، وقام الجيش البريطانى بمهمته فمقابل أربعين قتيلاً بريطانيًا تم قتل ألف مصرى، ولتهدئة المصريين تم الإفراج عن "سعد زغلول" ورفاقه من "مالطة" فى يوم ٧ إبريل، ولكن المفاوضات وأعمال الفوضى استمرت للسنوات الثلاث التالية، والتى خلالها تم نفى "سعد زغلول" مرة أخرى، ثم الإفراج عنه، كانت عودته فى كل مرة انتصارًا، جماهير محتشدة على طول الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة، وفى بقعة يصفها "فورستر" بأنها بقعة مملة من إسكندرية اليوم وعلى مقربة من محطة الترام فى منطقة الرمل يطل تمثال "سعد زغلول" على البحر الذى شهد نفيه.

تتبع "فورستر" هذه الأحداث واكتنفه القلق حيالها، وأرسل خطابًا نشرته "مانشستر جارديان" يصف فيه التجنيد الإلزامى للفلاحين خلال الحرب، والمعاملة المزرية التى يلاقونها من الجيش، وقام بسرد ما عرفه من محمد، الحالة المزرية للمستشفيات، إن الانتصارات البريطانية التى تحققت فى "فلسطين" تحققت بفضل المساندة الكبيرة للمصريين، لا يجب أن نستبدل الفلاحين الذين دمرناهم بالفقر الشديد، ولكن يمكننا أن نبحث فى مشاعر الذين بقوا منهم على قيد الحياة لندرك لماذا يشاركون فى هذه الاضطرابات التى تحدث فى القرية والمدينة على حد سواء". (٦٧)

وردت أنباء "مذبحة مقاطعة أمريتسار" بالهند بعد ذلك بأسبوعين، تبعتها فترة من انتفاضة "السيخ"، تجمع منهم خمسة آلاف شخص فى تحد لإعلان الأحكام

العرفية، كانت المناسبة دينية ولكن متمردين معروفين كانوا مع الجموع، مما جعل القائد البريطانى يعتبر التجمع بأكمله عدائيًا، وكان هناك هجوم وحشى على سيدتين بريطانيتين قبل ذلك بيومين، ولذلك فإن البريطانيين كانوا يشعرون بالـذعر، أمـر الضابط البريطانى الجموع بالانصراف، دون أن يدرك أن حديقة "**جيلانويللا بـاه**" التى تجمعوا فيها هو مكان مفتوح محاط بالحوائط وليس له سوى منفذ واحد، يقول الضابط عن ذلك الموقف: "كان على أن أتخذ قرارًا فى خلال ثلاثين ثانية"(٦٨)، ثـم حدث إطلاق نار جماعى ١٥٠٠ طلقة قتلت ٣٧٩ فردًا من الهنود غير المـسلحين. عبر "**فورستر**" عن مشاعره بنهاية شهر مايو فى خطاب ساخر قام بإرسـاله إلـى جريدة "**ديلى هيرالد**" يقول فيه: "أوروبا تتضور جوعًا، وفى مصر يتم القبض على السكان بطريقة جماعية، وكذلك الأمر بالنسبة للهند، وفى روسيا يتم توظيف جنودنا فى مغامرات غير معروفة، وفى الداخل الأسعار ترتفع، والقلاقل تـزداد، وبيوتنـا مليئة بحطام الحرب، فهل نحن يائسون؟" (٦٩)

عصفت الاضطرابات بقلب "**فورستر**" عندما سمع بالأنباء التى وردت إليـه بأن "**محمد**" تم إرساله إلى السجن، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعلـم شـيئًا عـن الجريمة التى ارتكبها، فإنه خمن أنه ربما يتعلق الأمر بالانتفاضة التى حدثت فـى مارس والتى ربما غذت مشاعر العداء تجاه البريطانيين لديه، وارتبطت مـشاعره بمصر كما حدث بالنسبة للهند، بعد لحظات كان يحاول جاهدًا أن يـستأنف كتابـه "**طريق إلى الهند**"، والذى كان قد أُنجِز منه بالكاد سبعون صفحة فقط قبل الحـرب قبل أن ينحيه جانبًا، ولكن بنهاية شهر يونيو لم يستطع إكمال صفحتين أو ثـلاث، قال عن ذلك وهو يكتب إلى "**ساسون**" : "بينما أحاول كتابة روايتى، تنتابنى الرغبة فى الصراخ بصوت عال كالمجنون". (٧٠)

في غضون ذلك، استمر فورستر في تجهيز كتابـه "الإسـكندرية" اسـتعادة ذكريات قضاها في المدينة. يسترجع من ماضيه ذكرى أول مغامرة فـي مدينتـه الأصلية (عسى أن يرى ما يستطيع رؤيته، غير أنه أدرك أنه لم يتبق الكثيـر" (٧١) كما كتب في رسالته إلى مسعود)، وعاد بالذاكرة إلى ماضي الإسـكندرية، قاعـة الصلاة التي يرتفع سقفها على أعمدة أثرية، ويظهر تمثـال رأس الأسـد الإلهــة "سيخمت Skhmet" منحوتاً في الحائط، وقطعة حجرية عليها نقوش هيروغليفيـة، وضع مقلوبا ليتم استعماله كمقعد، من خلال ذاكرته يرى في الحي القـديم مـشهدا مثيرا في المساء، منظر ساحر رائع، ولعل أفضل وسيلة لتشبع عينيك مــن ســحر المنظر هو أن تهيم في المكان بلا هدف" (٧٢) ولكن بالنسبة لباقي شوارع المدينة فقد جعل طرق الترام هو المخطط الرئيسي لتنظيم دليله السياحي، ويلفت انتباه القــارئ للمسرح الروماني المتهالك إلى محطة الترام في الرمل، كانت هنالــك هــزة مــن البهجة وهو يقول "الآن نستقل الترام" (٧٣) وبينما شرع في رحلته مع الزمن أيقظت في نفسه عصر الحب القديم لمدينة الإسكندرية في عهد كليوباترا وما بعدها، وحتى الكنيسة الإنجيلية للقديس مارك، مبنى لا بأس به(٧٤)، إنها تداعيات تاريخية، أمــام اللافتات التي تؤرخ لذكرى المقاومة ضد "عرابي"، والأشجار تميل حانية في قلــب حديقة الكنيسة، حيث تأوي إليها أسراب من العصافير عند مغيب الشمس وزقزقتها التي تملأ الميدان بالبهجة والحياة.(٧٥) يستعيد ذكريات مضت منذ عــامين عنــدما كتب إلى فلورنس وهو جالس في شرفة نادي الخديوي عن الألفة والــسعادة التــي وجدهما مع محمد.

كان يمطر "لودولف" بالإلحاح طيلة هذا الوقت يطلب مساعدته، لقــد اســتلم منه خريطة رائعة لمعبد سيرابيوم(٧٦) كما طلب أعدادًا قديمة من جريدة "إيجيبشيان جازيت" التي تروي الأخبار المعتادة – اختر لي عددا مشوقا." (٧٧)

أما فى إنجلترا فالأخبار العادية تقل مساحتها فى الجرائد. فكتب إلى "لودولف" قائلا "إن الطبقة الاجتماعية التى ننتمى إليها أنا وأنت تتوارى وتنزلق فى هوة سحيقة... لم أعد أشعر بكثير من الأمور، غير أن قدرا معينا من الأشياء الثمينة، والسلوكيات التقليدية لثقافة بعينها سوف تندثر"، وبلا حماس سيعطى صوته لحزب العمل، لأنه "ولأسباب مغلوطة ينشد أشياءً صحيحة"ولكن وكأنه شعر بأن "هذه آخر وردة صغيرة من الحضارة التى فى طريقها للأفول".(٧٨)

جاءته أخبار من محمد أخيرا فى شهر نوفمبر تحملها له بعض الرسائل التى يتحدث فيها عما جرى. فخلال أحداث التمرد التى حدثت فى شهر مارس كان محمد وصديق له ينتهزان فرصة إضراب عمال السكة الحديد والنقص فى المواد الغذائية، فسافرا فى النيل إلى القاهرة واشتريا حمولة ملء قارب من الحبوب قاما بنقلها وحاولا بيعها فى شوارع المنصورة بأرباح طيبة" وكتب محمد يقول "كنت أفكر فى اللحظة التى كنت تقلب نظراتك فى وجهى، وكنت أبادرك بابتسامة" (٧٩) غير أن سفرهم فى خلال ذروة أعمال التمرد لفت انتباه اثنين من الجنود الأستراليين إليهما اللذين حاولا اختبار شكوكهما فعرضا عليهما شراء مسدس من مسدسات الجيش، أخذ الصديق فى مساومتهما لفترة بسيطة حتى أبعدهم محمد، ولكن بعد فترة وجيزة عاد الجنديان ومعهما أمر بالقبض عليه بتهمة محاولة شراء مسدس جيش. ومَثَل محمد وصديقه أمام محكمة عسكرية، واعترف صديقه بالتهمة وحكم عليهما بأربعة شهور أشغالاً شاقة، إلا أن محمدا الذى أنكر أى كلام عن مسدس، وقال إن الجنود هم الذين بادروه بالكلام حول البقشيش، قد حكم عليه بستة شهور أشغالاً شاقة بدلا من أربعة، وفى السجن ذاق المهانة، فحلقوا رأسه، واعتدوا عليه، وقدموا له طعاما لا يصلح للأكل حتى يموت من الجوع إذا لم يقم بدفع رشاوى إلى حراس السجن من مدخراته ليحضروا له طعاما من المنزل، قام بالاستئناف عن تهمته فى المحاكمة قائلاً: إنه كان يعرف مواطنًا إنجليزيًا قال له إن الإنجليز أناس عادلون وكان يصدقه، والآن قال لـ"فورستر" إنه يكره البريطانيين.

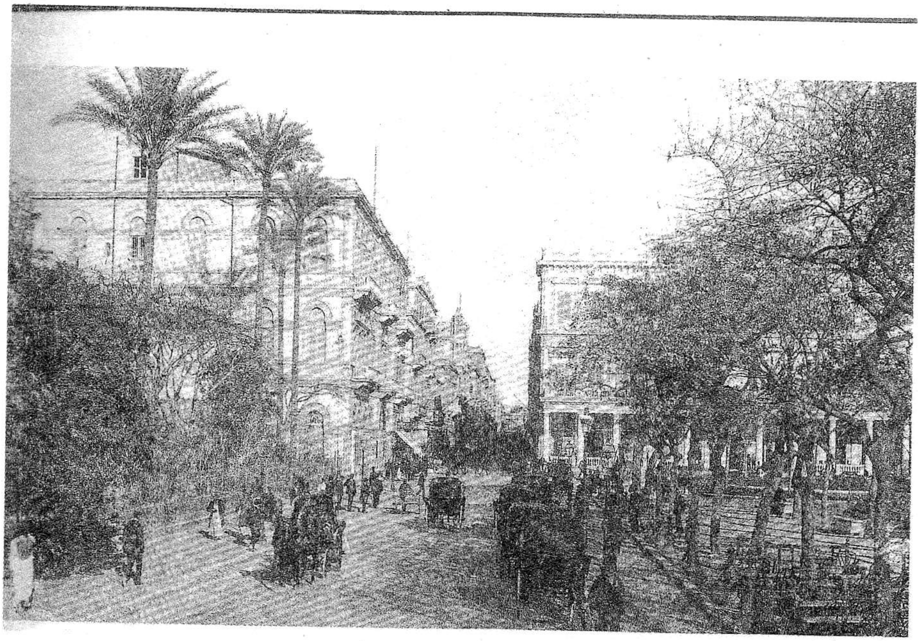

شارع شريف باشا. وهو الشارع التجارى فى الإسكندرية. وهنا ولد كفافيس، رغم أنه ولد قبل أن تشغله المحلات المختلفة. فى هذا الشارع أقيمت مؤسسة وايتهيد موريس، للنشر وهى التى نشرت الدليل السياحى الذى قام فورستر بتأليفه.

كان فورستر يترقب شيئا كهذا ولكن بعد شهور من الوقوع فى براثن نوبات عصبية والمزاج السيئ، والألم الذى كان يعانيه فى انتظار أنباء بعينها تحول إلى نوبات من الغضب، وكما اتضح له أن الضباط والسياسيين الذين قامت الحرب بتحويلهم إلى أناس متعجرفين ومستهترين هم الذين يديرون الإمبراطورية البريطانية الآن، أما محمد فقد رأى فيه مثالاً صارخًا لكل هؤلاء الذين عانوا الويلات من ظلمهم فى الهند ومصر، وكما شعر فورستر بأن هذه الحرب عندما اندلعت كانت بسببه، فإنه يشعر الآن بأنه شريك فى خطايا الإمبراطورية. ولكن أكثر ما كان يشعره بالقلق هو الحالة الصحية لمحمد، فقد كان يخشى كثيرا أن

تتدهور إلى حـــد كبير فى السجن، وقد اعترف لودولف، بدون أن يخبره بالـــسبب بأن صحته فى تلك الشهور كانت على غير ما يرام، وهـــو الآن يـــلازم الفـــراش بسبب الأنفلونزا، كما يسجل فى يومياته فى نهاية ذلك العام أنه أصبح حطامـــا"[٨٠] بسبب سجن محمد.

ولكن صمدت قدرته على الاحتمال بما يكفى بحيث استطاع فى مطلع شـــهر أكتوبر أن ينتهى من كتابه "**الإسكندرية**،" وعندما كان السيد مان فى زيارة لمدينـــة لندن التى تشهد إضراب عمال السكك الحديدية، ركب فورستر دراجته من منـــزل والدته فى "مدينة سوراي" وهو يشعر بالإثارة" [٨١] إلى "**تاور هيـــل**" حيـــث مقـــر المركز الرئيسى لدار "**وايتهد موريس**" حيث سلم مسودات الكتاب إلى السيد مـــان، وقد تسلم شيكا لحقوق التأليف مقدما. ولكن حديثهما معا جعل فورستر يشعر بعـــدم الارتياح حيث احتج مان بأن الصور والخريطة الكبيرة الملونة رغم أنهـــا نفيـــسة جدا، فإن تكلفتها ستكون عالية، ترك كل الصور بتردد شديد ولكنه ازداد قلقا مـــن أن الخرائط سيتم رسمها بشكل جيد وأن الكتاب سيتم طباعته بسرعة. كتـــب إلـــى لودولف فى اليوم العاشر من الشهر يقول له: إنه لا بد أن يزور مان عندما يعـــود للإسكندرية ويضغط عليه فى إعداد المسودات للطبع كما ألح عليه فى أن "بروفات الطباعة"للخرائط والنص يجب أن يتم إرسالها إليه وبسرعة."[٨٢]

وفى الحقيقة لم يكن فورستر قد انتهى من إعداد الكتاب فقـــد طلـــب مـــن لودولف بأن يبحث فى موضوع التوزيع الأشياء فى القاعة رقم ١٢ مـــن المتحـــف اليونانى الرومانى، حيث يتذكر أنه قد رأى رأس إلهة منحوتة من الرخام "شـــعرها جميل" (وهى عبارة بنص كلمات محمد على حد قول فورســـتر) وأيـــضا رأســـين للملكة "برينيس"إحداهما "بها ضفائر متقنة."[٨٣]

لقد تولت برينيس عرش مصر فى عهد بطليموس يورجيتس عام ٢٤٦ قبل الميلاد وقد كانت عروسا صغيرة، وقد خرج "بطليموس يورجيتس" بجيشه معلنا الحرب على سوريا. وحزنت على فراقه فنذرت للإلهة أفروديت فى معبدها القريب من "كانوبيس" أن تقدم لها خصلة من شعرها إن رجع الملك سالما، وقد عاد الملك ووفت برينيس بوعدها، غير أن كارثة قد وقعت فقد تم سرقة خصلة الشعر من المعبد، واستدعى القصر الملكى كل علماء الطب والفن المشهورين فى ذلك الوقت فى الإسكندرية وبلهفة غامرة اكتشف "كانون" وهو العالم الفلكى للقصر الملكى أن خصلة شعر الملكة أصبحت سبعة كواكب صغيرة قريبة من ذنب برج الأسد وبين مجموعة كواكب "أكتوريس" والدب الأكبر. أما كبير الشعراء كليماكوس **Callimachus** الذى كتب مرثيته حول الخصلة المسلوبة ورغم أنها كانت تتمتع بمسحة سماوية، فقد كان يفضل أن تبقى الخصلة على رأس الملكة برينيس ليتنشق أريجًا يفوح من شعرها ويستعيد ذكرى عطر كانت تتطيب به وهى عذراء". (٨٤)

والقصة مألوفة كما وصفها فورستر بأنها، "متعة الدراسة وبهجة الحب" (٨٥) تجمل عالم الإسكندرية، برغم أن الموضوع هو الشِّعر الذى حرك مشاعره وأثار غريزته. وتمضى القصة كفكرة رئيسية خلال كتابه "الإسكندرية: تاريخ و دليل إرشادي"، حيث تتشابك مع قصة أخرى وهذا هو جوهر الثبات فى جغرافيا الإسكندرية. اهتمام فورستر بالخرائط التى تؤكد هذا الموضوع، فالموانى والشوارع القديمة خُطّت عليها شوارع وموان حديثة، وإن لم يكن هناك ما نراه حاليا، فإن التخطيط والحدود الخارجية للمدينة مازالت تحددها الصخور الجيرية التى وضعت الإسكندرية بعيدا عن مصر، حيث تركز نظراتها على البحر وفى الليل تتألق كواكب شعر برينيس كما كانت تتألق من قبل وحينما حركت مشاعر كونون الفلكي". (٨٦)

كانت تلك مدينة الإسكندرية الخالدة كما رسمها فورستر، ووضعها بعيدا حتى لا تمتد إليها يد الزمان، غير أن تلك الكلمات قد صدرت فقط فى نهاية تاريخه، والذى ربما لم يكتبه بعد، أو ربما يغيره كثيرا فيما بعد، بعد سنتين ونصف السنة حينما عاد فى زيارة قصيرة إلى مصر وأجرى تعديلات نهائية على بياناته على الفراش الذى توفى عليه محمد.

أما خطابات محمد التى تحدث فيها عن سجنه فقد جاءت صعبة فى ذيل التقارير المنشورة فى صحيفة "**ذى إيجيبشيان جازيت**" والتى أرسلها لودولف عن المظاهرات الصاخبة فى مدينة الإسكندرية فى أكتوبر ١٩١٩ مع اقتراب وصول لجنة تقصى الحقائق والتحقيق برئاسة وزير المستعمرات البريطانى اللورد ميلنر، وبنود لجنة تقصى الحقائق هى التحقيق فى أسباب الاضطرابات التى وقعت أخيرا فى مصر وإعداد تقرير حول الوضع الراهن فى البلد وتشكيل الدستور، فى ظل حكومة وصاية، ستكون أفضل الحسابات المدروسة لتشجيع السلام والرفاهية، والتقدم لمؤسسات حكومية مستقلة وحماية المصالح الأجنبية."[٨٧] أما العبارة المهينة فكانت "تحت الوصاية" وهى إشارة إلى إبريل السابق إذ تحرر المصريون من وهم عبارات الرئيس ويلسون الرنانة حول تقرير المصير فى مؤتمر باريس للسلام عندما اعترفت الحكومة الأمريكية بالوصاية البريطانية على مصر.لم تكن لجنة ميلنر سوى مخطط استعمارى ولا أحد فى مصر، اللهم إلا من يمثل السلطان العثمانى ووزراءه، أما الإسكندرية فبها ممثلون عن المحاكم المختلطة، والغرف التجارية الأوربية كانت مستعدة لمقابلة أعضائها، والمقاطعة التى قادها حزب الوفد كانت مؤثرة تماما.

غضب فورستر عندما نشرت جريدة التايمز"سلسلة مقالات تقول فيها إن المصريين يجب أن ينالوا الحكم الذاتي- وكان أمرًا عجيبا أن يعلن ذلك أندرياس كاميرون، ثم جاء من بعده جيوفرى سميث القنصل البريطانى الأول فى الإسكندرية الذى أدلى بدلوه بخطاب ثورى يقول فيه: إنه من الأفضل تعيين سعد زغلول رئيسا للوزراء". بينما "التزم فورنيس العجوز الصمت". [٨٨]

كان فورستر يبحث فى مصر عن شخص يستطيع أن يكون وكيله فى مصر ويرسل له عونا ماليا ويقدمه إلى محمد، كتب فورستر إلى فلورنس "كان لودولف صديقا حميما، ولكنه لن يعى جيدًا أننى لا أستطيع أن أحدثه عن "محمد" فى حين أن تصرفات فورنيس تثير غضبى حينما أطلب منه خدمة لى، لا يوجد خط للتفاهم بيننا منذ أن شرحت له الموضوع فى أغسطس". سافرت عايدة بورتشجريفنيك مؤخرا إلى إنجلترا وسألت فورستر إن كان قد سمع شيئا من فورنيس حول الموضوع فقالت لا. مما يوحى بأنه يثق فيها، فلماذا لم يتخذها مؤتمنة على أسراره، لم يعرف سببا واضحا. وفى خضم هذا الإحباط طلب ليونارد وولف من فورستر أن يشترك فى إعداد كتيب لـ"قسم أبحاث العمالة" عن مصر، وقد وافق قائلا "إكراما لمحمد ولآلامه"(٨٩) – بين هذا وذاك فإن الموت يدنو هذه المرة من الطفل الرضيع ابن محمد واسمه مرجان.

أما بالنسبة للمذكرة، والمسماة "**الحكومة المصرية**" وقد اشترك فيها فورستر بكتابة الموجز التاريخى عن قصف الإسكندرية وهزيمة عرابى فقد كتب يقول فيها: "وهكذا ضاعت فترة تاريخية، فترة والتى إذا تم تناولها بعين العطف والود فقد كان يمكن أن تضع مصر على طريق الحرية الدستورية."أما بالنسبة للأحداث الأخيرة "فإن المصريين العقلاء المنشرحين يبدون – وخصوصا لشخص عرف الهنود عن قرب– شعبًا بسيطًا يحلو للمرء أن يعيش بينهم ومعهم"(٩٠) غير أن الاستعلاء البريطانى جعلهم ينفرون منهم، ولكن فورسترلا يستطيع أن يوصى بنفسه بالاستقلال، فضلا عن أنه بدا مهتمًا بالنضال فى إنجلترا واللجوء إلى أن يستبدل بالنظام الإمبراطورى نظامًا أبوى المعاملة رحيما يريح أكثر مما يتسم بالغموض، ولكنه تنازل للقبول بتفويض لعصبة الأمم. تم نشر المذكرة بمرور الوقت فى صيف عام ١٩٢٠، ومضت لجنة ميلنر إلى أبعد من المذكرة الخاصة بها معتبرة

أن استقلال مصر يجب أن يتم الاعتراف به، على الرغم من أن ذلك مقيد بواسطة معاهدة التحالف الإنجليزية-المصرية، والتى تنص على منح قاعدة عسكرية للقوات البريطانية على الأراضى المصرية فى مكان يتم الاتفاق عليه وذلك بهدف الدفاع عن البلد والاتصالات الإمبراطورية البريطانية (وهى المجال الجوى وقناة السويس) وكذلك السماح لبريطانيا بالقيام بإجراءات المراقبة والإشراف على الهيئات الإدارية والتشريعية لحماية أوضاع الأجانب، ولكن على مدار السنتين التاليتين تم إفساد محاولات بريطانيا لتأمين توقيع الاتفاقية بناء على مقترحات لجنة ميلنر عن طريق الانشقاق بين الحكومة المصرية والوطنيين، على الرغم من أنه كان يكفى هؤلاء الرجوع للبنود التى اقترحها سعد زغلول والتى تعود إلى عام ١٩١٨، وقد أصبح الوضع أكثر صعوبة بعد أن تم نفيه والانتفاضات الشعبية التى صاحبت ذلك. وراء مظهره الذى يمثل الاستقامة واستقامة الرأى كان يختفى الرجل الحزبى الذى يخاف من النقد الشديد حينما يتخلى عن شعاره "الاستقلال التام" وفى مقابلة غير رسمية مع صحفى مصرى تم سؤاله عن رأيه فى مقترحات ميلنر فأجاب قائلا: "أنا كمصرى، مندهش ومسرور، ولكن باعتبارى رئيسًا لحزب الوفد، فإننى أرى أن هذه التوصيات غير مقبولة ". (٩١)

بدأ فورستر فى الدخول إلى عالم السياسة فى نفس الوقت، فكان لذلك تشويش على رؤيته لمدينة الإسكندرية، فعندما كان يرى أن : "أنطونيوس" أفنى عمره فى الكتيب الذى وضعه عن المسألة المصرية"، لم يكن ذلك صحيحًا، فى حين كتب لودولف رافضا ذلك معتبرا أن أنطونيوس شخصية شريرة يختار الكلمة وموضعها ليتأكد أن فورستر لن يُسمح له بالعودة إلى مصر". وكتب فورستر إلى فلورنس فى شهر نوفمبر يقول: "إن أنطونيوس شخصية ذكية ولطيفة ولكنه مفطور على المكائد ويعلم يقينا أن وظيفته سواء كان رقيبًا على المطبوعات أو أى

شيء آخر، ستختفي في حال اختيار تقرير ميلنر- ناهيك عن مذكرتي! أما السوريون فكانوا يعيشون في مصر مثل الأرمن هناك فقط يعملون كأذناب للبريطانيين، فعندما نرحل يرحلون وبمهانة، أما لودولف- والذي كان يكرههم ويحب المصريين- فكان يحب تسليط الضوء على هذه النقطة تحديدا، أما أنا فلم أكن أعي هذه النقطة تماما، وكان يقول إنهم يعيشون على إلحاق الأذى بالآخرين، كما أنهم مسئولون عن تراجع شعبيتنا.. فإذا تم تمرير التقرير ووافق عليه البرلمان فإن (أنطونيوس) سيتم إلقاؤه كالقمامة إلى سوريا فلا يريد أن يكون مع الحمقى، لعنة الله على المسيحيين الشرقيين! لقد أدركت الآن لماذا كان الأتراك يقومون بذبحهم".(٩٢)

وفي الحقيقة إن الإسكندرية لم تعد تحتفظ بجاذبيتها القديمة لفورستر بسبب اهتمامه المتزايد بالسياسة. حتى تاريخه نفسه مرتبط بالنسيان، مرت سنة ونصف بين تقديم مسودات كتابه إلى السيد مان والخطاب الذي كتبه إلى كفافيس في يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢١ ويقول فيه: "بالنسبة لكتابي عن مدينة الإسكندرية، فقد فقدت اهتمامي بالموضوع فما زالت المسودات في شارع شريف باشا وستظل هناك حسبما أعتقد، فما فائدة أي مخطوطة؟ والأهم من ذلك كله ما أهمية شارع شريف؟ أتمنى في المرة التالية عندما تمشي في هذا الشارع، أن تسأل هذا السؤال بطريقتك الخاصة."لقد كتب فورستر هذا الخطاب على متن السفينة وهي تمخر عباب موج قناة السويس، وكلما اقتربت كنت أتمنى الوصول إلى شارع ليبسويس في الوقت الحالي"(٩٣). فقد كان متجها إلى الهند حيث تم تعيينه في وظيفة مؤقتة سكرتيرًا خصوصيًا لمهراجا هندي منطقة دواس بالهند، ثم كتب إلى محمد أنهما يجب أن يلتقيا في ميناء بورسعيد.

وما إن وصلت السفينة حتى شق محمد طريقه إلى متن السفينة وهو يرشو العاملين عليها بالسجائر الفاخرة والتى أحضرها خصيصا ليهديها إلى فورستر، كانت الليلة شديدة البرودة ولكن محمدا كان يرتدى معطفا فخما كان قد تركه له فورستر، كما كان يرتدى قفازا وكان يقوم بتدليك يديه وهو يقول "كيف حالك يا صديقى، كيف حالك؟" أما الحياة بالنسبة لمحمد فلم تكن على ما يرام، لقد فقد الكثير من وزنه، كما فقد عمله، وأشهر زوج أمه إفلاسه، وحيث إن السفينة كانت ستبقى لمدة أربع ساعات لتعبئتها بالفحم اتفقا على أن يتحدثا فقط فى الموضوعات التى تبعث على السعادة. وقد وصف فورستر ومحمد هذه الساعات بأنها كانت حلما جميلا، وبعد أن سارا سويا فى جولة لمشاهدة عظمة الدرجة الثانية فى السفينة وسفينة الملاحة الشرقيةP&O خرجا إلى الشاطئ واحتسيا بعض القهوة التركية، يكتب فورستر إلى فلورنس يقول: "أتركه يدفع الحساب دائما"، ومشيا إلى تمثال فرديناند ديليسبس كان التمثال منتصبا على الشاطئ نظر إلى أصابع قدميه، أما الأجزاء الأخرى من التمثال فقد ابتلعها الظلام، ثم واصلا المشى على طول شاطئ البحر، إلا أنهما عادا أدراجهما بسرعة"خشية أن يشتبه فيهما خفر السواحل بأنهما من موردى الحشيش" (٩٤) جلسا معا على الرمل. وفيما بعد فى رسالة كتبها فورستر إلى محمد يقول فيها: "فى تلك المرة الأخيرة كنت فى كامل فحولتك متعافيا قويا لم أرك منذ سنتين، أسعدتنى لمساتى لجسمك القوى، بادرتنى قائلا"أحمق. فقلت:"الكل يعانى من الحماقة وهذه حماقتى." (٩٥)

كما لو كان يصف رحلة من داخله فيصف لفلورنس "أن أمه كانت فى ذاكرتى دائمًا كلما كنت أصعد الدرج – فيما عدا الأوقات التى كان محمد خلالها يملأ خيالى، ولقد كان كذلك بلا توقف طوال الثلاثة الأيام الماضية!.. الآن نعبر قناة السويس وغدا أتمنى أن أستطيع التفكير فى الهند." (٩٦) فى إنجلترا ثمة إحساس

سائد مخيف كان ينتابنى بالحنين إلى الشرق" [٩٧] وطوال شهور وهو يتمزق أمام محاولات أمه فى أن تمنعه يقرأ كلمات رسالتها التى تركتها له عشية سفره والتى تقول: "يجب أن أحاول أن أكون أما شجاعة وأظل فى روح معنوية عالية وأنا أترقب عودتك" [٩٨]، وانطلق فى رحلته، ولم تكن نيته فى البحث عن إشباع شهواته الجسدية بالقليل (حيث لم يكن هناك رفيق له فى إنجلترا)، ولم تكن هذه المرة هروبا من الحرب ولكنها استراحة متأنية من الوطن والغوص فى الموقف المشحون سياسيا، غاندى وبمساندة الهندوس والمسلمين بدأ حملة العصيان المدنى على بريطانيا، وجاب أرجاء الهند يعرض القضية وبات الموضوع الأول هو المنافسة على السلطة.

حاول فورستر مساعدة المهراجا فى الحد من بذخه غير المسئول ولكن دون جدوى، لذا بدت خدمته بلا غاية يحققها ومضيعة للوقت، أما فى حياته الخاصة فكان إحساسه بالقوة لا الشفقة تزداد فى نفسه نحو الهنود. كشف فورستر للمهراجا هويته كرجل يمارس اللواط، وعلى الفور جلب له شابا جميل الوجه يسمى "كانيا" فقد كان يتخفى فى القصر باعتباره حلاقا، بينما يقيم فى سكن فورستر ويعمل على إشباع رغباته، وهذه كانت أول تجربة لفورستر فى ممارسة الجنس بشكل منتظم، فى السنة التالية راح فورستر يستعيد ذكرياته الخاصة ويقول عنها: "كان غلاما سعيدا معى وقد تحسنت حالتى الصحية تماما، ولكننى لم أستطع أن أصل إلى تبادل العواطف كما فى مصر لأنه يملك جسد وروح عبد"، الفشل فى الجمع بين شهوته وبين مثاليته بالشعور بالسيادة فى العلاقات الشخصية أصابت فورستر بالإحباط من الهندى وازاد غضبه عليه حيث كان يضربه ويتعمد إيذاءه". [٩٩]

وسواء تم إيقافه أو طرد السائق فقد كان "بليدا غبيا" (١٠٠) أو يجبر كانيا على الخضوع تلبية لرغباته الحسية، فقد اكتشف فورستر أن لديــه قــدرة علــى عــدم الاكتراث، حتى مع القسوة واستخدام القوة وعندها لا يهتم تماما". وكتب عن "كانيا" لم أحاول عقابه، فأنا أعرف أن نفسه الوضيعة عصية على التعافى. أحسست أنــه عبد بلا حقوق وأنا طاغية على من لا يعترض ولا يقاوم" (١٠١) فــى ينــاير عــام ١٩٢٢ نشر مقالا فى مجلة **Athenaeum** يتحدث فيه صراحة عن مرض "راج" مع الإشارة إلى الإنجليز الموجودين فى الهند باعتبارهم متعاونين مع النظام الذى يدعم قسوة وغلظة عربات السكك الحديدية" واختتم مقاله: "لم يحدث فى التاريخ قــط أن أسهمت الوقاحة بهذا القدر فى انحلال الإمبراطورية ".(١٠٢)

وقد أفضى بمآثره الجنسية إلى محمد الذى أجابه موبخا: ليس لدى ما أقوله فأنت سخيف جدا، وأنا حزين من هذا اللهو ولقد فهمت الآن لماذا تسمى كــل مــن يعارضك أناسًا أشرارًا ... إننى أترقب رؤيتك وألومك على أفعالك الشنيعة، أفعالك الحمقاء" (١٠٣) ولكن فورستر كان يترقب شيئا أكثر من مجرد اللوم والتوبيخ، كــان يحلم فعلا أن يفعل شيئا ما مع محمد كما كان يفعل مع كانيا: "لقد عاهــدت نفــسى عند عودتى إليك أن أجعلك تولجه من خلفى، مهما كان مؤلمــا ويقلــل احترامــك لي".(١٠٤)

فى حين أنه لم يستطع أن يكمل روايته، ولكن فى النهاية أرسل إليه وايتهيد موريس بروفة الطباعة لرواية الإسكندرية. ومرة أخرى كتب إلى محمد يطلب منه أن يقابله فى مدينة بورسعيد وفى يوم ١٤ يناير أبحر على جناح الشوق إلى مصر.

مر بالبحر الأحمر وعبر قناة السويس، وكتب إلى أمه يقول لها: "إن الجــو فى مصر رائع، درجة الحرارة والألوان فاتنة ومنعشة مقارنة بالهند فكــل شـــيء هناك قديم ومعقد، أما هنا فى مصر فإن الجوصباح مشرق، وصلنا إلى بورســعيد

قبل الموعد الأساسى بيوم ولا أعرف إن كان محمد، الذى وعدنى بمقابلتى، هل سينجح - وأضاف فورستر لأمه إن محمد صديق، "وإننى شغوف لرؤية شيء من المصريين، لذا لا أريد أن أقع فى شراك الإسكندرية وبلا استثناء! - عزيزى لودولف، يجب كذلك قضاء يومٍ أو يومين مع أيرين" (١٠٥) لم يرد ذكر كفافيس ولا يوجد أى دليل فى طوال الشهر الذى قضاه فى مصر وعشرة الأيام التى قضاها فى الإسكندرية، راح يتجول فى شارع ليبوس **Lepsius**. ومهما يكن فإن كفافيس يعنى بالنسبة له الثقافة، وهذه زيارة من زيارات الهوى.

هبط فورستر فى ميناء بورسعيد فى يوم ٢٣ يناير عام ١٩٢٣، كان فى انتظاره خطاب من محمد يخبره فيه عن تدهور صحته بسبب داء السل الذى داهمه قبل أسبوعين، وقد عاد على الفور إلى مدينة المنصورة، كتب فورستر إلى فلورنس يقول "رغم أنه كان يستعيد عافيته من هذا الداء العضال، فقد كنت على يقين بأنها كانت آخر مرة أرى فيها محمدًا، "إننى بخير ومازلت أحتفظ بتوازني". (١٠٦) سيعود لزيارة محمد وإن استطاع أن يصطحبه إلى الطبيب فى القاهرة، وربما يرافقه إلى حلوان، وهو منتجع صحى فى جنوب القاهرة، وبعد قضاء يومين فى المنصورة، عاد فورستر من رحلته من الدلتا إلى الإسكندرية.

شاع خبر وصوله إلى المدينة ووصل الخبر بسرعة إلى إيرين، وقد شهقت من السرور حينما رأته يمشى مع لودولف، وهو يقبل يديه، ويبتهل للسماء وتناديه بابنها، وبعد أيام وهما يجلسان مع عائلة لودولف فى حديقة المنزل فى جليم، مر عليهم فورنيس وعايدة بورشجريفينك انحنيا من على جواديهما وتبادلا التحية من وراء سور الحديقة، ولكن عندما طلب منه فورنيس أن يبقى معه بضعة أيام فى القاهرة، وطلبت عايدة أن يكون ضيفها أيضا، رفض الدعوتين. وبدأ فورستر يتحدث إلى لودولف عن محمد وقد شجعه تعاطفه إلى التفكير بأن يتخذه وكيلا

ليحول مبلغا شهريا يقدمه إلى محمد، إذ لو دفع المبلغ كاملا إلى محمد فقد يأخذه الأطباء مرة واحدة. وعلى أى حال إلى متى يبقى فى مصر. فقبل شهر توقفت المباحثات الإنجليزية- المصرية حول مقترحات لجنة ميلنر، وتم إبعاد سعد زغلول للمرة ثانية، ومرة أخرى كانت البلاد على شفا ثورة، وكتب إلى ديكينسون فى نهاية الشهر: "لا أستطيع أن أنظر فى وجه أى مصرى، لقد باتت عداوتهم واضحة للعيان، فهم يعترضون بشتى الطرق ويمكنهم عمل الكثير إن استطاعوا. هذا أمر كريه فى هذا البلد. أما الهند فهى على النقيض تماما، فهنالك لم نرتكب أخطاء كبيرة هناك".[١٠٧]

فى ذلك الوقت كان فورستر يراجع كتاب "الإسكندرية": شارع سيدى أبو العباس يؤدى إلى ميدان بنفس الاسم- وهو أهم مكان فى المدينة السكندرية، هنا وفى أضواء المساء، يشعر المرء أحيانا بأوهام الرومانسية الشرقية، (١٩٢٢) هنا مركز التجمع الوطنى للقيام بالمظاهرات".[١٠٨] لقد قرر أن يقوم برحلة أخرى إلى بحيرة مريوط لإضافته فى الدليل السياحى، هناك فى بحيرة مريوط حيث بدأت تتفتح براعم الورود ويصف المكان بأنه لم يكن موجودا عندما غادر الإسكندرية فى يناير ١٩١٩. وهذه برج العرب ليست تلك المنارة القديمة والتى كانت معروفة من قبل على حافة بين البحر المتوسط وبين البحيرة فى تبوزيريس، ولكنها مستوطنة أولية قريبة منها. قد تكون مخرجا من بعيد "بجوار برج مصنع السجاد الجديد"، حيث تعمل فيه أرامل البدويات من قبيلة السنوسية، واللواتى استشهد أزواجهن فى الحرب، وحول المصنع تكاثرت الأبنية لتمتد إلى المنطقة الشرقية من الصحراء الغربية: "لقد تم التخطيط لها وتنفيذها بذوق رفيع، والفضل فى ذلك يرجع أساسا إلى عبقرية القائد و.إى. جيننجز براملى.. وترتفع مبانٍ أخرى لتضم مدينة صغيرة محاطة بأسوار. إنه مشهد رائع ومثير أن ترى بعض الأعمال الإبداعية المعاصرة قائمة فى تلك الأماكن."[١٠٩]

أما فورستر فإنه يدين بالفضل فى مقدمته عن برج العرب إلـى لودولـف، والذى عرف براملى من خلال السيدة آن برنت **Ann Brunt** التـى كانـت تـسكن بجواره فى القاهرة فى أعوام ١٨٩٠، حيث كان القصر السابق للخديوى إسـماعيل فى الجيزة قام براملى بتأسيس المدينة المشهورة بحديقة الحيوان.

ربما نالت برج العرب إعجاب فورستر لأنها كانت تتحدث عكس مخاوفـه، فالمشاهد الطبيعية للمريوطية والتى أحبها يوما ما سوف تطمسها الأيام كما كتـب فى "المكان المهجور"تغطيه أسلاك شائكة وعلب صفيح صدئة. ولم يقتصر حماسه، على هذا الدليل، بل بدا الأمر بالنسبة لفورستر كأنه "ميلاد فـى الـصحراء"وهـو عنوان لمقال كتبه فى صحيفة **Athenaeum** الصادرة فـى نـوفمبر ١٩٢٤ كتـب يقول: "فى التناسق والانسجام بين المكان وسكانه تشهد بزوغ تلك المبانى الغامضة والفظة والتى تراها من مسافة أميال،.. هل البدو هم الذين شـيدوا تلـك المبـانى المحيرة؟ مستحيل. فالبدو لا يقيمون مبانى، وإن شيدوا مبانى فهل سيقيمون مبـانى كهذه. من الواضح أن شيئا ما قد حدث، لا بد أن يكون تأثيرا ما قد مر على هـذه الصحارى وتحركت للتسابق القدرات المعمارية الكامنة. (١١٠)

فى يوم ٦ فبراير كان فورستر مع محمد فى القاهرة يراجعان أشهر طبيـب فى المدينة، وقد شخص حالة محمد بأنه يعانى من سل رئوى ثم ذكر الطبيـب أن حالة محمد متأخرة ولا أمل فى شفائها، ذهبا إلى مدينة حلوان وجلسا معا فى غرفة بفندق لمدة خمسة أيام، وهنـاك اسـتمر فـى تـصحيح بروفـة طباعـة كتابـه "الإسكندرية"بينما يقوم ببعض التعديلات، كان يقوم بتدليك محمد الذى كـان أثنـاء ذلك يفكر فى النساء، ففكر فى إحضار جميلة إلى حلوان فى نهاية الأسبوع أسكنها هى ومحمد فى منزل الضيوف وراح يشجع محمد على أن يمارس الحـب معهـا وقال له: ربما الممارسة تضرك ولكنك تجنى منها سعادة فائقة". (١١١)

فى اليوم العشرين أبحر فورستر إلى إنجلترا ومن على متن السفينة كتب إلى فلورانس يصف لها مشهد فراقهما: لقد ودعنى فى القاهرة.. جلس بجوارى فى عربة القطار وقال لى "إنى أحبك ولا أجد شيئا آخر أقوله"وتلك كانت عين الحقيقة". (١١٢)

بعد ثمانية أيام، وبينما فورستر مازال فى البحر، أعلنت إنجلترا أنها منحت مصر الاستقلال، لكنها تحفظت على أربع نقاط ليتم الاتفاق، والنقاط الأربع هى: تأمين الاتصال بالإمبراطورية البريطانية فى مصر، والدفاع عن مصر ضد العدوان أو التدخل الأجنبى المباشر أو غير المباشر، وحماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات واستمرار نفوذ بريطانيا على السودان.

عاد فورستر إلى بريطانيا وكتب أو أعاد كتابة التعديل الأخير من خاتمة كتابه عن تاريخ الإسكندرية. "لقد انفصل الارتباط عن الماضى بطريقة وحشية- فعلى سبيل المثال تم تغيير اسم شارع رشيد (إلى شارع فؤاد الأول: وفى الأول من مارس سنة ١٩٢٢ تم تغيير لقب السلطان فؤاد إلى "الملك فؤاد") و"السوق المغطى **Covered Bazaar**" التحفة المعمارية الساحرة القريب من شارع فرنسا تم تدميره تماما.. أما المناخ والرياح الشمالية والبحر فظلت هى الوحيدة الباقية بلا تعديل أو تغيير منذ عهد مينيلوس **Menelaus** وهو أول زائر حل برأس التين منذ ثلاثة آلاف سنة "وهذا مرجع للكتاب الرابع من الأوديسا **The Odyssey** فهى إشارة إلى كفافيس الذى حضر من أجله فورستر ليرى شتات اليونانيين، وهذا الشتات بفعل قوة قاهرة: "فمن الناحية السياسية، فإن الإسكندرية حاليا أكثر ارتباطا وتواصلا مع بقية مصر أكثر من أى وقت مضى، غير أن العناصر الأجنبية القديمة فيها مازالت باقية، أما الآثار اليونانية والتى لها الفضل الكبير على الحضارة الحديثة فمازالت موجودة بها".(١١٣) فيما عدا بعض الإشارات، كان فورستر لا يتحدث عن محمد،

ولكن من خلاله وجد نفسه فى موقف استخفاف لبريطانيا: كان كفافيس درسا تاريخيا إلا أن محمدًا كان محركا عاطفيا. أما دوريل وهو مولود فى الهند، فقد كتب خطابًا فيما بعد يقارن فيه حياته وتجربته فى الإسكندرية بحياة وتجربة فورستر "من حسن حظى أننى بلا جذور أو ميراث استعمارى. ومن اللافت للنظر أن فورستر الذى كان من أصول إنجليزية عريقة، يجب أن يستجيب لمنفاه بطريقة إيجابية، يغرس جذورا جديدة فى هذه التربة الغريبة".[١١٤] فى الحقيقة لقد حدث شيء مختلف تماما لفورستر فى أثناء حياته التى قضاها فى الإسكندرية، وهى كما شرحها بعد ذلك بسنوات بقوله: "لا أشعر بانتماء لأى مكان، وأتمنى أن أكون منتميا. فلست منفصلا عن جذورى. غير أن الأرض هى التى انسحبت من تحتي".[١١٥]

أما بالنسبة لأصدقائه فى إنجلترا، ففى كتابه "ممر إلى الهند" يعود فورستر إلى الهند وكأنه عود فاشل، وتتذكر فيرجينيا وولف أنه كان "محبطا وعلى شفا العجز التام". فقد كانت تعتقد أنه إذا خرج فلن يعود، "سيصبح لغزا غامضا، يجلس على قارعة الطريق وينسى أوروبا"[١١٦]، ولكنه عاد إلى ويبريدج **Weybridge** عاد إلى المنزل القميء البعيد عن المحطة لمسافة ميل، عاد إلى ذات الأم العجوز الصعبة.."حدثهم عن الهند وعن التجديف فى بحيرة دواس، حدثهم عن العصافير المحلقة فى القصر الملكى، ولكن عقله كان مع محمد فى المنصورة. تسلم خطابه: "أعتقد أننا سنلتقى ثانية إن لم نلتق هنا فى عالمنا هذا فسنلتقى فى الجنة".[١١٧] كتب محمد خطابه فى مارس. ولم ينتظر فورستر محمدا أن يصل إلى هناك، لقد لجأ إلى كتابة يومياته، "أريده أن يقول لى إنه قد مات، ويطلق عنانى لأتخيل صورته أمامى. فى تلك الأيام كان حبى الكبير يمنع مشاعرى من الاعتراف بأنه كان يمثل حقيقة" ثم حاول أن يبرئ نفسه من الذنب: عاقد العزم فى حياتى على شيء واحد هو النجاح وأخفيت عن نفسى وعن الآخرين: فتور محمد، أما عواطفه

فكانت مضطربة أحيانا إما بسبب الأدب أو العاطفة أو إقراره بالفضل منى، ووفاته المنتظرة لن توجعني". (١١٨)

فى يوم ٨ مايو كتب فورستر إلى ديكنسون مبررًا ذلك بأنه سئم من الرواية الهندية، حتى إنه بصق على الورق بدلا من تصحيحه وتعديله، "لقد سئمت، ليس بسبب عجزى الإبداعى وحسب، ولكن سئمت من القواعد الشكلية لكتابة الرواية: فمثلا : الاصطلاح يجب أن يلتزم به فى عقل إحدى الشخصيات، ويردد ما يقوله الآخرون، "ربما يظنون أو فى كل الأحداث يتبنون وجهة النظر الحالية فقط، فإن تظاهرت بأن تتماشى مع أفكار إحدى الشخصيات، فلماذا التظاهر لتلك الشخصية؟ فإننى أعرف السبب. إنها أوهام الحياة الفانية، المبدع الكاتب يتحلل إلى شخصية استعراضية، ولكن لابد من عمل بعض التعديلات من هذا النوع". (١١٩) لقد كان يقرأ أعمال بروست وهو فى رحلته عائدا من مصر ولا بد أن يكون قد فكر فى محاولته الكاملة فى مهرجان الإسكندرية، وكيف اخترع تاريخه ودليله حتى خلط الزمن- كيف استطاع - مثل كفافيس - أن يبرع فى التغلب على أسباب القمع الشخصى لعالمه.

وبعد بضعة أيام تسلم خطابًا آخر من محمد، أولا الخطاب مؤرخ بتاريخ ٦ مايو :

عزيزى مورجان:

أرسل إليك صورتى

صحتى سيئة جدا

لا أجد ما أقوله

عائلتى بخير. تحياتى للوالدة

حبى لك

حبى لك

حبى لك

لا تنس صديقك أبدا

محمد العدل(١٢٠)

ثم تسلم خطابًا آخر بعد يومين:

عزيزى مورجان:

استلمت اليوم النقود التى أرسلتها، شكرا جزيلا لك.

إن حالتى متدهورة جدا ولا أستطيع القيام والوقوف

إنى هزيل جدا

كيف حالك اليوم

حبى وتقديرى لك

حبى لك(١٢١)

تسلم فورستر تلك الخطابات، بمرور الوقت، كان محمد قد توفى، وتلقى فورستر تأكيدا على وفاته فى ١٧ مايو من خطاب استلمه من شقيق محمد بأن محمدا قد أورثه خاتم فورستر وما إن أخذه حتى وضعه فى إصبعه مرة واحدة فى اليوم. كان ذلك فى لحظاته الخاصة، أما فى الأوقات الأخرى فكان يقوم بجولات

فى لندن يجلس مع عائلة وولف، أو يذهب إلى أكسفوردشاير ليجلس مع ستارتشى أو يقوم بنزهة قصيرة بالقرب من قرية جاريسنجتون مانور، حيث تعيش الليدى أوتولاين موريل ويتمتع بالمشهد الرائع للندوات الأدبية والفنية لطليعة الأدباء فى آخر يوم أحد من الشهر. هنا التقى اللورد ديفيد سيسل، وهو الذى أصبح فيما بعد مؤلف السيرة الذاتية الرقيقة والرائعة للورد ميلبورن، "شاب جامعى ذكى جدا ومهذب. التقينا على نحو طيب ووعدنى بأن يأتى فى الأحد التالى للمزيد من الحوار والنقاش. ثم تحولت عنى الليدى "أو O" إلى شاب جامعى آخر، لم يكن سليل عائلة نبيلة أو لطيفًا مثل اللورد ولكنه كان يهوديًا من الإسكندرية يعرف كفافيس". (١٢٢) وهذه الإشارة غير الضرورية إلى والدته أظهرت سخطًا يمضى إلى أبعد من مجرد انطباعات عن مواجهة بسيطة، جان دى ميناسى يعرف كفافيس بعيدا عن فورستر وقد هيأتها لتشجيع عمل الشاعر بينما هو فى أكسفورد، ينشر بناء على موافقة كفافيس أربعًا من ترجمات **Valassopoulos** فى مجلة أكسفورد **Oxford outlook** فى عام ١٩٢٤. ربما أحس فورستر بالتعدى على كفافيس شخصيا فى ذلك المساء فى جاريسنجتون، وعلى أى حال فى خلال الأسابيع القليلة التالية راح يجدد حملته حتى يطبع أشعار كفافيس مع ترجماتها **Valassopoulos**.

فى كتابه "الإسكندرية: تاريخ ودليل سياحي"وضع فورستر قصيدة كفافيس "الله يتخلى عن أنطونيو **The God Abandons Antony** اعتبرها تقديما للشاعر الذى يجسد ماضى المدينة وحاضرها. ولكن رغم الملاحظات النقدية اللاذعة(١٢٣) للسيد مان فلم تكن هناك إشارة على أن الكتاب يبزغ من قريحة وايتهيد موريس. واتفق أيضا مع ليونارد وولف بأن مطبعة هوجارث برس **Hogarth Press** يجب أن تطبع كتاب **Pharos and Pharillon** وهى مجموعة من اثنى عشر مقالا عن "الإسكندرية" (وتم تجميعها أو تم تغيير القالب فيها) مع بعض المقطوعات الإضافية

من بينها "مقالات عن "شعر سى. بى. كفافيس" والتى تمنى أن تترك انطباعا أكبر هنا أكثر مما ظهرت فى كتابه Athenaeum الصادر فى عام ١٩١٩.

وقد كتب فورستر إهداءه باللغة اليونانية إلى هيرميس سايكوبومبوس Hermes Psychopompous، إشارة مبطنة بذكاء وأسى إلى محمد "محصل الترام"، أما كلمة سايكوبومبوس فهى تعنى باللغة اليونانية "محصل الأرواح" وهى مهمة يشترك فيها مع الإله هيرميس. كان هذا أمام الناس كما كان يحب أن يذكر محمدًا. ولكن فى لحظاته الخاصة "فإن هيرميس كان مفعما بأفكاره: لقد كان الإله مقرونًا بالخصوبة والإنجاب كما كان أحيانا يرمز للانتصاب.

فى يوليه كتب فورستر إلى لودولف يقول له : "مازلت أكتب روايتى الهندية القديمة(لا تخبر أحدا بذلك؛ فأنا أحب السرية)(١٢٤) وفى الخامس من الشهر التالى بدأ بسر أكبر مازالت رسالته إلى محمد بين يديه كتب يقول: "فى هذه الليلة يجب أن أكتب بلغة حسية شهوانية، حتى لو اضطررت لتمزيق صفحات الخطاب فيما بعد. لقد كنت دائما متيما بك"، ثم واصل الكتابة إلى محمد فى نوفمبر، يقول: "محمد حاولت أن أجعل ذلك حقيقة إلا أن كلماتى تعترض السبيل، وأنت تضعف أمام أشياء مريعة، فى هذه المرة... موات ستة شهور، لا أهتم، ولكنى أخشى أن تصبح سرابا، وهكذا فإن كل كلامنا وليالينا التى قضيناها معا على فراش واحد يبدو أنها كانت لأناس آخرين... حبيبى الغالى، أود أن تكون تلك الذكريات منك أنت، وليست فسادا منى. لا أود أهذر على الحب المثالى، فقط لأكتب إليك وكأنك حقيقة. لذا فإننى أحاول أن أفكر فى حال تحلل جسدك فى القبر. إنها حقيقة ومعاصرة معى، وتعيدنى إلى حقيقتك".(١٢٥)

طوال الثلاث السنوات الماضية شاهدا معا المغـامرة اليونانيــة فــى آسـيا الصغرى التى نقلتها إلى نهايتها المحتومة. فى مايو ١٩١٩، عندما جعــل الجـيش اليونانى انتصار هبوطه فى سميرنا Smyrna وتحت الحماية البريطانيــة ومــدافع البحرية الأمريكية، كان مئات الآلاف من اليونانيين وعلى فترات متقطعــة تحـت تهديد السلاح لمدة سبع سنوات، منذ بدء حرب البلقان فى عام ١٩١٢. وفى حقــول المزارعين، وثروات عائلاتهم، بما فى ذلك المواد الـضرورية للمعيـشة كـادت تنضب بسبب غياب أزواجهن وأبنائهن، وثمة شعور متزايد لتسريح المقاتلين، وقــد نجح مؤيدو الحكم الملكى فى الاستفادة من هــذا الـشعور العــام فــى انتخابــات نوفمبر ١٩٢٠. وعند هزيمة فينزيلوس Venizelos ســحب البريطــانيون دعمهــم المالى، ولكن الملكيين، بدلا من التسريح كما تعهدوا من قبــل، أو حتــى تمركــز جيشهم حول سميرنا، كانوا مخدوعين بشكل خطير بالقضية المقدسة وأمروا بهجوم شامل. وكان نتيجتها إثارة غضب الأتراك واشتراكهم فى الحرب.

فى أغسطس ١٩٢١ تقدمت القوات اليونانية باتجاه الشرق نحو أنقرة، إلا أن الانقسامات السياسية أضعفت معنويات الضباط وخطوط الجيش الممتــدة ورجالــه غير المجهزين الذين توقفوا بعد اثنين وعشرين يوما من القتال الدامى على ضفاف نهر سانجريوس Sangarios ضد الجيش التركى الذى أعاد تنظيمه مصطفى كمال (والذى عرف فيما بعد بكمال أتــاتورك) والمنتــصر جــاليبولى Gallipoli. فــى أغسطس من العام التالى استمر الأتراك فى عدوانهم وقد حشدوا قدراتهم اســتجابة لنداء كمال أتاتورك "إلى البحر المتوسط!" وفى غضون أسبوعين طردوا اليونانيين، فقد التحم الجيش والشعب فى سميرنا. وفى مساء ١٣ سبتمبر ١٩٢٢، كانت المدينة تحترق وقد هرب منها نحو نصف مليون لاجئ يعبرون بحر إيجه Aegean بينمــا لم يستطع عشرات الآلاف الفرار وواجهوا الموت إما فى النار أو فــى المذبحــة.

وهكذا انتهت الفكرة العظيمة وانتهت معها ثلاثة آلاف سنة من الحضارة الهيلينية في آسيا الصغرى.

ذكر كفافيس لصديق أنه قد تأثر كثيرا بالحرب فى البلقان (١٩١٢-١٩١٣) عندما استعادت الدولة اليونانية أراضى الهيلينية القديمة من إيبروس Epirus ومقدونيا Macedonia ومن المدن تسالونيكي Thessaloniki (وهى مسقط رأس كمال أتاتورك) ومدينة كيفالا Kavalla (مسقط رأس محمد علي)، ولكن إلى أى جانب اتجه، فعندما انقسمت اليونان بين قوتى معسكر الملكيين ومعسكر فينزيلست Veniselist غير المعروف، وأمام كارثة سميرنا كان صامتا، فيما عدا أصوات الكتاب اليونانيين الذين يقصدون أنهم فقدوا سوقا لترويج مؤلفاتهم.

ولكن فى فبراير ١٩٢٢ كتب كفافيس ونشر قصيدة "أولئك الذى قاتلوا من أجل عصبة الأخيون Achaean، والمقاطع الأخيرة منها مفعمة بالمرارة والمفارقة المزدوجة :

أيها الشجعان الذين قاتلوا وقتلوا بشرف

لا تخافوا من أولئك الذين يظفرون بكل معركة

لا تثريب عليكم إن أخطأ دايايوس وكريتولاوس

فحينما يتباهى اليونانيون، يقولون

إنهم رجال من نسل شعبنا

هكذا يكون ثناؤهم

كتبه أخيون فى الإسكندرية

خلال السنة السابعة من عهد بطليموس لاثيروس.(١٢٦)

وعصبة الأخيون، والتى ينتزعمها الجنرالات الجائرة دايايوس وكريتولاوس، هزمتها القوات الرومانية فى عام ١٤٦ قبل الميلاد، وحينئذ ضاع استقلال اليونان. أخيان، ربما كان محاربا قديما فى معركة، يستعيد ذلك اليوم ولكنه أيضا يتطلع للمستقبل الواعد. كتب السطور فى الإسكندرية وتاريخها بالطريقة التقليدية. غير أن لاثيروس **Lathyros**، أيضا تحول ليكون جائرا: بعد نحو سنة أو سنتين بعد الذكرى السابعة لحكمه أجبرته الصراعات الأسرية على أن يهرب من الإسكندرية، بعيدا عن حصن ضد قوة روما عبر البحر، وقد اقترض نقودا من الرومان ليستعيد عرشه، ويقرب اليوم الذى يمكن بطالمة مصر من استعادة حكمهم.

وهناك الذين رأوا تشابها مباشرا بين القصيدة وإخطار الكارثة فى أسيا الصغرى، قال عنها كفافيس بغضب وسخط شديد: إن قصيدته تصف البعد الداخلى، وذاكرتهم الحقيقية، ومشاعرهم وتداعياتها، وقضية أى لحظة ليست مرتبطة بالبعد المحلى ولكنها مرتبطة ببعدها العالمى الشامل. وبالمثل فهذا لا يعنى أن بيئة عصر كفافيس لم يُضمِّنها قصيدته التاريخية، ولكن يجب أن يدقق المرء فى الوطن أكثر من سميرنا، وخصوصا حينما يكون منهمكا فى جعل مدينة الإسكندرية عاصمة عالمية وأنه نفسه رئيسها العبقرى. إنه أمر ممتع، على سبيل المثال، لو أن أخيان حضر إلى الإسكندرية بعد هزيمة الرابطة، إذن ففى السنة السابعة من حكم لاثيروس يكون قد عاش فى المدينة نحو سبع وثلاثين عاما، كما عاد كفافيس إلى الإسكندرية فى عام ١٨٨٥، بعد قصفها: وفى عام ١٩٢٢ كان يستعيد ذكريات سبع وثلاثين سنة عاشها فى المدينة، وربما رأى أن مصير سميرنا يشبه المصير الحتمى لمدينة الإسكندرية.

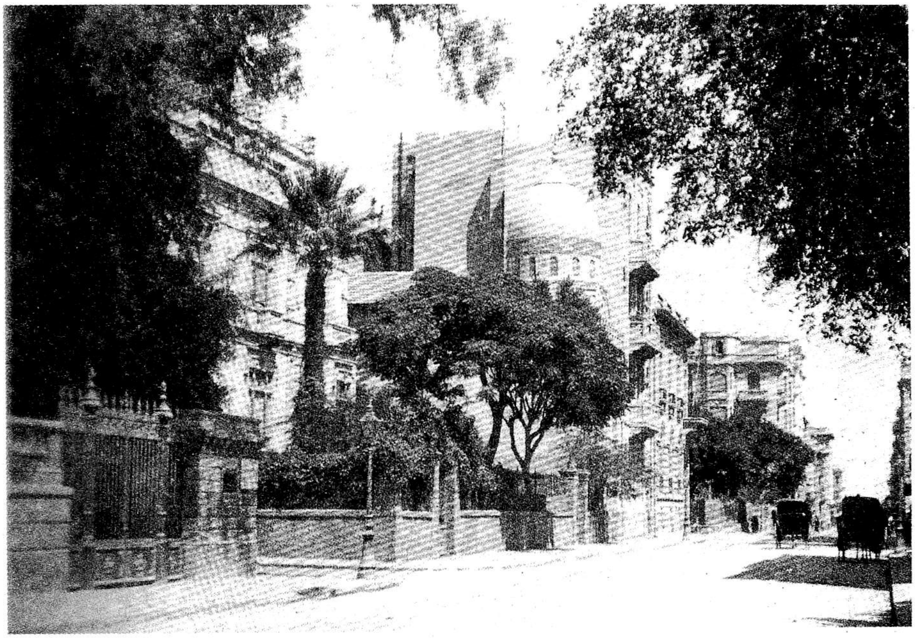

شارع فؤاد. الحرب العالمية الأولى – فى مطلع العشرينيات. شارع رشـيد أو شارع فؤاد كما أصبح فى عام ١٩٢٢، أعقبه طريق كانوبى ولكنه كان أضـيق من الطريق القديم.

لم يكن كفافيس ينظر إلى سميرنا، بقدر ما كان يرى فى مدينــة الإسـكندرية أن الجاليات الأجنبية بدأت حياتها فيها محصنة كما كانت فى عـام ١٨٨٢، ولكـن البريطانيين حاليا، لم يُحضروا بنادقهم ليشهروها، فقد بدا الأمر مختلفا هـذه المـرة تماما. ومثل كل الأجانب الآخرين، كان محمد على هو الذى دعا اليونانيين للإقامـة فى مصر، وقد استفادوا من حماية الامتيازات والمصالح الأجنبية" (١٢٧) التى كانـت أساس القانون الدولى. ولكن فى مؤتمر باريس للسلام الذى عقد فـى عـام ١٩١٩ اعترضت بريطانيا باعتبار مصر شأنًا داخليًا، ومن ثم ازداد الاهتمـام البريطـانى على اعتبار أن الامتيازات الأجنبية تتعرض لمضايقات سياسـية ومـن الناحيـة الأخلاقية يصعب الدفاع عنها، وأضف إلى ذلك، طالما بقيت الامتيازات الأجنبيـة،

فإن العنصر الأجنبى فى البلد قد ينشغل بالحصانة فى مؤامرات مناوئة للبريطانيين. أما الوطنيون المصريون فهم مترددون: كانوا معارضين للأجانب أكثر من معارضتهم للوجود البريطانى، كما لم يكونوا متلهفين على إلغاء الامتيازات الوطنية إن كان ذلك يعنى أن لبريطانيا الحق فى تقوية نفسها، كما اقترح ميلنر، المسئول عن الجاليات الأجنبية. فلم يكن البريطانيون أحرارا فى إلغاء الامتيازات، ضمن القانون الدولى واعتبروا ذلك أمرًا يخضع للتفاوض والاتفاق بين كل قوى الامتيازات الوطنية، والأمريكان والإيطاليون وفرنسا على وجه الخصوص، فى سعى حثيث على متابعة مصالحهم، لم يريدوا رؤية القوى البريطانية تزداد.

أما الحكومة اليونانية تحت رئاسة فينيزولوس، فقد اتخذت رأيا مخالفا، ومع ذلك فقد تورطت بطموحاتها واستقلالها فى أسيا الصغرى واعتمدت على المساعدات البريطانية، وفى سبتمبر ١٩٢٠ وافقت من حيث المبدأ على تسليم حقوق امتيازاتها على مثل هذه الشروط وفى ذلك الوقت كما يقرر البريطانيون. ولكن بعد شهرين من خروج فينيزيلوس من الحكم سحبت بريطانيا دعمها المالى لليونان فى مغامرتها فى أسيا الصغرى وكان ذلك نذير شؤم لمستقبل الجالية اليونانية فى مصر وفعلا تحققت مخاوف اليونانيين فى الإسكندرية فى مايو ١٩٢١ عندما اندلعت المظاهرات الوطنية واستمرت ثلاثة أيام.

اندلعت الاضطرابات فى ضاحية حماميل **Hamamil**، وهى نفس الضاحية المجاورة التى يعيش فيها المصريون وفقراء الأوربيين جنوب ميدان محمد على فى طول شارع الراهبات **Rue de Soeurs** هناك حيث بدأت أحداث عام ١٨٨٢. فى ذلك الوقت لم يكن للبريطانيين رغبة فى التدخل فى البداية، ولكن عندما أرسلت قوة مؤلفة من ثلاث عربات مدرعة وثلاثمائة رجل- كثير منهم من موظفى المطبخ- وبمرور الوقت، استصدروا أمرا، نحو ثلاثة وأربعين مصريا، واثنى عشر يونانيا وثلاثة

أوربيين آخرين قتلوا وكثير منهم جرح، ومائة محل، تسعين منها يمتلكها يونانيون، تـم نهبها أو حرقها فصدرت صحيفة تاكيدروموس **Tachidromos** اليومية بالعنوان التالي: "فوضى وذعر في الإسكندرية- ذبح الضحايا"

كان كفافيس يطالع الجريدة فقلب الصفحات إلى المقال الافتتاحي:

"لم تعد قضية ضحايا لثورة الجماهير المفاجئة، لننساها مع مرور الـزمن مثل ضحايا الكوارث الطبيعية. وليست قضية تلف مواد يتم التعويض عنها، إنمـا هى قضية استمرار وجود الأوربيين فى هذا البلد التى تعرضت لمشاعر جامحـة، وغرائز السلب والنهب من السكان المحليين، مستعدين للتمرد الفورى لأى فرصـة غوغائية أو عند أول إشارة من أولئك الموجودين فى السلطة. أمس فقدنا مـا هـو أغلى من دماء أصدقائنا اليونانيين وأغلى من ممتلكات تجارنا المتـضررين، لقـد فقدنا إيماننا فى المسمى (المصري) وفقدنا إيماننا فى السلطات الحقيقية (البريطانية) وفى تأكيدات حسن الضيافة التى يقدمها لنا السياسيون والوجهاء..

لم يكن للحكومة القدرة، حتى وإن كان لديها الرغبة فى حمايتنا، إن سـلطة (بريطانيا) التى تحمى هذا البلد، تقف متفرجة وتجيز للحكومة بأن تعترف بعجزها فى الحفاظ على النظام لكى تتدخل وتحمى ذات المصالح التى تتذرع بحمايتها عنـد احتلال مصر فى المقام الأول!(١٢٨)

قام "**مايكل سالفاجوس**" رئيس الجالية اليونانية فى الإسكندرية بعد أيام قليلـة من تلك القلاقل بالكتابة إلى "**أللنبي**" يشكره فيها على قيام قواته بالتدخل وإنقاذ حياة الآلاف ويعبر فيها عن الأمل فى أن تظل قوات جلالتها الحصن الحـصين لحيـاة المواطنين الأجانب وممتلكاتهم فى المستقبل،(١٢٩) وهو الأمل الذى لم يكن يـشاطره فيه على نطاق واسع الكثير من اليونانيين.

وقعت هذه الأحداث بمجرد أن قام "**فينزيلوس**" بتفويض قضيته لبريطانيا، وشغلت هذه القضية أجواء الإسكندرية كثيرًا، بينما كتب "**كفافيس**" عن "**بطليموس التاسع**". تحرك "**كفافيس**" بسرعة غير معتادة وكتب بصراحة في اليومين الأولين من شهر فبراير ١٩٢٢ يقول: "هؤلاء هم الذين قاتلوا من أجل وحدة الأخيون"، أعلنت بريطانيا علانية ومن طرف واحد انتهاء الحماية البريطانية في يوم ٢٨ فبراير، ولكن "**اللنبي**" كان قد قرر التوصية باتباع هذا المنهج، وهدد بتقديم استقالته إذا لم يتم تبني هذا المنهج، قال "**جرافتي سميث**": "كان تفكيره معروفًا للكثيرين"، [١٣٠] ونظرًا لعلاقة "**كفافيس**" الوثيقة بالكثيرين فمن المحتمل جدًا أنه كان من بين هؤلاء الذين يعرفون ذلك الأمر قبل إعلانه للعامة. كان اليونانيون وهم أكبر الجاليات الأجنبية في مصر قد وضعوا أمنهم بين يدى بريطانيا، والآن ورغم أنها تحتفظ لنفسها بحق حماية الأجانب، فقد كانت تبدأ في تفويض هذا الحق للمصريين، وبدا الشعور بالقلق على حياتهم يتسرب إلى الجاليات الأجنبية، لأنهم أصبحوا يتوقعون أنه في أي مفاوضات مستقبلية مع المصريين فإن البريطانيين سيؤثرون التضحية بمصالح الجاليات الأجنبية والأقليات، إذا ما تنازل المصريون في المقابل على تحفظاتهم عن نقطتين تعدهما بريطانيا ذات أهمية إستراتيجية حقيقية وهما الحفاظ على أمان طرق الاتصالات للإمبراطورية، والدفاع عن مصر ضد أي اعتداء أجنبي، كما كان يمكن أن يحدث حقًا في عام ١٩٣٦.

كتب "**وايتهيد موريس**" في جريدة الإسكندرية بمصر في ديسمبر ١٩٢٢ يقول "هؤلاء الحمقى"، كما كتب "**فورستر**" موبخًا إياهم بعدها بثلاثة شهور: "أشك إذا ما كان الكتاب سيُصدر منه طبعة ثانية، لن يُصدر، ولن تباع، والناشر لن يدع من هم ليسوا بائعي كتب يشترونها، ولن يتركوا بائعي الكتب أيضًا لشرائها لأنهم

غير أمناء".(١٣١) كان يعتقد أنه يعرف الكثير عن بائعى الكتب، كتب عن ذلك مؤخرًا إلى "لودليف" يقول: "دائمًا باستثناء السيد مان".(١٣٢) وفى تعويض عن ذلك تم نشر كتاب "Pharos and pharillon" فى إنجلترا فى مايو مما أدى إلى تشجيع النقد الأدبى.

اجتذبت المقالة الخاصة عن "**كفافيس**" أنظار الكثيرين كما كان يأمل "**فورستر**"، فلقد كتب "**ميدلتون موري**" المحرر السابق لمجلة "**أثنيوم**" فى الملحق الأدبى للتايمز يقول "لقد وجد فورستر مأواه الروحى فى الإسكندرية، ولأنه شخصية مبهمة فإنه انطلق إلى مدينة مبهمة، ذلك الجزء المأهول من العالم حيث هنالك ميل واضح للجوانب الروحية، وحيث الطقس رائع بطريقة خارقة وتخالط واضح بين الطبقات، وعند هذه النقطة فإن تعقيدات محبوكة تُميز التقارب بين العالمين، وتحاول أن توائم هذه الدوامة من التناقضات، إنه ليس أقل من تصدع فى عالم الإنسان، يرتحل "**فورستر**" من أجل أن يستمع إليها، ووجد "**كفافيس**" مندمجًا هنالك بالفعل".(١٣٣) كتب "فورستر" إلى "كفافيس" يقول: "تمضى المراجعة بشكل طيب:، وموبخًا إياه لأنه لم يقم بالرد على رسائله أو القيام بترجمة (**valassopoulos**)، أو القيام بإرسال المزيد من الأشعار قال معلقًا "أنت شاعر رديء" (١٣٤)، وبنفس الدرجة التى كان "**فورستر**" يرغب بها فى نشر أشعاره فى الصحف، فإنه كان شغوفًا بنشرها كدواوين.

ولكنه عندما استمع كفافيس، أصبحت خطاباته تقريبًا تخلو من طابع دفء الصداقة، وبدلاً من ذلك أصبحت تعبيرات تتسم بالطابع الرسمى ومصطلحات الشكر المهذبة لمجهودات "**فورستر**" من أجله، كما لم تصله الترجمات المطلوبة أو كانت على فترات متقطعة وشحيحة. كما كان هناك على الجانب الآخر عدم رغبة "**فالسوبوليس**" فى ترجمة أشعار الغزل والغرائز، على أن فورستر أدرك" مؤخرًا

أن "كفافيس"كان ينظر للأمر بأعمق من ذلك. (١٣٥) حيث إن العمل الذى كان مطلوبًا إنجازه كان من المستحيل أن يستكمله إبان حياته، كما أن "**كفافيس**" كان يرغب بالكاد فى أن تُجمع أشعاره فى إنجلترا خارج وطنه، عندما كان يظل يكتب ويرتب ويعيد ترتيب أصول كتاباته باليونانية فى ضوء تطور خبراته.

ولكن القصة أيضًا بالنسبة لـ"**فورستر**" كانت لا تزال غير مكتملة حيث كان يحاول جاهدًا ضد خيال "**محمد**" كان يقول له: إنك ميت يا محمد، أما "مورجان" (لقب فورستر) فهو حى ويفكر كثيرًا فى نفسه وفى القليل عنك فى كل كلمة يكتبها، كنت تصرخ مناديًا باسمى فى محطة "**بيبيت الحجر**" بعد أن شاهدنا ذلك المعبد المتهدم الذى يقع على بعد ميلين منها، والذى يبدو أن لا أحد رآه إلا نحن، كان الظلام يلف المكان وكنت أسمع مصريًا ينادى صديقه الذى فقده صارخًا "مورجان..مورجان"...كنت تنادينى، وأحسست أننا ننتمى إلى بعضنا البعض، لقد جعلتنى مصريًا". (١٣٦)

كان "**فورستر**" لا يزال يُجاهد مع قريحته لإكمال كتابه "**طريق إلى الهند**"، لا يشكو من أى تناقص فى قريحته، ولكنه يقول "إن صبرى بدأ فى النفاد مع عامة الناس" (١٣٧)، ينتابه الغضب لأنه لا يستطيع أن يجعل شخصياته تتصرف كما يريد لها هو باقتناع، فى روايته "**نهاية آل هوارد**" أمكنه أن يجعل شخوص روايته متحابين، وأن يندمج كل منهم فى الآخر، الآن يشعر أن الشخصيات يتباعد بعضها عن بعض، يشعر أنها تتفسخ، الآن لا يستطيع أن يجعل شخصياته متماسكة، الجيشان الذى يحدث فى المجتمع، وعلم النفس والطبيعة (كلهم فى الوقت نفسه) من الكثرة بمكان على هذا النوع من فن الأدب الذى يفُترض فيه قدر من الاستقرار فى تلك العوامل جميعًا". (١٣٨)

ساعدته قراءته لكتاب "أعمدة الحكمة السبعة" في الشهور الأخيرة من إعداد كتابه، كان قد التقى (ت. إ. لورانس) منذ عامين وذلك عندما دعـاه "أنطونيـوس" -وهو أحد موظفي القائد العربي "الأمير فيصل" أحد قواد الثـورة العربيـة ضـد الأتراك- إلى الانضمام إلى ثلاثتهم لتناول طعام الغداء فـي فنـدق بلنـدن، كـان "فورستر"قد انبهر بشخصية "لورنس"حينئذ، والآن وبعد أن قـرأ أعمـدة الحكمـة السبعة، فإنه وجد أن ميوله العاطفية تجاه الشرق قد ازدادت حدةً خاصة من جـراء العنف غير المحتمل السائد في المنطقة" (١٣٩) في هذه الحالة النفسية دفـع الأمـور نحو الانتهاء من روايته، ومثل شخصية "أنتوني" لدى "كفافيس"، ومحاولاته البائسة لجعل "محمد" يشعر بالتفسخ الذي أصبح يحيط به، فإنه قام بالانتهاء من "طريق إلى الهند"، بينما شخصيتا "عزيز" و"فيلدنج" يرددان صدى صرخات العـالم لمـشاعر الضياع والفشل:

"حتى لو اقتضى أن يستغرق الأمر خمسمائة عام سنقوم بـالتخلص مـنكم، نعم سنقوم بإلقاء كل رجل إنجليزي ملعون في البحر، ثم اسـتدار بغـضب وأردف قائلاً وهو يوجه له قبلة على الهواء وعندئذ سنصير أنا وأنت أصدقاء".

قال الآخر: "لماذا لا نصير الآن أصدقاء؟ وهو يمسك بيديه في عطف هـذا ما أرغب فيه، وهو أيضًا ما ترغب أنت فيه". ولكن الخيول لا تريـد ذلـك، إنهـا تنحرف مبتعدة عن بعضها البعض، الأرض لا تريد ذلك، وتقوم بوضع الـصخور في الطرق التي يمكن أن يمر منها أي طابور واحد، المعابـد، صـهريج الميـاه، السجن، القصر، الطيور، جثث الموتى، نُزل الضيوف الذي أصبح علـى مرمـى البصر عندما خرجوا من الممر الضيق وبدت لهم "ماو" موطن الغـزل والنـسيج تحتها، "إنهم لا يريدون ويرددونها معًا مئات الأصوات لا، كـلا، وتـردد الـسماء قائلة: لا، كلا، ليس هنالك".(١٤٠)

كتب "**فورستر**"فى يوم ٢١ يناير ١٩٢٤ "**ليونارد وولف**" يقول: "لقد كتبت الكلمات الأخيرة فى روايتى والتى يجب أن أحيطك أنت و"**فرجينيا**" فقط علمًا بها، ولكن قبل كل شيء هنالك محمد والشلة" كان "**فورستر**" يملك قلمًا كتذكار كان قد تلقاه من محمد، وعندما انتهى من كتابة الكلمات الأخيرة: "لا، كلا، وتردد السماء قائلة لا، كلا، ليس هنالك"،(١٤١) ألقى قلمه جانبًا، وأخذ القلم الرصاص الخاص بمحمد وخط فى مذكراته أنه قد أكمل كتابه "**طريق إلى الهند**".

كتب بعدها بفترة فى نفس العام لصديق له يقول: "إننى أشعر شعورًا عميقًا أن الناس يجب أن يبتعدوا عن بعضهم البعض من آن لآخر روحيًا على الأقل، لتحسين علاقتهم أو تجربتها إذا أمكنها أن تصمد أمام الاختبار، "**طريق إلى الهند**" تصف كيف أن مثل هذا الابتعاد هو الحل المبدئى لتحسين العلاقة كمرحلة ثانية والتى أعجز عن وصفها".(١٤٢)

تسلم "**فورستر**" فى أوائل عام ١٩٢٨ خطابًا يدعو للأسف من "**وايتهيد موريس**" يخبره فيه أن النار شبت فى المخزن وأن نسخ "كتاب" الإسكندرية التى بذلوا فيها جهدًا مضنيًا قد احترق منها ٢٤٦ نسخة من أصل ألف نسخة، ولكن لحسن الحظ، كما قيل، إن الكُتب قد تم التأمين عليها، وتسلموا شيكًا بمبلغ سخى كتعويض.(١٤٣) ولكن للمفاجأة، لم تكن هذه هى نهاية القصة كما يذكر "**فورستر**" مؤخرًا: "تسلمت بعدها خطابًا من الإسكندرية تحمل أخبارًا أكثر سوءًا، قيل إن الكتب لم تحترق على الإطلاق، فلقد كانت فى قبو ونجت من النيران، وهذا كما يقول الناشر قد وضعهم فى مأزق حرج، لأننا كنا قد تسلمنا مبلغ التأمين، ولذا تدبروا الأمر وقرروا أن المخرج الوحيد هو أن يقوموا بحرق الكتب عمدًا، وهذا ما فعلوه: كتاب "**الإسكندرية: تاريخ ودليل إرشادي**" تم إحراقه عن عمد، ولا أعلم مدى صحة هذه الرواية ولكننى متأكد أن دار النشر الحمقاء هذه تُعتبر جزءًا أصيلاً فى هذه اللعبة".(١٤٤)

ولذا فإنه يجب اعتبار النسخة التى أهداها "**فورستر**" إلى "**ت.إ. لورانس**" فى يونيو ١٩٢٩ ذات قيمة نادرة، وكان ذلك قبل أيام قليلة من إبحار "**فورستر**" مع "**آل بارجرز**" فى جولة بحرية حول رأس الرجاء الصالح متجهين إلى "**إفريقيا الجنوبية**" و"**روديسيا**" و"**كينيا**" ولشعوره بالفراغ فى ذلك الوقت، سمح للآخرين بإقناعه لمصاحبتهم فى تلك الرحلة، ولكنه على الفور تقريبًا شعر بالندم على قراره، كانت الرحلة قد تم تنظيمها بواسطة "**الجمعية البريطانية**"، التى كانت تضم عدة مئات من العلماء، سيشعر أنه ليس المكان المناسب له وتوقع أن يشاهد كل شىء، ألا يفهم شيئا".(١٤٥)

كتب من "**روديسيا**" لصديق له وهو "**سباستيان سبروت**" وهو رجل جامعى ووجهه مألوف فى "**جارسينجتون**"، وواحد من محبى "**ماينارد كينيز**" يقول "إن علاقتى بـ"**فلورنس بيرجر**" هى علاقة شذوذ، ولقد أخبرتها عن كل شىء عن نفسى وحتى عام ١٩٢١، مثلاً فى العام الذى توفى فيه "**محمد**" فعلت شيئًا باقيًا ويستحق الاحترام من هذا الحدث، الذى ستفسده علاقات جديدة"(١٤٦) وبعيدًا عن تحريف تاريخ وفاة "**محمد**" التى كانت تضطرم فى ذهنه، فإنه كان يأتمن "**فلورنس بيرجر**" بخصوص مشاعره تجاه "**محمد**" وحتى نهاية عام ١٩٢٦ على الأقل عندما أخبرها: "عندما كنت أعيد قراءة خطابات "**محمد**" اليوم والأخيرة منها وجدتها تفيض عاطفة وعمقًا عن خطاباته الأولى، منحتنى الكثير من الاطمئنان، أنا أعرف أننى قمت بالتقليل من مخاوفه التى أبداها فى أيامه الأخيرة، ولكننى لم أدرك كيف كان يفهم ذلك أيضًا".(١٤٧)

كان "**فورستر**" يجيد عدم رؤية ما هو واضح عندما يجد ذلك مريحًا، وعدم الدقة فى ملاحظاته التى أبداها إلى "**سباستيان سبروت**" أسهمت فى إخفاء أن "**فورستر**" نفسه هو الذى فعل شيئًا "باقيًا ويستحق الاحترام" بعيدًا عن علاقته

بمحمد، والآن يريد أن يبرئ نفسه، ولكن على وجه الدقة لأنه ولفترة طويلة وبطريقة مطلقة كان يشارك كلا من "محمد" و"فلورانس"، فإنه كان يشعر أنها عائق أمامه. وكانت هي كالأم بالنسبة له، على الرغم من ذلك بينما هي معه وهما يترجلان من الترام في الإسكندرية في ذلك اليوم من منتصف شهر سبتمبر ضلا الطريق على الفور لأن محطة الترام كان قد تم تغييرها.

وجد "**فورستر**" في غضون السنوات الست ونصف التي مرت منذ آخر زيارة له للإسكندرية، أنها قد تطورت كثيرًا، هناك الكثير من المباني الجديدة، ومستوى المعيشة ارتفع بوجه عام، ولكن هذا التطور لم يغير من شخصية المدينة"(١٤٨) كانت رحلته حول إفريقيا قد أصابته بالإحباط، كما كتب يقول لـ"**جو أكيرلي**" مؤلف كتاب "**إجازة في الهند**" لأن "معظم الشعوب الإفريقية يبدون ببساطة ذوي قلوب منكسرة، فإنهم يهيمون على وجوههم كما لو كانت حياتهم ضائعة، فالتجارة والمسيحية أنهكتهم تمامًا".(١٤٩)

وعلى العكس من ذلك، "فإن مصر بعد الاحتلال البريطاني مدهشة وأجمل وأكثر إمتاعًا مما نتخيله".(١٥٠) وجعلته هذه التجربة يشعر كأنه عاد إلى ريعان شبابه، قضى في الإسكندرية حوالي الأسبوع ضيفًا على "**فاليسبوليس**" في الحي اليوناني، وتوجه إلى "**كفافيس**" في "**روو لوبسوس**"، كتب له "**كفافيس**" بعدها بفترة قصيرة يقول: "كانت إقامتك هنا قصيرة جدًا، والساعات التي قضيناها معًا كانت قليلة جدًا، كانت صداقتنا تحتاج إلى أكثر من ذلك، وعلى الأقل استطعت خلال تلك السويعات القليلة أن أعبر لك عن إعجابي الشديد لذلك الكتاب الجميل "**طريق إلى الهند**"، وشرح أسباب إعجابي به، لقد أصبحوا جميعًا رفاقي منذ عام ١٩٢٤ "**مس موور**"، و"**فيلدنج**"، و"**عزيز**"، و"**عديله هيلسلوب**"، و"**آل ناواب باهدور**"، و"**آل ماكبرايد**"(**أسماء شخصيات الرواية- المترجم**).(١٥١)

كان جل همه من زيارة الإسكندرية، ورحلته التى دار فيها حول إفريقيا، هو أن يقوم بإبعاد شبح روح محمد، وبرفقته "فلورنس" استقلا تـرام "بـاكوس" إلـى حجرة محمد التى كان يطلق عليها "منزل البؤس". وعند عودته إلى إنجلتـرا بعـد ثلاثة أشهر قام بفتح الأجندة التى كان يكتب بها رسالته لمحمد وأخذ يكتب مخاطبًـا محمدًا للمرة الأخيرة:

"هذا الخطاب سأستكمله الليلة، والذى بدأت فى كتابته منذ أكثر مـن سـبع سنوات، فى الوقت الذى قمت فيه بتذييل الخطاب بتوقيعى، عاهدتك ألا أعود إلـى مصر مطلقًا بعد موتك، ولم يرق لك هذا العهد، ولذا فـإننى خالفـت هـذا العهـد وأخذت "فلورنس" بصحبتى لزيارة "منزل البـؤس"، فلا يزال قائمًا، وإعادة البنـاء حوله ما زالت مستمرة، ولكن الذى لم أتذكره أنه كانت هنالك شجرة كبيرة مزهرة فى الحديقة التى تقع خلفها (زهورها من نوع مجد الصباح)، لقد سـعدت بعـودتى للإسكندرية، لقد كنت سعيدًا هناك، ودائمًا ما كنت أفكر فيه، بينما لا أفعـل ذلـك لشهور عديدة هنا، وحتى عندما ألبس الخاتم الخاص بك. لقد غرقت فـى الهـوى العظيم، أنا أعرف أنك لابد أو لا تزال تسألنى عن رأيى فى المـصريين، الـشكل هنا، انحناء الرأس هنالك، يبدو لى عندما أتذكر الماضى أنك لم تكن متمـسكًا بـى بعمق، مبهورًا ومجاملاً فى البداية، ثم شاعرًا بالامتنان بعد ذلك، وهذا هو كل مـا هنالك، ولكن إذا ما كنت مخطئًا، وإذا كان المحبون يلتقون بعد الموت، ويستمرون فى حبهم، فإننى أنهيت ٥١ عامًا من عمرى ولا يمكننى أن أحب أحدًا مثـل ذلـك الحب، وإذا كانت هنالك ترتيبات بعيدة الاحتمال للسعادة الشخصية الخالدة، فـإننى أفضل أن أتقاسمها معك، ليس لدى إحساس بأن أحدًا ما أو أنك تنتظرنى، ولا أعبأ بالحب أكثر مما سبق أن مّر بى، احتياجاتى لهذه اللحظة هى الـشهوة والـصداقة، وأفضل أن تكون متجهة لنفس الشخص وإن لم يكن بالضرورة، إنها الفرصة فقـط الفرصة الضعيفة: لا زلت قادرًا على الكتابة "إليك" بدلاً من "إليه"، وغدًا تنضم إلى

تمامًا، أنا أعتقد أننى سأرتدى خاتمك الليلة، لقد أحببتك، وإذا ما قُدّر للحب أن يكون خالدًا فسوف أبدأ مرة أخرى، وليس عليك فقط إلا أن تشير، لقد اعترانى الكثير من التغيير حتى إنه لا يمكننى التعرف عليك، وأنا واثق من ذلك تمامًا، يقع على عاتقك فقط أن تبدأ فى حبى وأن تثق فى ذلك، لقد تغير الكثير بالنسبة لى بحيث لا يمكننى التعرف عليك، وأنا واثق تمامًا أننى لن أفكر فيك عندما أموت، كنت أعــرف مــن البداية أننى لن أكون سعيدًا فى مصر فى هذا الخريف، ولكن من أجلك فقط رحلت إلى الإسكندرية.

إلى محمد العدل

حبي

مورجان٢٧ ديسمبر ١٩٢٩ (١٥٢)

قابل "فورستر" رجل بوليس يُدعى "بوب بكنجهام" بعدها بأربعة أشهر، وبعد أحداث عاصفة فى البداية مع زوجته، تعاهد الثلاثة على حياة متبادلة مع بعــضهم البعض وللأبد. توفى "فورستر" فى منزلهم فى عام ١٩٧٠.

فى نفس الوقت لم تندثر ذكريات محمد، كتب "فورستر" لصديق له فى عــام ١٩٥٨- على الرغم من أنه لم يكن يعرف حينئذ- أنه سيكون كاتب سير ذاتية فى المستقبل كتب يقول: "أنا أقوم بالتخلص من بعض الخطابـــات، أو أقــوم بإعــادة تنظيمها، عثرت على تلك التى تخص "محمد العدل"، لعلنى لم أذكر لك اسمه، لقــد كان محصلاً فى الترام قابلته فى الإسكندرية فى الفترة ١٩١٧-١٩١٩، ثــم مــرة أخرى فى عام ١٩٢٢ قبل وفاته مباشرة، إننى أفتــرض أن الخطابــات لا تعنــى الكثير، ولكن كنت أنتوى إلقاء نظرة عليها قبل تمزيقها، ولكننى ذُهلت من أن كــل الأشياء التى كنت أعشقها تومض من هذه الخطابات، لقد منحتنى مشاعر مذهلــة،

كـــان من حسن حظى أن عايشتها، يقــرب عدد هذه الخطابات من مائة خطـــاب، لقد كنت شخصًا مزعجًا لدرجة بغيضـــة لواحد أو اثنين من أصـــدقائى فـــى تلـــك الفترة، ولا عجب فى ذلك، وإذا حدثتك عنه، فليس عليـــك على أى حال أن تجد له عملاً[١٥٣].

وبعد ذلك بخمس سنوات كتب عن قصد إلى مؤرخ سير ذاتية "**ويليام بولمر**" يقول: "محمد العدل حدث عظيم مر بحياتى، أظن أن القصاصات الورقيـــة الباقيـــة والتى تخص علاقتنا موجودة فى صندوق مع بعض الذكريات الأخرى التى تخصه وتقصر عن وصفه، ومعها بعض أشعار الرثاء، ومع استثناء واحد وضـــخم، إنـــه كان أعظم شيء فى حياتي". [١٥٤]

ولكن قبل ذلك بفترة كبيرة وفى عام ١٩٣٦، وأثنـــاء أوج عظمـــة المدينـــة العالمية "**الإسكندرية**"، عاودت أشباح المدينة نشاطها بواسطة شخص كريـــه وهـــو قانونى من فيلادلفيا. كتب "**فورستر**" بحماس إلى "**ليونارد وولف**" فى يوم ٢٤ مايو من ذلك العام يقول: "إن الدليل الإرشادى الذى وضعته يتم إعادة طباعته، شـــرعت جمعية الآثار المحلية فى ذلك، يكتب لى قاض أمريكى يُدعى **جاسبار ج. ب.**"(هكذا جاء اسمه) دائمًا وهو مدقق ولبق ويبدو أنه على كفاءة: أن "**برنتون**" – وهو لسوء الحظ رئيس الجمعية الإيطالية – يقف بعناد ضد "**فورستر**"؛ حيث إن هنـــاك دلـــيلاً آخر تم إعداده عن طريق شخص إيطالى موجود بالفعل، انتقل النزاع إلى المجلس المحلى، حيث انتصر الجانب الأنجلو–سكسونى وحلفاؤه بجدارة، وقضى المجلـــس المحلى بأغلبية الأصـــوات لصـــالحى بمبلغ ثلاثمائـــة جنيـــة مـــصاريف، ولكـــن القاضى "**جاسبار ج. ب.**" لم يهدأ له بال، واتجه إلى المكتب الـــسياحى الـــذى تـــم تأسيسه حديثًا وأخذ وعدًا من البك المسئول بزيادة مبلغ ١٠٠ جنيه، وساعتها أحس "**وايتهيد موريس**" بالنشوة.

الفصل الرابع

مجتمع الرفاهية : تاريخ ودليل

لقد كانت مدينة أوروبية حقيقية، مليئة بالثقافة والفن والموسيقى. فأنا لا أرغب فى الدخول فى مناقشة مع هذا السيد [لورانس دوريل]، ولكننى أعتقد أنه على جانب كبير من الخطأ فى وصفه لها بأنها مدينة متدهورة؛ فلقد كان شعبها أرستقراطيًا مهذبًا تمامًا مثل مجتمع فيلادلفيا الرائع.

(مقابلة صحفية مع جاسبر يتس برينتون من أجل صحيفة فيلادلفيا بوليتين عام[1] ١٩٧٢)

لقد كانت حكاية فورستر الساحرة والتى رواها إلى ليونارد وولف حول "السجال الشديد و"النضال" بين الأنجلو ساكسون والإيطاليين حول إعادة نشر كتاب الإسكندرية وراء التشويه التام للحقائق، ولقد أدرك فورستر هذا بشكل كاف. ولقد ترأس الأمريكى جاسبر برينتون جمعية الآثار الملكية للإسكندرية، وكان جده بريطانيًا، فى حين أنه لم يشغل أى إيطالى من قبل مركز الرئاسة. فلم يعتَل الإيطاليون مركزًا مرموقًا سوى آخيل أدريان الذى خلف إفاريستو بريكسيا فى منصبه مديرا للمتحف الرومانى اليونانى منذ عام ١٩٣٢، وكان أيضًا عضوًا فى الجمعية التى طالما تحدث عنها من أجل "الإسكندرية المحانية لمصر" الخاص ببريكسيا، ولكن إذا كان قد فعل، فقد سوى برينتون الأمر قبل الكتابة إلى فورستر، فإن الصعوبات الفعلية تقع مع وايتهيد موريس.

قبل عام ١٩٣٥، عندما تسلل القاضي جاسبر برينتون بخفة إلى مكتب رئيس جمعية الآثار، كاد يصبح أمرا جللاً فقد كان النشاط الرئيسى لواحدة من المنظمات المخدرة نومه هو نشر مجلة سنوية. لقد كانت هناك احتمالات كبيرة لتوسيع النشاطات، وقررت أنا نفخ حياة جديدة فى جسد قديم[٢]". وكانت أحد أعماله الأولى الكتابة إلى فورستر فى ٢٧ ديسمبر من هذا العام مقترحًا إعادة نشر تاريخه ودليله، ولكن الإجابة تأخرت. لقد كان فورستر فى دار رعاية يتعافى من عملية البروستاتة التى اعتقد أنها قد تقتله. وأجاب فى ٥ فبراير ١٩٣٦، عندما كان على وشك أن يصبح تحت وطأة السكين مرة أخرى، معتذرًا عن التأخير ولكن كان مليئًا بالحماس.

وفى الحال، أوضح برينتون الأمر أمام وايتهيد موريس قائلاً إذا قاموا بإعادة طبع الدليل، سوف تأخذ جمعية الآثار خمسمائة نسخة، ولكنهم أجابوا "تجربتنا السابقة فى بيع هذه النسخ لا تجعلنا نبرر لأنفسنا تخصيص أى أموال لها فى الوقت الحاضر"[٣]. ولقد بين برينتون الجرىء طرق تمويل الكتاب، وقبل بداية شهر مايو، كان قد أقنع مكتب السياحة بأن عليه دفع مبلغ قدره ١٠٠ جنيه مصرى مقابل خمسمائة نسخة، مما جعل الطبع يصل إلى إجمالى ١٠٠٠ نسخة. وفى غضون ذلك، بدأ برينتون فى تجنيد بعض الأصدقاء لتحديث الكتاب، وطلب من مؤلفه الموافقة على ذلك، ولكنه تلقى شكرًا من بوب باكينجهام قائلاً إن فورستر "يتعافى من عملية خطيرة" ولكنه سوف يرد على ذلك قريبًا.[٤] وفى نهاية الأمر فى ٢٤ مارس، أصبح فورستر بصحة جيدة بشكل كاف "للرد على خطابيك اللطيفين بالموافقة"[٥]، سعيد لترك برينتون فى مواجهة الأمر برمته، مما يجعل ذلك شبيهًا بفخ إسكندرى.

لقد كانت هناك أمور أخرى تشغل بال فورستر. فخلال أشهر من اعتلاء هتلر السلطة فى عام ١٩٣٣، انسحبت ألمانيا من عصبة الأمم وباشرت برنامجا ضخما لإعادة التسليح. ثم قام موسيلينى بغزو أثيوبيا فى أكتوبر عام ١٩٣٥. والآن فى بداية مارس لعام ١٩٣٦، قام هتلر بتحريك قواته إلى منطقة الراينلاند المنزوعة السلاح. وبعد مرور ثلاثة أيام من منح الموافقة لبرينتون، كتب فورستر إلى ليونارد وولف، الذى سمع منه أن هناك البعض من الموجودين فى دائرته يتحدثون عن فرار إنجلترا فى حالة التهديد بوقوع حرب أخرى. قال فورستر لوولف إن "هناك أمورًا مختلفة لا يمكن إزالتها من إنجلترا تجذبنى إليها، ولهذا لم أستطع فصل نفسى عنها قط، ولكن لو كنت متزوجًا أو كان لدى أطفال لأنقذهم، أعتقد أننى كنت سوف أفكر فى هذا بلا شك" (٦).

من بين الأشياء التى منعته كانت أمه وبوب باكينجهام، فى تفانيه إلى ما اعتقده بشكل مميز أنه الحل لأزمة أكبر، وهى الكتابة فى مجلة السبكتيتور فى نوفمبر عام ١٩٣٥، "فالرغبة فى تكريس المرء نفسه لشخص أو أشخاص آخرين يعد أمرًا فطريًا كالرغبة فى الحرية الشخصية. وإذا استطعنا الدمج بين الرغبتين، سوف نجد اختفاء خطر الحرية من الداخل، وهو الخطر الأساسى، وسوف يُنتزع السم من الشرور السياسية التى تملأ الآن الجزء الأمامى من حياتنا، فهذا السم هو الذى يغذى هذه الشرور... فهناك الجمهورية المحبوبة لنحلم بشأنها والعمل من أجلها ، فنحلم بحكومة أفضل، تلك التى بدت ذات مرة أنها تتقدم على عجلات مشحمة، فهى مدينة الله.(٧)"

بدأ العمل على مراجعة دليل فورستر فى ربيع عـام ١٩٣٦، عنـدما قـدم صديقان لبرينتون، وهما أنتونى دى كوسون وجى. إم (جون) مارشال، وكلاهمـا عضو فى جمعية الآثار، تسعة وعشرين صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبـة تعليقـا على الطبعة الأولى. وكانت التعليقات على كتاب "الصحراء الغربيـة" تخـص دى كوسون، الذى كان مديرًا لسكك حديد الصحراء، مثل التعليقـات المحتملـة علـى المنتزه وشرق الروسيتا. ولكن من الواضح أن الملاحظات على الإسكندرية نفـسها من عمل مارشال كاملة. فلقد قام برينتون بوصف المارشال إلى فورسـتر " بأنـه يبدو أكثر أو أقل من مصرفى متقاعد خجول، فله علم عظيم بتـاريخ الإسـكندرية وطبوغرافيتها[٨]."

كتب فورستر، أفترض أن تعليق مارشال بدأ منذ عام ١٩١٩ إلى ١٩٢٠[٩]. ومنذ ذلك الحين، تزايد عدد سكان الإسكندرية كثيرا، وبشكل طبيعى أصبح هنـاك حاجة إلى قدر عظيم من المبانى لإيواء الوافدين". ولم يقتصر الأمـر فقـط علـى امتلاء أماكن خالية كثيرة، ولكن تم إنشاء بلوكات سكنية كثيرة فى كل من المدينـة الرملة، والكثير من المنازل المستقلة، مما أدى إلى نقص عدد الحراس فى الرملـة وكان هذا أمرًا طبيعيًا". ولقد تم الآن البناء فوق تل أبو النواطير بشكل كبيـر وتـم تجفيف بحيرة الحدرة بينما تم تخريب ما يحاذى قناة المحمودية، وقد كانت قديمـة بالفعل فى زمن فورستر، وكانت عبارة عن منازل متهدمة أو بالية على أقل تقدير وحدائق مهملة، ويوجد الآن مكانها مصانع ومخازن، وبسبب الطريـق أصـبحت المنطقة هى الحى الصناعى الرئيسى فى الإسكندرية."

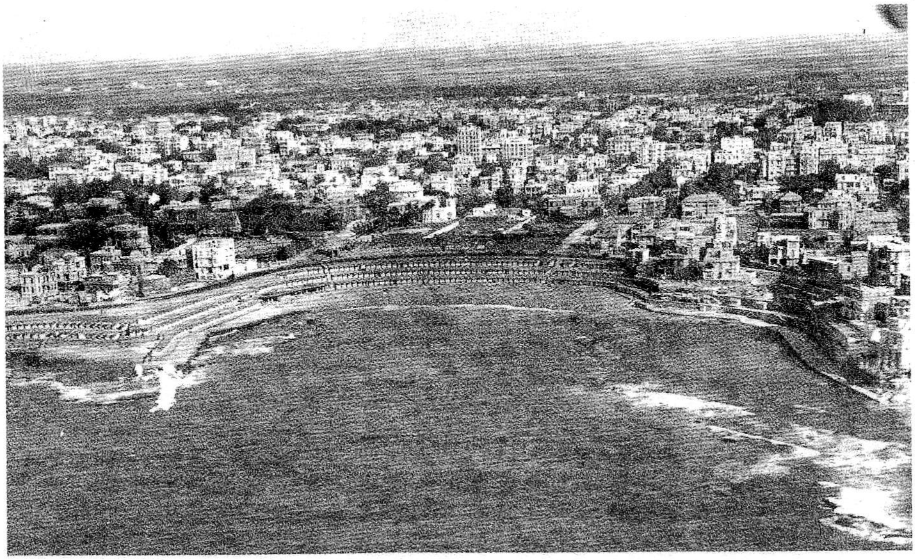

خليج ستانلى فى الثلاثينيات. فى بداية الثلاثينيات، تم استبدال بأكواخ الشاطئ الموسمية فى خليج ستانلى صفوف من الصناديق الإسمنتية، وتزامن هذا التحول مع مد الكورنيش من الميناء الشرقى على طول الطريق من خلال الرملة.

إذا كانت الإسكندرية تغيرت كثيرًا خلال الخمسة عشر عامًا السابقة أو نحو ذلك، "فإن هذا التغيير لا يعد شيئًا بالمقارنة مع تحول الرملة، وحتمًا فمن الصعب على الشخص الذى لم يرها طوال هذه المدة أن يشكل أى صورة عن شكلها اليوم". لقد أسهمت السيارات والأتوبيسات وعادات "الاستحمام لمدة طويلة" فى التغيرات. ولقد تم تعزيز دورها من خلال بناء طريق الكورنيش الجديد المواجه للبحر المتوسط وعلى امتداد اثنى عشر ميلاً من جهة الميناء الشرقى وحتى المنتزه. وذكر فورستر أن الطريق بعيد عن القنصلية الإيطالية "الشواطئ الساحلية المكشوفة والخالية من أى مبان حول منحنى الشاطئ، ". إلا أنه توجد بعض المبانى التى شيدت على الطراز المعمارى لمدينة البندقية، وعلى الجانب الآخر يظهر فندق

سيسيل، وفى الحقيقة، وعلى طول الامتداد الكامل للميناء الشرقى أقيمت مبان غاية فى الجمال. "من ناحية سلسلة **Silsileh** للأمام باتجاه بين البحر وطريق الكورنيش، فيما عدا بعض الأماكن البسيطة حيث الصخور تتـراص فـى صـفوف لكبـائن الاغتسال. ولقد قامت البلدية بتحديث خليج ستانلى كاملاً. وتعد الآن مـدرجًا مـن سلسلة من المدرجات الخراسانية، والتى يوضع عليهـا صـفوف مـن صـناديق الاغتسال القياسية المدهونة بألوان مناسبة من الأخضر والأبيض. لا أعرف كم من المئات (أو الآلاف) من الصناديق الموجودة فى خليج ستانلى وحده"، بينما يوجد هنا وفى أى مكان آخر على طول الكورنيش "المطاعم والمقاهى والنـوادى الليليـة". تقريبًا فى كل مكان عبر مارشال عن بعض الحقيقة مصححًا الوصـف الطبيعـى. ويوافق فورستر على التغيير ببساطة بكتابة "نعم"(١٠) فى هامش ملاحظات مارشال. ولكن عندما تصبح النقطة إحدى النقاط التاريخية، كان فورسـتر دائـم المقاومـة تقريبًا. وتساءل مارشال، "هل كان كاليماخوس أمين مكتبة فى يوم مـن الأيـام؟" مشيرًا إلى ورقة بردى، وتلك التى "يبدو أنها أكـدت بـلا شـك أنـه لـم يكـن كاليمـاخوس أمين مكتبة فى يوم من الأيـام" وقد كتب فورستر مقـابلها "لا"، مما يعنى أنه لن يسمح بأى تغيير، بـالرغم من أنه فى ذلك الأمر كـان مخطئـًا بـلا شك تقريبًا.

ولم يغير فورستر موقفه عندما أتى الأمر إلى مسجد النبى دانيال الذى يقول إنه يقع فى موقع "مقبرة الإسكندر" بالرغم من أنه لم يتم استكشاف الأقبية، وهنـاك قصة مشهورة بأن قبر الإسكندر فى إحداها سليم". والآن مع وجود مارشال يخبره بأن بريكسيا استكشف بعد ذلك الأقبية، ولكن "لسوء الحظ بلا نتيجة"، قام فورسـتر بالإبلاغ عن نتيجة بحث بريكسيا ولكن وبالرغم من ذلك كرر كـلاً مـن القـصة الشائعة وتأكيده البسيط بأن المسجد يميز مكان دفن الإسكندر. وفى حالة اسـتثنائية

نادرة، سمح فورستر بتغيير تاريخ الحوائط العربية الذى حدده ٨١١ ميلاديًا ليصبح عام ٨٨١، عندما أوضح مارشال أن فورستر حصل على تاريخه من بيديكر الذى استخدم بدوره، كما اكتشف مارشال، خريطة ألمانية مرسـومة للمدينـة القديمـة، والموجود منها نسخة فى المتحف اليونانى الرومانى، ولكنه أخطـأ فـى طباعـة التاريخ. فكتب فورستر فى الهامش "تغير من ٨١١ إلى ٨٨١، أعتقـد أن بيـديكر أوقع بي!".

وأوضح فورستر نفسه فى خطاب إلى برينتون. فيما يتعلـق بالتـصحيحات الطبيعية " أنى أقبلها جميعًا- مشترطًا فقط عدم استخدام أسـلوب إبـداء الـرأي". وبالنسبة للتصحيحات التاريخية، "بعد شيء من التفكير أرفـضها جميعًـا تقريبًـا، ويجب التماس العذر لموقفى. ويجب ألا يعتقد السيد مارشـال والآخـرون الـذين يقومون بالمساعدة أن هذا ناشئ عن فظاظة أو غرور! فلم أدع أننى عالم وأعـرف كيف أن عملى محدود بالنسبة للكتاب. إننى متأكد من أنه مليء بالأخطـاء. وفـى نفس الوقت، يجب إصداره مرة أخرى باسمى ولا أتوقع أننى أقبل أمرًا لم أتحقـق منه شخصيًا. ويجب أن أقوم بفحص المراجع التى اعتمدت عليهـا التـصحيحات التاريخية، والمراجع المنافسة فى حالات كثيرة أيضًا، ولكننى لا أتمتع بالصحة ولا الوقت الكافى للقيام بذلك (١١)".

ومع ذلك فلا يبدو أن الأمر اقتصر على ذلك فحسب. "دخل عمرو فى العام التالى منتصرًا... فقد تم تخريب القليل إلى هذا الحد(١٢)، وكتب مارشـال مقتبـسًا شرح فورستر لفتح العرب للمدينة، ومن ثم علق قائلاً، "يبـدو أن هـذا مـستحيل تصديقه. فمنذ احتلال الرومان، تم اعتصار مصر بكل الطرق الممكنـة: وجميـع الأموال التى تم استخراجها من الدولة وجميع الحبوب التى تم إرسالها إلى رومـا والقسطنطينية كانت تمثل خسارة بكل ما فى الكلمة من معنى، حيث إنهـا كانـت

تذهب إلى الخارج بدون أى عائد: ونتيجة لذلك، كان فلاحو ذلك العصر فى حالة بائسة. وبعيدًا عن ذلك، كانت الإسكندرية مسرح الثورات الدائمة وعمليات الشغب: ولقد تدمر البروخيون [الحى الملكي] من قبل أوريليان أثناء إخماد إحدى الثورات والمدينة بأكملها من قبل ديوكلتيانوس، جزءًا تلو الآخر. وكان أيضًا ثمة نزاع مستمر بين المسيحيين واليهود أو بين المسيحيين والوثنيين أو بين المسيحيين وبعضهم. إننا نعرف أنه تم بناء الكنائس على أطلال معبد السيرابيوم ومعبد قيصر، ومن المحتمل أن هذين المعبدين تم تدميرهما بدورهما من قبل الفارسيين. وكما أتخيل فالوصف فى النص يعتمد بصفة أساسية على بلتر، ولكن بلتر... سمح لنفسه بأن تجرفه العاطفة بقصص المؤرخين العرب ويناقض ما كتبه فى أجزاء أخرى من كتابه. فالإسكندرية، حتى لو كانت أطلالاً، ينبغى أن تصبح منظرًا رائعًا غير مفاجئ لعرب الصحراء، ولكن من المحتمل أكثر أن يكون بريكسيا على صواب فى قوله، "بالرغم من التعاقب المتواصل للكوارث، فمازالت المدنية تحتفظ بآثار عظمة غابرة. ومهما تكن الظروف، يتحدث المؤرخون العرب عنها بحماس". ووفقًا لوجهة النظر هذه، لا يمكن اتهام العرب بتدمير الإسكندرية، فقد كانوا "كالطفل وهو يشاهد". لقد اكتمل أكثر من نصف التدمير(١٣). وقد دون فورستر فى الهامش بشأنها "لا".

لا، لأن فورستر كان أقل اهتمامًا فى تعقب مجرى الأحداث الخارجية من اهتمامه بوصف الدراما الداخلية للحضارة. فكما قال فى كتابه، تم تطوير الأدب الذى تطور فى المتحف "عندما انتهى العصر الملحمى لليونان، وعندما فقدت الحرية ومن المحتمل الشرف أيضًا"، ولكنه يتمتع بقوة من نوعها، حيث إنه رأى أن هناك ثلاثة أمور جيدة متبقية تنبثق من حطام الآمال التقليدية، أى السطح

المزخرف للكون وبهجة الدراسة وفرحة الحب، وكان الحب أفضل ما في ثلاثة الأمور هذه[١٤]". وفي هذا الدليل، جعل فورستر فكرة الحب تستمر عن طريق أفلوطين[١٥] وغنوصي[١٦] والمسيحيين الأوائل- كان على وشك أن يكرر في الطبعة الثانية "الإسلام، قوى عن طريق تخليه عن الحب[١٧] .

ختم فورستر كتابه مشيرًا إليه في ذلك -"إنه يرجع إلى أقدمهم وهي اليونان، حيث إنها تمتلك هذه الثقافة الحديثة كما يجب أن توجد فيها[١٨]"- وعلق على ذلك في حدة قائلاً "لا أوافق على الإطلاق"وترك فورستر الهامش خاليًا.

قام برينتون وأصدقاؤه بتحديث المدينة طبيعيا، ولكن أكثر من ذلك تغير منذ رحلة فورستر إلى الهند في يناير عام ١٩٢٢، عندما رأى محمدًا في مصر آخر مرة[١٩].

في الصباح الباكر في أحد أيام الشتاء قبل فترة قصيرة من عيد الميلاد لعام ١٩٢١، رأى جاسبر برينتون لأول مرة الخط الأبيض المنخفض للساحل المصري يظهر في الأفق. إنه على وشك رؤية نفس المشهد مرات كثيرة في الأعوام التالية ودائمًا يجتاحه شعور متزايد سار بالعودة إلى الوطن. ولكن الآن بينما تتجاوز سفينته المنارة وحاجز الأمواج وصولاً إلى الميناء الغربي وبعد الواجهة الطويلة للقصر الملكي في رأس التين، رأى أمامه في البانوراما الفاتنة للإسكندرية غرابة مستقبل مجهول فقط.

خلال لحظات من السحب بمحاذاة رصيف الميناء العاصف، كانت هناك مجموعة من الحمالين والمتطفلين، وقام مبعوثون يتحدثون الفرنسية ويرتدون زيا رسميا أزرق اللون وطرابيش حمراء بتقديم أنفسهم عند قمرته بخطاب من سكرتير

المحاكم المختلطة قائلين إنهم فى خدمته، بينما تولى شخص ضخم يرتدى زيا رسميا أصفر أمر متعلقاته. وفى جو مفعم بالسلطة، قادوه بنشاط خلال صالة الجمارك وواصلوا طريقهم على نحو مهيب إلى المدينة، وتوقفوا بينما كان يختار فندقًا يطل على المسطح المائى حيث يستطيع ابنه الصغير الاستمتاع بالصيد. حينئذ قادوا برينتون إلى مبنى مهيب يطل على ميدان محمد على. ولقد رأى فوق الأعمدة الجرانيتية المؤطرة لمدخله النقش المكتوب باللغة الإيطالية والفرنسية والعربية "قصر العدالة" ويعلو ذلك شعار باللغة العربية "العدل أساس الدولة (الحكم)" (٢٠).

وصل برينتون إلى محكمة الاستئناف بالمحاكم المختلطة، حيث تم تقديمه وهو مرتدٍ شارة المكتب، وهو وشاح من الحرير الأخضر المطرز باللون الذهبى والملحق به ميدالية ذهبية ومناسبة لزيه الرسمى، وهو سترة تصل إلى الركبة مرتفعة الياقة وطربوش أحمر. وفكر فى نفسه قائلاً سوف أخدم هنا لعامين أو ثلاثة أعوام قادمة: فالخدمة العامة والاستقامة الأخلاقية هما شعار عائلته، ولكنه اتجه إلى الإسكندرية لفترة وجيزة للهروب من مفهوم فيلادلفيا عن الخدمة العامة والاستقامة الأخلاقية.

ولد جاسبر يتس برينتون منذ ثلاثة وأربعين عامًا فى عائلة من فيلادلفيا ترجع جذورها إلى ماضى أمريكا الاستعمارى. لقد أسس أحد الأسلاف جامعة بنسلفانيا بناءً على طلب بنجامين فرانكلين وأصبح أول موظف إدارى كبير له، وشغل آخرون أنفسهم بالقانون والطب والوزارة. ومن جيل لآخر، يكتب الأبناء فضائل الآباء فى إنجيل العائلة، ولقد كتب والد برينتون بدوره قائلاً: "لقد عاش حياة نقية كما رغب، ومات وترك وراءه سمعة لا تشوبها شائبة، لا يتخللها أى خزي- فهل يمكننى القيام بالمثل" (٢١).

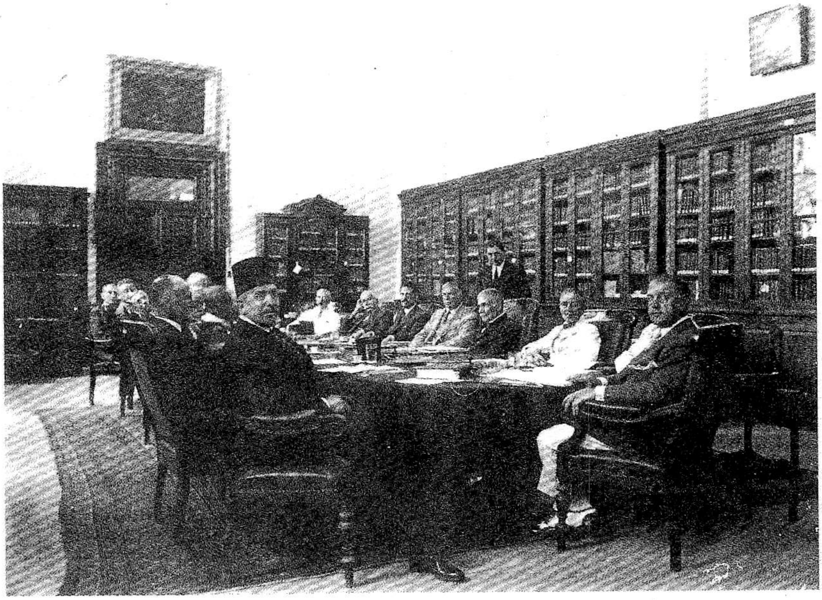

قضاة محكمة الاستئناف فى المحاكم المختلطة. يمكنك رؤية القاضى جاسبر برينتون فى الجانب، تمامًا خلف وإلى يسار القاضى المرتدى طربوشا، وبرينتون أيضًا رئيس جمعية الآثار الملكية فى الإسكندرية، حيث أدى حماسه لكتاب فورستر "الإسكندرية: تاريخ ودليل"إلى نشر نسخة جديدة، وهى التى أصبحت كتابا مقدسا بالنسبة إلى لورانس دوريل أثناء الحرب العالمية الثانية.

عند نهاية القرن، انتهى جاسبر من دراسته فى الآثار الأدبية والقانون وأقدم على الدخول إلى مجتمع فيلاديلفيا، ومن ثم ظل مندمجًا ومتجانسًا: "وفقًا لمن انتمى ومن لم ينتم"، واستطرد قائلاً "السؤال أجاب نفسه" (٢٢). وامتلأ الموسم بحفلات راقصة للفتيات التى تظهر لأول مرة فى حفلات اجتماعية وحفلات العشاء وزيارة الأوبرا مرتين فى الأسبوع، ولكن المجتمع بالرغم من مرحه وبذخه، كان صارما فى مراعاة الأحداث الاجتماعية: "لقد نسيت وأنت فى عجلة من أمرك، بعد تناول العشاء فى الخارج أن تضع بطاقتك للمضيفة خلال يومين أو ثلاثة أيام.(٢٣)"

بعد دخول أمريكا إلى الحرب العالمية، تم تعيين برينتون محاميًا عسكريًا مسئولاً عن ميناء بورديكس. لقد تطلب اثنا مليون أمريكي في فرنسا وجودًا قضائيًا، وترأس برينتون القضايا وتتراوح بين السرقة والسكر والتدبير للهروب من العسكرية والعصيان والقتل، كما قضى في محاكمات تتعلق بالملكية في المدينة والقرية المحيطة بها، وتتضمن دفع مبالغ كبيرة كتعويض. وفي نهاية الحرب قامت الحكومة الفرنسية بتقليده وسام الشرف وتلقيبه لقب فارس تقديرا لخدماته ولباقته.

وبعد عامين في الخارج، عاد برينتون إلى زواج متعثر وطلاق متوقع يعني أن عودته إلى فيلادلفيا لن تكون أمرا يسيرا. وعندما أشار عليه بقبول مكانة قاضي محكمة الاستئناف بالمحاكم المختلطة في مصر، بدا هذا حلاً جيدًا. وبقيت ابنته – وعمرها ثلاث سنوات– مع أمها، التي رفعت قضية طلاق في باريس وعاد إلى مصر مع ابنه جون – سبع سنوات.

في تلك الأثناء وجد برينتون مدينة الإسكندرية "مدينة رائعة جدا" (٢٤) وقرر البقاء فيها، خلال السنوات الأولى قضى ساعات أمسياته في تأليف كتابه" المحاكم المختلطة في مصر **The Mixed Courts of Egypt**" وتم نشر الكتاب في عام ١٩٣٠ ومازال كتابا حازما. فباعتباره قاضيا في محكمة الاستئناف للمحاكم المختلطة ورئيسا لها منذ ١٩٤٣، وهي واحدة من أكبر وظائفه على الأرض، غاص في شئون الإسكندرية خلال معمعة الحرب للمدينة الكوزموبوليتان ودراما الحرب العالمية الثانية، بالضبط الفترة المماثلة للورانس دوريل في كتابه رباعيات الإسكندرية.

وبعد عودته إلى الإسكندرية، ذهب برينتون وابنه جون للحياة في محطة الرمل، وكان في حديقة المنزل قرد يلعب في شجرة الفلفل في الحديقة وقد اعتبر نفسه جزءا من العائلة. أما جارتهم وصديقتهم عايدة بورشجريفينج، "وهي المرأة

الرائعة" [٢٥] أو كما كان يسميها برينتون، فكانت تذهب فى نزهات حول الرمال أو يذهبا معا إلى شاطئ البحر فى خليج ستانلى، القريب من حديقتها. كانت الحجارة تطوق الخليج وكان فورستر يتردد على تعلم السباحة هناك، فقد كان يتردد كثيرا هناك منذ بداية الحرب. حمامات السباحة السطحية كانت موضع لهو الأطفال الذين يبحثون فيها عن سرطان البحر (الكابوريا) وقنافذ البحر والأسماك الملونة، تغيرت إلى أكواخ صغيرة ملونة بطريقة متوهجة محفوظة فى المنزل وأقيمت فى بداية الفصل، وهناك جنرال روسى وزوجته يشتريان مثلجات من باغودة صينية قد تم غرسها بشكل غير مناسب على الشاطئ المصرى. كذلك تذكرها جون قبل اختفاء الصخور وحمامات السباحة، والأكواخ المنصوبة التى حلت محلها مصاطب الكبائن الإسمنتية، حتى تغير شكل الشاطئ عندما أقيم طريق الكورنيش فى الثلاثينيات من القرن العشرين، "البحر الأزرق المتألق والأمواج المتلاطمة على الصخور حتى تتكسر على رمال الشاطئ وتتحول لفقاعات فضية." [٢٦]

يعتبر الشتاء من أجمل فصول السنة إذ يحين فيه عملية صيد البط والإوز على بحيرة مريوط القديمة، وتلك كانت فرصة لبرينتون أن ينطلق بسيارته، سالكا الطريق المحاذى للبحيرة أو ينزلق إليه بالقرب من طائرة مائية، وأحيانا يبقى فى عزبة أصدقائه الأقباط وزميله القاضى صبحى غالى بك. التى يعدها نموذجا بسيطا للريف البدائى، وثمة وجود نوع من مجموعة من أصحاب المنازل البسيطة، وهو منزل مبنى بسيط من طابق واحد، فرشه بسيط جدا ولكنه مريح، حيث نعيش فى بحبوحة من الحياة على ما تخرجه الأرض من خيرات"[٢٧] وتنبعث من الحقول "أصوات الساقية التى يجرها ثور تمت تعميته، ويتردد صدى الساقية فى الجو الهادئ "يعنى صيد الطيور الاستيقاظ مبكرا من أجل الخوض فى المياه والطين، إن كنا نصطاد البط، "فيمكننا قضاء الليل فى كابينة صغيرة من الخشب وسط القصب

وبعد مطلع الفجر نوزع أنفسنا بين قوارب صغيرة مع أحد مساعدينا من العزبة بملابسه الرثة، ننتظر إشارة مضيفنا، فى تلك الأثناء نسمع ضربات الأجنحة الخفية فوق رؤوسنا، ثم تأتى إشارة مضيفنا، الطلقة الأولى وبالتالى لبضع ساعات، وتستمر القوارب فى الانطلاق، سواء أصبنا هدفا أو أخطأنا فإنها رياضة ممتعة ولا يختلف عليها اثنان بأنها من المناظر الرائعة الطبيعية التى نراها فى ساعات الغروب أو عند الفجر فى المستنقعات المصرية.(٢٨)

فى كل صباح، يركب جون الترام متجها إلى كلية فيكتوريا، وهى مدرسة خاصة للبنين تدرس المنهج الإنجليزى، بينما يلحق أبوه بالترام المسافر فى الاتجاه المعاكس نحو المدينة، جالسا "فوق سطح الترام ليملأ عينيه من المنظر الجميل من بعيد والناس هناك فى الشارع. ثمة شيء يلفت الأنظار عندما ينطلق الترام بين الضواحي(٢٩)". إلى جانب المسطحات الملونة، هناك عملية حفر لتمهيد الطريق من هنا إلى المدينة. وهو أمر مثير للاهتمام، فهذه هى الصهاريج الرومانية التى تم اكتشافها فى أعماق أساس الإسكندرية(٣٠).

وقد ظهرت حالة مبكرة قبل أن يهتم برينتون بمقبرة توت عنخ آمون، التى زارها بعد اكتشافها فى نوفمبر ١٩٢٢. وحتى ذلك الوقت، كان علم المصريات تنظيمه غير محكم، حيث يتم السماح للحفارين الأجانب بالحصول على حقوق وامتيازات تسمح لهم بالبحث ويكون لهم نصيب عادل فيما يكتشفونه إلى جانب الخبرة والتكاليف والمصلحة التاريخية، ولكن مع إلغاء الحماية البريطانية فى عام ١٩٢٢، ومنح استقلال محدود، فإن حساسية مصر نحو الأمور كانت تمس سيادتها وباتت أكثر حدة، كما أن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون وثروته الدفينة معه قد أثارت عاطفة الوطنيين. وبسؤال المكتشفين عما يستحقه المصريون من حقوق وجد هاوارد كارتر نفسه فى دور المستعمر الخسيس الذى يصر على إنكار حقوق مصر

وميراثها الحضارى. وقد حذره مستشاره بأن قضاة المحاكم المختلطة الموجودين فى القاهرة يستمعون إلى الموضوع، قاض إنجليزى وآخر فرنسى وثالث إيطالى وقاضيان من مصر. "ويمكن إبلاغ المصريين بحكم المحكمة والالتزام به، وليتأكدوا من النتيجة بشكل واضح يجب عليهم شراء القاضى الإيطالي". (٣١)

فى الواقع، فإن المحكمة قضت لصالح كارتر، إلا أنه فى عام ١٩٢٤ حولت الحكومة القضية إلى محكمة الاستئناف فى الإسكندرية، حيث كان برينتون أحد القضاة الخمس فى قاعة المحكمة" إننا نقر بأن أمر الحكومة أمر إدارى مع الذين نفذوا حكم المحكمة المختلطة وليس لديهم أى اختصاص قضائى. وقد وضع هذا القرار حدًا للتشريع وتم تسوية الخلاف على الفور. عندما أقامت الحكومة هذا كان لها اليد العليا، فالجانبان وصلا إلى التمييز، "الذى سمح بكل سرور للسيد كارتر من مواصلة عمله الذى بدأه بكل تألق."(٣٢)

أصبحت القضية مشهورة، وبرينتون، كان طوال عمله متحيزا لإقرار الحقوق المصرية، وراضيًا بحصيلتها التى بدت وكأنها تضع نموذجًا للعلاقات المستقبلية بين مصر والأجانب. ولعل أسوأ ما نتحدث عنه هنا يخص المصريين المهتمين بمعالجة نهر النيل، القنوات ونظام الرى، أكبر وأكثر علوم المياه تعقيدًا فى الدولة: "من المحتمل أن تكون هذه هى أضعف نقطة فى الإدارة المصرية. فهى هنا وربما هنا فقط، فإن الإنجليز جعلوا خدماتهم تلقى ترحيبا واسعا من الناس."(٣٣)

أما عن مكانة برينتون فى المحكمة فقد كان يتورط فى بعض المهام الرسمية طوال أشهر فصل الصيف؛ إذ إن الملك يمكنه أن ينقل المحكمة بسبب حرارة الجو فى القاهرة إلى الإسكندرية حيث حرارة الجو أخف كثيرا بالنسبة لنسيم هواء البحر المتوسط. وقد اتبعت الحكومة المصرية السلك الدبلوماسى بأكمله، بما فى ذلك

البريطانى، حيث إن المقر الجديد للقنصل فى أعلى تل أبو النواطير أصبح بيت المفوض لهذه الفصل من العام. فإن قضاة المحكمة المختلطة كانوا وسط هؤلاء الذين كانوا فى استقبال الملك لدى وصوله فى محطة القطار فى سيدى جابر وفى كل خريف يذهبون لتوديعه، كما يصف برينتون(٣٤) فى يومياته "أنزل إلى سيدى جابر لأرى الملك (فؤاد) متجها نحو القاهرة، نفس الاحتفالية القديمة، لكن، كالعادة، متألقة وأنيقة، بالإضافة إلى انتشار عدد كبير من الجنود. يكون دائما مجلس الوزراء هناك ومثل العادة صفان ممتدان من الفتيات الأكثر جمالا. يعود قطار الملك إلى القصر وينزل فى نقطة نهاية واحدة من الرصيف ثم يسير فى ممشى الملك ويسلم على الشعب. وقفت فى الخلف، لكنه رآنى وقلت "كيف حالك" شعرت بشيء من الخجل، فلم أتصل به من نهاية عطلة السنة. ومع ذلك، إن كنت فكرت فيه، كنت ذهبت إليه فقط من أجل رؤية غرفته الجديدة فى قصر رأس التين. فهو مرتدٍ ملابس جيدة وأنيقة، بطريقة مقبولة، ومعمولة بطريقة فنية، على الأقل تظهر أنه ملك. يمكن أن يظهر الأشياء بطريقة ويجب على الشعب تقبلها، على الرغم من أنه لم يكن بعيدا عن شعبه مثل بقية الملوك. سنحت لى الفرصة كى أبيع البيانو الخاص بى لقنصلنا مقابل خمسة وثلاثين جنيها مصريا. كنت سعيدًا عند القيام بهذا لأنى كنت بحاجة إلى الأموال ولست بحاجة إلى البيانو. عندما تناول برينتون العشاء مع أحد الزملاء المصريين فى القصر بعد بضعة أيام، تحدثا عن تبذير الملك. "الإنجليز فى حالة رضاء ظاهريا، عندما تتعلق المسألة بـ"أنا أرضيك وأنت ترضيني"(٣٥). فهم لا يعارضون الملك ولا يعارضون العديد من طلباته التى ليس لديها أى تبرير. "يعتقد برينتون أن خطأ البريطانيين الرئيسى هى "طبيعتهم المتحفظة"(٣٦). فإن رأى الوزارة الأمريكية فى مصر كانت أشد قسوة، عندما دعا برينتون، خلال زيارة فى القاهرة، لتناول العشاء معه فى منزل فى محرم بيك

الخاص بالقنصل الأمريكى فى الإسكندرية، الذى أجر الاستوديو "الموجود فى حديقة السيد أمبرون، من أجل العمل الجيد والثقافة الإيطالية الممزوجة بالحس الفنى. "وأصر الوزير أن إنجلترا لا تريد أن تستوطن هنا فى الوقت الحالى ولكنها تراقب باستمرار الوضع وتنوى البقاء"، ثم أخذ يصف الإنجليز "على أنهم أكثر وحشية فى العالم، وعلى أنهم قساة فى اتهاماتها.[٣٧]"

لقد أثارت سلسلة من الأحداث هذه الملاحظات حيث كان هناك اثنان من اللاعبين البارزين وهم أصدقاء فورستر فى فترة الحرب: روبين فورنيس وجورج أنطونيوس[٣٨].

بعد العودة من الزيارة الصيفية إلى أمريكا عام ١٩٢٦، لاحظ برينتون "أن المرفأ بقى على حاله فهو قوى ومثير للاهتمام كما أنه عالمى. فهاتان السفينتان البريطانيتان للتذكير دائما بمن يمتلك مصر. فظهر السفينة مثل ضوضاء بشرية وتظل تذكرنا بأن الصوت العالى هو من هوايات المصرى القديم." [٣٩]

وبعد فترة مؤخرا جاءت عايدة بورشكريفينك لاحتساء الشاى، "مستغرقة فى تجاربها ومتحمسة أكثر من أى وقت مضى"[٤٠]. إذ عادت من عطلة صيفية قضتها فى إنجلترا، حيث كان فورستر ضيفها فى الكوخ الذى استأجرته فى منطقة البحيرة. لكن كان برينتون أكثر اهتماما بالأنباء التى جلبتها من إنجلترا عن صديقه السيد موريس أموس، المستشار القضائى للورد أللنبى والذى أكد تعيين برينتون فى المحكمة المختلطة وهو قريب من فورنس، السكرتير الشرقى فى المفوضية العليا، وأصبح مسئولا عن إعلان تصريح ١٩٢٢ الذى منح مصر الاستقلال. ومنذ ذلك الحين اندلع فى مصر العنف الوطنى الذى كلف الكثير من الموظفين والكثير من الوظائف التى أحضرت إلى مصر، وقد أعادت إنجلترا إلى مصر السفن الحربية،

فى تلك اللحظة كلف الانفجار الوطنى العنيف الذى نشب وظيفة هـذين الـرجلين (برينتون وفورنس)، وأعاد لمصر السفن الحربية التى رآها برينتون عند عودتـه إلى الإسكندرية.

وفى خريف ١٩٢٤ تم توجيه دعوة لرئيس الوزراء سعد زغلول، المرشـح الجديد لرئيس وزراء حزب الوفد، للذهاب إلى لندن لتشاور مع رمسى ماكدونالـد، رئيس أول حكومة عمال بريطانية، الذى كـان متعاطفـا مـع القـضية الوطنيـة المصرية. جاء هذا بعد تصريح سعد زغلول أنه علـى اسـتعداد للتفـاوض مـع الإنجليز "للوصول إلى اتفاق يضمن الاستقلالية التى يطالبون بهـا، إلـى جانـب احترام المنافع البريطانية هذه بطريقة معقولة ومقبولة."[٤١] والمنفعـة البريطانيـة المشار إليها هى دفاعهم عن قناة السويس، لكن عند وصوله إلـى لنـدن، أعلـن زغلول أنه لن يقبل أقل من انسحاب القوات البريطانية كشرط مـسبق للتفـاوض، بالفعل لن يترك أى شيء للتفاوض. المشكلة هى إلى جانب أنه كان يقـدم عرضًـا للبريطانيين، فإنه أصبح سجين العهود غير المشروطة الذى التزم بها أمام الـشعب المصرى، التى تتلاءم مع شعاره "الاستقلال الكامل أو الموت". فإن لغته المنمقـة، مثلما كان يتذكره ماكدونالد، كانت تعرض الجنود البريطانيين، الذين يخدمون فـى مصر بموجب شروط تصريح ١٩٢٢، إلى الخطر وخاصة السيد "لى أستاك"، قائد الجيش العام، الذى وصفه كل من الحاكم العام فى السودان والقائـد الأعلـى فـى الجيش المصرى "زغلول" على نحو قاس بأنه مضاد للكرامة الوطنية. وبعد عودته من لندن بخفى حنين ويملؤه الخوف من فقد دعم الشعب، نظم زغلول، فى منتصف نوفمبر، مظاهرة حاشدة ضد الملك خارج قصر عابدين فـى القـاهرة، مطـالبين بالهتاف "زغلول أو الثورة" لأنه يدعم الاعتراض الفردى للنقاط المتحفظة الأربعة. وقد اغتيل أستاك بعد ثلاثة أيام فى القاهرة على يد متطرفين من حزب الوفد.

شعر المفوض الأعلى اللورد أللنبى بالتضليل، وقد كان ضد المعارضة الداخلية البريطانية والجاليات الأجنبية الأخرى ورغم من تفهمات حكومته التى ساعدت على وضع مصر على طريق الاستقلال الكامل والذى كان يعتبر أستاك صديقا له. وقد فوض كل من أموس وفرنس، وهو شديد الغضب، بكتابة إنذار يطالب باتخاذ الإجراءات القوية والتعويضات، التى ستؤدى إضافة إلى أمر أللنبى أن تحتل القوات البريطانية الجمارك فى الإسكندرية، التى تعد من أكبر مصادر دخل الحكومة المصرية، إلى انهيار مقاومة سعد زغلول واستسلامه.

فى السنة التالية غادر اللورد أللنبى وحل محله اللورد لويد، الذى كان يلوم الأحداث التى رآها مؤلفو الحكومة المتحفظة الجديدة الذين حرروا تصريح ١٩٢٢. عمل أموس بالرعى فى حين كان فرنس مرشحًا لأن يصبح مدرس لغة إنجليزية فى كلية فؤاد فى القاهرة بعدما تم اكتشاف أن ليود يفضل "الطرق غير المباشرة"[٤٢] التى قدمها له مستشاره الخاص جورج أنطونيوس. وبناء على ذلك، دون مساعدة الكاتب المستقبل صاحب كتاب "النهضة العربية"، وصلت السفن المدفعية إلى ميناء الإسكندرية، بغرض إعاقة زغلول من استعادة رئاسة الوزراء بعدما فاز الوفد مرة أخرى بالانتخابات عام ١٩٢٦بأغلبية ساحقة. برغم وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧، تمكن حزب الوفد، فى العقد التالى، فى وقف كل محاولات التسوية مع بريطانيا.

تتمتع الجالية البريطانية فى الإسكندرية بمكانة اجتماعية أكبر من نسبة عددها، كما أنها تدين فى حروبها السياسية لمصر كما كانت تدين بنجاحها التجارى للكثير من أعضائها. العائلات مثل باركر وبيلس وكارفر، دائما ما يكفلون بكل حذر ميلاد أبنائهم البريطانيين وتعليمهم (أيتون، وينشستر،ساندهرست)، عاشوا وعملوا فى الإسكندرية لمدة جيلين أو ثلاثة وكانوا يمارسون أسماءهم فى تبادل القطن، مثلما كان ويتال فى إسطنبول وجاردين وسوير فى شنجى.

أنتونى دى كاسون (يمسك المجرفة) وأصدقاؤه فى حملة فى الصحراء عام ١٩٣٤. اكتشفهم جادج برينتون وزوجته جينيفا (المرأة طويلة القامة، الثانية من اليسار) التى ساعدتهم على إخراجهم من الرمال فى قصر الكاتاجى، ٢٨ كم شمال برج العرب. دى كاسون الذى كان الابن الشرعى لبراملى، لعب دورًا مهما فى مراجعة كتاب فورستر الإرشادى، وماروتيس، الذى نشر عام ١٩٣٥، كان من أهم مصادر دوريل عند كتابة رباعية الإسكندرية. كان يستخدم الأصدقاء مصنع براملى القديم للسجادة لقضاء فيه عطلة نهاية الأسبوع كنادى الصحراء، ثم عام ١٩٣٧، جاءوا إلى برج العرب بعدما حصلوا على تصاريح لبناء منازل.

برغم أن مجتمع الإسكندرية الكوزموبوليتان معزول بشكل كبير، وخصوصا فى الجوانب الإدارية والعسكرية. ونادى سبورتينج، الذى كان يرتاده البريطانيون للعب التنس، على الطريق السريع المؤدى إلى أستراليا، وأى لاعبين من أى شأن) فإن البريطانيين عمومًا يجدون طريقهم من أجل الوصول إلى دوراتنا الدولية"، فى

حين "أن فى العالم العربى النظامى والوظائف العسكرية البريطانية كان البولو فـــى الحقيقة سببا للاجتماع الأسبوعى مرتين طوال فصل الـــصيف، للعـــب الجولـــف والبولنغ والكروكيه والكريكيت، وهى ألعاب كانت تلعب بحماس دينى شـــديد (٤٣)". أسس البريطانيون النادى عام ١٨٩٠ وقد انعكست آفاقهم الاجتماعية علـــى تكـــوين لجنته العامة من ثمانية عشر عضوًا. بعد الحرب العالمة الأولى بعام، كان هنـــاك عشرة بريطانيين، واثنان يونانيين وواحد من يهود الإسكندرية إلى جانب بريطانى، وواحد أمريكى وواحد مسيحى سوري- لبنانى، فى حين مَثَّل المواطنين المصريين مسلم واثنان من الأقباط. العضو المسلم كان الأمير عمر طوسون، المشهور بأنـــه "ملك الإسكندرية" الذى ترأس النادى وكان ابن عم الملك فؤاد. كما كان هناك أيضا ثلاثة من أعضاء من الضباط السابقين، واحد كان من الضباط الدائمين فى الثكنات البريطانية فى مصطفى باشا، وآخر كان ضابطا من البحرية الملكية وتم اختيـــاره من سفينة زائرة والثالث كان مفوضا من شركة التلغراف الغربى، وهؤلاء متفقون فى الهوى مع كل البريطانيين الموجودين فى مصر، وغايتهم تأمين الـــصلة بـــين بريطانيا والهند. وبعامة فقد وجد برينتون، فى مدخل يومياته التـــى يكتبهـــا بعـــد العشاء الخاصة فى حقبة العشرينيات من القرن العشرين، أن البريطانيين ضـــعفاء وكسالى فى أساليبهم. من المحتمل أن تكون زوجته أكثر السيدات البريطانية مرحا وبساطة وجاذبية هنا.

لا داعى لذكر قلة الدوائر الإنجليزية التى لعبوا فيها تمثيليات مسابقات؛ كأن يقول المرء إنها من أفضل الأوقات التى قضاها البريطانيون فى الماضى. على أنها لم تكن سيئة فى ذلك الوقت. ومن المذهل رؤية بعض الأمهـــات القاســـية اللاتـــى يمشين فى محطة الرمل وينظرن أمامهن قبل التصرف بتلقائية عندما يـــأتين إلـــى

مثل هذه المؤسسات الوطنية كهذه. فالسيدات يدخلن هذه المجالات بحماس شديد وبالتأكيد فإن كل واحدة تبدو مقتنعة بأن هذا اللهو جزء من التسلية.

بعد ذلك، وفي حفل كينيث بيرلي في سان ستيفانو، اعتُبِرَ حفل عيد ميلاد ابنته حدثا جللا إلا أنه ترك انطباع الشيء المألوف، فقد أنفق ببذخ، ولكنها لم تجد فيها أي شكل من أشكال الإبداع أو الأناقة. ربما بسبب عدم إقرار الإنجليز هنا بهذا المؤهل الذي يشمل تجمعا كبيرا وعاديا مع وجود استثناء أو أكثر. تشعر بالسعادة في حالة قدرتك على الخروج بعد مرور نصف ساعة على منتصف الليل. لم يتسم الحدث بالتميز مقارنة بحفلات التسلية التي أقامها اليونانيون والشرقيون الآخرون في البلدة.(٤٤)

كان برينتون مستعدًا دائمًا للدفاع عن "إبداع الإسكندرية وموضتها" التي تعني بالنسبة له المجتمع الشرقي ضد المستعمرة الإنجليزية "المقلدة لأساليب الأثرياء الرثة".(٤٥) كان برينتون طويل القامة ونحيفًا ويتميز بوجه جانبي متعرج يشبه صخور جبال رشمور. لقد استمتع برينتون بمجتمع "السيدات اليونانيات والسوريات الأنيقات."(٤٦) وتكررت دعوات حفلات الشاي ومآدب العشاء ولعب البطاقات في منزل مايكل سالفاجوس الذي يعتبر مصدرا رئيسيا للقطن، فهو ناجح ورئيس للجالية اليونانية وفيلته الكلاسيكية (التي أصبحت فيما بعد مركزا للثقافة الروسية) وحدائقها التي تطل على ناصية شارع البطالمة وشارع الفراعنة هي مبنى كامل في قلب الحي اليوناني.

كانت أرجين زوجة سالفاجو "سيدة المجتمع" وجعلتها عيناها البنفسجية الساحرة "إحدى أجمل سيدات أوروبا كما كانت معبودة الجماهير في شبابها."(٤٧) كانت ابنة إيمانويل بيناكي الذي ختم زواجه من فيرجينيا كورمي تحالف العمل

الذى صنع من كورمى بيناكى والشركة أكبر مصدرى قطن فى مصر وأحد ثلاثة أو أربع مصدرى قطن فى العالم.

شاركت أرجين سالفاجوس أختها بينلوب دلتا وأخيها أنتونى بيناكى فى "السحر العائلي"(٤٨): حيث كان بيناكى أنيقًا (تميز بطريقته فى قلب أساوره على أكمام البالطو) وله شارب مدبب وأسلوب دمث مما جعله "أكثر الشخصيات أناقة فى الإسكندرية."(٤٩) امتلكت عائلة بيناكى الممتدة عدة منازل فى الحى اليونانى إحداها على ناصية شارع العباسيين وشارع الفاطميين حيث زار برينتون أنتونى بيناكى: "أعمل حتى الساعة الخامسة ثم أزور أنتونى بيناكى لشرب الشاى. كانت كلمات "حدث أنيق وجميل" هى الكلمات الأخيرة فى حفلات الشاى. يعتبر المنزل فريدًا يشبه المتاحف؛ حيث احتوى على مجوهرات وأسلحة وميداليات وبورسلين وزخارف وأنسجة تجسد أرقى أشكال الفن. بالإضافة إلى الرقص الذى يستمر بلا شك حتى وقت متأخر. ولكن على العودة إلى العمل (فى الكتاب)." (٥٠)

لفترة من الوقت كان بيناكى الروح المثيرة للمشاعر فى جمعية محبى الفن التى اشترك فيها برينتون من خلال اهتمامه بـ المجموعة الأدبية التى تعتبر مجتمع محاضرات ومناقشات: كتب برينتون عن بيناكى فى يومياته فى أواخر عام ١٩٢٦: "أقمنا نحن معرضين مع عدم وجود أى اقتراح تنسيق. فقد أنفق مالاً عندما أراد، بغض النظر عن ميزانيته إلا على أنه تسبب لنفسه فى عجز مادى. لا أعترض إلا على أن الوضع لم يتدهور. وهنا تكمن المشكلة؛ يستغل معظم الناس قدرًا من غرورهم الشخصى. كان مغرمًا بالفن ولكن لم تتجاوز فكرته عن النادى التظاهر بأغراضه وأغراض أصدقائه."(٥١)

ثم انتشر خبر مغادرة بيناكى مصر: "كانت مغامرة مسلية ما دامت متعة تدخين السيجار الكبير فى منازل جميلة متاحة، بينما تظاهرنا من اللجنة بإدارة النادى. لم نفعل شيئًا من هذا القبيل. يا لبيناكى من شخصية ساحرة! وسيم وأنيق ويتميز بأسلوب خاص يجعل منه شخصية بارزة فى أى مجتمع. من المتوقع أن يغادر الإسكندرية ليسكن منزلاً جميلاً فى اليونان إلا أننى سأفتقده." (٥٢) ومن المتفق عليه أن جمعية محبى الفن ليس لها خيار إلا معاكسة التيار؛ حيث كان بيناكى "مسئولاً مسئولية كاملة عن الميزان السخى الذى تطلب به مصروفاتنا، أى إنه كان يطلبها ويدفعها. ناقشنا استحسان العرض النهائى الخاص بفن القرن السابع عشر وقررنا المرور بالتجربة. اهتم البارون بتكوين شركة صغيرة مفعمة بالحياة. حيث يعير الشرقيون الأغنياء بالطبع أفضل قطعهم ويدعون أصدقاءهم ليعجبوا بها. وفى نفس الوقت نتمنى استقلال مجموعتنا الأدبية". (٥٣)

ولكى ترى محتويات ١١ شارع الفاطميين اليوم عليك زيارة متحف بيناكى الشهير فى أثينا (أصبحت "بيناكي" النسخة اليونانية الأكثر قبولاً من بين "بيناشيه"). المجوهرات اليونانية والقماش والتطاريز اليونانية والرومانية والقبطية والباب الخشبى المحفور من القرن التاسع عشر من بغداد والأوانى الزجاجية الفاطمية والعباسية وغرفة الاستقبال التى تتميز بطراز القرن السابع عشر من منزل إسلامى فى القاهرة وكل شيء متدل ارتدته ذات مرة كريستينا ملكة السويد؛ شحن بيناكى كل هذا وأكثر من الإسكندرية فى ربيع ١٩٢٧ ومنحه للدولة اليونانية بعد مرور أربعة أعوام وقدمه إليها.

كانت سميرنا بمثابة تحذير من الحلم اليونانى فى مصر. أحدثت هذه الكارثة قلقًا بشأن علو الوطنية المصرية، بالإضافة إلى أنه من المتوقع أن يتفاوض

البريطانيون على إنهاء الامتيازات الأجنبية أو مساومة نقطـتهم المحجـوزة التـي تحمى الأجانب والأقليات الجالية اليونانية فى الإسكندرية. وفى نفس الوقت عـزز وصول مليون لاجئ ونصف من آسيا الصغرى وجود مجموعة واسعة من العمالة الرخيصة وسوقا جديدة للبضائع المحلية للتنمية الاقتصادية فى اليونـان، وبـشكل تدريجى تم تهميش الإسكندرية اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا؛ حيث عززت أثينا موقعها كمركز حضارة اليونان القديمة الوحيد.

وفى نفس العام الذى غادر فيه بيناكى الإسكندرية كتب عالم تاريخ الجاليـة اليونانية: "تفقد حضارة اليونان القديمة فى مصر أرض أجدادها يوما بعد يـوم."[٥٤] بينما ملأ كفافيس الذى احتفل بلحظة الانطلاق شوارع المدينة "بموسـيقى رفيعـة المستوى وأصوات" وربما كان غير سعيد عندما تذكر أنـه آخـر أمثلـة المدينـة وأعظمها، لم يعترض عندما لاحظ أحد أصـدقائه توقـف الحركـة الأدبيـة فـى الإسكندرية. وقال: "إذا توقفت الحركة الأدبية هنا لم تفقد الإسكندرية أى شيء؛ لعل هذا أفضل للجميع فقد استطاع هؤلاء الشباب تكريس أنفسهم للتجارة."[٥٥]

حاول بيناكى اصطحاب صديقه كفافيس إلى أثينـا إلا أن الـشاعر رفـض مغادرة الإسكندرية رفضًا قاطعا وتوفى فيها فى عام ١٩٣٣. وكان يحب أن يـردد "إن ميدان محمد علىّ هو بمثابة عمتى وشارع شريف باشا يمثل ابن عمـى الأول وشارع الرملة يمثل لى ابن عمى الثانى، فكيف أترك أقاربى وأرحل؟"[٥٦]

إن البنائين الإيطاليين الذين أقاموا مدينة الإسكندرية لم يهجروهـا، وكـانوا أكثر من أى جالية أخرى، معظمهم من المهندسين المعماريين ومهندسـى مدينـة الإسكندرية الحديثة. ولكن كثيرًا من الجاليات الأخرى تشبه الجالية اليونانية، فـإن الإيطاليين كانوا أقل تنظيما والنخبة بينهم أقل عددا، وكانوا عموما أكثر المستويات

الاجتماعية تواضعا. فاليونانيون كانوا مقاولين ذوى عقليات مستقلة شقوا طـريقهم فى العمل مع المشروعات الكبيرة والصغيرة، سواء فى تجارة القطـن أو اسـتيراد التبغ وتصدير السجائر مثل كبار رجال الصناعة أو البقالة أو أصـحاب المقـاهى، والعدد الكبير منهم أيضا يشغلون أعمالا مكتبية. وانطبق القليـل مـن هـذا علـى الإيطاليين الحقيقيين، وقد كانت معظم أعمالهم أعمالا يدوية ومكتبية.

غير أنه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، لعب الإيطـاليون دورًا مهما فى تنمية إدارة مصر وخدماتها مما برر وجود لكنة الأجانب فى وقت مبكـر ليس فقط فى الإسكندرية ولكن فى البلاد بأسرها. كمـا أداروا الخـدمات الطبيـة والصحية وكثيرًا من خدمات البريد إلا أنهم انسحبوا أمام الإداريـين البريطـانيين والمصريين. على نحو متزايد احتالت أعداد كبيرة من الإيطاليين فى وجود حيـاة كادحة بالعمل كشاحذى سكاكين ومضيفين وبنائين وقبلوا أجورًا تقل عـن أجـور الأجانب الآخرين. عندما خصص محمد علـى رباعيـات الإسـكندرية للجاليـات الأجنبية المختلفة فى ١٨٣٠ أعطى الأرض التى تقع شمال الميدان الذى حمل اسمه فيما بعد للبريطانيين الذين قاموا ببناء كنيسة القديس مـارك، والأرض التـى تقـع جنوب الميدان للفرنسيين واليونانيين، وتنازل عن الأرض التى تقع شرق الميـدان المتاخمة للمدينة التركية القديمة على لسان الأنفوشى وكرموز على جانب راكوتيس العتيق التى تحولت فى أواخر القرن التاسع عشر إلى حى فقراء لا يختلـف عـن أحياء الربع الرئيسى للإيطاليين ولم ينس العديد من قاطنيه أصولهم الإيطالية.

لم يحل طموح إيطاليا الخـارجى مـشاكلهم. سـعد أهـالى رودس وبقيـة الدوديكانية بتحررهم من الأتراك فى عام ١٩١٢ ولكن أغضبهم قـدوم محـرريهم الإيطاليين وبقاؤهم مما سبب خصومة الدوديكانية وبقية اليونانية للجالية الإيطاليـة فى الإسكندرية. لم يكسب فتح ليبيا الإيطالى فى عام ١٩١١-١٩١٢ أى أصـدقاء

في مصر المسلمة وعانت سمعتهم كثيرًا عندما طردهم بدو السنوسية الذين سلحهم الأتراك والألمان في ليبيا أثناء الحرب العالمية الأولى.

تلك كانت حالة الجالية الإيطالية في الإسكندرية، عندما تسلم موسوليني مقاليد الحكم في عام ١٩٢٢ حافظ في إيطاليا على الملكية إلا أنه أنشأ ديكتاتوريته الفاشية الخاصة وبدأ في ليبيا نزاعًا دام عشر سنوات. رأى العديد من الناس أن الفاشية كانت تعني شيئًا في ذلك الوقت يختلف عما تعنيه في وقت لاحق وكانت الجالية الإيطالية في الإسكندرية أفقر من أن توفر قوت يومها وامتنت للمال الذي تدفق من إيطاليا موسوليني لبناء مستشفيات أفضل ومدارس أوسع ودعمها بموظفين يتقاضون مرتبات مجزية وفتح نواد والقيام بنزهات قصيرة وإرسال التلاميذ إلى إيطاليا لقضاء عطلات الصيف مجانًا.

كانت فكرة أن البحر المتوسط كان مشهد عظمة الرومان في وقت ما -وتشهد نصبه التذكارية القائمة حول البحر لنا- جزءًا من مناشدة موسوليني. إذ منح اسم الإسكندرية اليونانيين ادعاء للإقامة، فقد نبهت ذكرى موسوليني المزدهرة من جديد الخاصة بأنتوني المنتصر الجالية الإيطالية في المدينة بأن الإسكندرية كانت في وقت من الأوقات ملكًا لهم.

بالإضافة إلى تجديد المجتمعات والمكان في العالم ازدهر شعور التباهي بالفخر الوطني الذي شعرت به طبقات المدينة المتدنية. تعلمت الجالية الإيطالية في الإسكندرية تعليق العلم وارتفعت صور الملك في مدارسهم وكتبوا على سبورات مدارسهم: "أيتها الشمس لا ترين أي شيء أعظم من إيطاليا وروما أو أجمل منها."[٥٧] وسرعان ما صاحبتها صور الدوتشه نفسه وارتدى أطفال الجالية قمصانا سوداء وأربطة عنق زرقاء والتحقوا بالشباب الفاشي.

اصطحب برينتون ديلا روفر وهو إيطالى سكندرى فى هيئة المحكمة لشرب الشاى عندما عاد إلى منزله من الرملة فى أحد الأيام بعد الظهر فى أواخر عام ١٩٢٦. "تحدثنا حديثًا مشوقًا عن إيطاليا الجديدة؛ فقد كان نشطًا فى الحركة الفاشية التى يوجهها والتى يبلغ عدد أعضائها ٥٠٠ عضو. يمنحك الحديث مع صديق مثله قوة الحركة الأساسية فى قدرتها على ضمان اعتقاد الزملاء كثيرى الاهتمام المنتمين للطبقة الوسطى والحماسيين مثله ووعدنى بإرسال المواد المطبوعة." (٥٨)

"فى يوم الخميس ٢٠ يناير ١٩٢٧: تناولت شايًا عند سيدة عجوز مجهولة متعمقة فى الصوفية الدينية كما تحدثت معى لمدة ساعة عن العبادة الهندوسية حيث من الواضح أنها اعتقدت أننى قد أتحول. وتأثرت بسحر شخصيتها، ولكن بدا لى كل شيء قالته أكثر الافتراضات المجانية نقاء، ولكن إذا استطاعت تطبيقها هى والآخرون فقد أحسنوا عملاً."(٥٩)

كخليفة لفيرنس عينت وزارة الخارجية والتر سمارت وزيرها الشرقى فى طهران الذى استطاع تحويلها إلى أولى نقاط عمله فى شارع لبسيس قبل الهبوط فى الإسكندرية فى أثناء صيف السفينة المدفعية فى عام ١٩٢٦ قبل اللحاق بالقطار المتجه للقاهرة. للتفاوض بشأن بيت الدعارة الكائن فى الطابق الأرضى صعد الدرج وتوجه إلى شقة كفافيس؛ حيث نسج حوار الشاعر العجوز سحره مفاده أنه نسى الهدف من قدومه لمصر وفكر فى التأنيب القاسى الذى تلقاه عندما تقلد منصبه بعد مرور أيام عديدة. وبرغم وصف جرافتى سميث الذى عمل سمارت فى القاهرة كأحد "عمالقة" الخدمة الأجنبية بأنه رجل يحمل "أدق صفات طبقة السفراء"(٦٠) فإنه لم يكن ليصبح سفيرًا إلا فى خيال لورانس دوريل. خلال الحرب العالمية الثانية صادق سمارت دوريل الذى أقر فيما بعد أنه "نموذجى لماونت فيل"(٦١) السفير البريطانى فى مصر الذى كان اسمه عنوان الجزء الثالث من رباعيات الإسكندرية.

ثم حرمان سمارت على نحو مؤثر من التقدم فى طبقة السفراء عندما سمح لزوجته بطلب طلاق لا نزاع فيه بعد وصوله القاهرة بفترة. وفى النهاية فى عام ١٩٣٢ تزوج آمى نمر التى عادت من حياة بلومزبيرى البوهيمية إلى وطنها فى مصر سيدة تحمل شكلا جديدا وتسريحة شعر إتون وتذوقًا لرواية عوليس "Ulysses" لجيمس جويس وإبداع الطليعة الفرنسية وموهبتها كرسامة لامعة وقد طورتها فى كلية سليد للفنون الجميلة.

كانت جذور آمى من النوع المتقدم. سوريا الكبرى (والتى تضم حاليا سوريا ولبنان والأردن وإسرائيل) قد غزتها القوات التركية فى عام ١٥١٦ وانتصرت على مصر فى العام التالى وأصبحت مصر جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. وبدأت أولى حركات المقاومة العربية ضد الحكم التركى فى عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وبدأها العرب المسيحيون فى بيروت متأثرين بالثقافة والأفكار السياسية الغربية. ولم تنجح حركتهم فى جذب دعم العرب المسلمين، إذ كان المسلمون أقل معارضة للأتراك الذين أحسوا معهم بصلة وألفة دينية وليست عرقية. أصبحت مصر تحت حكم الخديويات ومنذ عام ١٨٨٢ أصبحت الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى استطاعت تحت الحكم البريطانى تحقيق شيء يشبه المعايير الأوروبية سواء كان ماديًا أو سياسيًا، وجذبت العديد من اللبنانيين والسوريين المسيحيين من ضمنهم فارس نمر الذى التحق بكلية البروتستانت السورية (التى أصبحت الآن الكنيسة الأمريكية فى بيروت) وتحول من أرثوذكسى يونانى إلى أنجليكانى. عندما أمر السلطان العثمانى باعتقال المواطنين العرب وإعدامهم سبح نمر حتى وصل إلى سفينة راسية فى ميناء بيروت وأبحر إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة حيث أسس صحيفة المقطم المؤثرة التى لاقت ترحيبًا دافئًا على الرغم من رؤيتها غير الناقدة للبريطانيين. أنجبت له

زوجته ثلاث بنات رائعات كانت آمى إحداهن وكانت الأخرى كاتى التى تعتبر قومية عربية متحمسة وتزوجت جورج أنطونيوس.

بحلول الحرب العالمية الأولى سخط العرب على الأتراك الذين توسعوا ليشملوا أعدادًا هائلة من المسلمين والمسيحيين واعتقد سكان الجزيرة العربية وسوريا الكبرى حصولهم على تحقيق المصير بالانضمام إلى البريطانيين ضد الأتراك. انطبق هذا على فلسطين أيضًا التى بلغ تعداد سكانها العرب المسلمين والمسيحيين فى هذا الوقت حوالى ستمائة ألف مواطن. بالإضافة إلى استقرار ثمانين ألف يهودى معظمهم من بولندا وروسيا ممن دخلوا فلسطين فى أثناء القرن التاسع عشر هربًا من مواجهة المذابح المنظمة والاضطهاد؛ من ضمن هؤلاء اتبع اثنا عشر ألف يهودى الحركة الصهيونية التى بدأت فى فترة ١٨٨٠ فى الوقت الذى أسس فيه فارس نمر وزملاؤه حركتهم للاستقلال العربى. كان ضعف الإمبراطورية العثمانية الواضح ثم فرصة تشكيل عالم جديد عاملاً مشتركًا حيث تطلع اليهود والعرب لإنجلترا لتحقيق أهدافهم المتصارعة.

عندما وصف جيدج برينتون الإسكندرية بأنها "ذكية وراقية وتتجاوز أى مدينة فى البحر المتوسط" [٦٢] لم يفكر فقط فى مسرح الحمراء الجديد الكائن فى شارع المسلة ومسرح محمد على فى شارع فؤاد؛ حيث رقصت بافلوفا وتولى توسكانينى قيادة الفرقة وحيث أضاءت نجوم لاسكالا موسم الأوبرا وحيث شركات زائرة تعاقب مسرحيات من باريس ولندن. على الرغم من تحفظاته على جمعية محبى الفن فإنه وضع لمعان المدينة الحقيقى فى منازلها العظيمة حيث قدم هؤلاء الذين "يمثلون شركات العمل القديمة التى بنت المدينة المزدهرة وجلبت أسرها ثقافة الدول الأجنبية وتقاليدها للمدينة المعارض والمحاضرات والحفلات الموسيقية وحفلات التسلية المسرحية. من ضمن هذه الشركات مثّل اليهود مكانة مرتفعة فى

العالم الاجتماعى وتمتعوا بها كما برزوا فى حياة المدينة الفكرية. فى الحقيقة يختار المرء الاجتماع بالشخصيات البارزة فى العالم الأدبى الأوروبى فى المنازل اليهودية."(٦٣)

كان برينتون يفكر فى منزل بارون فيلكس دى ميناشا الهائل المتعرج الكائن على ناصية شارع ميناشا وشارع الرصافة فى محرم بك تحديدا. عاش بارون جورج دى ميناشا ابن فيلكس من زوجته الأولى هناك أيضًا وكان أكثر من عازف بيانو كلاسيكى كفء، وقد أصبحت حفلاته الموسيقية التى تقام أيام الثلاثاء بعد الظهر ويصاحبه فيها أصدقاؤه مؤسسة سكندرية. وكان جين أخوه غير الشقيق ابن فيلكس من روزيت زوجته الثانية أحد أصدقاء كفافيس وكان متعهد شعره؛ كما قابله فورستر فى منزل ليدى أوتولين موريل. عندما يعود جين من أوروبا للإقامة مع أسرته فى الإسكندرية يتحدث عن صداقاته مع مجموعة متنوعة من الشخصيات الأدبية ومن ضمنهم توماس تيرينز إليوت الذى وصفه قائلاً إنه "أفضل مترجم قابلته"(٦٤) فقد ترجم "الأرض الضائعة" ثم "أربعاء الرماد" و" بائع الكوكايين الشرقي" وأعمال إليوت الأخرى إلى الفرنسية. عاشت ابنتا فيلكس وروزيت فى المنزل أيضًا حتى تزوجت دينيز ألفرد مواس الذى تدرب فى المحاكم المختلطة وأقامت كلير عدة سنوات بعد زواجها من جاك فينسوندون الذى كان أمين عام البنك العقارى المصرى الذى كان والدها مديره. وقعت كلير فينسوندون فى غرام المسرح وهو شيء عرفه برينتون ومعظم الناس الآخرين، فقد مثلت فى حفلات التسلية وصممت ملابسها فى المنزل الكبير فى شارع الرصافة حيث أنجبت ابنتها كلاود فى عام ١٩٢٥.

عندما قام حاييم فايتسمان- زعيم منظمة الصهيونية العالمية وأول رئيس لإسرائيل- بأول زيارة له للإسكندرية استقر فى منزل بارون فيلكس دى ميناشا وزوجته روزيت والدى أم كلاود فينسوندون التى أصبحت فيما بعد زوجة لورانس دوريل الثالثة. ولكنه لم يقابلها عندما كان فى الإسكندرية فقد اخترقت حياته فى قبرص منذ عشر سنوات فى عام ١٩٥٥ عندما كان يكتب جاستين وبعدما هجرته زوجته الثانية إيف كوهين. وهناك لم يلهمه لقاؤه غير المتوقع بكلاود إنهاء كتابه فحسب بل ألهمه التوسع أيضا فيما لم يقصد كتابته إلا كرواية وحيدة إلى ربع امتدادها سنوات الحرب والحرب العالمية الثانية فى الإسكندرية؛ حيث ذكرت فيها شيئًا من ذكرياتها عن المدينة بالإضافة إلى شخصيات وقصص من تاريخ أسرتها.

انتمت أسرة ميناشا مثل معظم اليهود فى مصر للسفارد الذين عاشوا فى أراضى المسلمين لدى تقسيم عالم القرون الوسطى بين الإسلام والمسيحية. فقد التزموا بنفس النظام اللاهوتى والممارسات اليهودية الأساسية الخاصة باليهود الأشكناز الذين ينتمون لأوروبا المسيحية وإن اختلفوا عنهم فى خبرتهم الثقافية والتاريخية. على عكس الأشكناز استمتع السفارد (تعنى الكلمة إسباني) بمجتمع أيبريا المسلم الأكثر تسامحًا حيث قبلهم الأمراء العرب كمواطنين متساوين وحيث تقلد اليهود مناصب عليا فى الحكومة وازدهروا فى التجارة وبرزوا فى التخصصات المعروفة حتى طردهم الاسترداد المسيحى من إسبانيا فى عام ١٩٤٢ ومن البرتغال فى عام ١٩٤٧. وانتقل العديد من اليهود المنفيين السفارد إلى إيطاليا ولجأ معظمهم إلى أقاليم الإمبراطورية العثمانية التى تطل على البحر المتوسط. (تطورت الثقافة اليهودية الأيبرية وعزم اللاجئون السفارد على السيطرة على

الجاليات اليهودية الشرقية فى المناطق التى استقروا فيها لتفسير سبب تسمية الأهالى اليهود فى البلاد الإسلامية سفارد على الرغم من عدم نسب العديد منهم إلى أصل أسبانى أو برتغالى فى الحقيقة.) فى مصر قبل القرن التاسع عشر على الرغم من توجيه قدر من الإجحاف وسوء المعاملة العام لكل الأقليات غير المسلمة فى ذلك الوقت ، فإنهم استمتعوا بحرية الدين وحكم أقل قمعًا من أى مكان آخر فى الإمبراطورية العثمانية حيث كانت الظروف بدورها أفضل من الظروف التى تحملها الأشكناز فى أوروبا الشرقية. فى ظل هذه الظروف المريحة نسبيًا أصبحوا تجارا ومرابين وملتزمى ضرائب ورسوم جمارك بارزين(٦٥).

بقدوم محمد على تشجعت الهجرة اليهودية من إيطاليا واليونان بشكل رئيسى خلال الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٤٠ كجزء من برنامجه لتطوير مصر وتحديثها بمساعدة الاستثمار والخبرة الأجنبيين، وفى الحقيقة ازداد عدد اليهود كمكون إضافى فى عموم الأقليات الأجنبية. جاءت موجة جديدة من السفارد إلى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من شمال أفريقيا وإيطاليا وتركيا وسوريا والعراق لينعموا باستقرار الحكم البريطانى وتحرره. كان السفارد – أس الصهاينة الزائرين ومنهم الصحفى الفيينى الذين قال إن "مصر تظل أكثر الدول حرية فى العالم" فى عام ١٩٠٤ إلا أنه اشتكى من نتيجة أن يهودها "لم يتفاهموا" فى "مواجهة كل قضايا الثقافة أو الأمة اليهودية." (٦٦)

بارون فيلكس دى ميناشا مع ابنتيه (من اليسار إلى اليمين) كلير ودينيس وابنه جين. كانت أسرة ميناشا ضمن أكثر الأسر فى المجتمع السكندرية وأسهموا إسهامات مهمة فى تألق حياتها الثقافية وتطورها.

كان هذا هو العالم الذى انتمى له ميناشا. طبقًا لفيلكس ميناشا قدمت الأسرة إلى مصر عن طريق حلب التى تعتبر مدينة ذات مركز تجارى عظيم تقع فى شمال سوريا؛ حيث يتم جلب التوابل والأقمشة والمعادن الثمينة والجواهر محملة على ظهور الجمال من الشرق للمصنعين الأوروبيين. لعب اليهود فى حلب والقاهرة حيث استقر ميناشا فى القرن الثامن عشر دورًا رئيسيًا كتجار ومرابين حيث سيطروا على الأسواق واحتكروا تجارة القوافل فى أيديهم.(٦٧)

ولد جد فيلكس دى ميناشا فى عام ١٨٠٧ فى حارة اليهود بالقاهرة غـرب خان الخليلى السوق الشهير فى قلب المدينة ونشأ فيه ليصبح المـصرفى الخـاص بالخديوى إسماعيل. كان يعقوب (جاكوب) ليفى ميناشا (كان الاسم الأصلى ليفـى ولكن فى وقت ما فى القرن التاسع عشر إن لم يكن قبله تم إضـافة لقـب ميناشـا الشكل الفرنسى لميناش العبرى أو منشة العربى وتعنى أداة لطـرد الـذباب) أحـد رجال الأعمال فى مصر الذين استغلوا الفرص التى عرضـتها علـيهم التجـارة الأوروبية ومؤسس المصرف الدولى "جى إل منياشا وأبناؤه". وتم إضافة دى فـى عام ١٨٧٦ عندما حصل على الجنسية المجرية، بالإضـافة إلـى لقـب بـارون الإمبراطورية النمساوية لإطرائه على أشرعة تجارة هابسبرج بين منطقة أدرياتيكا والشرق. قسم انتقاله من القاهرة إلى الإسكندرية فى عام ١٨٧١ الجالية اليهوديـة فى الإسكندرية عندما عارض البارون المتمسكين بالتقاليد على الـرغم مـن عـدم وضوح التفاصيل. تم سد الشق لاحقًا ولكن فى نفس الوقت أقام مؤسـسة مـدارس ميناشا فى شارع السلطان حسين التى درس فيها كاثوليك رومان التعليم العلمـانى لأعضاء الجالية اليهودية الأقل غنى. (هنا حيث تم حفر المؤسسة تم اكتشاف عمود السوارس الهائل الذى ارتفع فى الحدائق البلدية لإحياء ذكرى اسـتعادة الخرطـوم وهو نفس العمود الذى اجتمع عنده فورستر ومحمد لأول مرة.) كمـا بنـى معبـد ميناشا ربما لمعارضة الحاخامات ومعبدها الكبير، فى شارع النبى دانيال يقع معبد ميناشا بجوار الحدائق الفرنسية، كما أنشأ مقابره بالقرب من المقابر البروتـستانتية والقبطية واليونانية والسورية والأرمينية والكاثوليكية فى الشاطبي؛ حيث دفن فـى عام ١٨٨٢ وما زال مدفونًا هناك ضمن مجموعة من بارونات ميناشا (انتقل اللقب إلى أسلافه ذكورًا وإناثًا) وأعضاء آخرين من طبقة اليهود العليا فى الإسكندرية.

انتقلت شركة جى إل ميناشا المصرفية لأحفاد يعقوب جاك وإيلى وفيلكس وألفرد ميناشا الذين أرسلهم إلى أوروبا لاستكمال تعليمهم وإدارة فروع الشركة المختلفة هناك قبل عودتهم إلى الإسكندرية. درس فيلكس المولود فى ١٨٦٥ فى فيينا واتجه إلى إنجلترا عندما أتم عامه العشرين؛ حيث تحمل مسئولية فرع البنك فى لندن وفى نفس الوقت مد جاك الذى كان رئيس الأسرة والشركة مجال مصالح عمل ميناشا فى مصر حيث غامر فى إنشاء السكك الحديدية وأعمال الماء واكتسب ملكية أراضى ممتدة فى مصر العليا والدنيا بشكل أساسى لزراعة السكر والقطن.[٦٨] وفى عام ١٨٩٠ بنى جاك بالتعاون مع أخوته مستشفى ميناشا التى اشتهرت وسط المرضى اليهود وغير اليهود على حد سواء وأصبح رئيس الجالية اليهودية فى الإسكندرية فى نفس العام واستقر فى هذا المنصب لمدة أربعة وعشرين عامًا حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى التى حولت الجالية إلى "نموذج ترتيب وتنسيق" حتى مع الصهاينة الذين فضلوا السخرية من الانسجام بين الجاليات معلقين على انخفاض مستوى التوتر الاجتماعى والدينى فى الإسكندرية.[٦٩]

ومقارنة بأخيه الأكبر سنًا انغمس جاك فيلكس دى ميناشا فى الملذات؛ حيث تقاعد من عمله بحلول عام ١٩١٤ لمدة عشرين سنة على الرغم من عدم بلوغه سن الخمسين وعلى الرغم من استمراره فى إدارة شركاته ومؤسساته المصرفية العديدة واشتراكه فى أنشطة الخير المحلية، فإنها لم تتجاوز اشتراكًا نظريًا من رجل يعطى انطباع أنه كرس نفسه للاستمتاع بثروته الهائلة. يتذكر حفيده جاك مواس أنه ورث عن أسرته "قدرته على المرح الدائم والعيش فى الحاضر وعدم الندم على الماضى وعدم الاندهاش من أى شيء قد يحدث فى المستقبل." لم يكن رجلاً متدينا بالتأكيد: "لا أتذكر قضاء عيد يهودى فى منزله وتقول أمى إنها تتذكر عدم حدوث شيء من هذا القبيل." وظل على هذا الحال حتى وفاته ولكن أدت

عواقب الحرب غير المتوقعة وزواجه من سيدة جميلة وغامضة ورائعة إلى فكـرة أن فيلكس دى ميناشا يناضل من أجل فكرة عظيمة مثل أقرانه أسرة بيناكى.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ وجدت أسرة ميناشـا نفسها كمواطنين نمساويين مصنفين كأعداء للبريطانيين. وأجبر جـاك دى ميناشـا على تقديم استقالته من منصب رئيس الجالية اليهودية بالإسـكندرية التـى نعمـت بحماية الإمبراطورية النمساوية مثل أسرته. كان خليفته إدجار سـوارس الممـول قريب نسب من بعيد ولكن حيث قدمت أسرته من إسبانيا عبر ليفرونو كان مواطنا إيطاليا وحليف بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى. واقترب سوارس من المندوب السامى فى مارس ١٩١٦ ،حيث أكد أن بعض اليهود فضلوا الحماية الألمانية على فلسطين ولكن استطاعت بريطانيا إلزام الشعب اليهودى فى العالم بقضيته بإنـشاء حماية وفتح فلسطين لليهود الذين أداروا شئونها الداخلية.

قدم المصرفى والسياسى الليبرالى سير/ هيربرت صاموئيل أول يهودى غير معمد يعتلى منصب رئيس الوزراء اقتراحا مشابها للحكومة البريطانية فـى العـام السابق بعد اجتماعه بحاييم فايتسمان. قدم تشارلز بيرسى سكوت الذى كان ليبراليا سابقا ومحرر مانشستر جارديان الذى اكتشف أن فايتسمان الـذى يعتبـر مواطنـا بريطانيا مولود فى روسيا لصاموئيل "تركيبة نادرة من المثالية والعملية الـصارمة التى تشكل ضروريتى فن إدارة شئون الدولة اليهودية. صدمنى شعور اليهود المتقد والمتوهج كيهود فى وجهة نظره وطلبه دولة أى وطن يعتبر وطن عرقه العتيق له ولأى شخص آخر يشاركه الجنسية اليهودية." (٧٠) كتب بنيامين دسرائيلي (٧١) الـذى تحول من سفاردى إلى أنجليكانى وكان رئيس وزراء استعماريًا فى تـورى فـى تانكرد، وهى ما تؤكده روايته الرومانسية الغنائية فى عام ١٨٤٧ كان يلقيها يهودى فى نبوة القدس أن " الإنجليز سيستولون على المدينة ويحتفظون بها." ولكن تجاهـل

فايتسمان رومانسية سكوت فى قراءة الإنجيل لم يزعج معارضة سكوت الليبرالية لامتداد التزامات بريطانيا الاستعمارية، حيث أخبره فايتسمان فى نوفمبر ١٩١٤ أن فلسطين لن تنال الاستقلال ولكن تعد حليفا، أى "بلجيكا أسيوية فى أيدى اليهود" الذين "يشكلون مصدا قويا لحماية قناة السويس." (٧٢) اجتمع فايتسمان وصاموئيل لأول مرة فى ديسمبر من نفس العام وفى بداية مارس ١٩١٥ اقترح صاموئيل على مجلس الوزراء فرض حماية بريطانية على فلسطين ومستوطناتها فى فترة يمنح فيها ثلاثة ملايين يهودى أو أربعة ممن يشكلون أغلبية سكان ساحقة حكومة ذاتية. وفى وقت لاحق من نفس الشهر بمقارنة الدور اليهودى فى فلسطين بالدور البريطانى فى مصر أخبر فايتسمان سكوت أن اليهود "يستولون على البلد كلها حيث يقع عبء التنظيم عليهم ويعملون تحت الحماية البريطانية المؤقتة". (٧٣)

فى ١١ ديسمبر ١٩١٧ دخل جنرال أللنبى القدس مشيًا بعد أن تذكر أن أحد الحمير يكفى لشخص أعظم منه وهو فاتح المدينة المسيحى منذ ثمانمائة عام. ولكن فى نفس الوقت حقق فايتسمان انتصارًا آخر عندما أعلنت الحكومة البريطانية بيان سياستها بشأن الطموح اليهودى تجاه فلسطين عندما كان الليبرالى لويد جورج رئيس وزراء وآرثر بلفور وزير خارجية. كان إعلان بلفور الشهير فى ٢ نوفمبر: "تستحسن حكومة جلالتها تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وتبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف ومن المفهوم على نحو واضح عدم القيام بأى شيء يخل بالحقوق المدنية والدينية بالمجتمعات غير اليهودية فى فلسطين أو الحقوق أو الوضع السياسى الخاص باليهود فى أى بلاد أخرى.."

تأجل إعلان الإعلان للتاسع من نوفمبر تاريخ نشر صحيفة أحداث اليهود فى لندن التالى على الرغم من اعتبار الصحافة البريطانية عامة والحكومة للإعلان كحدث ثانوى. فى ١١ نوفمبر فى الإسكندرية فى مشاهد تذكرية إن لم تكن بميزان

استقبال اليونانيين لفينيزيلوس منذ عامين ونصف تجمع ثمانى آلاف يهودى لحث فايتسمان على الترحيب بالأخبار. وبعد مرور أربع شهور فى مارس ١٩١٨ أبحر فايتسمان نفسه إلى ميناء الإسكندرية ورحبت به جموع اللاجئين اليهود الغفيرة والحماسية من فلسطين يلوحون باللافتات الصهيونية (التى أصبحت علم إسرائيل) ويغنون (النشيد الصهيونى والنشيد الوطنى الإسرائيلى حاليًا) كما رحب به عدد من الوجهاء يتزعمهم إدجار سوارس وبارون فيلكس دى ميناشا.

تذكر سكندرى يدعى برنارد دى زغب أن "روزيت دى ميناشا امرأة مذهلة فقد كانت فرنسية حقًا سيدة متوهجة صهباء الشعر تتميز بشخصية رائعة وحياة غامضة قبل زواجها من البارون." ولدت فى باريس فى عام ...؟ وهنا تبدأ الصعاب. فقد سأل أحدهم ضابطا إنجليزيا صغير السن خلال مأدبة عشاء فى أثناء الحرب العالمية الثانية: "كم يبلغ عمر السيدة التى تقف هناك؟" وأجاب بعد طول الطاولة ووجهها فى ضوء الشموع: "حوالى ثلاثة وعشرين عامًا." فى الحقيقة كانت تقترب من السبعين ولكن لم يكن أحد على يقين. مات فليكس عن عمر يناهز ثمانى وسبعين عاما فى عام ١٩٤٣ بعد أن قيده الشلل لمدة عقد فى منزله الكبير فى محرم بك، ولكن عندما توفيت روزيت فى عام ١٩٤٩ لم تستطع حتى أسرتها تقدير عمرها: فقد تغلبت على القنصل الفرنسى لتغيير جواز سفرها لإخفاء تاريخ ميلادها الحقيقى وبدت عيناها الزرقاوان وملامحها الدقيقة أصغر بكثير من عمرها الحقيقى.

لم تكن روزيت تبلغ عامها العشرين عندما وصلت إلى الإسكندرية فى أوائل ١٨٩٠ كعشيقة (ربما زوجة) جورج فيليبارد مدير عام البحرية لخدمات البريد. ولكن كيف تزوجت فيلكس دى ميناشا وكيف كانت حياتها قبل الزواج؟

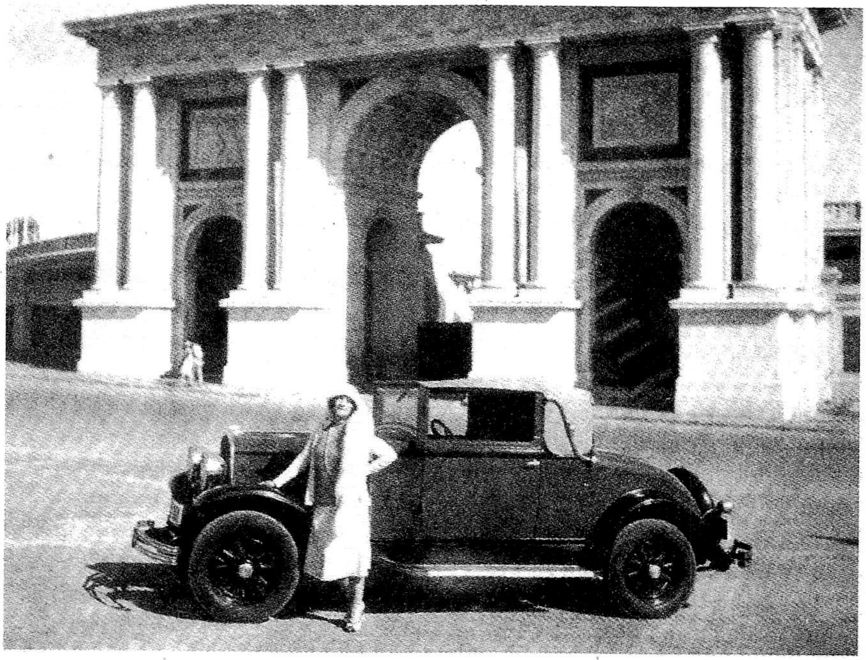

بارونة روزيت دى ميناشا فى الاستاد المحلى. تذكرت إحدى السكندريات: "روزيت دى ميناشا امرأة مذهلة فقد كانت فرنسية حقًا سيدة متوهجة صهباء الشعر تتميز بشخصية رائعة وحياة غامضة قبل زواجها من البارون."

فأجابت بناتها: " يجب على الفتيات صغيرات السن ألا تطرح المزيد من الأسئلة، إلا أنها قالت إن أمها ولدت دانتون مما يزيد التكهنات بأن روزيت حفيدة الثورى. ولم تذكر والدها على الإطلاق إلا أنها ادعت حمل اسم لاريبا دى باستروس، وتحدثت عن صلة، وهى صلتة بالمطالب بالعرش الإسبانى: دانتون وبوربون تناسق غير قابل للتصديق. انتشرت الشائعات حول عمل روزيت كراقصة فى باريس حيث تعيش أختها الممثلة شارلوت ليز التى كانت عشيقة الممثل والمدير لوسيان جيتارى ثم تزوجت ابنه الممثل ساشا جيتارى. بالطبع عندما قدم شارلوت وساشا إلى الإسكندرية أقاما مع فيلكس وروزيت فى محرم بك.

لم تطل روزيت البقاء فى الإسكندرية عندما سجن فيليبارد بسبب صفقات عمل احتيالية وظهرت زوجته الحقيقية بصحبة أولادهما. لسبب أو لآخر بقيت روزيت دون سبيل للعيش ويبدو أنها اللحظة التى قابلت فيها فيلكس دى ميناشا الذى لحق بها فى باريس، إلا أنها كانت علاقة سريعة وعاطفية وليست سهلة: فيلكس متزوج من ابنة عمه سيلين التى ولدت لتوها ابنهما جورج، وكان لروزيت ابن مولود غير شرعى حيث تركته فى فرنسا وقد كان يجب أن يظل على صلة سرية لأنه قدم إلى الإسكندرية عندما توفيت ليطالب بميراثه؛ قال حفيدها جاك مواس: "أتذكره جيدًا فهو يشبهها إلى حد كبير."

فى نهاية القرن الذى عاش فيه فيلكس وروزيت فى باريس حيث توفيت سيلين التى هربت مع مدرس الكمان فى عام ١٩٠٠ ودفنت فى مقبرة بيرى لاشيه. ولدت كلير (والدة كلاود) فى باريس فى عام ١٩٠١ وابنها جين فى الإسكندرية وليس من ثمة ابنة شرعية سوى دينيس المولودة فى ١٩٠٩ ، حيث لم يتزوج فيلكس وروزيت حتى عام ١٩٠٣. فى وقت ما عرف جين الحقيقة بعد وفاة والدته أو أنها صارحته فى حياتها، لأن شهادات ميلادها وزواجها كانا من ضمن ممتلكاته الشخصية. يظهران أن روزيت ولدت بشكل غير شرعى فى عام ١٨٧٥ على الرغم من أن والديها اللذين سميّاها روز كلاوديا تزوجا فور إنجابها. كان والد روزيت قبرصيًا سائقًا مولودًا فى إسبانيا وكانت والدتها كلاودين دى باستوس صانعة أحذية حريمى وكان والدها بدوره صانع أحذية تزوج من كلاودين دانتون على الرغم من سكناهم فى جنوب وسط فرنسا بعيدًا عن مكان مولد دانتون العظيم شرق باريس. تزوج فيلكس وروزيت فى جينيف فى مراسم مدنية أمام القنصل النمساوى ثم فى المعبد الكبير فى اليوم التالى وهذا يفسر تأخر فيلكس فى الزواج حتى على حساب طفليه غير الشرعيين: لأنه لم يكن يهوديا متمرسا ليتزوج

روزيت الكاثوليكية الرومانية حتى تمر بعملية التحول الطويلة إلى اليهودية بسبب اقتصار انتماء أطفالها لليهودية على هذه الطريقة.

فرضت روزيت كبارونة دى ميناشا شخصيتها على المجتمع السكندرى. كان مجتمعًا تجرى فيه المحادثات بالدخول فى عدة لغات والخروج منها فى الجملة الواحدة، ولكن بينما تحدث فيلكس اللغات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية والعربية بطلاقة تحولت مغامرات روزيت التى تتجاوز الفرنسية فى غير محلها حيث أخبرت ضيفا بريطانيا عالى المرتبة على العشاء أثناء الحرب العالمية الأولى "أنها أصيبت بالبرد فى سريره" وعندها أسقط فيلكس نظارته الأحادية فى الشوربة. قصدت أن تقول إنها أصيبت بالبرد فى منزله تسبب نطقها غير السليم لكلمة "سرير" بالعربية "بيت" وتعنى منزلاً. تنهد فيلكس قائلاً: "هذا ليس صحيحًا بل قصة جميلة" وأصبحت فيما بعد شيئًا من شعار العائلة.

وبوفاة جاك فى عام ١٩١٦ وثق الجميع فى فيلكس كأكبر أخ ما زال باقيًا فى تحمل مسئولية عمل الأسرة ودور الأسرة فى شئون الجالية، وحان الوقت الذى شجعت فيه البارونة روزيت دى ميناشا فيلكس بمذاقها من التمثيل والمغامرة التى فرضت نفسها على هويتها الجديدة اليهودية والأرستقراطية على القضية الصهيونية.

يعد نزول فايتسمان فى الإسكندرية فى ٢٠ مارس ١٩١٨ بداية صداقته الحميمة مع فيلكس وروزيت دى ميناشا. أصبحت روزيت التى تجاوزت دور المضيفة الكيسة مراسلة فايتسمان طوال حياته وتخبره بأحداث المدينة ونوبات غضبها، حيث اشتكت على سبيل المثال من السوريين المسيحيين الذين يمارسون "معاداة السامية المقنعة إلا أنها أكيدة." (٧٤) وصل فايتسمان كرئيس اللجنة

الصهيونية التى تهدف إلى حماية مصالح اليهود فى فلسطين وهى مهمة تقتضى تجاوز المخاوف العربية بشأن نوايا الصهيونية المطلقة. فى سبيل هذا الهدف سافرت اللجنة إلى القاهرة حيث اجتمع فايتسمان بفارس نمر مع أعضاء اللجنة الفلسطينية من المسلمين والمسيحيين وطمأنهم بشأن طموح اليهود المحدود فى فلسطين.

وصل فايتسمان الذى استقل قطار المساء من القاهرة فلسطين فى ٣ أبريل ووصلت اللجنة فى اليوم التالى، لم يضيع أحد أعضاء اللجنة وقتًا فى كتابة يومياته فى تاريخ ٧ أبريل: "العرب فى فلسطين كانوا بقعة على منظر طبيعى من الممكن إزالتها."[٧٥] اعتبر فايتسمان أن التباين بين النظرية والحقيقة صدمة فكرية وعاطفية. فى لندن شارك فايتسمان الحكومة فى افتراضات مريحة حول تنفيذ الخطط الصهيونية ولكن واجهت السلطات العسكرية البريطانية مشكلة احتواء الحساسيات بين الفلسطينيين الذين لم تتم استشارتهم بشأن إعلان بلفور، وظلوا غير متفقين فى تخوفهم بينما يستجيبون لتطمينات فايتسمان. خلال شهرين من وصوله قرر أن للعرب الفلسطينيين "طبيعة الخيانة"[٧٦] كما أنهم "عرق فاسد الأخلاق من المستحيل التعامل معه." [٧٧] تعاطف رونالد ستورس الذى كان حاكم القدس من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٦ مع الصهيونية، إلا أنه ندم على غطرسة بعض اليهود الروس على اللجنة وأشفق على عدم زيادة استفادة الصهاينة من السفارد الذين يعتبرون عملاء نموذجيين للمفاوضات لأن لهم نفس خلفية العرب الشرقية. كتب ستورس: "يعلم الصهاينة كل شيء عن أوجه المشكلة ما عدا فلسطين والفلسطينيين؛ فهم لا يعرفون اللغات ولا يوظفون اليهود المصريين الذين يعرفونهم مما يؤدى إلى إظهار نوايا سياستهم الواضحة للسكان الحاليين أقل من تطميناتهم." [٧٨]

ولكن فى مصر اضطر فيلكس دى ميناشا لفعل هذه الأشياء، ففى صيف ١٩١٨ بعد العودة من القدس حيث حضر فايتسمان حجر الأساس للمسجدة العبرية ساعد فى تأسيس لجنة مناصرة فلسطين السكندرية وأصبح أول رئيس لها. الهدف من اللجنة تشجيع الاستيطان فى فلسطين وتمويله على الرغم من تأكيد الرفاهية والأمن اللذين ينعم بهما اليهود فى مصر حسب الإحصاءات الإسرائيلية والمصرية هاجر أقل من أربعة آلاف يهودى من مصر إلى فلسطين فى ثلاثة عقود منذ ١٩١٨ (العديد منهم ليس يهوديا مصريا ولكن من مكان آخر فى الشرق الأوسط أو أشكيناز من شرق أوروبا توقفوا فى مصر فى طريقهم إلى فلسطين) بينما زاد عدد اليهود فى مصر زيادة مطردة فور تأسيس دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ لم تحدث هجرة جماعية كبرى سوى عقب حرب السويس فى عام ١٩٥٦. كان إنجاز اللجنة تمويل هجرة اثنى عشر ألف يهودى أوروبى لفلسطين بين عامى ١٩٢٠ ١٩٢٧ حيث يهاجر واحد من كل سبع يهود هناك من جميع أنحاء العالم عندما كانت المغامرة الصهيونية كلها فى خطر بسبب مغادرة العديد من اليهود حتى فى أثناء قدوم اليهود إلى فلسطين؛ حيث لم يشهد عام ١٩٢٧ سوى هجرة اليهود من البلاد. كما أصبح فيلكس رئيس صندوق ترميم فلسطين بالإسكندرية ومثّل مصر فى المؤتمر الصهيونى فى لندن فى عام ١٩٢٠ والمؤتمر الصهيونى الثانى عشر فى كالرزباد فى عام ١٩٢١.

وفى الوقت نفسه لعب فيلكس دى ميناشا دورًا مهمًا فى المناقشات التى غيرت مجرى التاريخ. من وجهة النظر اليهودية كانت الصهيونية التى اقتضت العديد من التضحيات حركة مثالية، إلا أن الفلسطينيين اعتبروها استعمارا إجباريا على بلادهم قام به شعب غريب وفى عامى ١٩٢٠ ١٩٢١ انفجر الفلسطينيون مسلمين ومسيحيين فى مظاهرات دموية ضد البريطانيين والصهاينة. وكان رد

فايتسمان مضاعفًا. في كالرزباد فوض شراء الأسلحة المهربة إلى فلسطين ليستخدمها الهجاناة التي تعد ميليشيات الصهاينة السرية، بينما تفاوض فيلكس دي ميناشا بالإضافة إلى ديفيد إدجار أحد أعضاء اللجنة الصهيونية البريطانيين وأشير سفير صحفي يهودي فلسطيني له صلات ممتازة بالعرب مفاوضات سرية مع أعضاء المؤتمر العربي الشامل في القاهرة في عام ١٩٢١ بتشجيع من فايتسمان. قرر الأطراف أن المشاكل بين العرب واليهود في فلسطين ما هي إلا عواقب الوعود البريطانية المتضاربة وأن الطرفين يُنحيان إعلان بلفور جانبًا ويعقدان اتفاقا ثنائيا يختمه عقد رسمي.

تجمع الاجتماعات المبكرة التي عقدت في أبريل الأطراف في نقطة يستعدون فيها لتنفيذ أفكارهم. ولكن الأحاديث التي أعقبها على الفور منح مصر الاستقلال المحدود كانت بعيدة عن مكتب المستعمر الذي أكدت سياسته أن تستعيد بريطانيا سيطرتها على فلسطين. فور تصديق عصبة الأمم على الانتداب على فلسطين في هذا الصيف الذي صاحبه تفعيل بريطانيا شروط إعلان بلفور لم يتوفر سوى حوافز قليلة للصهاينة للاستمرار في الحديث مع العرب بعواقب الاستقرار والسلام في الشرق الأوسط ومن أجل تحرر الإسكندرية من الأحقاد القومية والمحلية.

ما فائدة الصهيونية بين يهود مصر بعد انحسار الحرب العالمية الأولى في العشرينيات، وفي عام ١٩٢٩عندما قتلت أعداد غفيرة من اليهود وأصيبوا في شغب استمر أسبوعًا في القدس وكان نتيجة نزاع على ممارسات دينية عند حائط المبكى، ومن تقارير نوايا اليهود المزعومة لتدنيس الأماكن المسلمة المقدسة وتوقف نشاط صهيوني مفتوح في مصر بسبب استشارة زعماء الجالية اليهودية الذين كانوا قد تلهفوا على عدم استيراد متاعب فلسطين. مارس فيلكس دي ميناشا

الذى كان رئيس الجالية اليهودية فى الإسكندرية فى عام ١٩٢٧ أنشطته داخل فلسطين حيث تبرع بمبالغ كبيرة لمستشفى القدس واشترى أراضى (مثل ابنه جورج) أعلى جبل الكرمل وأصبح عضو مجلس الوكالة اليهودية للجنة الصهيونية التى تصرفت كحكومة يهودية مستقلة فى فلسطين. ولكن ما ضيع الفرصة شغب حائط المبكى، ففى عام ١٩٢٩ انهار التفاهم تمامًا بين الجانبين وبدأ صراع مرير وتعذرت السيطرة عليه بدأ يتسرب للسياسة المصرية أيضًا فى الثلاثينيات. تذكر فارس صاحب صحيفة المقطم التى صادقت على بعض السياسات الصهيونية اجتماعاته مع فايتسمان وقال: "لقد كذب على. ليس رجلا صادقا." (٧٩)

رجت فضيحة شهيرة الجالية اليهودية أثناء فترة رئاسة فيلكس، فضيحة نشأت داخل أسرة ميناشا نفسها. سافر جين إلى السربون بعد مغادرة أوكسفورد لدراسة اللغات الشرقية واعتنق الكاثوليكية الرومانية تحت تأثير الفيلسوف جاك ماريتان وأصبح دومينيكى واتخذ اسم بيير. بالإضافة إلى نشر عمل عن عبارات مقتبسة كتب فى عام ١٩٣١ كتابا عن الحاسدية التى انتشرت تعاليمها من التقاليد اليهودية الصوفية المعروفة باسم كابالا. ولكن اهتمامه المستمر باليهودية أو بالأحرى صهيونيته الفعالة قبل تحوله أو بعده(٨٠) لم تحسن شعور والده وكان أصعب موقف جمعهما سويًا والمحاولات المبذولة لمداواة العلاقة بينهما عندما زار جين الإسكندرية فى عام ١٩٣٢. وسط شيوع الفضيحة، بدلا من الخضوع ذهب جين للاحتفال فى كاتدرائية القديسة كاثرين. أدار المصرفيون والسماسرة اليهود فى نادى محمد على ظهورهم ولكن لم يقف شيء فى طريق فخر روزيت بابنها ولحقت به فى كاتدرائية القديسة كاثرين لسماع وعظه. وفى نفس العام استقال فيلكس دى ميناشا من رئاسة الجالية اليهودية وعانى لعام أو اثنين فى وقت لاحق بسبب اكتشافه أن روزيت على علاقة بايلى عدس الذى انتمى لإحدى أكثر العائلات اليهودية فى مصر ثراء وأراد الزواج بها إلا أنها أخبرت ابنتها كلير: "هل

استبدل لقب بارونة دى ميناشا بمجرد سيدة عدس؟" (٨١) واستمرت العلاقة بينما بقيت روزيت مع فيلكس الذى ظل مشلولا فى المنزل فى محرم بك بقية حياته.

عندما انتقل جاك وكلير فينسندون مع كلاود وأخويها الصغيرين من شارع رسافة إلى شقة فى ٦٣ شارع فؤاد أمام البلدية. كان زواجهم سببا آخر لمحنة فيلكس دى ميناشا، حيث كان جاك مسيحيا، وعلى الرغم من اكتشاف فايتسمان "فى الغرام" عندما قابلهم فى الإسكندرية عقب زفافهم كان يردد فيلكس عندما طرد جاك مثل "رجل فرنسى لا لون له." (٨٢) امتلك المبنى أخو كلير غير الشقيق بارون جورج دى ميناشا الذى سمح لهم بالسكن مقابل إيجار تافه. عاش جورج ووالده فيلكس على دخل استثماراتهم المرتفعة التى حققتها من مكاتب الميزانين استثمارات امتدت خارج مصر. فى الطريق لفلسطين فى عام ١٩٣٥ زار فايتسمان الإسكندرية مرة أخرى حيث أقام فى شارع رسافة ولكنه افتقد جورج دى ميناشا هذه المرة وكتب له من لندن فى وقت لاحق:

سمعت مؤخرًا أنك كسبت أموالاً طائلة فى فلسطين وأسمع أنك استثمرت هذا المال فى فلسطين ولا يسعنى إلا أن أتمنى لك أفضل حظ. ولكنى أشعر أننى يحق لى عمولة صغيرة على هذه الصفقة، حيث قمت بتعريفك فلسطين وبالتالى فى عمليات شراء الأراضى التى قمت بها هناك. أعتقد أن كلينا لا يأسف على ما قمنا به فى هذا الاتجاه، تحدثت مع والدك بهذا الشأن وأعتقد أنه يتفق معى فى قضيتى. أود الحصول على عمولتى فى شكل مساهمة فى معهد ريهوفورت. أترك لك تقدير المبلغ بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠ جنيه إسترلينى ولكن أتمنى ألا ترفضني؛ فأنا على يقين أن هذه الصفقة مثمرة مثل صفقتك الأولى على التربة الفلسطينية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

الرئيس فايتسمان (٨٣)

كانت شقة فينسدون واسعة ("اعتدنا اللف حول الدرابزين") (٨٤) مع وجود غرف إضافية لكارمن وهى يوغوسلافية تتحدث الإيطالية وصيفة كلير وجليسة الأطفال بوللى أوميرا. تعلمت كلاود وأخواها اللغة الفرنسية فى المدرسة وتحدثوا اللغة الإيطالية مع كارمن والتقطوا بعض الكلمات اليونانية من جورج السائق. ولكن كانت لغتهم الأولى الإنجليزية وتعلموا بلكنة أيرلندية خفيفة من بوللى مما أجبر والدهم الفرنسى على تعلم الإنجليزية أيضًا. وظف فيلكس وروزيت بوللى أومارا بعد ولادة كلير فى عام ١٩٠١ واستمرت فى العائلة حتى بعد الحرب العالمية الثانية مما وفر لكلاود مخزونًا من الذكريات تتجاوز خمسين عامًا فى منتصف الخمسينيات عندما بدأت كلاود السكن مع لورانس دوريل وبينما كان يكتب رباعيات الإسكندرية كانت تكتب سلسلة من الروايات وأهدت إحداها لبوللى أومارا ورواية أخرى لعمها جورج دى ميناشا الذى أضافت له شعار "بالاشتراك مع كتاب القصص الآخرين استعملت مكونات حقيقية وخيالية. شخصية لا تصف أى شخص معين ولكن تعكس أوجه عديد من الشخصيات." (٨٥)

كانت آخر تلك الرباعيات التى يرسم فيها دوريل بناء على معلومات كلاود عن المدينة تلك التى كتب فيها عن أسرة حوسنانى القبطية: الأب المشلول والأم الجميلة والولدين أحدهما ممول والآخر صوفى متدين والقضية التى تورطوا فيها وهى فلسطين اليهودية التى تتحالف مع الأقباط ضد قوة المسلمين المتزايدة فى مصر. داخل نماذج دوريل لم تكن أسرة حوسنانى مسيحية؛ كانوا ازدهار الإسكندرية المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية المتألق، فقد كانوا يهودًا وكان اسمهم دى ميناشا.

كان بناء الشقة قد تم تقسيمه إلى نصفين وكل نصف له مدخل ومصعد خاص به، بينما سقف الشقة بمثابة ملعب مشترك لماريا لوريا التى سكنت فى

الطابق الأول فى ٦٥ شارع فؤاد بينما كانت كلود وأشقاؤها يعيشون فى الطابق العلوى رقم ٦٣. "كنت معتادا أن أرى كلود كثيرا هناك، كانت فتاة جميلة. إلا أنها كانت تنتسب إلى مجموعة مختلفة من الناس، أبى كان إيطاليا، وهذا ربما يكون سببا، كما كانت فتاة أصغر منى." لم تكن هناك أى صلة أو روابط بين العائلتين. فوالد مارتا "أليساندرو لوريا، كان مهندسا معماريا قد ترك بصمته على مدينة الإسكندرية من خلال فندق سيسل. وشرفات القصر تطل على الميناء الشرقى بالقرب من القنصلية الإيطالية. إذ تم تكليفه ببناء الفندق من قبل ألبرت ميتزجر، الألمانى خلال الحرب العالمية الأولى والذى اكتشف عدم ملائمة كونه عدوًا غريبًا وأصبح مواطنا بريطانيًا، وعندما افتتح فندقه فى عام ١٩٢٩، فى بادئ الأمر أطلق عليه ميتزجر قصر ريجيان ولكن فى خلال سنة تم تغيير اسمه إلى سيسل بعد فنادق لندن الفخمة.[٨٦] وعلى الفور تم تقديره بأنه أجمل فنادق الإسكندرية، وبالنسبة لدوريل، فقد كان أفضل من فندق شبرد كايرو وذلك لقربه من البحر."[٨٧] وقد أصبح فندق سيسل هو العلامة المتكررة فى الرباعيات**Quartet** حيث كانت جوستين تنتظر وقد طوقت حقيبتها، بيديها بينما هى تحدق من الشرفة على البحر الممتد أمامها وأمواجه تتسابق وتتلاطم على حواجز النخيل فى مربع البلدية وتضربه وتتراجع عنه مثل شراع مهلهل.[٨٨]"

ولد جوسيبى أليساندرو لوريا فى مدينة المنصورة فى عام ١٨٨٠ وبعد قضاء زمن فى توسكانى والقاهرة استقر أخيرا فى مدينة الإسكندرية فى عام ١٩١٤. وهناك تزوج من عائلة كامبوس الثرية وكلهم من المحامين والتجار، وشيد بيته فى ٦ شارع نيرتوسوس، وامتداد شارع البطالمة فى جنوب شارع فؤاد، أما الشقة الخلفية ففى الطابق الأول ومكاتبه فى الميزانين (الطابق الأوسط بين الأرضى والأول). تذكر ابنته مارتا "كانت حياة أبى هى العمل. كان عمله متواصلا سبعة أيام فى الأسبوع، لا يمارس أى هوايات. فى خلال السنوات العشرة الأخيرة من حياته فقط"- لقد توفى فى عام ١٩٣٧- كان يأخذ يوما واحدا عطلة

أسبوعية، يخرج فيها مع ماريتوس وإلى الصحارى المجاورة." فى خلال الحرب العالمية الأولى اشترى فليكس دى ميناسى من البدو قطعة أرض على أن يخصصها لتسكين اليهود المهاجرين فيها إذا فشل بلفور فى إعلانه عن تخصيص فلسطين وطنا لليهود، وفى حالة ميناسى جعل جلوريا تطور جزءا من ذلك المكان فى منتجع الصحراء الشتوى من كينج مريوط - كانت تلك الأرض هى المكان الوحيد الذى يلجأ إليه فورستر.

زفاف- فى عام ١٩٣١ - دينيس دى ميناسى (الثانية من الشمال) إلى ألفريد ماواس، والذى يقف بين روزيتا وكلير. وفى أقصى يسار الصورة تظهر بولى أميرا، وهى المؤتمنة على تاريخ وأسرار الأسرة. وقد كانت بولى مربية أطفال روزيتا، وحاليا مربية أطفال كلير، وستصبح مربية لابنة كلير وهى كلود التى نقلت قصص بولى عن ميناسى إلى لورانس دوريل حينما كتب رباعيات الإسكندرية.

في مدينة كانت مبانيها انتقائية مرحة، فلم يقم إنسان بالمرح على تلك النماذج المختلفة كما فعل أليساندرو لوريا، والذى شيد المستشفى الإيطالى فى ٣ شارع القصر إلى الشرق من شارع روند بوا (وحاليا شارع دلال الدسوقى من ميدان وابور المياه) والمستشفى اليهودى الجديد فى ٤٠ شارع محرم بك، والبنك الأهلى المصرى ولوحته البيضاوية المزخرفة بالفسيفساء وزخارفه العربية على شارع طلعت حرب فى وسط المدينة، والعديد من المبانى الرائعة على امتداد الميناء الشرقى بما فى ذلك شرق فندق سيسل، وفندق ليدو هاوس المصمم على طراز البندقية، وهو حاليا متداع مثل المهيب وقد تم تقسيمه إلى مكاتب وغرف للإيجار ولكن مداخله المقوسة الجميلة وبناءه المعقد الملون مازالا يضفيان على شارع الكورنيش أجواء الاحتفال.

نظرت مارتا إلى صور طفولتها وهى ترتدى القميص الأسود ومنديلها الأزرق حول عنقها من إيطاليا الجديدة، ورددت فى نفسها "كان أبى فاشيستى قح."وليس كل هذا، فمع فندق سيسل هناك المستشفيات والبنك والباقى.ثمة آثار أخرى بالنسبة إلى لوريا فى المدينة: فى حديقة المعبد الكبير فى شارع النبى دانيال مبنى يحيط به منازل الحاخامات وما بقى من جمعية الجالية اليهودية. فى داخلها نقوش على الجدران، قائمة المحسنين فى الجالية، من بينهم ميناسى، وآل ساويرس وآل كاتويس وآل ريشى وآل بانونو وأليساندرو والذى كان أيضا فاشيستيًا إيطاليًا مخلصًا كما كان يهوديًا إسكندرانيًا مخلصًا.

ومع فندق سيسل، فإن المرسم (أتلييه Atelier) وهو واحد من أكثر العلامات تكرارا فى رباعيات الإسكندرية، وقد ألقى دوريل محاضرة بنفسه عن تى. إس. إليوت وكفافيس وصديق كلى بادارو رسم هناك، وفى المرسم أتليه غيّر دوريل الأنا، دارلى قابل أولا جوستين:

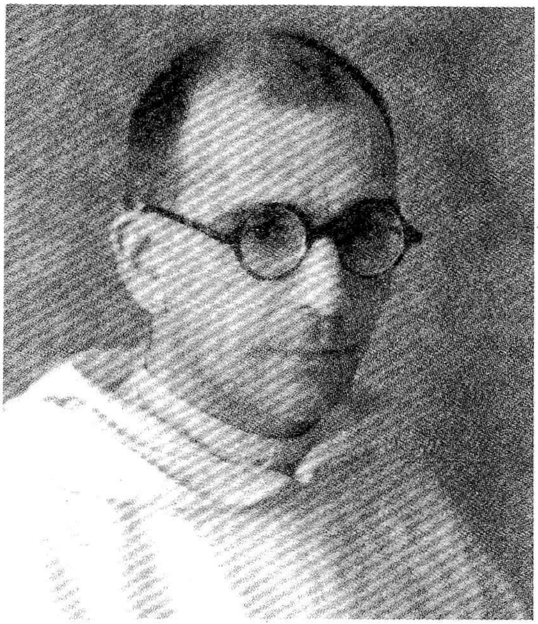

جان دى ميناسى، والذى اعتنق المذهب الكاثوليكى وأصبح دونيماكان فى فرنسا، وهى جمعية يهودية تقوم بأعمال مروعة فى الإسكندرية عندما عاد إلى المدينة فى عام ١٩٣٢، وألقى موعظة فى كاتدرائية القديسة كاثرين الكاثوليكية. جان كان يعرف كفافيس وقد طور شعره فى أكسفورد، لقبه تى إس إليوت بأنه "أفضل مترجم ترجم قصيدة "الأرض الخراب" إلى اللغة الفرنسية.

"لقد اقتنعت بأن ألقى محاضرة عن الشاعر الأصلى للمدينة فى مرسم الفنون الجميلة- وهو ناد للهواة الموهوبين يجتمعون فيه، يؤجرون استديوهات وهلم جرا.. يا لها من جسارة أن تلقى محاضرة حول فنان ساخر وهو طبيعى وبصفاء الغريزة الفطرية يتناول موضوعاته من الشارع ومن مواخير مدينة الإسكندرية!

وأضاف لذلك وهو يتحدث ليس إلى بائعى الخردوات وصغار الموظفين - الخالدين- ولكن إلى شبه جمعية محترمة من السيدات اللواتى يعتبرن الثقافة التى يمثلها نوعا من بنوك الدم: تأتى مع النقل. كثير منهم فعلا قد سبق، كثير من هؤلاء السيدات قد سبق لهن إقامة حفل ورغم أنهن يعلمن وبدلاً من ارتقائك فإنهن يذهلنّك.

لاحظت أنهم يخلفون وراءهم طلبًا وحيدًا من المشاعر والفنون.. تطلعت إلى باستخفاف واضطراب، وإذا هى تنظر إلى بصراحة وجدت ارتباكا- كما لو أنها كانت تحاول أن تقرر ما فائدة ما أقوله. قالت "إننى أحب تلك الطريقة التى اقتبست بها السطور التى تحكى عن المدينة. إن لغتك اليونانية جيدة. فأنت بلا شك أديب. فقلت "قطعا" لا يمكن معرفة الجراح. (٨٩)

تم تأسيس الأتيليه "المرسم فى عام ١٩٣٥ على يد الفنان محمد ناجى (شقيق عفت ناجى الذى قابل دوريل عندما عاد إلى فيلا أمبرون فى عام ١٩٧٧) وأيضا على يد جاستون زنانيرى وهو صديق لكفافيس، رغم أنها لم يتم تأسيسها ولم يقم برينتون بتقديم الزنانيرى إلى توماس وايتمور من المعهد البيزنطى فى أمريكا. فى سنة ١٩٣٢ بدأ وايتمور انقلابه الملحوظ. فعند الغزو التركى للقسطنطينية فى سنة ١٤٥٣، فإن الكنيسة البيزنطية الكبرى أيا صوفيا التى بنيت فى القرن السادس الميلادى قد تم تحويلها إلى مسجد وقد تم تغطية زخرفتها السابقة. فلم يكن هناك فرصة، حتى إن الأثر القوى لم يتم إعادته إلى الاستخدام المسيحى، ولكن وايتمور أقنع كمال أتاتورك بأن يستعيد الفسيفساء ويعرضها على الجمهور من خلال تحويل المسجد إلى متحف عام.

وعندما زار وايتمور مدينة الإسكندرية، أقام مع برينتون فى بوكلى ومن هناك كان يزور الزنانيرى فى بيته القريب من نادى سبورتنج. وهناك كما وضعها الزنانيرى "قدم لى تفاصيل الليالى التى قضاها مع كمال أتاتورك لكى يحصل على تفويض بالكشف عن الفسيفساء والزخارف. فإن أقل عدد من الزخارف يمكن أن تثير نشوة وايتمور، وبينما يشكف بعض من الصلبان صغيرة سوداء على كوات

الأروقة وأسطح القنطرة، يقول "فهى لا تشكل تكرارًا مملاً للشكل الواحد، ولكن كل واحد منها يقابله طيف وكأنها منقولة على موجات من النور، كل واحد منها يحمل دعوة شخصية تبدو تجربة ممكنة." لم يكن الزنانيرى أقل نشوة من وايتمور. "فى يوم كنت راكبا السيارة مع وايتمور وقال لى هيا إلى الصحراء. فانطلقنا بسيارتى إلى خارج الإسكندرية باتجاه صحراء مريوط. وهناك تسلقنا جرفا حيث الصمت المطبق، فقال لى وايتمور: استمع لصمت الصحراء المضطرب. وبدأت أكتب قصيدة.

عميق هو الصمت

أصغى إلى المساء الزاحف

وحدنا هنا مع رغبتنا

وآمالنا (٩٠)

إلا أن علاقتهما تفجرت لمشاهدة غيرة جنسية مثلية يتضمن شابًا أمريكيًا خرعًا اسمه كيرك برنس (من عائلة جنوبية قديمة) والذى ساعده الزنانيرى على أن يسكن فى منزل على تل فى منطقة المندرة، فقد وقف منعزلا بين أشجار النخيل حيث كانت كثبان ساحلية باتجاه منطقة المنتزه. فحينما لا يلتقى الزنانيرى مع كيرك برنس، فإنهما يتبادلان الرسائل، الرسائل التى كانت رائعة واستثنائية "خطابات اختفت يوما عندما اكتشف كيرك برنس شيئا عن توماس وايتمور."قلت ماذا فعلت برسائلنا؟ قال رسائل غرامنا؟ ألقيتها فى الصرف الصحي! لقد دمرت كل شيء!" وبهذا أبحر كيرك برنس بعيدا عن الإسكندرية.

المهندس المعمارى أليساندرو لوريا، الذى تأثر بالطراز المعمارى لمدينة البندقية والموريش فى إسبانيا، وأشهر ما قدمه هذا المهندس فندق سيسل بجوار الميناء الشرقى على الكورنيش.

تبعه الزنانيرى إلى أثينا إذ قبل الدعوة المواتية من الحكومة اليونانية لتقديم سلسلة محاضرات. توفى كفافيس منذ فترة وجيزة، والزنانيرى الذى تحدث أمام قبره، اعتزم أن يتحدث عنه كشاعر. غير أن الحكومة اليونانية لم تسمعه، "بسبب شهرة كفافيس" لذا قام الزنانيرى بالحديث عن الكنيسة البيزنطية. وفى أثينا وجد الزنانيرى أن كيرك برنس أصبح "راقص مخدرات فى فندق بريطانيا العظمى **Hotel**

Grande Bretagne: "لعب الشراب برأسه واضطر الملحق الدبلوماسى الأمريكى أن ينزله على سفينة ويعيده إلى الولايات المتحدة. وهكذا انتهت العلاقة كما تحدث عنها الزنانيرى فى دير رهبان الدومنيكان فى شارع دو فوبورج، القديس أونور فى باريس بعد أكثر من ستين سنة، وهو الأمر الذى اهتزت له مشاعره.

تم إلقاء محاضرات زنانيرى عن تاريخ بيزنطة الكنسى فى أثينا فى عام ١٩٤٣ فى أتوليه حيث دعت الحكومة اليونانية محمد ناجى ليعرض لوحاته. وضع الرجلان مصر بمزيجها المكون من التقاليد الدينية والثقافية فى سياق البحر المتوسط الواسع الذى عبر عنه أحد أعمال ناجى الرئيسية مدرسة الإسكندرية الذى يعد إيماءة من لوحة رفاييلو الجصية مدرسة أثينا.[٩١] فى لوحة ناجى ترى فى الخلفية منظرًا يشمل ميناء الإسكندرية الغربى القديم بينما يحتل مركزها ألكسندر العظيم ويقف كل من القديسة كاثرين وأرخميدس والفيلسوف العربى ابن رشد يقف فى الطليعة يحيط بهم حشد من المصريين العصريين البارزين على أحد جانبى اللوحة، من ضمنهم الكاتب طه حسين والمقيمون المصريون من أصول أجنبية على الجانب الآخر ومن بينهم كفافيس.[٩٢]

يشبه ناجى هؤلاء الفنانين والكتاب والمفكرين الذين برزوا فى مصر بين عام ١٩١٩ والانقلاب الذى قام به ناصر فى عام ١٩٥٢. كان ناجى الذى كان مصريًا تركيًا يدرس القانون فى ليون والفنون الجميلة فى فلورنسا مناصرًا متقدًا لحركة زغلول الوطنية فى نفس وقت اشتراكه الكامل فى مجتمع الإسكندرية الشرقى. بالنسبة لزنانيرى "كانت فكرتى دائما عن العالم أنه السكون." كان جانب أسرة أبيه كاثوليكيا يونانيا سوريا استقر فى الإسكندرية عام ١٦١٠، بينما "كانت أمى سيدة مجرية يهودية جميلة فأنا خليط يشبه الإسكندرية التى كانت مدينة سورية

يونانية يهودية." في عام ١٩٣١ سافر إلى فلسطين وقابل في القدس سيدة بن إيهودا أرملة الرجل الذى أعاد ابتكار اللغة العبرية وحده عن طريق جمع قاموسه العظيم حين حول كلمة الأنبياء إلى لسان الحياة اليومية. أوحيت لزنانيرى فكرة كتابة حياة ابن إيهودا وعمله إلا أنه شعر بأنه يعزز قضية موروثة؛ فنظر إلى إمبراطورية البطالمة في الماضى. "أعتبر الإسكندرية كونًا حيث لم تتغير. عندما أقود سيارتى بمحاذاة الكورنيش وأرى الناس يتنزهون أحدث نفسى بأن هؤلاء الناس هم أنفسهم من عاشوا هنا منذ ألفى عام.."

فكرة المركز الثقافى مثل أتوليه أثينا راقت لزنانيرى وناجى، وقرر كلاهما زرع الفكرة في الإسكندرية حيث تحمل زنانيرى مسئولية الأنشطة الأدبية وتحمل ناجى مسئولية الفنون الجميلة، بينما أغرى إنريكو ترنى صديق فورستر القديم الذى كان يهوديًا إيطاليًا مناهضًا للفاشية. (٩٣) ولكن تجاوز قصدهم تأسيس مركز تجتمع فيه الفنون المتنوعة تحت سقف واحد وكان أملهم السياسى والثقافى فى مستقبل مصر اتباع نموذج البحر المتوسط المتنوع والشامل الخاص بالإسكندرية المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية.

اتبع برينتون دون تعمد خطوات فورستر بمحاذاة شاطئ المريوطية حتى قبل نشر أولى طبعات الإسكندرية فى نهاية عام ١٩٢٢. فى هذا العام حسبما يتذكر ابنه جون أنهما قابلا ويلفرد جينينجز براملى: "بدأنا اكتشاف البلد المحيط بسبب أرواحنا المغامرة. اتجهنا شرقا باتجاه رشيد وجنوبا باتجاه القاهرة. ثم أعدنا ماركتنا وهى فورد موديل تى واتجهنا يوم الأحد إلى صحراء المريوطية. وأصابنا الفضول عندما سمعنا عن براملى بك هذا الرجل العظيم الذى كان محافظ إقليم الصحراء الغربية المصرى وعاش فى بلدته برج العرب."

فى هذه الأيام مرت سيارات تستكشف الصحراء من بوابة مبنية من الطوب على ضواحى الإسكندرية حيث "يسجل سودانى وهو عضو فيلق الجمال التابع لإدارة الحدود أسماء المسافرين وأسباب رحلاتهم فى كتاب أحمر كبير. إذا لم نعد فى الوقت المحدد يتم إرسال فريق بحث عنا، كما أتذكر لافتة كبيرة على البوابة مفادها اقتصار استخدام الصحراء على سيارات الفورد وروليز رويس."

لبرهة من الوقت طرقوا مسارًا جديرًا بالازدراء وتتبعوا ركام الحجارة الذى وجه الطريق. "بعد القيادة لمدة ساعة على القمم المنخفضة تطل أحيانًا على البحر يمينًا رأينا من أعلى ارتفاع القمة أبراجا وشرفات مفرجة تلوح بعيدًا. قدنا حتى برج مبنى من الطوب راق يتخلله مدخل مقوس. على جانبى المدخل تمثال رومانى له رأس أسد. اقترب حارس البوابة البدوى منا وأخذ البطاقة التى أعطاها إياه أبى كما اختفى فى أعماق الحديقة والمبانى وسرعان ما سمعنا خطوات تقترب ورحب بنا صوت أخنف. "مرحبا مرحبا أين كنتم؟ حدثنى رجلكم على الهاتف. أنا براملى، سعيد لرؤيتكم سيتم إعداد وجبة الغذاء خلال دقائق. العائلة أعلى يسعدنا قدومك يا قاضى برينتون وإحضارك ابنك معك."عندما تجاوزوا الحوائط المحيطة المرتفعة التى يسميها براملى "قلعة وندسور" "بدأنا حياة جديدة منذ هذا اليوم وأصبحت برج العرب وطننا الثانى."(٩٤)

تمنى براملى فى البداية لبرج العرب أن تصبح الصحراء الغربية مكانًا أمنًا ومنًا أجل مصالح البدو السنوسى الذين يجولون جانبى الحدود المصرية الليبية؛ حيث أثارهم العملاء الأتراك والألمان فى أثناء الحرب واقتضى احتواءهم ٣٥ ألف جندى بريطانى. استمرت التجارة عبر الصحراء بين مصر وداخل أفريقيا لقرون وفكر براملى فى تسهيلها وجذب السنوسيين لدرجة معينة من التفاعل الاجتماعى والسياسى مع مصر عن طريق إنشاء "بلدته" وليس مكان إقامة. ولكن البدو فضلوا

السكنى حيث ينصبون خيامهم وكنهاية قوافلهم بالإضافة إلى متجر وسوق ومحكمة ومسجد ومكتبة يحفظون فيها سلاسل نسبهم وبقية سجلات قبائلهم. تحمس السنوسيون واعتبروه حاميهم وصديقهم وتلاعبوا باسم "براملي" حين أطلقوا عليه اسم "أبو رملة" أي والد الرمال.

ولكن طغت الحاجة الملحة لعمل شيء من أجل أرامل رجال القبيلة السنوسية الذين قتلوا أثناء الحرب على العمل على البلدة. وفي عام ١٩١٩ أعطت السلطات العسكرية البريطانية براملي ٢٠٠ جنيه مصري لتوزيعها على الأرامل كتعويض. ولكن عندما أشار أن هذا المبلغ يكاد يصل إلى جنيه لكل امرأة، أبلغوه بضرورة استخدام المال أفضل استخدام. ضارب براملي في الصوف مما زاد رأس ماله إلى ٣٠٠ جنيه مصري بعد شهور قليلة وبنى باستخدامه برجًا يتميز بوجود رواق معمد في شرق البلدة - "مصنع" السجاد حيث نسج ٤٥٠ سيدة وفتاة مشايات صغيرة من شعر الجمال والماعز بالنموذج "النيلي في أبيض" وهو ما زودهم بـ ١٢ ألف جنيه مصري سنويا عند بيعها في الإسكندرية.

كان الاستقلال المصري في عام ١٩٢٢ كارثة لبرج العرب حيث وصفه الوطنيون بأنه غير فدائي في إيماءة غير محتملة للبدويين الذين تم اعتبارهم تقليديًا أعداء مصر. وألقيت الصعوبات الرسمية في طريقهم وقطع التمويل واستقال براملي في عام ١٩٢٤ هاجرًا "البلدة الجميلة المتقشفة"[٩٥] حسب كلمات فورستر تقف صامتة وخاوية.

انتقل براملي ميلا نحو الشمال حيث عمل على بناء وطن خاص به على قمة تل يرى فرع المريوطية ومناظر في اتجاه طاوسيرس والبحر خلفها. قال القاضي برينتون إنه "بنّاء بالفطرة وفنان في استعمال الأحجار" وأظهر "ميلاً للإيطاليين"[٩٦]

من تعاونه الطويل مع إيطاليا فقد كانت جدته لأمه ابنة ماركيز فيرارا. قدم منزله الذى زرع حوله بساتين الزيتون وبنى عليه صهريجًا عتيقًا ترويه مياه الأمطار التى تصفيها الصخور، عالم يقترب من دور العصور الوسطى التى يشبهها بنوافذه نصف المقوسة المرتفعة فى الحوائط وغرفة طعام كبيرة تطل على حديقة خضراوات يغلقها من أحد الجوانب ممر مقنطر. كان الأثاث قليلاً إلا أنه مختار بعناية فهو مكون من بعض القطع الجميلة من الأثاث الإيطالى وأثاث جيمس وسجاجيد فارسية جميلة تسلمها من حجاج فى طريقهم إلى مكة ومشايات البدو الزرقاء والبيضاء.

وقف مصنع سجاد البدو بعيدًا مهجورًا تعصف به الرمال. لم يلم فورستر الوطنيين: "لا تتعلم البلاد القديمة من دروسها فما بالك بالبلاد الصغيرة؟ مصر للمصريين وبريطانيا للبريطانيين وفرنسا للفرنسيين؛ لا ترى أى بلد أن الوطنية تؤدى إلى عدم الراحة فى الداخل وكارثة فى الخارج." (٩٧) فقد كتب فى عام ١٩٢٤: كان الأمر كله "حزينًا" إلا أنه "حتمى وممكن إدراكه إلى حد كبير." قبل حصار قناة السويس الذى قام به ناصر والعدوان الثلاثى الذى قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بأربع وثلاثين عاما وبعده بعامين طرد حكام مصر الجدد براملى خارج البلاد وتسلم منزله أعلى الارتفاع المشير عبد الحكيم عامر الذى "انتحر" بعد هزيمة حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ التى لم يعد نفسه لها. احتل ناصر نفسه منزل براملى الذى أصبح استراحة الرئاسة حيث خطط أنور السادات حرب أكتوبر ١٩٧٣ وظل كذلك.

ولكن قبل هذا العهد فى الثلاثينات قطن برج العرب سكان آخرون. فى صفحات رباعيات الإسكندرية كانت برج العرب القصر الصيفى الذى بناه نسيم حوسنانى لزوجته جاستين والذى أصبح فى الحقيقة المأوى الصحراوى الخاص

بالقاضى برينتون وزوجته الثانية جنيف وهى زميلة من فيلادلفيا تزوجها فى عام ١٩٢٧، بالإضافة إلى العديد من الأصدقاء الآخرين. فى البداية قنعوا بالخروج من الإسكندرية فى نزهات نهاية الأسبوع داخل الصحراء الغربية؛ حيث تنزهوا على شواطئ بحيرة المريوطية واستحموا فى البحر الأرجوانى داخل منظر معبد أوزوريس فى أبو صير "واستكشفوا أحيانًا بعمق خندقًا خلف العلمين حيث حافظوا فى عملهم فى منخفض القطارة على عمق مئات الأقدام. كانت الصحراء بالنسبة لهم ملعبًا فقد أسسوا مجتمعًا مخيمًا مكتفيًا بذاته، حيث يحملون الخيام والإطارات الإضافية ومؤن الطعام والماء ومجارف لتخليص سياراتهم من الرمال. غير أنهم فى الوقت المناسب سعوا وراء شيء أكثر دوامًا واتجهوا لبراملى بحثًا عن حل. بمساعدة براملى سمحت لهم الحكومة باستئجار ربوع مصنع السجاد القديم الحية للاستفادة منها كنادى صحراء فى نهاية الأسبوع، وفى عام ١٩٣٧ سمحت لهم بإنشاء منازل تحمل تصميم براملى داخل جوانب برج العرب نفسها.

صادفت إعادة ميلاد برج العرب العمل على نسخة الإسكندرية الثانية التى كتبها فورستر وشملت العديد من الناس. ساعد فرانك كرامر روبرتس وهو مهندس مدنى وعضو نادى الصحراء فورستر فى التاريخ العسكرى الخاص بفترة نابليون وبعض الخرائط. لم يكن أنتونى دى كوسون أكثر أعضاء نادى الصحراء حبًا للمغامرة لأنه عرف الكثير عن الصحراء من براملى الذى كان صهره، بالإضافة إلى أنه كان رئيس سكك حديد الصحراء. فى عام ١٩٣٥ نشر دى كوسون "المريوطية" التى تعتبر رواية كلاسيكية عن الطوبوغرافيا والتاريخ والمتاحف القديمة الخاصة بصحراء مصر الغربية الشمالية وبحيرة المريوطية التى قرأها دوريل وأكد عليها عندما كتب رباعيات الإسكندرية. تم الشعور بسطوته فى العديد من أجزاء مراجعة دليل فورستر، على الرغم من مساهمات ابنة أخته فيفيان ابنة براملى المتألقة والمرحة التى بدأت عقدها الثالث فى هذا الوقت. كتب فورستر فى

مقدمته الجديدة: "تحرير آنسة/ فيفيان جينيجز براملى ومشاركتها"، حيث راجعت النص وأعادت كتابة فصول كاملة "فصول المتحف اليونانى الرومانى والصحراء الغربية التى عرفتها جيدا. لم يكن شيئا لينجز دونها." (٩٨)

سرعان ما استمتع سكان برج العرب الجدد برؤية الجمال آتية تحمل أحمال طوب ومشاهدة ارتفاع منازلهم أمام أعينهم. كتب القاضى برينتون: "وكان مصدر الأحجار الجميلة أنقاض الأبنية القديمة فى الجوار المحيطة. كان وجود مقابض الحوائط القديمة المحفورة فى بعض الطوب دليلا كافيا على نفعها المبكر منذ آلاف السنين على سبيل المثال." (٩٩) أصرت فيفيان على مزايا الملكية الخاصة بأسرة برينتون: "مازلت تمتلكها فى حالة تحويل تجهم بعض الافتراضات العديدة فى المستقبل. إن بقاءك أو بقاءنا فى هذا البلد أصبح مستحيلاً ولكن "اجمع براعم زهورك (مثل منازل فى الصحراء ومتع وجيران طيبين) بينما أجمع براعم زهورى." (١٠٠)

غير مسار الأحداث الدولية المشئوم العلاقات بين مصر وبريطانيا. هدد الإيطاليون من خلال انتزاع ليبيا فى العشرينيات واجتياح أثيوبيا فى عام ١٩٣٥ بالإطباق على مصر مثل الرذيلة وأقنع كل قادة الأحزاب المصريين بالتنازل عن قضية بريطانيا مقابل مصالحها الإستراتيجية الواردة فى نقاط إعلان ١٩٢٢ المتحفظ عليها. وفاز الوفد بالانتخابات التى جرت فى مايو ١٩٣٦ برئاسة مصطفى النحاس الذى تزعم كرئيس للوزراء وفدا يشمل كل الأحزاب فى المفاوضات مع بريطانيا التى كسرت الطريق المسدود الذى استمر أربعة عشر عامًا.

حلت المعاهدة المصرية الإنجليزية التى تم التوقيع عليها فى أغسطس ١٩٣٦ محل الإعلان بتحالف يسمح بوجود ١٠ آلاف جندى من الجيش البريطانى بمحاذاة قناة السويس وحرية استعمال القوات الجوية البريطانية للسماء واستعمال البحرية الملكية لميناء الإسكندرية الغربى. استطاعت بريطانيا العثور على طريقها

بشأن نقطتين من نقاطها الأربعة المتحفظ عليها وهما الحق فى حماية اتصالاتها الإمبراطورية والدفاع عن مصر ضد أى عدوان أجنبى.

وعلى الجانب الآخر احتفل المصريون بالمعاهدة التى أتاحت فرصة إجراء مفاوضات التحالف بعد عشرين عاما مما يعنى اعتبار مصر إحدى قذائف بريطانيا خلال جيل. على الرغم من تنازل مصر عن سيطرة بريطانيا غير المحدودة على السودان ضمنت المعاهدة المساعدة البريطانية إلغاء الامتيازات الأجنبية وتم التوصل إلى ميثاق مونترو لإلغاء الامتيازات الأجنبية على الفور فى العام التالى مع السماح باستمرار المحاكم المختلطة اثنى عشر عاما إضافية.

فى ماونت أوليف ثالث أجزاء رباعيات الإسكندرية وصف دوريل قلق البعض فى وقت زوال فترة السماح: "ما زال للأجانب الحق بحكم المعاهدة فى تقديم مشاكلهم القضائية أو الرد على التهم الموجهة إليهم فى المحاكم المختلطة التى تعتبر محاكم أوروبية يعمل فيها محامون أوروبيون. ولكن كان النظام القضائى المصرى (إذا تجرأت على تسميته) تحت سيطرة رجال الختم المملوكى وبقية الإقطاعية المنطوية على مفارقات تاريخية بغيضة ولا معنى لها." [١٠١] وبحلول عام ١٩٤٩ خضع الأوروبيون أيضًا لنظام القضاء المصرى.

لكن معظم العائلات غير المسلمة ذات الأصول الأجنبية عاشت لأجيال، واعتقد القليل منهم بأن مستقبلهم ليس فى البلد الذى اعتبروه وطنهم. ووثقوا أن المساواة فى المعاملة أمام القانون تعنى عدم معاناتهم من التمييز فى التوظيف أو إدارة أعمالهم وتمنوا تأسيس طبقة وسطى تشمل المصريين والأجانب على حد سواء وتضمن الخبرة والتسامح المثلى الخاص بمضيفيهم مكان الأجانب فيها. من المريح تصديق عدم تغيير شيء منذ عام ١٩١٩ عندما أعلن سعد زغلول أن "الحركة الحالية فى مصر ليست دينية؛ لأن المسلمين والأقباط يتظاهرون معا

وليست حركة إرهاب أجانب أو حركة تنادى بالوحدة العربية." (١٠٢) كانت فكرة زغلول الوطنية التى استقاها من الفكر التحررى الأوروبى إقليمية وشاملة ولكن كان الأقباط خاصة واليهود أعضاء بارزين فى الوفد. بالتوقيع على المعاهدة وتقليل النفوذ البريطانى، زادت القومية العربية والإسلامية وعلامات تدهور العلاقات بين الأغلبية المسلمة والأقليات القبطية واليهودية والأجنبية مما سبب للبعض إحساسًا بالقلق الذى يطلق عليه البعض "الخوف الصغير".(١٠٣)

فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ بينما تجرى مفاوضات المعاهدة، استدعى والتر سمارت سير مايلز لامبسون المندوب السامى البريطانى من مأدبة غداء رسمية على نحو طارئ لإبلاغه بوفاة الملك فؤاد فى هذا الصباح. بعد أسبوع حيا لامبسون ابن فؤاد البالغ من العمر ١٦ عامًا الذى هرع من دراسته فى إنجلترا فور سماع النبأ ووصل من الإسكندرية باستخدام القطار فى محطة قطار القاهرة. "بدا فاروق شاحبا ومنمشًا! ولد مسكين! أدركت صعوبة الأشياء على الملك الصغير فى الفترة القادمة وحاجته لشخص يعتمد عليه."(١٠٤) اعتقد لامبسون الذى كان رجلا جبارا وساميا على الزعماء المصريين الذين كان يتفاوض معهم عن الجانب البريطانى أن مصر أصبحت جزءا من الإمبراطورية البريطانية واتفق مع أنتونى إيدن وزير الخارجية على عدم استبعاد الخيار فى المستقبل على الرغم من الاتفاقية. تعنى الاتفاقية المصرية الإنجليزية عدم بقاء لامبسون مندوبًا ساميًا ويحل منصب سفير دولة سائدة محل منصب المندوب السامى. ولكن الرجل ظل ولم تقل غطرسته عما قبل خاصة تجاه فاروق الذى استمر فى مناداته: "الولد". قال جرافتى سميث "أندم شخصيا على بقاء سير مايلز لامبسون فى القاهرة كسفير بريطانيا الأول. لم يكن قادرًا بدنيًا ومزاجيًا على إعطاء أى انطباع مقنع بالتغيير مما أدى لعواقب وخيمة." (١٠٥)

تذكر قاضى برينتون فاروق: "ما زلت أراه عندما دخل قاعة المحاكم المختلطة الكبرى بمناسبة التوقيع على ميثاق مونترو شابا أشقر نحيفا هتفت له الصحافة وشعبه فى الحقيقة "فتى أحلام "مصر". وكثيرا أتذكر الملاحظة الفضولية التى قالها لزوجتى ذات مرة: "تعرفين أننى نشأت فى ظروف صعبة". تبدو فضولية ظاهريا ولكن للأسر التى تعرف القصة كاملة والتى تعرف كثيرا عن سر الكارثة المروعة."(١٠٦)

انتحبت فيفيان جنينجز براملى فى بداية عام ١٩٣٧ فى برج العرب على انسحاب فصيلة القوات البريطانية المحلية عندما قالت: "كنا ننتظر دفعة من الجنود البريطانيين على حفل شاى ربما لآخر مرة. أخشى القول بأنى سمعت برحيلهم. سنفتقد موقعنا والبدو على ما أعتقد." (١٠٧) فقد انشغلت بقيادة سيارتها بين برج العرب والإسكندرية حيث تقيم مع أسرة برينتون عندما تعقبت خطوات فورستر فى المتحف الرومانى اليونانى. كتب فورستر فى طبعة كتابه الأولى: "يكتشف "الزائر" الذى "يمر بالمتحف" أن المتحف مر به. تعتبر معرفة شيء عن المدينة القديمة وتصورها وزيارة أشياء واضحة معينة قبل القيام بالزيارة قاعدة ذهبية فى كل المتاحف. قد يكتشف عودة قصاصة من الماضى إلى الحياة."(١٠٨) تقدم فيفيان مراجعتها للقاضى برينتون الذى يرسلها بدوره إلى فورستر مما يسبب فقدان ثقة فيفيان فى نفسها. كتبت فيفيان لجينيف زوجة برينتون فى الرمل: "يزعجنى رؤية القدر الذى اقتبسته من سيد فورستر وإذا أردت ذكر شيء، ستكون ذكر السعادة الطاغية التى شعرت بها عند زيارة المتحف بصحبته (الطيفية)."(١٠٩)

أثناء مجيئها وذهابها، وجدت أن المتحف والمدينة يتخللانها أكثر مما تتخللهما وعادت لأسرة برينتون حتى تشفى، وتساءل القاضى برينتون ذات مرة: ما مستقبل الكازينو فى سان ستيفانو؟ هل مازالت محطات ترام الرمل تحمل نفس

الأسماء؟ وماذا عن المقبرة اليونانية التى عثروا عليها فى عام ١٩٣٣ تحت التكنات البريطانية فى مصطفى باشا؟ إلا أننى أخبرته أننى: "رأيت المقبرة ولكن لا أستطيع وصفها وصفا دقيقا من الذاكرة. هل تستطيع إحضار شخص يستطيع النزول وكتابة ملاحظات أصيلة. يتصف السيد مارشال برؤية واضحة ممتازة فى وضع الأشياء وتكاد تطابق طريقة فورستر نفسه." (١١٠) وقال لجينيف فى برج العرب: هل تتذكرين المذكرات الأخيرة عن دوراننا حول المتحف؟ ربما لففتها فى "نسخة العمل" الخاصة بكتيب فورستر التى تركتها فى حجرتى (فى منزلك) أتمنى ذلك. أو ربما طارت فى مكان ما تحت سرير أو حتى فى المكتبة، أخشى ضياعها. فى هذه الحالة أضطر للتوسل إليك أو إلى شخص يعانى من مشكلة أصغر للتجول فى المتحف والتحقق من شيء أو أكثر أو إصلاحها."(١١١)

فى يوليو من عام ١٩٣٧ اكتمل بحث الطبعة الثانية وإعادة كتابتها وتحريرها تقريبا وأبحرت فيفيان من الإسكندرية للحصول على موافقة فورستر فى لندن على النص المراجع. وكتبت لجون برينتون "أخبرتك، حان الوقت، اعتنق نفسك. مررنا أنا والسيد فورستر بكل ذلك، انتهت جلستنا الأخيرة بالقرب من منتصف الليل وتركت النتيجة على الرغم من أنها مرضية جدا، قليل من الخيوط الحرة التى نشعر بالامتنان إذا استطعت ربطها وعندما تستطيع ربطها. مسكين جون أخشى أنك ستضطر لعقد صفقة جيدة." (١١٢)

بدا هذا النداء إعادة مقدمة ترحيب بالإسكندرية التى تركها جون منذ عشر سنوات. بدأت قائمة من فيفيان وفورستر بسؤال أدريانى عن تاريخ.... التى وقع عليها مونوماكوس. هل أزيل الكلام المنقوش فى مدخل الكاتدرائية القبطية ("أزيل سريعًا")؟ هل ما زال المدفع قابعا فى الرمال أعلى هضبة أبو النواطير؟ هل ما زالت سلسلة الشعاب مقتربة من مدخل الميناء الغربي؟ هل مازال الفسيفساء أسفل

الملجأ الصفيح المكسور في السهيل؟ هل ما زال الكلدانيون يبحثون عن قطعة أرض لبناء كنيسة؟ ولكن غرق قلب جون حين عاد إلى ملعب الطفولة في شاطئ ستانلى ووجد أن الطريق المترب القصير المؤدى إلى البحر أصبح طريقا عاما واسعا وتم بناء طرق كبائن متطابقة ومصاطب صلبة على دائرة الصخور؛ حيث تلعب الأوركسترا موسيقى الجاز بينما يشرب الناس الذين يجلسون حول طاولات البيرة، حيث اشتهر شاطئ ستانلى بأنه مصيدة لمحبى الأطفال. اختفى اللواء الروسى بلحيته البيضاء وزوجته التى كانت تصنع آيس كريم شهيًا وحل مقهى يمتلئ بندلاء محله ولكن بقى المعبد الصينى على الأقل. "مرحى يطل معبد صينى فى مصر على البحر المتوسط. عادت مشاهد طفولته والمرح والألوان وصراخ المتعة المتهورة ولكن "اختفى الحلم بطيئا وشعرت برؤية ظلى على الرمال". (١١٣)

فى عام ١٩٢٦، قبل زواج والد جون من جينيف بعام استدعت والدة جون ولدها لأمريكا لاستكمال تعليمه على الرغم من عدم انضمامه فى شئون الأسرة إلا عندما بلغ عامه السادس عشر. كانت أسرة ماك فيدن فيلادلفيا إحدى أكبر سماسرة القطن فى الولايات المتحدة، وقد تدرب جون فى فرعهم فى واكو فى تكساس ثم ممفيس فى تينسي، حيث قابل جوزفين إنجرام التى تعد فتاة شقراء جميلة ومفعمة بالحيوية ووقع فى غرامها. ولكن حاول ماك فيدن إبعاد الزوج فور سماعه خبر ارتباطهما، حيث إن جون ما زال صغيرًا على شق طريقه فى الحياة. لذا فرا وفى نهاية فبراير ١٩٣٧ أبحر جون الذى يبلغ ٢١ عاما وجوزى التى تبلغ ٢٠ عاما إلى ميناء الإسكندرية بعد مرور شهر من زواجهما.

كتبت جوزى لأمها: "قابلنا والد جون وكان لطيفا للغاية كان فاتنا وأخبر جون أننى جميلة وساحرة؛ أعتقد أننى أعجبته" سألها برينتون عن الأساسيات: "سألنى عن لغتى الفرنسية ونصحنى ببداية ممارستها وسألنى عن لعبة التنس." وعندما وصلنا إلى المنزل فى محطة الرمل، خرجت جينيف وأخذتنى بالأحضان ورحبت بى ومنحتنى أنا وجون غرفة كبيرة رائعة بها نافذة هائلة تصب فيها الشمس الآن" بينما "تنام ليلا تحت ناموسية كبيرة تغطى السرير كاملاً ومحكمة

الانتثاء تحت الأغطية؛ أشعر أننى أعيش فى المدار الاستوائى." وفى اليوم التالى "تنزهنا على الشاطئ قرب الظهر مع أصدقاء تانت (أطلق جون على زوجة أبيه تانت وأطلقت جوزى على القاضى برينتون "سيد/ تانت") بالإضافة إلى السيدة باركر وابنتها التى تبلغ من العمر حوالى ٣٥ عاما. هناك شاطئ رائع يتميز بخط من منازل الاستحمام. تصورى أنك قادرة على الاستحمام فى فبراير. يعتبر الجو دافئا هنا الآن مثل أواخر مايو فى ممفيس."

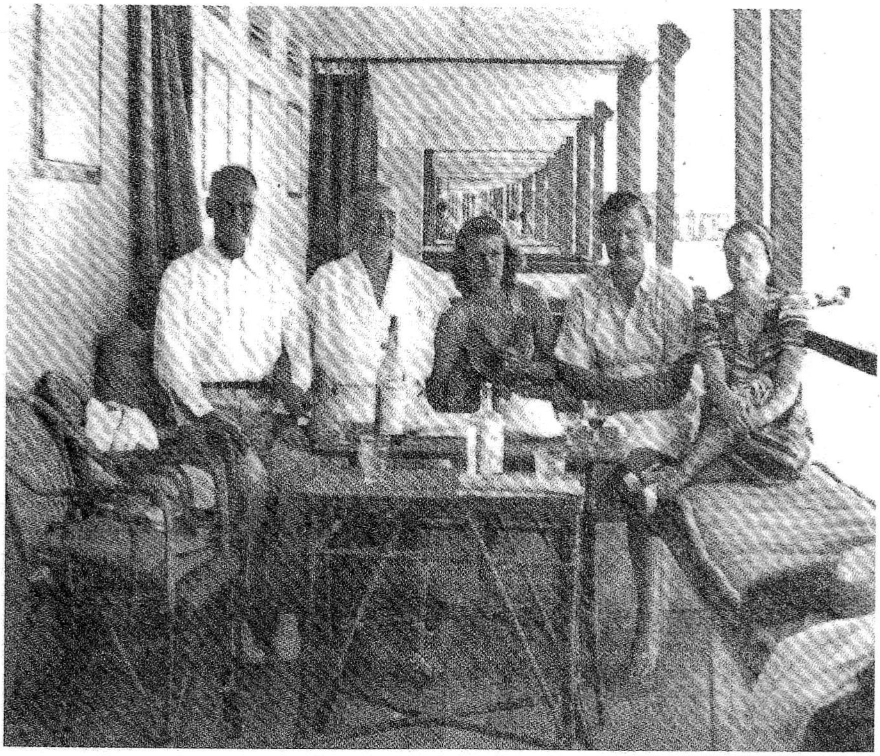

عائلة برينتون فى كابينة على شاطئ سيدى بشر فى محطة الرمل. من اليسار: القاضى برينتون وجنيف برينتون وجوزى وجون برينتون وفى أقصى اليمين تشارميان إحدى أصدقاء العائلة.

كتبت جوزى لأمها "الإسكندرية ست أو سبع مئة آلاف، يبلغ حجمها ضعفى حجم ممفيس. وتنتشر أشجار النخيل المرتفعة العظيمة والعرب؛ يرتدى آلاف العرب عباءات طويلة عظيمة تشبه قمصان المساء وطرابيش حمراء. إنها أروع ضوضاء شارع وتغريد الطيور تشبه الزنوج الذين يبيعون فاكهة فى منازلهم إلا أنهم يتحدثون العربية ومن الصعب تذكر أن الخادمين عرب وليسوا زنوجًا. عندما وصلنا سلم علىّ خادم والد جون الذى يعمل معه منذ سنوات، قبل يدى واندهشت بطبيعة الحال. كان الوضع أفضل مما وصفه لى جون وأنا سعيدة مثل القنبرة. سنذهب لحضور حفل عشاء غدا والأوبرا مساء الغد، أعتقد أن الوضع مبهج مثل ممفيس فالكل هنا لطيف معك وتشبه ممفيس كثيرًا." (١١٤)

وبعد مرور أسبوع ذهبت جوزى مع جون وجينيف لشرب "الشاى مع بعض الإنجليز الذين يسكنون فى الصحراء. يشبه والد العائلة ملك البدو أى العرب الذين يسكنون فى خيام متداعية للسقوط فى الصحراء. بنى منزله الجميل ويبنى الآن مسجدا للبدو الذين يسكنون قرب منزله." فى هذا المساء ذهبوا إلى النادى حيث "تناولنا العشاء وجلسنا حول النار وقرأنا ثم تمشيت مع جون فى الصحراء وكان فى السماء بدر جميل. كان النادى الذى كان جزءا من قرية عربية قديمة يشبه مقر رابطة المحاربين القدماء الأجنبى الذى تشاهدينه فى الأفلام ويدعى برج العرب."(١١٥)

بعد أيام قليلة أخبرت جوزى أمها "من الضرورى معرفة التحدث باللغة الفرنسية هنا. ذهبنا إلى مأدبة غداء صغيرة أقامها أحد المصريين وتحدث الجميع باللغة الفرنسية. بالطبع استطعت فهم القليل ولكنى خشيت قول أى شيء مثل صباح الخير أو مع السلامة." (١١٦) ولكن على الرغم من أن لغة المدينة اللغة الفرنسية فإن الفرنسيين أنفسهم انغمسوا فى حنين فدائى إلى الوطن حتى فى المجتمع السكندرى. حيث تعد أسرة تورتيليا سلالة مهندس وصل إلى مصر مع فرديناند ديلسبس استثناء.

كتبت جوزى لأمها بعد وصولها بأسبوعين: "حقا يا أمى يشبه الأمر الأفلام" حيث بدأت يومها بزيارة على بعد ثلاثة أميال من برج العرب. "بنى رجل يدعى تورتيليا - ويسكن فى الإسكندرية ويمتلك منزلاً فارسيًا جميلاً فى المدينة - قلعة حقيقية فى الصحراء. إنها ضخمة وتحتوى على حمام سباحة وملعب تنس وعشر غرف نوم وقاعة مدخل جميلة وتطريز مزدان بالرسوم ودروع وغرفة ألعاب بالدور الأرضى بها طاولة تنس وخمسة حمامات أو ستة بأنابيب حديثة ولا يستخدمها سوى لقضاء نهايات الأسبوع فى الصحراء. إنها مؤثثة تأثيثًا جميلاً. كان على الغداء ١٨ شخصا عشر جنسياتهم مختلفة بين فرنسيين وإنجليز وألمان ومجريين ورومانيين وأمريكيين ومصريين وإيطاليين ونسيت الجنسيتين الأخريين. تناولنا جمبرى ودجاجًا ونبيذًا وأفضل حلوى قد تتذوقينها، لا تتصورين مدى روعة الصحراء على بعد أميال من الحضارة."

عدنا للمنزل فى الساعة الخامسة وهرعت مع جون إلى حفل كوكتيل فى سفينة حرب بريطانية. ألا يبدو هذا مثيرًا؟ كانت سفينة صاحبة الجلالة فيوريوس. رست السفينة على بعد ميل من الميناء لذا اضطررنا لأخذ زورق بخارى من الرصيف حتى السفينة. بالطبع كان يتدفق بالأنوار والأعلام والمنظر الجميل. كانت فيوريوس حاملة طائرات لذا حولوا المكان الذى تحمل فيه الطائرات إلى غرفة طويلة. تم إخراج كل الطائرات ورفع أعلام كل الأمم على الجانبين. كان العلم الأمريكى يقابل العلم الإنجليزى بالإضافة إلى الأوركسترا ومكان للرقص. كانت متعة حقيقية." لخصت جوزى يومها بعد العشاء والرقص والعودة إلى البلدة: "كل شيء متوفر فى الإسكندرية حيث تعد مدينة حديثة. عندما أوشك أحمر شفاهى ماركة ماكس فاكتور على الانتهاء استطعت شراء أحمر شفاه آخر على الفور."(١١٧)

لقد بدا لها كل شيء فى الإسكندرية "مذهلاً" و"يشبه الأفلام" كما اكتشفت "منزل الأفلام المذهل" عندما ذهبت لرؤية روميو وجولييت: "الصورة بالطبع بالإنجليزية ولكن يظهر الحوار فى الأسفل بالفرنسية وتظهر لك شاشة صغيرة على جانب الشاشة الرئيسية يظهر عليها الحوار باليونانية والعربية. ألا يبدو هذا تحرزًا من الأحقاد القومية والمحلية."(١١٨)

كان أوزوالد فينى وزوجته جوزا أعز أصدقاء جاسبر وجينيف برينتون فى الإسكندرية؛ وكانت أسرة فينى رئيسة الجالية البريطانية فى الإسكندرية لأنها أغنى أجنبية فى مصر. تبنت أسرة فينى التى لم تنجب أطفالا جون وجوزى اللذين سكنا دون إيجار فى أحد ممتلكاتهم التى تطل على البحر فى جليم، لذا انتفعا من المجتمع الآثارى ويظهر اسم فينى أوزوالد العبرى على حوائطه، وكثرت تبرعاته للجالية اليهودية أشد اليهود أنفسهم ثراءً. قد يكون الأمر برمته عملاً حيث قالت جوزى: "لأوزالد ضلع فى كل مسألة فى الإسكندرية."(١١٩) أصبح فينى بمساعدة شركائه اليونانيين واليهود لاعبا رئيسيا فى سوق تصدير القطن (شركة الإسكندرية التجارية) وتصنيع النسيج المحلى (مصنع الغزل المحلى فى مصر)؛ كما أنتج الأكسجين الإستيلينى وتحكم فى سوق الخميرة وتوزيع اللبن ومارس استثمارات واسعة النطاق فى العقارات، ومنذ عام ١٩٢٥ امتلك الشركة الشرقية للنشر وهى التى تعد المجموعة التى نشرت صحفًا باللغة الإنجليزية والفرنسية فى البلاد مثل إيجيشيان جازيت وإيجيشيان ميل ولو بروجريه ايجبسيا ولا بورص إيجبسيان.

لخصت أسرة فينى عصر الإسكندرية المطلى بالذهب بين الحروب بقوة وحفلاتهم غير القابلة للتصديق وثروتهم الأسطورية. كتبت جوزى لأمها: "يلعب

هنا كل نجوم التنس الألمان والفرنسيين والإنجليز فى بطولة دولية." كما كانت فـــى البلدة جماعة مسرح بوابة دبلن الخاصة بمايكل ماك ليامور: "تذهب إلى مباريـــات تنس كل يوم والمسرح كل ليلة وبينهما حفلات كوكتيل وشاى. ذهبنا ليلـــة الاثنـــين إلى حفل رقص أقامته السيدة/ فينى للاعبى التنس فهى تمتلك أربع سيارات رولـــز رويس وتسكن فى بناية كاملة وتسميني سميتها. غمرت التسلية الرقص وتم تقـــديم الشامبانيا والكافيار مثل الماء والمربى." (١٢٠)

فى أثناء صنع أوزوالد ثروته نسب حظه لجوزا التـــى كانـــت فتـــاة غيـــر أرستقراطية تبلغ من العمر ستة عشر عاما عندما قابلها وهو فى الأربعينات مـــن عمره فى تريستا فى العشرينيات. اعتقد برينتون أنها تنتمى غالبا للطبقة المتوسطة وكلاهما كاثوليك رومانيون. على أى حال ظل ماضى جوزا غامضًا ممـــا أثـــار شائعات متهورة فى الإسكندرية من بينها أنه فينى فـــى دار دعـــارة أطفـــال. لـــم يتزوجها قبل مرور ثلاثة أعوام وفى هذا الوقت كان يعدها لتصبح سيدة صالونات، تسبب ما أطلق القاضى برينتون عليه "حكم عمل فينى المعصوم على نحو واضح" فى غناه غنى فاحشًا من امتلاكه شقة فردية فى شارع رولو (الـــذى أصـــبح الآن شارع د. أحمد عبد السلام شمال شارع سلطان حسين) ولتخوفه من الانتقال منـــه تمكن من الحصول على طابق تلو الآخر حتى امتلك المبنى كـــاملاً، حيـــث نـــشر أجزاءه الداخلية وأعاد بناءه كقصر إيطالى.

جوزا وأوزوالد على شرفة سقف منزلهما فى الإسكندرية. كان فينى الذى يتاجر فى العقارات والصحف والقطن والبصل أغنى أجنبى فى مصر ورئيس الجالية البريطانى غير الرسمى.

وصفت جوزا السيدة/ فينى فى أولى مقابلتهما: "لم أشاهد شخصا يتمتع بهذا القدر من الحيوية والمرح من قبل. فقد اندفعت تجرى فى أرجاء المنزل الضخم."(١٢١) مصعدان وسلالم رخامية ترتفع خلال خمسة أدوار كاملة من حجرة الألعاب الرياضية وحمام السباحة فى الدور الأرضى حتى الدور الرابع الذى يحتوى على قاعة الرقص وشرفة السطح التى تشمل تماثيل رومانية يونانية مثيرة وتطل على بحيرة المريوطية والمدينة والبحر. "يجمع السيد/ فينى تطريزات مزدانة بالرسوم التى تغطى إحداها الحائط بأكمله. تتسق معها قاعة الرقص... لقد ذهلت تمامًا حين أقاموا حفلا راقصا يرتدى فيه الناس ملابس من العصور الماضية قبل وصولنا ودائمًا ما يقيمون الحفلات."(١٢٢)

تتصادف الحفلات الراقصة التي تقيمها أسرة فيني مع موسم مهرجان الإسكندرية. تذكر كونت باتريك دي زغب: "لا يمر وقت المهرجان مرور الكرام في بلدتنا المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية." اتسمت الأيام التي سبقت لينت بالبهجة والحفلات التنكرية في الشوارع والمنازل وأماكن التسلية العامة. "في الشوارع يعدو موكب سيارات المهرجان التي تمتلئ بالشباب الوسيم الذي يرتدي أقنعة وبرانس وفي المساء وكذلك في الحفلات التنكرية لصالح مؤسسة خيرية أو أخرى في دار الأوبرا ويستمر حتى الفجر في كل البلدة."(١٢٣)

يتطلع الجميع لحفلات الرقص التي تقيمها أسرة فيني مثل أسر بيناك وكورم وبيل وباركر وكارتر وتورتيليا وأمبرون وزولو ومينشاك وفينسيندون. سجلت كونتيسة ماري دي زغب ابنة عم كونت باتريك في يومياتها حضور كل الحفلات الراقصة التي أقامها فيني من عام ١٩٢٧؛ حيث ارتدت ملابس تتنوع من مهرج فرنسي وميكانيكي سيارات وبحار ومهرج وغجري وتيرولي وفلاح كوبي وارتدت في حفل عام ١٩٣٩ ملابس سيدة فلسطينية. لأنها كونتيسة، استطاعت تحمل ارتداء ملابس غير رسمية أكثر من ارتداء ملابس رسمية، ملابسها تجاوزت معظمها عندما تنكر أرميني ممتلئ القوام في ملابس هنري الثامن الذي تزوج ثماني مرات متتالية؛ على الرغم من عدم ارتداء أحد ملابس غير رسمية لدرجة أن يونانيا صغيرا زود نفسه بمقعد تواليت بني اللون حول وسطه وحوض مزود بسلسلة شدها فوق رأسه. قال برنارد ابن ماري دي زغب: "لم تكترث أمي بالقيام بأشياء كثيرة. ذات مرة تشبهت بالمتسولات وجلست تتسول على درجة الباب ومر الجميع دون إعطائها شيئًا ما عدا سيدة يهودية سمينة غنية قالت لسائق سيارتها: "أعط السيدة شلنا" وقالت لها أمي في حفلة الرقص لضيفتها المجفلة: "أنت السيدة الكريمة الوحيدة."

كتبت جوزى لأهلها فى ممفيس: "رأينا دافنى دى مورييه حولنا فى كل مكان نذهب إليه وليلة ذهابنا لتناول المشروبات."(١٢٤) إلا أن الإسكندرية أصابتها بالملل، وبعيدًا عن ولعها بحفلات الكوكتيل لم تظهر أى إشارة خفية عنها فى ريبيكا، وهى الرواية التى بدأت كتابتها عندما كان زوجها فى المدينة مع رماة القنابل اليدوية فى الفترة بين ١٩٣٦ و١٩٣٧. كنا نستأجر شقة قريبة من شاطئ الرمل وبينما كان مشغولاً بالأمور العسكرية شعرت بالحنين لكورنيل. وفكرت فى تمثيل الشجاعة فى المواقف وارتدت حفلات الكوكتيل التى أجبرت على حضورها. لو تزوج زوجى قبلى لغرت، أعلم أنه ارتبط ذات مرة إلا أنه انفصل عنها. ربما كانت أفضل منى فى حفلات الكوكتيل ومآدب العشاء. بدأ تساقط البذور مثل المنزل الرائع والزوجة الأولى والغيرة. ذرعْتُ غرفة المعيشة فى الإسكندرية جيئة وذهابًا بينما أحمل مذكرة فى يدى."(١٢٥).

قاعة رقص أسرة فينى مثلت أسرة فينى بقوة حفلاتها غير القابلة للتصديق وثروتها الأسطورية عصر الإسكندرية الذهبى بين الحروب. كتب دوريل حفلات رقصها السنوية الشهيرة فى رباعيات الإسكندرية حيث تتوفر خلفية الخديعة والقتل.

قالت جوزى: "يحاول والد جون العثور على وظيفة له فى مجال الطباعة وطالما أحب جون هذا النوع من العمل، ويعتقد والده أن هذا ما يجب عليه القيام به."(١٢٦) وفى شهر أبريل توظف عند وايتهيد موريس الذى "سعد كثيرًا لابتعاده عن مجال القطن." (١٢٧) ولكن "لم يكن العمل لصالح مدير وايتهيد موريس السيد/ ويليام والكر وظيفة عاطلة." حيث أخبر جون فورستر فيما بعد عندما فسر له ظهور الطبعة الثانية الوضيع. "كان والكر عنيدًا جدًا بشأن استخدام الطباعة الصغيرة." وكاد جون يُفصل من العمل أكثر من مرة بسبب محاولة وضع الكتيب فى تصميم أكثر سخاء وسهولة فى القراءة. "استطعت الانتقام قليلاً فقد استطعت تعويض بعض المذكرات والخرائط للسيد/ مان لطبعة عام ١٩٢٢. فقد رماها والكر فى أحد الأيام بسبب غضبه فى سلة مهملاته، ثم إنها مقيدة فى نسخة الكتيب التى تخصنى وأصبحت فى أيد أمينة ومقدرة وأتمنى ألا تمانع احتفاظى بها." (١٢٨).

خلف ثوران والكر حالة من حبه لذاته. عندما اقترب القاضى برنتون من وايتهيد موريس لأول مرة لم يعرف أن السعر الذى أخذه كان سعر إعادة الطباعة وليس مراجعة الطبعة الأولى. وبعد مرور عام على المشروع عندما اكتشف وايتهيد موريس مقياس التغيير طلب المزيد من المال. ذهب برينتون إلى البلدية وطلب منهم أخذ ألف نسخة مقابل ٢٠٠ جنيه بالإضافة إلى الخمسمائة نسخة المتفق عليها مع مكتب السياحة والخمسمائة نسخة المطلوبة للجمعية نفسها؛ مما زاد عملية الطبع النهائية إلى ألفى نسخة. كتب والكر لبرينتون فى أواخر عام ١٩٣٦ أنها لم تكن قضية العثور على المزيد من المال لأن "مالكى حق الطبع فى كتيب الإسكندرية الخاص بالسيد/ إدوارد مورغان فورستر يسيطرون على أى تنقيح أو تغييرات أو مراجعات أو إضافات مقترحة ولا يتحملون أى مال أو يقبلونه مما لا يعد موافقتهم النهائية." (١٢٩) كان والكر يدافع عن نفسه كمحكم نهائى لما يذكر فى الكتيب وما لا يذكر فى الكتيب بالإضافة إلى طريقة إنتاجه.

بعض ضيوف الحفل الراقص الذى أقامته أسرة فينى فى عام ١٩٣٨. يقف جاك فينسندون على اليسار وتنظر إليه زوجته كلير وتقف روزيت دى ميناشا فى أقصى اليمين وتقف ابنتها دينيس إلى جانبها.

أرسل برينتون تحذيرا لفورستر الذى أجاب: "أهتم أكثر بما يتردد عن السيد/ والكر وسأرسل له خطابًا قريبًا إن أردت منحى إشارة خفية عن نوع الشيء الذى تريدنى أن أكتبه." (١٣٠) قدم برينتون الذى فضل إتاحة الفرصة لوالكر كى يُلقى نظرة على العمل كتيبًا بتعديلاته المؤقتة فى ٨ أبريل ١٩٣٧ بعد مرور أيام من عمل جون مع وايتهيد موريس وهو يطبق أقل الضغوط بتفسير "معظم الأشياء التى وافق عليها السيد/ فورستر إلا أنك تتمنى بالطبع تقديم النص الذى تعتمده للحصول على موافقته الأخيرة." (١٣١) وبعد مرور أسبوعين من كتابة فورستر لبرينتون: "استمعت للسيد/ والكر أيضًا وألحقت نسخة من ردى الذى أتمنى أن يتسم باللباقة

الكافية بالنسبة له. كما تسرنى تلميحاتك الخفية وأشعر أنك على حق فى ترتيب اتصاله بى مباشرة. وسأطلعك على كل شيء فى النهاية وسيخبرك ابنك عن كل شيء." (١٣٢) ثم تقدمت المؤامرة "يسعدنى حصول الطبعة الجديدة على موافقتك بالإضافة إلى موافقتى وألتزم بالمبادرة ومساعدة القاضى برينتون الدائمة التزامًا تامًا فى هذا الشأن. كما أعتقد أنك تتصل به بالفعل وأتمنى أن تفكر مليًا فى استشارته من وقت لآخر لأننى خارج بقعة الضوء." ثم جاءت الكلمات التى يتصور المرء أنها أغضبت والكر عندمًا ألقى الخرائط القديمة من طبعة عام ١٩٢٢ فى سلة مهملاته: "بالنسبة للخطط أخشى عدم اتفاقى معك بسبب عدم كفاية الخطط الأصلية. فقد حدث العديد من التغييرات منذ كتابة الكتاب وسيتم ذكرها فى النص المراجع وإذا ظلت الخطط غير حديثة ضللت السائحين وسببت نقدا معاكسًا للكتاب." (١٣٣) وتكررت القصة مع السيد/ مان مرة أخرى.

التزم القاضى برينتون الذى اتبع فيفيان إلى لندن فى فصل صيف عام ١٩٣٧ وقابل فورستر هناك بإطلاعه على "الهزلية الإنسانية القليلة السارة التى يلعب بها الكتيب فى الإسكندرية" حيث قال عنها "أصبحت مؤسسة (وأشعر أننى الساكن الرئيسي) إنها تعطى غلة يوميًا أعتمد عليها فى المحاكة الخفيفة والضغوط وأوقات الذعر الخفيفة المحتملة."(١٣٤)

بعد المزيد من التأخيرات والإضرابات عند وايتهيد موريس تم نشر الطبعة الثانية من التاريخ والكتيب فى ديسمبر ١٩٣٨ فى مدينة فورستر فى وقت كان جيل جديد ينشأ فى الإسكندرية زمن الحرب. كتبت إيفلين واو فى "ضباط ونبلاء" فى مشهد تم تصويره فى المدينة فى ربيع عام ١٩٤١: "حدقت السيدة/ فى الشرفة التى تطل على الحديقة".

قالت: "يقول فورستر إنه يجب "استكشافها استكشافًا كاملاً" شيئًا ليوم آخـــر. حصلت على نسخة من الكتيب؟"

"طالما أردت نسخة منه فهى نادرة."

"أعيد طبعها، إليك نسختى أستطيع الحصول على نسخة أخرى."

وأخرجت من سلتها نسخة من الإسكندرية التى كتبها إدوارد مورغان فورستر.

"لم أعرف. فى هذه الحالة أستطيع الحصول على نسخة من أجلى. شكرًا جزيلاً."

وقالت: "خذها ولا تكن مغفلاً."

"حسنًا شكرًا جزيلاً. أعرف Pharos and Pharillon بالطبع."

"بالطبع يتجاوز هذا الكتاب."(١٣٥)

الفصل الخامس

ثنائيات مختلطة كالعادة

"اليــوم – ثنائيات مختلطة كالعــادة. هل هناك حرب – فى أى مكان – إن المرء ليشعر وكأنه يتساءل – عند رؤية هذا المشهد أو ذاك؟"

يوميات جاسبر ييتس برينتون، يوم ٢٠ يونيو ١٩٤٠.

فى مقال نشرته جريدة ذى إيجيبشيان جازيت The Egyptian Gazette فى ديسمبر عام ١٩٣٨، رحبت بإعادة نشر كتاب الإســكندرية Alexandria، ولكــن عندما أضافت خاتمة تاريخية: بأنه مع صعود هيمنة تيار الوطنية المصرية كانــت المدينة الحديثة فى ذروة مجدهــا،...وآخر ما تبقى من الإسكندرية– ما لــم نكــن أخطأنا فى قراءة اللافتات – أنها تعانى من تدهور. ومع اعترافنا بجميل فورســتر وكل من أسهم فى هذا الكتاب ثانية؛ نستشهد ببيتين من كفافيس شاعر الإســكندرية الحديثة :

مثل رجل متأهب، مثل رجل شجاع

يلقى لها بتحية الوداع، إلى الإسكندرية الراحلة.[١]

ولكن فى أقل من سنة تغير كل شيء؛ فانسحاب البريطانيين من مصر بــدا وكــأنه أكثر من زوبعة، وبالنسبة للإسكندرية القديمــة فهى ليست إلا إعــادة نظر فى أمور كثيرة.

في الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٩، وبعد يومين من غــزو هتلــر لبولنـــدا؛ أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، واضطرت الحكومـــة المــصرية؛ بمقتــضى التزامها بمعاهدة ١٩٣٦ أن تضع كل موانيها ومطاراتها وكل وسائل الاتــصالات بها تحت تصرف البريطانيين، كما فرضت الأحكام العرفية. وفرضت الرقابة على الصحف والبريد، وجاء روبين فيرنس ليساعدهم على إدارة ذلك. وقطعت مــصر علاقتها الدبلوماسية والتجارية مع ألمانيا، وتعرض كل الرعايا الألمان وعددهم نحو مائتي نسمة – للاعتقال ومصادرة ممتلكاتهم.

معظم هؤلاء الألمان كانوا من أعضاء الحزب النازي، الذي أسسه في مصر ألفريد هيس الذي وُلد في الإسكندرية مثل أخيه الأكبر رودلف **Rudolf**، حيث كان والدهما – فريتز هيس **Fritz Hess** – من أبرز الشخصيات في شــئون الجاليــات الأجنبية. في مطلع القرن. كان فريتز هيس يدير تجارة ناجحـــة لبــضائع الجملـــة بطريق دي فرانس، وكان إلى جانب استيراد أنواع الخمور المختلفة مثــل رايـــن، وموزيل وبوردو، كان الوكيل الوحيد لكثير من شركات إنجلترا والنمـــسا وألمانيـــا ومنها مؤسسة كروب **Krupp**. ألحق فريتز ابنه الأكبر بمدرسة في ألمانيا، وكـــان يعده لكي يعود إلى الإسكندرية ويباشر تجارة العائلة. ولكن رودلف – الـــذي كـــان يرى والده مستبدًا – أحب أن يبقى في ألمانيا وشارك في الحرب (الأولى)، لاسيما وأنه لم يعد يملك الكثير ليعود من أجله، حيث جرد البريطانيون عائلته من معظـــم ممتلكاتها في مصر. بعدها التحق رودلف بجامعة في ميونيخ، وكان مـــن أوائـــل الذين التحقوا بالحزب النازي، وشارك في محاولة الانقلاب الفاشلة التي قادها هتلر عام ١٩٢٣ والتي وقعت في حانة في ميونيخ، ولاحقًا قضى الاثنان فتـــرة الـــسجن سويًا، وكان هيس هو من أهدى إليه هتلر كتابه "كفاحي" **Mein Kampf**.

وفى الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما كان هيس نائبًا للقائد الأعلى، كان دائمًا ما يفرغ الوقت كى يكتب (خطابات) لوالدته ووالده المقيمين فى منزل العائلة القابع فى ضاحية الإبراهيمية بالإسكندرية، وكانت المخابرات البريطانية تعترض خطاباته تلك فى انتظام. وكتب عن الإسكندرية لوالدته ذات مرة قائلاً – وكان ذلك بعدما حكم عليه بالسجن مدى الحياة فى نورمبرج – "ما أروع تلك الجنة التى كانت فى حديقتنا على مشارف الصحراء، هل تتذكرين كيف كنا نجمع زهور البنفسج معًا، وإلى أى مدى كانت رائحتها ذكية؟(٢)".

ولم تكن مصر دولة محاربة، وبعيدًا عن الالتزام ببنود المعاهدة، فلم يكن تعاون حكومتها – على ما كان عليه من الضآلة– إلا كرها، وهو ما كان يعكس الاتجاه السائد عند معظم المصريين أن هذه الحرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل، وكما عبرت عن هذا إحدى قريبات صدقى باشا، أحد السياسيين الذين تحلوا بالنزعة القومية – وهى تخاطب جاستون زنانيرى **Gaston Zananiri**: "كما ترى أننا هنا فى مصر كنا دومًا خدمًا للأجانب، فإن كان هؤلاء الأعداء قد جاءوا وأنقذونا مما نعانى منه منذ أجيال فالأفضل أن تقع فى قبضة عدو على أن تقبل بهيمنة أجنبية"، ومهما كان المنطق المتشابك الذى صاغت به أفكارها؛ فإنها كانت تشترك مع غيرها فى ما توصلت إليه. وأثناء عودة جيدج برنتون **Judge Brinton** مع زوجته من إجازته الصيفية التى قضاها فى أوربا فى أكتوبر من عام ١٩٣٩، وجد أن السفينة التى كانت تقلهما مملوءة "بالسادة الزملاء الأعزاء " من المحاكم المختلطة: "بينما كان معظمهم، مثلنا نحن والبريطانيين، من أشد المعارضين لهتلر، كان البعض يتساءل على استحياء" وماذا يضير لو انتصر هتلر؟ "فالإسكندرية كانت دائمًا مدينة المشاعر الممزقة". (٣)

وفى المراحل الأولى من الحرب، لم يكن الخطر المحدق بمصر من ألمانيا بقدر ما كان من إيطاليا، حيث كان أسطولها يجوب البحر المتوسط، وتتمركز قواتها وقوامها نصف مليون جندى فى ليبيا وأثيوبيا، وفى مقابل هذا لم يكن هناك سوى عشرة آلاف جندى بريطاني، وهو العدد الذى سمحت المعاهدة أن يظل فى مصر وقت السلم، ولكن موسولينى آنذاك لم يكن قد تفرغ للأمر بعد، وكان بين بريطانيا وإيطاليا سلام هش، فأخذ من فى الإسكندرية فى الانتظار والترقب.

فى العاشر من مايو ١٩٤٠، بلغت جوسى برنتون **Josie Brinton**، الرابعة والعشرين من عمرها، وكتبت خطابًا إلى والدتها فى أمريكا، تقول فيه: "لا شك أن أحداث هذه الأيام أرعبتنا، حيث غزت ألمانيا هولندا وبلجيكا، كما أن إيطاليا على وشك أن تقوم بشيء ما جهتنا، فمصر ستختبر نظام التعتيم (إطفاء الأنوار) الشامل لـ أسبوع كامل، وبمجرد سماع صفارات الإنذار يجب علينا أن نهرول للاختباء فى المخابئ كما يجب أن نثبت ألواحًا ورقية معتمة على مصاريع النوافذ، وقد أطفئت كل المصابيح الموجودة فى الشوارع عدا القليل الذى تم طلاؤه باللون الأزرق وكذلك مصابيح السيارات الأمامية". وفى نهاية شهر مايو أعلنت الحكومة المصرية أن القاهرة مدينة مفتوحة، وهذا يعنى أنه لن يتم الدفاع عنها ضد أى غزو من قبل المحتل، وبهذا يوجب لها القانون الدولى حماية من التعرض للهجوم أو للقصف بالقنابل، (وبعد هذا) مابرحت القاهرة أن تظل متلألئة بالأضواء حتى نهاية الحرب، كما كان هذا هو حال مطاعمها المفتوحة ونوادى الليل الجاثمة على أسطح الفنادق بها. ولكن الوضع بالإسكندرية كان مغايرًا تمامًا.

انتقل الجيش الألمانى سريعًا من بلجيكا إلى الجنوب حيث تقع فرنسا، وفى العاشر من يونيو، حين كانت الجحافل الألمانية تقف على مشارف باريس، أعلنت إيطاليا الحرب أخيرًا. وأثناء دوى صفارات الإنذار، التى كانت لا تنقطع طوال

اليوم، محذرة من الغارات؛ كتبت جوسى خطابًا إلى (معارفها) بموطنها فى ممفيس Memphis (بالولايات المتحدة) قائلة لهم: "هناك تعتيم شامل الآن، ولذا لا يستطيع أحد الخروج فى الليل – وأمست قيادة السيارات أمرًا شاقًا – إلى جانب أن المرء يخشى من أن يصاب من جراء هذه الغارات. هذا الصباح توجهت للمدينة لأتسوق، وبعدما أوقفت السيارة فى المكان المخصص لانتظار السيارات وتوجهت لأحد المتاجر لشراء قطعة من القماش كى أحيك بها ثوبًا، وما أن وطئت قدمى المتجر حتى دوى صوت صفارات الإنذار – فما لبث أن قام أصحابه بقفل أبوابه، وهرع الجميع إلى الشارع إلى أقرب المخابئ، وفى الوقت ذاته كانت هناك إحدى دوريات الشرطة تجوب الشوارع وقد أمسك أحد من فيها بمكبر صوت وظل يردد قائلاً (احترسوا جميعًا – أسرعوا، أسرعوا")، لقد كان موقفا تتجمد له الدماء فى العروق، واستمر هذا الوضع ما يقرب من ٤٥ دقيقة ولم نعرف حقيقة ما كان يجرى إلا بعد أن طالعنا صحف اليوم التالى، ولحسن الحظ لم تسقط علينا أى قنابل، ولكن إحدى السيدات العجائز، ممن كن معى فى المتجر، أصيبت بحالة من الهستيريا، وطلبت أخرى من صاحبة المتجر أن تلعب معها الورق للتسلية باعتبار أنه يمكننا أن نلهو بشيء ما" (٤).

ونأت الولايات المتحدة بنفسها من خوض غمار هذه الحرب لما يقرب من سنة ونصف، بيد أن جوسى لم تفقد يومًا ثقتها فى عزيمة البريطانيين، حيث كتبت فى مذكراتها الشخصية عن يوم الرابع عشر من يونيو ما يأتى: "أعلن الألمان أنهم سيدخلون باريس فى الخامس عشر من يونيو، وها هم يجوبون شوارعها اليوم، ولا أحد غير الله يدرى متى تنتهى هذه الحرب، لكن الإنجليز لن يستسلموا حتى ينالوا من هتلر أو يفنوا عن آخرهم"(٥).

وبدأت الغارات الجوية تتوالى، وكان الهدف هو الميناء الغربي، ولكن القنابل تساقطت خلال الأيام الأولى على منطقة كليوباترا، أما خلال الأسابيع والشهور اللاحقة فقد تناثرت القنابل المتساقطة بصورة عشوائية على كل أرجاء الإسكندرية، فسقطت في شارع شريف باشا **Cherif pasha**، وعلى محطة ترام الرمل النهائية، وعلى منطقتي الجابري والمكس غربي المدينة، وفي كرموز بالقرب من عمود بومبي **Pompey**، كما انفجر لغم طاف في خليج ستانلي بالقرب من الكورنيش.

وفي هذه الأثناء أصدر وايتهيد موريس **Whitehead Morris** كتيب إرشادات من نوع جديد، وكان عبارة عن فرخ ورق مضاعف الحجم يحمل عنوان "تدابير الغارات الجوية، وسائل الحماية في المنزل" شرح فيها الإجراءات الواجب اتباعها لتجنب أضرار القنابل الحارقة مثل ("تعامل مع القنبلة في أقرب لحظة ممكنة بعد إلقائها")، ومعالجة النوافذ والأبواب ومواضع التدفئة ضد التفجيرات الجوية والهجمات بالغاز والشظايا المتطايرة ("لا تجلس بالقرب من المنافذ أو في مواجهتها")، وما أفضل أشكال المخابئ ("يفضل أن تكون في بدروم المنزل أو في الطابق الأرضي")، وما التجهيزات اللازمة لها ("وضع دلو من الماء خلف ستارة معلقة")، وما الذي يجب اتباعه أثناء الوجود بالمخبأ ("لا تستهلك كمية الأكسجين دون داع "). وقد عمد جيدج برنتون إلى أن يغض الطرف عن الغارات تمامًا، ولكنه كان يشعر أنها ليست سوى "فعل سيئ ومظهر يدل على الغرور"، ولذا فقد أنشا مخبأ في حديقته باستخدام صندوق خشبي كان إطارًا لآلة البيانو وثبته في حفرة ثم طمره تحت كومة من الطين، ولأنه أثثه بأريكة وبعض الكراسي؛ بدا المكان مناسبًا جدًا لاستقبال آخرين، كان من بينهم أحيانًا شخصيات مرموقة، كما كانت تقدم المرطبات الخفيفة إذا طالت مدة المكوث[٦]. ودفعت مخافة السأم، التي

كانت تضاهى مخافة الأعداء، بعضا من سكان وسط المدينة إلى أن يحفروا مخابئ أكثر عمقًا واتساعًا ووضعوا فيها موائد لألعاب الورق، واستغل آخرون الصهاريج الرومانية التى كانت تخزن فيها المياه، وكان واحد منها فى منطقة مصطفى باشا يتسع لألف شخص.

بيد أن جيدج برنتون كتب فى مذكراته ليوم العشرين من يونيو ما يأتى : "هناك ثنائيات مختلطة كالعادة، فهل هناك حرب ما – فى أى مكان؟ – سؤال قد يشعر المرء أنه بحاجة لأن يطرحه على نفسه، عندما يرى مشهدًا كهذا." (٧). وبالفعل فلم يمنع سقوط القنابل أهل الإسكندرية من انتهاز الفرص للتجمع على الشواطئ، ولم يفت فى عزيمة أعضاء نادى اليخت الملكى الموجود بالقرب من قصر رأس التين من الإبحار بزوارقهم عبر مياه الميناء الغربى. وكان من بينهم جون وجوسى، وكانا برفقة سيريل باركر **Cyril Barker**، وهو أحد أفراد الأسر التى لها تاريخ عريق فى بورصة القطن فى الإسكندرية، وجاءت معه زوجته جابريلا **Gabriella**. ذهب الرجلان للإبحار فى قارب، وتصف لنا جوسى قائلة "جلست أنا وجابريلا [سويًا فى زورق] وتناقشنا طويلاً فى الحب والجنس إلى آخره، فقالت لى (جابريلا) إن السيدات الإنجليزيات هن آخر من يتصفن بالأخلاق"(٨)، وكانت جوسى – خلال هذه الأيام – قد بدأت فى قراءة بعض مؤلفات دى. إتش. لورانس **D. H. Lawrence** ومنها رواية عشيق الليدى تشارلى **(Lady Chatterley's lover)**. وأردفت قائلة "فعلى الرغم من أن الشخصيات لا تمت للحقيقة ولا للواقع بصلة فإنها يمكن أن تمثل أناسًا سوف يأتون فى عالم أكثر تحضرًا"(٩)، بعدها دوى صوت صفارات الإنذار، وقالت جابريلا إن بإمكانهم العودة إذا كانوا خائفين، ولكنهم مكثوا فى الميناء، وتضيف جوسى "وعلقت جميع الأعلام على السفن، وأخذت محطة رأس التين فى إطلاق الإشارات بطريقة

جنونية، وتفرقت قاذفات سندرلاند Sunderland التي كانت متجمعة حول مخـزن الزوارق الطائرة (الطائرات التي تهبط على الماء فقط) في اتجاهات شتى، ورفـع ما يقرب من ثمانية مدمرات المرساة وخرجت إلى عرض البحر منتظمة في خـط واحد، وكان المشهد في غاية الإثارة !"(١٠)

وبحلول منتصف صيف عام ١٩٤٠، وبينما كانت جوسى تمـر مـن أمـام سكول ليتورى Scuole Littorie "سمعت (جوسي) صيحات استهجان وصراخا لـم أسمع مثلهما من قبل" (١١)، فقد تحولت المدرسة الإيطالية إلى مركز اعتقال لمن هم في سن الخدمة العسكرية من الرجال الإيطاليين، ففي اللحظة التـي أعلـن فيهـا موسوليني الحرب تحول كل من يحملون الجنسية الإيطالية إلى أغـراب معـادين وفرض عليهم أن يقيدوا أسماءهم في سجل، وصودرت أعمالهم وممتلكاتهم، وتـم اعتقال الآلاف منهم في معسكرات في طول البلاد وعرضـها تـاركين عـائلاتهم يواجهون مصيرهم من دونهم.

وشهد تطبيق هذه الإجراءات فوضى عارمة وبلبلة كبيـرة؛ فـالكثير مـن الإيطاليين ولدوا على الأراضي المصرية، ولكنهم قد أثبتـوا الجنـسية الإيطاليـة لأنفسهم لمجرد أن يتمتعوا بحماية المحاكم المختلطة، كما أدى الاحتلال الإيطـالي لجزر الدوديكانيس (Dodecanese) إلى أن يحمل عدد من اليونانيين أوراق هويـة إيطالية، مع أن العديد من اليونانيين المقيمين في مصر كانوا يمقتون الفاشية مقتـا شديدًا، كما كان هذا هو حال الإيطاليين اليهود، (وإن لم يكونوا كلهـم حتـى هـذا الوقت)، وذلك بعد أن أصدر موسوليني التشريع المناهض للـسامية سـنة ١٩٣٨. وقال مصدر من بنك باركليز Barclays الموجود في مصر إن "معظم طاقم العمل في البنك مولود على الأراضي المصرية، ولكن عـددًا مـنهم كـانوا إيطـاليين، وبعضهم لم يحصل على الجنسية الإيطالية إلا قبل الحرب، وفور اندلاع الحرب مع

إيطاليا، تم توقيف العاملين الإيطاليين كافة لدينا فى مصر والبالغ عددهم ٧٥ فردًا، واعتقل خمسة منهم على الفور، وقد زاد هذا العدد قليلاً بعد ذلك، بيد أن عددًا ممن تم توقيفهم كانوا يهودًا أو من أصل يونانى، وفى نهاية المطاف، بعد مرور بضعة أشهر من التوقيف، تم إعادة ما يقرب من عشرين شخصًا منهم إلى وظائفهم" (١٢).

ولم يسمح لمارتا لوريا Marta Loria بالعمل - وذلك على الرغم من وفاة والدها، والذى عرف بانتمائه للفاشية، سنة ١٩٣٧- إلا بعد أن تزوجت من ضابط بالبحرية الملكية عام ١٩٤٢، وأصبحت مواطنة بريطانية. وكانت لمارتا صديقة تعرفت عليها فى أوائل الثلاثينيات، فى الوقت الذى شرع فيه أفراد عائلاتهما فى تشييد كابينتى استحمام (أو وحدتى شاليه) متجاورتين على خليج ستانلى (كل على حدة)، وكانت هذه الصديقة، التى تدعى هيرتا بابو Herta Pappo، وهى يهودية إيطالية، تقول عندما تذكرت الحرب يومًا ما "لقد كان وقتًا عصيبًا علينا". وكان والد هيرتا، وهو ابن عم لإنريكو تيرنى Enrico Terni، قد تقاعد من وظيفته مديرا لبنك روما Banco di Rome، ولاند بنك مصر Land Bank، وكليهما كان فى شارع شريف باشا، وتستطرد هيرتا قائلةً "كنا جميعًا تحت المراقبة، لاسيما هو (والدها)، وأعطونا بطاقات هوية، كما كان يجب علينا أن نقدم تقريرًا (بكل ما يتعلق بنا)، ويبقى أن كوننا يهودًا كان ميزة لنا، وبخلاف ذلك لم نواجه أى مشاكل".

ومن بين الذين تأثروا بالتدابير الأمنية الجديدة عدد من الفنانين (المغنين أو الراقصين) الأجانب الذين كانوا يعملون فى الملاهى (نوادى الليل) فى الإسكندرية، فعند ذهاب جوسى إلى ملهى إكسلسيور Excelsior ذات ليلة فى بداية شهر يونيو ١٩٤٠، اكتشفت "أنهم يطردون كثيرًا من الفتيات لا لشيء إلا لأنهن مجريات، أو من جنسيات مثل ذلك، ومن المحتمل أن يكونوا طابورًا خامسًا" (١٣)، البعض منهم اضطر للرحيل من البلاد، والبعض الآخر اتجه إلى القاهرة التى لم تكن مثل تلك الإجراءات

قد اتخذت فيها بعد، وكان فى الإسكندرية وفرة من الفتيـات مـن جنـسيات مختلفـة؛ يونانيات وقبارصة ومالطيات وغيرهن، تم استبدالهن بهن.

تلا ذلك ببضعة أسابيع رحيل آخر سبب اضطرابًا أكبر، فكما كتـب جيـدج برنتون فى مذكراته ليوم الثامن عشر من يونيو: "تلقيت مكالمة هاتفية أثناء تناولى للإفطـار، حيث اتصلت بى جوسا فينى Josa Finney لتوديعى، فى البداية ظننت أنها مجرد رحلة للقاهرة، واستغرق الأمر فترة كى أستوعب هذا الخبر غير العادى وهو أنها وأسرتها سيغادرون مصر قاطبة، ولو كان هـذا فـى أى سـنة عاديـة لاعتبرته مجرد فرار - سابق لأوانه - من حر الصيف، ولكن فى ظل الظـروف التى تعيشها مصر هذه الأيام، أتى علينا هذا الأمر كصدمة مروعة، كما لـو كـان عمودًا يترنح ويتداعى. وتحدث إلى أزوالد Oswald كذلك (قائلاً إنه ينوى الـذهاب إلى) "أمريكا (عن طريق) كيب تاون Cape Town"- فهـو أول مـن سـيحثون عنه"[١٤]، وكان بث إذاعى من روما - فى اليوم السابق - قد ذكر فينـى بالاسـم، وقال إنها هى وإمبراطوريتها الصحفية السبب فى أن تكون مصر موالية لبريطانيا وعدوة لإيطاليا، وإنهم سيصفون حساباتهم معها عندما يحتلـون مـصر. وجـاءت أخبار عن استقالة الوزارة الفرنسية، وعن تشكيل حكومة جديدة برئاسة المارشـال بيتان Petain، القائد البطل لمعركة فيردن Verdun سنة ١٩١٦، والذى قد كبـرت سنه، بعد أن طلب معاهدة مع هتلر، ومع استسلام حليفة بريطانيـا الوحيـدة فـى أوربا، أدرك فينى أن الأمر قد انتهى.

وبعد جدال استمر فترة حول أفضلية السفر بحرًا أم جوًا، استقلت أسرة فينى الطائرة إلى كيب تاون فى أوائل شهر يوليو، بعد أن غمروا أصدقاءهم - بـالمعنى الحرفى لهذه الكلمة - بوابل من العملات الذهبية الإنجليزية والفرنسية، وكان جيدج برنتون فى وداعهم ورافقه أحد الزملاء الذى أخبرهم أن رحيلهم كان "الشيء الذى

سبب أكبر قدر من الإحباط فى مصر على الإطلاق"، غير أن برنتون التزم فى مذكراته بوصف وداعه الذى أتى فى عبارة منمقة قال فيها "إن أى شيء ستفعلونه لن يكون إلا مناسبًا لنا، وستبقى مشاعرى نحوكم كما كانت بالأمس، بل وستزيد"ثم قال مخاطبًا نفسه: "أعتقد أنه من الإنصاف أن يخبرهم واحد من الأصدقاء على الأقل بوجهة نظره، إذ استمعوا للشيء القليل الذى اختلفوا فيه "(١٥). وكان بالسفارة أولئك الذين رغبوا فى منع فينى من الرحيل، وكان بين أفراد الجالية البريطانية كثير ممن كثير مما نظروا إلى أمر رحيل فينى بازدراء.

وعلى الرغم من أن حفلات آل فينى توقفت مع اندلاع الحرب فإن شهرتهم استمرت طويلاً، وربما كانت هذه الأحداث هى ما كان يدور فى ذهن دُريل **Durrell** عندما كان يكتب ذروة أحداث روايته بلتازار **Balthazar**، فى المشهد الذى تم فى حفلة سيرفونيس **Cervonis** الصاخبة عندما دفع(ت) ناروز **Narouz** بإبرة فى جمجمة توتو دى برنيل **Tote de Brunel** ظنًا منه(ا) أنه يقتل جاستين **Justine**. وقام أزوالد بزيارات عابرة وقصيرة إلى الإسكندرية، كانت آخر مرة فى شهر يونيو سنة ١٩٤٢ عندما أجبره زحف روميل **Rommel** نحو العلمين على أن يعود أدراجه إلى جنوب أفريقيا مرة أخرى، وظل بها إلى أن توفى فى شهر سبتمبر. وعادت جوسا **Josa** إلى مصر واستمرت فى إدارة مؤسسات فينى بمعاونة أخى أزوالد الأصغر هارولد حتى أمم عبد الناصر كل شيء، ولكن السادات أعاد إليها المنزل، وقبيل وفاتها فى عام ١٩٨٣ باعته إلى بنك التجارة والتنمية بعد أن وافقوا على شرطها جيدج بعدم المساس بأى شيء (من المنزل)، ومن ثم وضع فى الطابق السفلى حجرة المدير مكان حجرة المعاطف ذات المساحة الضخمة والموجودة بجانب الباب الأمامى، ويجلس العاملون على مكاتب صفت على الأرضية الرخامية التى تعلو حمام السباحة وحمامات صالة الألعاب الرياضية

الساخنة وكليهما لا يزال على حالته الأصلية، وترك الدور العلوى وما يحويه من غرف معيشة وغرف نوم ومكتبة وقاعة لعب البلياردو وقاعة ألعاب الورق وقاعة الحفلات الراقصة دون أن يوضع فيه شيء، ماعدا لوحة شخصية مرسومة لفينى علقت على الحائط، وكان هذا من شروط جوسا كذالك، وظل المنزل لسنوات طويلة – حتى بعد بيعه للبنك – لا يسكنه إلا الحاج أحمد وهو الشخص المسئول عن تنظيف المنزل، وهو مَن رافق آل فينى من البداية، وشهد المنزل منذ نشأته وطيلة حياته، كما تولى تنظيفه على حالة سباته الراهنة تلك.

"ياله من يوم حالك السواد!"؛ كتب جيدج برنتون هذا فى مذكراته، واصفًا اليوم السابق – يوم الثانى والعشرين من يونيو – وهو اليوم الذى قبل فيه بيتان شروط هتلر وخضع بموجبها شمال فرنسا وساحل الأطلسى للاحتلال الألمانى، بينما خضع الجزآن – الأوسط والجنوبى – من فرنسا لحكومة بيتان فى فيشى، وكان بينهما التعاون المستتر تحت حيادية ظاهرية، أما اليوم – الثالث والعشرون من يونيو – فبيتان يتباحث مع إيطاليا أيضًا بشأن هدنة أخرى، "وماذا بعد؟ طفق الجميع يتحدثون عن الأسطول الفرنسى، وكانت بضع سفن موجودة هنا من بينها بارجتان حربيتان؛ فهل يمكن أن يتم استخدامهم من قبل الحلفاء؟ "[١٦] وعند ذهاب برنتون لرؤية أحد أصدقائه الفرنسيين، وجده "محطمًا "فحاول أن يواسيه، ويخبرنا هو عن ذلك قائلاً "سألته – هل بإمكان قوم أن يتغلبوا على قوم آخرين اليوم فعلاً ؟ ثم أخذنا نتحدث عن ماهية فرنسا، وأنها أكبر من أى حكومة، وهل هُزِمت حقًا، أوليست هى البلد الخالد؟" (وفى مشهد مماثل فى رباعية الإسكندرية **Alexandria Quartet** يقابل دارلى **Darley** صديقه القديم جورجيس جاستون بومبال **Georges-Gaston Pombal**، "أخذ كل منا يتأمل الآخر لفترة طويلة فى صمت تغلفه العاطفة، كلانا كان يعرف أن هذا الصمت الذى نشهده هو أحد الآلام التى حدثت نتيجة

لسقوط فرنسا، وهو الحدث الذى يرمز برمته وبوضوح للانهيار النفسى لكل أوربا...وهو السقوط المدوى للإرادة الإنسانية)" (١٧). وإذا كانت هناك جذوة من لهب (الكرامة) لا تزال مشتعلة بين الفرنسيين، فماذا فى نيتهم فعله بالأسطول؟ ظل هذا السؤال يلح على عقل برنتون، وكان يقول لنفسه : "كل ما أرجوه ألا تتأجج العداوة الراكدة بين الدولتين [فرنسا وبريطانيا] سريعًا هذه الفترة، وطالما أن فرنسا لن تحارب، فهلا تنازلت عن أسطولها، ولمَ لم تستول عليه إنجلترا من أسبوع مضى؟"(١٨).

لم يكن البريطانيون متلهفين على جرح الكبرياء الفرنسي؛ فبدلاً من الانقضاض على سفن أسطولهم كانوا يأملون فى أن تحتشد (هذه السفن) تحت راية الفرنسيين الأحرار(فرنسا الحرة) بقيادة شارل دى جول **Chales de Gaulle** وأن تحارب جنبًا إلى جنب مع البحرية الملكية. وعبر البث الإذاعى من لندن أعلن الجنرال دى جول أنْ فرنسا خسرت معركة، ولكنها لم تخسر الحرب، وأن هذه الحرب – حرب عالمية، وستشهد الساحة ظهور قوى كثيرة تلعب دورها، وأن كل فرنسى لايزال يحمل سلاحًا له حق فى الاستمرار فى المقاومة، لتأكيد أن فرنسا لن تغيب عن المشهد النهائى للنصر، بيد أن النداء الذى وجهه دى جول لم يجد له أنصارًا فى الأيام التى أعقبت خطابه سوى القليل، ولكن لم يبق من الجيش الفرنسى فى الشام، الذى يبلغ قوامه ثمانية وثلاثين ألف جندى، إلا ألفًا واحدة ظلت موالية لفيشى، ولم يستغرق الأمر إلا القيام بحملة من الجنود البريطانيين والأستراليين وقوات فرنسا الحرة الموجودة فى مصر لإخضاع سوريا ولبنان لسيطرة الحلفاء فى يوليو من العام المقبل، ولم يتغير الوضع بالنسبة للقوات الفرنسية المتمركزة فى شمال إفريقيا، وحتى فى مصر، حيث التزم الفرنسيون – بصفة عامة – بالخضوع للولاء لفرنسا الحرة، فى حين أصر المندوب (الممثل الدبلوماسي) الفرنسى فى

القاهرة مع القنصلية فى الإسكندرية بعناد على أن يكون ولاؤها لفيشى، لدرجة أن دى جول، أثناء زيارته للمدينة، لم يجد الترحيب على المستوى الرسمى، بل فى منازل المتعاطفين من مواطنيه مثل السيدة روزيتا دى ميناس Rosette de Menasce وابنتها كلير Claire.

وكم كان قويًا ذلك الشعور السائد بالتفوق الألمانى المطلق، والاقتناع بأن هزيمة البريطانيين وشيكة، حتى إن من فى خارج فرنسا، ممن كان لديهم حرية الاختيار بين المقاومة أو الخنوع، من غالبية أصحاب المناصب سواء الإدارية أو العسكرية أخذوا يتلكأون وكأنهم مقدمون على تقديم استقالاتهم، وتذرعوا بحجة الشرعية ليبرروا ولاءهم لفرنسا التى كانت فى يد الحكومة الدمية؛ حكومة بيتان، وكان من بين هؤلاء قادة الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط.

أصدر بيتان أوامره بعودة الأساطيل للوطن، إلا أن البريطانيين أصروا على منعها من العودة، أما وقد كان من شروط الهدنة التى قبلتها فيشى فقد أصر الألمان على تسليم الأسطول الفرنسى، وفى الوقت ذاته خشى البريطانيون أن يستخدمه هتلر فى غزوه المحتمل للجزر البريطانية. وفى الإسكندرية، التى كانت قاعدة أسطول البحرية الملكية فى البحر المتوسط، استطاع القائد العام الفريق بحرى (الأدميرال) السير أندرو كاننجهام Andrew Cunningham إثناء الفريق بحرى رينيه جودفروى Rene Godfroy من محاولة الإبحار بسفنه خارج الميناء، وفى ذات الوقت، وبينما كان الأسطول الفرنسى الرئيسى رابضًا فى المرسى الكبير Mers el Kebir، الميناء البحرى لولاية وهران Oran فى الجزائر، أبحرتْ قوة بريطانية من جبل طارق Gibraltar بغرض تحقيق أحد هدفين؛ إما أن يبحر الأسطول الفرنسى معها إلى أحد الموانئ البريطانية ويخضع لإمرة البحرية الملكية أو أن يبحر إلى ميناء تابع لجزر الهند الغربية الفرنسية (جزر الكاريبي) ويخضع

لعملية نزع السلاح، وعندما قوبل المطلبان بالرفض؛ أعطى قائد أسطول جبل طارق – الفريق بحرى سومرفيل Somerville خيارًا للفرنسيين أن يغرقوا أسطولهم بأيديهم فى المرسى الكبير، وعندما رُفض هذا الخيار كذلك فى الثالث من يوليو فتح البريطانيون النار على الأسطول الفرنسى، وفى خلال ٥ دقائق كانت السفن الفرنسية الرئيسية إما غارقة أو معطوبة.

ولم يشعر البريطانيون مطلقًا بالزهو لتنفيذ مثل هذه العملية المؤسفة، فعلى الرغم من أن عملية المرسى الكبير أدت بحياة مائتين وألف من الفرنسيين الذين كانوا حتى يوم أمس من الحلفاء، ورغم وصف الجنرال دى جول نفسه لها بالبشاعة، فإنه أقر أنه لم يكن هناك بديل. وبعيدًا عن ضرورتها العسكرية، كانت الروح الانهزامية سارية بدرجة تكاد توقف القتال، وكما لاحظ برينتون "فقد كانت كل جهات الحياد السابقة تأمل فى أن تنكسر شوكة بريطانيا وتقبل بتسوية سلمية– لئلا يتعرضوا لمشاكل !!، وإنى لأرغب (سياق الحديث ما زال لبرينتون) فى أن تستمر بريطانيا فى الحرب بقوة، ولكنها لا تجد الكثير من الأصدقاء حولها هنا" (١٩). وفى مثل هذه الأجواء – كما أدرك ذلك تشرشل Churchill– لن يكون لبريطانيا حليف يعتمد عليه سوى عزيمتها، وأطلق على المرسى الكبير "نقطة التحول فى مصيرنا، فقد جعلت العالم يدرك أننا جادون على المضى قدمًا فى تحقيق ما نصبو إليه." (٢٠)

وعلى الجانب الآخر استشاط جودفروى غضبًا عندما بلغته هذه الأنباء واستجمع قواه وقرر أن يشق طريقه نحو البحر ولو بالقتال، وخوفًا من احتمال أن تندلع معركة بحرية شاملة فى ميناء الإسكندرية الغربى، ناشده كاننجهام أن يعدل عن قراره، ولكن عندما تشبث جودفروى بقراره، تخطاه كاننجهام، وتوجه بالنداء للضباط والبحارة (الفرنسيين) عن طريق رسائل كتبت على لوحات عريضة علقت

على مجموعة من القوارب الصغيرة أحاطت بسفن الأسطول الفرنسي في شكل حلقة. وفي النهاية لان جودفروى ورضخ لشروط كاننجهام الكريمة التي سمحت له باستخدام شفرات فيشي لإرسال معلومات إلى فرنسا، والإعداد لتسريح معظم طاقمه وعودتهم إلى وطنهم، بينما ظلت البقية - بعد تفريغ وقود السفن وإزالة كتلة المغلاق من المدافع (ولكنهم أبقوا- كما كتب دوريل في الرباعية - على "كل من أسلحتهم الخفيفة وشعور بالخزي") [٢١]- كجماعات للصيانة تتلقى مؤنها ورواتبها من البريطانيين.

وكان المشهد اليومي الذي عاينته الإسكندرية في ظل وجود القوة إكس X، وهو الاسم الذي عرف به الأسطول الفرنسي من هذا الحين، هو الصراع المتجدد في الشوارع بين البحارة الموالين لفيشي عندما يأتون في إجازة على البر وبين أنصار فرنسا الحرة، عندما كانت الطائفة الأخيرة تتهكم على الأولى بعبارة مثل "هل معكم محار وبلح البحر للبيع ؟" [٢٢]، كما كان يمكن لمثل هذه المواجهات أن تكدر صفو النزهات البحرية في الميناء وتجعلها على قدر كبير من الخطورة، فلقد كان أمرًا ثابتًا أن هناك مرسى واسعًا يترك للأسطول الكئيب غير المشارك في الحرب، والذي كان بحارته المدللون - والمنبوذون في الوقت عينه- يقعون في نوبات من جنون العظمة ويقومون بإطلاق للنار عشوائيًا على أعضاء نادي اليخت الملكي المجاور لهم عندما يدفع بهم هبوب مفاجئ لتيار الهواء ويتسبب في اقترابهم منهم. (ومن بين هؤلاء الذين تعرضوا لمثل هذا الموقف) كانت كلود فينسيندون Claude Vincendon، والتي كانت في الخامسة عشرة سنة ١٩٤٠، والتي كانت كثيرًا ما ترى وهي تبحر مع والدها في قاربهم الصغير في الميناء، وبعد مرور ثمانية عشر عامًا عندما كانت تعيش مع دوريل في فرنسا، وصفت هذه الواقعة في روايتها The Rum Go والتي استعارها دوريل بعد ذلك وأضاف عليها مقدارًا من

التنميق للمجلد الأخير من الرباعية، وجعل بحارة الأسطول الأسير يطلقون النـــار على بومبال ويصيبون محظيته فوسكا Fosca في مقتل، وحتى جـــودفروى نفـــسه عندما كان يأتي للشاطئ يجد نفسه منبوذًا اجتماعيًا لدرجة أنه لا يستطيع أن يلعـــب مباراة تنس مع أحد، وبعد سنتين، أى فى عام ١٩٤٢، وفى أثناء الأشهر العـــصيبة التى تخللت معركتى العلمين الأولى والثانية، وعندما كان البريطانيون يفكرون فى طرد القوة إكس من المياه (إلى عرض البحر)، كان جودفروى يعزو نجاتـــه هـــو وأسطوله للوساطة الحكيمة التى قام بها جاسبر برينتون.

وما هى إلا أشهر قليلة -أى فى فترة وجيزة - حتـــى ســـقط كـــل ســـاحل الأطلسى الأوربي؛ من الرأس الشمالى بـــالنرويج **North Cape – Norway**، إلـــى الحدود الإسبانية فى قبضة الألمان، وظلت بريطانيا - عبر القنـــال الإنجليـــزى - تحمى نفسها من الغزو النازى من الموانئ الفرنسية. وفي ذات الوقت أحكم الألمان والإيطاليون سيطرتهم على ألفى ميل من الشريط الساحلى علـــى جـــانبى البحـــر المتوسط، ولولا قواعد البحرية الملكية فى جبل طارق ومالطا والإسكندرية لتحـــول المتوسط إلى بحيرة لدول المحور. ووقفت قوات إيطالية على الحدود الليبية، وعلى الرغم من أن بريطانيا فى هذا الوقت رفعت مستوى أعداد قواتها فى مـــصر إلـــى خمسين ألفًا، فإن أعداد قوات العدو كانت تفوقها بنسبة واحد إلـــى عـــشرة، فـــإذا تصورنا أن بريطانيا هزمت، وأن الإسكندرية سقطت، وأن قوات الملكية البحريـــة كانت ستجبر على الانسحاب من البحر المتوسط، وأن تركيا المحايدة كانت ســـتقع تحت الحصار وستضيع اليونان وقبرص وفلسطين مع مصر بقية منطقـــة الـــشرق الأوسط، فمن ثم سيقع معظم أجزاء أوربا وأفريقيا وأسيا فى أسر دول المحور التى ستنضم إليهم اليابان قريبًا.

ورغم اقتراب المعارك، فإن حفلات الكوكتيل وحفلات موائد الغداء لم تتوقف، وهذا دليل على روح التحدى واللامبالاة، وفى الصيف كانت المنازل لا تطاق من الحرارة بسبب احتياطات التعتيم الشامل، وفى الرمل كان الناس يجلسون فى حدائقهم على ضوء النجوم أو القمر، بينما كانت طائرات الأعداء تحلق فوق رؤوسهم، ويعلق جيدج برينتون على هذا قائلاً: "فى بداية الأمر كانت أصوات القصف شيئًا مزعجًا، فقد كان لها دوى كريه، ولكننا سريعًا ما تأقلمنا عليها، وبعد فترة بتنا نعد الإضاءات الهوائية التى تصاحبها كعرض عملاق للألعاب النارية"[٢٣]. أما جون، الذى كان يندفع إلى سطح المنزل حاملاً معه النظارة المعظمة ثم يعود ليرتقى سريره إلى جوار جوسى، فكان يقول: إن كل ما يشغله هذه الأيام هو (الاستمتاع بالوطء ومشاهدة الغارات الجوية)" [٢٤].

وفى بدايات شهر سبتمبر، حينما كانت طائرات الأعداء تنتهك خصوصية إحدى الأمسيات الاجتماعية فى الربع (الحى) اليونانى Quartier Grec، بعثت جوسى خطابًا إلى معارفها فى موطنها قالت لهم فيه "فى الليلة الماضية دعينا لتناول بعض المشروبات فى منزل الليدى باركر Lady Barker فى حدود الساعة الثامنة، وبينما كنا نتأهب للمغادرة إذ بدوى صافرات الإنذار أعقبتها غارة كاملة استمرت حتى العاشرة إلا الربع، وكان الضجيج المنبعث يشبه صوت الرعد، كما كنا نسمع أصوات سقوط قطع من قنابل الشظايا فى الشوارع التى تتساقط من المدافع المضادة للطائرات، ورغم هذا لم تحدث أى خسائر على الإطلاق، فلم تسقط سوى قنبلة أو اثنتين، (مما يدل على) أن الإيطاليين ليسوا على هذا القدر من الكفاءة، وقد اكتسبنا كلنا – بمرور الوقت – صلابة وأمست هذه الغارات لنا شيئًا معتادًا [٢٥].

وفى هذه الأثناء، التهبت السماء التى تغطى لندن والجنوب الشرقى من إنجلترا باندلاع معركة بريطانيا، وكانت الإسكندرية – آنذاك – هى المدينة الوحيدة الأخرى فى العالم التى تشترك مع لندن فى أنها اختصت بسقوطها ضحية لغارات دول المحور، وأخذت جوسى تملأ مذكراتها الشخصية بروايات وصفية لهذه الغارات الجوية على كلتا المدينتين، ومنها ما يلى: "وقعت غارة جوية وحشية على لندن البارحة خلفت وراءها ٥٠٠ قتيل و ١٤٠٠ مصاب بجروح خطيرة، كما حدثت أضرار بالغة بحسب ما أذاعته البى بى سى BBC [٢٦]، واستمعت بمزيج من الشعور بالرضا والإحساس بوحدة الهدف المشترك إلى الخطاب الإذاعى الذى ألقاه تشرشل فى الحادى عشر من سبتمبر ووصفته بأنه "(خطاب) رائع حقًا، وربما سيذكر فى كتب التاريخ التى ستكتب لاحقًا وقد نعت هتلر قائلاً "ذاك الإنسان الشرير". [٢٧]

لا شك فى أن مثل هذا القصف العشوائى الوحشى الغاشم لمدينة لندن كان جزءًا من مخططات هتلر لغزوها... هذا الإنسان الشرير، الذى يعتبر مستودعًا وتجسيدًا لكل صور الكراهية التى تفضى لتدمير البشر، لقد قرر هذا النتاج البشع لكل ما سبق من شرور وهوان أن يحطم سكان جزيرتنا الرائعين بسلسلة من هجمات تدميرية ومذابح عشوائية، بيد أن كل ما فعله هو أنه أضرم نار الحماس فى الأفئدة البريطانية، هنا وفى كل أرجاء العالم، وهذه النار ستظل جذوتها مشتعلة ولن تخبو حتى بعد أن تزال كل آثار النيران التى خلفها فى لندن [٢٨].

بعد يومين – أى فى الثالث عشر من سبتمبر – عبرت قوات إيطالية الحدود من ليبيا، وتوغلت نحو ستين ميلاً فى الأراضى المصرية.

وفى اليوم الذى عبرت فيه القوات الإيطالية إلى مصر، وتقدمت من السلوم وبقبق إلى سيدى برانى، انطلق جيدج برنتون إلى الخط الأمامى للقوات البريطانية فى مرسى مطروح، والذى ظل لأشهر عديدة يعانى من القصف الجوى، وكان تبريره لهذا هو (أنه) "قرر أن يقوم بأى مساهمة" (٢٩)، فاشترى سيارة فورد مستعملة وأعدها لتكون مقصفا متنقلا وأطلق عليها اسم سيارة برنتون " Van Brinton"، وتوجه بها إلى الخط الأمامى، وتبرع بها إلى جميعة الشبان المسيحيين YMCA، وقبل مغادرته إسكندرية، اشترى خونتين من القصدير، واحدة له والأخرى لجينيفا Geneva طوال مدة غيابه عنها، وأثناء عودته استقل مع براملى Bramly الذى كان قد توجه كذلك للخطوط الأمامية لمساعدة السنوسيين الذين كانوا يتدفقون على الحدود هربًا من الإيطاليين.

وعلى الرغم من أعداد قواته الهائلة، فإن المشير جراتسيانى Graziani أمر القوة الغازية أن تتحصن فى سيدى برانى، حيث الإيطاليون وخطوط التموين إلى ليبيا تتعرض لقصف وحشى من السفن المدفعية البريطانية ومن حاملة الطائرات، مما تمنح الوقت اللازم لثلاث كتائب مدرعة بالمرور على طول البحر المتوسط على خمس سفن سريعة، من إنجلترا المحاصرة. قلت حدة الخطر حين كان الأسطول الإيطالى، رغم أنه كان أكبر من الأسطول الملكى فى البحر المتوسط، فقد تردد الأسطول فى ترك التدابير الأمنية فى داخل موانيها، أكثر من الغواصات الإيطالية: وذلك لتجنب الرجال والتموين المتجهة إلى مصر، جعلت مسافة الرحلة نحو اثنى عشر ألف ميل حول رأس الرجاء الصالح، كما تأخر البريد، حتى إن الخطابات بين مصر وإنجلترا أو أمريكا كانت تستغرق حوالى ثلاثة شهور للوصول. وكلما زادت الكتابة للوطن فهى أشبه بوضع رسالة فى زجاجة تتقاذفها الأمواج العاتية وكلما تأكد من رسائل جوزيه" إننى أعلم إلى أى مدى أنت قلق،

ومن غير المفيد أن أقول لك ألا تكون ولكن ماذا عساى أن أقول، فلو أنك رأيت الحياة السعيدة التى يعيشها كل إنسان هنا، فستدهشك تلك الإثارة" واستمرت في قصة المدينة، "فى البحر المتوسط فإن ما فعله كل البحارة الإنجليز انحناؤهم على جوانب زوارقهم صائحين" "النادل" لتجعل الغواصة الإيطالية تأتى إلى سطح المياه! غدا لدينا حفل ثم كثير منا سيخرج للمدينة للعشاء والرقص. يوم الأحد سوف نذهب لرؤية الممثلة جريتا جاربو فى فيلم "نينوتوشكا Ninotchka والذى يعرض هنا حاليا."(٣٠)

فى ٢٣ أكتوبر كان جيدج برينتون قد اتجه إلى نادى الاتحاد وذلك لاستقبال الجنود البولنديين(وهى منطقة حارة ومبعث للدخان الكثيف) حيث قابلت السيد إيدين – وهو شخصية لطيفة ومرح. قلت "إننا فى الحرب حاليا."وقال "هذا من شأنك أن تقرره." (٣١)

وصل أنتونى إيدن للقاهرة فى ١٤ أكتوبر(٣٢) ورغم أن معركة بريطانيا مازالت غير محسومة، فقد استقل الطائرة إلى الخرطوم، حيث كان البريطانيون يستعدون لتحرير إثيوبيا، وقد زار الصحراء الغربية، حيث كان اللواء السير أرشيبالد ويفيل يستعد للقيام بهجوم مضاد على القوات الموجودة فى منطقة سيدى براني. غير أن جهود بريطانيا لمواصلة الحرب فى أفريقيا بينما تستعين بشمال أفريقيا ضد الهجوم النازى على الجزيرة البريطانية قد كبدتها تكلفة باهظة فى البحر: إذ غرقت نحو خمسمائة سفينة بخارية بريطانية حتى وصول إيدين إلى الإسكندرية.

وعندما قال برينتون، "إننا فى الحرب الآن"وكان يشير إلى قبول الولايات المتحدة بأن تؤجر لبريطانيا خمسين سفينة مدمرة يعود تاريخها للحرب العالمية الأولى. لقد كانت تمهيدا إلى فاتورة قانون الإعارة والتأجير الذى وافق عليه مجلس الشيوخ الأمريكى فى مارس التالى ومن الناحية الظاهرية بدا ذلك إجراء سخيا: أن

تقدم الولايات المتحدة لبريطانيا سفنا حربية وطائرات ودبابات وذخيرة وتؤجر لهم - على أساس تأجير مع الدفع بالأجل حتى بعد انتهاء الحرب. ولكن وقبل أن يتم تنفيذ الاتفاق، كانت بريطانيا مجبرة على دفع كل ديونها من الاحتياطى النقدى من خلال بيع أصولها التجارية فى الولايات المتحدة، وبالتالى كان ممنوعا بيع أى بضاعة للخارج والتى تتضمن مواد خاضعة لعقد الإعارة والتأجير أو أى مواد أخرى حتى لو كانت صناعة بريطانية، والتى تشبه المواد التى تم استلامها ضمن عقد الإعارة والتأجير.

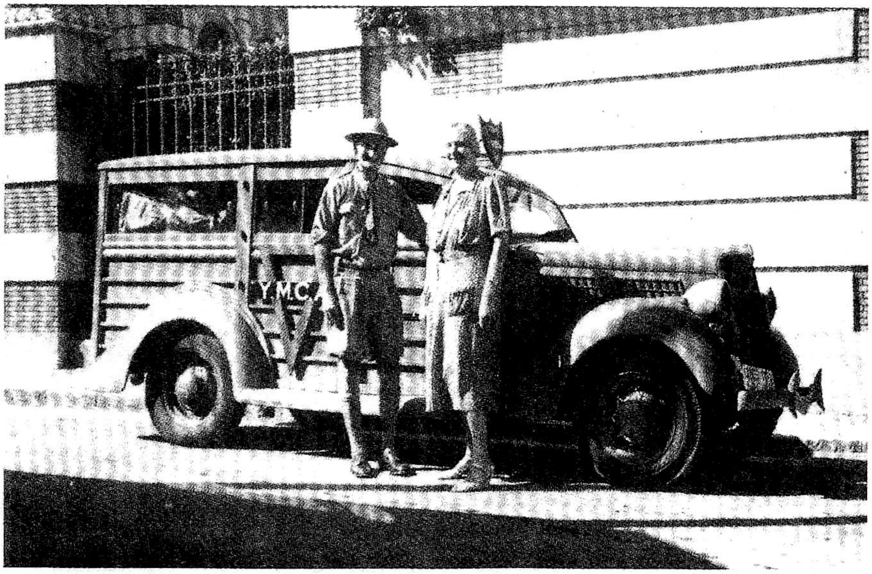

فى اليوم الذى هاجم فيه الإيطاليون مصر، فإن جيدج برينتون قد ودع زوجته إلى جنيف، وتوجه إلى الجبهة البريطانية فى سيارة فورد مستعملة وقد زودها بكافيتريا متنقلة "عربة برينتون".

ومع أنه فى أواخر القرن التاسع عشر تفوقت أمريكا وألمانيا على بريطانيا كقوة صناعية، فإن بريطانيا من خلال ثرواتها المتراكمة استطاعت أن تظل قوة فى العالم. ولكن مع أفول أصولها وتقليص صادراتها، فإن بريطانيا فى الحرب قد خففت من تبعيتها على الولايات المتحدة الأمريكية غير المشتركة فى الحرب. "قال تشرشل بصورة شخصية "إننا لا يجب فقط أن نقشر جلودنا وحسب بل ويجب أن نسلخ الجلد حتى العظم." (٣٣)

وإلا كانت بريطانيا قد قررت أن تشن حربا دفاعية. ولكن فى بداية رئاسته للوزارة أعلن تشرشل أن الحرب العالمية الشاملة فى النهاية. "تسألنى عن سياستنا؟ فى بيان أذاعه فى مايو ١٩٤٠. "فإننى أقول: أن تشن حربا فى البحر والبر والجو، بكل ما أوتينا من قوة وبعون الله فى أن نشن حربا على طاغية بشع، لا يتجاوز الظلام أبدا، بيان باعث على الأسى للجريمة البشرية.. تسألنى عن هدفنا؟ أجيبك بكلمة واحدة: النصر، النصر مهما كان الثمن.(٣٤)

فى ذلك النداء "النصر أيا كان الثمن، يمكن أن تسمع صوت التاريخ الفخور، مع أن بريطانيا قد خرجت من الحرب منتصرة، فإن ديونها الكبيرة وتجارتها المتهالكة جعلتها على شفا الانهيار الاقتصادى."وحذر كفافيس "ولا تنس اليونانيين فكلنا عاجزون تمام" "وهذا هو الفارق بيننا وبين اليونانيين القدماء، وبيننا نحن وأنتم يا عزيزى فورستر، عزيزى فورستر- أنتم أيها الإنجليز بقدرتكم على المغامرة- لا تفقدوا أموالكم." (٣٥)

فى الثالثة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر، قام موسولينى دون الرجوع إلى هتلر، بتوجيه إنذار إلى اليونان، بأن الجزيرة ضرورية للقوات الإيطالية لاحتلال الموانئ الرئيسية مثل كريت وكورفو، للجنرال ميتاكساس، الذى عارض مغامرة آسيا

الصغرى فى عام ١٩٢٢، وبعد ذلك فى عام ١٩٣٦ كان يحكمها ديكتاتور، كان رده الشهير "بالرفض "الإبحار فجأة من مدينة الإسكندرية، قامت البحرية الملكية بإقامة قاعدة عسكرية فى مقاطعة خانيا Chania - فى جزيرة كريت، ثم فى ليلة الحادى عشر من نوفمبر انطلق سرب طائرات بما فى ذلك حاملة الطائرات Illustrious اقتربت من السواحل الإيطالية وشنت هجوما جويا على الأسطول الحربى للعدو الرابض فى ميناء تارانتو Taranto جنوبى إيطاليا، وقد أغرقت ثلاثة زوارق حربية وأصابت الرابع بأضرار جسيمة.

وفى نفس اليوم كتب جوسيه فى مذكراته أن "اليونانيين قد أبادوا واحدة من الفرق العسكرية الإيطالية الموجودة فى منطقة الألب" (٣٦) وعلى مدار الأسابيع التالية بينما يطارد الجيش اليونانى فلول الإيطاليين إلى ألبانيا، كتب كيف أن اليونانيين فى مدينة الإسكندرية اندفعوا مثل المجانين " (٣٧) "يحتفلون فى مقهى باستروديس Pastroudis ويتقدمون نحو رقصة الأفعى فى فندق إكسليسور Excelsior، والفرقة الموسيقية تعزف كل الأناشيد الوطنية. جلسنا نغنى بأعلى أصواتنا.(٣٨)

وفى موجة حماسية اجتاحت الجالية اليونانية، قام خمسة عشر متطوعا للخدمة فى اليونان، وقد حدثت زيادة كلية فى الفرقة بالكامل. وفى أوائل شهر نوفمبر نشرت صحيفة المقطم Moqattam مقالا افتتاحيا يعبر عن المشاعر العامة نحو اليونان ويقول المقال "إن مشاعر العالم أجمع تتجه نحو ذلك الشعب الشجاع الذى يرفض أن يقدم فكرة خاطئة عن ماضيه، ثم فى وقت لاحق من ذات الشهر، نشرت جريدة La Bourse Egyptian طلب التماس من اليونان إلى كل اليونانيين الذين يعملون ويعيشون فى الخارج، فى غضون ليلة واحدة شارك اليونانيون الموجودون فى مصر ضعف المبلغ الذى تنفقه مصر على مدار العام من ميزانية

الدفاع الوطنى. أما مجلة المصور الصادرة باللغة العربية فقد لفتت الانتباه إلى كرم العائلات القديمة فى الإسكندرية مثل عائلة خروميس وعائلة بيناشيس وعائلة كاسيليوس وعائلة سالفاجوس وعائلات أخرى- وأضافت أن اليونانيين كانوا يملكون نحو خمسة وثلاثين بالمائة من كل أسهم البنوك والشركات المحدودة فى مصر [٣٩]. وقد ماتت الحركة الأدبية مع موت كفافيس، ولكن الإسكندرانيين من أصول يونانية مازالوا قوة اقتصادية يحسب حسابها.

ومنذ مطلع فصل الربيع فإن جنيف، وبمساعدة جوسيه، ظل باب بيتها مفتوحا على مصراعيه يستقبل جنودا فى مرحلة النقاهة، البحارة والقوات الجوية كل يوم إثنين، ويتسع ترحيبهم بالبرينتون الذى انتقل فى ديسمبر إلى منزل أكبر به حديقة غناء فى منطقة جليمونبولو. لقد كان المكان يحظى بسمعة أنه منتجع للراحة والنقاهة، ما أن يستعيد المرضى عافيتهم حتى يعودوا إليها لقضاء إجازتهم هناك. أعلن أحدهم – وكما يذكر جيدج برينتون- أن أحد الطيارين قد أخبر الطيارين عن زيارته، بواسطة طيرانه التمهيدى فوق بيته والأزيز المألوف كان أشبه برنين جرس الباب. فإذا سمع إنسان هذا الطنين فإنه يتجه إلى المطار ليستقبله." [٤٠] صحيح أن مدينة الإسكندرية من أقصاها إلى أدناها باتت تشكل طريقة سائدة لسيدات المجتمع اللواتى لا يستقبلن بشكل رسمى من الزوار أقل من أميرال أو جنرال أو سفير أو مدير بنك حتى يفتحن أبوابهن مرة أو مرتين فى الأسبوع ويقدمن الطعام والترفيه للجنود.

كما تطوعت النساء أيضا للمساعدة فى خدمات الأندية التى تنتشر فى أنحاء المدينة. من بين أول تلك النوادى كان النادى البريطانى **Britannia Club** فى شارع فؤاد، وكما يقول السيد برينتون "دليلاً على القدرة البريطانية فى تحقيق أفضل النتائج الممكنة بأبسط الموارد." [٤١]- وذكرت صحيفة ذى إيجبشيان جازيت

"أن الجو فى النادى يوحى بأنه جو إنجليزى تماما؛ الكراسى الوثيرة والأنوار الساطعة وغرفة صغيرة أنيقة تجلس فيها زوجات أعضاء القوات المسلحة يتناولن فيها الشاى."(٤٢) أما الغرف الأخرى فقد قام بتزيينها وتأثيثها سكان الإسكندرية، من بينهم البارون تشالرزدى مينيس، نجل فليكس شقيق الفريد، وجاسبر برينتون خلال واحدة من زياراته الجميلة، أوزوالد فينى، وهذان الأخيران أسهما أيضا بآلاف الكتب، وأقاما مكتبة مراجع رائعة فى الإسكندرية. وأيضا فى نهاية عام ١٩٤٠، كان قصر كرم **Karam** وهو منزل خاص جليل يقوم فى أرض تظللها أشجار فى شارع الكورنيش وراء المتحف اليونانى الرومانى، وقد أصبح نادى اتحاد القوات المسلحة، وجدرانه من شجر البلوط وأعمدته الرخامية، والسقف المزخرف بأناقة شديدة يوحى بأنه أكثر النوادى رفاهية فى مصر(٤٣) فهو فعلا فخم بل ناد رائع وممتاز للغاية." (٤٤) هكذا ظنت جوسيه التى عملت هناك مع صديق دوريل الرسام كلى بادارو **Clea Badaro**. يقدم الشاى والمشروبات الأخرى فى الحديقة، كما أن هناك عروضًا ترفيهية يوميا، مع عروض الرقص كل يوم أحد وإثنين فى تمام الساعة الخامسة، سواء حفلات رقص خاصة فى الهواء الطلق أو فى القاعة الداخلية الساحرة.

كما كانت هناك أيضا حفلات موسيقية للموسيقار جابيريلا باركر، ودروس موسيقى يتم تقديمها فى المعسكرات والمستشفيات كانت الفرقة التى تحيى تلك الحفلات تضم - فى تقدير جيدج برينتون- عددا من سيدات الإسكندرية الفاتنات"شهرتهن الاجتماعية مذهلة جدا."(٤٥) فى خلال فصل الصيف كان برج العرب يستخدم قاعدة للقوات الهندية، ثم فى الخريف كانت قاعدة للقوات الملكية الجوية بينما آل برينتون، استمر فى التردد على النادى. وفى دعوة القاضى لحفل الموسيقى لتقديم عرضها للقوات الجوية الملكية فى برج العرب فى نهاية الأسبوع يومى التاسع والعاشر من نوفمبر. بعد تناول الغداء فى دار القيادة، هجرت أسرة

برينتون بيت القاضى، (فوضى الضباط والمشروبات) وكان العرض فى تمام الساعة السابعة. غارة جوية خلال الحفل. نهض قائد السرب وقال: "هدوء – اجلسوا – سوف يستمر العرض "بعد ذلك فى صوان الطعام. الإفطار لنحو ١٦ فى رواقنا."(٤٦) من بين الذين وقعوا فى دفتر الضيوف فى دار القيادة فى نهاية ذلك الأسبوع كان كلير فينسدون **Claire Vincendon**. ابنته كلود كانت ضمن الفرقة الموسيقية، وبعد ذلك تذكروا أثرهم على الجنود، كيف أن " طول الحفل الذى تهددته الغارة الجوية قد هبط عليهم بقوة ودفعتهم للقبول بدون مقاومة."أما بالنسبة لبرينتون، مع أن الحفل كان ناجحا جدا فإن: "نفس الأغانى القديمة، التى تتكرر غالبا، باتت معروفة مع العازفين الشبان الرائعين المعروفين- والإيقاع واللحن لبعض المعزوفات المفضلة قد أثرت فى قلوب العسكريين." (٤٧)

كانت الفكرة السائدة عن مدينة الإسكندرية فى الأيام الأولى من الحرب فكرة بريئة، فقد كان هناك من يرى أنها لا يمكن أن تفقد ذاتها، ويتذكر برنارد دى زغيب "كانت فكرة خروج الفتاة أو الشاب الأعزب من منزل أبويه والحياة بعيدا عنهم أمرا مستحيلا. صحيح أن لبعض الشباب شققاً خاصة بهم يسمونها شقق العزوبية **garconniers** يلجئون إليها أحيانا، ولكن من المستحيل أن تجد فتاة تعيش بمفردها بعيدا عن أسرتها، بعيدا عن والديها. أما فى أوقات الترفيه، فإنهن يلجأن إليه بحذر وتحفظ شديدين. لا شك أن معظم بنات الجاليات فى مدينة الإسكندرية يتزوجن وهن أبكار. لقد نشأنا ونحن نعلم أن الجنس خطيئة مهلكة."

أما الأمر بالنسبة لكلود فينسيندون فيبدو مختلفا، فالراقصات فى كباريه "إكسيليسور **Excelsior** يمثلن النساء البغيضات "(٤٨) يعشن فى عالم أبعد من تفكيرهن. وراحت تتذكر عندما كانت فى التاسعة عشرة من عمرها فى أواخر الحرب، كانت الأمهات يتخذن بناتهن صديقات لهن ساعة الخروج والعودة للبيت

قبل حلول الساعة الحادية عشرة مساء- رغم أنهن يتمتعن بحرية غير عادية، وأحيانا يسهرن لما بعد ذلك فى خارج البيت. فالسهر حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة بالنسبة للفتاة غير المتزوجة، يعنى أنها تعيش حياة جميلة: مارتا لوريا كان من المفروض أن تكون فى البيت عند الساعة السابعة مساء، وتعتبر ذلك تفضلا، عند الساعة السادسة كان أمرا عاديا بالنسبة للفتيات اللاتى تعرفهن. ماريا ليونكافيللو، والتى كان جدها قاضيا فى المحاكم المختلطة، وقد ولدت وعاشت فى مدينة الإسكندرية وفضلتها على بلدها ميلانو وفينسيا،- وتقول عنها: إن الإسكندرية بلد ذكرياتها، حيث عاشت صعوبة الحياة وعذابها، ولكن لا يهم، فإننى أحب هذه القسوة، فهذه القسوة ليست تلك التى تعانيها كصبية: فالأب لا يسمح لبناته بالذهاب إلى السينما، ولكن يمكنهن الترويح عن أنفسهن فى بهو المنزل: "فأنا أرقص وأمى تغنى، وأختى تعزف البيانو- فى البيت يكون اللهو مسموحا ولكن ضمن حدود وضوابط شديدة. أما بالنسبة للشامية جاكلين كلات، فقد كانت مختلفة عنهن : البنات المهذبات فى الإسكندرية لا يسمح لهن بالخروج وحدهن بل يخرجن بصحبة مرافق كبير. وفى حال حدوث أن خرجن بمفردهن، فلم يعدن بنات "صالحات". كنا على شفا الحرب العالمية الثانية، ووفقا لمعايير السيدات الصالحات فى المجتمع السكندرى، فإن أخلاق كل بنت تتهافت عليها الكلاب، ويسمح لهن بالذهاب إلى السينما بدون مربية، [٤٩]، ذات مساء قابلت جوسيه مراسلا حربيا، كان يعانى كثيرا: "مسكين، وحيد لم يتعرف على بنات كثيرات- ومعظم من قابلهم هنا كانوا من اليونان فإذا أراد أن يصاحب إحداهن فى الخروج يعتذرن له قائلات: إننا لا نذهب إلى أى مكان بدون "بابا"و "ماما".[٥٠]

وإذا كان المجتمع الأثرى مستمرًا فى تطوير ماضى المدينة. فإن المتحف اليونانى الرومانى كان مغلقا، وإن كان رواقه بات ملتقى الرحلات الحرة التى

ينظمها أعضاء من قوات صاحب الجلالة للأماكن التاريخية"بصحبة رحلات خاصة للضباط والممرضات."ومعه بعض المقالات المنسوخة التي أرسلها وايتهيد موريس، متعلقة بالدليل الذى يصممه فورستر، يقوم باصطحابهم مع مرشدات جميلات إلى عمود السوارى ومقابر كوم الشقافة، وزيارة مقابر الأنفوشى وقلعة قايت باى وإلى مقابر مصطفى باشا، وأحيانا أبعد من منطقة رشيد."(٥١)

جوسيه (يسارا) وجون برينتون (فى الوسط) فى ملهى ليلى مع بعض الأصدقاء.

وتحت جنح ظلام ليلة السابع من ديسمبر تحركت القوات البريطانية والهندية باتجاه مرسى مطروح، وفى الليلة التالية تسللوا إلى ثغرة فى صفوف العدو ليهاجموا القوات الإيطالية من المؤخرة. فى ١١ ديسمبر تم الاستيلاء على سيدى برانى، وبينما اتجه الإيطاليون إلى الغرب، وجدوا مدرعة بريطانية تقف فى صفوفهم من المؤخرة، فى حين كانت كل السفن البحرية الملكية تبحر خارجة من

الإسكندرية واستمر تبادل القصف العنيف. أما ويفيل Wavell فقد كان يخطط لمباغتة العدو بشكل محدد: فى ذات الحادث، تم إضعاف الإيطاليين وباتت ليبيا مفتوحة بشكل غير متوقع أمام تقدم القوات البريطانية.

وصلت للإسكندرية الدفعة الأولى من الأسرى وتم إيداعهم فى معتقل بسيدى جابر، قالت جوسيه "لقد بدا عليهم أمارات البؤس والفزع" (٥٢) مثل حيوانات، مثل حملان وديعة، وكل واحد كان يمضى للمشاهدة" تذكرت أناهيد ميرامتجيان Anhahide Meramtdjian وهى سيدة أرمانية، بلغ عدد الأسرى نحو سبعة وثلاثين ألفا تم أسرهم فى هذا الاشتباك المفتوح، وفى السادس من يناير سقطت مدينة بارديا Bardia– وهى مدينة متاخمة للحدود– فاستسلم نحو خمسة وأربعين ألف جندى إيطالى، وتبعه، نحو ثلاثين ألفًا عندما وصلت فرقة أسترالية واستولت على مدينة طبرق فى الثانى والعشرين. وتم الإعلان بسرعة عن انتصارات الصحراء، أما الساحر الذى يلعب بالأفاعى فى فندق "أوتيل سيسيل" فقد أعاد تسمية فأره المسحور "بق بق" وسيدى برانى. "غير أن كثيرًا من رجال الخدمات، الذين لم يستفيدوا من اتجاه مصر نحو الحرب يعبرون فى إحدى كتابات فى التنفيس عن مكنون الصدر فى دفتر يوميات الزيارات لجينيف:

عار على المصرى المزيف

أن يظل متراخيًا فى داره

بينما السير أرشيبالد وافيل

يتقدم نحو روما(٥٣)

ولولا روما، لكانت ليبيا كلها ــ على الأقل ــ قد سقطت فى قبضة وافيــل. فبعد استسلام أكثر ٢٥ ألف جندى إيطالى بعد معركة بيدا فروم **Beda Fromm** فى ٥ فبراير فإن مدينة برقة **Cyrenaica** وموانى الإمدادات فى طبرق وبنغازى كانت فى أيدى البريطانيين الذين استمروا بتقدمهم باتجاه طرابلس. وكانت النتيجة خيالية. فمع أقل من فرقتين وبينهما فرقة مدرعة، فقد تقدم البريطانيون أكثر من ٥٠٠ ميل وتم القضاء على جيش جراتسيانى **Graziani** المؤلف من عشر فرق، وتــم أســر أكثر من١٣٠ ألف إيطالى وتدمير نحو ٤٠٠ دبابة مقابــل خــسائر طفيفــة بــين صفوفهم. غير أن بعض قوات وافيل اتجهت لتحرير إثيوبيا، وها هو التنظيم الثانى عشر، يأتى بتوجيه من تشرشل لإيقاف الزحف نحو طرابلس، ويــستعد لإرســال المزيد من الجنود والدبابات إلى اليونان.

وقد كان لدى البريطانيين معلومات استخبارتية تظهر أن الألمان يخططــون لغزو روسيا، وبينما يتخبط موسولينى فى منطقة البلقان، توجه هتلر إلى الجنــوب وبدأ فى غزو اليونان. واعتقد تشرشل أن اليونان قد تسقط، ولكن نصحه جنرالاته، بوجود فرصة للدفاع عنها، وبدأ يستعد فى إضعاف دفاعات شمال أفريقيــا لنجــدة اليونان. إنها مسألة كرامة، إذ أعلن تشرشل فى مجلس العموم البريطــانى، "لكــى نقدم المساعدة من قوتنا، فإذا قرروا مواجهة قوة وانتقام شعوب هنغريا فيجــب أن نهب لمشاركتهم محنتهم."(٥٤)

وفى نهاية يناير ١٩٤١ قام الملازم أول روبرت كريسب، وهو من جنــوب أفريقيا ويعمل قائد دبابة فى الكتيبة الثالثــة– فــوج الــدبابات الملكيــة بــالجيش البريطانى، قام بمهمة استطلاعية ووصل إلى طبرق فى ليبيــا. وقــد عــاد إلــى معسكره فى العامرية، عند منتصف الطريق فى كينج مريوط، كان ينتظر الأوامــر للانضمام للتقدم نحو ليبيا. ولكن وهو يتصور مستقبله، أى المآذن والنخيل الممتــد

من المدينة على طول الساحل الشمالى الأفريقى بعيدا عن الخطط التى وضعت فى لندن وأنه فى نهاية مارس سيتجمد من البرد فى الجليد على طول الجبهة الجبلية فى شمالى اليونان.

تغافل عن مصيره، فى تلك الأثناء ومشى كريسب نحو النوادى الليلية فى الإسكندرية. كان ناديه المفضل هو الفليرون **Phaleron**، إذ يقع فى غرب جراند تريانون فى نفس المنطقة القريبة من فندق سيسل، والنادى الليلى إكسيليسور **Excelsior** على الكورنيش وهو لا يبعد كثيرا عن محطة مترو الرمل. وكان نادى الفليرون **Phaleron** يعد النادى المفتوح لضباط المفوضية خلال الحرب العالمية الأولى، وقد تم تجديده حاليا بالعديد من المرايا والأنوار وتم افتتاحه ليستقبل ضباط الصف والرقباء لتناول الطعام، (فالمطعم يقوم بدور بسيط "فى وقت الحرب")(٥٥) أكثر من مجرد الرقص مع المضيفات اليونانيات، اللائى ضاعفن عدد البغايا. ففى بار إكسيليسور**Excelsior** الذى يفتح أبوابه للمدنيين وللضباط فقط، يمكنك أن تدخله فى نهاية الأسبوع لحفلات الرقص والشاى أو تدخله مثل جوسيه وأصدقائها للاستماع لفرقة موسيقى الجاز التى تعزف كل مساء وهم ينتظرون تناول العشاء. ولكن سواء ذهب كريسب إلى ناد ليلى أو إلى آخر فإن الفنانين يظهرون دائما بذات الطريقة فإنهم متشابهون تماما بمعنى أنهم أناس بلا جنسية. ثمة جالية لتلك الفتيات اللواتى يتناوبن حول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، يقدمن أدوارهن المبتذلة، يشربن الشاى الخفيف بسعر ويسكى دوبل، يكسبون عيشهم من خلال الترفيه عن الرجال بوسائل شتى.(٥٦)

ميليسا **Melissa** من رباعيات الإسكندرية **The Alexandria Quartet** وهى صديقة يونانية لداريل وعشيقة تاجر الفراء العجوز كوهين، كانت راقصة فى ملهى النجمة **Etoile** الذى وصفه داريل بأنه ناد فى نهاية شارع الكورنيش من شارع

البورصة القديمة، وكما تقول بعض كتب الإرشادية فى وقت الحرب، بأن النوادى الليلية "لم تكن للطبقة الراقية[٥٧]. غير أن داريل كان يرى أن أداءها مبتذل، وسيئة ولا تمت للفن بصلة، ولكن مشاهدتها وهى تقوم بتلك الحركات الخفيفة بيديها النحيلتين وقدميها (خفة الظبى مشدودة إلى الساقية) تجعلك مشدودًا: كنت مشدودا إلى ليونة قوامها." [٥٨]

هدد الملازم كريسب بتحديد عملياته حتى ليلة واحدة عند نادى إكسيلسيور، فقام برقصة حرب الزولو فى فاصل بين أدوار النادى الليلى. صفق له الحاضرون، وقامت إدارة النادى بإعفائه من فاتورته للحساب، ومنذ ذلك الوقت بات يأتى بشكل منتظم. "وحينما يُحضَر للعشاء تقطع الفرقة عزفها وتبدأ بعزف لحن تقديمى للقيام بأداء الرقصة القبلية الدوران والضرب بالقدمين، والتى تثير اهتمام قبيلة الزولو ولكنه وجد الرقصة غير معروفة."

كان ذلك بداية معرفته بفيرا. إذ كانت فتاة كباريه فى ملهى إكسيلسيور، ترقص رقصة إسبانية، ليست الرقصة الإسبانية الإيقاعية، الفلامنجو ولكن الرقصة البطيئة الرقيقة الحسية ذات ملامح جمالية هائلة.

بعد أحد عروضه، جلست على مائدة كريسب وقضت أمسية جميلة معه مجانا، ثم صاحبته وهو عائد إلى إكسيلسيور. كان كريسب رجلا وسيما، طويل القامة، قوى البنية، وجنديًا شجاعًا"[٥٩] كما كان رقيق المشاعر، ومترددا من إقحام نفسه فى بذخ على فتيات الكباريه الجميلات والمضيفات اللواتى ازدحمت بهن الإسكندرية "رعب شديد من تلك العلاقة." كان يعرف أنه بصحبة تلك الفتيات ملتزم بنوعية من الإنفاق ولكن أحس أن هناك شيئا ما بالنسبة لفيرا أكثر من مجرد الزواج المرتب وجواز سفر للخروج من الإسكندرية. فعندما لا ترقص فيرا رقصتها الإسبانية، وعندما لا يقوم برقصة الزولو، فإنهما يسعدان بقضاء الوقت

معا مثل أى اثنين آخرين فى إكسيلسيور: "لقد كنت شيئا مختلفا، ربما ممـــا كانـــت تعتاد عليه، خلال استمتاعه بأنوثتها الطاغية، ثقتها فى، ومشاركتها للحظة حينمـــا تبيع هذه الفتاة نفسها لرجال كثيرين، فقد وهبتنى نفسها راضية سعيدة بلا مقابل.

ثم حانت الليلة، التى اصطحب كريسب صديقته فيرا إلى شقتها، ولكن فـــى هذه المرة بدلا من أن يتركها فى المدخل الكبير صعد معها فى المصعد. لـــم تقـــل شيئا، ولكنه أحس بنظراتها الغريبة وتعبيرات عينيها الغامضة. وضـــعت إصـــبعها بين شفتيها، ثم وضعت المفتاح فى القفل، وفتحت باب الشقة، وقفت جانبا ودعتـــه للدخول، ووضعت يديها فى حنان على صدره وبينما يهم بالـــدخول. "أول شـــيء لمحته عيناى شماعة معاطف الرجال واقفة فى مدخل الشقة. كنـــت مرتبكـــا مـــن رفاهية الشقة، السجاد العجمى مبسوط أمامى على الأرض، والأثاث الفاخر يمـــلأ المكان، والصور معلقة على الجدران، كل شيء فى الشقة يوحى بالذوق الرفيع. ثم رأيت طربوشا أحمر متألقا. وانبعث صوت رجل من غرفة داخلية. ردت فيرا عليه باللغة الفرنسية بسرعة. ثم توسلت إلى بعينيها عسى أن أفهم، أومـــأت وابتـــسمت. وخرجت. سارت معى بعينيها حتى المصعد ثم غابت عن الأنظار. كـــان لمعـــان الطربوش الأحمر أمامى يحكى ماضيها.

ذات مساء وعلى الكورنيش، جلسا سويا على الرمل، وهى تحدق فى نجـــوم السماء: "انحنيت نحوها ولثمت شفتيها دون أن تلمسها يدى. علت ابتـــسامة جميلـــة محياها وأنا أقبلها." (٦٠) حدث نفسه: "إن الحرب تخايلت أمامهما بكل ما فيها مـــن لقاء ورحيل وأسرار وغموض. الآن قبل أن يبحر فى مارس القادم مع قوة الحملة البريطانية إلى اليونان عاد مرة أخرى إلى إكسيلسيور، وذهب بعربة حنطور إلـــى شقة فيرا، قبلها. كما لو كانت تشعر بأن هذه الزيارة هى الأخيـــرة، لـــم يخبرهـــا بشيء، كما أنها هى التى طبعت القبلة الأخيرة البريئة مـــن شـــفتيها، لتبقـــى فـــى ذاكرته، ويحملها معه إلى المعارك ليعود بها من جديد.

في مطلع شهر مارس، تم تجميع قوة الحملة بسرعة تتألف من القوات البريطانية والأسترالية والنيوزلندية التي سحبت من جيش ويفيل في الصحراء وأبحرت القوة من الإسكندرية لدعم اليونان ضد هجوم ألماني متوقع من بلغاريا. كانت الخطة هي الدفاع عن الميناء الشمالي سالونيك **Thessaloniki** ثم عند الضرورة سحب القوات إلى خط يجري فيه نهر الياكمون **Aliakmon** إلى جبل أولمب. باتجاه الغرب حيث يرابط اليونانيون على الحدود الجبلية مع ألبانيا ويصدون الغزو الإيطالي الذي حدث في الشتاء الماضي.

في السادس من أبريل اجتاحت القوات الألمانية، ولكن تقدمت بسرعة إلى سالونيك حيث واصلت سيرها حتى بلجراد، أدت إلى الانهيار السريع للجيش اليوغوسلافي الضعيف. وفي غضون أيام فإن قوات الدفاع الألمانية سوف تتدفق عبر ثغرة منستير **Monastir Gap** إلى وسط اليونان، في محاولة لعزل اليونانيين عن جبهة ألبانيا خلال الالتفاف حول الجناح الأيسر للحامية البريطانية المكشوفة والسيطرة على خط الياكمون. كانت اليونان بالنسبة للبريطانيين، دنكريك أخرى، رغم بقاء نحو عشرة آلاف جندي، من بينهم سبعة آلاف رجل تركوا شاطئنا في كالاماتا في جنوبي بيلوبونيز، بعد معركة ضارية حول الميناء، وفي أول مايو حاول أكثر من خمسين ألف رجل الهروب إلى مصر. ولكن تحليق القوات الجوية الألمانية عرضت المطارات اليونانية، ومطار جزيرة كريت، للهجوم. ورغم التعزيزات الموجودة في الإسكندرية فقد نجح الألمان في مناوراته بالقوات الميكانيكية وبسبب تفوق القوات الجوية الألمانية انهارت الخطوط الدفاعية بسرعة، وقبل الرابع والعشرين صدرت الأوامر البريطانية بالإخلاء، فاختنقت الطرق الجنوبية للموانئ والشواطئ لأقليم أتيكا وبيلوبونيسي بالعربات والرجال. "آخر ليلة معك"أذاعها راديو أثينا في السادس والعشرين، "أيام سعيدة بالانتصار والحرية... الله معكم ومن أجلكم، حظا سعيدا. "إلى الإسكندرية: لن ننساك أبدا ونترقب يوم الحرية"[٦١] وعندما استأنفت إذاعة أثينا البث ثانية في موعد الغداء من اليوم التالي جاء صوت المذيع بلكنة

مختلفة "انتباه ! انتباه! فى تمام الحادية عشرة صباحا ارتفع علم الـوطنى الاشـتراكى الألمانى فوق تلال أثينا Acropolis. التحية لهتلر." (٦٢)

الآن مع عمليات لافتفافي(*) التى استخدمت المطـارات الجويـة اليونانيـة، وقعت كيريت أيضًا تحت وطأة الهجوم. وعلى الرغم من التعزيزات التى تم الإمداد بها من الإسكندرية فقد نجح الألمان فى غزو الجزيرة بالمظلات، وقد تم إخلاؤهـا فى أواخر شهر مايو. ومن بين ما يزيد عن ٢٦ ألفا من القوات، قتل أكثـر مـن أربعة آلاف جندى وتم أسر خمسة آلاف جندى، بينما فقدت البحرية الملكية أكثـر من ألفين من رجال البحرية وغرق تسع سفن قتالية وأصيبت ثلاث عـشرة سـفينة بأضرار بالغة، بما فى ذلك بارجتان حربيتان وحاملة الطائرات الوحيدة فى البحـر المتوسط.

وفى أثناء إنزال مماثل متوقع على قبرص وقناة السويس، واجهـت مـصر تهديدا متجددًا فى الصحراء، حيث وصل القائد الألمانى الشاب "إروين روميل، إلى ليبيا لمساندة الإيطاليين فى طرابلس، وقد ضعفت قواته من خلال محاولة تحطـيم الدفاعات البريطانية، كما حاصر مدينة طبرق، وها هو يقف حاليا علـى الحـدود المصرية عند مدينة السلوم. وحينما اقترحت عليه وزارة الحربية أن البريطـانيين يجب عليهم الجلاء من مصر، غضب تشرشل بشدة، برغم أنه من وراء قادته كان يتوقع أن قواته سوف تحارب حتى آخر رجل حتى لو كان يعتقد أنه من الممكن أن يفقد مصر. وقد أصر القائد الألمانى العظيم أن يجعلها يقينا: فى دعمـه لروميـل اقترح على هتلر القيام بهجوم حاسم على مدينة الإسكندرية والقناة، كخطوة قاتلـة للإمبراطورية البريطانية أفضل من استيلائه على لندن."(٦٣)

(*) مصطلح ألمانى يُطلق على العمليات الجوية الألمانية (المراجع)

"بطريقة غريبة ولكنها ظريفة وبذوق أدبي" قرأ تقرير السفارة البريطانية عن جيدج جاسبر برينتون: هل صحيح أن المؤيدين للبريطانيين ذوو أفق واسع رغم ما يظهرونه أحيانا من العناد الشديد غير المتوقع.[٦٤] العنوان "قائمة بالشخصيات فـي مصر، وقد أعد التقرير والتر سمارت، وهو مستشار المندوب السامى للمستعمرات الشرقية، وقد أرسله السفير السير مايلز لامبسون، إلى أنتـونى إيـدين فـي عـام ١٩٤١، وكان التقرير يتناول بالتفصيل نفوذ شخصيات مصرية وشخصيات غيـر بريطانية، كان يقصد منها مساعدة وزير الخارجية البريطاني. يمكـنهم الاعتمـاد على جيدج برينتون ليكون غريبا، عندما لا يكون فى المحاكم المختلطة، أو يـدير جمعية آثار، فقد اتخذ، وهو فى سن الثانية والستين، إلـى الـسباحة إلـى الميناء الغربى ليلا لحماية الأسطول البريطانى من هجوم الغارات الجوية.

تم تطويق الميناء بالبطاريات المضادة للمدفعية- فى حـين أن وابـلاً مـن النيران يرتفع كل مساء ويقل فى الصباح- من خلال أسلاك مربوطـة بمراسـي الميناء، شكلت شاشة فعالة للتضليل على الطـائرات المحلقـة علـى ارتفاعـات منخفضة. بالإضافة إلى منع وصد غواصات العدو عن طريق إقفال الميناء كل ليلة بواسطة عوامات. ولكن مازال الخطر محدقا بسبب القنابل العشوائية والألغام التـي يتم إسقاطها بمظلات، وقد تم تحديد مكان سقوطها بناء على طلـب مـن أميـرال كانينجهام عن طريق بعض نوادى اليخت فى الإسكندرية المتحمسين حيث شـكلوا فريقا من المتطوعين للقيام بعمل دوريات على الشاطئ.

يقول جيدج برينتون "إن المغامرة كلها قد تمت إدارتها بمستوى عـال مـن الكفاءة. إن أصحاب المهن الخاصة مدعوون للمـشاركة بإسـهاماتهم والمـشاركة ضمن جدول الدوريات، متطوع واحد مرة فى الأسبوع. وكل ليلـة تخـرج نحـو أربعة زوارق لعمل دوريات على المقرات الرئيسية لنادى الزوارق البريطانى فـي

منطقة الجمرك قرب مينا البصل: اثنان يتوليان الموقف داخل المرفأ، بينما يقوم الزورقان الآخران بجولة حول العوامة، عمل متقطع فى أوقات مختلفة: كان نظامهم أن يكونوا فى المحطة على مدار الليل من ساعة الغسق وحتى مطلع الفجر... مراقبة دقيقة للبحر، ودقة فى حمل ما يسقط فى البحر من قنابل أو ألغام... إلخ. يتم تسجيلها فى دفتر التسجيلات" (٦٥) ورغم أن بعض القوارب كانت مزودة بأدوات الطهى وأماكن النوم، فلم يكن يستخدمها أحد، حتى فى غير أوقات المراقبة، فلم يكن أحد يريد أن تفوته المناظر الجميلة والأصوات الرائعة فى ليل الميناء": فصرخات صفارات الإنذار تنذر باقتراب طائرة للعدو، عشرات الكشافات تجوس فى الفضاء، ثم عند أول بريق فضى تقصف المدفعية المضادة للطائرات بزئير مخيف، أعلى من أى شيء آخر يمكن أن يسمع فى غارة جوية فى لندن، شظايا النار، ألسنة اللهب مثل المخالب مرشوقة تختطف أهدافها، بينما يتساقط وابل من الشظايا حول القوارب يهتفون فى بهجة يصفها برينتون بأنها "كانت واحدة من أكثر المهام المدنية الممتعة فى الحرب، والتى كان بها قدر كبير من الهزل." (٦٦)

فى الظلام وقبل حلول فجر أول مايو ١٩٤١ قامت شاحنة أسترالية بعملية نقل وعبور خطرة، تحت دوى المدافع من الميناء الغربى لجزيرة كريت، أونوستوس القديم (Eunostos). لقد كانت حمولة الزورق من اللاجئين، وتم تكليف جون كرومر براون بصحبة اثنين من رقباء الأمن، باستقبال الزوارق، وقفوا ينتظرون، قضوا وقتا فى تناول الآيس كريم واحتساء القهوة فى مقهى باستروديس بشارع فؤاد يتمتعون بتناول عصفور التين، العصافير الصغيرة، وخصوصا فى البلدان المطلة على شرق البحر المتوسط، ينقعون تلك الطيور فى بعض من الخمر Mareotic. وفجأة فى حوالى الساعة الرابعة فى الصباح استيقظ الجميع فى ثكنتهم

العسكرية الكائنة فى شارع مصطفى باشا وطلبوا أن يتسللوا إلى الأحواض حيث تتعالى صرخات فى وسط ليلة مظلمة مع انهمار نيران البارجة البحرية.

وعند أذان الفجر يتبدد الظلام وتهرب آخر طائرة للعدو مع الليل، وينطلق دوى المدافع ويدخل الزورق الميناء متخفيا بين صفوف زوارق حربية، حتى يصل إلى المرسى. وبدأ تفريغ الزورق مع الضحى، براون يتفحص أوراق الهوية للمسافرين الذين يصطفون، فى صفوف مثيرة للشفقة من مدرسين محالين للتقاعد، وأساتذة جامعات، وأرامل وغيرهم من المغتربين الذين فروا من أثينا وبيلونيس." وفى خضم انهيار المقاومة وارتباكها فى اليونان، فإن اللاجئين فروا باتجاه الجنوب عبر البحر المتوسط إلى مصر، مع اتخاذ كافة التدابير الوقائية فى فحص أوراق جميع المسافرين خشية تسرب عملاء قوات التحالف. وقد كان براون واقفا فى مقدمة الممر الرئيسى، حينما"تقدمت شخصية "قصيرة ممتلئة الجسم ومستديرة الوجه، كانت زوجته وراءه، وابنته الرضيعة يحملها على كتفه. أخذ جواز سفره وقرأ الاسم "لورانس داريل ":

"كاتب ؟"

"نعم"

"ذات يوم كنت ضمن المقيمين فى فيلا سيورات – فى باريس"

"نعم "

"صديق هنرى ميللر؟"

"نعم، وما العيب فى ذلك؟ "(٦٧)

لم تكن تلك أفضل لحظات تمر على شهرة داريل؛ وحتى وقت اندلاع الحـــرب، كان يعيش بجزيرة كورفو CorfuK، وفى عام ١٩٣٧، فى عيد مـــيلاده الخـــامس والعشرين أكمل كتابه "The Black Book وهو التصوير الفـــظ للقيـــود الروحيـــة والثقافة الجنسية التى أطلق عليها "موت الإنجليزى The English Death تـــى إس إليوت، استقبل مدير دار نشر "فيبر آند فيبر" الرواية بحفاوة كبيرة باعتبارهـــا أول عمل أدبى لكاتب إنجليزى جديد مما يعطينى الأمل فى مستقبل الرواية النثريـــة"(٦٨) ولكنه خوفا من إقامة دعاوى قضائية على اللغة البذيئة فى الرواية لم يطبعها بدون حذف. غير أن داريل رفض، وبدلا من طباعتها فى باريس طبعة غير منقحة بمساعدة هنرى ميلر، وقد كانت روايته Tropic of Cancer مدار السرطان قد تم منـــع تـــداولها فى بريطانيا وأمريكا، فقد كان سعيدا بنجاح روايته " Success de Scandle.

قال براون: "لا ليس على الإطلاق". كان براون ينشر شعره فى لندن قبـــل الحرب، كما كان من المعجبين بميللر: "أريد أن أتحدث إليك عنها." وبعد الخـــروج من إدارة قسم الهجرة المصرية، تم احتجاز داريل ونانسى وابنتهما البالغـــة تـــسعة شهور فى مخيم ترانزيت منعزل للرجال والنساء، كان داريل فى العجمـــى غـــرب مدينة الإسكندرية، وقد لحقه براون فى نفس المساء: "قضينا الليلة كلها فى خنـــدق صغير نراقب النيران الجوية ونحن نتبادل أطراف الحديث عن بـــاريس وهنـــرى ميللر والأدب، وفى صباح اليوم التالى عند جمع الشمل مع زوجتـــى وابنتـــى تـــم وضع أشيائى فى شاحنة، وانطلق الثلاثة إلى فندق لونابارك فى القاهرة. (٦٩)

لقد كان تدفق اللاجئين طوال الأسبوع، معظمهم خرج بدون تناول أى طعام منذ عدة أيام، وبدون أوراق وهويات أو نقود كما لا يعرفون إلى أين يذهبون، وقد استقر أكثر من ألف شخص على شاطئ الإسكندرية وامتلأت مستـــشفيات المدينـــة بالجنود العائدين من البلقان وطبرق. لم يجد داريل فى مدينـــة الإســـكندرية شـــيئا،

ولكن فى تلك المدة القصيرة وهى نحو أربع وعشرين ساعة تم استقباله بشكل أفضل مما كان يظن، فكان يتذكر طريقة وصوله والشروط المبالغ فيها. "أول شيء فعلته السلطات البريطانية مصادرة جوازات سفرنا لتضعنا قيد الإقامة الجبرية فى معسكرات الاعتقال. "قال لصحفى مصرى حينما زار المدينة مرة أخرى فى عام ١٩٧٧: "إن حرارة الجو شديدة، ويقوم على حراستنا جنود تشيك مدججون بالسلاح. بقينا فى المعسكر هناك لمدة ثلاثة أيام أو أربعة حتى حان موعد زيارة القنصل للمعسكر وتم تعيينى ملحقا صحفيا للسفارة البريطانية". [٧٠]

كان وصف داريل، مختلفا عن وصف براون، من حيث زيادة جرعة السخرية: واختلاق حكايات للصحفيين، والأكاديميين ولأى إنسان آخر يحاول أن يقوم بعمل لقاءات معه وقد أصبح ذلك عادة ملازمة لداريل فى أواخر حياته. ولكن فى عام ١٩٤١، ذكر شيئا عن نفس الحكاية التى رواها لصديقه القديم من كورفو**Corfu**، تيودور ستيفانيدز، وصفها جيرالد وهو الأخ الأصغر لداريل فى كتابه "**My Family and Other Animals**" "عائلتى وحيوانات أخرى"(إن جيرى، وهو طبيب تيودور ستيفانيدز. خبير فى كل شيء عملى تهتم بالكلام عنه. وما لا تذكره،"فهو، مثلك، محب للطبيعة، وغريب)[٧١] لقد ولد ستيفانيدز فى الهند، لأم إنجليزية وأب يونانى، انضم للجيش البريطانى، فى اليونان باعتباره طبيبًا برتبة ملازم فى الوحدة الطبية للجيش الملكى وظل فى القوات البريطانية طوال معركة كريت حتى سقطت الجزيرة فى نهاية مايو، عندما كان من بين آخر من تم إجلاؤهم إلى مصر. ثم التحق بالمستشفى العسكرى فى القاهرة، وبعد ذلك تعقب ستيفانيدز صديقه إلى "لوناتيك بارك[٧٢]" أو كما يسميه داريل "فندق لوناتيك بارك" فهو مكان المتهالك تسلمته السلطات ليكون مأوى للاجئين البريطانيين... مكان رهيب، فهو مكتظ بالنزلاء" ومع ذلك فقد استطاع داريل وأسرته أن يظفروا بغرفة لهم.

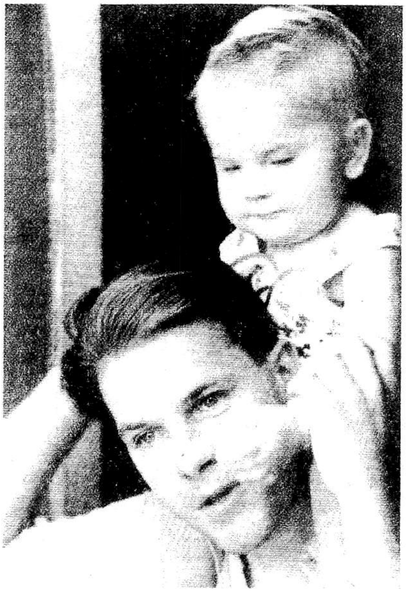

هذه الصورة توضح لورانس داريل مع ابنته بينيلوب على كتفيه، وقد التقطت هذه الصورة قبل فرار الأسرة من اليونان، نفس المشهد قد تكرر عندما هبط من السفينة عند ميناء الإسكندرية.

وقد شوهدت ستيفانيدز وداريل معا آخر مرة فى أحد أيام نوفمبر فى أثينا فى عام ١٩٣٩. كان هناك الكثير ليتحدثوا عنه: الأصدقاء والرحلات الأخيرة، ليس أقلها التسلل والهروب من اليونان إلى كريت، وقد تسللت ستيفانيدز فى سفينة تجارية قديمة وفى طريقها تم استهدافها ثلاث مرات، كان داريل وأسرته يراوغون الطائرات الألمانية، فى زوارق حمولتها زائدة وقوارب صيد تقليدية من اليونان. "وتتذكر ستيفانيدز : "ولكن الحظ حالفهم ووصلوا بأمان إلى الإسكندرية، واعتقدوا أن كل متاعبهم قد تبددت تماما. غير أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن؛ ففى اللحظة التى نزلوا على الشاطئ، انقضت عليهم السلطات العسكرية واعتقلوهم فى

معسكر الاعتقال، حيث تم تكديسهم فى مكان أضيق من فندق لونابارك" حيث تأخر بهم الوقت قبل أن يتمكن داريل وزوجته من إثبات حسن نواياهم وإخلاصهم.(٧٣)

قال براون، "لم يكن حقيقيا. فقد كانت مهمتنا نقلهم بأسرع ما يمكن": انظر لا يجب أن تضيع وقتك عليه. لقد وصف حاله، ولا شك فى ذلك." تم وضع القادمين فى معسكرات الاعتقال، "لا كسجناء، ولكن لا يسمح لهم بالتجول خلال محاولة ترحيلهم معا. إنه بالتأكيد لا يعانى من أى قيود. فلم يكن فى الإسكندرية أكثر من أربع وعشرين ساعة. ولا أحد يريد أن يتزاحم على الميناء لأن زوارق أخرى تدخل، ولا أحد يعرف ما الأوامر العسكرية."

وعلى العكس ممّا قاله دوريل لصديقه المصرى فى عام ١٩٧٧، فإنه عند وصوله إلى الإسكندرية قادما من اليونان كان ملحقا صحفيا بريطانيا، ولم يكن فى وزارة الخارجية فى ذلك الوقت، ومن ثم كان مسموحًا له بالعبور على السفينة الحربية"(٧٤) والتى كانت الخط الذى يسير فيه إلى الصحفى الفرنسى فى عام ١٩٧٢. ولكن وكما قالت ستيفانيدز عن دوريل، "لقد كان جامحا من سحب سيقان الناس، ينتهى به الأمر إلى وخز ساقيه." (٧٥)

هل صحيح أن دوريل مر بتلك الصعوبات عندما نزل فى الإسكندرية، لقد تم تنظيمهم هناك ومن تحت رئاسة براون وألان واس اللذين تحملا مسئولية العملية كلها. كان واس أستاذ الآثار القديمة فى جامعة كامبريدج ومن ثم فإنه كان يقوم بالحفر فى منطقة ميسينى Mycenae حتى اندلعت الحرب، حينما قبضت عليه المخابرات البريطانية فى أثينا. وعندما اتضح أن اليونان سيتم إخلاؤها تم إرساله إلى الإسكندرية، وصل إلى هناك فى ٢١ أبريل، حيث كانت مهمته أن يكون فى حوض السفن للكشف على اللاجئين بمجرد وصولهم. لقد كان واس متفوقا فى تلك

المهمة؛ لقد استطاع القيام بمهمة مماثلة عندما كان يرأس حركة المدنيين من اليونان إلى مصر خلال عمله فى الاستخبارات فى أثينا خلال الحرب العالمية الأولى، لو كان جواز سفر دوريل واعتراف براون غير كافيين، فقد تم طرح بعض الأسئلة من واس حول هوية دوريل.

لندع الخيال جانبا؛ الحقيقة هى أن التهديدات الإيطالية واستنزاف مواردهم الاقتصادية الخاصة الصغيرة أخرجتا دوريل ونانسى من رومانسيتهما التى عاشوا فيها منذ مطلع ١٩٣٥ وجاء الاثنان إلى أثينا يبحثان عن عمل. فى سبتمبر عام ١٩٣٩ وعندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، فإن السفارة البريطانية فى أثينا احتفظت بعدد قليل من موظفيها، أما أولئك الذين يتحدثون اللغة اليونانية واللغة الإنجليزية مثل ستيفانيدز ودوريل، فقد تمت الاستعانة بهم فى ترجمة مقتطفات من الصحافة اليونانية. وقد استمر الوضع نحو شهر، حتى وصل الموظفون الدائمون من إنجلترا"، أما الموظفون المكلفون بمهام أخرى فقد تم طردهم.[٧٦] فى ذلك الوقت كانت نانسى حاملا، ودوريل كان يقوم بعمله المحدد فى التدريس بالمركز الثقافى البريطانى أولا فى العاصمة ثم فى مدينة كالاماتا فى المنطقة الجنوبية بيلوبونيس.

فى الشهور الأولى من شتاء عام ١٩٤١بدا واضحا نجاح اليونانيين فى صد الغزو الإيطالى من ناحية ألبانيا، الأمر الذى قد يعجل بتورط الألمان فى منطقة البلقان. يكتب دوريل إلى هنرى ميللر من كالاماتا يصف الوضع هناك قائلا: "الجلوس على حافة البركان"[٧٧] لست مضطرا أن أكتب لأتحدث عن الكثير من الصخب لسماع الصوت"، على أنه فى حاشية الرسالة يقول:"إنه لمن دواعى السخرية مساء أمس أننى رأيت سحابة كما رأيت كتاب الموتى **Book of the Dead** تحتى وكأنه مدينة فاضلة محجوبة. إننى مستعد الآن أن أبدأ فيه: إنه تصور رائع وكامل"[٧٨] إن كتاب الموتى كان عنوان الكتاب الذى يقوم دوريل بتأليفه لما أصبح فيما بعد باسم "رباعية الإسكندرية.

الفصل السادس

صـــورة شخصية

تُرى هل نعود ثانية؟ لا أقصد العودة إلى ماضي اليونان، ولكن إلى ماضينا نحن في اليونان... فالماضي والحاضر يتعانقان هنا، ومهما حدث، فسنعود ثانية.

لورانس دوريل إلى جورج سيفريس، أكتوبر ١٩٤١ (١)

أيا كانت الحقيقة التي تكتنف وصول لورانس دوريل إلى المرفأ الغربي في الإسكندرية، فقد أظهر رد فعله العنيف ما تكنه نفسه من إحساس أعمق بالانزعاج والضيق. فخلافا لفورستر، الذي جاء إلى مصر عن طيب نفس وأصر على أن تكون له خبرات بها، وصل دوريل، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، إلى الإسكندرية وهو يعاني صدمة عنيفة من جراء طرده من اليونان. يقول عن ذلك: "كان فقد اليونان أشبه ببتر عضو مني" (٢)، وكان سيبدأ في الكتابة بعد ذلك في الإسكندرية، إلا أن الإحساس بالانفصال عن الكل قد جاءه قبل ذلك بوقت طويل. ومن ثم كانت اليونان تمثل محاولة للاستعادة والاسترداد؛ ومصر هي المكان الذي قيد إليه بفعل قوى عنيدة لا ترحم، كما كانت المكان الذي شعر فيه بأنه أبتر وشعر فيه بالضعف والعجز.

وخلال الساعات الأولى من صباح الأول من يوليو عام ١٩٤٢، أي بعد مرور ١٤ شهرا من نزوله إلى المرفأ الغربي، كان دوريل يعاود زيارة الإسكندرية. كان هو ونانسي لا يزالان يعيشان معا في مدينة القاهرة، وفيها عرض عليه السيد والتر سمارت، المستشار لشئون الشرق في السفارة البريطانية، وظيفة

بقسم الدعاية بالسفارة خلال الصيف الماضى. وأُعطى السيد دوريل مسدسا وتم إرساله إلى الشاطئ مستقلا قطار المساء، وكانت التعليمات صادرة إليه بإهلاك الملفات الخاصة بمكتب الاستخبارات البريطانى هناك. كان الجو ينذر بشؤم بينما كان القطار ذو اللون الأسود يتحرك باتجاه الشمال عبر ظلام منطقة الدلتا، وكان القطار يتوقف من حين لآخر بلا داع وسط هدوء يثير الأعصاب. كان الفيلق الأفريقى يتحرك عبر الحدود المصرية، فارضا سيطرته بسرعة على كل من السلوم وسيدى برّانى ومرسى مطروح على التوالي؛ وبينما كان الجيش الثامن يتراجع فى العلمين، كان روميل يكتب فى ابتهاج إلى زوجته قائلا: "[نحن] على بُعد أقل من مائة ميل فقط من الإسكندرية".(٣)

وفى صباح يوم الأربعاء الموافق الأول من شهر يوليو، عندما وصل دوريل إلى الإسكندرية، كانت محطة القطار تعج بعدد كبير من الأفراد المُرحّلين. فقد كانت قاذفات القنابل الألمانية تدك الميناء الغربى بقوة طول الليل، مما أثار الرعب بين الناس فى المدينة عندما رأى أهل الإسكندرية الأسطول الملكى يبحر لتأمين حيفا ويمر عبر قناة السويس باتجاه البحر الأحمر.

وعندما وصل دوريل إلى مكتب الاستخبارات، وجد أن المكتب تحطم تحت قصف القنابل، لذا خرج ومشى فى شوارع مدينة الموتى. وقد اندفعت سحابة كثيفة من الدخان الكئيب من مداخن القنصلية البريطانية فى طريق الإسكندر الأكبر الواقع على الحدود الشرقية مباشرة لمحطة ترام الرمل، حيث تعرضت فيها الملفات للحرق ولم يبق منها شيء. وحدث نفس الشيء فى المكاتب والتركيبات العسكرية المنتشرة عبر المدينة وفى كل من القاهرة والإسماعيلية وبورسعيد. وقد شاع فى أرجاء المدينة أن البريطانيين قد فقدوا سيطرتهم على مصر. وتم غلق المتاجر والبارات والمقاهى بالكامل، كما دوى فى شوارع المدينة الفارغة رنين الهواتف من الغرف الفارغة.

لكن أحدًا لم يتراجع خوفا من تقدم قوات روميل، فقد تقدم بعض المقيمين الإيطاليين بالمدينة وهم يحملون الهدايا من الفواكه والسجائر، واستوقفهم الحرس البريطاني وهم يحاولون السير إلى الخط الأمامي لاستقبال جيش الحلفاء الزاحف، فقد سرت الحكايات حول المقاهي التي تقدم طلبات من السجق بالتنسيق مع الجزارين المحليين؛ ولاحظ دوريل أن الكثير من المؤسسات المقدمة وضعت ملصقات مكتوبًا عليها "مرحبا بك يا روميل". وأمام ذلك، لم يجد روميل ما يفعله إلا أن أعد قائمة بأسماء تلك المؤسسات، وأخبر بها السلطات العسكرية حال عودته في ذلك المساء إلى القاهرة.

ومنذ عام ١٩٤٠، كانت الحرب سجالاً عبر الصحراء، فالإيطاليون والألمان يتقدمون باتجاه الشرق من طرابلس، بينما يتقدم البريطانيون باتجاه الغرب من الإسكندرية، وكل جيش يبسط خطوط إمداده كما لو كان قطعة مطاطية، حتى التوقف وإنهاك قوى الأعداء بفعل المعركة، ثم ينسحب ليعود إلى قواعده. وفي أعقاب هجوم فاشل جرى في يونيو ١٩٤١، تم إحلال الجنرال السير كلاود أوتشينليك محل ووفيل في رئاسة الأركان، وقام الجنرال كلاود بدوره بشن "هجوم كاسح"في نوفمبر، وكان الهدف منه هو فك حصار طبرق، وكما عبر عنه تشرشل بكلماته: "هزيمة العمر لروميل وأعوانه".(٤) غير أنه في أثناء دحر روميل وإرجاعه باتجاه طرابلس، كان لهذا الأمر تأثيره على العتاد الخاص بكلاود أوتشينليك، في حين أنه مع نهاية شهر مايو ١٩٤٢، قام روميل بالتقدم باتجاه الشرق من جديد بعد أن حصل على إمدادات، وتمكن من شن هجوم كاسح على مدينة طُبرق الليبية في ٢١ يونيو، كما تمكن أيضا من أسر عدد ٣٥ ألف جندي من الجنود البريطانيين والهنود والجنوب أفريقيين.

إلا أن سقوط طبرق لم يكن متوقعا، وقد عصف بمشاعر الرضا حول ما كان يطلق عليه السفير البريطانى اسم "صور الصعود والهبوط فى الحملة الغربية".(٥)

وقد بدأ الاندفاع إلى البنوك فى ٢٤ يونيو، واكتظت قاعات البنوك حتى أصبحت كتلة مضطربة من الرجال والنساء". وفى بنك باركليز فى شارع شريف باشا، تم إدخال نظام الاصطفاف فى طوابير، وهو أمر لم يعتده العامة، وكان من الضرورى أن يتم تطبيقه من خلال إيجاد سياج من سلاسل ومقاعد خشبية ومن خلال موظفى البنك الذين "كانوا يقفون على المقاعد الخشبية ويتحركون فى بعض الأحيان بصعوبة بين جموع المحتشدين المتدافعين ليحصلوا على دورهم".(٦)

وقد كانت العاصفة شديدة فى ٢٩ يونيو عندما تم غزو مرسى مطروح وبدا جيش روميل وكأنه يعدو كالبرق باتجاه الإسكندرية. وكانت الأخبار الإذاعية وعناوين الأخبار يتزايد بها ما تحمل من أخبار غير سارة مثل: "الدفاع عن مصر حتى النهاية". "التعزيزات العسكرية فى الطريق". "لا نخفى الحقيقة بأن وجودنا مهدد تماما فى مصر". "إن ضاعت الإسكندرية، فالتجهيزات فى حيفا جاهزة لأسطولنا ".(٧)

وفى اليوم الذى شهد سقوط مرسى مطروح، كتبت الكونتيسة مارى دو زوغيب فى مذكراتها اليومية تقول: "ذعر فى المدينة؛ الأسطول وإمارة البحر والطيور، كل شيء يتم إجلاؤه وإغلاق النوادى والفنادق العسكرية "(٨) وخلافا لذلك، سارت الحياة فى محطة الرمل فى مسارها المألوف: تناول الشاى فى فندق بوريفاج، وهو مقر الإقامة فى الصيف السابق لعائلة زوغيب فى جليمينبولو، مع صديقتيها اليهوديتين السيدة هرارى، زوجة فيكتور هرارى باشا، مدير العديد من

الشركات التي تنتمي لمجموعة كاتووى سوارز مينسا ورولو، وكذلك للسيدة ويفون رولو، زوجة المتاجر فى الأقطان ماكس رولو. إلا أنه فى ٣٠ يونيو، زادت حالـة "الذعر"وكان هناك "عدد كبير من المغادرين للبلاد"من بينهم بعض اليونانيين علـى رأسهم القنصل وأفراد أسرة سلفاجوس، كما كان هناك أيضا الكثيـر مـن الأسـر اليهودية مثل: "لى فينسيندون ولى ماكدس رولو ولى ميناسكا ولى روجير أغينـون و ماريا روزا جوار- أو كاب".[٩] ورغم أنه كان من الواضح أن الكثير من هـذه الأسر لم يرغبوا فى السفر إلى ما هو أبعد من مدينة كيب تاون، فقد لاحظت السيدة مارى دو زوغيب أن الغالبية ليس لديها خطط حالية أكثر من التوجه إلى القـاهرة والأقصر. ومن هناك، يمكن أن يهربوا مع أفراد آخرين مـن الأقليـة المـصرية والمجتمعات الأجنبية – خاصة المعروف عنهم دعمهم للبريطـانيين ومعارضـتهم للنازية- إن لزم الأمر، إلى السودان أو إثيوبيا أو تشاد أو الكونغـو البلجيكيـة أو سوريا أو فلسطين أو أى بلد أبعد من ذلك. وكان أهم شيء هو مغادرة الإسكندرية، ومنها لم تقدم دول حوض البحر المتوسط أى مجال للهرب، الأمـر الـذى أسـهم بدوره فى زيادة مناخ الاحتقان والتوتر فى المدينة.

وبحلول الأول من يوليو، وبينما كانت مارى دو زوغيب تساعد فى إغـلاق نادى القوات المتحدة، ذكر ابنها برنارد، العائد من عمله الجديد فى القوات الملكيـة الجوية بأبى قير: "الشوارع مملوءة بالورق المحروق الذى يتحرك مع الـريح فـى كل مكان، ذلك أن الجميع كانوا يحرقون المستندات التى تتسبب فى مـشاكل، بـل وحتى رسائل الغرام التى كتبها الجنود والبحارة". وكان القذف ضاريا تلـك الليلـة على وجه الخصوص، واختبأت أسرة زوغيب فى المأوى وفيه التحقـوا بأسـرتين وحسب؛ فقد هربت الغالبية العظمى من جيرانهم ومن أصدقائهم، من بينها جميـع من يدينون بالديانة اليهودية.

غير أنهم كانوا الأفراد الأفضل حالا ومن كان لديهم أساليب مستقلة، كما أنه لم يغادر المدينة جميع هؤلاء الأفراد. وقالت ليليا رالى، ابنة أخت السير جون أنطونياديس الذى تنازل عن ملكيته للفيلا والحدائق للبلدية الواقعة بالقرب من منطقة النزهة عام ١٩١٨: "كان والداى أيضا يطاردهما روميل"،[١٠] وقد كانت ليليا موجودة فى أثينا بينما كان اليونانيون يحاربون بشجاعة ضد الإيطاليين، وكذلك وهم يحاربون الألمان وسط حالة من اليأس والقنوط؛ وقد كانت الروح السائدة فى أوساط اليونان روحًا غامضة يصعب وصفها، وهى الروح التى لم تشعر بأنها السائدة بين المصريين اليوم، الأمر الذى جعلها فى حالة شديدة من الحزن والبأس. وقد هربت من اليونان فى الوقت الذى ذاقت فيه البلاد ويلات الهزيمة، وكانت تتوق إلى العودة ثانية، لجمع الطعام وطهى الوجبات لعامة الشعب، كما تاقت نفسها إلى مساعدة الأفراد الذين يموتون جوعا؛ إذ كانت هناك تقارير ترد عن نقل عربات للعديد من الموتى عبر شوارع أثينا كل يوم. وكانت مشاعر اليأس والإحباط طاغية وتغلب جميع المشاعر الأخرى: وفى اليوم الذى رفع فيه الصليب المعقوف (شعار النازية) أعلى قلعة أثينا، قتلت فيه السيدة بينيلوب دلتا، أخت أنطونى بيناتشى جراء تناولها السم. وعلقت السيدة ليليا على ذلك بقولها: "لم يكن لدى أهل أثينا أمل"، غير أنها أردفت بقولها: "بصرف النظر عما حدث هنا، فلا يمكن أن يكون أسوء مما حدث هناك."[١١]

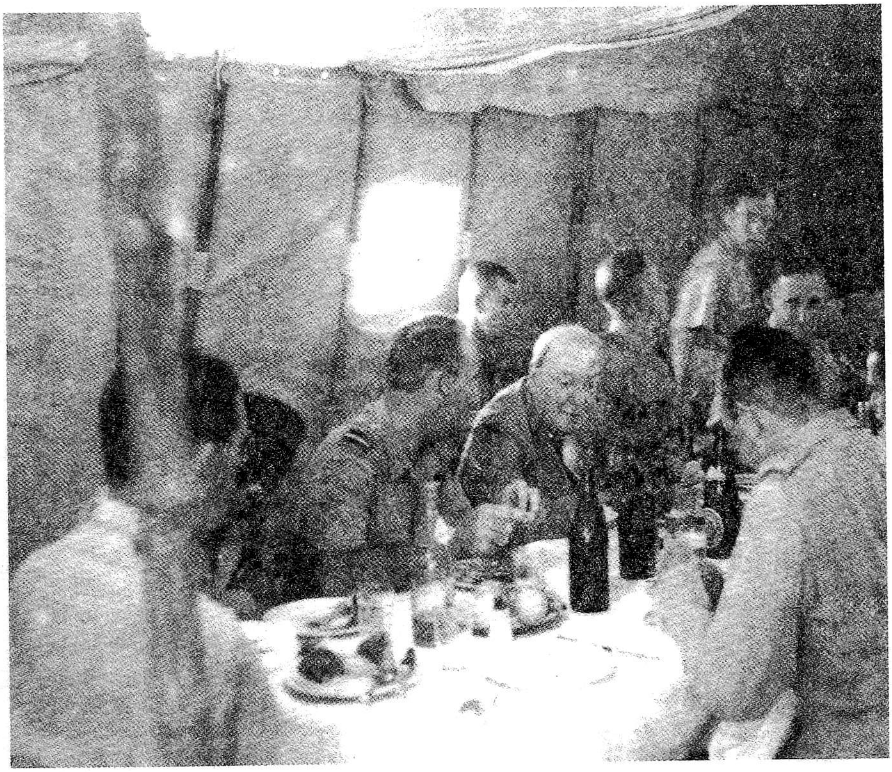

وينستون تشرشيل يتناول وجبة الغداء مع أفراد القوات الملكية الجوية فى برج العرب فى الفترة ما بين معركتى العلمين الأولى والثانية.

وكان من بين الذين لم يفروا من الإسكندرية فى ذلك الوقت العديد من التجار المنتمين إلى الطبقة المتوسطة الذين استثمروا أموالا طائلة فى البضائع والسلع منذ بداية العام على أساس إمكانية زيادة القيود المفروضة على الواردات، أدى هذا إلى تقلص سيولة الأموال فى الوقت الحالى لمغادرة البلاد، فى حين أن صور الدخل المحدودة للتجار والحرفيين الصغار من الطبقة المتوسطة قد جعلت فكرة الهروب مستحيلة.

وكان السيد مويز كوهين من بين الأفراد الأقل ثراءً، وهو أحد المرابين القاطنين بميدان محمد على الذى كان يعيش مع زوجته وابنتيه فى الأزاريطا. وتتذكر ابنته الكبرى إيف دوريل، أو كما كانت تسمى قبل زواجها باسم يفيت كوهين: وحين حل يوم "أربعاء الرماد"، استخف الجنود البريطانيون به، عندما سقط الثلج الأبيض للوثائق المحروقة من السماء وسرت شائعة فى كل أرجاء البلاد بأن "البريطانيين يتخلون عنا". كما سمعت قصصا أيضا، رغم أنه لم يتم تقديم أدلة تثبت صحتها، عن الأفراد الذين يتم إجلاؤهم وتصيبهم حالة من الذعر والهلع وهم يموتون فى الجمهور المحتشد البائس على متن القطار المسافر. غير أنها لم تعتقد أن البريطانيين كانوا يهربون، كما أنه لم يخطر ببالها. فقد كان لدى إيف ثقة فى الجيش البريطانى، ولم تشك للحظة فى أنه من الممكن هزيمة روميل، لكن لم يكن والدها متأكدا جدا من ذلك. كانت إيف تبلغ من العمر ٢٣ عاما وكانت فتاة جميلة لكن كانت تتسم بالاندفاع فى الوقت ذاته، وكان والدها قلقا بشأن ما يمكن أن يحدث لها لو أتى الألمان. وقد أعطاها بعض النقود وطلب منها بعد ذلك بيوم أو يومين أن تغادر البلاد متجهة إلى القاهرة لقضاء بضعة أسابيع بها والبقاء مع أخته هناك. وعن ذلك الموقف، تقول إيف: "لم يذهب [إلى القاهرة] أى فرد آخر من أفراد الأسرة، إذ لم يرسل زوجته أو أخته، وهذا لأننى كنت أنا قرة عين أبي".

وفى ليلة الثلاثاء الموافق ٣٠ يونيو، قام جيدج برينتون بتحديث مذكرة أعماله من خلال مراجعة أحداث الأسبوع المنصرم. وقد قام هو وجينيفا بعمل "واحدة من أكثر زيارتنا متعة وإبهاجا" إلى برج العرب، وهو المكان الذى بدت فيه الصحراء هادئة. "وقد سقطت طُبرق قبل يومين، ورغم أن طبرق على بعد مئات الأميال؛ فإن الموقف بدا خطيرا، ولم يتوقع أحد حدوث أى تقدم سريع. وقد قدم إلينا باركر فى مساء يوم الأربعاء وأعلمنا بالشائعة التى تقول بحدوث تقدم كبير

باتجاه الشرق. كان براملى غاضبا من الجنرالات الذين تركوا روميل يفر، لكنه فى الوقت ذاته لم يبد عليه الانزعاج الشديد. وتحدث إليه عن مشكلة قانون البدو".

ومع نهاية الأسبوع، عاد جيدج برينتون إلى الإسكندرية، وفى يوم الجمعة الموافق ٢٦ يونيو "اتصل جودين [القنصل الأمريكي] ليسأل عن موعد خروجنا من البلاد. وسنخبره بأننا لن نترك البلاد."ثم طلب القنصل بعد ذلك "سببا واحدا وجيها وراء إصرارنا على عدم الرحيل أنت وزوجة برينتون للإسكندرية"، ولم يفلح جيدج فى أن يضفى جوا من الدعابة عندما ذكر لجودين أنه يبنى حظيرة للدجاج. وبحلول ظهيرة يوم الإثنين، أغلقت القنصلية أبوابها وغادر جودين المدينة؛ كما حدث أيضا أن "فرت الدجاجات وصغارها، وهو ما أثار حالة من الغموض، وكان هناك مجموعتان منفصلتان من الريش فى مروجنا الخضراء الغنية بمختلف الأنواع، والسؤال هنا هو هل هاتان المجموعتان تمثلان قطا؟ أم لصا؟ أم ثعلبا؟ وكان رد برينتون ينم عن طابع فلسفى حينما قال: "هذه أقدار تسوقها الحرب".

وبصرف النظر عن بناء حظيرة للدواجن، "والتى واجه فيها برينتون عناءً كبيرًا فى جمع المادة"،(١٢) فقد كان لدى برينتون أسبابه التى تمنعه من مغادرة الإسكندرية حيث قال: "ربما كان لدينا ثقة كبيرة فى الجيش الثامن أكثر من الآخرين أو ربما شعرنا أن حياة قاض كبير وزوجته لا تلقى أى صعوبة من الاحتلال الألمانى. وربما نكون أيضا أكثر اهتماما بالضباط الذين يمرون بفترة نقاهة ممن استقروا بمنزلنا. ثم استقر بنا الحال فى منزل لنا فى برج العرب، التى تقع فى منتصف الطريق المؤدى إلى العلمين، والتى استمرت مفيدة على ما يبدو بالنسبة لجمعية الشبان المسيحية العالمية التى لا يزال لدينا الإمكانية التواصل معها."(١٣)

عثر على ذلك أيضا إلهة مصرية قديمة بالوقوف كتعويذة ضد روميل فى برج العرب. وفى الخريف السابق لعام ١٩٤١، تلقى برينتون كلمة بينما كان يقيم فى دار القاضى الخاص به مفادها أن قوات جنوب أفريقيا قد كشفت فى العلمين، وهو مكان غير معروف فى ذلك الوقت، عن بعض الكتل الحجرية تحمل نقوشا هيروغليفية. وأثناء قيادته فى ذلك الطريق مع جون وجوزيه ومع ألان روى الذى حل محل أدريانى، المعتقل، كمدير للمتحف اليونانى الرومانى، علم أن الكتل الحجرية من المحطة القديمة التى تم بناؤها فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أيام حكم الملك رمسيس الثانى فى بداية حملته على ليبيا. وقد تم العثور على كتل حجرية مشابهة فى غربانيات، بالقرب من الصحراء التى تعتبر مقر التورتيلياس والواقعة على بعد نحو عشرين ميلا إلى الشرق، وكذلك فى كرم أبو جيرج، جنوب غرب العامرية، مما يشير بدوره إلى خط من المحطات والمراكز، ربما لكل من الدفاع وللإمداد بالمياه، بطول الطريق الرئيسى الواقع إلى الشمال والنافذ إلى داخل ليبيا.

وبدا طريق المحطة أهم هذه الطرق جميعا؛ والسبب فى ذلك أنه كان يقف عند النقطة الأضيق والأكثر تحصينا بين ليبيا ومصر، يحدها البحر من أحد الجوانب ومنخفض القطارة المسدود من الناحية الأخرى، وقد أفردها الملك رمسيس لتكون أيضا أثرا يسجل انتصاراته المبكرة. وبالإضافة إلى نقش تقليدى يظهر فيه فرعون وهو يقاتل أعداءه من الليبيين ويضرب رؤوسهم، يصور نقش آخر إلهة مجهولة فى السجلات اسمها إيميت-ميت، ومعناها "السيدة التى على الطريق"، أى أنها "بشير خير للمدافعين الجدد عن مصر"[١٤]، وهو ما كتبه برينتون عندما نشر نتائجه فى مجلة **Bulletin** لجمعية الآثار فى مطلع عام ١٩٤٢. وبعد الحصول على ترخيص من هيئة الآثار، قام بإزالة الكتل الحجرية من أجل حماية حديقته فى برج العرب، وهو المكان الذى بقيت فيه إلى يومنا هذا.

وعلى هذا النحو، استقرت عائلة برينتون فى الإسكندرية وانتظرت. "وقد ازدحمت الضفة فى تلك الليلة"(ليلة الاثنين الموافق ٢٩ يونيو) على شلالات مرسا. وكان فى نيتنا أن نذهب لمشاهدة أحد الأفلام الرئيسية التى كان يلعب فيها الممثل الأمريكى جارى جرانت دور البطولة، لكننا عدلنا عن الفكرة."وفى يوم الثلاثاء وبينما كان روميل يقف بقواته عند العلمين، ذهبوا إلى الشاطئ الذى كان "شبه مهجور"[١٥].

وفى عودته إلى القاهرة مساء يوم الأربعاء الأول من شهر يوليو، وجد دوريل أن المدينة تعرضت للقصف. "كانت القطارات تنقل الأفراد بعيدا، من بينهم النساء والأطفال وهو أمر جيد أن أشعر به فعلا. وقد كانت هناك دوامة من الذعر والهلع تسرى فى الشوارع." وقد انتقل دوريل إلى مسرح العمليات برفقة صديقه دادلى أونر، قائد المجموعة الذى كان مسئولا عن الدفاعات الجوية فى القاهرة؛ وفى قاعة كبيرة تعلوها الكآبة، تم تحديد المواقع فى الصحراء الغربية على لوحة عملاقة على يد جنود الإشارة المتصلين بالجبهة. وعلى النقيض من الذعر السائر فى الأوساط المدنية بالخارج، كانت هناك حالة من الهدوء الواثق فى مقر العمليات فى تلك الساعة؛ وقد كان هذا هو اليوم الأكثر خطورة من أيام حرب الصحراء، غير أن القوات الملكية الجوية قامت بما فيها من وحدات من قوات الإعصار التى تقودها القوات اليونانية والقوات الفرنسية الحرة بإسراع حركة المغيرين من الجو، وثبت الجيش الثامن أقدامه فى العلمين. وبعد أن استنشق "نفسا عميقا وكبيرا"[١٦] انتقل دوريل ومعه أونر للخارج أثناء الليل من أجل تناول شراب.

ورغم أن معركة شهر يوليو، التى عرفت فيما بعد باسم معركة العلمين الأولى، كانت لتستمر إلى يوم ١٧، كتب روميل بالفعل خطابا إلى زوجته يقول لها فيه: "للأسف، لا تسير الأمور على النحو الذى كنت أوده، فالمقاومة شديدة وقد

أنهكت قوانا" وأضاف فى اليوم التالى "ليس من اليسير التوقف على هـذا النحـو، على بعد ستين ميلا فقط من الإسكندرية". (١٧)

وفى ٥ يوليو، ومع صوت الدبابات ونيران المدفعية فى ريـاح الـصحراء، عادت مارى دو زوغيب للعمل فى نادى القوت المتحدة فى شارع الكـورنيش فـى الحى اليونانى "الكثير من الجهد والقوات" (١٨) مع وجود ١٠ سيدات أخريات تحـت قيادة وتوجيه نورا بيل، وكنت تلحظ فى اليومين السادس والسابع فى مـذكراتها أن جميع أصدقائها الذين فروا إلى القاهرة فى بداية الشهر قـد عـادوا جميعـا إلـى الإسكندرية.

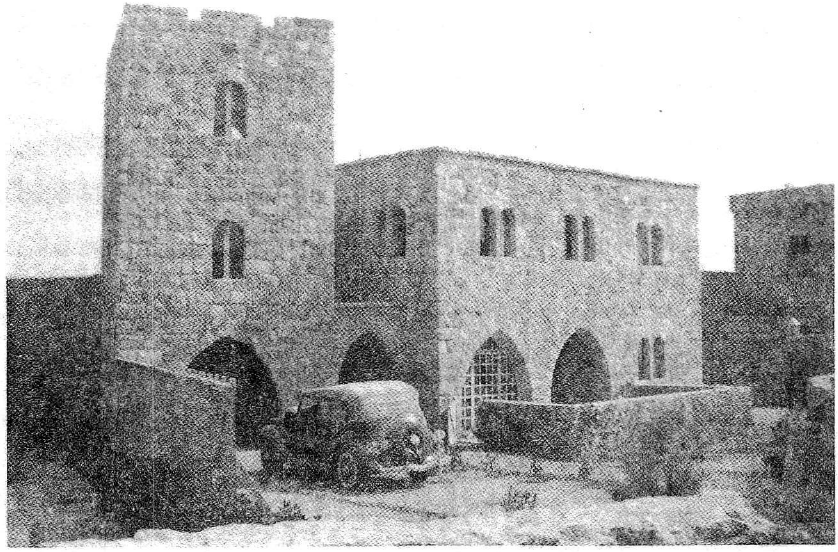

دار جيدج فى برج العرب: كان لدى عائلة برينتون مـسارات عـسكرية وقـد استمروا فى زيارة دار جيدج فى برج العرب على مدار فترة حرب الصحراء.

غير أنه مع حلول ذلك الوقت، أرسلت السفارات والوفود البريطانية والأمريكية وغيرها الكثير من رعاياها إلى خارج البلاد جوا إلى إثيوبيا، أو بحرا إلى الأجزاء الشرقية والجنوبية من أفريقيا، كما أرسلت جزءًا منهم بالسكك الحديدية إلى فلسطين. وكانت زوجة دوريل وابنته من بين من غادروا مصر في وقت الضربة على متن قطار إخلاء السكان المتجه إلى القدس.

وقد كتب لورانس دوريل في مجموعته الروائية رباعية الإسكندرية " The Alexandria Quartet" التي يتحدث فيها عن رحيل آخر إلى القدس يقول: "إنها [ميليسا] تغادر أسبوعا في ذعر، ما بين اليقظة والمنام، وأجزم أنها لن تعود. فقد ملأتني القبلة الناعمة الأكيدة والعيون البراقة إحساسا بالفراغ... ولم أشعر برحيل ميليسا فعليا إلا عندما تحرك القطار ومع تعاقب الصور البشرية الجالسة بالقرب من نافذة القطار، والجو المظلم لمحيط أسود بين يدي". (١٩)

ربما كانت الحالة المزاجية التي كان عليها دوريل وهو يودع زوجته نانسي في محطة القاهرة، هي التي دفعته إلى فعل شيء لتجنبه مدة تزيد على عام كامل، ألا وهو أن يكتب خطابا إلى هنري ميلر. وهو ما قام به بالفعل، إذ كتب له خطابا يحوي تفاصيل مثيرة عن الصورة البشعة لمصر التي خلفها في نفسه رحيل السيدتين، مضيفا أن زوجته وابنته قد رحلتا إلى فلسطين.

وأعقب ذلك في وقت ما في أواخر الصيف أن كتبت له نانسي خطابا من القدس، وكانت ماري بنتلي تعمل في قسم الدعاية والإعلان بالسفارة مع دوريل، وعندما فتح الخطاب "قالت له إنها لا تريد أن تعود إليه أبدا، لقد تحطم فؤاده ولم يستطع أن يصدق أنها تعني ذلك حقا، ورأيت الدموع تسيل من عينيه." (٢٠) وقال لماري إنه تمنى لو رآها؛ فأدارت ماري وجهها إلى خطيبها دادلي هونر، الذي

رأى أن هناك عذرا للهرب من القاذفات للقنابل باتجاه فلسطين وأخذ دوريل معـــه. إلا أن نانسى لم تتحرك مشاعرها حينما حاول زوجها إقناعها. ومرة أخرى ذهـــب ليراها، وقد استقل فى هذه المرة القطار من القاهرة، إلا أن زواجهم قد شهد حالات من التوتر لعـــدة سنـــوات من قبل، وأخبرت دوريل الآن أنها قــررت أن تـــشق طريقها بعيدا عنه.

والأمر الذى آلمه بنفس درجة انفصاله عن نانسى هو فقده ابنتـــه بينيلـــوب. وفى شهر يناير هذا، بدأ دوريل، مع صديقين تعرف عليهما فى أثينا همـــا روبـــين فيدن وبيرنارد سبينسر، فى إصدار مجلة **Personal Landscape** فى القاهرة، وهى مجلة متخصصة فى الشعر. ومن أول عدد يصدر منها فى بداية عام ١٩٤٢ وحتى العدد الثامن والأخير عام ١٩٤٥، كان المحررون الثلاثة لهذه المجلة وهـــم أيـــضًا المساهمون الرئيسيون فيها- كما قال جيفرى: "مكـــرهين لأن يتلفظـــوا بالمبـــادئ الأساسية فى عالم من التدفق والتهديد والخطر، وقد قاموا بذلك بفصاحة ووضـــوح بيان. وقد أعادت نوعية صورهم الخيالية الإحساس بحجم الآخرين الذين افتقـــروا إلى رؤيتهم الخاصة."(٢١) وفى واقع الأمر، فإنه على مدار السنوات الثلاثة من نشر مجلة **Personal Landscape** كان من النادر أن ترتبط إسهامات دوريل بأى أمـــر من أمور مصر، وقد اشتكى فى القاهرة من أنه لا يمكنه أن يكتب إلا قطعا شعرية مقتضبة وهشة كما لو كانت فقاعات بجانب هذا النيل الفاسد البطيء".(٢٢) غير أنـــه أبقى على بعض القصائد من اليونان، وفى العدد الأول من أعـــداد المجلـــة، نـــشر إحدى هذه القصائد موجها حديثه فيها إلى ابنته بينيلوب، وجاء فى هـــذه القـــصيدة الجامعة والحاوية للكثير:

نامى، عزيزتى، فلن نزعجك

ارقدى فى ساحات النوم والسبات

فالجدران الأربعة رموز للحب شيدت

لتضم الصمت الذى يفيض توًا

ويستغرق الأسى:

نامى فلم يزل الظلام مخيما (٢٣)

فى خلال الاثنى عشر شهرا التى سبقت تلك المعارك الضارية فى الصحراء وتحديدا التى وقعت فى شهرى يونيو ويوليو عام ١٩٤٢، إتسع نطاق الحرب وامتد إلى ما يتجاوز أوروبا ومنطقة البحر المتوسط. وفى ٢٢ يونيو ١٩٤١، أقدمت ألمانيا على غزو روسيا، حليفها السابق، وكانت تتجه إلى منطقة القوقاز مهددة مواقع إمدادات بريطانيا من البترول القادم من إيران والعراق. وفى هذه الأثناء، قامت اليابان يوم ٧ ديسمبر بمهاجمة الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى فى بيرل هاربور، ثم تلا ذلك أن أقدمت على غزو الفلبين، وهى أحد البلاد التى كانت الولايات المتحدة تفرض سيطرتها عليها، كما هاجمت كلا من بورما وهونج كونج ومالايا وسنغافورة وجميعها دول خاضعة للنفوذ البريطانى. وكانت اليابان تشغل تفكير الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، ولم تكن الولايات المتحدة تفكر فى الاشتراك فى الحرب الأوروبية، ولكنها شعرت بأنها قد تورطت فيها بعد أربعة أيام من مهاجمة بيرل هاربور وعندما أعلنت كل من إيطاليا وألمانيا من تلقاء نفسهما الحرب على الولايات المتحدة. ومر أحد عشر شهرا آخر قبل عبور أول جندى أمريكى للمحيط الأطلنطى ودخوله إلى ساحة القتال، حيث نزل الجنود

الأمريكيون فى الدار البيضاء فى نوفمبر ١٩٤٢، وتبع هذا الحدث حالات إنــزال من جانب القوات الأمريكية والبريطانية فى مدينة وهران والجزائر تحت غطاء من قوات مهام تابعة للأسطول الملكى تحت قيادة الأدميرال كَنينجهام، الذى تم نقله من الإسكندرية فى شهر أبريل.

فى غضون ذلك، لم يكن الصراع الدائر فى الصحراء الغربية قد حسم بعد. وقد استقرت الأمور فى مصر منذ الضربة ومع انقضاء فصل الصيف، قام الجيش الثامن والقوات الملكية الجوية بحصار روميل فى الخليج وبدأ الأســطول الملكـــى بقذف قواته بالقنابل من البحر. وقام أوشينليك قائد الجيش البريطـــانى، علـــى حـــد تعبير تشرشل: "بالتقدم للأمام فى الاتجاه المعاكس" (٢٤)، وقد بدا واضحا بالفعل من خلال بحث الأمر والتفكير فى أبعاده أنه هو من جعل الأمور تصل إلى هذا الحـــد، وأنه هو من جعل الهزيمة النهائية لروميل تصبح مـــسألة وقـــت وحـــسب. إلا أن الاتهامات المضادة حول الكارثة التى وقعت فى يونيو واليأس من تمكن بريطانيـــا من تحقيق نصر مدو أمور أدت إلى زعزعة الثقة فى القيادة العليا.

وفى مطلع شهر أغسطس، وصل تشرشل المضطرب إلى القاهرة قاطعـــا مسافة ١٠ آلاف قدم فى طائرة عسكرية قاذفة قنابل "أمريكان ليبريتـــور"، وكـــان عليه قناع الأكسجين الذى تم إعداده ليضعه على وجهه، والذى يمكنـــه أن يـــدخن السيجار. ثم أسرد قصيدة "IF" للشاعر الإنجليزى روديارد كيبلينج ليقرأها ويرسلها إلى الهند. وقد تم تعيين الجنرال السير هارولد ألكسندر، آخر الرجال الذين تركـــوا مدينة دنكرك الفرنسية عام ١٩٤٠، كقائد عام للجيش فى الشرق الأوسط، فى حين تم تعيين بيرنارد مونتجمرى، الذى كان معروفا بغلظته وفظاظته، قائـــدا للجـــيش الثامن فى الميدان. وقد لاحظ تشرشل أنه "فى حال كونه مكروها ممن هـــم تحـــت إمرته، فإنه مكروه أيضا من أعدائه." (٢٥) وبعد أن طار إلى موسكو لعقد اجتماع مع

ستالين، عاد تشرشل إلى مصر فى الأسبوع الثالث من شهر أغسطس ليقوم بزيارة للجنود فى الصحراء الغربية لرفع معنوياتهم. وبالاتصال علـــى المقـــار الرئيـــسية لمونتجمرى فى ساحل برج العرب، فقد ذهب للسباحة فى البحر المتوســـط طافيـــا على ظهره ورافعا ساقيه بتحيته الشهيرة علامة الانتصار على شكل V.

وبحلول شهر أغسطس، عاد أسطول البحر المتوسط إلى الإسكندرية تحـــت قيادة خلف كنينجهام الأدميرال السير هنرى هاروود، الذى استمر فى الاستجمام فى فيلته الأنيقة الواقعة فى لاورينس خلف سان ستيفانو فى محطة الرمـــل. وفـــى ٢٨ أغسطس، أفادت تقارير لصحيفة "ذا إجيبشيان جازيت" بأن وزير الدولة ريتـــشارد كاسى، [٢٦] "قد أصيب بوعكة صحية، وأنه يتعـــافى الآن ويـــستعيد صـــحته فـــى الإسكندرية". وقد قام هاروود فى المساء السابق بـــدعوة كاســـى وزوجتـــه علـــى العشاء، وقد دارت المحادثة حول بعض الرسومات وهو الموضوع الـــذى رغـــب الضيوف الآخرون فى التحدث فيه. وفى اليوم الثامن عشر، استمرت حالة التـــوتر سائدة بينما حل هاروود، وهو يرتدى زيا أبيض، وكاسى مرتديا ملابس أنيقة غيـــر رسمية وسترة فضفاضة مزدوجة الصدر، ضيوفا على جيدج وجنيفا برينتون فـــى منزلهم الكائن بجليمنوبولو القريبة.

غير أنه كان هناك هدف ملح من وراء الدعوة إلى هـــذه المأدبـــة وهـــو أن الاستخبارات البريطانية قد تمكنت من فك شفرات روميل، وتبين لها أنه سيعمد فى أى يوم من الأيام الحالية إلى القيام بمحاولة أخرى للمضى قدمًا إلى الأمـــام، مـــع إمهال كاسى وهاروود ساعات قليلة لتقرير ما إذا كـــان علـــيهم الاســـتيلاء علـــى الأسطول الفرنسى فى المرفأ الغربى أم لا. ونظرا لكونه أحد المقيمين المهمين فى المدينة ونظرا لكونه فارسًا فى جوقة الشرف، فقد طلب البريطانيون مـــن جيـــدج برينتون أن يقوم بالمهمة المعقدة والسرية المتمثلة فى استيضاح موقف الأدميـــرال

جودفرى. ولذلك قام برينتون بدعوة جودفرى إلى منزله، وكان تقريره عــن هــذا الاجتماع هو ما علم به كل من هاروود وكاسى.

وقد أخبرهم جيدج برينتون أنه وجد الأدميرال جودفرى سيدًا هادئ الطبــع ودمث الخلق ورفيع القدر ومعه زوجة بريطانية ويحظى بتعاطف البريطانيين، وقد آلمه شعوره بكونه منبوذا من جانب أهل الإسكندرية، لكنه لم يكن أبدا واضحا فــى مهمته كقائد للأسطول. وقد كانت السفن تابعة لفرنسا، وكان خادما لحكومة فيتــشى التى كان مستعدا تجاهها وحدها أن يقدم كشف حساب. وقد أخبر برينتون أنه لــن يقبل عزل الأسطول إلا بعد الحصول على إذن من جانب حكومة فيتشى، وأنه لــن يستسلم حتى ولو طلب منه ذلك، وأنه فى حال تعرض الأسطول لأى هجوم من أى مصدر ولم يستطع أن يقاومه، فإنه سيقوم بإغراق سفنه. كما قام جــودفرى أيــضا بتسليم وثيقة مطولة وقائمة على أسباب منطقية جاء فيها: "قائد الاتصال بــأدميرال القوات العاشرة. وورد فيها: "الفرنسيون لا يمكن أن يتمتعوا بكيــان إلا إذا كــانوا تحت إمرة إحدى الحكومات، حتى ولو كانوا لا يقبلونها".

وبأسلوب ينم عن دهاء ومكر، صوَّر مأزق المــواطن الفرنــسى لــضيوفه بتعبيرات القانون البريطانى قائلا: "أعادت لغة جودفرى إلى الأذهان تلــك اللغــة الخاصة بالمتحدث باسم مجلس العموم البريطانى فى معرض إجابته عــن ســؤال وجه إليه عام ١٦٤٢، إبان اندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية، حول أمــاكن وجــود العديد من أعضاء البرلمان ممن طلب الملك إلقاء القبض عليهم، حيث قال: "أنــا لا أرى ولا أتكلم هنا بلسان إلا على النحو الذى يرغب المجلس فى توجيهى إليه".

وقد تم إبلاغهم بجميع هذه الأمور أثناء تناول الغداء، وقد قــرر كــل مــن ريتشارد كاسى والأدميرال هاروود أن يتركا القوة العاشرة وشأنها.[٢٧]

كان ذلك الصيف بمثابة فرصة لالتقاط الأنفاس. ومع تحول موارد ريتش على نحو متزايد باتجاه تقدمها في مدينة ستالينجراد (المعروفة اليوم باسم فولجوجراد)، بقي روميل مقيدا بخط إمداده الضئيل الذي كان يمتد لمسافة ألف ميل باتجاه الغرب عبر الصحراء. وفي غضون ذلك، كانت القوافل البريطانية تجوب أرجاء قارة إفريقيا وتقوم بتفريغ المخزونات والمدفعية والذخيرة وكذا الأفراد في السويس من أجل نقلهم إلى الجبهة. كان روميل على علم بالخطر الوشيك الذي يهدده، وفي ٣٠ أغسطس، كتب لزوجته يقول: "وأخيرا، اتضح الأمر اليوم... لدينا صور عجز خطيرة في الإمدادات، إلا أنني قبلت المخاطر، حيث سيمر وقت طويل حتى نحصل على ظروف ملائمة من ضوء القمر والقوات ذات الصلة مرة أخرى... وإذا ما أفلحت ضربتنا، فربما تبلغ مبلغا كبيرا إلى الحد الذي يجعلها تقرر مسار الحرب بالكامل."[٢٨]

وبالفعل بادر روميل بالهجوم تلك الليلة، لكن مونتجمري كان على أهبة الاستعداد. وفي اليوم الرابع من معركة "علم حلفا"، التي سميت على اسم سلسلة تلال واقعة شرق العلمين، تم وقف زحف الألمان مرة أخرى، مما سمح بدوره لاستمرار مونتجمري في تشكيل الجيش الثامن. وقد تلقى في هذا الشأن مساعدة الساحر الشهير جاسبر ماسكليني، الذي شغل دار السحر الشهيرة، التي يمتلكها جده، القاعة المصرية في بيكاديلي خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر. وقد سمى دوريل باسمه أحدى شخصيات عمله رباعية الإسكندرية أو "**Alexandria Quartet**".

وكان الساحر جاسبر ماسكليني مشهورًا بفعل السباحة في الهواء قبل الحرب العالمية الثانية، وفيه بدا وكأنه يجعل جسم إحدى السيدات المنومات تنويما مغناطيسيا يطفو في الهواء فوق رؤوس المشاهدين، ثم يجعلها تختفي في الهواء.

وكان من أولى المهام التى اضطلع بها، عندما أُرسل إلى مصر مع الفيلق الملكى للتمويه من المهندسين فى عام ١٩٤١، هو حماية شحن حيوى للدبابات التى كان من المقرر وصولها إلى المرفأ الغربى للإسكندرية، وقد نجح على مدى ثلاث ليال فى توجيه قاذفات القنابل الألمانية إلى وجهة خاطئة متمثلة فى مرفأ زائف فى بحيرة مريوط، وفيه أشارت الانفجارات الزائفة إلى أن الأهداف كانت تتعرض للضرب. والآن وفى أثناء الإعداد لمعركة العلمين الثانية، أعطى البريطانيون إيحاءً بتجمع جيش كبير فى هدوء فى الطرف الجنوبى من خط العلمين من أجل خداع الألمان وحملهم على أن يظنوا أن ثمة هجومًا من شأنه أن يأتى من ذلك الجزء فى وقت ما من شهر نوفمبر. وفى تلك الأثناء، جاء التعزيز الفعلى والأكثر سرعة فى الطرف الشمالى من الخط، مدعوما بأساليب ماسكلينى الخاصة بإخفاء الدبابات على أنها شاحنات، وفيه ركز مونتجمرى غالبية الجيش الثامن وقوامه ألف دبابة وألفا بندقية و٢٢٠ ألف مقاتل لشن هجوم، وهو الهجوم الذى فاجأ رومل بالكلية عندما قام مونتجمرى بشنه فى شهر أكتوبر.

ولم يكن الأمر يتمثل فى أن شخصية ماسكلينى التى أبدعها دوريل تحمل أى صور شبه مع المشعوذ جاسبر ماسكلينى، بل إن "فعل ما يفعله هذا المشعوذ" هو ما أصبح يضرب به المثل بين أهل الإسكندرية. وقد حملت الحلقة الغريبة للاسم روابط يمكن لدوريل أن يطورها فى رؤيته عن المدينة. وكما كان جاسبر نفسه يحب أن يتحدث عن هذه القصة، فإنه قد ورث اسمه وما يتمتع به من مهارات الخداع من فارس نورمندى حضر إلى إنجلترا فى معركة هاستينجز كجاسوس لوليام الفاتح، ثم تمت مكافأته بعد ذلك بالحصول على مقاطعة ويلتشاير وأصبح يحمل اسم ماسكليني**Maskelyne**، الذى يعنى التنكر أو القناع باللغة الفرنسية القديمة. وقد وجد جاسبر مصدر إلهام جديدا فى اسم عائلته بعد الحرب

عندما طور من أدائه بتكوينه فريقا مع فنانة تتجرد من ملابسها على المسرح، وكونا فريقا يحمل اسم ماسكليني وفيمينين. ومن شأن الخداع ونقل الهويات أن يكونا ملمحا من ملامح رباعية الإسكندرية لدوريل، إلى جانب التحول في أنواع الجنس أيضا.

كان هذا هو طبيعة الموقف في شهر أكتوبر ١٩٤٢ عندما انتقل دوريل إلى الإسكندرية وتحمل مسئولية مكتب الاستخبارات البريطانية بالمدينة، رغم أنه عبر عن ظنونه في ذلك الوقت بقوله "عندما قدمت إلى هنا، لم يكن هناك سبب لافتراض أنه من الممكن أن تنتهي الحرب أبدا، وأنه يجب على أن أترك مصر أبدا". (٢٩)

وقد نزل دوريل في غرفة في فندق سيسل تطل على المرفأ الغربي. وقد شعر عند وصوله إلى المدينة بعد عودته من القاهرة بالفضاء الرحب أزرق اللون للبحر المتوسط وما يحمل من إمكانية الاتصال بأوروبا في اتجاه البحر (وهو الشعور الذي ينتاب الزوار اليوم للإسكندرية حتى يومنا هذا). وكما كتب دوريل بعد ذلك في "الرباعية" "بدا كل شيء يفوح برائحة جيدة من جديد"(٣٠)، وجعل امتداد الكورنيش، المتلألئ بالأضواء في المساء، الإسكندرية تبدو وكأنها "ناقلة بلورية الشكل... ترسو على القرن الأفريقي." (٣١) إلا أن المدينة التي بدت بالنسبة له "ذات طابع يوناني مدو" (٣٢) كانت أيضا بمثابة تذكرة بكل ما فقد وخسر، وعند نظره إلى المشهد الخارجي عبر المرفأ من شرفة غرفته بالفندق، يقول: "فكرت مليا في المنفى بوجه عام وفي منفاي بوجه خاص". (٣٣)

وكان شعور الفقدان الذي يطلق عليه اليونانيون اسم الحنين إلى الوطن **nostalgia** (من كلمتين يونانيتين إحداهما تعني العودة إلى المنزل والأخرى تعني الألم)، شعورًا يألفه دوريل ويعتاد عليه، بل ويمتد إلى أصل تكوينه. وقد التقى

بنانسى فى بلومسبيرى عام ١٩٣٢ حيث كانت تعمل رسامة فـــى مدرســـة سـلِيد للفنون الجميلة، وكانت فتاة نحيلة القوام شقراء اللون يعلوها جمال نائم، وهى أطول من دوريل حيث يبلغ طولها خمسة أقدام فاصل ثمانية فى حين يبلغ طول دوريــل خمسة أقدام فاصل اثنين. وكان أول ما تذكره عنه هو أنه "شخص حــزين ودمــث الخلق، وقصير جدا وفاتن. كما أنه أيضا لطيف جدا وتعس جدا"، وتذكرتــه وهــو يقول عن نشأته، "حتى أفضل المدارس يمكن أن نقول عنها إنها دار للأيتام لو لــم يتوافر بها حياة وطن يمكن المقارنة على أساسها." (٣٤)

وقد أصدر فى العام السابق، وهو فى عمر ١٩ عاما، مجموعته الأولى مـــن القصائد التى تم طبعها طباعة خاصة تحت عنوان **Quaint Fragment**، وعنوانــه ذاته يشير إلى وصف غريب لنفسه مثلما هو الحال بالنسبة لشعره. وفـــى إحــدى قصائد هذه المجموعة والتى تحمل عنـــوان **A Dedication ("To My Mother")** "إهداء ("إلى أمي")، أوضح كيف أنه صاغ قصائده "من ذكريات ساعات خـــوالٍ / عندما عشت لحظات الوداع وسحقت أصل / الحزن الواعى الذى يستنزف الحيوية / للشباب المنهك"، واختتم القصيدة بقوله: "كل ما أريده وأرغبه / هو أن أعيش هذه السنوات القليلة جميعا فى وحدة /... / كل واحدة منها يبدو وكأنه ســحر صـــغير يخصك". (٣٥)

وتلا ذلك أن رفع الأمر إلى مستوى ميتافيزيقى فى مذكرة بتـــاريخ ١٩٣٨، حيث كتب يقول فى لحظة الميلاد، يفقد الفرد جزءًا من الوعى، وأن "حيـــاة الفـــرد بالكامل عبارة عن بحث عن هذا الجزء المفقود" عبر "عالم من المرايا." وفى نفس

الدليل، رسم أيضا خريطة ذات رسم تخطيطى لبلومسبيرى مكتوبًا عليها: "خطة لكتاب الموتى".(٣٦)

عادت به "الساعات الخوالي" إلى بداية فترة طفولته فى الهند، التى ولد فيها دوريل فى مدينة جولندور فى ولاية بنجاب فى ٢٧ فبراير عام ١٩١٢.. كان والده السيد لورانس صموئيل دوريل، الذى عمل مهندسًا مدنيًا فى السكك الحديدية، ابنًا غير شرعى لأحد المزارعين فى مدينة صافولك. وبعد أن تم إدراجه فى قائمة قوات الجيش، تم إرساله إلى الهند فى عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر. وكان بإمكان والدة دوريل- السيدة لويزا ديكسى، التى كان أهلها جنودًا ومهندسين أيضا- أن تتبع مدى حضور عائلتها فى الهند إلى مقدار جيل بالكامل، وقد كان أهلها من البروتستانت الذين رحلوا عن مقاطعة كورك فى وقت سابق لعام ١٨٤٥.

وخلال السنوات الثمانية التى تلت ميلاد دوريل، تنقلت الأسرة من مشروع للسكك الحديدية إلى آخر باتساع نطاق النفوذ البريطانى، من مدينة جولندور إلى عزلة مدينة أركان بدولة بورما (ميانمار حاليا) فى الجانب الأقصى من خليج البنغال، ومن مدينة مينسينغ فى سهول نهر الجانجز لأعلى وصولا إلى كيرسيونج فى منطقة الغابات الواقعة إلى أسفل مدينة دارجيلينج. وقد أدى كل من حالة العزلة وسوء أحوال الطقس إلى ارتفاع معدلات الوفيات ونسب المصابين بالأمراض وحالات القلق فى مدينة مينسينغ، فنجد أنه عندما بلغ دوريل عامه الرابع، توفيت أخته من جراء الإصابة بمرض الديفتيريا. ثم تلا ذلك فى عام ١٩٢٠ أن استقال السيد لورانس صموئيل من منصبه كمهندس تنفيذى فى مشروع السكك الحديدية ما بين مدينة دارجيلينج وجبال الهيمالايا، وأخذ عائلته (التى زاد عددها فى تلك الأثناء لتشمل ابنا آخر اسمه ليسلى وبنتا أخرى اسمها مارجو، ولم يولد جيرى إلا عام

١٩٢٥) وسار بهم إلى قرية ساكتشى التى تشهد إعداد موقع صناعى فى غابات منطقة بيهار.

ونظرا لكونه رجلا طموحا وغير عادى يتمتع بقدرات عالية، فقد أسس شركة للهندسة والإنشاء، تحت اسم دوريل آند كومبانى، بدعم ومساندة السيخيين الأثرياء، وحصل على عقد بناء مصنع للصفيح المعدنى المقصدر ومصنع لعمل الطوب إلى جانب مبنى إدارى ومستشفى وكذلك ما يزيد على ٤٠٠ منزل للعاملين لكل منه حديقته الخاصة، وقام بنقل أعمال شركة تاتا للحديد والصلب إلى مدينة جامشيدبور النموذجية. ولم يكن معروفا على الإطلاق أمر الإجحاف الدينى والمحاباة الطبقية فى مدينة جامشيدبور، وقد تمتع العاملون، الذين قاموا بإدارة صحفهم بقدر أكبر من الحرية فى التعبير عن الرأى عن مقار العمل فى أى مكان آخر فى الهند. وقد ظل هذا الأمر، إلى جانب ما تحظى به من "سكن ملائم ومستشفى وغيرها"، فى جعل مدينة جامشيدبور ذات طبيعة خاصة حتى حصولها على الاستقلال بعدها بمقدار ٢٥ سنة، عندما وصفت مارجريت بورك-وايت، الصحفية والمصورة البارزة فى صحيفة لايف، المدينة بأنها "تتقدم كثيرا على أى مركز صناعى قمت بزيارته فى الهند".(٣٧)

ورغم أن لورانس صموئيل كان يشتهر بين الأصدقاء والأقارب بدفء مشاعره وطبيعته المحبة للمرح والمزاح، فإنه بدا بالنسبة لدوريل شخصًا خجولاً غير ودى، وقد شعر بالوحدة والعجز والوهن فى ظل الطبيعة غير الملائمة وغير المناسبة التى عليها علاقتهما. وقد رفض فى بعض الأوقات بمزيد من الاحتقار والازدراء ما ظنه إيمانا من والده بالتقدم المادى والاجتماعى، "الجهل المريع لبانى الإمبراطورية، والطبيعة الغيرية والحمق المطبق الذى عليه "روح الفريق"".(٣٨) إلا أنه أقر على الرغم من ذلك أنه ورث عن والده "حب النظام والإحساس

بالمسئولية"، غير أنه أخذ عن والدته، التي كان يجلها عظيم الإجلال، ما لديه من "كسل وعدم التزام بالقواعد والنظم الموضوعة"، [٣٩] وما يحمل من ملامح "صغر وقصر"؛ فقد أفسدت طباعه كثيرا؛ أو هكذا يقول هو عنها، مضيفا: أنه كان بإمكانه دوما أن يحصل على ما يريد منها، رغم أنه كان يستاء كثيرا من الاهتمام الأكبر الذي توليه أمه لابنها ليزلي الأصغر سنا والأقل قدرة والأكثر تعرضا للإصابة بالمرض.

وفي عام ١٩٢١، عندما بلغ دوريل ٩ سنوات، قرر والده أن يتلقى تعليمه النظامي- فالتعليم الذى تلقاه فى المنزل كان على يد مربية أيرلندية كاثوليكية- لذا فقد كان يمضى فى رحلة يومية على طول خط السكك الحديدية من أمام منطقة كيرسيونج إلى كلية سان جوزيف فى مدينة دارجيلينج، حيث يتذكرها غالبا، "مساكن فقيرة تبدو وتمر عبر الوديان باتجاه إقليم التبت. وكان رفاقنا فيها جرفًا صخريًا كبيرًا من الجبال الشهيرة[٤٠]. "غير أن فضوله قد توقف عند هذا الحد، يقول فى هذا الشأن: "لا أعرف شيئا عن التبت، رغم أننى ألتقى من حين لآخر برهبان بوذيين كرام كبار السن يزرعون الطريق العام إلى التلال وهم يلفلفون عجلات الصلاة الخاصة بهم. فلم يكن إقليم التبت "رومانسيا"- كما لم يكن ممتعا. فقد كانت أفريقيا (السمراء) – أو قل مصر – هى الدولة الرومانسية (ستانلى ورايدر هاجارد وغيرهم)."[٤١]

أما بالنسبة للهند، فقد كان دوريل منعزلا عن حياته الأصلية التى تحتشد فيها إلى ما يتجاوز القيم والمبادئ المحلية للسيادة البريطانية، كما أنه بالتأكيد لم يكن أحد شخصيات رواية **Kim** لجوزيف روديارد كيبلينج؛ بل كان بمثابة الإطار السحرى لما أطلق عليه اسم "التعطل التام"[٤٢] لطفولته، بل والأكثر من ذلك فى العالم المحيط به الذى شكل منزله: "كانت حياتنا فى الهند حياة استعمارية؛ إى أنها

كانت ذات توجه عائلى فى الغالب".[٤٣] إلا أنه بعد مرور عامين على الدراسة فى سانت جوزيف كوليدج، قرر والده ضرورة إعادته هو وأخوه ليزلى "إلى إنجلترا"، إذ إنه أيقن أن التقدم المهنى يحققه الأفراد الذين يحصلون على "الصفة الرسمية"[٤٤] – على حد تعبيره – فى أحدى المدارس العامة التى تعقبها الدراسة فى الجامعة. ولم تطأ قدم والده أو والدته إنجلترا من قبل؛ إلا أنه كما أوضح دوريل، فقد كانت إنجلترا بالنسبة للإنجليزيين من أصل هندى بمثابة "وطن" حافل على نحو يفوق الوصف؛ "ولم يكن بإمكان الإسرائيليين أن يعلقوا قيثارة أكبر على صوتها على نحو يفوق البريطانيين"[٤٥] وعلى الرغم من ذلك، فطبقا لدوريل، "كانت أمى تعارض الفكرة بقولها إننى صغير جدا وإنه لمن القسوة أن ترسلنى بعيدا. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أشاهد فيها مناقشة محتدمة بالفعل داخل المنزل؛ لكنها سرت فى إطار من الهدوء والتعقل. وكانت رؤية أمى وهى تصرخ ضربة موجعة فعلا."[٤٦] إلا أن هذا الأمر هو ما لام عليه أمه كثيرا لأنها لم تسمح له بالسفر ولم ينسها ذلك، وتمثل هذا اللوم فى صور كثيرة منها قصيدته التى تحمل عنوان "ساعات خوال".[٤٧]

كان دوريل قد بلغ السادسة عشر وهو يدرس فى مدرسة سان إدموند فى كانتربيرى. فى أبريل ١٩٢٨، سلم ناظر المدرسة برقية من الهند إلى دوريل، بعد ستة أيام من رقدة والده بالمستشفى وهو يعانى من ورم فى المخ وقد توفى إثر نزيف بالمخ، والده ما زال صغير السن فهو يبلغ نحو ٤٣ سنة عندها أحس دوريل بدوار شديد، ولكن كل ما شعر به كان إحساسه بالذنب لأنه لم يكن قادرا على الصراخ. وفى غضون شهرين كانت لويزا دوريل قد رحلت عن الهند وجاءت إلى إنجلترا لتعيش مع ابنها هناك الذى هجر الدراسة فى تلك الأثناء ولم شمله مع أسرته.

وكان دخل دوريل ونانسى بسيطا وبعد أن تزوجا فى عام ١٩٣٥، تركا إنجلترا ورحلا إلى مدينة كورفو اليونانية، رغم أن هذا لم يحدث إلا بعد أن ضمن دوريل توفير الاحتياجات الأساسية، وأقنع والدته أن تتبعهما إلى هناك مع باقى

أفراد الأسرة. وقد أعجبهم الطقس الجيد للجزيرة وتكلفة المعيشة المنخفضة بها، فكانت الفكرة تتمثل فى أن تزاول نانسى فن الرسم وأن يقوم دوريل بمزاولة الكتابة، فى حين تحاول الأسرة الحفاظ على ما تبقى من أموال خلفها والد دوريل. يقول عن ذلك: "ترانا فى كورفو قد أعدنا تشكيل الفترة التى عشناها فى الهند والتى افتقدناها جميعا. وقد تفجرت الجزيرة وأصبحت مفعمة بالنشاط والحركة لحياتنا، ذلك لأن الفرد منا يعيش بالفعل عاريا تحت الشمس." (٤٨)

وقد استعاد دوريل بعد ذلك بسنوات الاعتقاد السائد فى الشرق بأن كل فرد لديه محلا ميلاد: الأول مكان ولد فيه بالفعل والآخر يستهويه ويميل إليه قلبه، "وهو المكان الذى تستيقظ فيه بالفعل على الواقع المحيط... والذى ينعشك ويثرى حياتك". (٤٩) كان هذا المكان بالنسبة لدوريل هو ضريح القديس أرسينيوس الواقع بالساحل الشمالى الشرقى البعيد لجزيرة كورفو، الذى وجد فيه أحد الصيادين أيقونة القديس وقد غسلت بعد تعرضها لعاصفة وقام ببناء ضريح صغير يضيئه مصباح يشغل بزيت زيتون مقدم كنذر فى صخرة تعلو البحر. وبالنسبة لدوريل، كانت الحياة مع نانسى فى قرية كالماى الصغيرة هى "المكان الذى ولدت فيه من جديد"(٥٠). وهى المكان الذى يسبحون فيه كل صباح فى حمام سباحة للمياه المالحة الأيونية وهم متجردون من ملابسهم، كما أنها المكان الذى انتهى فيه من كتابة **"The Black Book"** (الكتاب الأسود) وشعر بحق أنه أصبح كاتبا. "لن أنسى أبدا ما حييت فترة الشباب التى قضيتها هناك والتى اكتشفتها بالصدفة... فالشباب يعنى السعادة ويعنى الحب، وهو الأمر الذى يسرك ولا يمكنك أن تقاومه." (٥١)

غير أنه فى سبتمبر من عام ١٩٣٩ ومع اندلاع الحرب، وقف كل من دوريل ونانسى فى شرفة منزلهما المطلى باللون الأبيض فى قرية كالماى وهما ينظران للخارج عبر المضايق إلى ألبانيا التى يحتلها الإيطاليون؛ وبعد أن قررا أن

ينتقلا إلى أثينا لكى ينعما بالأمان هناك، قاما بجمع ما بالمنزل من كتب وأوراق وتفريغ محتويات الدواليب وقاما أيضا بتعبئة الملابس. ووقعت الحرب "كأنها حالة انفصال عظيم"، وشعر دوريل "أنه منفطر القلب، واجم... وبدا الأمر بالنسبة لنا وكأن نهاية العالم قد اقتربت فى أثناء وقوفنا فى شرفتنا التى تطل على البحر". (٥٢)

وبالنسبة للأديب إ. م فورستر، كانت الهند بمثابة ذلك العالم المكتشف حديثا، العالم الذى أثرى خياله وحبه؛ بينما كانت بالنسبة لدوريل إحساسًا بالحنين لأيام الصبا، لكن لم يشعر بأى حنين نحو الهند، ولم تمثل مصدر إلهام لأى من قصائده أو رواياته،(٥٣) أو كتب السفر الخاصة به، وإنما وجد هذا الإلهام فى اليونان. وعن ذلك يقول: "لقد أثرت اليونان، القديمة والحديثة، فى نفسى كثيرا. وقد عبرت عنها فى قصائدى... لذا عليك أن تقدر اليونان أولا قبل أن تتمكن من فهمى." (٥٤)

وبعد أيام قليلة من الإقامة فى فندق سيسيل، انتقل دوريل مع صديق له يدعى جوين ويليامز إلى محطة الرمل، وكانت فيلا جوين ويليامز تقع فى منطقة يطلق عليها فى ذلك الوقت اسم رشدى فى شارع سردار فى "تل السفارة" وهو التل المعروف بالنسبة لفورستر باسم أبو النواطير الذى قدم للإقامة به مع فيرنيس عام ١٩١٦. ومنذ ذلك الحين أطلق عليه اسم دار المندوب السامي؛ لكونه مقر إقامة المندوبين السامين. وكان منذ عام ١٩٣٦ مقر إقامة السفير السير مايلز لامبسون، عندما كان الملك ينتقل وحكومته، وبعدهم السلك الدبلوماسى بالكامل، إلى الإسكندرية خلال شهور الصيف. وبدلا من البندقية التى وجدها فورستر ملقاة على الرمال، وكانت من بقايا حرب عام ١٨٨٢، كانت هناك دبابة مضادة للطائرات فى مكان قريب من هنا. وربما كانت هذه الفيلا هى نفس الفيلا التى أقام بها فورستر من قبل لمدة ٢٦ عاما تقريبا، ذلك أن جوين ويليامز كان يدين بانتقاله إلى

الإسكندرية إلى روبين فيرنس، الذى كان حتى عهد قريب يعمل أستاذا فى جامعة فؤاد بالقاهرة، وكان يعمل بها ويليامز محاضرا منذ عام ١٩٣٠.

وقد وصل جوين ويليامز إلى الإسكندرية قبل وصول دوريل إليها بشهر واحد، وكان عمره وقتها ٣٨ عاما، وبعد إلحاح من روبين فيرنس، قبل تولى منصب أول رئيس لقسم اللغة الإنجليزية فى جامعة فاروق (المعروفة الآن باسم جامعة الإسكندرية) حديثة التأسيس. وقد ساءت العلاقة الزوجية بين دوريل وزوجته فى القاهرة، ويقول "عندما قالت زوجتى: إنها لا تنوى القدوم معى، فبعد الصدمة الأولى وجدت أن هذا الأمر ناسبنى كثيرا".(٥٥) وكان هناك مكان جيد للسباحة فى موقع قريب فى خليج ستانلى، فى حين كان بإمكان ويليامز أن يمارس لعبة التنس مع فليكس كارفر وبوبى بيل فى نادى سبورتينج الواقع على بعد خطوات قليلة، إلى جانب ذلك، لم يكن يفصله عن مقر قسم اللغة الإنجليزية إلا القليل من محطات الترام باتجاه المدينة فى الشاطبى، وهكذا كان الموقع مناسبا وملائما له تماما مثلما كان غياب زوجته.

"كان ذلك مناسبا لدوريل لفترة من الزمان أيضا، كان ينتقل كل يوم مستقلا الترام المتحرك فى عنف والمحدث لارتجاجات فى رحلة طولها أربعة أميال بالترام"(٥٦) من محطة مصطفى باشا – مرورا بكل من سيدى جابر وكليوباترا ونادى سبورتينج والإبراهيمية ومعسكر سيزار والشاطبى وشاطئ الشاطبى ومزاريتا – وصولا إلى محطة الرمل، ومنه يمشى مسافة قصيرة وصولا إلى مكتب الاستعلامات البريطانية فى واحد (رقم ٢ فى الوقت الحالي)، شارع طوسون باشا على جانب شارع شريف باشا فى قلب الإسكندرية. وكان المكتب يشغل ثلاث غرف متصل بعضها ببعض بالطابق الأول، فوق الطابق المتوسط (المسروق) مباشرة. وكانت جدران المكتب مغطاة بملصقات معادية للألمان مكتوبة بالعديد من

اللغات، وكانت نوافذه تطل على بنك روما السابق الواقع بالركن المقابل. وكان منزل بودروت **Maison Baudrot** يقع على بعد خطوات قليلة فى موضع يلتقى فيه شارع شريف باشا بشارع فؤاد أمام نادى محمد على، وما يحويه من غرفة للشاى ومطعم وبار أمريكى "يتلألأ بالأضواء ويصدح بالموسيقى"،(٥٧) على حد وصف دوريل له، وكانت تديره السيدة أريانه بودروت التى تدخن السيجار، والتى كان حديثها يدور حول الأيام السابقة للحرب عندما كانت تغطى أكتافها بتسعة فراءات ثعالب من ماركة سيستوفاريس، وهى أكثر أنواع الفراءات أناقةً، كما كانت تتمتع بحضور طاغ فى حفلات فاينى.

الشاطئ فى نادى سبورتينج، فى الفترة الواقعة بين إلقاء القنبلتين، كان أهل الإسكندرية لا يزالون يتدفقون على الشواطئ بطول ساحل البحر المتوسط الذى تطل عليه المدينة.

وقد أدى انتشار المقاهى والبارات فى المدينة إلى جعل مكتب الاستعلامات بمثابة "استراحة منعشة" لجوين ويليامز، الذى أشار إلى "سهولة القدرة على الاختيار والاحتفاظ بطاقم عمل كفء وسار"، يتألف من السيدة مارجورى فيلبوت، كسكرتيرة له والآنسة باتيس للبحوث الصحفية وكذلك السيد ميلتو أكسيلوس، موزعه ومستشاره للغة العربية. وقد انهمك دوريل فى عمله، وكان عمله يقوم على ضمان تطعيم الصحف المحلية، الصادرة باللغات الإنجليزية والفرنسية واليونانية والأرمينية وكذلك العربية، بأخبار إيجابية ومبشرة، وكثيرا ما كان يكتب النسخ بنفسه. وقد أشار ثيودور ستيفانيدز، الذى سرعان ما تم نقله إلى مستشفى عسكرى فى العامرية، وهى مدينة تأثر الجو العام فيها كثيرا بالسكان اليونانيين العديدين الذين أقاموا بها، إلى أن "لورانس دوريل الآن يقوم بعمل ما هو متمكن منه وما يروقه."مضيفا "إنه الآن رئيس نفسه كما أن لديه القدرة على استغلال معرفته باليونانية خير استغلال."(٥٨) إلا أن زوجة ميلتو أكسيلوس، السيدة سيلين، التى كانت شاعرة ووهبها الله شعرا طويلا كثيفا ذا لون ذهبى وفما صغيرًا وجميلا وعينين ساحرتين ووصفها دوريل بأنها "امرأة فاتنة"(٥٩)، أشارت إليه بأنه "قلما يفيق من سكره وهو فتى جميل المنظر لا مال له".(٦٠)

وفى تمام الساعة العاشرة فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢، ضرب سماء الإسكندرية إعصار صاخب قوامه ألف مدفع فى الصحراء الغربية أثناء إطلاق مونتجمرى لوابل نيران مدفعيته، واستمر الجيش الثامن فى الهجوم فى معركة العلمين الثانية. ومع إشراق شمس يوم السبت، تحرك السير مايلز لامبسون أسفل الطريق الصحراوى من القاهرة، مارا بتجمعات الدبابات المتجهة ناحية الغرب، فى حين "امتلأ الجو حولنا بالفعل بالطائرات. إننى لم أر فى حياتى من قبل مثل هذا العدد من الطائرات... كما رافقت قاذفات القنابل أعداد لا حصر لها من المقاتلين... يتحركون

فى جميع الاتجاهات فى أغلب الأوقات"، فى حين كان البحر قبالة منطقة المكس يعج بقذائف ذاتية الإطلاق ومركبات سقوط الدبابات العائدة من مهامها الليلية. وقد اتجه السير مايلز لامبسون بعد الغداء فى مقر المندوب السامى إلى الشاطئ فى خليج ستانلى، وهو المكان الذى "أمكنه فيه أن يسمع دوى المدافع بصورة بالغة الوضوح فى أغلب الأوقات. وبعد العشاء أصبح هذا الوابل يشكل صخبا لا ينقطع، وصعدت إلى السقف قبل أن آوى إلى فراشى وكان بإمكاننا أن نرى الوميض باديا بوضوح على السحب المنخفضة، الأمر الذى يعد بالغ الإثارة."(٦١)

ومع تحول القمر فى المدينة من حالة البدر فى التمام إلى حالة الهلال على مدار المعركة التى دامت لمدة اثنى عشر يوما، كان أهل الإسكندرية يقفون كل ليلة فى شُرفهم وهم يدخنون ويتجاذبون أطراف الحديث، ويلوح بعضهم إلى بعض عبر الشوارع الضيقة ويتبادلون حركات للوجوه تنم عن أمل واستكانة، مع توجيه بصرهم فى معظم الأوقات إلى الأفق الغربى، حيث تقرر أقدارهم أسفل هالة فظيعة من الضياء. وكان أهل الإسكندرية فى كل ليلة يديرون مؤشرات أجهزة الراديو الخاصة بهم فى حضور جمع غريب من عشرات الآلاف من كل من الجنود البريطانيين والألمان فى الخارج فى الصحراء، حتى يتحدث المذيع ويتحدث بعض العبارات باللغة الألمانية ويتحدث عن بلجراد، وبمجرد أن يتفوه المذيع بتلك الكلمة السحرية، يلوذ الجميع إلى الصمت وينتظرون. ومنذ عام ١٩٤١، عندما استولى الألمان على أجهزة الإرسال هناك، كان راديو بلجراد يذيع النوع المألوف من رسائل الأسرة الموجهة إلى القوات الألمانية المجمعة من القناة الإنجليزية إلى الجبهة الروسية وإلى صحارى شمال أفريقيا، وكان البرنامج ينتهى دوما بتلك اللحظة الجميلة المهيبة عندما تشدو المطربة لالى أندرسون بالنسخة الأصلية وليست المصطنعة من الأغنية العاطفية الشهيرة "ليلى مارلينى **Lili Marlene**".

وقال أحد قدامى المحاربين البريطانيين: "كنا نجلس أو نستلقى هناك فى حالة نشوة وابتهاج نستمع إلى كل كلمة. وكنا نفعل الشيء ذاته كل ليلة، طالما كنا هنـــاك، إذ كانت ليلى تتحدث إلى كل واحد منا، ولم تصر هذه الأغنية مبتذلة أو بالية فى يـــوم من الأيام."(٦٢)

وقد شعرت السيدة أناهيدى ميراميتدجيان، التى كانت تدير حتى عهد قريـــب إحدى المكتبات بالمدينة- برعدة البحر عندما كانت تستحم فى شاطئ سيدى بـــشر خلال حرب العلمين الثانية، تقول: "إنها الحرب، سيعود الأولاد المساكين، كما مات الكثير منهم؛ وعندما أذهب إلى مدفن العلمين، فإننى أراه الآن: فقد كانوا فى ســـن العشرين من العمر، وكانوا صغارا جدا. وقد قضت بعض النساء أوقاتًا ممتعة، فقد كن يأوين إلى الفراش كل ليلة مع ضابط أو رجـــل مختلـــف. إذ وهبـــت النـــساء اليونانيات والإيطاليات واللبنانيات أنفسهن للقوات، وقد كن عطوفات للغاية، أعنـــى أولئكم النساء، وهو ما أدركته الآن."

ومنذ صيف عام ١٩٤٠، عبَر مصر ما يربو على مليونى جنـــدى وبحـــار وطيار، وقد طرأ تغيير على الإسكندرية مع حلول حرب العلمين الثانية. وتساءلت السيدة كليا Clea قائلةً ": "هل يعد من الأمور الحساسة أنك تريد أن تحفظ رأســـك، لكى تجتنب هذا الاندفاع الجنسى اللافت للنظر من الدماء إلى الرأس الذى يأتى مع الحرب، والذى يثير النساء إلى حد لا يمكن احتماله؟ لم أكن أتـــصور أن رائحـــة الموت مثيرة لهم إلى هذه الدرجة الكبيرة! ولا أريد يا دارلى أن أشارك فـــى هـــذا اللهو والصخب الذهنى، وبيوت الدعارة هذه المنتشرة فى كل مكان. وجميع هؤلاء الرجال المساكين يحتشدون فى هذا المكان. فقد أصبحت الإســـكندرية بمثابـــة دار كبير للأيتام، وكل واحد منهم يتعلق بالفرصة الأخيرة للحياة." (٦٣)

وقد تذكرت أناهيدى ذلك الشاب الذى قدم إلى نوادى الخدمات، تقول: "كان البعض مصدوما للغاية، فى حين أراد البعض أن يغيروا الملابس التى كانوا يرتدونها وحسب. وقد قدمت ذات مرة مائتى كوب من الشاى فى ساعتين، وقد اعتدنا أن نعد لهم وجبة من البيض؛ فقد طلب أحد الأولاد ٢٥ بيضة مقلية. وقد عملت السيدات بجد فى المخازن العسكرية. وبالطبع كانت لدى الذكور الرغبة فى أن يأتوا ويتحدثوا بالإنجليزية؛ إذ كان الجميع يريد أن يتحدث، وأحيانا ما كانوا يطلبون منى الذهاب والرقص معهم، وكان من الممكن أن أذهب وأرقص فى الحفلات، لكننى لم أكن أذهب أبدا إلى ما تذهب إليه الأخريات. وكنا نقيم حفلات كل أسبوع مثل: الصندوق الخيرى البريطانى والصندوق اللبنانى والصندوق اليونانى والصندوق الأرمينى والموسيقى والمحاضرات والحفلات الموسيقية. وكنا كنساء لا ندفع ثمن التذاكر الخاصة بهذه الحفلات؛ وكنا نذهب إلى المكتب ونقوم ببيع التذاكر للرجال."

وبالنسبة للضابط غير المهتم بالإجراءات التمهيدية لإحدى الحفلات الخيرية، كان المكان الذى يبتغى الذهاب إليه هو دار مارى الواقعة شرق الميدان العام خلف الحى اليونانى ومحرم بيه؛ وقد علمت مارتا لوريا الموضع بالضبط بينما كانت واقفة بالقرب من خط السكك الحديدية، أمام المستشفى الإيطالى الذى بناه أبوها. "كانت مارى يونانية الأصل لا ترى إلا بعين واحدة – من جراء النظر عبر الثقوب – وقد أنشأت بيت البغاء هذا بمساعدة أفترض أنها تلقتها من الجيش أو الأسطول البريطانيين، وهو ما كان يثير اشمئزاز الأفراد القاطنين بالقرب منه كثيرا، رغم أنه كان مكانا أنيقا وبالغ التنظيم. ثم حدث أن تعرضت مارى لضربة مباشرة، فقد قتلوا فى المعركة. ولم يكن هناك من طريقة أخرى يمكن وصف ذلك الحدث من

خلالها: الضباط لهم عائلاتهم والبعض منهم كان معه زوجاته، وبذلك فقد تم الإعلان عنهم بأنهم قتلوا فى المعركة."

وخلافا لذلك بالنسبة للقوات، كان هناك الطريق الواقع إلى الغرب من المدينة باتجاه القاعدة العسكرية فى العجمى، وهو المكان الذى كانت الغوانى تعرضن فيه أنفسهن فى الشرفات، ويمكن للفرد أن يختار السيدة التى يريد وطأها وهو فى الطريق قبل أن يصعد إلى أعلى، أو كان هناك بيوت البغاء البالية بطول شارع الراهبات (رو دو سير) وشارع الأخوات، الذى سمى على اسم عزائس المسيح المرتبطات بكنيسة لازاريست خلف المحاكم المختلطة فى ميدان محمد على. وقبل حدوث الضربة، تزوجت مارتا لوريا من ضابط فى الأسطول اسمه رول فولر، الذى أضاف بنفسه أن الأسطول كان يدير لفترة من الزمن بيتا للدعارة قبالة شارع الراهبات مع ضابط طبى يعمل فى المعارك دوما. "تسبب الأمر فى فضيحة كبيرة حول مشاركة الجيش البريطانى فى إدارة هذا المكان، الأمر الذى أدى إلى إغلاقه، غير أن الإسكندرية أصبحت أقل أهمية بذلك الوقت، عندما بدت كافة الأنشطة تتم باتجاه الغرب. إلا أنه عندما كان أسطول البحر المتوسط هناك – كان لدينا أسطول كبير هناك وكان لا بد وأن يكون هناك أسطول هائل ولا بد أن تحمل كل بارجة ما يقرب من ألف فرد على متنها، وكان لدينا فى بعض الأوقات خمس بارجات فى الميناء، بخلاف الطرادات والمدمرات وجميع ما بقى منها."

وكان جوين ويليامز يراقب، "إلى أكبر مدى ممكن أن ينظر إليه الفرد"، الخدم من الرجال البريطانيين والنساء البريطانيات فى حالة "إمساك بلا حراك" قوامها "صلابة أهل بومباي" هو منتصب القامة أمام الجدران. وقد كان "واضحا أن المصريين مرتبكون ومتحررون" أو كان يعتقد ذلك، "بفعل هذا السلوك الغريب من جانب الشباب المرتدى زيا عسكريا واحدا، واعتاد التوقف والمراقبة، وربما يكون

السبب وراء ذلك هو استكشاف بعض الحركة التى يمكن أن تبرز ما يحــدث." (٦٤)
وبالنسبة لماريو كولوتشى، فعلى الرغم من أنه كان لا يزال فى بداية عهد الــشباب فى ذلك الوقت، فإنه كان ثمة القليل من الغموض حوله: فقد تذكر رؤيتــه "لــسيدة تعمل بالخدمة النسائية بالأسطول الملكى البريطانى وهى تقف على الرصيف خارج نادى القوات المتحدة، وقد رفعت جونلتها لأعلى بجوار الجدار وهى تمارس الجنس مع أحد الجنود".

"كانت المدينة دوما فى حالة انحراف وفساد" (فهذه هى كليــا تتحــدث إلــى دارلى بصفتها كليا بادرو الحقيقية التى عملت بنادى القوات الأمريكية، ويمكــن أن تكون قد تحدثت إلى دوريل فى هذا الشأن) حيث تقول: "إلا أن هذا الأمر قد أخــذ معه ما يحمل فى بعض جوانبه بهجة وسرورًا بالأسلوب، فى وتيرة محافظة، حتى فى الأسرة المستأجرة: فلم تقف أبدا بجوار حائط أو شجرة أو إحدى الشاحنات! مع أن المدينة تبدو فى الوقت الحالى فى بعض الأوقات كما لو كانــت مبولــة عامــة كبيرة. وتجد نفسك تدوس بقدمك على أجساد السكارى بينما تكــون فــى طريــق عودتك إلى المنزل... وكنت أميل إلى أن أدير وجهى خجلا وتعاطفا معهم... وقــد أقحمت نفسى وكنت أقدم لهم الشاى فى ملاهيهم العديدة وأقوم بتقــديم العــصابات والضمادات لهم وتنظيم الحفلات الموسيقية لهم. إلا أننى كنت أنكمــش كــل يــوم بصورة أكبر."(٦٥)

وفى يوم ٣ نوفمبر عام ١٩٤٢، كتب روميل إلى زوجته خطابا يقول فيــه: "عزيزتى لو، المعركة تشتد رحاها ضدنا، ويسحقنا العدو بعتــاده الثقيــل... وفــى المساء، رقدت فاتحا عيناى، أقلب الأمر فى رأسى أبحث عن مخــرج مــن هــذه الورطة لقواتى المتواضعة. ونحن نواجه أيامًا عصيبة، ربما تكون أصــعب أيــام يمكن أن يمر بها إنسان. إن الموتى محظوظون بالفعل، فقد اســتراحوا مــن هــذا العناء."(٦٦) وبعدها بيومين، حملت صحيفة "ذا إجيبشيان جازيت "بيانا رسميا مــن

الجنرال مونتجمرى يقول فيه: "إننا نحكم قبضتنا على العدو، وهو على وشك الانهيار. والفرصة سانحة أمامنا لكى نضع الجيش الألمانى المدرع بالكامل فى جعبتنا، وهو ما سنفعله. كما أنه يلوح فى الأفق بوادر تحقيق نصر ساحق.(٦٧) وعلى بعد خمسمائة ألف ميل باتجاه الشمال، كانت تجرى معركة شرسة عند حطام ستالينجراد، ولم تمر إلا أسابيع قليلة حتى انتهت هذه المعركة أيضا بحدوث كارثة كاملة بالنسبة للألمان.

كما كتب روميل بعدها عن حرب العلمين الثانية واصفا إياها بأنها "حولت مسار الحرب ضدنا فى أفريقيا، بل وربما مثلت نقطة التحول فى الصراع الكبير بالكامل".(٦٨) وقد دارت المعركة الحاسمة فى ٢ نوفمبر، وفى اليوم التالى، بدأ روميل وفيلق أفريقيا تراجعهم الطويل، جعلهم يخرجون من أفريقيا فى غضون أقل من ستة أشهر. وقد أعلن تشرشل فى مأدبة أقامها اللورد مايور ١٠ نوفمبر أن "هذه ليست البداية، كما أنها ليست حتى بداية النهاية، وإنما هى نهاية البداية" (٦٩). وكانت بالتأكيد بالنسبة للإسكندرية نهاية الخطر مع دوران رحى الحرب باتجاه الغرب.

وفى اليوم الخامس عشر، دقت أجراس الكنائس فى كل أرجاء المملكة المتحدة حمدا للرب على النصر الذى تحقق فى الصحراء الغربية. وقد شاركت محافظة الإسكندرية فى الاحتفالات البريطانية وأعلنت عن عرضها (الذى لم يلق قبولا أبدا) بإطلاق اسم مونتجمرى على شارع الراهبات.

وقد أدى هذا الانتصار إلى إعادة فتح البحر المتوسط لاستقبال الرسائل البريدية، وبذلك لم تعد الرسائل تستغرق شهورا طوالاً حتى تمر حول رأس الرجاء الصالح. إلا أن دوريل استمر فى الصمت والامتناع بشكل كامل تقريبا عن الكتابة، وكان نادرا ما يكتب رسالة لأحد خلال مدة السنة والنصف الماضية، عازيا ذلك

إلى أن تأخر وصول الرسائل أمر لا يشجع على كتابتها. ولم يكن هناك ما يضاهى سلسلة الخطابات العديدة التى بعث بها إ. م فورستر التى كانت تقدم مذكرة يومية تقريبا بكل خبراته وتجاربه. وقد أدت عوامل الحرب ونفى دوريل عن اليونان وما يعانيه الآن من نهاية علاقته الزوجية، إلى جعله فاقدا للإحساس ومشتتا، يقول: "كنت فى تلك الحالة المذهلة طوال الوقت الذى عشته هناك." (٧٠)

وكان الصديق هنرى ميلر على وجه التحديد هو الشخص الذى تجنبه دوريل فى كتاباته. وتعود بداية صداقتهما إلى عام ١٩٣٥، فبعد عودته من كورفو بأشهر قليلة، قرأ دوريل رواية مدار السرطان أو "Tropic of Cancer" التى ألفها ميلر، وكتب فيها رسالة إلى مؤلفها فى باريس، ورد عليه ميلر بقوله: "خطابك يشى بنشاط وحيوية كبيرين حتى إننى أريد أن أعرف ما إذا كنت أنت أيضا كاتبا أم لا."(٧١) وكان استفسار ميلر المفعم بالإطراء والمديح وكذا المراسلات التى أعقبته مشجعا للغاية بالنسبة لدوريل، الذى نظر إليه على أنه يتجاوز كونه كاتبا. وكان ميلر وقتها يبلغ من العمر ٤٣ عاما، أى يكبر دوريل بمقدار عشرين عاما، الأمر الذى جعل دوريل يتخذه أبا له، أو "كأحد أعمامه" كما تحدث دوريل نفسه عن ذلك بقوله: "كان مفعما بالقوة والحماس، الأمر الذى يجعله خير موجه لأحد الشباب.(٧٢) وسرعان ما بدأ دوريل فى العمل فى روايته الكتاب الأسود أو "The Black Book" التى يقول عنها "هى كتابى الحقيقى الأول" (٧٣) وفى عام ١٩٣٧، قام بإرسال نسخته الوحيدة من المخطوط إلى ميلر. ومن جانبه وصف ميلر عمله بأنه "عمل أدبى ضخم" (٧٤) وبأنه "حدث هام فى حياتي" (٧٥). ومنذ لقائهما الأول فى باريس فى وقت لاحق من ذلك العام، حاول دوريل أن يقنع ميلر بزيارة اليونان، وهو ما فعله ميلر فى صيف عام ١٩٣٩. وقد قدم ميلر سجلا لمغامراته فى اليونان فى كتابه

الذى يحمل عنوان ميروسى "Colossus "، الذى يعد أحد أفضل الكتب التى تمت كتابتها فى اليونان.

والآن، وبعد أن علم من صديقه جورج سيفريس بفرار دوريل من مدينة كالاماتا اليونانية إلى مصر، كتب ميلر مرات عديدة إلى عناية السفارة البريطانية فى القاهرة. وأخيرا، تلقى خطابا من دوريل بتاريخ ٤ يوليو، ووصل رده إلى مصر فى وقت ما من حرب العلمين الثانية. وكتب له يقول: "إذن، فأنت لا تزال على قيد الحياة! عظيم"، وفيما يتعلق بالأنباء التى تقول بأن نانسى وبينيلوب قد فرا إلى فلسطين فى أثناء الضربة ، فهذا "شيء لا يصدقه عقل. كم أحسدكما! وكم أتمنى لو تم إرسالى إلى فلسطين أو سوريا أو مدينة تيمبوكتو أو القاهرة. "وأقسم أننى لم أمانع التعرض للأذى والقاذورات أو الإصابة بالمرض أو التعرض لأى شيء آخر. وقد بدا الأمر بالغ الثراء بالنسبة لى، ذلك العالم الذى تعيش به، بل وحتى الحروف المجنونة، بل حتى طوابع البريد تبدو مثيرة للاهتمام.

وقد وصل ميلر الذى عاد إلى الولايات المتحدة مع اندلاع الحرب، إلى هوليوود، "أرض اللوتس"، وهو المكان الذى بحث فيه عن عمل فى السينما، واتصل بالمؤلف ألدوس هاكسلى، وكان على وشك لقاء المخرج الفرنسى جين رينوار، ويقول: "وأنا صديق حميم لابنة مارلين ديتريتش (الممثلة الأمريكية الألمانية الأصل)"- التى كانت لتوها قد بلغت عامها الثامن عشر. ويستحق هذا الأمر خطابا آخر."وفى أستوديوهات وورنر برازرز "أصبت بضربة شمس فى يوم ما وأنا أمر عبر شوارع الأفلام الصناعية فى الدار البيضاء" وقد أوصى بأن يشاهد دوريل فيلم "الصقر المالطي" قائلا: "فيه ممثل إنجليزى رائع اسمه جرينسترى، إنه ممثل عملاق!" (٧٦)

وقد جاء الخطاب مجددا آلام دوريل، ليس فيما يتعلق بفقده لزوجته وابنته وحسب، بل عن عالمه اليونانى الذى أثاره إشارة ميلر إليه بأنه "عملاق". وقد تلقى كتابًا لكنه لم يستطع أن يقر بكتاب "Colossus of Maroussi" الذى كان قد تم نشره حديثا فى فصل الربيع، وصورته وثيقة الصلة صديقه جورج كاتسيمباليس فى أثينا، الذى يعد راويا رائعا. وقد تقابل ميلر مع كاتسيمبالى عبر ثيودور ستيفاند، الذى كانت أعظم هداياه إلى دوريل تتمثل فى تقديمه للحياة الأدبية والفكرية فى اليونان. وكانت مدينة كورفو بالكاد تشكل موقعا مختارا ليبدأ منه هذه الرحلة، حيث إنه بعد سقوط القسطنطينية، لم تنتقل الجزيرة إلى اليونانيين؛ بل انتقلت إلى الفينيقيين، ومن ثم حافظت على خليط من العالم القديم بالبحر المتوسط، واتسم أهلها بطابع عالمى وتتبع أصولهم التى ترجع إلى أصول استعمارية بيزنطية ونورمانية ويونانية ورومانية. وفى ظل الحكم الحميد، حكم البريطانيون من عام ١٨١٥ إلى عام ١٨٦٤، أصبحت مدينة كورفو هى مقر الميلاد للنهضة اليونانية، خاصة بعد عام ١٨٢٤، عندما أسس الفلهيلينيى ("المحب للإغريق المطالبين باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية) لورد جيلفورد الأكاديمية الأيونية التى جذبت مؤسسى الشعر اليونانى الحديث، من رجال أمثال كالفوس وسولموس، الذى قام بدوره بإلهام كوستيس بالماس (١٨٥٩-١٩٤٣)، الذى كان من بين أتباع كفافيس وكان ستيفانيدس وأصدقاؤه مخلصين لهم.

وقد كان من بين هؤلاء الأصدقاء كاتسيمباليس وجورج سيفريس.(٧٧) وأعلن ستيفانيدس وكاتسيمباليس عن حكومة فينزيلوس المؤقتة فى ثيسالونيكى فى نفس اليوم من عام ١٩١٦، وقد حاربا معا فى جبهة البلقان بعد دخول اليونان الحرب العالمية الأولى. وفى وقت لاحق، حارب ستيفانيدس أيضا الأتراك خلال حملة آسيا الصغرى الكارثية، فى حين كان سيفريس نفسه أحد المواطنين اليونانيين من

آسيا الصغرى الذين ولدوا وتربوا فى سميرنا. وبوصفه أحد أتباع حركـة الثـائر إليفثاريوس فينيزيليز وأحد المفكرين، فقد كانوا جميعا ملتزمين بإعادة ميلاد اليونان على الصعيد الثقافى.

ومع تدهور الآداب الإغريقية فى الإسكندرية، تركز النشاط الأدبى فى أثينا، حيث قام "**كاتسيمبالس**" إبان السنوات ١٩٣٠ وما بعدها بتحريـر دوريـة تـسمى (آداب جديدة، استعادة إبداعات ستيفين بارجاس)، والتى تقوم بنشر أعمال الشعراء الجدد الواعدين من أمثال "**تيكوس جيتوس**"، "**أنجيلوس سيكلانوس**"، "**أوديـسوس إليتاس**"، و"**سيفرس**" نفسه، ولكن "**كافافي**" بدا أنه بعيد عن تجربتهم: قال "**سيفرس**" لم أكن متحمسًا بالنسبة لـ"**كافافي**" فى ذلك الوقت، أو ليس هو بالذات، على الرغم من أنه كان يراه يمثل إضافة لصرح "**مختارات من الأدب الإغريقي**" كان رد فعلى بفتور أدبيًا".(٧٨) كان "**كاتسيمبالس**" يعمل فى مهمة إنجاز ثبـت بـالمراجع التـى تتحدث عن مؤلفات "**كافـافي**" عندما قابل الشاعر فى عام ١٩٣٢، وبتوقيت ملائـم فى "**فندق أثينا كوزموبوليت**" حيث كان "**كافافي**" يتعافى من عملية جراحية عقـب إصابته بسرطان فى الحنجرة والتى تسببت فى موته فى العـام التـالى، قـال لـه "**كافافي**" : "كن على حذر بحق الله ولا تذكر أن هذا هو كل ما كُتب عن "**كافـافي**" فستقوم بتعريض نفسك للملامة لأنك لا تعرف باقى ما كُتب عنى وهنالـك الكثيـر جدًا يا "**كاتسيمبالس**". (٧٩)

وكان "**كافافي**" على حق فى القلق على سمعته الأدبية فى اليونان، حيث لـم يكن معروفًا إلا بالكاد كما لم يكن الكثيرون يعيرونـه الاهتمـام. قـام كـل مـن "**كاتسيمبالس**"، و"**ستيفانديس**" بتحرير وترجمة "**أشعار كوستيس بالاميس**" فى عام ١٩٢٥، و"**أشعار يونانية حديثة**" فى عام ١٩٢٦، والتى كانت تحـوى مقطوعـة شعرية واحدة فقط للشاعر "كافافي" (ترجمة متكلفة للمقطوعـة الـشعرية أثيكـا)،

وأربع مقطوعات شعرية للـشاعر "ســتيفانديس" وخمــس مقطوعــات للــشاعر "كوستيس بالاميس"، وكانت تحمل إهداءً يقول "إلى كوســتيس بــالاميس أعظــم شعراء اليونان فى العصر الحديث". كما ذكر "دوريل" أنه سبق أن تعــرف علــى "كافافي" من خلال ترجمة "كاتسيمبالس"، و"ستيفانديس"، (٨٠) ولكنه فى ذلك الوقت كان أكثر إعجابًا بأشعار "كوستيس بالاميس" وليس "كافافي".

هناك سبب هام يمكن فهمه عن سبب قيام أصدقاء "دوريــل" مــن أدبــاء اليونــان بإسقاط "كفافيس" من الاعتبار، وذلك بمقارنة وصفه للمدينة التى لا مهرب من أطلالهــا السوداء، ووصف "بالاميس" للمدينة فى قصيدته الرائعة "الاثنتا عشرة كلمة للغجر"(٨١).

وروحكِ أيتها المدينة الملعونة

لن تذوق للراحة طعما

وستهبط سلم الشر

درجة بعد أخرى

وأينما تذهب...أينما تتوقف

ستجد جسدًا أسوأ تحل به(٨٢)

المدينة التى يعنيها "بالاميس" هى القسطنطينية والتى ســقطت فــى أيــدى الأتراك فى عام ١٤٥٣ وكانت بالنسبة له أيضًا المدينة التى ترمز لسقوط الإنسان، ولكن شعره ليس بالشعر الذى يقوم بإنقاذ الــذاكرة والأحاســيس مــن التخريــب والسقوط، ولكنه يقوم بتجميع ذاكرة التاريخ عن طريق تجميــع تفــسيرات للعــالم الداخلى والخارجى من منظور الدراما الخارقة للطبيعة، والدراما الخارجية لإعــادة بعث الثقافة يمكن تحقيقها عن طريق الدراما الداخلية للتطهر الروحى، بعد المرور

بسلسلة من الإنكار فإن المدينة وروح الإنسان يتلمسهما الحب، فينبذان الشر ويُبعثان من جديد كباقى الكائنات كالحشائش، والطيور، وثدى المرأة، ووحدة الوجود، والاحتضان والأنثى.

لورانس "داريل"جالسًا فى مكتبه فى "مكتب الاستخبارات البريطاني"بالإسكندرية، يوم ٢٣ أغسطس ١٩٤٣، على ظهر الصورة الأصلية والتى أرسلها إلى صديقته "مارى هونور"بالقاهرة كتب دوريل يقول "لورنس دوريل العظيم محاطًا بموظفى مكتبه: مس فيلبوت، مس باتس، ومستر أكسيلوس.

تم إثارة عواطف كامنة فى قلب "**داريل**" الذى شعر أنه أصبح حطامًا ضائعًا عندما تأثر بشوق "**بالاميس**" الشديد لإعادة البعث والتوحد حيث تكمن الإجابة كما يقول "**بالاميس**" عن القوى الخلاقة الكامنة فى الشعر، افتداء العالم عن طريق توكيد الحياة، وهى العملية التى تتطلب منه أن ("يشعر" وأن "يعاني" وأن "يقبل"). [٨٣] فقط من خلال "حرب ضروس" [٨٤] عن طريق كتابة "**الكتاب الأسود**" استطاع "**دوريل**" أن يقوم بإنقاذ روحه من "**الموت الإنجليزي**"، وأن يقتفى أثر وصفة "**بالاميس**" بأن "يشعر".

ولم يلبث دوريل أن انتهى من كتابه "**الكتاب الأسود**" حتى كَتب إلى "**ميللـــر**" فى يوليو ١٩٣٧، كيف قرأ أفضل أعماله: "قمت بالتخطيط لهيكل الـــصراع بـــين شخصيات المسرحية، والعنصر المثير للشفقة، ثم الوصول إلى الحـــل فـــى عقـــدة الرواية" [٨٥] (الصراع، والمعاناة، ثم القبول)، موضحا بأن الحبكة فى كتابه كانـــت "**الكتاب الأسود**"، بينما الحل لعقدة الرواية يقع بعيدًا عـــن "**كتـــاب المعجـــزات**"[٨٦]، ولكن ما بعد ذلك سوف يكون العنصر المثير للشفقة والذى يشير إليه فيما بعد باسم "**كتاب الموت**"، وسيتم تطويره فى النهاية ليصبح "**رباعية الإسكندرية**"، وأصـــبحت الإسكندرية بالنسبة لـــ"**دوريل**" مثلما كانت "**القسطنطينية**" بالنسبة لـــ"**بالاميس**"[٨٧].

كتب "**ميللر**" مرة أخرى فى ٢١ نـــوفمبر ١٩٤٢ لـــ**دوريل**، يهنئـــه بأعيـــاد الكريسماس، وأضاف قائلاً: "أخبرنى عن أى شيء بخصوص علاقتك مع نانـــسى، كيف تمضى بكم الأيام معًا، أما زلتما تتبادلان عبارات التوبيخ القارصة. لـــم يقـــم "**دوريل**" بالرد على خطاب "**ميللر**" المؤرخ ١٥ سبتمبر، كما لم يـــرد علـــى هـــذا الخطاب أيضًا، كما أنه لم يكتب له مرة أخرى لفترة تزيد عن العام.

يتذكر "**دوريل**" قائلاً: "بالنسبة لمعظم الناس فإن الإسكندرية هى مجرد مدينة مملة يمكنك فيها فقط أن تجد مكانًا طيبًا للاستحمام والكثير من المطاعم الفرنـــسية التى يمكن أن تنصح الآخرين بارتيادها، ليس هناك أى شيء لتشاهده! إن المـــشاهد كلها تتكرر إلى ما لانهاية".[٨٨] ولكن "**جويان ويليامز**" كان ينظـــر إلـــى الأعـــوام الاثنتى عشرة التى قضاها فى القاهرة كأعوام من الملل تخللتها بضع لحظات مـــن المرح، وهى بقعة مملة خرجت منها إنسانًا مختلفًا".[٨٩] لم تكن فقط تجربة لـــزواج غير سعيد هى التى وصمت تلك الفترة بالملل، فقد كان يعرف القليـــل مـــن اللغـــة العربية، كما أحب المناطق الريفية للفلاحين، ولكن لم يعر الكثير من الاهتمام للمدن المصرية، أو للقاهرة، والتى لم يحاول اكتشافها إلا بأقل مما حاول فـــى أى مدينـــة

أخرى عاش فيها" [٩٠]، على حين صدمته مصر الفرعونية ببرودها ولا إنسانيتها فهي: "مقززة للنفس وتتسم بالسخافة". [٩١] ولم تكن الإسكندرية تمثل له المهرب من كل ذلك فحسب ولكنها أعادته إلى ينابيع ثقافته الخاصة.

كان "**جويان ويليامز**" محاضرًا في جامعة فؤاد بالقاهرة، بينما كان "**روبن فيرنس**" أستاذًا للغة الإنجليزية فيها، كان "**جويان ويليامز**" يذكر دائمًا أنه مدين بالكثير لـ"**روبن فيرنس**" والذي هداه إلى طريق مقتطفات الأدب اليوناني بما في ذلك ترجمته الخاصة لـ "**كاليماخوس**"، ثم قام بتمهيد السبيل لانتقاله إلى الإسكندرية وتأمين إلمامه بشعر "**كفافيس**"، وكتابي "**فورستر**" عن المدينة والتي اكتشف "**ويليامز**" أنها قامت باختصار الزمن بين عصرنا وعصر البطالمة في الماضي". [٩٢]

كان من المستحيل تقريبًا الحصول على نسخ من الطبعة الأولى لكتاب "**فورستر**" عن الإسكندرية، كما أن الطبعة التي صدرت عام ١٩٣٨ كانت أيضًا من الندرة بمكان، غير أن "دوريل" استطاع عن طريق سلسلة من المحاولات والحيل الخادعة [٩٣] أن يحصل على نسخة من الطبعة الثانية وهي الطبعة التي صدر منها ٢٥٠ نسخة فقط لأعضاء جمعية الآثار.

تم إعداد "**دوريل**" للانطلاق إلى الإسكندرية عن طريق رئيسه "**والتر سمارت**" مستشار المندوب السامي، وفي صيف عام ١٩٤١، وبعد أسبوع واحد فقط في مقر عمله مراقبا للمطبوعات الأجنبية بالسفارة البريطانية بالقاهرة، حضر إلى مكتبه "**سمارت**" قائلاً: إنه وزوجته يريدان التحدث إليه عن شعره. وقاما بدعوته إلى منزليهما في ذاك المساء، كان آل "**سمارت**" يعيشون في الزمالك، وهو حي سكني راق يقع في جزيرة يتم العبور إليها من وسط القاهرة، كان منزلهم يزخر

بالسجاجيد الإيرانية الفاخرة والخزف والكتب والمخطوطات بمختلف اللغات الأوربية والشرقية بما يقرب من ست لغات، كما أن الحوائط تزينها لوحات فنانين من أمثال "بيكاسو"، و"سيلفادور دالي"، و"دوميية" موزعة على جوانب الجدران مع قليل من اللوحات الزيتية الملونة الكبيرة الحجم "لآمي". لتحفظ "سمارت" وما كان "جرافتى سميث" يطلق عليه جوهر عقليته الذكية التى تنتمى إلى الأفلاطونية الحديثة"، جلبت آمى كمًّا وافرًا من التحف الغريبة فى كل مجالات الفن والأدب والنشاط الاجتماعى لتجمع الكثير من المشاهير والمبدعين فى منزلها بالقاهرة. ومن المحتمل جدًا أنها قامت بقراءة أشعار "دوريل" وقامت بإرسال "سمارت" إليه حاملاً دعوتهما، كما أنها قامت باحتضان "تانسي" عندما اكتشفت أنها رسامة وأنها مثلها من خريجى "مدرسة سلاد للفنون الجميلة"(٩٤).

أصبح الرجلان صديقين لمدى الحياة من ذلك المساء الأول الذى قضياه معًا عندما جعل "سمارت" "دوريل" قريبًا منه وأخذ يحكى له كيف أنه ذهب لزيارة "كفافيس" فى "شارع كلابسوس" منذ ١٥ صيفًا مضت، وقد كان مما أصابه بالدهشة آنذاك طبقًا للشائعات التى تناثرت فى الإسكندرية أنه رآه اتجه لباب المدخل الخطأ".(٩٥) كما كانت "آمي" مهتمة بـ "كفافيس" كما سوف تسهم بعدها فى ترجمة أشعاره وتضعه فى كتابها "مشاهد شخصية". ساهموا جميعًا شأنهم شأن أصدقاء "دوريل "الآخرين فى تقديم أسطورته الخاصة وسيظهرون فى أشكال متغيرة فى صفحات كتابه "رباعيات الإسكندرية". سيجعل دوريل "والتر سمارت" سفيره الخيالى فى الكتاب تحت اسم "دافيد مونتلايف"، وسيقترب جزئيًا من "آمى نمير" من أجل "ليلى حسنيني" الحب الكبير لأيام الشباب لشخصية "دافيد مونتلايف" فى مصر، وهى الشخصية التى استوحاها "روزيت دى مينيسي" باسم "ماتريارك" لعائلة "حسنيني".

تم تدعيم معرفة "دوريل"بـ "كفافيس" عن طريق صديق آخر لآل "سمارت" وهو "روبرت ليدل" والذى كان بالفعل يسترجع آثار الشاعر من خلال المدينة وسيقوم مستقبلاً بكتابة سيرة حياته. وعلى الرغم من أن جامعة فاروق تم افتتاحها رسميًا فى سبتمبر ١٩٤٢، فإن طليعة المحاضرين كانوا هناك من العام الذى قبله، وكان من ضمنهم "ليديل" والذى كان يقوم بالتدريس فى المركز البريطانى فى "أثينا". كان الهروب من "أثينا" إلى القاهرة بالنسبة لـ "ليديل" الذى كان قد ترعرع فى القاهرة ويعرف فيها كل من "سيفيرس"، و"دوريل" على الأقل تعويضًا عن العودة إلى وطنه، ولكنه لم يقم بزيارة الإسكندرية حتى مايو ١٩٤١ عندما ذهب لوداع "سيفيرس" والذى كان يشغل موقع مدير مكتب الصحافة الأجنبية فى وزارة الأعلام فى "أثينا"، وكان فى سبيله إلى الانتقال إلى "جنوب إفريقيا" حسب أوامر "حكومة اليونان" فى المنفى والموجودة فى القاهرة.

ساروا جميعًا تحت ضوء القمر الذى يجعل المكان عُرضة للقصف بالقنابل فى ربوع الحى الذى يقطنه "كفافيس"، ومعهم "تيموس مالينوس" كدليل مرشد لهم. قال "مالينوس": "هنا وقع فى الحب"، وهو يشير من خارج منزل فى "رو ليبسوس"، و"هنا مات" ثم أشار إلى مبنى المستشفى اليونانى السابق، الذى أصبح آنذاك "نادى أسطول القوات البحرية"، "وهنا قرأوا الصلوات على روحه" وكانوا بالقرب من أبواب كنيسة القديس سابا"، تركت هذه الرحلة انطباعًا هائلاً على "سيفيرس"، كان قد هرب من اليونان منذ زمن ليس بالبعيد إلى "كريت" ومنها حينما سقطت أيضًا، وبينما هو يسير قُدمًا فإن الحى الذى يكتنفه الظلام (خشية الغارات الجوية) هو الحى الذى يقطنه "كفافيس"، وقفز إلى ذهنه أولئك الذين قاتلوا من أجل "اتحاد الأخائيين"، ربما لأن الهزيمة أتت به إلى مدينة البطالمة مثل "الأخائيين" فى الشعر، وأخذ يهمس بالمقطوعة الشعرية بأكملها لنفسه، ولكن عندما وصل إلى لُب القصيدة وخاتمتها:

كتبها أحد الأخيائيين(*) فى الإسكندرية

خلال السنة السابعة من حكم "**بطليموس لاثيروس**"[٩٦].

أدرك "**سيفيرس**" ولأول مرة أن القصيدة كُتبت فى عام ١٩٢٢ عشية الكارثة التى وقعت فى "**آسيا الصغرى**"، ووجد نفسه يعيد كتابة الخاتمة ليجعلها:

كتبها أحد الأخيائيين فى الإسكندرية

فى العام الذى دُمرت فيه سلالتنا[٩٧] .

"**سيفيرس**" لم يعد ينظر إلى "**كفافيس**" كشاعر مغمور بينما كانت بعض أشعاره المتباعدة تضيف بفتور بعض اللبنات إلى صرحه "**مقتطفات مختارة من الأدب اليوناني**"، ولكنه كإنسان حى ومعاصر يقوم بإضافة تعبيرات موجزة عن مشاعره بخصوص المأساة غير المحتمله لشعبه.

اجتثت مأساة "**آسيا الصغرى**" جذور معاناة "**سيفيرس**" سواء كرجل أو كيونانى. وهنالك وأمام خلفية من ملاحم "**هوميروس**"، ورحلات الأرجنوتس، وزحف الإسكندر، ومع مناظر طبيعية مليئة بالمعابد التقليدية، والكروم، والزيتون، والكنائس البيزنطية، كان يتم دفع اللاجئين للسير فى طرق لا نهاية لها، ويتم ذبحهم، أو دفعهم قسرًا إلى معسكرات الاعتقال، أو يقومون بإلقاء أنفسهم فى سفن مكتظة عن آخرها وبأكثر من حمولتها من البشر، بيوتهم تلتهمها النيران، وحياتهم حطام، عالمهم تم تحطيمه. كانت بالنسبة لـ"**سيفيرس**" أكبر كارثة يمكن تخيلها حتى سقطت اليونان نفسها، كما كانت نذيرًا لليأس والمأساة المعتادة التى تكتنف أوروبا بأسرها.

(*) الأخيائيون: سكان آخيا Achaea فى اليونان، مع أن كلمة آخيا أو أخيائى قد تغيرت مع مرور الزمن (المراجع).

يمكنه من خلال "**كفافيس**" فى الإسكندرية أن يظل يستمع إلى صوت الإغريقية، صوت السلالة التى كانت رغم كل الهزائم والنفى عصية على الإبادة، قال "**كفافيس**" : "إننى لست يونانيًا، بل إغريقي" واحتضنه "**سيفيرس**" عندئذ(٩٨).

عندما عاد "**ليدل**" إلى الإسكندرية بعد أشهر قليلة ليتولى مهام عمله كمحاضر فى الجامعة الوليدة، بدا "**كفافيس**" بالنسبة له يمثل عبقرية وروح المكان.

ما زالوا يحتفظون بذكريات معه فى مكتبة، وفى مطعم يونانى صغير أخذوا يتذكرون ماذا كان يحب أن يأكل، والمقهى المفضل بالنسبة له والواقعة فى شارع المسلة (وأعيد تسميته باسم شارع صفية زغلول وهى زوجة الزعيم الوطني)، كما قابل أصدقاء "**كفافيس**" القدامى الذين أخذوا يقصون عليه الأقاصيص عنه مع القليل من الفضائح، ويقومون برسم الأشكال الكاريكاتيرية عنه على ظهور الأظرف، وعلب السجائر ويحاولون القيام بتقليد ملامحه، كما يحاولون القيام بمحاكاة صوته العجيب والسحر الذى يكمن فى استطراداته فى كل الأوقات والأماكن التى يبدو من خلالها وكأنه استحضر وطنه إلى الإسكندرية، بدأوا يتذكرون ما كان يقوله "**كفافيس**" عندما نقول "**الموعد**" فإننا نعنى أنفسنا. معظم المختصرات التى كانت تتردد بيننا كانت عبارة عن أسماء مستعارة.. "**الموعد**" نعنى بها نحن(٩٩) من خلال شخصية "**كفافيس**" البارزة استلبت الإسكندرية لُب "ليديل"، وصارت واحدة من المدن التى استولت على قلبه".(١٠٠)

كان "**جاستون زنانيري**" من بين أصدقاء "**كفافيس**" الذين قابلهم "**ليديل**" والذى كان يُحاضر فى الشعر و"**ريكا سينجوبولس**" وزوجها المحامى "**ألكسندر سينجوبولس**" وكان مُنفذ وصاياه بالنسبة لأدبه كما قام بإطلاعه على بعض الأثاث الذى كان يخص الشاعر، وما تبقى من مكتبته. قال "**جاستون زنانيري**": إننى لم

أتأثر بالسيد "ألكسندر سينجوبولس" على الإطلاق، ولكننى انبهرت بزوجته السيدة "ريكا سينجوبولس"، والتى كانت تشبه "بينلوبى دلتا" وهى سيدة رقيقة وذات ذكاء غير عادى، كانت "ريكا" هى المؤتمنة على أسرار "كفافيس" والمُقربة إليه بدءًا من عام ١٩٢٦، حينما تزوجت "ألكسندر سينجوبولس"، واستأجرا شقة تقع تحت شقة الشاعر مباشرة فى ١٠ شارع ليبسوس وهنالك حيث تُقابل أصدقاء "كفافيس"، ومن بينهم "فورستر" حينما عاد إلى المدينة فى عام ١٩٢٩، كما أنها ستقوم بكتابة مذكرات عن حياة "كفافيس" لم يتم نشرها، كما تقوم بتسجيل أقواله، وإدماجه فى المجموعة حتى يمكن تجنب خوفه من الوحدة والذى أصابه فى سنواته الأخيرة، وحينما تم تشخيص مرضه بسرطان الحنجرة كانت "ريكا" وزوجها هما اللذان اصطحباه إلى "أثينا".

كانت كلماته الأخيرة هى التى لفظ بها إلى "كاتسيمبالس" بخصوص مؤلفاته، حيث إنه بعد إجرائه لعملية للقصبة الهوائية عن طريق شق الرقبة أصبح عاجزًا عن الكلام نهائيا، ولذلك فإنه بعد أن عاد بعدها للإسكندرية أصبح يتواصل مع الناس عن طريق كتابة ما يرغب فيه على قصاصات من الورق، وفى ذلك اليوم من عام ١٩٣٣ والذى عبر فيه "كفافيس" الشارع قاصدًا المستشفى اليونانى وجدت "ريكا" حقيبة سفر فى شقته، واستطاعت أن تضع فيها ملابسه ولفافات تضم أشعاره، وعندما وقعت أنظار "كفافيس" على الحقيبة غلبته دموعه التى غطت وجهه، حاولنا أن نعيد إليه الهدوء فى هذه اللحظات التى يتمزق فيها فؤاده بينما هو يترك منزله للأبد.

تناول "كفافيس" قصاصة ورقية كتب عليها: "لقد قمت بشراء هذه الحقيبة منذ ثلاثين عامًا، وأنا فى عجلة من أمرى ذات مساء لأهرع إلى القاهرة من أجل المتعة" (١٠١)، وقالت "ريكا" وهى تعيد قصة تلك اللحظة كيف غادر "كفافيس" شارع

ليبسوس "والآن يغادر وكأنه رجل كان يستعد لهذه اللحظة منذ فترة طويلة، رجل ممتلئ بالشجاعة..."[١٠٢].

قام كل من "**ريكا**"، و"**ألكسندر سينجوبولس**" بعد وفاة "**كفافيس**" بنشر الطبعة الأولى من أعماله، ولكن كان هنالك الكثير من مسودات الأوراق من كل حجم ونوع، بعضها صفحات تم انتزاعها من كراريس التدريبات، وأخرى من قصاصات ورقية غير منتظمة، كان "**كفافيس**" يكتب عليها بعجالة وبغير وضوح ملاحظات مبتسرة بشدة وكأنها مشفرة باللغة الإنجليزية، بعضها كما يتذكر "**جاستون زناتيري**" بعد أن كانوا يستلون خلسة خارجين من بعض المطاعم اليونانية، كان "**ريكا سينجوبولس**"، وزوجها "**ألكسندر سينجوبولس**" يرغبان فى فك شفرتها، ولذا فإنهما منحا حزمة من هذه الأوراق لصديق آخر من أصدقاء "**كفافيس**" وهو "**مايكل بيرايدس**" ليقوم بتوصيلها إلى "**جويان ويليامز**" ليقوم بفحصها. كانت بعض هذه الأوراق تشير إلى حياته وميوله المثلية، على حين حملت بقيتها -لدهشة "**ويليامز**"- المسودات الأولى لأشعاره مكتوبة بالنثر الإنجليزى، والتى كان "**كفافيس**" سيعيد كتابتها شعرًا باللغة اليونانية.

أقسم "**جويان ويليامز**" فى الحفاظ على سرية الأمر، ولكن التجربة قامت بإثراء محادثاته ومشاركته للأحاسيس مع كل من "**ليدل**"، و"**دوريل**" بأن وجود "**كفافيس**" لا يزال ملموسًا فى المدينة، كتب "**ليديل**" فى إصدار من إصدارات "لمحات شخصية": "قبل كل الأشياء الثمينة التى تمتلكها الإسكندرية، الأشياء الجميلة فى الميسون (المتحف)، القديسون والشهداء، و"**بومبي**"، و**أنطونيو** أو "**كليوباترا**"، فإن الأعظم حقيقة هو الأقرب إلينا، والذى يشغل جل فكرنا"، وترددت صدى كلماته فى الحى عندما كتب عن الأشخاص الذين يمكن عدهم من القدوة فى المدينة "**كفافيس**"، و"**الإسكندر**"، و"**كليوباترا**" وجعل الشاعر فخرًا للمدينة.

شعر "**دوريل**" أنه قادر على إعادة تجربة معايشة المدينة بالاهتمام الذى يجده حوله، والاسترشاد بنسخة مجلة الإسكندرية فى التعرف على المدينة شأنه شأن كل من "**فورستر**"، و"**كفافيس**"، وبطريقة سحرية فإنه لم يحدث أى جديد يمكن إدراكه (مع التغاضى عن حقيقة أن طبعة دليل الإسكندرية تم تحديثها)، التغيير الحقيقى الوحيد كأقصى ما أستطيع الحكم عليه كان هو المقعد الخالى فى المقهى المفضل للشاعر الراحل، ولكن حلقة الأصدقاء المقربين ظلت كما هى لم تنفصم عراها، رجال مثل "**مالانوس**"، و"**بيترايدس**" سيكتبون فيما بعد كتبًا عن صديقهم المتفرد، كما أنهم سيشيرون بطرف خفى إلى المدينة الغامضة التى تختفى تحت ستار الحياة اليومية العادية المبتذلة. (١٠٣)

غادر "**دوريل**" فيلا "**جويان ويليامز**" التى يقع على تل "**أبو النواطير**" فى منطقة "رشدي"فى وقت ما من الخريف أو الشتاء عقب معركة العلمين، وطبقًا لما قاله "**روبرت ليدل**" فإنه انتقل إلى الأنفوشى على الكورنيش وأمام البحر مباشرة تجاه قلعة "**قايتباي**" فى نهاية الميناء الشرقى.(١٠٤) يقع خلفها مباشرة شارع التتويج، بها العديد من المبانى التى تتميز بأسلوب فنى أوربى للديكور كان شائعًا فى أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مما كان يعطيها مظهرًا أوروبيًا، ولكن الشارع كان يقف حدًا فاصلاً بين عالمين مختلفين، فخلف شارع التتويج كان يقع الحى العربى الذى كان "**دوريل**" يطلق عليه اسم "**قاع المدينة**"، حيث إن الحى يُعد مدخلاً لعالم بدائى: "عُدْنا أدراجنا ودخلنا إلى حى الفقراء المكتظ بالسكان الذى يقع خلف شارع التتويج، كانت مصابيح السيارة الأمامية تقع على مقاه تشبه مستعمرات النمل، المربعات السكنية المكتظة عن آخرها بالسكان تشع متألقة بشكل غير معتاد، ومن مكان ما فى الأفق القريب ومن بين البيوت المتداعية تأتينا صرخات عالية وعويل صادر من موكب جنازة"، من هنا ومن خلف

مواخيرها كانت "**جوستين**" تبحث عن ابنتها المختطفة كما لو كانت "**ديميتر**" آلهة الزراعة عند الإغريق تبحث عن "**بيرسفون**" زوجة حارس وملكة عالم الإجرام،[١٠٥] وهنا بدأ "**ماونتو أوليف**" ثملاً باحثًا عن الإلهام غارقًا بنفسه فى بقايا ذكريات عربدة.

ولكنه لم يكن كابوسًا، فهو عالم شاذ، وجمعيات كوميدية قام بخلقها "**سكوبي**"[١٠٦]وهو تاجر وبحار سابق فى السبعينيات من عمره، أحيانًا يجد لذته فى ارتداء ملابس الجنس الآخر، وهو المدير المحلى للمخابرات البريطانية يوصف بأنه يقطن فى شارع التتويج فى ضاحية من ضواحى الرذيلة فى المدينة، فى حجرتين **متداعيتين**.[١٠٧] يسير فى الحى ويقابل بهالة من الاحترام والعواطف الجياشة، يقوم بقتل جيرانه عن طريق كميات هائلة من الشراب، وتم الاحتفال به كقديس من الأقباط يتم توقيره من الأقباط والمسلمين على حد سواء.

تصوير "**دوريل**" بقلمه لشخصية "**سكوبي**" الحقيقى كان لمن يدعى "**جوزيف ماكيفرسون**"، أو "**اليوزباشى ماكيفرسون**" كما كان يُعرف عمومًا بالنسبة لرتبة الرائد التى كان يحملها فى عمله بوزارة الداخلية المصرية التى كانت تحت الحماية البريطانية، بينما بدأ فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى مباشرة يمثل القائم بأعمال رئيس البوليس السرى، وبعد تقاعده ظل مقيمًا بالقاهرة، حين قام كل من "**دوريل**"، و"**تانسي**" بدعوته ليكتشفا أنه رجل سهل الانقياد وعجوز، يقارب السادسة والسبعين من العمر، له عيون متألقة بشكل غير عادى، وابتسامة آسرة.[١٠٨] وبصرف النظر عن ميول "**سكوبي**" (بالنظر من الشرق إلى الغرب عبر هذا الدلتا الخصيب ما الذى يمكن أن أراه؟ أميال وأميال من الأراضى السوداء النقية)[١٠٩] الشخصية التى رسمها "**دوريل**" لقاطن شارع التتويج فقد تم استلهامه بوضوح من زيارته لليوزباشى الذى استقبل كلا من "**تانسي**"، و"**دوريل**"(كما استقبل "**سكوبي**"

كلا من "كليي"، و"دارلي") فى حجرة بسيطة، يزينها- ضمن ديكوراتها البسيطة- صليب أعلى سريره، وصورة للعذراء مريم، وصورة فوتوغرافيه لأمه التى كان يحبها بشدة. ("الصليب المتهرئ على الحائط خلف سريره...وبالقرب منه كانت معلقة صورة صغيرة للموناليزا، والتى كان سحر ابتسامتها الغامضة تذكر "سكوبي"بأمه دائمًا".) (١١٠) كان "ماكيفرسون" - وهو شخصية غريبة الأطوار- مستغرقًا فى التفكير وضل طريقه ونسى الهدف الذى كان يسير من أجله وهو يركب بغلته البيضاء التى تحمله عبر شوارع القاهرة، وهو المنظر الذى حببه لجيرانه المصريين الذين وصفوه بأنه أحد المريدين الذين يمكنهم التنبؤ بالمستقبل.

كان "ماكيفرسون" من المولعين بمشاهدة الموالد، وهى الاحتفالات التى تتم فى ذكرى ميلاد بعض رجال الدين المقدسين سواء كانوا مسلمين أو أقباطا، والذين يتم الاحتفال بهم على مستوى الفلكلور الدينى، إله فرعونى يتحول إلى قديس مسيحى ثم يعود فيبرز كشيخ مسلم. قبل أن يقوم بنشر كتابه الكلاسيكى "موالد مصر" الذى يقوم فيه بالوصف والتعليق بطريقة بهيجة على الاحتفالات، المقدس، والتقليد الساخر، ظل طوال حياته يؤم هذه الشئون المقدسة، وأكشاك الختان، وأجنحة الوشم على الأجساد، والرقص، والألعاب النارية، والمصلين، وعروض العرائس المتحركة، ومواكب العاهرات، وأهدى نسختين من الكتاب لكل من "دوريل"، و"نانسي". كان الإلهام الذى استقاه "دوريل" من الرجل أكثر من ذلك الذى استقاه من كتاب "اليوزباشي" فى وصفه للأحداث العاصفة فى الموالد والتى كانت طبولها والأهازيج المصاحبة والموسيقى الصاخبة فى خلفية وصفه للمدينة الأوربية فى كتابه "رباعية الإسكندرية".

كان هناك شخص واحد واظب "دوريل" على الكتابة إليه طوال وجوده فى مصر وهو الشاعر "ت. إس. إليوت" فى دار نشر "فابر أند فابر"، وقد كان ذلك

قبل كل شيء من قبيل العمل، تقبل "إليوت"في صيف العام الماضي المجموعة الشعرية "لدوريل"، وكانت المجموعة كلها تقريبًا مكتوبة باللغة اليونانية، والتي سيتم نشرها تحت عنوان "بلد خاص"في نهاية عام ١٩٤٣.

يكتب "دوريل" الآن الشعر في مصر كما أن لديه خططه الأخرى التي تجرى مجراها، صرح "دوريل"في رسالة كتبها في فبراير ١٩٤٣ إلى "إليوت" يقول فيها: "إنني سعيد جدًا، وأتبع ذلك باعترافه الذي صرح به وهو خالي البال تمامًا "لقد أصبحت زوجتي حقيقة أكثر إزعاجًا في هذه الفترة، ولكن بعيدًا عن مرض العصر الشائع هذا، فإنني هنا ما زلت أدبر فيما تبقى من عقلي فكرة كتاب جديد".(١١١)

كان "دوريل"في الحقيقة يعترف بالكاد بأكثر من ذلك إلى "إليوت" بأكثر مما يفعل بصمته حيال "ميللر"، لا يعترف بعمق مشاعره، ولا بأن كل شيء قد انتهى بالنسبة إلى "تانسي".

ولكنه في قصيدة شعرية تأملية أسماها الإسكندرية وتحمل طابع كتابتها في الشهور التي قضاها في الأنفوشي، حيث يقف "على صخرة ناتئة في البحر وتداعب جسده حبات الرذاذ المتناثرة للمياه المالحة مع الأمواج التي تصطدم بالصخرة، صوت الترام يأتيه وكأنه الأنين في الظلام وكل ما أحببته"، كانت أفكاره مع "أولئك المحظوظين الآن الذين لديهم من يحبونهم أو أصدقاؤهم، والذين وصلوا إلى غاياتهم السعيدة ويتذوقون بهجة لم يعرفوها من قبل، في حين أسير أنا من إحباط لإحباط حتى وصلت إلى ما أنا فيه الآن".(١١٢)

عندما قام "دوريل" بفتح صفحات جريدة "إيجيبشيان جازيت" يوم ٨ إبريل ١٩٤٣ سيقرأ أغرب تفصيلات لأغرب واقعة تحدث في الإسكندرية، حيث سيتم

عمل حفلة شاى فى "سراديب كوم الشقافة" بالقرب من عمود الصوارى كاحتفال للذكرى الخمسين بتأسيس "جمعية الآثار":

وذلك كنوع من إحياء العادات الرومانية لتكريم الموتى عن طريق زيارة سراديب الموتى فى مناسبتين هامتين هما "عيد الزهور"، و"عيد البنفسج"، كانت كل الحجرات والممرات فى السراديب مزينة بكمية غزيرة من الزهور، والتى تم تأمين إحضار المزيد منها من القاهرة، كانت أكاليل النباتات التى تم ترتيبها فى تناغم جيد مع أكاليل الزهور فى المقابر المهمة تتألق على الجدران، أو تلتف على الأعمدة بحيث قامت بتشكيل مناظر جميلة ومؤثرة.

تم تقديم الشاى فى قاعة الطعام الرومانية وهى حجرة لها ثلاثة أسطح "**Triclinium**"، حيث كان القدماء وأصدقاؤهم وأقاربهم يجتمعون لتناول الطعام احتفالاً بموتاهم، وتم فرش البُسَط فوق المقاعد الحجرية الضخمة، بحيث يتكئ الضيوف على الوسائد، وعلى الرغم من أن تأثير هذه المأدبة التى أقيمت يوم الأربعاء كانت بعيدةً جدًا عن جو الحزن الذى كان من المحتمل أن يقام فيه فى العصر الرومانى، فإنها استطاعت أن تجعل الحاضرين يشعرون بأحاسيس تلك الطقوس غير العادية فى تلك البقعة التاريخية الشائقة.(١١٣)

ألقى "**جادج برينتون**" رئيس الجمعية خطابًا باللغة الفرنسية قال فيه: "إن السنوات الماضية تميزت بأنها شهدت اكتشافات مثمرة بلغت نهضة حضارية مصغرة، وكان يشير إلى تعيين "**آلان روو**" مديرًا للمتحف الإغريقى الرومانى، بعد أن تم إقصاء "أدرياني"فى عام ١٩٤٠، عندما قامت إيطاليا بالهجوم على مصر. كان "روو"رجلاً يعشق العمل الميدانى، ولم يستغرق معه الأمر الكثير من الوقت ليغادر مكتبه فى المتحف وبدأ عمله الميدانى بحفرياته فى "**كوم الشقافة**"، حيث فتح

توابيت جديدة، كما وجد قطعا من الجواهر الذهبية، وفى عمود الصوارى حيث أمكنه أن يقوم بتحديد ما يمكن استئناف العمل فيه فى ذلك الوقت، وكان موقع معبد "**سرابيوم**"...كان يتم عبادة الإلهة اليونانية "**دايونيسس**"، كإلهة للعالم السفلى وكإلهة للحصاد كذلك.

طوال تلك السنوات التى كان "روو" يمارس فيها أنشطته والتى أبهرت أعضاء الجمعية، كانوا يقومون بزيارته فى الغالب عند عمود الصوارى، زيارات خاطفة فى تعريشة مظللة يستخدمها كمقر رئيسى له. يصف "**دوريل**" فى كتابه الأول من الرباعية والمسمى"**جوستين**" المرور من خلال خنادق مقفرة، ومتاريس متناثرة بواسطة علماء الآثار وذلك لحضور اجتماع للجماعة. هؤلاء الذين يتوقون إلى العلم القديم بحثًا عن إماطة اللثام عن أسرار القدماء: "اجتمعت المجموعة فى هذا الوقت فيما يشبه الكوخ الخشبى الذى يبدو أنه كان مخصصًا لأمين المتحف أو المشرف، تم بناؤه أمام جسر أحمر اللون من الطوب اللبن، قريبًا جدًا من عمود الصواري".(١١٤)

إبان الإقامة المؤقتة لـ"**سيفيرس**" فى جنوب إفريقيا، لم يكن فى استطاعة "**دوريل**" أن يستمر فى مراسلته أكثر مما يفعل بالنسبة لـ"**ميللر**"، وبدلاً من ذلك فإنه قام بنشر خطاب مفتوح فى جريدة "**لا سيمان إجيبتيم**"، وهى دورية كانت تنشر فى القاهرة وذلك فى ٢٨ أكتوبر ١٩٤١: "هل تعتقد أننا سنعود ونلتقى معًا؟ لا أقصد فى ماضى اليونان، ولكن أعنى ماضينا نحن فى اليونان؟ أنا أفكر فيك يا صديقى، وأنت فى قارة إفريقيا غير الملائمة لنا، رجلاً من المنطقة شبه الاستوائية بعيدًا عن بيئتك، مغلوبًا على أمرك من عالم تسود فيه المبادلات المريبة.. ولكن ما عسانا أنا وأنت أن نفعل مع التاريخ؟ نحن نعيش فى حدقات "**عيون اليونان**"،

مكرسين أنفسنا لخدمة هذه الحرب البغيضة، إن الماضى والمستقبل يقفان متشابكى الأيدى هنا، وأيًا ما يحدث فإننا سنعود".[١١٥]

تحدث "**دوريل**" عن "**العين**" أو اليونان مرة أخرى، فى الربيع التالى عندما عاد "**سيفيرس**" من بريتوريا إلى القاهرة حيث أصبح يشغل منصب السكرتير الأول لدار المفوضية اليونانية. "نحن نفتقد اليونان مثل كائن حى، ولكن قبل كل شيء فإننا نفتقد اليونان الوطن والحياة! مناظر طبيعية تتمتع برؤيتها متآلفة مع الوجود الإنسانى، وهى العين التى ينعكس فيها "**دوريل**" نفسه كرجل وفنان، "هو وعالمه الخاص" كما يعتقد "**سيفيرس**". [١١٦]

قال "**سيفيرس**": "أنا أحب "**لاري**"، لقد عاش لحظات مدهشة" [١١٧] وبالنسبة لدوريل فقد شعر بأنه مؤمن بالسعادة، ربما نوع غامض من السعادة [١١٨]- ما يشبه السعادة الطفولية، التى عبر عنها "**دوريل**" فى قصيدة شعرية كتبها فى (**كالاماتا**) فى عام ١٩٤١ "خطاب إلى "**سيفيرس**" اليونانى:

سعادتنا هنا فى نتوء جبلى يمتد داخل البحر

يشير إليه نجم فى السماء، صغير ولكنه جميل

.....

لا شيء يبقى غير المرح، مرح الطفولة.

كانت العناصر الضرورية لذلك الحيز الصغير والجميل هي: امرأة، وجزيرة، وشجرة".(١١٩)

كان "**سيفيرس**" يرى أنه و"**دوريل**" يتقاسمان أحاسيس أهل البحر الأبيض المتوسط، ولكن أن تحب بلدًا ما كما تحب امرأة، "حيث إنه كان هنالك دائمًا عنصر حسي في علاقتنا". لم تكن دائمًا خالية من الأخطار".

لم يستطع "**سيفيرس**" أن يهجر اليونان، حيث إنه كان يونانيًا حتى النخاع، وهو ولاء أساسي، ولكن "**دوريل**" لم يكن كذلك، مما نتج عنه في النهاية تصدع مؤلم في علاقتهما معًا.

استأجر "**دوريل**" حجرة في شقة منبسطة ولكنها كئيبة في شهر إبريل تقريبًا، إن لم يكن قبلها، في رقم ٤٠ شارع فؤاد في الجانب الشمالي منها وعلى بعد خطوات إلى الشرق من شارع "صفية زغلول سابقًا كان يطلق عليها شارع المسلة". (١٢١) كان المبنى عتيقًا وزريًا في مظهره حتى بمقاييس ذلك الزمان، ولكنه كان على بعد ١٠ دقائق إلى مكتبه سيرًا على الأقدام، مارًا بمحلات "**باسترويد**"، و"مرسم ومصور"، ثم "نادي محمد علي.."، وأخيرًا "**بودرو**".

كان "**دوريل**" بعد ظهر يوم من أيام شهر إبريل يوم "**بودرو**" في حفلة كان قد دعا إليها ناشر صغير للصحف حينما التفتت إليها سيدة صغيرة وهي تقول: وأنت يا سيد "**دوريل**" ما عملك؟ أنا شاعر.. أجابها "**دوريل**"، وكانت هذه السيدة هي "**يافيت كوهين**"، أو "**حواء**" كما سيدعوها "**دوريل**" بعدئذ، وبالرغم من ذلك مر عام كامل قبل أن يكتب عنها إلى "**ميللر**".

الفصل السابع

مــرايــا

"كان، رغم كل ما قد قيل وما حدث، صورة مصغرة من أنطونيـو، وهـى كليوباترا. بإمكانك أن تقرأ كل شيء عن هذا فى شكسبير. ثم بقدر ما للإسكندرية من علاقة بالأمر، بإمكانك أن تفهم، حقيقةً، لماذا تعتبر مدينة غشيان المحـارم .. إن العاشق يرى نفسه تماما مثل "ناركسيوس Narcissus بين عائلته : فلا مفـر مـن المأساة."

جوستين (١)

فى الأشهر الأولى من عام ١٩٤٣، كانت "إيف" تعمل فى جريدة "بورصـة الإسكندرية" (La Bourse d'Alexandrie)، وهى إحدى الصحف الـصغيرة التـى كان يديرها رجل يدعى "رؤول كحيل" وكانت تنشر قوائم بالأسهم والبضائع، وكان الراتب الذى تحصل عليه من هذه الوظيفة ضئيلاً جدا فى مقابل الأعمال التى لـم تكن تزيد عن مراجعة الأرقام وبيع المساحات الإعلانية والرد على الهاتف. لم تكن "إيف" تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة، ولم يكن هناك غير القليل من الأعمال التـى يمكن القيام بها على أى حال من الأحوال، لذلك كانت تقضى معظم الوقت فى عمل التريكو، كان "رؤول كحيل" قد قام بإرسال دعوات لحـضور حفـل شـاى فـى باودروت Baudrot، وفى ذلك الوقـت جـاءت مكالمـة تليفونيـة مـن مكتـب الاستعلامات البريطانى من شخص ذكر أنه "لورانس دوريل" Lawrence Durell، حيث اعتادت "إيف" على إرسال نسخة من الدعوات التى ترسلها إلى هـذا الاسـم

الذى تحبه، فقد كانت من عشاق أفلامه، وتكرر اسمه باستمرار وهى تربط بينه وبين صورة الممثل "ليسلى هوارد" **Leslie Howard**.

كان "لورانس دوريل" يريد التحدث إلى "رؤول كحيل" ليعرف ما إذا كان من الممكن أن يصطحب معه صديقة من أصدقائه إلى حفل الشاى فى باودروت، لذلك قامت "إيف" بتحويله إلى منزل "رؤول كحيل"، حيث قام خادمه الذى لا يتحدث الإنجليزية بالرد عليه، لذا قام لورانس دوريل بتقليد الحديث باللغة العربية كنوع من السخرية، وكانت "إيف" تستمع فى هذا الوقت إلى هذه المحادثة التى لا يفهمها أى من الأطراف ويتخللها الصوت المرتفع والصياح بين الحين والآخر، إلى أن انفجرت أخيرا فى الضحك، ثم تدخلت فى الحوار وقالت للورانس دوريل: إن الخادم يريد أن يقول له: إن "رؤول كحيل" غير موجود بالمنزل، ولكنها أكدت له أنه لن يمانع أبدا إذا اصطحب معه أى شخص، فقد كانت تريده أن يحضر إلى حفل الشاى، بصرف النظر عما إن كان سيصحب صديقته أم لا، المهم بالنسبة لها أن تقابله وتراه.

وبعد أيام عندما وصلت "إيف" إلى حفل الشاى، شاهدت حشدًا كبيرًا من الناس الواقفين على أحد الجوانب: "لارى كان يجذب الناس نحوه تماما مثل وردة يتجمع حولها النحل، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يلتقيان فيها"، ولكنها شعرت بالدهشة الشديدة عندما وجدت أن "لورانس هوارد" الذى تنظر إليه على أنه نموذج للرجل الإنجليزى المهذب أقل منها فى الطول، "كان صغير الحجم، من النوع الذى لا أفضله من الرجال، ولكنه وجد من يسليه ويستضيفه، "لذلك فسوف أجعل منه استثناءً.(٢)"

"مرحبا بك، أنا الفتاة التى تحدثت إليك فى التليفون"، هذا هو كل ما قالته، ولكن شوقها لرؤيته جعلها تدفعه نحو الحائط: "أحس بالخوف والرعب، أنا لم أُخِف أى إنسان فى حياتى، ولكنه كان مذعورا، واعترف بذلك عندما تحدثنا معا، لم أتصور، ربما لم يتعرض لموقف كهذا أن تقترب منه فتاة مثلى بهذه الطريقة المباشرة."

بعد ذلك سألته إيف عن عمله، فأجاب بالرد المألوف قائلا: "أنا شاعر"، إلا أن إجابته جعلتها تشعر بالقلق حينما ترى نفسها تحتل نفس هذا المكان فى عالم من نسج خيالها.

لم تستطع "إيف" أن تغض نظرها عن ملاحقة الفتاة التى اصطحبها "لورانس دوريل" معه، يبدو أنها مجرد فتاة يقضى معها بعض الوقت، أى أنها لم تكن صديقته تماما، وفى تلك الأثناء وجدت "إيف" عذرا لمغادرة الحفلة: "غادرت الحفلة الساعة السادسة، كان لابد من مقابلة أى شخص آخر لأتمكن من التخلص منه، فهذه العلاقة من العلاقات لم أرغب فى إنشائها مع شاب فى مؤسسته يريدنى رمزا لمكانته وحسب".

بعد ذلك تحدث "لورانس دوريل" إلى "إيف" عدة مرات فى التليفون، ولكن حياتها كانت مضطربة تماما، مما جعلها تفكر فى تأجيل الابتعاد عنه؛ "حاولت أن يكون بجواري"، وفى يوم أحست "إيف" أنها فى حاجة إلى أن تتكلم مع أى شخص آخر خارج الدائرة المألوفة للأشخاص المحيطين بها، لذلك قامت بالاتصال به وحددت معه موعدًا فى مقهى ومتجر الحلويات "بسترودس"، وصلت "إيف" مبكرا، فتوجهت إلى أتيلييه[٣] الإسكندرية بعد أن عبرت شارع فؤاد، وهناك أنفقت بعض الوقت فى الحديث مع أحد أصدقائها المثّالين الذى نحت لها من قبل تمثالاً بالحجم الطبيعى يصورها عارية، وهذا التمثال موجود حاليا فى إحدى الحدائق فى

الإسكندرية، وفى ذلك الوقت كانت "إيف" تنظر من داخل الأتيلييه إلى النافذة الكبيرة فى "بسترودس" لترى إن كان "لورانس دوريل" جالسا على إحدى الطاولات فى صالة الشاى.

قام اليونانيون بتشييد مقهى "بسترودس" على أنقاض "سميرنا"، وكان متجر الحلويات بسترودس يستقبل صفوة مجتمع الإسكندرية، فكان مكانا مثاليا للمواعيد الغرامية"[٤]، داخل المتجر جو يفيض حركة وحيوية وحياة بالإضافة إلى مظهره الأنيق الذى تزينه زخارف معمارية وخشبية على طراز فن الديكو، كان متجر الحلويات بسترودس الموجود فى شارع فؤاد متصلا بالمطعم المجاور الذى يتم فيه تقديم الشاى بعد الظهر، ويفتح كل من متجر الحلويات بسترودس وغرفة الشاى على بار منظم فى المؤخرة حيث يوجد طاولات مرتبة على الأرضية المرصوفة، ولا يزال متجر الحلويات بسترودس على نفس هذا الشكل إلى الآن، ولكنه مغلق ولا يوجد فيه أى شخص، إلا أنه لا يزال محتفظا بطابعه الخاص كمكان للمقابلات الحميمة مثل الجزيرة المعزولة التى لم تدر عليها بعد عجلة الزمن والصخب الموجود فى المدينة.

فى حوالى الساعة الرابعة نزلت "إيف" إلى متجر الحلويات "بسترودس" حيث كان ينتظر "لورانس دوريل" جالسا على طاولة مطلة على شارع فؤاد، بدأت "إيف" تتحدث إلى "لورانس دوريل" باللغة الإنجليزية لأنه لم يعرف الفرنسية جيدا، وتذكرت "إيف" آنذاك كيف كان "دوريل" خجولا وغير واثق من نفسه، وبعد فترة قليلة من الوقت، بدأ "دوريل" فى الحديث عن "تانسي" وعن "مشاكله مع زوجته التى قررت أن تتركه ولا يعلم سبب ذلك"، ورغم إحساسه بالحزن والتعاسة فإنه "كان غاضبا، وظل يردد: لقد صعدت للشجرة ولا تريد النزول"، تعلمت "إيف" لغتها الإنجليزية من مشاهدة الأفلام السينمائية، ولكنها لم تكن قد سمعت مثل هذا

التعبير من قبل، لذلك ظلت تفكر فى البداية فى المعنى الحرفى لهذا التعبير وتتعجب كيف تمكنت هذه المرأة وابنتها من الحياة فوق شجرة فى فلسطين، ثم كرر "لورانس دوريل" العبارة مرة أخرى قائلا: "لقد صعدت إلى أعلى الشجرة، ولا تريد النزول مرة أخرى".

عندما بدأت إيف تتحدث عن نفسها كانت الشمس قد بدأت فى المغيب، قالت "لقد وجدنا فى نفسينا الرغبة فى أن نتجاذب أطراف الحديث" فتحدثت إليه عن مشكلتى التى أواجهها مع صديقى تشوك، كان يطلق على نفسه "تشوك". تشوك.. إننى كنت على وشك أن أصبح مدام تشوك. من المؤكد أن الناس سيرون أن هذا اللقب يناسبنى كثيرا، ولم أكن أعرف حتى اليوم ما هو اسمه الأول رغم أنى بدأت أسأله، إلى أن وصلنا بعد ذلك إلى هذا الموضوع، كانت الأحداث معتادة وتمر ببطء شديد كما تعرف. لقد تمكنت من قبوله على حالته، الصدمة، وهذه هى الحالة التى فضل أن يُعرف بها، ولم أعترض على ذلك، وهذا هو السبب الذى جعل علاقتنا مستمرة، فقد تسامح كل واحد مع الآخر بدرجة كبيرة، كان طويل القامة أشقر، ويشبه بالفعل "دانى كاي" **Danny Kaye**، ولكن لم يشبهه أحد فى خفة الظل، ومن بين الأشياء التى أعجبتنى فيه اهتمامه الشديد بأناقته التى كانت من الأشياء التى تعنى الكثير بالنسبة لى فى ذلك الوقت، ولهذا كنت أنا وهو ثنائيا غير عادى فى أعين الناس، فاقترحت عليه قبل شهور أن نتزوج ولكنه رد على طلبى قائلا: إنه لا يريد الزواج، لكن تشوك يرى الآن أنه يريد الزواج منى ويتعجب قائلا: "ما الذى يجعلنى أثق بك؟" أنا يخطر ببالى هذا السؤال من قبل ولا أجد له إجابة، لكنه جعلنى أشعر بالقلق، نعم جعلنى أحس بالقلق الشديد."

عندما لاحت لإيف فرصة التحدث إلى لورانس دوريل قالت له: "يتردد فى ذهنى سؤالٌ ولا أعرف إجابته، ماذا أقول لرجل يعترف أنه لا يثق بي؟ كنت مهتمة

وشغوفة للغاية بأن أعرف أى شيء جديد عن نفسى، وأعتقد أن هذا الاهتمام والشغف هو الذى جعل "لورانس دوريل" يحبنى، إذ بدأ فى توجيه عبارات المجاملة التى كانت تعنى الكثير بالنسبة لى، والله يعلم أنى كنت متعطشة ومشتاقة لسماع تلك العبارات، ثم فكر قليلا وقال: "من المؤكد أنك ستكونين أفضل زوجة لأى رجل يتعامل معك بطريقة جيدة، لكن كان الله فى عون الرجل الذى لا يقدم لك مثل هذه المعاملة"، أحسست حينما سمعت كلماته بأنها تنطبق على تماما.

استمر الحديث موصولاً بين لورانس وإيف، وخرجا فى الليل بدأ الاثنان يمشيان فى الشوارع المتعرجة المظلمة باتجاه الميناء الشرقى، مرت الساعات الطويلة وهم يسيرون على طول طريق الكورنيش ذهابا وإيابا قبل منطقة الأزاريطة. "لم أفكر إن كنت قد استفدت بأى قيمة من هذه النزهة ولكنه استمر يردد: "عندما أخرج وأزور أولئك الناس الإسكندرانيين فإنهم لا يحافظون على احترام الناس أو يهتمون بالطريقة التى تعرفين منها ما هو الصواب وما هو الخطأ، وكيف تتصرف بنفسك فى الحياة "فهو لم يقصد طبعا أنى شخصية عاقلة أو أى شيء من هذا القبيل ولكن فى أمور مهمة فإننى أبدو متمتعة بتلك الصفات." وأخيرا اتجه الاثنان إلى شارع شمبليون وهما لا يعرفان أنهما يسيران فى نفس الطريق الذى سار فيه "فورستر" عندما اتجه من محطة الترام فى الأزاريطة إلى عمود الخرطوم فى أول مقابلة غرامية له مع محمد العدل، وعندما وصلا إلى باب العمارة التى تسكن فيها إيف مع والديها فى الدور الأول، تصافحا وودعا بعضهما. كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية صباحا، لقد بقيا معا مدة عشر ساعات يحاول كل منهما أن يطمئن قلبه من المخاوف ويستطلع التأكيدات من الطرف الآخر، وبينما ظلت إيف يقظة على فراشها لا تستطيع النوم ظلت تقاوم إحساسا بأن "لارى قد أحبنى، ولكنى أحب شخصا آخر.

فى ذلك الوقت كانت إيف قد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها إذ ولـــدت فى القاهرة فى الثامن من أغسطس ١٩١٨، إلا أن ذكرياتها الأولى كانت مرتبطـــة بالإسكندرية التى انتقل إليها أبواها بعد بلوغها العامين، وكانت تعتبر نفسها منتميـــة لهذه المدينة، وتذكر السعادة التى أحست بها وهى تستكشف كل أماكنها الجميلة فـــى أيام صباها، ولكن عندما قابلت لورانس دوريل البالغ من العمر واحدًا وثلاثين عاما وقعت فى حياتها أزمة".

إيف كوهين على أحد شواطئ الإسكندرية عام ١٩٤١، قبل عامين من لقائها مع لورانس دوريل.

كانت علاقة الحب بين إيف وتشوك قد مر عليها عامان فى ذلك الوقت، كان يهوديًا نمساويًا أتى إلى الإسكندرية فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين وهو يبلغ من العمر ما يقرب من أربعين عاما، وكان يسكن فى إحدى الشقق فى أحد الشوارع الجانبية بين شارع شمبليون ومقابر اليهود حيث كانت إيف تعيش مع والديها فى الأزريطة، وفى إحدى الليالى كانت إيف ولورانس ينـزلان من شقة لورانس عندما شاهدهما والد إيف الذى شعر بالصدمة آنذاك. "لم أعد طفلة صغيرة بعد الآن، كان يجب أن يعرف أبى هذا فى ذلك الوقت، لكن ذلك لم يحدث، ولهذا السبب انفجرت بالبكاء."همس لورانس فى أذن إيف قائلا: "حسنا قولى له: إنى خطيبك"، لكن والدها شعر بالصدمة الشديدة عندما سمع ذلك وهو يسلم على لورانس دوريل، وكانت كلمة "مرحبا" هى كل ما نطق به فى ذلك الموقف، لكنه قال لإيف بعد ذلك: "لا يمكن أن تتزوجيه"، ثم ذكر بعض الأشياء عن سمعته وأضاف قائلا: "إنه لا يشبهنى على أى حال."

"كان والدى مهووسا وله أسبابه الخاصة. كما كان، حسبما أعتقد مفتونا بى. لقد كنت أقرب آدمى اقترب منه فى حياته. ولم يعرف كيف يقترب منى أكثر من ذلك، ولم يجد وسيلة تساعده فى ذلك، فبالتأكيد لم تكن أمى قادرة على ذلك. أدرك لارى ما أعنيه، إذ أخبرته أن أبى تداخل معى جنسيًا. ولكنه لم يفعل شيئا. فنحن ندين باليهودية، فهو كان أمينا مع الله، ولكنه لا يعرف ماذا يحدث له وهذا هو كل الموضوع. أظن أنه كان متيما بى لأننى كنت الوحيدة التى فهمها فى حياته."

ولكن منذ اللحظة التى ارتجل فيها (مصدوم) لورانس دوريل وأعلن عن الخطوبة، ظلت والدة إيف تسألها "أين صديقك؟ أين خطيبك؟ لماذا لا يأتي؟ ولماذا لا أراه؟، وكانت إيف تتعامل مع مثل هذه المواقف وهى تدّعى الإغماء أو تهدد بأن تلقى نفسها من الشرفة إذا لم يتركوها وشأنها. أما السيد (مصدوم) لورانس دوريل

فقد سمع ما فيه الكفاية عن عائلة إيف ليعرف أنه لن يستطيع عمل أى شيء معهم، وعندما أخبرته أنه ينتظرون زيارته رد عليها قائلا: "لا أعتقد أنـــى قـــادر علـــى مواجهة والديك، ثم كيف أعرف أنك جديرة بثقتي؟"، ففى العـــام الـــسابق والتـــالى لرفضه الزواج بها، أحست بحريتها فى أن تقابل رجالا آخرين. "قـــال المـــصدوم "ولكنك لا يجب عليك أيضا أن تثقى بى "وهنا بدأت إيف أيضا تتـــساءل إن كانـــت تستطيع أن تثق فى نفسها أم لا فهى تعرف تماما بأن المصدوم ليس هـــو الرجـــل الذى تحبه فعلا.

"شالوم كوهين أرازي"(Chalom Cohen-Arazi) هو جد إيف مـــن ناحيـــة أبيها، وكانت عيناه زرقاء اللون، وتذكر إيف أن هذا البطريرك السفاردى (يهـــودى من أصل إسباني) كان قد غادر الجزائر فى السبعينات من القـــرن التاســـع عـــشر بصحبة زوجته "راحيل"(Rahel) التى تنتمى إلى نفس عائلة كوهين، واستقرا بعـــد ذلك فى مصر التى أنجبا فيها كل أبنائهم التسعة(٥). وقد كان شالوم يتحدث العربية بطلاقة ويرتدى الجلباب والطربوش، كما أقام محل صائغ فى سوق خان الخليلى.

أما جد إيف من ناحية والدتها فكان يُـــدعى "موردهـــاى بلاكـــسى ميـــرام" (Mordahai Palacci-Miram)، وعلى الرغم من أنه كان سفارديًا مثل جد إيـــف لأبيها، فإن جذوره تمتد إلى القسطنطينية وتزوج فيها مـــن "روزا ألترمـــان "التـــى كانت تنتمى إلى يهود الأشكيناز التى ترجع أصولهم إلـــى ألمانيـــا، وأنجـــب فـــى القسطنطينية كثيرًا من البنات من بينهم ستيلا والدة إيف، ولكنهم هربوا بعد انتـــشار وباء الطاعون واستقروا فى الإسكندرية فى بداية القـــرن العـــشرين حيـــث قـــام موردهاى بفتح متجر لبيع براويز الصور بشارع محطة الرمل (Rue de la Gare de Ramleh)، وسرعان ما اشتهر هذا المتجر بحيث تمكن موردهاى خلال سنوات

قليلة من الانتقال مع أسرته الكبيرة التى تضم ثمانى بنات إلى منزل من ثلاثة طوابق (وقد أضيف له طابق رابع بعد ذلك)، وكانت شرفات المنزل الأمامية والخلفية ذات أسوار من الحديد المشغول، بينما تبرز تماثيل الأسود والآلهة الإغريقية التى تزين النوافذ على واجهة المبنى رقم ٩٤ من شارع حسن باشا الإسكندرانى، الذى يتفرع من الجنوب من شارع محرم بك ليصل إلى ترعة المحمودية.

وفى عام ١٩١٧ تزوج موسى كوهين أرازى من "ستيلا باى لاكسى ميرام"فى مدينة الإسكندرية، ثم توجه والدا إيف بعد ذلك للعيش فى القاهرة حيث تقابلا أول مرة عندما كانت ستيلا التى كانت تتدرب على التمريض. ثم زاد الارتباط بعد ذلك بين العائلتين عندما تزوج "نسيم"(Nessim) الأخ الأكبر لموسى من الأخت التوءم لستيلا التى تُدعى "فينتورا"(Ventura)، وحسبما تقول ابنة نسيم" "كان العم موسى هو الوحيد بين إخوانه الذى له بشرة سمراء ويختلف عنهم أيضا بحساسيته الشديدة(٦)". ومن بين الأشياء التى يختلف فيها موسى كذلك أنه لم يكن موفقا فى عمله، وهذا هو السبب الذى جعل ستيلا تعود هى وزوجها وابنتها مرة أخرى إلى الإسكندرية فى عام ١٩٢٠، تقول إيف: "لم يستطع أبى تأمين الدخل المناسب لنا، وهو أمر صعب عليه كرجل، كما لم يستطع أيضا تدبير سكن خاص بنا، لذلك اتجه إلى العيش مع والدى ستيلا، ومع ذلك كانت ستيلا عصبية لكى تحافظ على مظهرهم، لذلك كانت تقول للجيران: "زوجى صاحب بنك"، رغم أنها بعد أول مرة ذهب فيها فى عمله كمراب مع شقيقه نسيم بالقرب من مسجد تربانا فى شارع فرنسا، كان يكافح لتوفير متطلبات احتياجاته بدأ عمله صرافا بمكتب إقراض نافذته مطلة على ٩ ميدان محمد على بين المحاكم المختلطة والبورصة.

على جانب خط الترام من شارع حسن باشا الإسكندرانى، باتجاه الشمال من شارع محرم بك، كانت الفيلات الفاخرة والحدائق الفسيحة المترفة لأصحاب البنوك والسماسرة وأصحاب العقارات الأثرياء وعائلات مثـل عائلـة ميناسـى وعائلـة أمبرونز **Measces and Ambrons** ولكن عندما كانت إيف طفلة كانت تردد: "لـم أعرف أن العالم موجود. "كانت المنطقة المجاورة لمسكن جديها شبكة من الشوارع المزدحمة والمنازل مكتظة حيث تختلط اللغة العربية بأصوات لاتينية (خليط مـن اللغة الإسبانية القديمة مع بعض الكلمات العبرية). فى "رباعيات الإسكندرية" ينقـل دوريل عن يوميات جوستين: "كانت هذه أحياء فقيرة من المدينة البيضاء، فلا يوجد أى تشابه مع تلك الشوارع الجميلة التى شـيدها وزينهـا أجانـب ويجلـس فيهـا السماسرة يرشفون الشاى ويطالعون جرائدهم الصباحية. حتى لو لم يكـن المينـاء موجودًا هنا لأجلنا. فى فصل الشتاء، أحيانا، وربما نادرا، تسمع هـدير صـفارات الإنذار ... ولكن فى بلد آخر. آه! مأساة الموانئ، ونستحضر الأسماء حينما لا نجد مكانا نذهب إليه. أمر مثل الموت يتردد بذاته فى كل تكرار لكلمـة "الإسـكندرية، الإسكندرية"[٧].

أما ذكريات إيف عن جيران طفولتها فقد كانت أكثر إشراقا، وكـذلك عـن سكان الضواحى الجنوبية من حى محرم بك، لقـد كـانوا خليطـا مـن العـرب الميسورين والطبقة المتوسطة الغنية من اليهود" راحت تتـذكر بحنـين الإحـساس بالانتماء والأمان الذى تشعر بها عندما كانت تخرج وتلعب فى الشوارع الجانبيـة من مسكنها. أطفال صغار حفاة فى شوارع محرم بك، ونفخة بوق بائع الأيس كريم فى نهار رمضان..[٨] " تلك بعض ذكرياتها التى دونها دوريل فى يومياته لكتـاب الموتى. ولكنه سجل أيضا الجانب المعتم الذى أغفلته إيف من ذكريات ماضيها، لم

يكن الشارع ولكن أستطيع أن أقول: "لم أكن سعيدة وهناك قايضت جزءا من جمودى مقابل آيس كريم شيكولاتة"(٩).

أما صور إيف فى محرم بك فكانت تظهر أنها فتاة نشيطة مشرقة وكل ما تتذكره هو زيادة إحساسها بالوحدة، وقد قيل لها - رغم أنها لا تذكر شيئا قيل لها- "أغمى عليها عندما تركت أمها الغرفة. " جدتى روزا وعدتنى بالكثير، لقد حلت محل أمى تماما فى تلك السن المبكرة، وعندما كنت فى الثالثة، سرعان ما أدركت أن أمى لم تعد موجودة لتقوم بمهمتها"فى تلك السنة كانت فنتيرا زوجة نسيم" قد توفيت. كانت توءم أمى... كارثة... حين فقدت أمى توءمها." فلم تكن مكتملة البناء"لقد عرف أبى ذلك وفهمت أنا أيضا، لم تكن أمى طبيعية ولكننا تحملنا ذلك بشق الأنفس." وتعاقب الموت : فقدت ستيلا ابنها الرضيع ثم فقدت ابنا آخر فى الثالثة أصيب بالدفتريا وتوفى، كما أجهضت. كان الجنين جثة وقد رأته إيف، بعد احتفاء كبير بانتظار مولود، وهى وتبحث تحت الكرنب حيث قيل لها إنهم وجدوا الطفل، ومع ذلك تتذكر كيف أن الأوراق الخارجية للكرنب قد تعفنت.

ومع أم لا تستطيع أن تتقبل وتتكيف الوضع، "حتى تحافظ على أطفالها أحياء"قضت إيف حياتها مع جدتها التى بحثت عنها ورأتها تطعمها. "ولكنها كانت سيدة رسمية وألمانية ولم تكن شرقية. لم تقبلنى قط، لم تعانقنى أبدا، لم تقل : تعالى واجلسى فى حجرى. كانت تلعب معى الباستراتا وتسعد بفوزها فى لعبة الورق، علمتنى الإصرار. غير أنى أردت الدفء منها، أن تحضننى، ولكنها لم تفعل لأى إنسان."

وعندما بلغت إيف السادسة توفيت جدتها روز وانتقلت لتعيش مع والديها فى كامب شيزار. كان المعبد اليهودي"الذى كان يتردد عليه أبى فى جنوب محطة

الترام، أما شقتهما التى عاشا فيها فكانت بين طريق الترام والبحر. عادة كنا نتبادل الحديث بالعبرية الإسبانية والفرنسية الضعيفة، ولكن كان والداها يتحدثان باللغة اليونانية عندما يريدان أن يخفيا شيئا على إيف " لذا تعلمت اللغة اليونانية بسرعة من جار يونانى بسرعة. أما اللغة العربية فقد تعلمتها من والدها، "لغة جذورى، "وتعلمت اللغة الإيطالية من الدراسة فى المدرسة الإيطالية الكاثوليكية فى محرم بك، برغم أنها كانت مسجلة فى مدرسة ليسيه الفرنسية، وهى على بعد خطوات من مسكنها نحو الشاطبى من كامب شيزار.

حينما كانوا فقراء، وسواء كان من منطلق الحاجة أو الهوس، "فإن أمى غيرت أماكن سكننا باستمرار "أربعة عناوين مختلفة فى شارع واحد فى كامب شيزار ثم فى خارج سيدى بشر؛ حيث استأجروا منزلا بسيطا خصصت غرفة جانبية لأمها لتدير فيه مشغلا لتفصيل الفساتين. أحبت إيف ما كانت تفعله أمها رغم غموضها وعصبيتها" ومع أن ستيلا كانت تسهم بقدر كبير فى زيادة دخل الأسرة إلا أنها أصبحت عنيدة ومستبدة أكثر من ذى قبل، وقامت بدور لما اعتبرته خلفيتها الأوربية المتفوقة إلى تشويه كفاءة زوجها الشرقى. تستعيد إيف ذكرياتها بمرارة وتذكر كيف أن أمها كانت تلعب بشكل لا نهائى على الجرامافون وهو المسجل الوحيد الذى كانوا يمتلكونه "سيدتى كونى طيبة" من ألبومها الموسيقى لسنة ١٩٢٤ تثير فى إيف مشاعر "الخوف المرضى من الأماكن المقفولة والتى لا مفر منها، لا بسبب المشاجرات والتوتر بين أبويها ولا من العنف الذى لحق بها، وليس من عدم استقرار أمها أو من إحباط أبيها فى بحثه الدائم عن الحب. فى الربيع ذهبت مع والديها للنزهة فى الصحراء حول مريوط، "حيث تقول "ألتقط بعض أزهار الخشخاش التى تتفتح وتموت فى النهار."

وفى أحسن الأوقات كان والداها يصحبان معهم خادما يقوم بأعمال الطهى والتنظيف. كما كان هناك تناوب للخدم، كلهم من أصل مصرى، كانت تتودد إيف إليهم وتطلب منهم أن يرووا لها حكايات. "كانت حكايات تتحدث عن عالم الجن والعالم السفلي" وكما تصفها إيف، "عالم يعيش فى علاقات تكافلية مع عالمنا."تذكرت أنها سمعت قصة امرأة رائعة الحسن والجمال ولكن ساقيها مثل جسم السمكة مليء بالقشريات وقدميها قدم دجاجة: "كان مغزى القصة يتطلب منك أن تتقبل أى شيء وأى شخص مهما كان، لا يهم مدى الضيق الذى يبدو من القصة، فهذه هى الطريقة للاسترضاء وتجنب الشر، فأنت لا تعرف من هو فعلا أو من هو المعتدى أو من كان يسعى لإغضابك أو ينقلب عليك. وهذا هو رمز المصرى الذى يرحب بالغريب، ليستضيفه، فكل القصص تعيد التأكيد على هذه الموضوع."

عندما بلغت إيف العاشرة كانت عاجزة عن القراءة." تقول عن نفسها "كانوا يضربوننى، وعندما أقول يضربوننى فإننى لا أقصد أنهم ضربونى ولكنى كنت أقصد سحق الروح. أما حاليا فإننى أبدو فى وضع دونى بائس. لم أفهم شيئا فى المدرسة كل ما كنت أفعله هو الانتظار."راحة من البيت... كانت تتمشى على شاطئ البحر، وأحيانا كانت تمشى مسافة عشرة أميال طويلة من حافة صحراء سيدى بشر باستروديس حيث كانت أجرة الترام بالنسبة لها تعنى شراء فطيرة تحبها من المدرسة".

ولفترة من الزمن درست إيف فى مدرسة البعثة الأمريكية فى العطارين، "وعندما بلغت الثانية عشرة، فى نفس السنة التى ولدت فيها أختها دوللى، أرسلت إلى المدرسة الأسكتلندية للبنات".

كانت المدرسة فى شارع أمين فكرى باشا المتفرع من شـــارع الـــسلطان حسين باتجاه محطة ترام الرمل، ورغم أن المدرسة ممتدة ويطلق عليهـــا مدرســـة المنارة الإنجليزية للبنات، فمازال مبناها الرئيسى يحتفظ بخطة بـــصليب القـــديس أندرو. كان الصليب يزين سويتر المدرسة وقد لبسته إيف فى الصورة فى أول سنة لها: فوق فمها الكبير والشفتين الممتلئتين والأنف الدقيق ونظـــرة عينيهـــا الحـــادة المختلطة بالعزم ولمسات الألم. لقد عاشت إيف منطوية على نفسها وتتذكر كيـــف كانت تسمع أحيانا أصوات" نهر يفيت يناجى القمر" تذكرتها من أيام المدرسة لأنها كانت تحلم دائما.

عند الآنسة ميلانى أثاناسيان، وجدت إيف فى مدرستها المتعاطفـــة تـــشجيعا وقد درست معها الأحياء والرسم ودراسات إنجيلية. كانت عائلة ميلانى، من أصول أرمينية من القسطنطينية، وقد هربت من أواخر القرن التاسع عشر مـــن المـــذابح التركية وعاشت فى الإسكندرية، كانت فقيرة معدمة فسمح للطفلة اللاجئة بالالتحاق بمدرسة الرومان الكاثوليك فى مقابل تنظيف الفصل بعد الانتهاء من الدراسة. وتـــم منعها من حضور الصلاة لأنها كانت تعانى من "ربو شعبي"، ثم فهمت بعد ذلك أن مرضها يكمن فى كونها منتمية إلى الكنيسة المسيحية الأرمينية: كمـــا أن أخواتهـــا منعنها من الصلاة لأنها كانت "منشقة عن الكنيسة"[١٠] ولعل رؤية بعض ملامـــح طفولتها تكمن فى انسحاب إيف، خرجت ميلانى من طريقها لتشغلها، كانـــت فـــى مدرسة إسكوتش للبنات **Scottish Girl's School** وهناك تعلمت إيـــف القـــراءة. فبدأت تقرأ قصص الإنجيل والتى كانت تفضلها، وخصوصا حياة السيد المسيح، ثم تحول حب إيف للكتب إلى شراهة فى القراءة كانت تلتهم كل شيء يقع أمام عينيها. فى البيت كان هناك كتب للمؤلف ستاندل "الأحمر والأســـود **Le Rouge et le noir** وكتاب بارما الأخضر .

La Chartreuse de Parme رغم أن والديها لم يقرآ هذه الكتب من قبل، فإن إيف قرأتها أكثر من أربع مرات في مرحلة فترة بلوغها لأنها أحبت بطل الرواية، الأنيق الأرستقراطي والفاتن "فابريزيو، وبالمثل في اللغة الفرنسية فقد التهمت روايات ديكنز وموليير وراسين، بينما كانت المعلمة "ميس ميلانيو كانت تعلمها أيضا الإنجليزية، وهكذا بدت إيف تتحدث اللغة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية واللغة العربية واليونانية، رغم أنها لم تتعلم أن تقرأ أو تكتب باللغتين الأخيرتين.

ورغم أنها كانت تحب أن تقول إنها تركت المدرسة في سن السادسة عشر، وتابعت دراستها بالكامل، ولكن هجرتها بعد سنة، ومرة أخرى كانت صورها تروى حكايتها : فلم تعد تلك الفتاة المنطوية على نفسها ولكنها أصبحت تلك الفتاة اليقظة الملتفتة لحضورها الواقعي، وعندما بلغت السابعة عشرة صارت فتاة جميلة حسناء، في عينيها بريق وعلى شفتيها ابتسامة مشرقة وعلى جسمها لباس البحر للسباحة. "ذلك عندما ابتعدت عن أبوى وبدأت في مصاحبة مجموعات منفصلة من طبائع وحيوات مختلفة." في الصيف حينما يعبق جو الإسكندرية برحيق الياسمين، وتضع النساء عقودا من الياسمين حول أعناقهن "كانت تذهب إلى منزل الشاطئ في سيدى بشر الذى استأجره مجموعة المسنين من بينهم راؤول كحيل، "الشباب لا يدفعون، كان أمرا متفقا عليه بأن يذهبوا في يوم محدد من الأسبوع لتنضم إليهم في اللهو. وفي الأوقات الهادئة كان المكان يستخدم لعلاقات حميمة." أحيانا كانت تذهب لترقص في نادى بيلافيستا على الكورنيش في كامب شيزار، مع السيد Monseigneur الذى كان يصحبها إلى فرقة برازيلية في كباريه إكسليسيور Excelsior والمطل على الميناء الشرقي، أو كانت تذهب لتناول الشاى مع الراقصين thes dansants في فندق جراند تريانون.

كانت تصاحب الأصدقاء من نفس عمرها يبحرون فى قوارب شراعية إلى الميناء الغربى حيث السفن المتعثرة واقفة، وسطحها فوق خط المياه، يرقصون على ضوء القمر وعلى موسيقى صادرة من الجرامافون. وفى ذات الوقت كانت إيف مهتمة بالتأمل والحديث إلى نفسها، حتى أطلق عليها أصدقاؤها "آنسة التحليل النفسي".

عاشت إيف مع والديها، وانتقلت معهما إلى الأزاريطا، حيث كانت أمها تناديها "بالطاهرة" لأنها لم تكن تتحمل أن يلمسها أحد، "فلا يقربنى أحد، لأننى شعرت بسوء المعاملة فى طفولتى. "أحيانا كان ينتابها نوبة من الكآبة والفتور ثم أحست بالمهانة حينما اصطحبتها أمها إلى الماخور لأن الكشف على مرض الزهرى رخيص هناك، (وربما لأنه أكثر سرية) وقررت إيف أن تترك البيت وتلتحق بتدريب التمريض فى مستشفى كوزيكا **Cozzika Hospital** بعد افتتاحها فى عام ١٩٣٧. وقد تم بناؤها جنوب طريق "أبو قير" وهى على بعد ميل من شرق حدائق البلدية وبوابة الشمس المختفية وسعتها ٢٥٠ سريرًا، وقد أنشأها رجل الصناعة الإسكندرانى ثيوكريس كوزيكا بدلا من المستشفى اليونانى القديم فى المدينة وبغرض أن تكون مستشفى متكاملاً ومبنى معماريا فريدا."[١١]

هنا تم تخصيص غرفة لإيف، وهنا أيضا بدأت أول علاقة غرامية حقيقية مع طبيب يونانى مسئول عن تدريبها. وقد استمرت تلك العلاقة سنة(اكتشفت إيف بعد ذلك أن الطبيب كان يستقبل متدربة جديدة كل سنة) وسرعان ما انتشر الخبر بين الجميع، بما فى ذلك أمها التى استفادت من الموقف فى زيارتها للطبيب وطلبها منه أن يعالجها مجانا.

بعد هذه العلاقة الخاصة مع الطبيب أحست إيف بالثقة بالنفس وبدأت تستعد لمقابلة الرجل الذى أحبته من كل قلبها.

لقد افترض دوريل أنه مصدوم Shock هو الرجل الذى حل فى وجدان إيف. إذ قال لها فيما بعد حينما شوهد مصدومًا يجلس وحيدا فى باستروديس Pastroudis "إنك امرأة قاسية القلب، فكما تخليت عنه يوما فأنت سوف تتخلين عنى أيضا من أجل رجل آخر". إلا أن إيف تحدثت طويلا عن الرجال الذين عرفتهم فى حياتها، وعن طفولتها وعن أسرتها، ولكنها لم تتحدث أبدا عن شدة حبها لروجيرو Ruggero.

تذكرت إيف تلك الليلة التى قابلت فيها روجيرو، عندما دعتها صديقة لحضور حفل وهذا يعنى أن تستقل الترام إلى سان ستيفانو ثم تمشى مسافة بين الشوارع الجانبية "وكيف خطر فى بالى بأن ذلك المساء سيكون حافلا لى كما توقعت أن أقابل رجلا أستجيب له بمشاعرى." مرت على الكنيسة، ودخلت لتصلى فى صمت وشعرت بأن الرب يهمس لها "امضى فى طريقك". بدأ الحفل، تلفتت حولها فرأت شابا: "كان شابا طويلا، رأسه أطول مني" يقف فى زاوية من الغرفة. فى البداية ساد جو من التحفظ ولكنها وثقت فيه، ومن ثم فقد قررت أن "هذا هو من أريد أن أعرفه أكثر."لم تضيع وقتها، اقتربت منه وعلى الفور بدأت فى الرقص معه واستمر الرقص طول الليل، فانتصابه رهيب، ومن المزعج ومن المخجل أيضا أن تتوقف عن الرقص."

وفيما بعد اتصلت إيف بروجيرو وقالت له إنهما لا يمكن أن يستمرا. ولكن الشيء الذى لم تقله هو أنها كانت على علاقة عابثة مع يهودي"(وكان من الصعب على إيف أن تستفيض فى هذا الموضوع) والسيئ فى ذلك أنه قد يرانى ويعنفنى

بأننى مخطئة فى أن أتمتع بالجنس، ومع ذلك فقد اكتسبت خبرة فى ممارسته من علاقتها بالطبيب، ورغم ذلك لم تكن فاترة معه، بل خافت من أن روجيرو يرفضها. ولكن روجيرو أصر على أن يتقابلا مرة أخرى، وفى الموعد المحدد خرجا معا، اصطحبها إلى الشاطئ يسبحان ويتنزهان ولكنهما لم يتناولا الغداء معا: فتناول الطعام فى ذلك الوقت يعنى أنك مخلص لذلك الشخص" أما روجى - "كما كانت تراه - "فهو كاثوليكى إيطالى، وهو العائل الوحيد لأخته وأمه ووالده المتقاعد، ولن يستطيع تحمل كل هذا."

مضت علاقتهما سنة قبل أن يلتقيا معا على فراش واحد، فليس أمامهما مكان خاص يذهبان إليه. ولطالما تردد عليه إيف "متى؟ "تقصد متى تكون خلوتهما معا فى علاقة حميمة. فيرد عليها: "قريبا". وتمر الشهور. يعمل روجى "حمالا" لا يحمل على عربة كارو، بل حمال فى مؤسسة سويسرية كبيرة، والعمل الذى قدمه لإيف أن تفهم وتنفتح على فرص كثيرة مع النساء اللواتى يردن أشياء أكثر من نقل أثاثهن. تردد عليه إيف سؤالها: "متى؟" فيجيبها قائلا: "قريبا جدا."

فى صيف ١٩٣٩، أرادت أن تترك الإسكندرية، مع أنها لم تتحدث بهذا الخصوص مع روجى، والسبيل الوحيد، كما ترى، هروب والديها وهروب كل "اليهود المقيمين" حتى أنها أحست أنها مخنوقة. ربما تريد الذهاب إلى إيطاليا فعندما كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ذهبت باعتبارها عضوا فى منظمة الشباب الفاشستى ("وهذا شيء آخر لم أتحدث عنه مع لارى، فلن يضحك كما فعلت") صديق لها يهودى حاصل على الجنسية الإيطالية اقترح عليها أن يستفيدا من العرض الإيطالى المجانى الذى قدمته الحكومة الإيطالية، قائلا: إن أحدا لن يلاحظ أنها ليست إيطالية، وخصوصا أنها تتحدث اللغة الإيطالية بطلاقة. "فقط

تقدمين أوراقك للسلطات الإيطالية فى الإسكندرية، وتلبسين الزى الرسمى للمنظمة وتقدمين التحية ". ومع ذلك فى آخر لحظة انسحب الصديق ووجدت إيف نفسها تبحر وحدها إلى إيطاليا. وأمضت هناك أسبوعين، بين روما ونابولى وعلى طول الساحل بينهما وقبل عودتها للإسكندرية أضمرت فى نفسها فكرة أنها يوما سترحل عن المدينة.

كانت هذه الرحلة قبل سنتين من إعلان موسولينى إجراءات معادية للسامية فى سبتمبر عام ١٩٣٨، والتى من شأنها منع الزواج المختلط واستبعاد اليهود من التعليم الحكومى على كل المستويات وحرمانهم من شرف تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية ومنع نشر إعلانات وفياتهم فى الصحف ومنع تدوين أسمائهم فى دليل التليفونات، وتوظيف الآريين أو منسوبى نوادى الترفيه أو أعضاء الحزب الفاشستى.

ولكن فى عام ١٩٣٩ فى آخر صيف بالإسكندرية وقبل اندلاع الحرب، الشيء الوحيد الذى وقف بين إيف وروجى هو مكان لممارسة الحب. وأخيرا استطاع أن يحقق رغبتها بـ "متى؟" من خلال إعلانه عن طلب شقة عزوبية للتأجير Garconniere على خليج ستانلى وقد اشترك مع مجموعة من أصدقائه لتأجير شقة، وبالتالى يستطيع أن يقابلها وحده كل يوم سبت. لقد كانت الشقة واحدة من عدة شقق صغيرة فى مبنى مطل على البحر، وصفته إيف "إنه مكان رائع، يبدو وكأننا نهبط إلى الشاطئ "وتتذكر كيف تكون الانتقادات اللاذعة فى الإسكندرية ولكن من الممتع جدا أن تكون شابا وتعيش قصة حب. "لقد كنا أبرياء، فالدنيا تمضى على هذا النحو دون انقطاع. لقد كان عالما بسيطا، ونثق به. حتى الفقراء ومن هم أفقر منا لن يموتوا من الجوع. فأنت مثلا تأكل الفول والفلافل، وهذه وجبة رخيصة ومغذية يتناولها الغنى والفقير على السواء. والحلويات

الفرنسية فهى أكوام. ودور السينما فى كل مكان. لا بد أن نكـون مـن أصـحاب الملايين الآن وأن نعيش كما نريد. لقد كنا سعداء والجـو رائـع ويـضفى علينـا السعادة... ربيع دائم."

عاش روجى قريبا من الشقة، ولكنهما يعيشان حياة عاشقين حريصين علـى ألا يراهما أحد معا، ولهذا فهو ينادى عليها بـصفارة قـصيرة مـن بـين شـفتيه وأصابعه. "لم يذكر شيئا إن كان سوف يتصل بى. كانت تصرفاته متوافقة معـى. فهو شخص كان هناك مع ما كان يقول عنه. ويقول بضع كلمات. فهـو رجـل لا يجيد الكلام الكثير. ولكنه أيضا هادئ جدا ومختلف تماما عـن لارى. لقـد كـان بوضوح عاطفيا جدا، ولكنه كبح مشاعره. لم يكن رجلا عابثا أو ممثلا."

وعندما اقترب شهر يونيو فى عام ١٩٤٠ ثار بينهما خلاف شديد. فروجيرو كان مقتنعا بأن الإيطاليين سوف ينتصرون إذا خاضوا الحرب، أما هى فقد كانـت تؤيد البريطانيين، لذا تراهنا معا حول هذا الاختلاف وعلى من يخسر الرهـان أن يشترى للفائز عشر فطائر. حذرها قائلا: "يمكن أن يحدث أى شيء ولكن يجب أن تعيشى حياتك. فإن قلت "انتظري" فلابد أن تنتظرى، ولكن لن أطلب منـك "وقـال لها: سيأتى الوقت الذى نتلاقى فيه وينكر كل منا الآخر. "إن مصر بـدت وطيـدة راسخة. فإن الحياة تستمر كما كانت، ولن تتغير الأمور قط. فمـن المـستحيل أن ندرك أنه فى غضون عشر سنوات إلى عشرين سـنة سيـصبح عالمنـا مختلفـا، سيصبح عالما آخر. ظننا أنه سيمضى قدما وللأبد." وعلى مدى بضعة أسابيع تالية مارسا الغرام على الشاطئ فى خليج ستانلى.

وفى أحد أيام السبت هاتفها روجيرو، فى منزلها، ولم تكن عادته أن يفعـل ذلك من قبل، عندما رفعت السماعة سمعته يقول: إنهم يبعدوننى الآن، وظل علـى

الخط معها حتى هدأت أعصابها. تم اعتقاله فى مكان أبعد من الإسكندرية، حيث كانت تكتب له الرسائل وترسل له السجائر وأحست باستياء نحو الإنجليز.

"وتلك كانت مأساة، على الأقل كما رأيتها فى ذلك الوقت، مأساة حياتى. فإن كان لى طريق فى الحياة. فالشخص الذى أحببته خرج من حياتى وثار جنونى. فإن كان لى خيار فى حياتى، لاخترت رجلا واحدا فقط. حبيبى. ولقد وجدته قبل لارى. إلا أننى أخطأت التفكير بأن المرأة يمكن أن تحب شخصين فى حياتها؛ لا لم أخطئ فى التفكير؛ أقصد أن اختيارى دائما سيكون مع روجى، ولكن المهم أن لارى، أو ما حدث مع لارى، كان دائما خطيرًا جدا. فلم يعد لديه ما يفعل سواء مع نفسه أو معى، فلا بد أن نقوم بالجمع بين الاثنين. فلدينا ما نسميه "الحب من أول نظرة. والحب من أول نظرة تجربة يعرفها كل الفرنسيين حب الممارسة، ويعتبرون أنفسهم سعداء إن مارسوها، ولكن لا أظن ذلك على الإطلاق. حسنا فإن ما أقصده هو أننى كنت سعيدة بمعنى أننى قابلت لارى وهذا أمر مختلف فى باسترودیس وأحاديثنا الطويلة على الكورنيش جعلتنى أشعر كأننى مفتونة. بهذا الشكل أقول إننى لم أعد أتمالك نفسى. ولم يعد عندى ما أقوله فى الموضوع وسواء أحببته أو لم أحبه، فقد كنت مفتونة بذلك الشخص، لارى. الخد بالفك هكذا، فلابد أن نكون معا أو لا نكون. لقد كان تلاصقا جسمانيا، وكان لارى أيضا يعانقنى. كان حبا متبادلا. وهذا هو الحب من أول نظرة. فإن تكن قد جربته، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا. وحينما ابتعدنا كنا بؤساء فعلا. إذ أحسسنا أننا مثل توءمين، لا ليس توءمين بل أكثر من ذلك. هل تعرف التوائم الملتصقة؟ لقد كنا توءمين سياميين.

فى تلك الأثناء كان والداها ينتظران أخبارا عن "مصدوم"، الشاب الذى وعدها بالزواج وقبلت به زوجا: "فالموقف رهيب مع عائلتى يتصاعد بسرعة شديدة وفى غضون يومين أو ثلاثة، وصلت المسألة إلى ذروة الجنون والغضب". "التقت إيف بـ"مصدوم" مرة ثانية وسارا معا فى نزهة فى حدائق البلدية، حيث عاد إلى مسألة الزواج، فقال: "ربما غيرت رأيى؟ غضبت إيف فانفجرت وهى تقول "قلت لا وغيرت رأيك، لا. لقد كفانى من هذا الموضوع. فلم تعرف ما كنت أمر به في."تلك الأيام كانت مشحونة بالحب والخوف، "واسترجعت إيف ذكرياتها مع روجى، وتردد اسم "مصدوم"، وضعف ثقتها فى نفسها. صرخت وقالت "أين خطيبك؟ "لماذا لم يأت؟ أجابت إيف "لقد انتهت العلاقة،" فصاح والداها "أنت مجنونة، "لن تتزوجى أبدا"قلت: "من يهتم فليذهب إلى الجحيم فأنا تحت رعاية أبى ويجب أن أفعل ما يطلبه منى ولكنى أقول إن عندى الكثير، وأنا خارجة. فقالوا: لن تخرجى، وحبسونى. سيذهبون بى إلى مستشفى الأمراض العقلية، فقد ظنوا أنى أصبت بلوثة عقلية."

فى الصباح التالى تسلل إلى غرفتها والدها، كانت عارية من كل ملابسها، التفتت إليه وصاحت: "كيف تجرأت على الدخول؟ "كانت فى فترة حيضها، قذفت بالفوطة على وجهه، ثم خرجت إلى الشرفة وهى تصرخ على مصدوم طلبا للمساعدة. "خرج الجيران كما خرج مصدوم أيضا إلى شرفته وهو يرتدى روب الحمام وشبشبا ووجهه شاحب من هول ما رأى."صاحت عليه قائلة "أخرجنى من هنا، لقد حبسونى، أسرع إليها وفى قدميه شبشب حمام، فتح أبوها الباب "ظننت أنكم جميعا حمقى، إلى الجحيم، وجريت مثل أرنب."

في ذات الصباح اتصلت إيف بدوريل فى مكتب الاستعلامات البريطانى. "لم يكن أحد غيره فى الإسكندرية الذى يمكن أن أتحدث معه. فقد كان الشخص الوحيد العاقل." إنى قادمة إليك"،وقد تواعدا على اللقاء على شاطئ البحر فيما بعد فى ذلك اليوم."ماذا حدث؟ سألها "قالت "سأترك عائلتى."وماذا أحضرت معك؟ المايوه والإسبيدريل."

وقد وصلت إيف إلى مكتبه فى حالة سيئة. تذكرت كيف عرض عليها صورته وهو فى مكتبه يحمل ابنته بينلوب على كتفيه. لقد أخذت إلى كالاماتا قبل أن يهرب بها إلى اليونان، وبالطريقة نفسها يتذكر جون كرومر براون كيف نزل دوريل من السفينة على أرض ميناء الإسكندرية منفصلا عن أسرته كما تنفصل هى عن أسرتها حاليا. عانقها وقال لها "أحب.."

هذه الصورة التى اُلتقطت لإيف قبل أيام من لقائها دوريل وحبها له من أول نظرة فى "باسترويد"، بمجرد أن لمحت الكاميرا أرادت أن تأخذ وضعًا أنثويًا مثيرًا، ولكن أحدهم وضع طفلاً صغيرًا فى حضنها مما جعل أساريرها تنفرج، الفستان الذى كانت ترتديه والذى يشبه لون ورق العنب، ذكره دوريل فيما بعد فى كتابه "رباعية الإسكندرية".

ترك "دوريل" مكتبه قبل نهاية دوامه، واصطحب "إيف" معه إلى فيلا في سيارة فورد، كان "جوان ويليامز" لا يزال في الجامعة، وقاموا بإعداد بعض الطعام لأنفسهم وبدأوا في الحديث، أخبرته "إيف" عن كل شيء، وأحست بالراحة، ولأخذت في البكاء، ثم تقيأت وأفرغت كل ما في معدتها بطريقة هستيرية، "لطمني "لاري" على وجهي، ثم أبدى ندمه على الفور، فقلت لا أنا أريده، وكان ينصت إلى باهتمام، وكان رقيقًا ومتفهمًا وحانيًا، وشعرت بالراحة والأمان التام وأنا معه، وهنالك وفي نفس اللحظة طلب مني أن أتزوجه، وتم كل شيء في منتصف النهار، ومنذ تلك اللحظة صرنا حبيبين".

مكثت "إيف" في الفيلا لمدة ثلاثة أيام، ثم قررت أنها في حاجة للابتعاد عن الإسكندرية لفترة من الوقت، قام "دوريل" بإرسالها إلى طنطا في غرب الدلتا للإقامة مع "بول جوتش" وزوجته "بيلي"، وكان قد التقى بهما في "أثينا" في صيف عام ١٩٣٩، قال "جوتش" فقدت أنا وزوجتي "بيلي" وظيفتينا في لندن، وقررنا تأجير الشقة التي كنا نقيم فيها بجنيهين في الأسبوع، وقررنا أن نرى العالم قبل أن تنشب الحرب". قاما بالاتجاه إلى روما أولاً بواسطة الدراجات مارين بيوغوسلافيا وألبانيا، وكانا على وشك الاتجاه شمالاً مرة أخرى إلى بلغاريا، وحدث الأمر عندما كُنا في أثينا وفي إحدى المقاهي الرخيصة الأسعار قابلنا هؤلاء الناس الممتعين من "كورفو"، كان "لاري"قصيرًا وربعة ويمتلئ بالحيوية، أما "نانسي" فقد كانت طويلة وشقراء بالغة الرقة، انهمك الأربعة في رواية قصص مغامراتهم، وبالنسبة لـ"دوريل" شعر "جوتش" بالتعاطف الشديد معه، بينما كان يرى نانسي أكثر برودًا".

حصل "جوتش" على عمل في المركز الثقافي البريطاني، وكان في طريقه لحضور دورة تدريبية في "قبرص" وعندما دخلت إيطاليا الحرب تم تحويل اتجاه

سفينته إلى مصر، وتم إرساله إلى طنطا مديرا إقليميا، ثم قابل "دوريل" مرة أخرى فى زيـارـاته للقاهرة، وفى وقت اندلاع الحرب حيث تم ترحيلهم إلى "القدس"، سـافر "آل جوتش" فى نفس القطار، بينما مكثت "نانسي" والجميع فى نفس البنسيون هنالك.

تم عرض حياة "دوريل" الشخصية بالفعل على "جوتش" عن طريق مجموعة من الصور الفوتوغرافية التى تم عرضـها عليـه، وظهـرت الطبيعـة السلـسة لــ"جوتش" جلية أمام "دوريل" الذى اعتبره البلسم الشافى فى وسط هذه التعقيـدات الأخيرة التى ألمت بهم. قضت "إيف" عشرة أيام فى طنطا مع "آل جـوتش" حيـث وجدت السكينة التى كانت فى حاجة ماسة إليها. "توافقنا أنا وبيلى مع "إيف" بطريقة جيدة، كما أنها أقامت معنا هادئة، لم نفعل الكثير من أجلها، فقط كانت تجلس بعيدا بهدوء"، تتذكر "إيف" صمت "آل جوتش" والذى يُظهر لمن يسكن معهم كيـف أن: "بول"يحمل معه إنجلترا أينما حل، إذا لم تكن تستطيع أن تسمع صوت كرات التنس من حولك، فالفشل فى إدراك ذلك يعود عليك".

وبالرغم من الراحة التى كنت أجدها فى طنطا فإننى كنت أشعر بالرعب من التفكير فى الألم الذى يمكن أن أكون قد تسببت فيه لوالدى، اللذين لا يعرفان أيـن أنا"، والمشكلة أنه عندما تعود هى إلى الإسكندرية، كيف تستطيع أن تهْدّئ شـكوك والدها، الذى "كان يتصرف معى وكأنه زوجى، فقد كان غيورًا جدًا"، كذا أمها التى تتصف بالفضول الشديد والتى إذا ما وجدت شيئًا ما يسعدنى فإنها ستقوم بتحطيمه، ولا أعتمد على أن أقول إننى أعيش مع "دوريل"، "هذا هو الشيء الوحيد الذى لـن أقع فيه كخطأ، فلن أُخبر والدى أى شيء عنه، لأنه رجل مطلـق، أو حـسنًا إنـه يستعد للطلاق، إنه متزوج حاليًا، "كيف يمكنك أن تتزوجى رجلاً كهذا؟ ثم إنه ليس يهوديًا"، وفى نفس الوقت كان "دوريل" يحثها على الالتحاق بعمل، رغم أن "إيـف" كانت تعتقد أن راتبه مذهل بالمعايير التى تسود هنا، ولكنه كان يشكو أنـه بالكـاد

يستطيع أن يعيش بالاعتماد عليها، كان الحل بأكمله يكمن فى "**مستشفى كوتسيكا**"، وقد عادت إليه "**إيف**" للعمل كممرضة تحت الاختبار حيث كانت تجد المبيت والمأكل، "طالما كان أبواى يتدخلان فى حياتى فإن المستشفى هو منزلى، و"**لاري**" لم يوجد فى حياتي".

ولكن "**إيف**" لم تبت بالمستشفى على الإطلاق: "كنت أبيت مع "**لاري**" وكل ليلة تذهب إلى رقم ٤٠ شارع فؤاد فى الشقة المعتمة فى الطابق الثانى أو الثالث حيث يقيم "**دوريل**" فى حجرة، كان الأمر خاصًا بيننا نحن الاثنين فقط، وعلى الرغم من أن هنالك آخرين يعيشون فى الشقة أيضًا، ومن بينهم زوجان غريبا الأطوار فى منتصف عمريهما، فإنهما كانا لا يفارقان حجرتهما، ولأنه لم يكن بالكاد موجودًا فى ساعات النهار بالشقة فإنه لا يعرف عنهما شيئًا على الإطلاق. وبدلاً من ذلك فإنها ستستيقظ من نومها فى الصباح الباكر وتطل من النافذة لترى ما إذا كانت عربة الحنطور قد حضرت أم لا، فلقد رتبت مع سائقها للحضور يوميًا والانتظار فى الشارع تحت النافذة مباشرة. كان فى نهاية شهر مايو أو أوائل يونيو وشمس الصباح حارة، ولذا فإن العربة والحصان كانا سينتظران فى ظل الشجيرات التى تقع أمام الحديقة الأمامية للفيلا الكلاسيكية والتى تقع فى الجهة المقابلة ومتعامدة قطريًا تجاه الحجرة فى الركن الذى يتقاطع فيه كل من شارع فؤاد وشارع سيدى الكياتشى، ومن هنالك يستغرق الوصول إلى مستشفى كوتسيكا عشر دقائق فقط بالعربة الحنطور.

يعتبر "**مستشفى كوتسيكا**" واحدًا من الأماكن البارزة التى يتم ذكرها بانتظام فى كتاب "**الرباعية**"، عند الرد على مكالمة تليفونية من "**كلي**"مثلاً (أتكلم من المستشفى اليونانى، وميلسا هنا فهى مريضة جدًا، ربما تحتضر")،[١٢] تسلق لاردى المنحدر المنخفض الذى يطل عليه المستشفى بعد أن سار بتؤدة طوال الطريق

الثعبانى الطويل لطريق أبوقير.. الإحساس بالألفة الروحية والتى كانت تزداد فى داخلى كانت ترجع إلى حقيقة أننا نقترب من الحجرة الصغيرة التى رأيت فيها "كوهين"وهو يحتضر(١٣)، والتى كانت عشيقته هى "ميلسا"، قبل أن تصبح صديقة لـ"دارلي".

والآن "إيف" هى صديقة "دارلي"، وقد بدأت نزهاتهما الأولى من شارع فؤاد حيث أخذها معه إلى أستوديو للتصوير الفوتوغرافى، فعل "مصدوم" الأمر نفسه قبل أسابيع قليلة وكانت النتيجة عجيبة : "عادة عندما أتأهب لأكون فى وضع مناسب لالتقاط صورة فوتوغرافية فإن النتيجة تكون أن أبدو فى صورة مصاص الدماء وكان الأمر نفسه على وشك الحدوث عندما اقترح علينا المصور أو "مصدوم" لا أتذكر أن يجلس ومعه طفلة فى ركن من أركان الأستوديو: "فقط انظرى لرأس الطفلة "، مما جعلنى أشعر بالاسترخاء والابتهاج ولذلك يعزو أننى كنت أبدو متألقة فى الصورة: "إن "إيف" ترتدى ثوبًا من الأضواء، رداء صيفيا من موديل له لون يشبه لون ورق العنب، كان ذلك فى الوقت الذى كنا مستغرقين أنا و"لاري" فى علاقتنا بشدة، كان يبدو أنهما يلتقيان فى "باستروبدس": قال "دارلي" يصف ميلسا عندما تبادلا أول قُبلة على شاطئ البحر: "كانت تبدو مندهشة، متألقة بشكل غير عادى، بزيها الصيفى الجديد المتموج الذى يشبه لون ورق العنب، هنالك وفى نفس الوقت قررت أن تكون هى حبيبتي"، مشينا نتأبط ذراعينا على شاطئ البحر، تبادلنا أحاديث كثيرة مليئة بقصص الناس الذين يعيشون بدون تخطيط مسبق، وبدون تنظيم لحياتهم، كانت أمزجتنا غير متقاربة، شخصياتنا وميولنا كانت على طرفى نقيض، ولكن وبطريقة سحرية كنا نشعر أن هذه الصداقة واعدة بالنسبة لكلينا بشكل أو بآخر".(١٤)

عندما اصطحب "**دوريل**" "إيف"للمصور الفوتوغرافى، أخذ الكاميرا من المصور: ثم طلب منها أن تجلس أمام المرآة والتقط الصورة بنفسه، كانت "**إيف**" تبتّسم، ابتسمت مرتين، فى الصورة الأمامية تبتسم ملء وجهها، وكانت تبتّسم أيضًا فى الصورة الجانبية التى تبدو فى المرآة، أعطاها "**دوريل**" مشطًا لتمسك به لأنها لم تكن تدرى ماذا تفعل بيديها، كانت تبدو متزنة وأنيقة وأرستقراطية، فلم تعد تلك الفتاة التى ترتدى زيًا فى لون ورق العنب، ولكنها الآن سيدة مجتمع، سيدة يمكنها أن تصبح "**جوستين**"، يمكن ألا تلاحظ ذلك عندما تبتسم ملء وجهها، ولكن ابتسامتها التى بدت من خلال المرآة كانت تشى بلمسة من التوجس.

استيقظ جيدج **برينتون**" فى وقت مبكر من ليلة من ليالى الصيف على أصوات تنبعث من منزله فى "**جليمينوبولو**" ارتدى الروب ونزل الدرج ليستطلع هذه الأصوات: "بمجرد أن دخل إلى حجرة الرسم رأيته واقفًا أمامى منتصبًا أمام المدفأة... رجلا أنيقا، وكان أيضًا يرتدى الروب المنزلى، وما أن رآنى حتّى مد يده مصافحًا وهو يقول "والد جون.. هل تخمينى صحيح؟"، كان الضيف غير المنتظر هو الملك فاروق الذى قابل "**جون**" و"**جوسي**" فى حفلة بالمدينة هذا المساء، كان "**جون**" يشغل الآن منصب الملحق العسكرى الأمريكى بالقاهرة، وفى أثناء زيارتهم للإسكندرية كان هو و"**جوسي**" يجلسان مع جيدج "**برينتون**"، وعوضًا عن العودة لقصر المنتزه، سأل فاروق إن كان يستطيع قضاء الليلة هنا، مبديًا ملاحظته: أنت تعرف أنه لا منزل لى، فكالمعتاد امتلأ المنزل بالضباط فى طور النقاهة، ولم يعد هنالك فى المنزل سرير واحد إضافى، كما أن الملك تقبل مسرورًا عرضهم بأن يضعوا لهم مرتبة على أرضية حجرة الرسم.

وعلق جيدج برينتون" قائلاً: "وفى الحقيقة لم يكن الملك لديه لا منــزل ولا صداقة حميمة، وكيف يمكن أن يكون لديه؟ ورغم منصبه فإن مساعديه المقــربين، ووزراءه يتركونه وحيدًا ويتراجعون، وأى نوع من المنازل يمكن أن يكون لرجــل لا زوجة أو عائلة لديه، لقد تحطمت حياته العائلية، هل يمكن مقارنة حياتنا العائلية الحبيبة المليئة بالشباب والحيوية واللقاءات الدافئة بتلك المؤسسة الضخمة فى المنتزه".

كان الملك فاروق سعيدا بجو الترحيب البسيط الذى أبداه "آل برنتون"، لقــد كان فى الواقع شخصية مرحة تملك حس الفكاهة على الرغم مــن وظيفتــه غيــر العادية. جلس القرفصاء على الأرض وهو متصلب الساقين ذات مرة ليبحث عــن بعض الأجزاء فى الرف السفلى للمكتبة، ثم مد ذراعيه على صدره وأبدى ملاحظة وهو يبتسم قائلاً: "العاهل الشرقى..ماذا!"، يتذكر "برنتون" قائلاً: "كان رجلاً نبــيلاً وذا روح رياضية دائمًا، ويمكننى أن أضيف لأنه أثير عنه الكثيــر مــن الأمــور القاسية، أنه فى كل تعاملاته مع أفراد عائلتنا- ولقد تعامل مع الكثير منهم دائمًــا- لم ينقصه الجلال والاحترام فى أى وقت من الأوقات".(١٥)

أصبح فاروق زائرًا منتظمًا لــ"جليمينوبولو" وكذلك لبــرج العــرب وهــو يشارك جون ذلك السرير ذا الإطار الحديدى فى غرفته، قال جون فى تلك المناسبة وهو يقدم للملك الجانب الأفضل تجاه الحائط والأكثر راحة فى السرير: "بعدك يــا جلالة الملك"، ولكنه متذكرًا بأنه الملك وأنه يجب أن يكون المواجه أولاً فى أوقات الخطر أصر على النوم فى الناحية الخارجية. وعندما سأله جون بخبــث عمــا إذا كان يمكنه أن يتلقى التحية من موكب احتفالى للقوات والدبابات البريطانية، أجــاب ولماذا أنا؟ إنهم دائمًا ما يأتون بالدبابات من أجلى، ولكن تصرف "لامبسون" السيئ فى العام السابق كان لا يمكن تجاهله بإجابة ساخرة.

كان الملك فاروق يشير إلى ليلة ٤ فبراير ١٩٤٢ عندما قامت قـوة مقاتلـة بريطانية مكونة من رتل من السيارات المصفحة والدبابات بمحاصرة قصر عابدين بالقاهرة، وقامت القوة بتحطيم بوابات القصر ودخلت سيارة السفير البريطانى مـن طراز "رولزرايس"[١٦] إلى داخل القصر، وقام السير "**مايلز لامبـسون**"[١٧] الـذى يبلغ طوله ستة أقدام ونصف بالسير خلال أروقة القصر لمواجهة الملـك، واتهـم الملك طبقًا لبنود المعاهدة المصرية- الإنجليزية بالتهور وعدم المسئولية التـى أدت إلى تعريض أمن مصر والدول الحليفة للخطر، وقال موضحًا إن جلالتكم قد فقـدتم الصلاحية فى تولى العرش"[١٨] كانت هنالك قطعة بحرية تنتظر فى الإسـكندرية لتحمله إلى المنفى، ناول "**لامبسون**" للملك خطاب الخلع من العرش وطلـب منـه التوقيع عليه.

ولكنه لم يكن الملك فاروق، بل الأرجح أنه مصطفى النحاس رئيس حـزب الوفد هو الذى عرض وضع بريطانيا فى مصر للخطر، بينما كان يشغل منـصب رئيس الوزراء فى عام ١٩٣٦ فإنه قـام بـالتوقيع علـى المعاهـدة المـصرية- الإنجليزية، منهيًا بذلك سنوات الرفض والعناد للتسوية مع بريطانيا، وفـى نفـس الوقت ظل حزب الوفد هو الحزب المهيمن على الحياة السياسية فى مصر والمُعبر عن الطموحات الوطنية للشعب المصرى، وكانت بريطانيا ترى ضرورة التعـاون المستمر معها لتسهيل أعمال التحالف العسكرى.

فقد النحاس منصبه قبل الحرب، والآن يقوم بالضغط على بريطانيا لإعادتـه إلى السلطة مهددًا بأن الانفجارات الشعبية يمكن أن تشتعل مرة أخرى على غـرار

ما حدث فى عام ١٩١٩، إذا ما تسببت الحرب العالمية الثانية فى مشاكل اقتصادية لمصر كما حدث فى الحرب العالمية الأولى، عندما كان المحصول السيئ فى إبريل ومايو ١٩٤١قد أحدث نقصًا كبيرًا فى الدقيق والبقول والزيت والسكر وتضاعفت أسعار السلع الرئيسية عن مثيلتها قبل الحرب، وارتفعت صيحات الفقراء بأن الجيش البريطانى يستهلك كل المواد الغذائية، كما أن حزب الوفد عندما كان فى السلطة أبدى حماسًا شديدًا لتحسين أحوال العمال اليدويين أو الفلاحين، رغم أن مصالحهم كانت مع ملاك الأراضى وأغنياء الطبقة الوسطى، ولكنه اكتسب شعبيته من الدعوة إلى الوطنية.

انتهز النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول لإلقاء خطب نارية فى الإسكندرية والقاهرة واتهم البريطانيين بتدمير الاقتصاد فضلاً عن انتهاك المعاهدة الموقعة بين مصر وبريطانيا، وبينما استمرت الاضطرابات فى الخريف، أرسل "إيدن"برقية إلى "لامبسون" يشكو فيها من "قدرة حزب الوفد على التأثير على الرأى العام طبقًا لأهواء النحاس باشا ودون أن يتحمل أدنى قدر من المسئولية"، ولكن "إيدن" كان أقل اهتمامًا بأمن مصر المباشر عن استمرار النفوذ البريطانى الكبير فى فترة ما بعد الحرب، والتى ستكون طبقًا للمعاهدة المصرية البريطانية مضطرة إلى سحب قواتها، ثم تأتى فى عام ١٩٥٦ للتفاوض حول المعاهدة نفسها.

التقط دوريل هذه الصورة الفوتوغرافية لإيف بعد ارتباطهما مباشـرة. قبلهـا بخمس سنوات كتب فى مذكراته قائلاً: هنالك جزء من الإنسان يتم فقدانه عنـد الولادة، ويمضى باقى عمره فى البحث عن هذا الجزء المفقود فى "عـالم مـن المرايا".

واستنتج "**إيدن**" أنه لابد من عقد صفقة مع النحاس باشا، وتمـضى برقيتـه قائلة: إننى أميل إلى الاعتقاد بأننا لا يجب أن نواجه مشاكل خطيرة فى مصر أثناء الحرب إلا إذا تأزمت الأمور ضدنا، ولكن ليس بالضرورة يمكن أن يكون حقيقيًـا فى الفترة التى تلى توقف الأعمال الحربية مباشرة، فى تلك الظروف سيكون مـن المستحسن وقبل نهاية الحرب البدء حالاً فى الإعداد لحكومة تضم أغلبيـة وفديـة،

وذلك حتى لا يكون حزب الوفد فى موقع يمكّنه من التنصل من مسئوليته عما يحدث فى مصر".[19]

ولكن إذا كان الحل يكمن فى أن يكون النحاس فى خدمة أهداف السياسة البريطانية على المدى الطويل، فإن المشكلة ستكون فى الملك "فاروق" الذى يرغب فى أن يكون ملكًا مستقلاً لمصر المستقلة"،[20] وحتى فى أثناء مفاوضات معاهدة ١٩٣٦ كان إيدن يفضل أن تكون مصر مستعمرة، وهى وجهة النظر التى كررها "لامبسون" عندما كتب فى مذكراته فى عام ١٩٤٠ "أنه كان يعتقد ولسنوات طويلة أن أفضل أشكال العلاقة الدائمة بين مصر وبريطانيا ينصب فى أن تندمج مصر بأى شكل من الأشكال تحت لواء الإمبراطورية البريطانية".[21]

وفى شهر فبراير ١٩٤٢ وفى عشية انقلاب قصر عابدين، طلب "لامبسون" من الملك "فاروق" أن يدعو النحاس لتشكيل حكومة وفدية، ولكن الملك لم يكن راغبًا فى هذا، والأهم من ذلك فإنه وكما كان الأمر فى أيام الملك "فؤاد" فإن الوفد والقصر الملكى كانا غريمين فى السيطرة وفى تحديد مصير البلاد، ومن حق الملك فاروق أن يعتقد أنه شخصية محبوبة من الشعب شأنه فى ذلك شأن النحاس الذى كان يُعد من وجهة نظره سياسيًا انتهازيًا، ولكن "لامبسون" كان يرى أن سلوك الملك لا يتماشى مع المتطلبات الأساسية للتحالف العسكرى، ولذا أرسل الدبابات إلى قصر عابدين.

كان لتصرف "لامبسون" رد فعل عكسى. فقد أثار غضب الوطنيين من التدخل الأجنبى، وأثار القلاقل للحكومة الشرعية، وأشعل المرارة بين مصر وبريطانيا والتى سوف تصل ذروتها فى كارثة السويس.

وصف قادة الأحزاب المصرية الأخرى النحاس بالخيانة، بينما ألقوا باللائمة على بريطانيا كما كانوا يفعلون من جراء استمرار النقص فى توفر السلع

الأساسية، وارتفاع تكاليف المعيشة، وقاموا بتوجيه الإهانات إلـى حـزب الوفـد واتهموه بالخضوع للسفارة البريطانية، ولكن النحاس لجأ إلـى فـرض القـوانين العرفية وبمعاونة البريطانيين استطاع مواجهة المعارضين السياسيين.

كان الشعور بالمهانة مما حدث فى قصر عابدين عميقًا ومريرًا، وفى القوات المسلحة التى يعتبر الملك القائد الأعلى لها، كتب ضابط مصرى صغير إلى صديق له يقول: "بالنسبة للقوات المسلحة كان هذا الحادث صدمة هائلة، كان الضباط فـى السابق يتحدثون فقط عن المتعة واللهو، أما الآن فيتحدثون فقط بـشأن التـضحية والدفاع عن الكرامة حتى لو اقتضى الأمر أن تكون حياتهم هى الـثمن.. وتـراهم يشعرون بالندم لعدم تدخلهم رغم ضعفهم الواضـح لاسـتعادة الكرامـة الوطنيـة وتطهير شرفهم بالدماء، ولكن عندما يأتى الرجل الذى ينتمى إلى "**باكوس**" واسـمه "**جمال عبد الناصر**" فإن المستقبل سيكون لنا". (٢٢)

هجر المستأجرون الغرباء الذين كانوا يقطنون الشقة رقم ٤٠ شـارع فـؤاد حجراتهم فى فترة ما من شهر يونيو ١٩٤٣ تاركين "**دوريل**" بمفرده فى تلك الشقة الكبيرة والمعتمة، ولما علم أن "**بول جونش**" انتقل إلى الإسكندرية، التقط "**دوريـل**" سماعة التليفون وسأله عما إذا كان يحب أن يقاسمه السكن.

احتار "**جونش**" لماذا سأله "**دوريل**"، وكان بعيدًا عن ذهنـه أن يكـون ذلـك ترتيبًا مناسبًا، عندما هاتفنى "**دوريل**" متسائلاً عما إذا كان فى إمكـانى مـشاطرته المسكن، لم أفهم الأمر جيدًا، ولم أكن أعلم كيف سيكون أليفًا معى، اعتقد "**جـونش**" أن الأمر برمته من دافع الاحترام من وجهة نظر "**وزارة الخارجيـة**"، فـإذا كـان "**دوريل**" و"**إيف**" يخططان للعيش معا فهذا أفضل من أن يفقدا خـصوصيتهما فـى الزحام، والزحام هو ما حدث فى ٢٨ يونيو (٢٣)عندما انتقل "**جونش**" من طنطا مع "**بيلي**" وزوجته، "**لينيت**" وابنته، ومربية وكلب يُـدعى "**سـافو**" وأيـضًا صـديقة

لـ"بيلي" تُدعى "جين هيل"، والتى تذكرها "إيف" بأن لديها حولا فى إحدى عينيهـــا، الاحتمال الأرجح هو أن "دوريل" كان يرغب مشاركته فى عبء إيجار الشقة، بينما يكون الانفراد بها محببًا من جهة الخصوصية وكرجل يفضل السرية غالبًا، كما أنه كان يتوق إلى التنوع فى العدد، ويمكن أن يكون الأمر بالنسبة لـ"دوريل" أصـــداء لحياته السابقة فى الهند و"كورفو" وإحاطة نفسه بأسرة.

كان التقارب بين "دوريل" و"جوتش" قد امتد إلى ٢٤ ساعة على مدار اليوم، فالمعهد البريطانى فى الطابق العلوى مباشرة فوق "وزارة الخارجية"مباشرة والواقع فى ١ شارع طوسون، وفى الوقت الذى كان "جـــوتش" يجد "دوريـــل" دقيقًـــا فـــى شعائره الاجتماعية، لدرجة أنه من مكتبه فى الطابق السفلى يطلبه تليفونيًـــا بلغتـــه المهذبة لرجل يتسم بالنبل الحقيقى ليسأله عما إذا كان فى مقدوره أن يأتى ومعه أى شخص على الغداء، فإنه عندما يعود إلى منزله كان متسامحًا جدًا تجاه الحيوانـــات التى يحتفظ بها "جوتش". لم يكن هناك ألطف من "إيف" و"لاري" لتقاسمهم الـــسكنى فى شقة واحدة، كانت تعشق "لاري"، كانت تجد راحتها مع شخص يحبهـــا وتحبـــه وتتمنى أن تعيش معه، وهذا هو فى الواقع ما كانت تفعله، بالمقارنة بإجبارها على رؤية أناس لم تحبهم ولا تريد الزواج منهم".

كان "دوريل" يعشق كل ما هو مضحك وغريب وشاذ وغير عـــادى، وهـــو الذوق الذى كان يشاطره فيها "جـــوتش" وكانت المادة الأساسية لهذه الهواية الغريبة هى الكم الوافر من الأخطاء المضحكة الموجودة فى جريدتى "الإجيبشيان جازيت"، و"الإجيبشيان ميل"، غنيمة "بول" كانت تتمثل فى إعلان يمثل امرأة تتألق من الفرح لأنها حصلت على ثلاجة جديدة، أما الكلمات المكتوبة تحتها فكانت تقول "كل امرأة تحتاج إلى ثلاجة" . قام "دوريل" بتجميع حصيلته فى سجل أسماه "ملـــف الأخطـــاء

المضحكة فى مصر" (٢٤) ومنها: كان هنالك اللورد لـــويس موينتبـــاتن، بابتـــسامته الممتلئة بالقمل (بدلاً من ملء شدقيه)، تعزيزات ثقيلة من الحمقى (بدلاً من الجنود) تم إنزالهم فى برلين، بريطانيا تمضى قُدمًا بخططها بالفئران المــصنوعة مقــدمًا للمتزوجين (تم استبدال كلمة المنازل بالفئران)، كما جاء فى إعلان آخر:

قاعة التجميل

مدام مارجوت بوب

النمش

إزالة الشعر المتطرف إلكترونيًا

(بدلاً من إزالته من الجذور)

علاج النحافة عن طريق التقشير الموضعي

منتجات تجميل

أسعار خاصة للسيدات المتشابهات

١٢ شارع سيزوستريس– الطابق الثالث– الإسكندرية

ولكن بصرف النظر عن الحمقى وإزالة الشعر والتقشير فــإن مــا جــذب "دوريل" لهذا الإعلان هو العنوان وارتباطه بــ"مدام سيزوســتريس" فــى شــعر "إليوت" وهى عرافة شهيرة لقراءة الطالع، وأن "إليوت"قد ذكر الإســكندرية بأنهــا مدينة الموتى

أى مدينة أعلى الجبال

تتصدع وتعود فتُشيد ثانيةً فى الهواء البنفسجي

أبراج المنهارة

القدس أثينا الإسكندرية

فيينا لندن

سراب[٢٥]

أما دوريل فسوف يستعين بالكثير من الصور والموضوعات التى وردت فى قصيدة "**الأرض الخراب**" فى رباعيته عن الإسكندرية.

تتذكر إيف **Eve** كيف كان دوريل يتبادل الأحاديث المسلية مع جوتش **Gotch** وتتناول نوادر "أولئك المصريين الغرباء "؛ مثل الواقعة التى تحكى عن رجل كان يسير فى الطريق وبجانبه حماره المحمل بجوال لفت انتباه عسكرى، فقام بفتح الجوال فتساقطت منه رؤوس بشرية. أو تلك التى تناولت واقعة العثور على إحدى سيارات الأجرة خارج (المبنى الواقع) فى ٤٠ شارع فؤاد، ووجدت بداخلها رأس السائق وقد ألقيت على الكرسى الذى بجانبه قطعها ثلاثة أفراد مخمورين يخدمون فى القوات الملكية البريطانية **RAF** فى أبى قير، وذلك لأنهم غضبوا من مطالبة السائق بأجرة عالية. ووُجد لكل من الواقعتين صدى لهما فى رواية جوستين **Justine** حين روى الدبلوماسى الفرنسى جورج بومبال **George Pombal** على دارلى **Darley** كيف عثر على زوجة القنصل السويدى مفصولاً رأسها عن جسدها: "بعض النساء البدويات من قاطنات الخيام بمنطقة القريبة كن ممن استجوبوا، وفى ظل إنكارهم المستميت لأى دراية لهم بالحادثة إذا بالرأس المقطوعة تتدحرج من مئزر إحداهن، إذ حاولن استخراج السن الذهبية التى كانت سمةً غير سارة لابتسامتها المألوفة [٢٦].

لم تدرك إيف مطلقًا ما إذا كانت تلك النوادر المتبادلة مجرد حكايات التقطها دوريل وجوتش من القيل والقال أو وردت فى بعض الكتب أو الجرائد، على الرغم

من أنهما كانا يسردانها بطريقة تقنع من يستمع بأن ما من أحد قد سبقهما إليها ولا ريب. وذات مرة "عاد لارى Larry لمنزله بعد العمل وهو ممتقع اللون، فقد رأى (فى طريق عودته) أفندى مهندم الزى يسير فى الطريق ومتجهًا نحوه مرتديًا بــزة سوداء وحذاؤه لامع والطربوش فوق رأسه، ولكن بمجرد أن اقتــرب مــن لارى لاحظ الأخير أن سدادة من الفلين مثبتة مكان الأنف فى وســط وجهــه. ضــحكت وضحك معى الجميع؛ بول Paul وباقى من حضر من هذا، ورفضنا أن نــصدقها، إلا أن الجد الذى تحلى به لارى مع حالة امتقاع لونه كانا خير شاهد على صدقه"، كما حدثنا كذلك عن أنه قد قابل قرينه والرعب الذى ملأ قلبه من هــذه التجربــة. وكانت إيف مغرمة بسماع قصص دوريل المسلية والمشوقة للغاية لأنه فى كل مرة يضيف إليها حبكة جديدة "، كما ذكرت عنه "أنه شخص بارع فى التسلية " كمــا أن "له طريقته الخاصة فى اجتذاب الناس لعالمه"ومــع أنــه"ذو قــدرة علــى تــأليف (حكايات) ارتجالاً تتفق مع المناسبة التى تقال فيها، فإنه يصدق ما يقوله ".

كان نطاق عالم دوريل فى هذا الوقت متاخمًا لشارع فــؤاد، فــى المنطقــة الواقعة بين شقته ومكتبه، بالإضافة إلى ما بينهما من أماكن اعتاد التــردد عليهــا. وكانت مكاتب بطريركية اليونانيين الأرثوذكس تشغل المبنــى رقــم ٣٠، وهنــاك ارتبط دوريل بصداقة مع أمين المكتبــة بهــا ثيــودور موســخوناس Theodore Moschonas وهو أحد مناصرى الحركة الفينيزولية Venizelist (وهى واحدة من كبرى الحركات السياسية فى اليونان، التى بزغت فــى أوائــل القــرن العــشرين واستمرت حتى منتصف السبعينيات وكانت تناصب الحكم الملكى العداء، وتحالفــت مع دول الحلفاء ضد ألمانيا فى الحــربين العــالميتين) ومــن مواليــد الأراضــى المصرية، وكان فى هذا الوقت يؤلف كتابًا عن دور البطريركية فى حرب التحرير اليونانية، كما كان يوجد فى نفس المبنى النادى اليونــانى حيــث قــام فينزيلــوس

Venizelos بالمرور عليه فى أثناء زيارة الانتصار التى قام بها عام ١٩١٥، ووصف دوريل هذا الجزء من المدينة كالآتى: "المشى فى أخاديد الشوارع التى لا تنسى، وتمتد فى كل جانب، متشعبة من محور مقبرة مؤسسها مثل أذرع نجمة البحر(٢٧) وهو الجزء الذى ضم معظم شخصيات الرباعية Quartet، فكان دارلى وبومبال يقتسمان شقة فى شارع النبى دانيال، وكانت شقة كلى Clea فى شارع فؤاد ومرسمها فى شارع القديس سابا عند الأتيليه، وكانت جاستين ونسيم يقطنان منزلاً يبعد عن شارع فؤاد الرئيسى، وسكن بالتازار Balthazar فى شارع ليبسويه فى "الغرفة المتهالكة ذات الكرسى الخيزران الذى يصدر صريرًا طوال الليل، وهى المكان الذى ألقى فيه ذات يوم شاعر المدينة القديم قصيدة "البرابرة" " The Barbarians"(٢٨) واصطحب دوريل إيف يومًا إلى تقاطع شارع فؤاد مع شارع النبى دانيال وأخبرها أن الإسكندر الأكبر دفن هنا فى هذا المكان، حيث كانت تسمعه لأول مرة، ثم اتجها إلى شارع ليبسويه حيث وقف دوريل فى شموخ وأنشد قصيدة "فى انتظار البرابرة Waiting for the Barbarians" باللغة اليونانية. وتقول إيف إنه طوال فترة وجود دوريل فى الإسكندرية، لم تحب قصيدة لكفافيس غير هذه القصيدة.

وربما اتجه دوريل وإيف إلى مقهى بودرت و باسترودس Baudrotnand Pastroudis لتناول بعض المشروبات ولاسيما المقهى الأخير الذى كان المكان المفضل لدوريل لمقابلة أصدقائه، ولكن إذا أرادا تناول وجبة هادئة سويا فإنهما اعتادا على التوجه من شقتهما والانعطاف إلى شارع صفية زغلول حيث قاعة المشويات الفخمة أو المطعم الكائن فى سانتا لوتشيا Santa Lucia الذى كان مملوكًا فى هذا الوقت لشخصين أحدهما يهودى والآخر يونانى، وكان لدوريل حساب مفتوح به، "وبمجرد أن يستلم لارى راتبه الشهرى يذهب لسداد الإيجار والفواتير

الأخرى ثم يصرف ما تبقى منه. ولم يكن لديه سوى بزة واحدة، يرتديها دائمًا ولايغير سوى القميص، معللاً ذلك بأنه ليس لديه مقدرة على شراء ثياب، ولم يكن ذلك إلا لأنه ينفق الكثير على المسكرات، فإذا ما توافر لديه مبلغ كبير من المال، اصطحب إيف إلى أحد الأماكن المكلفة فى أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من شارع شريف باشا كيونيون بار **Union Bar** وبيتت كوين دى فرانس **Petit Coin de France**.

ولكن دوريل لم يصحب إيف إلى (فندق) سيسل **Cecil** لتناول مشروب أو طعام أو لمجرد الترفيه، وطوال المدة التى عاشتها بالإسكندرية لم تمر قط من بابه كى ترى صورتها فى المرآة مثلما فعلت جاستين، وكان أصدقاؤها القدامى يعتقدون أن المكان يسوده الوقار كما أنه يفوق مستواهم الاجتماعى، وبالإضافة إلى ما سبق فإن قدمها لم تطأ الحى التركى - كجاستين - إلا فى بعض المرات القليلة التى ذهبت فيها لزيارة والدها عندما كان يشارك أخاه "نسيم" فى مكتب فى شارع دى فرانس. "وقد كتب لارى فى مكان ما أنى على علم بكل تفاصيل الحياة الجنسية عند العرب، ولدى عناوين المواخير فى الإسكندرية، ومنذ هذا الوقت أقبل الناس علىّ يسألوننى عن هذه المواضيع وكأنى خبير بها، كما أنى لم أخبره مطلقًا أنى نصف يونانى، وأجزم بهذا، ولكن هذا من نسج خياله المعهود".

وقد اقترب دوريل من الحقيقة فيما يتعلق بإيف وعلاقتهما بعضهما ببعض، عندما ذكر أنهما يشتركان فى نوع من حياة اللاجئين " (٢٩).

لقد رفضت إيف الصفات القمعية اليهودية لوالديها، وامتد رفضها ليطول مدينة الإسكندرية وكل ما هو مصري- رفضت كل شيء تقريبا كانت تعرفه وتحبه. وتتذكر إيف، أن "لارى ينتقد المصريين بصورة منتظمة، كان نقده أشبه

بلازمة تثير الانتباه. فلم يعد له شيء سوى ازدراء مصر، عاد للبيت ثائرا مشحونا بالغضب على المصريين."أحد الأسباب، كما تعتقد، أنه كره ألا يكون في اليونان. راح يسب كل المصريين والإنجليز والفرنسيين واليهود، أما اليونانيون فهم فقط الذين أحبهم، "لطريقتهم في الحياة، ولنظرتهم للدنيا مع أنه يعرف عنهم أنهم محتالون وكذابون وخائنون ومجرمون، لقد كان يونانيا عمليا " وفي ضوء فهم رفضه لها، أصبحت الإنسان الوحيد التي يمكن أن"أتحدث معها فعلا." (٣٠)

ولكن الموضوع أكبر من ذلك. فقد رأى دوريل في إيف كائنا محطما ورأى أنه يستطيع أن يسهم بشيء في شفائها. "إنني مؤمنة بأمور كثيرة سخيفة في ذلك الوقت غير أن لارى قد أعاد تشكيلي، كان يسأل عن كل شيء. فالأمر بالنسبة له مسألة مبدأ، فمن وجهة نظره حينما يفوز بجولة على فإنه بذلك قد غير مسلكي وشغل الموقع الذي تخليت عنه توا- كان يقوم دائما بدور محامي الشيطان. والنتيجة يقوم بعملية هدم لإعادة البناء، وهي العملية التي كانت تحتاجها إيف واعترفت بها. "في أول الأمر كنت مندهشة، إذ اعترتني صدمة، ولكن حينما وقع ما بدا أنه كل شيء، أوصيك بأن تبعد كل شيء من أمامي، فلم أعد أعرف نفسي، ولم يسبق لي استخدامها من قبل. ولهذا نعم، فلقد أصبح عزيزا جدا علي، لأنه وبرغم أنه جعلني أعاني الكثير فإنني أرتعد في التفكير لما حدث، فلم أحظ بهذه النوعية من التعامل معي من قبل.

لقد كانت البداية، شكلية وبدأت استعيد ثقتي بنفسي، والفضل يرجع إلى لارى رغم أنه بنى جزءا من كياني على جانب وهدم جزءا آخر منه. أعطاني قبلة على يدي ثم صفعة على يدي الأخرى. ".

ولكنك لا تعرف متى يكون متعاطفا ومتى يكون قاسيا. فعندما كان متعاطفا ومتفاهما معى كان رائعا. غير أن لارى كان ملاكا وشيطانا فـــى آن. ولا طريـــق يجمعهما! "تذكرت إيف ذات مساء عندما مشيا سويا إلى ناصية شارع فؤاد لمشاهدة فيلم "كازابلانكا"فى سينما "ريالتو الواقعة فى شارع صفية زغلول. ولكنها لم تتذكر شيئا من الفيلم ذاته (ولا تريد أن تشاهده ثانية) لأنها كانت تبكـــى طـــول الطريـــق ويحاول دوريل أن يعتذر قائلا: "آسف، أنا آسف"كان يـــردد دائمـــا: "آســـف" بعـــد أن ضربنى ثم ضربنى ثانية."وقفا فى الصف لدخول السينما، شيء ما يفعله مـــع إيـــف"لا يعرف من هو لارى، لم أعرف إلى أى مدى كان مهتما بى: لقد بدا وكأنه ســـعيد فـــى نفسه. فلم أفهمه من قبل وحتى الآن لم أستطع فهمه، لقد كان غامضا، ومتقلبا."

كان دوريل فى ذلك الوقت يستكمل كتابه "بلد خـــاص **A Private Country** وهو مجموعة أشعار طبعتها شركة فيبر أند فيبر فى نهاية السنة، خـــلال زيـــارة عارضة إلى القاهرة بناء على تعليمات السفارة وساعد فى إعداد مجلـــة **Personal Landscape** وهو العدد الوحيد الصادر فى عام ١٩٤٣ والذى كان مـــن المتوقـــع صدوره فى أكتوبر. ويتضمن أحدث قصائد دوريل وهى الأساطير **Mythology**.

وتحدثنا قصيدة الأساطير عن العالم الخاص الذى يضم كل الشخصيات التى أفضلها/ والبعيدة عن كل قالب وحجم،"ورغم أنها كانت أيـــضا نموذجـــا لطريقـــة دوريل الحذرة والمبهمة يعبر بها عن مشاعره. والقصيدة مفعمة بالأسماء الخياليـــة مثل "تيبل جوندريل، وبورفيس وأمير من بوكي/ وشاتربلوسم وديود بودلر/ الـــذى ارتفع وكبر فى جافا وأصبح شجرة."وتجد فـــى القـــصيدة أيـــضا "أن رامـــون دى سامثينج يلقى المحاضرات/ ومن فيل أنشأ مجتمعا/ لحماية الموتى مـــن القـــسوة." وحتى من كاتيسمباليس، رغم تطابقه بالاسم فإنه غامض لكونه يسمع ولكنه نـــادرا ما يرى."[٣١]

ولكن إن كانت الأسطورة لا تعنى الإلهام فإن هدفها بالنسبة لدوريل هى تصفية مشاعره من التشويش وتسجيلها. وبالمثل فإن مفكرة جيبه مليئة بالقصاصات والصورة وتذاكر السينما أو صورة التقطها فى صف من الصفوف، تلك الكلمات البسيطة حول كاتيسمباليس تجسدت أمام دوريل لما بدا أنه بعيد جدا عن نمطية شارع فؤاد: روح متحدية فى زمن حرب اليونان.

وقد سمع دوريل من سيفيريس، والتى كانت شقيقته هناك، من بين الآلاف الذين تجمعوا فى جنازة بالاماس **Palamas** فى أثينا فى فبراير عام ١٩٤٣. أن كاتيسيمباليس كان من بينهم ، وأنه انفجر فى خطبة مسهبة يسب فيها ممثل السفارة الألمانية، الذى وضع إكليلا من الزهور على قبر بالاماس، رغم أن ذلك محظور حتى عند تشيع الجثمان، يحظر تماما مقاطعة النشيد الوطنى اليونانى. وقف العدد الهائل من المعزين فى صمت مهيب بينما ينهى كاتسيمبالا أول مقطع من قصيدته. سحبته أخته من ذراعه والألمان يحدقون فيه بنظرة حادة، وساد صمت رهيب على جماهير المعزين بينما ظل كاتسيمباليس يغنى. ومن ناحية أخرى فإن المقطع الثانى من المشهد من القصيدة انضم إليه خلاله صديق وأنهيا القصيدة معا. ثم انطلق هدير جبار من الجمهور يردد النشيد الوطنى والدموع تسيل على خدود الآلاف وهم يوارون جثمان بالاماس الثرى ويغنون لليونان. هنا أراد دوريل أن يكون بينهم بأفكاره وأفكار صديقه كاتسيمباليس، والذى خاف من أن تغتاله رصاصة، اختبأ الاثنان، "يسمعون ولكن لا يرون شيئا."

وفى صفحة أخرى من مفكرته ولكى يتكلم، "يتذكر رومان دى سامثينج إحدى الأمسيات حين ذهب هو ونانسى لتناول العشاء مع سيفيريس، ثم أصيب فجأة بحمى شديدة. وخلال هذيان الحمى راح يردد اسم رامون جوميز دى لا سيرنا، وهو كاتب (سيريالي) غير واقعى. كان ذلك أحيانا بعد عودة سيفاريس من

بريتوريا إلى القاهرة فى ربيع عام ١٩٤٢، وربما كانت آخر مرة، أن يكون سيفاريس ودوريس ونانسى معا. سافرت نانسى إلى فلسطين وبعد فترة قصيرة زرعت شجرة لتكبر، لأنها تعمل فى مكتب الرقابة فى مدينة يافا Jaffa، ورغم أنها لم تعرف نانسى نفسها فى ديود بودلر، ولم تظهر شاتربلوسوم فإن دوريل أحس بذات الألم عندما فقد ابنته. فى تلك الأثناء وخلال تلك الشهور فى الإسكندرية عندما كان دوريل يعيش وحيدًا، كان ينفس عن مكنون مشاعره من خلال الأساطير وعلى شاكلة رامون دى سامثينج الذى منح حق اللجوء السياسى إلى رؤساء كبار فى بيته."

ومع تغيير اسمه، جاستون زنانيرى ضم أساطير دوريل كهوامش فى نهاية كتاب "جوستين" ومن بينها قائمة من شخصية أشبه بتارو أو شخصية ابتزازية كما يسميهم دوريل، ومع شخصيات مثل ميليسا أرتيميس: راعى الأحزان، وكلى مونتيس: أمواه الحزن الصامت، وجوستين هوسنانى : سهم فى الظلام، هو أحمد الزنانيرى : نجم الإجرامى." (٣٢).

يتحدث الزنانيرى عن موظفى المركز الثقافى البريطانى الذين قابلهم عن طريق المسئول الإعلامى البريطانى لورانس دوريل و روبرت ليديل وهو المعار من المجلس إلى جامعة فاروق: "إنهم أناس أذكياء يكتبون ويتحدثون ويشربون ويدخنون، دوريل يعيش ثلاث حيوات. فلديه مجموعته من الشباب الإنجليزى يعلمهم فى المركز الثقافى البريطانى، كما أنه مهتم بأهل الإسكندرية، وربما يقوم بعمل استخباراتى وهو ما لم نتحدث عنه أبدا،"وقد وجد الزنانيرى فى دوريل "رجلاً مثيرا للاهتمام وذكيا يحب شرابه ويحب نكاته وأعتقد أنه يحب النساء. لقد كنا أصدقاء نشرب معا. كان رجلا بسيطا جدا ".

تحدث الزنانيرى إلى دوريل عن تلك المرات التى تعرف فيها على كفافيس أول مرة. "كنت أذكى إسكندرانى، من صفوة مجتمع الإسكندرية، كل غايتنا فقط الرقص والحفلات الراقصة والحفلات المسائية. لقد كانت لنا معارض طبقة لامعة، بعض أولئك كانوا أناسًا سطحيين. المجتمع! الإسكندرية! كفافيس يعرفهم جميعا. كان عالما بشهرته، على يقين تام وفخور بذلك، كان يتحدث دائما مثل شاعر"وهنا قبض الزنانيرى يديه على حلقه، يتذكر الشهور الأخيرة من حياة كفافيس مع مرض السرطان- "كان معذبا من الألم" شهق الزنانيرى، إذ اهتزت مشاعره مع الذكرى. وقال "كان من عادته أن يأتى إلى منزلى، ونجلس فى حديقتى، وكان يحلل معى قصائده. لقد تعلمت علم النفس من كفافيس."

ثم قال الزنانيرى فى نفسه "إن الإسكندرانيين مهذبون جدا فى حين أن كثيرًا من غير الإسكندرانيين غلاظ وخشنون، إلا أن كفافيس أدرك أنهم جميعا يحملون فى ذكرياتهم ماضى الناس الذى تذوقوه وتقبلوه، لقد عاشوا جميعا بهذه الطريقة بشكل غير واع. اقرأ ما كتبه مهافى **Mahaffy** مع أن كتاباته مملة فإنه يثقفك كثيرًا. فكتبه تعطيك فكرة عن صورة الإسكندرية فى الماضى. ومع ذلك فإن الإسكندرية عمرها نحو ألفى سنة ومازالت هى الإسكندرية. ثمة شيء فى ماضيها يعود ويتكرر مع كل آن ولحظة [٣٣].

إن تعريف بالتازار مع الزنانيرى كان ممكنا، فالبرغم من أن بالتازار كان يعرف الكثير عن كفافيس وعن حياته فى الشقة القديمة فى شارع ليبسوس، فإن دوريل كان يعرف أوصاف الشقة كما كان يعرف أشياء عن كفافيس من خلال الزنانيرى. ذكر دوريل أن بالتازار كان صديقا حميما للشاعر القديم، وتحدث عنه بهذه العاطفة والفهم العميق الذى كان يقوله ويحرك مشاعرى دائما" [٣٤] إن الوصف

يتناسب جدا مع الزنانيرى مع ملاحظة أن بالتازار "تحدث وكأنه نوع مختلف للزمن السائد هنا." [٣٥] وعندما كتب دوريل فى كتابه "جوستين" عن الشباب الذين ثاروا وتحولوا لمشاهدة كل ما هو غريب"فى تلك المقاهى الصغيرة حيث كان يتردد عليها بالتازار مع الشاعر القديم"[٣٦] كان دوريل يجمع قصص الزنانيرى عن مغامرات الليلة مع كفافيس.

كان الزنانيرى يقول لدوريل: "تسألنى من أنا؟ أقول لك إننى إسكندرانى والإسكندرية ليست مصر، كما أن الإسكندرية ليست أفريقيا. فحينما تكون فى الإسكندرية فأنت فى مدينة من مدن البحر المتوسط." ولكن كما عرف دوريل، فى الصالونات الأدبية والمقاهى المنتشرة فى الإسكندرية، فغالبا كل من اليونانيين واليهود والشوام (سوريا ولبنان) عند كل واحد منهم قصة تحكى الرحلات والحياة لسقوط البيزنطيين من مدينة سميرنا البائدة. "وقد اقترح دوريل أن يكتب كتابًا حول الموقف فى الجاليات الأجنبية والذين جلبوا معهم حياة جديدة لمدينة الإسكندرية. وأشار بأنه تاريخ "المشاكل فى مصر" **The Problems of Egypt**".

كان دوريل يقرأ كتاب الزنانيرى "مصر وازدياد التوازن فى العصور الوسطى" **L'Egypte et equilibre du levant Moyen age** والذى نشر فى عام ١٩٣٦ وكتاب "روح البحر المتوسط فى الشرق الأدنى" **L'Esprit mediterraneen dans le Proche Orient** والذى ظهر فى عام ١٩٣٩. وكلا الكتابين كان إسهاما فى مناقشة فى الدوائر الثقافية والسياسية حول أين يكمن مستقبل مصر، فى زمن كان ومازال يتكرر السؤال: من هم المصريون وكيف يتم تعريف تراثهم. وقد تكون الإجابة محرجة لاستبعاد أولئك من التعريف وبالتالى يفقدون حقوقهم السياسية وربما يفقدون حقوق ملكية بيوتهم وبلدهم أيضا.

كانت رؤية سعد زغلول لمصر رؤية علمانية، فرغم أنه أقر بتفرد الشخصية المصرية والضاربة بجذورها فى العصور الفرعونية والتى تروق تحديدا للأقباط إذ يتفاخرون بأنهم ينحدرون من القدماء المصريين. والكاتب المسلم طه حسين والذى صوره الفنان محمد ناجى فى لوحاته "مدرسة الإسكندرية **The School of Alexandria** يشارك سعد زغلول آراءه. ولكنه أكد على أنه رغم أن مصر قد استقبلت العرب بأعدادهم القليلة، فإن كل المصريين سواء كانوا مسلمين أو أقباطا، أصحاب تراث واحد متساوٍ من الماضى الفرعونى. كما تحدث طه حسين أيضا عن إعجابه بالحضارة الأوربية، فى تقدمها وفى تعليمها وقال إن مصر أساسا كانت مثل أوربا. وكثير من المثقفين الليبراليين المصريين من كل الانتماءات جذبتهم آراء طه حسين، وكأنهم يعترفون بدور يهود مصر وبدور سكانها اليونانيين والإيطاليين والشاميين (السوريين واللبنانيين) والجاليات الأخرى والتى عملت طويلا كوسيط بين العالمين الإسلامى والأوربى.

إلا أن الزنانيرى ذكر لدوريل كيف أن إسماعيل صدقى باشا، وهو عضو مؤسس لحزب الوفد، الذى انفصل عن الحزب فيما بعد وأصبح رئيسا للوزراء فى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين. "لقد اهتم بى مثل ابنه أو ابن أخته، وحتى قبل الحرب قال للزنانيرى: "لا مستقبل لك فى مصر، "ونصحه بمغادرة مصر. بدأ نوع جديد من القومية يكتسب أنصارا جددًا وأدار ظهره للتاريخ: بدأت العروبة تؤكد على أن اللغة العربية هى اللغة المشتركة والثقافة ودين الشعب المصرى الذى يرفض الفرعونية كما يرفض اليونانية والرومانية والقرون المسيحية التى سبقت الفتح العربى كما تجاهلت الحقبة العثمانية التى اتسمت بتعدد الأعراق.

فى أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين ظهرت جماعات وطنية مسلحة مرتبطة بالعروبة والدين وكراهية الأجانب، ومن بينها جماعة الإخوان المسلمين

والتى تحولت مع نهاية الثلاثينيات إلى قوة سياسية تعتبر القوة الثانية بعد حزب الوفد. فى دولة يحكمها حزب علمانى ليبرالى وهو حزب الوفد تشجعت الأقليات غير المسلمة فى المشاركة والاندماج، وفى تصور مصر دولة إسلامية كما تراها جماعة الإخوان المصريين، تم التسامح مع الأقليات غير المسلمة، فإنهم سوف يعانون من التمييز وعدم المساواة. صعود الجهاد الإسلامى تأسس على عقيدة خيالية تماما فى المدينة الفاضلة المسلمة القديمة وقد امتدت جذورها بين النمو السريع للسكان والفجوة المتزايدة بين الأغنياء والفقراء. إلا أن القضية التى استحوذت على تركيزهم الشديد فى إحساسهم بالإحباط والخطر، والتى قسمت العالم إلى نصفين "نحن وهم" كانت قضية فلسطين.

وصل هتلر إلى سدة الحكم فى ألمانيا فى عام ١٩٣٣ وعزز تزايد أعداد المهاجرين إلى فلسطين والتى كانت لأول مرة بإقناع العرب الفلسطينيين بأن إمكانية إقامة دولة يهودية فى فلسطين أمر ممكن. ثم فى عام ١٩٣٦ اكتشف الزعماء الفلسطينيون أن الحركة الصهيونية تهرب السلاح إلى الدولة فدعوا إلى إضراب عام، ثم تطور الإضراب بسرعة إلى انتفاضة ضد البريطانيين أساسا، وضد اليهود كذلك.

وفجأة أصبحت فلسطين قضية لا يمكن أن يتجاهلها سياسى مصرى وبها تبلورت العروبة لتحديد مصر لهويتها. فإن اليهود المصريين كانوا غير مهتمين بالصهيونية، والأقباط كانوا مثالا للولاء لمصر وقد قام اليهود والأقباط بدور بارز فى الحركة الوطنية التى تزعمها سعد زغلول والتى لم تعن شيئا بالنسبة لمظاهرات الطلبة فى القاهرة وطنطا والإسكندرية الذين هتفوا فى عام ١٩٣٨ وطالبوا "بخروج اليهود من مصر وفلسطين"[٣٧] وليس الذين اختلط الأمر عليهم وطالب بطرد الأقباط من مصر وإرسالهم إلى فلسطين ليلحقوا باليهود."[٣٨] على أن مصر لما

كانت دولة مستقرة ومزدهرة ولم تتأثر البلاد بالحرب، فـإن أصـوات المتـشددين ظلت صامتة، وفى يناير ١٩٣٩ حينما قام ممثل من الوكالة اليهودية مـن زيـارة مصر ليعرف سبب عدم انجذاب اليهود المصريين إلى الحركة الصهيونية العالمية. فكتب فى تقريره: "إن الحركة الصهيونية فى دول غير مصر تتوسع بسبب عوامل خارجية؛ وهى انتشار معاداة السامية وتدهور الملامح الاقتصادية"ولكن فى مـصر "لم تظهر تلك العوامل إطلاقا" (٣٩) .

اندلعت الثورة العربية التى أشعلها الاقتراح البريطانى بتقسيم فلسطين إلـى دولتين عربية ويهودية، وحثت الحكومة البريطانية لعقد مؤتمر المائـدة المـستديرة فى ربيع ١٩٣٩ وقدمت الدعوة لحضور ممثلين عن مـصر والعـراق والمملكـة العربية السعودية وإمارة شرق الأردن واليمن. فى ذلك الوقت أيقنت بريطانيـا أن القضية الفلسطينية بأبعادها العربية كانت ترجع إلى جورج أنطونيوس فـى كتابـه "اليقظة العربية **Arab Awakening** الذى نشر فى العام السابق، وقد سبب حساسية من خلال كشف سر وعود تخص الأرض وبسط لسيادة تعهد بها البريطانيون إلـى العرب خلال الحرب العالمية الأولى ليكونوا حلفاءهم فى حـربهم ضـد الأتـراك العثمانيين.

ولكن الكتاب انتقد أيضا أنطونيوس، لما كتبه من أنه جـاء ليـرى برعـب واضح أنه كان يصفها بأنها تدمير لعالمه الكزموبوليتانى. وبرغم أن مـسيحيا قـد اعترض على يقظة كانت مفهومة، قال إنها، بمعنى تعريـب وأسـلمة العـصور الوسطى تماما، فإنه كان يستكمل بذلك مراجعاته النهائية وكان يشكو من التعـصب والعدوانية وجنون العظمة التى أحسها من تنامى المتزايد والخروج عن الـسيطرة وتعكير الصفو "الإفلاس العام لمستويات الأخلاق والقيم وبين صعود التيار الوطنى المتعصب. (٤٠).

وبدون أدنى مساومة ممكنة بين المطالب المتعارضة للصهاينة والعرب على فلسطين، فإن مؤتمر المائدة المستديرة قد انتهى بالفشل. وبخصوص مواجهة خطر الحرب الألمانية فإن البريطانيين قد فرضوا تسويتهم. وصدر التقرير الحكومى **A White Paper** فى مايو ١٩٣٩ بإيجاد دولة فلسطينية مستقلة ثنائية القومية مستقلة فى غضون عشر سنوات، كما حدت من هجرة اليهود إلى ٧٥ ألف يهودى فى خلال الخمس السنوات القادمة مع عدم السماح للهجرة بدون موافقة العرب الفلسطينيين. لقد طالبوهم بقبول ما رفضته الدول الغربية والعالم الجديد، وذلك استجابة للمؤتمر الذى دعا إليه الرئيس الأمريكى روزفلت فى عام ١٩٣٨، وقد استجابت له جمهورية الدومينكان والتى وافقت على استقبال بضعة آلاف من اليهود الذين يعانون من اضطهاد حكم هتلر. ومع ذلك فإن التقرير الحكومى البريطانى **white paper** حاول استرضاء العرب فى منطقة الشرق الأوسط وفى فلسطين حيث كان ثلث السكان من اليهود وتوقف العصيان المسلح.

كل هذا كان على بعد أميال من أشواق دوريل إلى اليونان. ولكن فى بلتازار، وموينتوليف وكلى، وهى ثلاثة المجلدات الأخيرة من رباعيات الإسكندرية، تابع دوريل الموضوع، وتغيب عن "جوستين" من التوقعات غير المؤكدة للأقليات والأجانب فى مصر ومؤامرة فلسطين والتى أثارت مشاعر المصرفى القبطى "نسيم هوسنانى وزوجته اليهودية جوستين. "نعم جوستين، فلسطين. إذا استطاع اليهود فقط أن يظفروا بحريتهم سوف نستريح جميعا.فإنه الأمل الوحيد لنا، الأجانب المحرومون". "تطق الكلمة بشيء من المرارة." (٤١) ولكن كل ذلك بعد أن تقابل دوريل مع كلود فينسيندون عند سيبروس –كلود حفيدة فليكس و روزيت دى ميناس وابنة أخت جورج.

فى تلك الأثناء كان البيان الحكومى البريطانى قد أثار غضب الحركة الصهيونية، التى انقلبت ضد بريطانيا بشكل قاطع، ورغم ظهور بوادر هزيمة ألمانيا فقد كان الصهاينة يتحينون الفرصة المناسبة لهم.

فى مطلع صيف عام ١٩٤٣، تلقى الأميرال جودفيرى أمرا بالرحيل إلى الإسكندرية. وفى يناير وخلال زيارته إلى مصر تحدث تشرشل إلى مايلز لامبسون، الذى كان فى ذلك الوقت لورد كيلرين،[٤٢] حول الوضع غير المحتمل كان الأدميرال جودفيرى والأسطول الفرنسى فى ميناء الإسكندرية رافضا أن يربط مصيره بنا بينما يتلقون كل رواتبهم وطعامهم من المصادر البريطانية."[٤٣] عندئذ كان الأميرال جودفيرى يساوم متحيرا حول شرك مبادئ فيتشى، وبالتالى بدأ البريطانيون يحدون من الإمدادات المالية حتى يوم ١٥ مايو واستكان لضرورة الامتثال فأبحرت القوة X من مدينة الإسكندرية لتنضم إلى قوات فرنسا الحرة فى الجزائر.

قبل يومين وفى ١٣ مايو ١٩٤٣، كان قادة المحور وقواتهم قد استسلموا إلى تجمع الجيش البريطانى لقوات الجيش الأول والثامن والفيلق الثانى الأمريكى فى تونس، وتم أسر ربع مليون من القوات. بعد نحو ستة أيام، فأعلن تشرشل "بأن الحرب الأفريقية قد انتهت. وقد انفجرت إمبراطورية موسولينى فى أفريقيا وانهارت إستراتيجية هتلر.[٤٤]

وبدأت حركة تحرير أوربا. فى يونيو أصبح ميناء الإسكندرية ضيقًا بالسفن"[٤٥] فاجتمع جزء من الأسطول الحربى لجيوش التحالف فى الموانئ البريطانية وموانئ أوربا الشرقية تحت قيادة الأميرال كاننجهام للعمليات الضخمة، وبدأ بغزو صقلية فى ١٠ يوليو، وتقضى خطتها بتوسيع إنزال نورماندى بعد أحد عشر شهرا. وبالفعل تم إنزال نحو نصف مليون من قوات التحالف على جزيرة صقلية، أما الأغلبية البسيطة فستكون من القوات البريطانية والباقية من القوات

الأمريكية، وتحت قيادة القائد الأعلى دوايت أيزنهاور، من خلال القبول البريطـــانى بأن تكون الولايات المتحدة هى شريكا قائدا أعلى فى التحالف.

ومع بداية غزو الأسطول من الميناء الغربى، فإن إحساسا بالهبوط المفاجئ قد حل بالإسكندرية، وقد اعتقد جوين وليامز بعد انتصار فى معركة العلمـــين، أن الأسطول قد ابتعد عن العالم فى الحرب."ورغم قرار السلطات العسكرية بأن يظـــل التعتيم مستمرًا مادام أن جزيرة كريت واليونان فى أيدى الأعداء، فقد بـــدا للحظـــة بسيطة أن الأنشودة القديمة بدأت تعود من جديد. "الـــسيدات اليهوديـــات الثريـــات وصالوناتهن وأمسيات الأربعاء للبارون جورج (دي) ميناس قد أصبحت جزءا من الإسكندرية من ثيوكراتيس. بالنسبة لنا فإن ثيوكراتيس كان مدينة سلوى المنـــافى. "كل شيء كان متاحا لنا...الحب والطعام الشهى والموسيقى والـــسباحة."[٤٦] ففـــى زمن فورستر، "ازدهرت الطوائف والفلسفات وكان هناك حلم جيـــستون زنـــانيرى لثقافة البحر المتوسط تنتظر أن ينتشلها من الحرب.

وأضاف وليامز "لم يكن ثمة خطأ فى أن تكون الإســكندرية فـــى ســـنوات ١٩٤٢-١٩٤٥ مدينة القضايا التى خسرتها، ومع أنها دافعت بنجاح مـــن الناحيـــة العسكرية "لقد كان عالما يرمز إلى أسماء أناس تعرف إليهم هو ودوريل هناك من هؤلاء "الزنانيرى وساشس وبدارو وميناســـى وزوجيـــب وســـويريز وســـالييناس وكيركريتى وباربر وبيريدس وفومارولى وباباسونيسيو كان يتدحرج حول البحر." "كان بعيدا عن هذا التنوع وموت القلق الذى اخترعه لارى فى رباعياته "رباعيات الإسكندرية" [٤٧].

الفصل الثامن

قلعة بروسبيرو

"جلست فى قلعتى مصغيا للأفكار التى تمور داخلى صافية وغامضة مثل السمك."

من لورانس دوريل إلى ديانا جولد فى أبريل ١٩٤٤. [١]

فى ٢٢ أغسطس، ذهب دوريل إلى دار الإقامة البريطانية فى أعلى تل أبو النواطير فى رشدى من أجل أن يجرى مقابلة مع نويل كاورد الذى كان يحل ضيفا على صديقه لورد كيليرن. وكتب كاورد فى يومياته: "كان اليوم رائعًا ودافئًا إلى حد بعيد، لم ألحظ ذلك فقد استيقظت فى الظهيرة، أجريت مقابلة مع لارى داريل الذى يعيش فى جزيرة كورفو ويكتب قصائد، وذلك بينما وضعت صينية الإفطار على حجرى."[٢] وأخبر دوريل أنه سئم عادة زمن الحرب التى تقضى بختم كل شيء على أنه "سري" أو "سرى للغاية" لدرجة أنه كتب على مخطوطات يومياته "سخيفة جدا".[٣]

وقبل المقابلة بأربعة ليال، تناول كاورد وجبة العشاء مع لورد كيليرن وريتشارد كاسى بالقاهرة حيث تحدث كاسى "كثيرا عن الترحيب باليهود والاستهزاء بسلطاتنا" فى فلسطين.[٤] وكان من السهل انضمام كاورد فى هذه المناقشات، حيث انضم لجهاز الاستخبارات البريطانية السرية (MI6) فور اندلاع الحرب، إذ عمل فى البداية فى قسم "د" الذى يعد قسم الحيل القذرة، ثم عمل لدى

مدير الحرب السياسى حيث تورط فى دعاية سوداء لفترة من الوقت حتى تم تعيين شخص آخر فى خدمة قضية بلاده، شخص يراه الناس بصورة أفضل من خلال الترفيه عن القوات فى توظيف مفتوح لوزارة الإعلام.(٥)

كان كاورد فى رحلة استغرقت ثلاثة أشهر فى دول البحر المتوسط والشرق الأوسط، وفى هذه الليلة أقام حفلا موسيقيا فى معسكر نقاهة واستجمام قبل أن يسافر فى اليوم التالى إلى لبنان وسوريا والعراق. إلا أنه عاد إلى الإسكندرية فى منتصف شهر سبتمبر حيث دعاه هارولد فيني، أصغر إخوة أوزوالد ووريث أعماله، على مأدبة غداء فى نادى اليخوت الذى يطل على الميناء الغربى بالقرب من قصر رأس التين. وكتب كاورد فى يومياته: "يعتبر نادى اليخت فى الإسكندرية منطقة مختارة بعناية وموقعًا متفردًا لدرجة مزعجة، على الرغم من أننى أشك فى أن معظم أعضائه لا يهتمون باليخوت أو يهتمون بها بدرجة بسيطة. عند وصولنا كان يجلس فى الشرفة بعض السيدات يرتدين ملابس بنفسجية زاهية، ويضعن طبقة كثيفة من بودرة الأرز ويصفرن فى همس." طلب كاورد وفينى شراب الكوكتيل وفرحا لارتدائهما ملابس تناسب الجو والخلفية ولكن حين لاحظت الإدارة أنهما يرتديان سراويل قصيرة وقمصانًا طلبت منهما مغادرة الحفل. ونظرا لما يتمتع به من نفوذ كبير فى المدينة، فقد احتج فيني بلا جدوى، ثم انسحب كل منهما حفظا لماء وجهيهما. وبعد ذلك تناولا طعام العشاء فى وسط البلد وروحا عن أنفسهما بفكرة مؤداها أنه: "مادام أن نادى اليخت فى الإسكندرية كان محافظا على معاييره الأخلاقية العالية، فإن الحرب من أجل الحرية والحضارة تستحق بالفعل تحقيق الانتصار فيها."(٦)

وخلال زيارة العودة هذه التى قام بها كاورد إلى الإسكندرية، أقام حفلا موسيقيا فى نادى الأسطول. فقد استسلمت إيطاليا فى يوم ٨ سبتمبر قبل الحفلة

بأسبوع، وتم نقل الأسطول الإيطالى إلى الميناء الغربى فى احتفال بالنصر. وحسب وصف كاورد "كانت لحظة مثيرة"- لحظة دخوله حديقة البيرة المفتوحة حيث كان يجلس مئات البحارة البريطانيين الذين كانوا فى مهام عسكرية منذ عدة أسابيع، تحلقوا حول طاولات منتشرة تحت الأشجار فى جو الكحوليات الصاخبة. كان نادى الأسطول هو موقع المستشفى اليونانى القديم الذى تُوفى به كفافيس، وتمثل حديقتها المنظر الذى كان يُطل الشاعر عليه عندما كان يقف فى شرفته ويستمع لصوت موسيقى المدينة. وفى هذه الليلة، عزفت الموسيقى قصيدة "لا تدعنا نكره الألمان" وتنوعات كول بورتر الفجة "دعنا نفعلها" حتى قفز كاورد "المرهق بسبب الراحة" من المسرح و"سرعان ما غاص فى بحر من البحارة".(٧)

كانت "نقوش الإسكندرية" إحدى ممتلكات فورستر الشخصية، إلا أنك إذا قلبت فى نسخ الصحف المصرية القديمة بحثا عن مقابلة لدوريل أو تسجيل لعروض كاورد فى نادى الأسطول، فلن تجد أيا من ذلك. غير أنه فى ٢٩ أغسطس، عثرت صحيفة "ذى إيجيبشيان جازيت"على فراغ تبلغ مساحته بوصتان فى وسط الصفحة الأولى تناولت فيه بالحديث قصة مأخوذة من واقع وكالة يونايتيد برس الإخبارية. وتحت عنوان: "ترحيل هتلر لعدد ٥ ملايين يهودي"، تم الإيفاد بالأرقام وحسب دون تقديم أى تعليق عليها. كما أعلن معهد الشئون اليهودية"ترحيل هتلر نحو ٥ ملايين يهودى من يهود أوروبا البالغ عددهم ٦,٣ مليون. كما أهلكت المجاعة وأعمال القتل أو الأعمال الانتقامية أكثر من ٣ ملايين يهودى. ورغم ذلك، عجزت صحف مثل "ذى تايمز" اللندنية و"نيويورك تايمز" الأمريكية عن إيفاد أى تقارير عن القصة، حيث قمعت الحكومات البريطانية والأمريكية تفاصيل الكارثة الوشيكة.(٨)

وكانت الشقة الواقعة فى شارع فؤاد وفى قلب المدينة حارة وخانقة طـوال الصيف وتذكرت إيف تلك الشقة بقولها: "كانت مظلمة وكئيبة ولم يحبها أحد منـا". إلا أنه على الرغم من ذلك، فقد جاء إعلان دوريل عن عثوره على مكان سكن لهم جميعا بمثابة مفاجئة كبيرة.

وفى يوم الجمعة الموافق للأول من أكتوبر ١٩٤٣، انتقل دوريل وإيف، مع بول وبيلى (التى كانت حاملاً فى شهرها الخامس) وابنتهما لينيت التى تبلـغ مـن العمر عامين، وكذلك مربيتها وكلبهم سافو، للطابق العلوى من فيلا باروكو الجديدة فى ١٧ (١٩ حاليا) شارع مأمون بحى محرم بك.[٩] فى ذلك الوقت، رحلت جـين هيل صديقة بيلى، ولكن تم إضافة مستأجرين للمجموعة المتنوعة من الأفراد وهما السيد هارولد إدوارد المحاضر فى المجلس الثقافى البريطانى وزوجته اليونانية إبى التى هرب معها من أثينا وقت الغزو الألمانى. كانت الغرف بأسقفها المنمقة واسعة وتشع نورا كما توفر غرفا للأزواج وغرفة للمربية مع الطفـل وغرفـا إضـافية للضيوف بالإضافة لغرفة طعام وغرفة للضيوف يشترك فيها الجميع إلـى جانـب شرفة كبيرة تطل على شارع تظلله الأشجار، وهو المكـان الـذى تكـررت فيـه اجتماعاتهم وتسليتهم.

وارتفع برج مكون من طابقين وثمانى أضلاع فى ركن الفيلا. وارتفع مـن السطح سلم ضعيف بحاجزيه السلكيين المشغولين إلى غرفة البرج العلويـة التـى اتخذها دوريل على الفور صومعة كتابته. ولم يسمح بدخول البـرج لأحـد سـوى لإيف: "كثيرا ما طلب منى الصعود حيث كنت فى هذه الأيام صامتة ولـم يـزعج وجودى كتابته وقليلا ما أتكلم لأننى مازلت قادمة من الماضى." ساعدته فى التأثيث وتعليق الستائر على النوافذ ووضع الوسائد على الأرائك الموجودة مقابل الحوائط، بينما صمم له أحد النجارين مكتبًا بيضاوى الشكل وضعه وسط الغرفة. وقال عـن

ذلك بينما كان يلقى نظرة على المكان: "كان الأمـر فـى مجملـه بـالغ الغرابـة والتفرد.(١٠)"

ألقى دوريل من قلعته نظرة شاملة على أنحاء المدينة الجنوبية وما بعـدها، وقال: "تستطيع رؤية عمود "بومبى وسجن الحضرة ونفايات قصب بحيرة مريـوط المبتلة الممتدة على الأرض والكاسية لصفحة السماء." (١١) وعلى بعد نصف ميـل أو نحوه باتجاه الجنوب الشرقى، بين خط الترام وترعة المحمودية، كانت الشوارع الضيقة التى قضت فيها إيف طفولتها المبكرة بعيدًا عن الجزء المورق مـن حـى محرم بك الذى تم تطويره فى بداية القرن كحى للطبقـة العليـا مقارنـة بـالحى اليونانى. كما كان باستطاعته أيضا أن ينظر فى حديقة الفيلا الضخمة التى يحـيط بها حائط بارتفاع ثمانى أقدام حيث تقف التماثيل الرخامية وأعمدة الجرانيت وسـط غابة مزدهرة من زهور البنفسج والزنبق وأشـجار الفرانجيبـانى وتـين البنغـال بالإضافة إلى ملعب تنس تكسوه الأعشاب وأستوديو رسم على الجانب البعيد.

وعندما انتقلوا إلى الفيلا عرف جوتش وإيف أن دوريل كان يعرف أصحابها وهى أسرة أمبرون. وقد وصفه زنانيرى ألدو أمبرون بقوله "لقطة كبـرى" وبأنـه "مسئول كبير" كما وصف زوجته أميليا "بسيدة مجتمع" وقال إن باب منزلهما "كـان دائما مفتوحا لتسلية المجتمع." اعتقدت إيف أن هذه طريقة تعارف دوريـل علـى جيلدا ابنة أمبرون قائلة: "لقد أعجبت به وعندما اكتشفت أنه يبحث عن شقة قالـت لدينا مكان فى الطابق العلوى." وبينما كانت تتظاهر إيف بأنها تسكن فى المستشفى دون أى دليل، رحبت عائلة أمبرون بدوريل كفرد من العائلة ودعوه للطابق السفلى ليتناول وجبة أعدتها جيلدا. وافترضت إيف "أن الآباء يشعرون أنه من اللطيـف أن يتزوج لارى الذى كان متحررا، أعتقد أنه تحدث كثيرا عن مشاكله مع أى شخص يستمع، وكان فى صراع مع رفض نانسى، ومن ثم كان هناك تنويه وإشارة إلـى

حريته؛ ولذلك، ألم يكن من اللطيف أن تتزوج ابنتهم من الشخص الذى كانت مغرمة به. وسلبها لارى عقلها بطريقة ملائمة: فقد كانت فتاة من عائلة محترمة وتصرفت بأسلوب رائع." وتذكر جوتش: "أحببت جيلدا لارى حبا شديدا، وأغرمت به."

كانت جيلدا أمبرون الفتاة السكندرية الوحيدة التى ظهر اسمها الحقيقى فى الرباعية. حيث ذكر دوريل اسمها مرتين فى الجزء الثانى المعنون بالتازار(١٢) فقد كان دوريل يقلب: "الشعر الملكى للأسماء التى تعنى الكثير بالنسبة لى، أسماء أهل الإسكندرية" (١٣) وفى كل مناسبة كان ينتهى بذكر جيلدا أمبرون على الرغم من تغيير ترتيب الأسماء.

كانت الإسكندرية المدينة الأم الشعرية دون وعى متمثلة فى الأسماء والوجوه التى صنعت تاريخها. استمع للأسماء التالية:

تونى أومبادا، وبالداسارو تريفيزانى، وكلاود أماريل، وبول كابوديستريا، وديمترى رانديدى، وأونوفريوس باباس، وكاونت بانوبولا، وجاك دى جورى، وأثينا تراشا، وجمبولاط بك، ودلفين دى فرانسويل، وجنرال سرفونى، وكذلك أحمد حسن باشا، وبوزو دى بورجو، وبيير بالبز، وجاستون فيسن وحداد فهمى أمين، ومهمت آدم، وويلموت بيرفو، إلى جانب توتو دى برونيل، وكولونيل نجيب، ودانت بوروميو، وبندكت دانجو، وبيا دى تولومى، وجيلدا أمبرون.... الشعر وتاريخ التجارة والقوافى فى شعر الشام التى استوعبتها البندقية وجنوا. (هذه الأسماء قد يقرأها عابرو السبيل فى أحد الأيام على الأضرحة فى المقابر.) (١٤)

غير أن انتقال دوريل لشارع مأمون عليه أن يقوم بأكثر من مجرد مقدمة من أسرة سمارت التى كانت على علاقة صداقة بأسرة أمبرون منذ فترة طويلة.

وكان ألدو والد جيلدا ناقدا فنيا وعضوا مؤسسا لجمعية أصدقاء الفن التى وصفها جيدج برينتون فى يومياته فى العشرينيات بأنها جمعية "إيطالية مثقفة وغنية وتتمتع بحس فنى رائع." وبعيدا عن المصالح الثقافية المشتركة مع أسرة أمبرون، فإن عمل السير والتر سمارت كمستشار لشئون الشرق (جرت مراسم تقليده درجة فارس فى يونيو ١٩٤٢) يقتضى معرفة تاريخ مصر السياسى الحديث بأسره ومعظم شخصياتها المؤثرة. ومنذ توليه منصبه فى عام ١٩٢٦، انغمس فى شئون البلاد وسعى لمصادقة كل الناس الملائمة معتبرا إياهم صلات ومصادر للمعلومات. وضم سمارت ألدو أمبرون فى "قائمة شخصيات مصر"الخاصة بالسفارة التى جمعها من أجل أنتونى إيدن فى عام ١٩٤١ واصفا إياه بأنه يهودى إيطالى، ومقيم فى الإسكندرية، ومهندس مدنى، ومهندس معمارى، ومقاول، ومؤسس بنك إيطالى مصرى، وصاحب أملاك ثرى، كما كان رئيسا للنادى الإيطالى وحامل لقب رئيس المحكمة الملكية الإيطالية.

وقد تزوج ألدو أمبرون أبرامو إيزاك من أميليا المولودة فى ألماجيا، وأصبح شريكا فى شركة والدها للهندسة والتعمير التى بنت امتداد كورنيش الميناء الغربى الفخم فى عام ١٩٠٦، وهو ما احتفى به فورستر كأفضل أرواح البطالمة. كما كان أمبرون مديرا للمجموعة المصرية للشركات المدنية والريفية التى اشتركت فى تشييد مبان إدارية وتجارية تقع الغالبية العظمى منها فى وسط الإسكندرية. وكان زملاؤه من المدراء قادة مجتمع رجال الأعمال السكندرى المزدهر وكانوا أعضاء أكثر السلالات اليهودية شهرة فى المدينة، أمثال جاكى أغيون الذى كان يستثمر أمواله فى السكك الحديدية وفى السكر، ورالف توريل تاجر القطن والنسيج ومدراء البنوك ألفرد وكذلك جاكى سواريس وبارون فيلكس دى ميناس. وعلى أية حال،

جاء دوريل ليقطن فيلا عائلة أمبرون وجذبه انتقاله لقلب طبقة يهود الشتات العليا في الإسكندرية.

وأعجب دوريل بجيلدا وكانت حياتهما قائمة على الود والتفاهم، حيث كانت فتاة مفعمة بالحياة وضاحكة وودية بالإضافة إلى أنها كانت رسامة جيدة على مستوى الرسامين التقليديين. كذلك كان كل أفراد أسرة أمبرون فنانين؛ فقد كانت نورا أخت جيلدا موسيقية وكان أخوها، إيميليو يحفر أكليشيهات عن مواضيع بالية بينما ترسم أمها التي تعمل بالفحم والطباشير وأحيانا بالزيت صورا وتلونها موهبتها في التقاط صورة زيتية بالاتساق مع نزعة سعيدة للتأكيد على ما لدى الجالسين أمامها من الجمال والأناقة. وربما يكون ذلك، كما تقول مارتا لوريا، بسبب "قبح الأسرة بأكملها"، التي لم تكن فيها جيلدا وحدها "قبيحة وقصيرة وممتلئة القوام". قال برنارد دي زوغيب: "لم تكن البنية الجسمانية لجيلدا رائعة؛ كانت قصيرة وممتلئة القوام ووجهها مسطح وعيناها دائرتان قليلا، كما لو كانتا تشبهان عينا كلب البول دوج".

على أن فيلا أمبرون جذبت درويل لسبب آخر؛ حين عملت جيلدا وأمها في الأستديو الخاص بهما، الواقع عند الطرف الأقصى من الحديقة الذي بناه أليساندرو لوريا من أجل أميليا في بداية العشرينات وسماه المستشار برينتون "بيت الدمية" (١٥) في زيارته عام ١٩٢٦ عندما تم تأجيره للقنصل الأمريكي لفترة من الوقت. وعلى الرغم من ارتفاعه ثلاثة طوابق، فإنه كان بعمق غرفة واحدة ولم يكن سوى حائط بلا نوافذ يطل على الشارع الخلفي؛ فإن العديد من النوافذ الكبيرة التي تلمع في الشمال باتجاه فيلا أمبرون قد ملأت الأستديو بالضوء الغزير. ونظرا لاحتواء الأستديو على غرفة فارغة، اشتركت صديقة جيلدا وجارتها كلي بادارو في الأستديو عندما لم تكن جيلدا موجودة في الأتيلييه، ووصفها دوريل، الذي توفرت

لديه نظرة واضحة للأستوديو من برجه، بقوله: "فتاة شقراء جميلة حرصت عليها." (١٦)

وتحدثت كلى عن اليوم الذى زار فيه دوريل الأستديو لأول مرة، وأشارت إلى أنه على الرغم من كراهيتها لزيارة الناس غير المتوقعة، فإنها نحت انزعاجها جانبا عندما أظهر إعجابه بعملها من رسومات الجنود فى البارات والملاهى الليلية المنتشرة فى أرجاء المدينة والمضحكين والمهرجين ونساء السيرك على ظهور الخيل، وتذكرت أيضا كيف كان مفتونا باسمها. وتحدث دوريل عنها فى رباعيات الإسكندرية بقوله: "كلى الرقيقة والمحبوبة والتى ما من سبيل لمعرفتها التى تمتاز بالبساطة البالغة والأناقة وبالاستقلال وضبط النفس... تفيض فى جسد نعمة إلهية صغيرة: جسد مولود دون غرائز أو رغبات، وتمتاز فى الوقت نفسه بالدفء والحنان." (١٧)

قالت إيف: "وصفها لارى وصفا جيدا، لقد اعتاد على اسمها، كما وصف جسمها بأنه رائع جدا " قال برنادرد دى زوغيب، الذى أصبح صديقها : "كانت جميلة وطويلة وعيناها الزرقاوان وشعرها الأشقر، كانت شديدة الجاذبية وتتمتع بقدر كبير من السحر والدفء، لقد أشاعت نوعا من الوهج الداخلى رغم خجلها من الغرباء الذين لا تعرفهم." وعندما كانت إيف تقوم بعمل موديلات الملابس فى الأتيلييه، كانت تقابلها أثناء مرورها وتتطلع إليها بنظرات يملؤها الدهشة والرهبة من جمالها البراق. وبريق ذكاء يتفتق من عينيها، نظرة تنم عن ذكاء وفطنة من عينيها وتعبر عن معرفة ووعى وجدية هدف، وهو ما جعل إيف تشعر" بأنها تافهة بجوارها" " قالت إيف: كانت "بارعة الحسن مع أنها كانت متواضعة وبسيطة على عكس كثير من السيدات فى الإسكندرية من اللاتى يستطعن نشر هذه الأوصاف على الجميع. أيا كانت حياة كلى الخاصة، فإنها لم تكن مثار أحاديث الناس فى هذه

المدينة التى يتحدث فيها الناس عن شئون الآخرين. فكل واحد يحب أن يجعلها حوله، لا ملاحظة عليها، فكل النساء يحببنها.

رسمت كلى دوريل وتحدثا سويا، وكانت فى الثلاثين من عمرها، أما هو فكان فى الحادية والثلاثين. تبادلا الحديث عن طفولتها، قالت إنها بدأت ترسم فى الطفولة، كانت تسجل انطباعاتها على كل قطعة ورق تصادفها ترسم فى دفاتر المدرسة وترسم على ورق حسابات المنزل وفى هوامش الخطابات التى تكتبها لأصدقائها؛ فلم يكن ما تراه وحسب هو ما يثير انتباهها ولكن أيضا كانت أحلامها تثير انتباهها. وتطرقت للحديث عن اسمها بادارو، وقالت إنه اسم شامى، والدها مسيحى مارونى، يعمل محاميًا ومشاركا فى شئون مالية مهمة فى القاهرة مسقط رأسها. أما أمها فكانت يونانية من مدينة سميرنا، أما صديقاتها فقد اعتقدن أنها يونانية باسم كليكاى، وهو اسم "تدليل" يونانى لاسمها "كلي"؛ وهو الاسم الذى أطلقه والداها عليها فى طفولتها السعيدة فى مصر.

توفيت أمها وهى طفلة، وبعد أن خسر والدها ثروته، اصطحبها واصطحب شقيقتها الكبرى إلى سويسرا وعاشوا جميعا مع جدتها لأمها فى مونترو. وهناك انتهت أيام السعادة وتبعتها سنوات الحزن والألم الشديد، والدهما الذى منحهما الحب والعاطفة والحنان تدهورت صحته بسبب الاكتئاب فأصيب بالشلل وقضى بقية حياته قعيدا. وتبدل صخب طفولة وضحك كلى وشقيقتها إلى حياة صارمة متقشفة فرضتها الجدة، واتجهت كلى إلى الرسم، كانت ترسم المهرجين والراقصين المعلقين فى الهواء كما كانت ترسم شخصيات من الجن وهى تمتطى الجواد المجنح وبعض شخصيات السيرك الذى ملك عليها مشاعرها. وفى سن السابعة عشر التحقت بأكاديمية الفنون الجميلة فى لوزان ثم عادت إلى مصر بعد مرور أربع سنوات حيث وجدت فى الإسكندرية مرسمها الروحى.[١٨]

يشير دوريل إشارات ضمنية عن حياة كلى بادارو فى رباعيات الإسكندرية حيث شخصية ضاغطة لـ "كلى مونتس: مازلت تعتصر من الألم "[١٩] إشارة إلى وفاة أمها [٢٠] "ووالدها العجوز الذى تحبه بجنون"[٢١] ولكن رغم وصف دوريل لنسيم باعتباره قبطيا وجوستين وبالتازار باعتبارهما يهوديين ووصف ميليسا وكابوديستريا باعتبارهما يونانيين وهكذا تطرق إلى سكوبى وبورسواردن وبومبال إلى آخره، برغم ذلك كله فإنه وصف كلى بشكل فريد دون أن يذكر فيها ما ورثته أو يذكر جنسيتها، بل وصفها بأنها تلك الفنانة.

فى الحقيقة، من الأشياء التى أحبها دوريل كثيرا فى كلى أنها لم تكن يهودية. فكتب فى مذكراته: "إن اليهود يحيطون بنا فى كل مكان، وقدموا نكهة غريبة للحياة فى الإسكندرية وبعبارة كلى ": لقد كان اليهود فى هستريا متشائمة غريبة وتعذيب ضمير مستمر". أما اليونانيون فقد قدموا لمدينتنا الضوضاء والتمييز، وأما اليهود فقد خلطوا كل شيء بطعم المال والأخلاق مع إلحاحهم الشديد وشغفهم الشديد وانتقاء الأمن من جانبهم. فالهدوء لهم هو سم زعاف، والنقص فى هذا المجال يدفعهم إلى قوة البناء العقلى بالمعدل نفسه المتصاعد مثل نمو ورم سرطاني".[٢٢]

فكر دوريل كثيرا بهذا الشأن؛ فى أثناء تأليف "الكتاب الأسود" إلى ميلر من كورفو: "أدركنا فى الوقت المناسب أن لكل إنسان الحق فى اختيار حقيقته وتفسير ما يريده... فلا توجد سوى شريعة واحدة وهى الإيمان." ولكن هناك فقط حشود من الكتاب بسبب الخوف قدموا لنا أكذوبة" "معظمهم يهود" لن يعترفوا بضرورة وجود خبرة الفنان على أى حقيقة منطقية. فليسوا مؤمنين بأن حقيقة المرض اليهودى القومى هو غياب الإيمان "[٢٣].

كانت كلى بادارو مثله تماما، إذ ابتدعت من تجاربها فنا خاصا بها. بالإضافة إلى جمالها الذى أُفتتن بكونه احتواء ذاتيا ووصفه بأنه إيمان بجذورها

وثقتها فى فنها." فهى تركز بفكرة واحدة على فنها الذى تأخذه بمحمل الجد إلى حد معقول، فشجاعتها كانت تشع بجلاء ومرح فى اللوحات الزيتية، فهى لوحات مفعمة الإحساس بالمرح والخفة."(٢٤)

فى نهاية كتاب "جوستين"، وأيضا فى نهاية كلى التى تعتبر الجزء الأخير من رباعيات الإسكندرية، تبادل دارلى الخطابات مع كلى من جزيرته عبر البحار؛ هو فى برجه وهى فى الأستديو فى نهاية الحديقة، بينما يعلمان أنهما سيجتمعان فى وقت ما ومكان ما.

فى أواخر صيف ١٩٤٣، بعد عملية هاسكى أبحر قارب شراعي- من ميناء الإسكندرية إلى صقلية، اسم القارب ساموثريس - صاحبه ماك فيدن وهو واحد من أقارب جيدج برينتون من زواجه الأول، وقد أحضره فى إبريل من العام الماضى من قبرص حيث كان يحفر فى حرم أبوللو فى الكوريوم - لحساب جامعة بنسلفانيا. تابع ماك فيدن سعيه وراء التحف مع حبه للبحر؛ وفى وقت فراغه ترجم الإلياذة. كانت غرفته الخاصة فى اليخت مكسوة بخشب الجوز كما كانت تضم مدفأة وأثاثا من قصر جيمس الثانى فى لاهاى وأرفف مكتبته ودولابه تحتوى على كتب علمية. وقبل عودته إلى أمريكا للالتحاق بالبحرية، أبعد قاربه "ساموثريس" عن مواطن الأذى فى كينيا، ثم أعادها إلى الإسكندرية من مومبازا على أمل أن يجد جيدج برينتون مشتريا للقارب.

كان الربان الذى أبحر بالقارب "ساموثريس" من مومبازا يدعى تشارلز جيبسون كوان وهو مؤلف تقرير الصوت العالى الذى نشر فى عام ١٩٣٨ ويعتبر رواية عن تاريخ اليهود الفقراء فى نهاية شرق لندن وحياته فى سنوات كمتشرد وخطيب فى الحدائق ومحتال. ومنذ ذلك الحين وهو يتمتع بنجاح بسيط كمنتج ومؤلف مسرحيات وممثل غير أنه شعر أن نجاح مستقبله يكمن فى الكتابة.

ومع فكرة أن الكتابة هى نوع من الكتاب المتشرد، ففى هذه المرة انطلق عبر البحر المتوسط، كوان – ويبلغ من العمر ٣٦ سنة، فقد أبحر من إنجلترا في يوليو ١٩٣٩ فى مركب صيد شراعى تم تجديده "أمل إيفلين" مع ممثلة تدعى إليزابيث جوين– ٢٥ سنة – وقد اشتهرت بعد الحرب بإليزابيث دافيد مؤلفة الكتاب التقليدى الطهى "أطعمة البحر المتوسط."

ولدت إليزابيث فى عائلة من الطبقة الراقية لها علاقات بالأرستقراطية وعند بلوغها سن النضج فى عام ١٩٣٢؛ بدأت تظهر كفتاة الحفلات الاجتماعية. كانت خجولة ولكن قوتها الخفية تحت جمالها الهادئ، فشعرت بالملل من مجتمع الشباب الغر الذى تعجب به أمها. وفى رد فعلها قالت إنها ستصبح ممثلة، ثم قابلت كوان بهيئته أشعث أسمر الوجه قرصانى الملامح. أخبرت إليزابيث كوان فى رحلتهم عبر البحر المتوسط: "لا ترتد سوى جاكت أزرق وبنطلونا قطنيا قديما ولا تغسل شعرك من الملح. لعلى أستمر فى حبك." (٢٥) قالت لأعز صديقاتها إنه كان يقيدها فى الصارى ويجلدها، والتى كانت تعتبر مزحة توحى بأى شكل كيف كانت رؤيتها لعلاقتهما.

بينما سافروا شرقا، بدأ الألمان فى غزو فرنسا وعلى مقربة من أنتيب؛ اعتقلهم الإيطاليون لفترة عند مرورهما بمضيق ميسينيا؛ وعندما شن الألمان هجومهم على اليونان، تم قصف جزيرة سيروس بالقنابل وقد كانت وطنهم. فى منتصف مايو ١٩٤١، هرب كوان وإليزابيث إلى مصر حيث تمزقت الحميمية بينهما بسبب الخطر ومصاعب الحياة فانفصلا. فى ذلك الصيف كتبت له : "سنذكر دائما فى أمور فعلناها سويا بدءا من الترع والخمر وصخور الحمراء لفرنسا التى أحبها والبحر الأبيض الممتلئ بالنوتى البحرية التى تسبح على شاطئ كورسيكا ومطلع الفجر على خليج نابولى ومايونيز الكركند التى تناولناها معا بين الحين

والآخر وجبال البرتقال الذهبي فى حديقة يوسف جبال وتلك الجـزر الأرجوانيـة الممتدة حولنا من أعلى التل خلف خيمتنا." ولكنه كان وداعا مترددا: "أشكرك علـى المواقف الجميلة التى منحتنى إياها وتذكر دائما أنك جعلت جزر اليونـان أكثـر مـن مجرد اسم جميل بالنسبة لكلينا، ونتمنى أن تتكرر تلك الأمور ثانية".[٢٦]

فيما بعد ذكر لوريل أنه قابل إليزابيث أول مرة عندما استقلت نفس المركب الذى هرب فيه مع نانسى من كالاماتا.[٢٧] لم يكن هذا صحيحا كما كان لهدف مـا، لقد قابلها عن طريق روبين فيدن بعد وصولها القاهرة. ولكن كان دوريـل يتمتـع بتنافس ودى مع فيدن الأكبر وكان يتخيل نفسه أحيانا فى مكانه.

كان فيدن وهو أحد المؤسسين مع درويل رؤيـة شخـصية قـد نـشأ فـى نورماندى وزار كامبريدج قبل سفره إلى الشرق الأوسط. وفى عام ١٩٣٧، كتـب دراسة علمية تصف ملاحظاته القيمة عن دير القديس أنتونى القبطى بـالقرب مـن البحر الأحمر الذى زاره العام السابق؛[٢٨] وفى عام ١٩٣٨، نشر دراسة بعنـوان "الانتحار: دراسة اجتماعية وتاريخية "وقد أثرت هذه الدراسة على دوريـل تـأثيرا خاصا.[٢٩] كان فيدن يعمل ملحقا ثقافيا فى السفارة البريطانية فى أثينا عندما قابـل دوريل حيث كان يعمل عملا مؤقتا بعد اندلاع الحرب وكتب ملاحظـة بعـد أول صدام مع "قبول دوريل الأنثوى وعينيه القويتين..انطباع بـشدة الحـساسية التـى وازنتها رباطة الجأش."[٣٠] كما كتب بعض ملاحظات دوريل مثل "إن فساد الحياة الدنيا هو التصالح بين الزمان والمكان."[٣١]

لم يستطع فيدن أن يوفق بين عمله فى السفارة ومعارضته للحرب، فاسـتقال من منصبه وعاد إلى مصر فى عام ١٩٤٠، حيث بدأ فى إلقاء محاضـرات فـى جامعة فؤاد بالقاهرة. هنا فى القاهرة اتسعت دائرة أصدقائه وتنوعت وراح يتنقـل

بين الملاهى الليلية والحفلات المختلطة وبين الدوائر الأدبية والدبلوماسية؛ كان أعز أصدقاء آمى نمر وربما قام دوريل بتزكيتها عند آمى وزوجها والتر سمارت. لقد كان فيدن يتردد على برج العرب وكان يعتبر جون برينتون من أقرب أصدقائه الذى لم يمنعه من محاولة إغواء جوزى بعد نزهة ناحية الصحراء إذ تقول:" حاول التودد إلى. لقد كان جذابا جدا. سمح لى أن أقرأ آخر قصيدة كتبها [٣٢] قد تكون"رؤية شخصية": " ليلة أمس مشينا معا على رمال ناعمة، وعلى خطوط التلال الرقيقة."[٣٣]

ألفت إليزابيث مصر بالفعل قبل مغامرة البحر المتوسط التى قامت بها مع كاون؛ فى عام ١٩٣٦، استضافها أصدقاء أمها الانجليز فى القاهرة الذين قدموها إلى والتر وآمى سمارت والتى قابلت فيدن.

اختلط عقله النشط مع سحره الهادئ وخفة ظله التى تركت انطباعا عميقا عند إليزابيث؛ ومرت سنوات أسفرت عن ارتباطهما لفترة قصيرة ربما خلال إجازة قضياها معا فى فرنسا فى عام ١٩٣٨.

بالتأكيد اقتربا من بعضهما بعضًا فى هذه المرة. على الرغم من وجود فيدن فى القاهرة فى حين أن اليزابيث عملت بوظيفة فك شفرات فى المخابرات البحرية فى الإسكندرية. اشتركت فى شقة واسعة فى شارع الفراعنة فى الحى اليونانى مع مايك كامبرليدج صديقها الذى قابلته لأول مرة فى مالطا وعمل مع مدير العمليات الخاصة. كان كامبرليدج شابا رومانسيًا وفاتنًا وبقاؤه فى شقته بالإسكندرية يعنى علاقة ما. بعد سنتين من التشرد مع كوان أرادت إليزابيث "أن تشعر بالهدوء العاطفى "أن تشعر بأنها مرتبطة من جديد "لذا فضلت البقاء فى البيت من أجل كامبرليدج"وتعلل النفس بالأمانى.." [٣٤] أما دوريل الذى قابلها فى القاهرة فربما

يكون زائرها هذه المرة[٣٥] ربما يأتى فى النصف الأخير من عام ١٩٤١ الذى يصل فى سبتمبر وكما وصفته إليزابيث بأنه إشارة لحفلات متتالية ونزهات."[٣٦]

فيدن، فى ذلك الوقت، أحب رينيه كاتسفليس؛ وهى من أصل إسكندرانى وأبوها محام يونانى بارز إذ كان وفيا لزوجته الراحلة فهو دائما يترك مقعدها بجواره على مائدة الغداء خاليا. نشأت رينيه فى بيئة دينية كاثوليكية رغم أنها لم تتردد على الكنيسة بعد يوم اعترافها عندما أخبرها القس ألا تكرر خطيئتها التى اعترفت بها. فى مدينة تشيع فيها بذاءات الشائعات أى مدينة الإسكندرية، قالت فى همس إنها منذ وفاة أمها أحبت شقيقها التوءم بجنون. فيدن قدم رينيه إلى إليزابيث ثم وبخ إليزابيث لأنها لم تهتم بها خلال زيارته فى سبتمبر عندما اكتشف أن رينيه وكامبرليدج على علاقة غرامية. ولكن استمرت القصة، حيث وصفها أحد أصدقاء فيدن وهو جورج لا سال بأن " رينيه كانت على علاقة عاطفية جدا بإليزابيث" [٣٧] إذ كان جورج يعمل فى المخابرات البريطانية بالقاهرة فى ذلك الوقت وقابل إليزابيث عندما انتقلت هناك فى خريف ١٩٤٢ وقد سعدت معه بصداقة قوية لسنوات قادمة "علاقة عاطفية للغاية." [٣٧]

تبادلت إليزابيث وكوان الخطابات المفعمة بالحياة منذ رأى بعضهما بعضا آخر مرة فى صيف ١٩٤١ وارتدت الحلى الإفريقية التى أرسلها لها كهدايا إلا أنها رفضت قراءة رحلة أمل إيفلين التى أرسلها كوان فصلا بعد فصل فور كتابتها. عندما أعلن كوان وصوله ميناء الإسكندرية على متن سفينة ساموثريس، أرسلت له برقية على الفور تطلب منه أن يتركها وشأنها ثم أرسلت خطابا تقول فيه: "لا أريد أن أشعر بأى عاطفة بقية حياتى، كما أنى أخشى من أى حب أو ذكرى بقايا مآس من إيطاليا وأثينا والأسابيع الأولى فى القاهرة.. لا.. لن أعود لهذه الحياة التى

عشت فيها قبل الحرب. إننى أسعد حالا ألف مرة وأنا أقوم بعملى الذى أحبه وأعيش بين أصدقائى، مما لو كنت أتسكع هنا وهناك دون أن أعرف أين سأكون فى الأسبوع التالى. وتعلمت أن أقرر بنفسى وبعقلى دون أن أتأثر بعواطفى."[٣٨]

تقطعت أواصر المغامرة بين كوان وإليزابيث، فقد أدت علاقتهما المهمة وانقضى كل شيء بسرعة، وعلى مدار سنتين كانت تتمرس وتعيد تشكيل نفسها ولكنها حاليا وجدت نفسها مضطربة ومشوشة بسبب العواطف المرفوضة والتى أخذتها نحو أخبار عودة كوان.

بدأ دوريل سماع القصة فور وصول "ساموثريس" إلى شاطئ الإسكندرية واتجه إلى مكتب الاستعلامات البريطانى واعتاد زيارة شقة شارع فؤاد فى فيلا أمبرون فى ذلك الوقت حيث تذكرت إيف وهى تسأله عن رأى دوريل فى فصول رحلة أمل إيفلين التى كتبها. كان دوريل كريمًا ومشجعًا للكتاب والفنانين الآخرين ولكن فى هذه الحالة كان أقل حماسة ربما بسبب تطابق ما تمناه لنفسه مع البطل والمغامر. قالت إيف: "كان تشارلز قرصانًا متوهجًا مليئًا بالقصص الطويلة". كما قالت إنه دائما يأخذ موقع وسط المسرح بينما أراد الجانب الحسود فى دوريل اللعب مع كوان ليعذبه.

لقد أعجبت إيف بوسامة ومزاح كوان رغم منظره البذيء لكن سرعان ما رأت وراء مظهره رجلا لطيفا رقيق المشاعر."لم يكن تشارلز بالنسبة لى مشكلة محيرة. ببساطة اقترب منى باحترام. كان فى كل مرة يأتى لزيارتى يقوم بأشياء بسيطة وكأنها إشارة خاصة منه لي؛ كأن يحضر لى بعض الهدايا البسيطة لقد أثرت فى تماما." وربما هذا ما أثار غيرة دوريل.

ومع بقاء ساموثريس فى رعايته، بدأ كوان يلهو كثيرا، يدعو دوريل وإيف وجونشى إلى حفلات فى الميناء الغربى كما كان يدعو فتيات للخدمة وأصدقاء بريطانيين ومصريين كما كان يدعو جون وجوزى برينتون. ولكن تذكرت إيف مآدب العشاء الصغيرة على متن اليخت عندما لعب حوالى ستة ضيوف لعبة خنازير غينيا لما أطلقت عليه مطبخ كوان "بسيط أشبه باستمتاع رجل بالطهى حيث يضيف كل شيء للتذوق" على الرغم من طلب دوريل من كوان تعليم إليزابيث الطهى مثل "سيدة تقليدية تعلمت كل شيء من الرجل."(٣٩)

أخذ دوريل قصة أمل إيفلين من إليزابيث أيضا التى حضرت من القاهرة وقضت بضع ساعات تخبره بما يخفيه قلبها فى فيلا أمبرون. تذكرت إيف: "تعرفت عليها أول مرة فى الشرفة حيث كنا نتجمع هناك بسبب جمال المكان. وهناك وقفت بلا حراك لم أفكر فى شيء فقد كانت مثيرة جدا وتتحدث عن تشارلز جيبسون كوان وماذا تفعل تجاهه وأرادت مشورة لارى." كانت رومانسية كوان لا يمكن إخفاؤها، وجدت الطريق فى قلبها، عندما قام فى أواخر صيف ١٩٤٣ بمهمة سرية فى جزر إيجة نظمها القسم البحرى فى المكتب الأمريكى للخدمات الإستراتيجية وعاد إلى جزيرة سايروس تحت جنح الظلام وانتزع فرعا من الزعرور الجاف وأرسله لها عندما عاد إلى الإسكندرية فى الخريف. أحست إليزابيث بالغضب لما أثاره كوان فى نفسها من مشاعر وأجبرها على أن تقاومها، رغم انطباع إيف بأن كوان هجرها "فإن إليزابيث لم تعرف كيف."قامت إليزابيث بزياراتها لتؤكد أنها لم تقابل كوان قط، ولكن بدا أثناء هذه الزيارات المبكرة لفيلا أمبرون أنها لم تنسه قط. وقالت إيف: "كان رجلا فى حياة إليزابيث"(٤٠) بينما تذكرت هى وجونش أن كوان وصف إليزابيث فى عدة مناسبات: "امرأة حياتى ولهذا هجرتها."(٤١)

إليزابيث جوين (١٩٤٣) التى عرفت فيما بعد باسم إليزابيث ديفيد تحدثت مع دوريل بقوة. قوتها على إخفاء قوتها والكشف عن شخصية قوية وغامضة.

لاحظت إيف قوة فى شخصية إليزابيث "التى تجاوزت الحياة" إلا أنها ليست متكلفة على الإطلاق "اتجه تفكيرها نحو اتجاه واحد يستبعد أى شيء أو أى شخص فى أثناء حديثها مع لارى." ورغم الاحتفاظ بإيف على أنها مثل "قطعة أثاث" وعندما تكون مع دوريل كانت تحدثه عن إليزابيث صديقة رينيه كاتسفيليس التى عرفتها بأنها ليست اجتماعية إذ كنا نعيش فى عالمين مختلفين" ولكن بسبب عملهما فى مستشفى كوتسيكا، عملت رينيه فى الصليب الأحمر، وعاشت فترة فى المستشفى حيث أصبحت رينيه "السيدة الوحيدة التى لها أثر فى نفسى "عندما كانت

وحدها معه. سرعان ما عرف دوريل الذى تمتع ببهبة الاستماع الفضولى من إليزابيث نفسها بقدر هائل من القصة يتجاوز كوان وأمل إيفلين. منحت قوتها على اختيار الإخفاء والكشف - وهى لعبة استمتع بها- شخصيتها قوة وغموضًا. ولكن لم يعرف تحديدا من أبلغ دوريل بأن أحد أفراد أسرتها اغتصبها فى سن الرابعة عشر؛ هى أم كوان أم صديق مشترك. ادعى جورج لا سال صحة الأمر وعلق على شدة أذاه: إذ يعنى إعادة تمثيله الاغتصاب فى كل مرة يتودد إليها أحدهم."[٤٢]

كتب دوريل عن جوستين فى رباعيات الإسكندرية:لقد اغتصبها أحد أقاربها (وليس فى ذلك شك من قوة اعترافها التى صاحبتها غزارة دموع سالت منها كما لم أرها تبكى بهذا الشكل قبل ذلك أو بعده)، منذ هذا الوقت لم تجد الإشباع فى الحب حتى تستعيد تلك الأحداث."[٤٣]

بالنسبة لإيف "كان الأمر يشبه أليس فى بلاد العجائب. شعرت أنى اقتحمت كتابًا تتحول شخصياته إلى حقيقة، إلا أننى لم أعرف دورى."[٤٤]

ورغم قضاء كوان الليل فى فيلا أمبرون أحيانا، فقد بقيت إليزابيث مع أصحابها فى مكان آخر وغالبا مع جورج دى ميناشا فى منزل الأسرة على ناصية شارع ميناشا وشارع رصافة على بعد خمس دقائق. ميناشا تزوج من وريثة أمريكية تدعى إليانور كاسكل وأنجبا ولدا، بيير ليفى دى ميناشا فى عام ١٩٢٤ ولكن سرعان ما انهار زواجهما وعادت إليانور إلى أمريكا ومعها طفلها. وبقى جورج دى ميناشا طول حياته يجمع التحف الجميلة[٤٥] التى تنطبق على عادة جمع الناس. كما أسعده وجود إليزابيث فى البيت حيث عرفها على مجموعته المميزة من الخزف الرومانى القديم والزجاج الرومانى والسورى والمغولى المرصع وميناء جايبور والمجوهرات الفارسية والألماس الملون والساعات المرصعة والساعات

ذاتية الحركة وصناديق النشوق الذهبية من القرن الثامن عشر والزخارف التركية واليونانية والرسوم الجميلة والسجاجيد النادرة وفابريجيه. بالإضافة إلى شغفه بالموسيقى، كان شغوفا بأعمال الفن الصينية خاصة البورسلين؛ حيث جمع منها مجموعة قد تعتبر أرقى المجموعات وأشملها فى أيد خاصة فى أى مكان فى العالم.

ربما التقت إليزابيث بميناشا من خلال أسرة سمارت أثناء زيارتها لمصر فى عام ١٩٣٦، وازدادت قربا منه فى عام ١٩٤١ حينما عملت فى المخابرات البحرية بالإسكندرية. وفى يوليو ١٩٤٢، انتقل القسم الذى تعمل به إلى بور توفيق فى جنوب قناة السويس، ولكنها أصيبت بالتهاب فى قدمها فعادت فى إجازة إلى الإسكندرية حيث كان ميناشا إذ اعتبرته أفضل أصدقائها فى مصر فقد أصر على استضافتها. وعندما ازداد التهاب قدمها، اصطحبها إلى المستشفى لإجراء عملية ودفع الحساب بنفسه ثم أعادها لشارع رصافة حيث ظلت فى رعاية طبيبه الخاص لمدة عشرة أسابيع واعتبرها أحد أفراد عائلته.

وبعد شفاء إليزابيث، عادت للقاهرة ووصلت فى موعد زفاف فيدن ورينيه كاتسفليس فى أكتوبر ١٩٤٢. ترتيب الزفاف فى وقت أبعد من اعترافهما بالحب المتبادل منح رينيه الحرية من أى قيود فى جو عائلتها وسمح لها، كما كانت تريد دائما، أن تعيش حياتها بشروطها. لقد كانت رينيه تعمل فى السفارة البريطانية قسم الإعلام والتى كلفت إليزابيث بوظيفة فى وزارة الإعلام البريطانية التى تعتبر مركز تبادل معلومات من العملاء والخبراء والدبلوماسيين فى أى مكان من تونس إلى فارس حيث يجرى تمحيصها وفرزها وإرسالها حسب المطلوب إلى السفارة أو جهاز المخابرات أو الجيش أو الحكومة البريطانية، ثم تعصب وتهذب على نحو مناسب لتداول الصحف. كانت مهمة إليزابيث إنشاء مكتبة مراجع مكونة من كتب وسجلات يومية ومجلات وصحف ليستخدمها مراسلو الحرب والملحقون

الصحفيون؛ على الرغم من عدم سرية العمل، فإنها أصبحت من أكثر الناس اطلاعا واتصالا فى الدوائر السياسية والعسكرية فى القاهرة من خلال المنشورات التى قرأتها ونوع الناس الذين قابلتهم. استفاد فيدن ودوريل من مكتبتها كصحفيين مثل آلان مورهيد من ديلى إكسبريس الذى كتب فيما بعد كتبا شهيرة عن أنهار النيل الزرقاء والبيضاء والرحالة والكاتبة فريا ستارك التى أصبحت صديقة دوريل بعد أن قابلها عند أسرة سمارت. عملت فريا ستارك فى وزارة الإعلام وأنشأت إخوة الحرية لتوحيد العرب فى أنحاء الشرق الأوسط خلف قضية موحدة وفى خريف عام ١٩٤٣، بينما زارت إليزابيث الإسكندرية، بدأت فريا رحلة محاضرات إلى أمريكا وكندا استمرت ثمانية أشهر فى محاولة لمقاومة الدعاية الصهيونية المتزايدة هناك ضد السياسة البريطانية فى فلسطين وأثبتت إليزابيث أنها صديقة مثيرة الاهتمام لجورج دى ميناشا.

فى الحقيقة، حتى هذا الوقت كان جورج دى ميناشا يتكسب الأموال سرا من قائمة مختارة من مليونيرات يهود سكندريين نيابة عن موساد "العلية" التى تعتبر المنظمة السرية المسئولة عن الهجرة غير القانونية إلى فلسطين.[٤٦] يعتبر هذا تناقضا لطلب الجالية اليهودية فى الإسكندرية فى ديسمبر ١٩٤٢ بالتبرع لرعاية صندوق روبرت رولو رئيس الجالية غير الصهيونى لتأييد جهود الحرب البريطانية لإنقاذ العالم من طغيان هتلر. صاحب الهجرة غير الشرعية تجمع المخابرات حول الإنجليز والمصريين بالإضافة إلى السرقة من مخازن الأسلحة والذخائر البريطانية المصادرة من قوات الألمان المنسحبة والمهربة عبر سيناء لاستخدامها ضد الإنجليز والعرب فى فلسطين. ولكن يبدو أن تقارير المخابرات البريطانية لم تشكك والتر سمارت فى أنشطة ميناشا. ولم يكن ميناشا ضمن "قائمة شخصيات مصر" التى اقتصرت على المصريين والمقيمين غير البريطانيين: كان

جورج دى ميناشا بريطانيا مولودًا فى ليفربول وحائزًا على وسام الإمبراطورية البريطانية بسبب خدماته الكريمة للقوات.

قبل انتقال دوريل لمحرم بك بشهر، توفى فلكس دى ميناشا فى الثامنة والسبعين من عمره بعد معاناة استمرت سنوات من الشلل الذى قيده فى فيلته فى شارع رصافة. كان نعيه فى صحيفة أخبار اليهود فى لندن فى ٣ سبتمبر ١٩٤٣ "حرصًا على الاهتمام بالصهيونية" و"أحد أصدقاء فايتسمان المقربين." "حضر الجنازة محافظ الإسكندرية الذى أرسله الملك لتقديم أحر التعازى الملكية للعائلة وممثل رئيس الوزراء ومدير عام البلدية ورئيس الشرطة والقنصلية وكبير حاخامات الإسكندرية. توفى بارون دى ميناشا عن أرملة وبنتين وولدين يدعى أحدهما بارون جورج دى ميناشا محسن شهير واختصاصى متحمس لرفاهية مؤسسات القوات البريطانية والمتحدة، والآخر الأب جين دى ميناشا بالترتيب الدومينكى ومؤلف كتاب عن الحاسدية باسم "عندما تحب إسرائيل الله."

تعرف دوريل على منزل ميناشا الذى أقامت فيه إليزابيث حيث ارتاده أحيانا مع جوين ويليامز فى حفلات بعد الظهر الموسيقية المعروفة. قال جاك مواس حفيد فيلكس وابن أخ جورج دى ميناشا: " أذكر أنه فى أثناء الحرب وفى مساء كل يوم أحد تقام حفلات موسيقية للترفيه عن القوات يحضرها نحو مائة أو مائتى شخص لتناول الطعام والترفيه علاوة على حفلات أيام الثلاثاء كان جورج دى ميناشا يعزف على البيانو بنفسه(٤٧) بمشاركة جينا باوشر التى اشتهرت دوليا فيما بعد بتقديم شاى ومخبوزات من بادروت وأحيانا من باسترودیس.

كتب دوريل عن نسيم فى رباعياته: "بدأ نسيم فى هذه الفترة التسلية مع تبذير غير معروف فى المدينة حتى الآن حتى وسط أغنى العائلات. لم يفرغ المنزل الكبير أبدا. لم يشعر بتعاقب الدوافع الخفية فى هذا التبذير الجديد سوى السلك الدبلوماسى."(٤٨)

ترى المؤامرة الفلسطينية التى أضافت بعد الإثارة السياسية فى رباعيات الإسكندرية نسيم حوسنانى المصرفى القبطى، متآمر يُهرّب أسلحة لفلسطين لإثارة الثورة اليهودية ضد البريطانيين. اعتقد نسيم أن معاناة الأقباط فى مصر مستقلة إلا إذا ساعدوا على إنشاء حليف صامد على هيئة دولة يهودية فى فلسطين توازن الهيمنة المسلمة. ولكن دائما ما كان الأقباط مصريين متوطدى العزم ومناهضين للصهيونية ولم يعيروا أنفسهم لمثل هذه مؤامرة مطلقا. كتب دوريل نفسه مذكرة لتقديم ماونت أوليف، الجزء الثالث من رباعيات الإسكندرية وهو الجزء الذى اكتشف فيه سفير ديفيد ماونتليف أن صديقه نسيم حوسنانى متورط فى مؤامرة صهيونية مناهضة للإنجليز: "تعتبر كل الشخصيات والمواقف فى هذا الكتاب من نسج الخيال فقد استخدمت حق كاتب الرواية فى الحصول على القليل من الحريات الضرورية فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث."(٤٩) ولكن على الرغم من حصول دوريل على بعض الحريات، فإنها ضرورية إذا أراد إخفاء حقيقة عدم خيالية الشخصيات والمواقف التى يصفها.

قدمت رباعيات الإسكندرية فورستر جوين ويليامز لشعراء مدينة البطالمة، ومن ثم قرأ أنشودة ثيوقريطس، وهى قصائد كالليماخوس التى ترجمها روبين فورنيس وقصائد مقتطفات أدبية يونانية التى منحته فكرة مسابقة هجاء أو معركة شعر بين شعراء الإسكندرية والقاهرة. كانوا جميعًا أصدقاءه وأعجبتهم الفكرة: روبين فيدن وبرنارد سبنسر وترينس تيللر وبريان دافيس فى جامعة فؤاد بالقاهرة وفى الإسكندرية ويليامز نفسه وروبرت ليدل فى جامعة فاروق وهارولد إدواردز ودوريل الذى أعلن: "لم تحدث مثل هذه الضربة العنيفة منذ حرب طروادة."(٥٠)

طلب جوين ويليامز من روبين فورنيس بالقاهرة تمثيل دور محكم: ("عزيزى روبين قاوم إلحاحك الداخلى فى تزعم قبيلتك فى مكر الشعراء واستخدم

حكمتك وذكاءك لتحقيق التوازن")[٥١] وفى نوفمبر، أطلقت شعلة الافتتاح مصادر وحى شعراء القاهرة ورد برنارد سبنسر الذى حول الدفة على دوريل بعد إهانة ويليامز وإدواردز وليدل:

لن يفشل من يروع عروس الشعر

حينما يتباهى الشعر عند دوريل (لاري)[٥٢]

عاد دوريل للقاهرة حيث "تتدفق أقلامك الفاسقة موحلة مثل نيل غير لائق "شعراؤها "الذين يعتبرون مجرد مصادر إلهام." دافع عن نفسه أمام سبنسر: "كاتب مأجور مغرور أو "سالخ جلد الحوت" الذى "يترك الغضاريف وحدها عندما يصل إلى الجلد والعظم"؛ بينما "أنت يا فيدن الذكى منزوع اللجام يا من تقلب رياح الخماسين الكئيبة بشعرك وفى تدفق كامل منزلق باندفاع يشبه شعر ساسون من الشعر إلى النثر أو شيئا أسوأ."[٥٣]

لم يتدخل فورنيس سوى مرة واحدة وكانت ملاحظة غيبية بعيدة النظر على انفراد تيلر بعد أن كتب جوين ويليامز سطورًا تتأمل "حياة السيد ترنس روجرز تيللر الجنسية" – "إذا ابتهل ترنس لتيللر، هل نفترض أن تيللر مجرد ملحق؟"[٥٤] – أصر فورنيس على عكس الازدواجية الضمنية "إذا ابتهل ترنس لتيللر، ابتهل تيللر لترنس أيضا."[٥٥]

على الرغم من نشأة ليدل فى القاهرة وتسميته "تورتة"[٥٦] (حسب وصف دوريل)، فإنه وضع مصدر وحى الإسكندرية فى لمعان المدينة:

من كليوباترا، على مقربةٍ من كامب شيزار

هذه إجابتى على مدرسة الجيزة.

مع ذلك لم يفكر أحد

فى أن يكتب الشعر فى القاهرة

سوى بعض المبتدئين الضعفاء.

ما دافعك إن لم يكن محاكاتنا،

يا رفاق كاليماخوس العظيم فى المواطنة؟

حسنًا تفعل لو لم تسخر، ولكن تملقنا،

ورثة أبوللونيس يدعى روديوس.

....

ولن يجيبك الشعراء بتجهمٍ أبدا

إذا توسلت فى جليم بولوس أو بولكلى.

(محطات ترامنا – هل هناك أسماء أجمل من

ثان سوتير وسيدى بشر والأزاريطة؟) (٥٧)

وجد فورستر هذا الشعر فى المدينة وقد أدخله دوريل فى رباعيات الإسكندرية: "نفس أسماء محطات الترام ترجع صدى شعر تلك الرحلات: الشاطبى وكامب شيزار ولوران وأزاريطة وجليم بولوس وسيدى بشر." (٥٨)

لهذا السبب كانت إيف مكرسة لدوريل وأخذت حديثه عن الزواج على محمل الجد؛ شعرت بعدم انتهاء العلاقة بينه وبين نانسى. فى سنوات شبابه التى قضاها مع إيف، وصف نانسى "بأنها مزعجة" وهى نفس الكلمة التى استخدمها لإخفاء

شعوره عندما أراد الكتابة لإليوت فى أوائل هذه السنة ولكنه تحدث عنها غاضبا وكان انطباع إيف أن نانسى ستعود لمصر وتستعيده وأنه سيعود إليها كالطلقة.

سافر دوريل إلى بيروت فى منتصف نوفمبر ١٩٤٣ بعد أن أخبر إيف أنه سيرى نانسى التى تقيم هناك لفترة. ولكن يبدو أنها رفضت مقابلته وجها لوجه وتذكرت إيف كم كان غاضبا عندما عاد إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام: لم تجبه نانسى إجابة واضحة عن نيتها وكان قلقا من عدم رؤيته ابنته مرة ثانية.

يعنى إنهاء الأمور مع نانسى أن الوقت قد حان للتقييم؛ أنهى دوريل فى أثناء إقامته فى بيروت قصيدة سيرة ذاتية طويلة بدأ كتابتها فى الإسكندرية بعنوان "مدن وأراض منبسطة وناس" يفتتحها على طفولته قائلا:

بدايتى فى التسكع

الليل كان لصبى فان

بريء ظاهره مثل قلب نظيف

على حوافه مشى ذات مرة

فى سكون، سكون تام

لم يعرف سوى القليل سواء أفضل أو أسوأ:

كان الجنس صغيرا

والموت صغيرا

سمات تحفظ الجوهر الخالد

ولكنها تدور بسرعة واضحة

وللأبد فى العام السابع

الكل يلتفت ويبدأ فى الهبوط

إلى نهر الأحزان الطويل من نموهم:

خوف موصول بلا سبب

رعب يملأ الروح

قدمتكم هنا بلا نهاية

فى بداية سكون بريء

حتى يصبح عذابكم شعرا

كانت كورفو عودة للعالم السحرى:

الوقت الجميل والغامض بالوعود

وحركات المباركة فى درجاتها الرشيقة

التى يتحملها بسعادة تجاه زوجته المثالية الحزينة

الجزيرة الصخرية وأشجار السرو.

ولكنه تذكر الشبه بينه وبينه نانسى:

فالعشاق مثل سباحين يتيهون فى البحار

منهكين بين ذراعيهم

يتمنون اليابسة ولكن يمشون على الماء.(٥٩)

فى ديسمبر، سمع دوريل من ميللر ولأول مرة فى سنة واحدة: "كيف حالك؟ أفكر فيكم جميعا. هل تعتقد أن الحرب ستنتهى قريبا؟ هل سنرى كورفو ثانية؟"(٦٠)

وفى هذه المرة أجاب دوريل وأخيرا: "أنا حاليا فى الإسكندرية بينما نانسى تعيش فى القدس ومعها ابنتنا. لقد انفصلنا فى وقت الحرب. بعد إخلاء اليونان وكريت والعلمين، فهمنا معنى كلمة "لاجئ". هل ستراسلنى ثانية وتتجاهل دعاباتى السخيفة ؟"(٦١)

فى النهاية أقر أنه خسر نانسى ولم يعد يذكر إيف.

فى هذا الوقت، توقفت عن العمل فى مستشفى كوتسيكا (على الرغم من ظن والديها أنها ما زالت تعمل هناك) وسكنت فى فيلا أمبرون حيث شعرت بالكسل وبدأت فى اكتساب وزن إضافى. حدث هذا فى معظم السنوات حيث يقترب الشتاء وينقلب مزاجها من سعادة إلى اكتئاب. فى فصل الصيف، كان وزنها ١١٠ أرطال وبلغ الآن ١٣٢ رطلاً لذا كان الحديث عن الحامل فى الفيلا يعنى إيف وليس بيلى.

فى أوائل يوليو ١٩٤٣، اقترح دوريل كتابًا قصيرًا عن حرب استقلال اليونان لوزارة الإعلام فى حكومة اليونان فى المنفى بالقاهرة. وصف دوريل الكتاب الذى تمنى أن تنشره دار نشر **Faber and Faber** فى إنجلترا أيضا للكاتب تى إس إليوت بأنه "تاريخ دقيق وموجز" عن الثورة ضد الأتراك فى عشرينيات القرن الثامن عشر ولكنه كتاب يشمله "مثل صوان" فى "صورة خيالية لشخصية

خيالية ومنظر طبيعى." (٦٢) ولكن فى فبراير ١٩٤٤، اشتكى دوريل لإليوت أن كتابه "مازال ينتظر تعاوناً من حلفائنا الأنيقين والمسببين للخبل وكل الأجناس السياسية الجاحدة الثرثارة غير المتعاونة." (٦٣)

اعتزم دوريل أن يناقش هذا الكتاب القضية بمشابهة قضية مقاومة الميليشات فى اليونان التى احتلها الألمان. شكلت عدة مجموعات المقاومة اليونانية وإن كان أكبرها وأكثرها تأثيرا جيش التحرير الشعبى الوطنى. شحنت الرمزية الفدائية اختصار ELAS إلا أنها أعادت إنتاج الكلمة اليونانية التى ساعدت فى كسب الدعم المنتشر فى اليونان نفسها ومن مناهضى الفاشية والمعجبين بالإغريق بالخارج. كانELAS الجيش العسكرى لجبهة التحرير الوطنية التى كان العديد من أعضائها من أتباع فينزلوس ومن ضمنهم كاتسمبلاس الذى ظل فى اليونان كما ضمت العديد من المتعاطفين اليونانيين المصريين واليونانيين الذين هربوا إلى مصر ومن ضمنهم ستيفانيدس.

تجنبت حكومة اليونان الملكية فى المنفى اقتراح دوريل بسبب السياسة البريطانية تجاه جبهة التحرير الوطنية/ جيش التحرير الشعبة الوطنى التى تتصف بالواقعية الخسيسة والغبية حتى ارتعدت فرائصه من الخوف. فى الحقيقة تعثر على أرض خطيرة سياسيا؛ لأن البريطانيين فهموا حقيقة ادعاء جبهة التحرير الوطنية/ جيش التحرير الشعبة الوطنى يعنى تمثيل مستقبل الديمقراطية الليبرالية فى الوقت الذى قدم فيه دوريل اقتراحه، وعلى الرغم من انحياز أغلبية أعضائه لليسار الديمقراطى، فإن الحركة كانت تحت سيطرة الحزب الشيوعى اليونانى سرا الحزب الذى تعتبر مقاومته ضد الألمان ثانوية بالنسبة لهدف تقديم مصالح الاتحاد السوفيتى الرئيسى وتأسيس "ديمقراطية الشعب" فى اليونان بالقوة. لم يعرف دوريل ما هى

ولم يهتم بها إلا أنه أدرك أن الصمت أفضل فى حالة "عدم جمع ملف الحماقات"(٦٤) على الرغم من شعوره بتكرار خيانة قضية اليونان التى أحبها.

فور انتهاء فورستر من الأمر، رأى دوريل الحرب، فاجأته حياته بمعنى الصراع الداخلى، فكتب لميللر من كالاماتا فى نوفمبر ١٩٤٠ بعد الغزو الإيطالى لليونان: "لا أرى نهاية الأمور التى ستستمر سنوات لأننا لا نقترب من الحل الفردى ولا ينعكس الصراع الخارجى سوى عليه."(٦٥)

كان دوريل مستعدا للكفاح مثلما تخيل ميللر نفسه فى كورفو فى أواخر صيف ١٩٣٩. بالنسبة لدوريل، كان المحيط مشحونا بذكريات بايرون ولم يُرد أن ينضم للقوات البريطانية بل للجيش اليونانى للخدمة ضد الإيطاليين على الجبهة الألبانية "لأن تفكيره تجاوز مواطنيه نحو اليونانيين." (٦٦) وفى النهاية، اقتنع بعدم الذهاب ولكن بعد شجار عنيف مع نانسى وحديث عاقل من القنصل البريطانى. فى فبراير ١٩٤١، عندما حلقت الطائرات الإيطالية فى السماء أعلى كالاماتا، سافر دوريل إلى أثينا وطلب من القنصلية البريطانية إعفاءه من واجبات التدريس للالتحاق بالقوات الجوية للمملكة المتحدة هذه المرة، إلا أنهم أخبروه أن التعليمات تقتضى احتفاظ الناس بمناصبهم لدعم الروح المعنوية المحلية ضد التهديد المتزايد من الغزو الألمانى.

وبعد مرور شهر، بينما يجلس دوريل فوق حفرة ويفكر فى كتابه عن الموتى، كتب لميللر فى أمريكا: أنا سعيد لانضمام إنجلترا واليونان فى هذه الحرب؛ ورغم عيوبهما التى ارتكبوها، فإنهما يدافعان عن شيء عظيم. لا تعلم شيئًا عن الجهود المثيرة والموقظة للمشاعر والحب الذى استهلكه البسطاء الذين علقوا فى مصيدة الحرب الكبيرة؛ فى إنجلترا يضع الأطفال باقات الزهور البرية

على مقابر الطيارين الألمان الذين حطموا بلداتهم. فى اليونان انتحبت البائعات اللاتى التحقن ممرضات على الإيطاليين المساكين الذين تعرضوا لبتر سيقانهم بسبب قضمة الصقيع، ويجرى الشحاذون بمحاذاة طوابير المساجين يعطونهم لقيمات من الخبز أو برتقالة. وترى على الجانب الآخر حقارة الإيطاليين الزاحفة الذين قذفوا لاريسا أثناء الزلزال وقذفوا القرى من ارتفاع ٣٠ ألف قدم خوفا من قصف مدافع ماكينة الدفاع الوحيد فى بايولس وفروا هاربين أمام المشاة اليونانيين الذين تغذوا تغذية سيئة. من المؤكد أن هذه الفئران لم تكن أسياد أوروبا ولن تكون: عندما تنبأنا فى بداية الحرب أن فرنسا أكبر الفئران، نراها تعلن أن ألمانيا: لم تتمن سوى عذر. لا يتعلق هذا بنا فى المطلق: حيث قال تى إى لورانس ذات مرة: "مررنا بأوقات حين استخف الناس بالحق الحى واقتصر التبشير على السيف." (٦٧)

عوضا عما سبق، عمل دوريل فى الإسكندرية فى خدمة الدعاية البريطانية بينما تصيبه حالة إحباط حتى فى حالة الكتابة عن قضية اليونان. كتب لإليوت: "أكتب كتابا صغيرا عن كورفو لتعزيتى." (٦٨)

يعد "زنزانة بروسبرو" أول كتب رحلات دوريل وأكثرها سحرا ينضح بشروق الشمس والنبيذ، وقد استمرت قراءته ككتاب رحلات رعوى بسبب طبعه وطرق تفكيره واستطراده فى التاريخ. فى فبراير ١٩٤٤، كتب عشرين ألف كلمة أو ذلك ما أخبر اليوت به مما يعنى أنه كتب نصف الكتاب.

فى خريف ١٩٤٣، كتب دوريل لسيفريس الذى عاد من جنوب أفريقيا وكان مسئولاً صحفيًا فى دار المفوضية اليونانية بالقاهرة: "بدأت أعمل ليلا وبدأت قراءة رواية عن الإسكندرية، لدىّ شعور غريب. فقد نسيت معظم القواعد وهو عيب لافت للنظر فى كتابة النثر. أتقدم ببطء مثل رجل أعمى يتحسس طريقه على أرض

خاوية منذرة بالسوء." (٦٩) سرعان ما طرح الرواية السكندرية جانبا واتجه لقــراءة زنزانة بروسبيرو؛ يجب العودة للماضى، للسحر الذى تقاسمه مع نانسى فى كورفو قبل المضى قدما.

بينما عاش دوريل فى كورفو، تخيل أن شكسبير كتب مــسرحية العاصــفة هناك وأطلق على منزله الأبيض فى كالاماى "زنزانة بروسبيرو."رأى فــى وداع بروسبيرو لقواه السحرية انعكاس تقاعد الشاعر فى ستراتفورد عندما بلــغ عامــه السادس والأربعين لأن ذى تيمبست كانت آخر مسرحياته لذا قيد شكــسبير "قــواه الورعة لمد حياته الإنسانية والمتقلبة وجزرها." (٧٠) وصف دوريل هذا الموضــوع كحرب تلوح على كورفو. ولكن على عكس بروسبيرو وشكسبير، لم يغادر دوريل زنزانته قط بينما يحدق من نومه السكندرى فى برجه فى فيلا أمبرون: بدأ دوريــل كتابته باقتباس من مسرحية ذى تيمبست. بدأ دوريل الكتابة: "لا ألسن بــل عيــون؛ اصمت"كانت تلك الكلمات التى قالها بروسبيرو حين توسل للأرواح.(٧١)

تم تقديم زنزانة بروسبيرو فى شكل يوميات من أبريل ١٩٣٧ حتى ســبتمبر ١٩٣٨ ولكن غلفها صمت سحرى. اتسمت سعادة شباب دوريل فى كورفو بالخلود "خلود تعتبر فيه الفادحة الطابق القاسم الذى ينهار كل صباح عندما أعود للصخور الدافئة حيث لا يبتعد وجهى عن اللهجة الأيونية اليونانية سوى قدم."(٧٢) كما يقضى الخلود على الشعور بالسبب والنتيجة، يقضى أيضا على "أى خط فاصل بين عــالم اليقظة وعالم الأحلام. يسبب الشعور بعــدة حيــوات مؤقتــة الــشعور بــالحيرة داخلنا."(٧٣)

يشعر دوريل بأنه مسكون حين يستمع لصياد سمك جالس فى حانة ممتلئــة بالدخان منتظرا تغير الرياح حيث قد يسمع أصوات أوديــسى وطاقمــه بتــبجحهم

وخبثهم وثرثرتهم على الرغم من انفصالهم الميقاتي عن أوديسي بآلاف السنين. ظل اليونانيون مقتربين من الأرض والبحر اللذين عاشوا بهما، وشكلت منظر الأساطير الخالدة الطبيعي شخصيتهم. لم يخضعوا للانقسام الحديث بين الرأس والقلب؛ كانوا بعيدين عن تدفق الحياة وشعر دوريل أنه مكتمل أيضا بصحبة ما أسماه "اليونانيون الخالدون".(٧٤)

في زنزانة بروسبيرو، كانت وجهة نظر دوريل التاريخية أوليمبية: "تتغير الأرض قليلا ولا يتغير تركيب نفس الإنسان الأساسي إطلاقا في أبهة الأحداث الرسمية التي كرمناها بمصالحنا."(٧٥) في وجود شعور الأحداث التي تهدد زنزانته في الجزيرة: بينما يقترب وقت الخمر، يفسر دوريل حلم اليقظة في مذكراته اليومية بمدخل "ستندلع الحرب قريبا." (٧٦)

تنتهي زنزانة بروسبيرو "بخاتمة في الإسكندرية" حيث يصف دوريل "خسارة اليونان بترا بينما لا يستطيع إبكتتيوس عزاءنا." (٧٧) تكلم الفيلسوف إبكتتيوس عن تقديم الضرورة وتحملها عكس كل القوانين والقواعد التي تحكم الكون والتي لا يحكم هدفها النفوذ البشري. هل يستطيع المرء التخلي عن حرية التصرف والإرادة والقدرة على إعادة ترتيب ما تم تحطيمه؟ يجيب دوريل قائلا: "لا يتعرض التاريخ بتغيراته المؤلمة وغير المتوقعة للشفقة والذكرى؛ حيث إن هذه وظيفتنا." (٧٨)

أطلق دوريل على تجربته في اليونان "كون التبشير" أي رؤيته الغامضة. كتب دوريل لميللر في صيف ١٩٣٧ من كورفو: يعتبر بُعدا مكانيا تماما حيث يقع الوقت في أحواض ومكان سحري حيث يبدع الفنانون في محيط الحرية المازحة: "يعتبر كون التبشير شيئا دوريا داخليا: مثل فترة شرب"(٧٩)

فسر مرة ثانية فى أولى طبعاته رؤية شخصية : "لم يكن "حالة مزاجية" وإنما خطة تفرض نفسها مستمرة تحاول نفس المرء الروحانية الوصول لها من خلال الوسائل المتنوعة. لا يعد "الفن" سوى مرآة ضبابية نرى من خلالها الشمس الخطيرة." لأن المنطق يصف "قانونه بالفادحة" ولكن الشعر أو المنطق المتفوق "يغزو مملكة حيث يحكم اللاعقل سواء كان طارئا أو هادفًا أو دستوريًا. هذا ما أطلق عليه كون التبشير بسبب استخدام الهدف بمعناه العاطفى والمؤثر فى عالم شعارات النبالة."(٨٠)

اعتقد دوريل أن المذهب العقلى النقى مرض الجنس البشرى الحديث وأن المنطق بكل ازدواجياته القاسية أو صراعات النقيض أو كليهما هى عمل الأنا بكل معتقداتها التى دمرت قوة الإرادة. أشار دوريل إلى نفس النقطة عندما قدم جوستين فى وقت لاحق باقتباس من جوستين ماركيز دى ساد: "يتوفر لنا موقعان سواء الجريمة التى تسعدنا أو الأحبولة التى تحرمنا من التعاسة. أتساءل ما إذا ترددت الأم تريزا الجميلة وأين يستطيع عقلك الصغير العثور على خلاف قادر على مصارعة هذا الخلاف؟"(٨١) اعتبر دوريل ساد أحد أطفال التنوير وآخر زهور عصر العقل الذى دمر أوروبا الحالية.

كتب دوريل فى زنزانة بروسبيرو: "هل كان سعيدا أم تعيسا، حسن الخلق أم سيئ الخلق؟ فقد كان خارج مصيدة المتناقضات. يجب تحرير الفكر، دعنا نروج للشكلية التى لا تحتوى إلا على فكرة واحدة وهى القضاء على التنافر والتعارض. دعنا نزوج أفكارنا ولا ندع ناسا أقل أهمية تروجها من أجلنا." (٨٢)

اعتبر دوريل المعركة روحانية؛ بينما يتجه المجتمع نحو العقلانية، يخسر رؤية الكمال والشمولية والقبول والحب. ولكن دوريل رأى فى مملكة الفنانين كمالا

لا نهائيا واعتقد أن واجب الفن علاج ما قطعه العقل إربا أو "التوسل للإلـــه" كمـــا كتب في الكتاب الأسود. (٨٣)

حكت مولي توبي قصة جدها (اليهودي) للكونت باتريس دي زغب صـــديق دوريل بينما تمشي في شارع فؤاد:

قال زغب: "من المؤسف أنك لست مسيحية، فلدينا العديد من المعجزات."

وردت عليه قائلة: "ليس لدينا سوى القليل من المعجـــزات إلا أنهـــا جميعـــا حقيقية." (٨٤)

في بداية عام ١٩٤٤، تخيل دوريل أن نانسي أرسلت له خطابا تقول فيـــه: "عزيزي غير المسئول وأعز الكسالى. اشتريت لنا مركبًا شراعيًا صـــغيرًا طولـــه عشرون قدمًا ويتميز بوجود برمودا وغلاف مركب شراعي صغير سريع؛ نستطيع الآن أن نجربه في خليج فون: كما يمكننا إثبات أنك الشخصية العميقـــة الـــصارمة التي تظاهرت بها."(٨٥) كما تضمن الخطاب في زنزانة بروسبيرو في مـــدخل ٢٥ يونيو ١٩٣٧ في يومياته ولكنه كتب "يبدو العالم بأسره مفتوحا أمامنا" بـــدل خـــط إثبات نفسه.

كتب خطاب تهنئة بالعام الجديد لإيف على نفـــس الـــورق الأزرق وبـــنفس الحبر الأحمر؛ ورغم أنه كتبه بصيغة أدبية وعلى هيئة كتيـــب وكتابـــة "خطـــاب صغير لإيف – الإسكندرية ١٩٤٤" في المقدمة، فإن الخطاب كان في حقيقة الأمر اعترافًا خاصًا عالج فيه ثقته كمحب وكاتب.(٨٦) بدأ الخطـــاب: "عزيزتـــي إيـــف الكسولة والمتوحشة وصاحبة العيون السوداء، من اللطيف قضاء بعض الدقائق في كتابة بعض التفاهات لك." وبقية الخطاب كالتالي:

لماذا أنت مشاكسة ؟ أتعلمين. لماذا أنا نفسي غير قانع كعاشق؟ لا أعرف.

أولا: لأنك خبيرة فى الأنانية وثانيا لأننى أكثر أنانية منك.

ثانيا: لأننى فى الحب يجب أن أتحلى بالثقة بالنفس[٨٧] ولا أثق بها وحتى لا تتظاهرين بها.

ثالثا: لأنك كتومة للغاية وأنا أتوق للتعبير عن نفسى.

أعنى أن الصعوبات التى أواجهها ككاتب تنعكس على الصعوبات التى أواجهها كمحب، مثل التعبير والإخلاص والأسلوب وغيرها.

بالطبع يعتبر الشعور بالخيانة أشد الأشياء التى تعوقني؛ نخون جميعا الابتسامات أو نيتنا التى لا نستطيع إيقافها. لذا يحرسنى تشاؤمى من ابتساماتك للآخرين وتوددك الغجرى اللعين مع الجميع. ثم اللغة! لا تعتبر لغتك الإنجليزية ممتازة ويجب أن تشعرى كما أشعر إذا أردت التودد باللغة اليونانية فى كل الأوقات: فمن الصعب فهم الفوارق الدقيقة.

بالإضافة إلى كل ما سبق، ما زلت وفيا لوجهك الغجرى المتميز بلون الجوز الكستنائى الداكن وعينيك الخاطفة للأبصار وجاذبيتك المثيرة.

على الأقل نستطيع أن نتقابل ويفهم كل منا الآخر وأحيانا أتساءل فى السرير: ألا تعتبر الأشياء الأخرى مفتعلة أوَلا يهم أى شيء آخر فعلاً إلا أن الرقة تعتبر شيئا هاما.

ماذا تظنين؟

وحمل الخطاب توقيع: "المخلص" وتبع ذلك رسم رأسه بشكل جانبى وأنف كبير على هيئة قضيب منتصب." [٨٨]

لقد فترت مشاعر إيف نحو روجيرو، وبالنسبة لدوريل "أعترف أنني كنت صعبة المراس معه جنسيا ولكن كان يجب أن يعرف أنني كنت أكثر صعوبة مع من كان قبله." أخبرته شيئا عن روجيرو ومحبيها السابقين إلا أنه "اعتبرني عاهرة " أضاجع هذا وذاك."اعتبر نفسه حلقة في سلسلة وأنني سأهجره" .

لم يقتصر الأمر على هذا. لعل انسحابها الصامت الذي أزعجه أكثر من أي شيء آخر وراء ما أسماه توددها الغجري مع كل شخص تقابله. طبع دوريل ملاحظة إيف في مفكرة لكتاب الموتى الخاص به "فضولية بشأن نفسي ولم أجد أي استجابة في الآخرين أو العالم من حولي" روح تائهة متجهة للداخل. وطبع عقبها على الفور شيئا قالته: "تعتبر قدرتي على الهجر بسهولة إحدى ميزاتي حيث إن الروابط التي أكونها تكمن داخلي واصطحبها معي. إنها براءة روحي وصفائي."(٨٩)

استمع دوريل لقصة إيف من ليلة حديثهما الطويل في باستروادیس وسيرهما طوال الكورنيش ثم قيامه باحتضانها عندما هربت من منزل والديها وأصيبت بانهيار. أعجبه ضعفها مثل جمالها الحسي. كتب في جوستين : "وجدت ميليسا مثل طائر مبتل يترنح على ساحل بحر الإسكندرية الموحش بينما ذبلت جاذبيتها."(٩٠) عرف أن قصة إيف تعود إلى طفولتها في محرم بك ورأى أن في أنوثتها بقايا يأس طفولة معذبة تتحدث دوما عن شخص تحبه، تبحث عن فكرة تغذي روحها أو إيمانها بنفسها، وتساءل إن كان يستطيع أن يقاسمها مع أي امرأة أخرى أو يستطيع أي شخص أن يشبع حنينها.

ولكنه تساءل أكثر عن نفسه، انسحب إلى عقلية الكاتب، إنه يستطيع مقاسمتها مع أي امرأة. بينما يستعيد حياته في كورفو ويتجه نحو فن، وبدأ يسطر على صفحة زرقاء قصيدة خيالية لنفسه من نانسي:

عزيزتى الكسولة

لقد اقترب الشتاء

أكتب لك خطاب العام الجديد

من محكمة النقض العظيمة.

ينتقد القلب الخالى الذي

يتعس صمته الأعوام السابقة.

لم تخبريني بحبك

وتتصرفين مثل ويليام بليك.

بدأت أعتقد أن زواجنا

لم يكن سوى خطأ دقيق.(٩١)

كتب دوريل لميللر فى بداية فبراير: "قضيت إجازة قصيرة مؤخرا فى بيروت حيث شعرت بالسعادة والخواء إلى حد كبير." فى العام الخامس من "الحرب المقززة للنفس أصبحت مشاعرنا مشاعر المنتهى العصبي؛ يتدهور كل شيء ويسوء داخلنا وأنا أيضا." قذف بقوة داخل هلال بسبب مروره على مذكرة بايرون الباهتة: "ولكن النساء باهرة الجمال مثل الحدائق المهملة، بشرة غنية وناعمة وزيتونية وأعين سوداء مائلة وشفاه محددة وناعمة وبنية مبهجة مثل رسومات خطية بيد ماتيس. فأنا مشغول بهم إذا قصدت أن أكون حرفيا قليلا" (قصد دوريل

كتابة "حرفيا" باللون الأحمر). "لا يسع المرء حب أكثر من فتاة سكندرية، ففراغها ملاطفة. تصور التودد للفراغ." وأضاف فى حاشية الرسالة: "أفكر فى صحة التشابه بين أهل الإسكندرية. عندما يحبون يتصرفون كائنين يلوحان لبعضهما البعض بالأمواس فى غرفة مظلمة ليشعر أحدهما بالآخر؟"(٩٢).

لم يتورط دوريل سوى مع فتاة سكندرية واحدة ولن يذكرها.

بالقرب من نهاية فبراير ١٩٤٤، هبت رياح شمالية قوية على الإسكندرية. كانت "الرياح الشمالية" لقبًا توج به دوريل وأصدقاؤه قادمًا جديدًا وهى ديانا جاولد التى تزوجت فيما بعد إيهودى منهون. كانت راقصة دربها نيجنسكى وأنا بافلوفا واشتركت كراقصة منفردة مع شركة جورج بالانشاين فى باريس وشركة ماركوفا دولين فى لندن واتجهت للتمثيل على مسرح ويست إند عندما اندلعت الحرب. نشأت فى تشيلسا حيث اعتاد الكتاب والشعراء والرسامون والموسيقيون زيارة منزل أمها؛ انتصر زوج أمها أدميرال سيسيل هاركورت عدة مرات على الإيطاليين فى البحر المتوسط وكانت ديانا ذكية ومتلألئة ورائعة الجمال وطويلة. كان دوريل مخبولاً يثرثر: "عزيزتى ديانا، كنت بائسا ولا أعلم ماذا أكتب. أنت مبهجة.... عزيزتى الأرملة! أحبك." (٩٣)

كانت ديانا جاولد فى رحلة مع جمعية خدمات الوطنية للتسلية، أوبريت الأرملة السعيدة، تأليف فرانز ليهار، وبطولة سيرل ريتشارد ومادج إليوت، عزفت موسيقى "فراو فراو" وهى راقصة فرنسية فى فيينا. عرضت لأول مرة فى دار الأوبرا المصرية بالقاهرة قبل القدوم إلى الإسكندرية حيث افتتحت فى ٢٥ فبراير لمدة أسبوع على مسرح الحمراء فى شارع صفية زغلول (الذى عرف فيما بعد باسم شارع المسلة) مقابل محطة الرمل. بلغ الجزء الذى يخصها مشهد حوار طويل

وأغنية أعادت من أجله كتابة سطور فى الهامش له بناء على ترحيب الجمهور الصاخب الذى فهم كل تعبير قذر بالإضافة إلى مونولوج فردى حيوى فى الفصل الأخير. أخبر فيدن دوريل أن ديانا قادمة إلى الإسكندرية وانبهر عندما رأى رقصها.

واستمتعت ديانا بدورها بصحبة دوريل وقدرته الساحرة على التلاعب بالكلمات وبريق أفكاره وفكاهته وسلوكه الغريب أحيانا. كان أحيانا يزور سيسيل حيث تقيم ويصطحبها إلى المسرح أمام الميدان ثم ينتظرها على باب المسرح ويأخذها لمطعم مفضل أو حفل متألق يقيمه أحد أفراد الجالية اليونانية. دعاها ذات مرة لفيلا أمبرون على الرغم من وجود إيف أو عدم تذكرها الحدث بأى حال من الأحوال. قال جونش الذى تذكر: "يا إلهى، أرى لارى يطاردها حول الأثاث مما يعتبر شعيرة خصوبة."تجاوزت فترة حمل بيلى الفترة المحددة حوالى شهر. أمرته ديانا: "عزيزى لارى أحضرها للعرض وأساعدها على ولادة الطفل." (٩٤) فى الحقيقة، وصلت بيلى إلى المستشفى بعد إسدال الستارة بشق الأنفس. وعت ديانا التى مشت مع دوريل فى شوارع المدينة(٩٥) اختلافاتهما البدنية؛ فهو قصير وأشقر، فى حين هى طويلة وشعرها طويل أسود، إلا أنها شعرت بالراحة التامة تجاهه. اعتقدت أنه يفخر بحياته فى الإسكندرية وبينما قضت ساعات متأخرة معه فى المقهى، غرقت فى "عمق قلبه الرائع وعرضه." (٩٦) كل هذا بينما يغرقها بقصاصات العاشق الولهان تحمل توقيع "أنا"تتوسع "بأنا المستمرة خلف أنا غير المستمرة." (٩٧)

اعتبرت ديانا القادمة من إنذارات بليتز فى لندن وحرمانه ورحيل روميل من بوابات الإسكندرية اكتمال الحياة فى مصر ومرحها جنة. ضمن دائرة دوريل المكونة من كتاب وشعراء، استمتعت "سعادة المطلقة الخاصة "بتعب الشمس وإرساله عبر السماء". اقتباس من قصيدة كاالليماخوس القصيرة لصديقه هرقليطس.

ولحسن حظهما عرضت وثبة تصالبية ارتجالية ذات مرة على سطح فندق سيسيل. عندما أبحرت ديانا بعيدا عن الإسكندرية، "نادت على المحبين الذين تـــركتهم." [٩٨] ولكن على الرغم من ظهور وجه دوريل مغطى بالخدوش فى أحد الأيـــام بـــسبب إيف، فإنه لم يكن أبدا من محبيها.

حدث كل هذا سريعا؛ لم تبق ديانا فى الإسكندرية سوى أسبوع أو اثنـــين إلا أن أحداث مرورها سطعت لمعظمهم فى اليوم الذى أقل فيه جوين ويليـــامز ديانـــا ودوريل من بحيرة مريوط. قال دوريل: "نقطة مطر واحدة هذا الشتاء تسبب تغطية المكان كله بنبات الرواق فى الربيع." عندما رأت ديانا نظافة الرياح وبخور مـــريم والبحيرة الشاحبة تحت السماء الخاوية، قالت: "لم أر مكانا كبيرا مثـــل هـــذا فـــى السماء من قبل" ورد دوريل قائلا: "سأكتب لك قصيدة عن ذلك." [٩٩] تعتبر قـــصيدة "ماروتيس" مهداة لديانا جاولد:

حل الربيع فى كل مكان

مثل جفن عين ما يزال غير واع

أو محدد فى التعبير أو العمق

ولكن يبتسم ويحدق من النوم.

ولكن تلمس الرياح غير الرقيقة

وغير حسنة الظن بالناس

خد كوع الانقباضية وورقها. [١٠٠]

وصلت جوستين إلى نقطة ذروتها فى اصطياد بط فى بحيرة مريوط، انضم دوريل لحفلة صيد بط على البحيرة فى الخريف السابق. وفى حفلة اصطياد البط فى مخطط الرواية التمهيدى المبكر اجتمع كل "محبى جوستين."(١٠١) يتلوه اكتشاف دارلى أن جوستين اختفت من المدينة: هجرت المرأة التى أحبها حياته. وفى النسخة النهائية من جوستين كتب دوريل عن "شارع فرنسا وجامع طبرانة وتمثال محمد على على فرس فى الميدان وتمثال جنرال إيرل النصفى الكوميدى وكينج مريوط (جمع الزهور البرية واقتنع أنها لا تحبه) وإحساسى أن المدينة كلها تتحطم فى أذنى." (١٠٢) على بحيرة المريوطية، طلب دوريل من ديانا الزواج وأخبرته أنها تحب روبين فيدن.

كتب دوريل لديانا بعد رحيلها: "شاهدت اسمك على لوحة إعلانات ضخمة فى شارع المسلة بإحساس تهكمى مَرَضى مفاده "خير البر عاجله" والآن حل محلك جارى كوبر بينما أجلس فى برجى وأستمع لأفكار تتحرك من حولى مائية ومعتمة مثل السمك." (١٠٣)

عندما أصبح الجو أكثر دفئا فى الربيع، أقامت أسرة أمبرون حفل غداء فى الحديقة. كان مدخل يوميات مذكرات الكونتيسة مارى دى زغب فى يوم ١٧ أبريل: "تناول وجبة الغذاء فى حديقة فيلا أمبرون ثلاثون شخصا على طاولات صغيرة الحجم: أنا وأليس توريل وأسرة ألماجيا ولارى دوريل ولوران ماكجرات (فنانة شابة إنجليزية) والملازم ناسو وأسرة جين لومبروسو وشباب أسرة أنجل ومارسيل جالو وأسرة شفيق وأسرة كانتونى وسيدة كارلو ناجيار وديسبنا سالفاجو وفيرى ديلمار وأسرة ترنى وأسرة جونش."(١٠٤)

يتساءل المرء ما إذا أتيحت الفرصة لدوريل وإنريكو ترنى للحديث وهل أخبر ترنى دوريل عن فورستر وغناء واجنر تحت الماء. صاحبت لوران ماكجراث فرقة مسرح أخرى تابعة لجمعية الخدمات الوطنية للتسلية ورآها في الإسكندرية دوريل وجوين ويليامز اللذان اصطحباها في سرداب في كوم الشقافة وأخبراها عن أورفيوس وأوريدايس مما سبب إصابتها بالإغماء في هذا الجو المخيف المحيط. علق ويليامز قائلا: "تعتبر الإسكندرية مكانا حيث تختار العودة الأبدية اللحاق بك دون إنذار."[١٠٥]

تتساءل عن أفكار دوريل حين تناول طعام العشاء في الحديقة مع هؤلاء الناس الذين تمثل أسماؤهم بناء المدينة "وشعرها وتاريخ تجارتها." [١٠٦] كما كان هؤلاء أمثلة المدينة أيضا مثل تجار الجملة والتجار والصرافين والمصدرين وأصحاب المصارف وأصحاب المصانع وخاصة هؤلاء الذين ذكروه بعالم والده في الهند وأسرة ألماجيا التي بنت كورنيش الميناء الغربي وألدو أمبرون المهندس المدني.

عندما بنى دوريل مدينة الإسكندرية الخاصة به في رباعيات الإسكندرية: "سكنت ذكرياتي المدينة" وأصبحت مكانا فخيمًا في نطاقها"حيث مازالت الجاليات تعيش وتتواصل؛ الترك مع اليهود والعرب والأقباط والسوريون مع الأرمن والإيطاليين واليونانيين حيث تتموج بينهم رجفة الصفقات المالية وتفرقهم. هل تستطيع العثور على مثل هذا الخليط في مكان آخر في العالم؟" [١٠٧] وسط نقر الطبول وموسيقى المهرجان الديني الصاخبة (مهرجان قبطي يستمتع به المسلمين على الأقل لاعتبار "كل الأديان دين واحد في البلد المتدينة") أشرقت مذكرات "احتياجات المركز التجاري العظيم وقواه وهي صفير المحركات البخارية من ساحات البضائع أو استنشاق الصوت من صفارات الإنذار الخاصة بشاحنة بضائع تتفاوض بشأن ممرات الميناء الملتوية التي توجه إلى الهند." [١٠٨]

كان دوريل الذى يعمل ضابط استعلامات بريطانيًا فى حقيقة الأمر دعائيًا وكانت وظيفته التلاعب بما يظهر فى الصحف وهى مهمة اعتبرها كريهة فى أبريل ١٩٤٤. لم يقلق البريطانيون وحدهم من خسارة الحكومة اليونانية فى المنفى بالقاهرة سلطتها لصالح الشيوعيين فى حركة المقاومة فى اليونان نفسها، ولكن واجهها الآن تمرد فى القوات اليونانية الملكية فى مصر المكونة من متطوعين من الجالية اليونانية المحلية بالإضافة إلى الجنود واللاجئين اليونانيين الذين هربوا من اليونان.

انفجرت المتاعب فى نهاية مارس، عندما أسست جبهة التحرير الوطنية التى يسيطر عليها الشيوعيون حكومة مؤقتة فى مناطق الجبال المحررة فى اليونان ورفضت حكومة اليونان الملكية فى المنفى طلب المساعدة من حكومة الوحدة الوطنية التى تمثل جميع الأطراف ومجموعات المقاومة. بدأ التمرد فى ٦ أبريل فى اللواء اليونانى الأول الواقع فى بهيج على خط سكك الحديد الصحراوى بالقرب من برج العرب. انتشرت التعليمات خلال يومين على أطقم ثلاث سفن من البحرية اليونانية الملكية فى ميناء الإسكندرية.

أحاط البريطانيون بالمعسكر بالقرب من برج العرب بأوامر من تشرشل بعدم إجراء أى تفاوض مع اللواء اليونانى الأول: "أحيطوا بهم بمدفعية وقوة مثالية ودع الجوع يؤدى دوره." (١٠٩) بعد مرور ثلاثة أسابيع رست سفينة حربية بريطانية اسمها أجاكس بين السفن المتمردة الثلاثة أبوستوليس وأيراكس وساشتوريس فى الميناء الغربى بعد ظهر يوم السبت الموافق ٢٢ أبريل، وتبادل البحارة البريطانيون واليونانيون التحيات والنكات بالطريقة المعتادة. ولكن فتحت المدافع الرشاشة النيران وقفز مائتا رجل يرتدون ملابس العمال وجوههم مسودة على السفن اليونانية واشتبكوا فى عراك بالأيدى فى الساعة الثانية صباحا من خلال حاجز من الدخان. فى الساعة الثامنة صباحا انتهى الأمر بمقتل عشرة رجال

وجرح أربعين واستسلام البحارة الثوريين واستسلم اللواء الأول فيما بعد فى نفس اليوم كما تم نزع سلاح عشرين ألف يونانى وإرسالهم لمعسكرات الاعتقال فى ليبيا وإريتريا بعد وضعهم فى أقفاص سجن بالقرب من الإسكندرية:

علم دوريل بالنتيجة أثناء الإفطار فى فيلا أمبرون صباح يوم الأحد عندما رأى أحد أصدقائه اليونانيين يدعى أليكسيس لاداس، الذى ظل لفترة مغطى بالسخام والشحم، مترنحا بسبب الإرهاق. كان الرجال المسودة وجوههم ضباطًا يونانيين أوفياء للحكومة الملكية فى المنفى أحدهم لاداس وكانت معركة بين اليونانيين واليونانيين. قال دوريل: "سمعت اختلاط الأمر عليكم أيها اليونانيون" وهو يخفى أى إحساس بالأمر. وصرخ لاداس فى وجهه قائلا: "اذهب للجحيم."[١١٠] وذهب دوريل لمكتب الاستعلامات البريطانى يوم الإثنين مشمئزا مما حدث بين اليونانيين والدور الذى أدته السياسة البريطانية وجلس فى ١ شارع طوسون باشا على آلته الكاتبة وملأ نفسه بالعزم والتصميم على الكتابة عن الانتصار بأسلوب شديد الابتهاج.

كتب ميللر لدوريل فى ٥ مايو: "عندما تكتب لى عن الفراغ السكندرى باندفاع شفرة المدية وأنا فى أشد مراحل المرض. دعنا نذهب! أتجول معك فى هذه الشوارع وأرى العيون التى تمور بشراب مسكر وأغرق نفسى فى مجزرة الحب الذى تصفها وصفا بليغا."[١١١]

وأجاب دوريل: "لا أعتقد أنك تحب حطام بلدة نابولى الرثة بركام منازلها المشرقة فى الشمس. بحر بنى متسخ مسطح دون أمواج تحتك بالميناء. فنار عربى وقبطى ويونانى وفرنسى مع عدم وجود موسيقى أو فن أو ابتهاج حقيقى. ملل أوروبى أوسطى مشبع مضاف إليه مشروب وباكارد وكبائن الشواطئ. تقتصر

مواضيع المحادثة على المال. حتى الحب يفكرون فيه بلغة المال. لا يعتبر أحد عبقريا إذا استطاع كتابة سطر واحد يتعلق بالإنسانية."(١١٢)

بعد مرور حوالى أسبوع، أخبر دوريل ميللر "تأتى الإسكندرية فى المرتبة الثانية بعد هوليود فى احتوائها على السيدات الجميلات اللاتى يتجاوز جمالهن جمال سيدات أثينا أو باريس؛ يمنحك الخليط القبطى اليهودى السورى المصرى المغربى الأسبانى عيونًا داكنة وبشرة منمشة زيتونية وشفاهًا وأنوفًا ومزاجًا كالقنبلة. تعد الطريقة التى تحصل بها على عدة سيدات مضحكة ولا أدرى ما تضيفه لك: فكل سيدة أكثر سطحية من التى تسبقها مثل جابى وسيمون وأرليت وداون وبينلوب." (١١٣)

ولكن دوريل لم ينل رضا امرأة بعد امرأة. ربما مر ببعض العلاقات القصيرة بعدما هجرته نانسى وفى خلال سنة لم يعرف امرأة أخرى سوى إيف، قال جوتش:"لا أعتقد أنه كان يلهو مع سيدات الإسكندرية. لا أظن... " كان جوتش يعلم أنه (دوريل) وزوجته يعيشان معا فى شارع فؤاد وفيلا أمبرون فقط وإنما لأن جوتش كان موظفا فى المعهد البريطانى فى الطابق الأعلى مكتب الاستعلامات البريطانى. قالت إيف لم يتخلف دوريل فى الذهاب إلى بيته فى أى ليلة. كما قالت لقد عشق جاذبية النساء ومغازلتهن كما كان يغازل نساء فى وجودى (زوجته) ولكنها لم تهتم ولا تعرف إلى أى مدى يمكن أن ينساق. يتذكر بول وإيف جوتش أن الشجار الوحيد كان بشأن ديانا جاولد. فقد كانت الاستثناء من القاعدة.

كان دوريل يمهد فى خطاباته إلى ميرل ليتحدث عن إيف ولكنه تظاهر بالانشغال وهو فى ذات الوقت يلهو "بطعام الإسكندرية المثير." بينما يقرأ الخطاب قراءة سريعة، مر أمامه سطر فى الخطاب وضع عليه ملاحظة "فى تلك اللحظة

أقاوم تيارا من الحب الجارف مع جيبسى كوهين وهى يونانية يهودية معذبة. "لـم تكن إيف يونانية إلا أنها فاتحة للشهية، ثم عاد للخطاب" " جيبسى كـوهين ترسـم تحت حاجبيها لونا أسود مثيرا، نكهتها تعود إلى كليوباترا كما يـصفها شكـسبير، رموشها طويلة من مالطا وأظافرها وقدماها من سميرنا وفخـذاها مـن بيـروت وعيناها من أثينا وأنفها من أندروس والفم الزاعق أو الهامس مثل الساحرات مـن سمرقند والصدر من الفيوم يا لها من إثارة ؟" (١١٤)

وفى يوليو قدم دوريل المزيد من الصفات إلى ميللر : "كانت تجلس لساعات على حافة السرير وتعلمنى كيف تكون الحياة المثيرة – ما هى حياة العرب، وحياة الضلال والختان والحشيش والحلويات، وختان الإناث والقسوة والقتل.. جميـل أن يبسط المرء الحياة ويهذبها ويبعد عنها سفاسف الأمور. أصبح الجنس اليوم نوعـا من الصداقة غير المهووسة... أشياء بسيطة نحتـاج هـذه المـرة. فالفتـاة التـى تضاجعها بالقلب والروح والأرداف وشجرة الزيتون وآلة كاتبة وقليل من الأصدقاء العظماء مثلك. فماذا ترى؟(١١٥)

الفصل التاسع

المدينة التى لا تتلاشى

مع زوال أول مشاهد الاغتراب يجد العقل بغيته فى استكشاف الإسكندرية ـــ مدينة الأحلام ـــ التى تُبَطن، وتدعم الميناء المتوسطى الصغير المألوف الصغير ـــ إلى حدٍ ما ـــ كما يبدو للغرباء.

لورانس دوريل، مقدمة طبعة ١٩٨٢ من كتـــاب إ. م. فورستر: الإسكندرية: تـــاريخ ودليـــل E.M.Forster Alexandria: A History and a Guide

وجد دوريل الإسكندرية المحل الوحيد على أرض مـــصر الـــذى يـــستطيع سكناه، إذ إنها تضم ميناءً يطل على البحر، "بما يمثل مهربًا" [١]. ولكنـــه اســـتطاع السفر غربًا خارج حدود المدينة إلى المنطقة العسكرية السابقة برفقـــة بـــول **Paul** وبيلى جوتش **Billy Gotch** وإيف **Eve** فى مايو من عام ١٩٤٤؛ وكتـــب دوريـــل رسالة إلى ميلر، خط فيها أنهم "قد مروا ببرج العرب فى الأيام القليلة السابقة"، وقد يكون رآها عن بعد، إذ إنه أخطأ فى وصفها بأنها "حصن مهجور للصليبيين، حيث تبدو أبراجه المتهدمة غير واضحة المعالم وكأنها سراب" كما مـــروا وســـط "آلاف من فوارغ الذخيرة وخرق ضمادات وحطام دبابات للعدو" إلى أن وصلوا لـــشاطئ طويل يحف بالبحر المتوسط بأمواجه الضخمة المكتـــسية بـــاللون الأخـــضر" [٢]، والواقع أنهم مروا بمكان منعزل، حيث رأى فورستر أرضا مندثرة تحت صـــفائح وأسلاك شائكة ووصل إلى أبو صير التـــى اتخـــذها مونتجـــومرى **Motgomery** مركزًا لقيادته أثناء معركة العلمين، وخلفهم يقع معبد أوزيريس البطلمـــى، الـــذى

أسماه الإغريق باسم (معبد) ديونيسوس، والمنارة الأثرية وهى فنار مصغر، تطل جهة منه على الفرع الغربى من بحيرة مريوط بينما يطل الجانب الآخر على البحر.

وتتذكر إيف Eve قائلة: "كانت الرمال بيضاء، وكانت ناعمة وتنساب من بين أصابع اليدين كما ينساب المسحوق، وتتدرج ألوان البحر، عندما يضرب الساحل ما بين الزمردى، والتركواز كلما ابتعدت المياه عن الشاطئ، يستحيل لونها إلى الأزرق الطاووسى، ثم البنفسجى السماوى، ويغوص المرء وسط هذه الدوامة من الألوان". وبعد أن بدأ دوريل يشكو من أنها لم تعد الفتاة الرشيقة التى عهدها، بدأت إيف تنقص وزنها إلى أن أصبحت راضية عنه مرة أخرى. وتجرد الجميع من ملابسهم، وانتشى دوريل عندما أخذوا فى التقافز بين الأمواج. ولاحظت إيف كم هو بارع فى السباحة، كما لاحظت ــ فيما بعد ــ عندما تمددوا على الشاطئ كما لو كانت بشرته تفوح منها رائحة العسل". وكتب دوريل فى رسالته إلى ميلر واصفاً عودتهم إلى المدينة ذاك المساء قائلا "ياله من انتقال غريب إلى إسكندرية كفافيس، فقد شعرت لأول مرة خلال أربعة أعوام بأننى فى اليونان." (٣)

وبعد سنوات، أحيا دوريل ذكرى هذه الأوقات الممتعة التى قضاها فى برج العرب، عندما جعل "نسيم"يبنى القصر الصيفى "لجوستين"فى هذا المكان الذى يطل من بعيد على الحصن العربى القديم كما يطل على الصخرة البيضاء المغمورة منذ أمد بعيد على الشاطئ الخالى الذى تتوالى الأمواج عليه ليلاً ونهارًا.(٤) وفى هذه الرواية أيضًا، حصل "نسيم" كتعبير عن الامتنان لبانايوتى Panayotis العجوز، الذى كان يتولى حراسة منزلهم القابع فى الصحراء، على تصريح من بطريركية الإسكندرية لبناء ووقف كنسية صغيرة على القديس أرسينوس Arsenius فى منزله"، كما وجدت "كليا Clea " تمثالا قديما للقديس أرسينوس فى أحد أكشاك الموسكى بالقاهرة، فابتاعته وقدمته إلى "جوستين" كهدية فى عيد ميلادها، قال

دوريل فى الرباعية: إن "اختيار القديس كان ـــ كما هو المفترض أن يكون دائمـــا ـــ مصادفة سعيدة". (٥)

ولكن لم تكن هناك مصادفات سعيدة بالنسبة لدوريل، فقد أنهى **الكتاب الأسود The Black Book** بالقرب من مدينة كالاماتا **Kalamai** تحت صورة القديس أرسينوس التى دمرت إثر عاصفة، ووقتها شعر بأنه قد ولد من جديد. كما كان ميلادًا جديدًا أيضا لأرسينوس الذى فقد عالمه كما هو الحال بالنسبة لدوريل؛ ففى أوائل القرن الخامس، أصبح أرسينوس ناسكا فى وادى النطرون، وظل هناك حتى دمر رجال قبائل البربر الأديرة الأولى فى عام ٤١٠، وهو العام الذى نهبت الجحافل البربرية فيه روما، وقال أرسينوس "فقد العالم روما، وفقد النساك وادى النطرون". (٦)

وقام دوريل طوال الربيع والصيف بعدة رحلات إلى القاهرة لتسلم تعليمات من السفارة وزيارة روبين فيدين **Robin Feddan** الذى كان يجمع آنذاك كتاب مناظر طبيعية شخصية **Personal Landscape** لينشره خلال العام التالى فى إنجلترا. ولاحظ فيدين أن دوريل مفعم بالحيوية والنشاط (٧)، وقال إن زياراته القصيرة من الإسكندرية أحاطته بجو من السكون، وكانت بمثابة مرجع واسع، وشبه اندفاعه فى دخول الغرفة بأنه "كمن ينزع سدادة زجاجة شمبانيا معتقة". (٨)

وكان دوريل بدوره يدرك أنه خلف الانحناءة الخفيفة والتلعثم اللذين يشكلان جزءًا من جاذبية فيدين الطاغية، تكمن عقلية بارعة فى النقد ومتقدة الذكاء تفحص الثقافات الأوروبية والشرقية وتمحصها، كما كان يعده قدوة له دون سائر معاصريه فى مصر، (٩) وقد أصبح إضافة لخبرات دوريل عن هذا البلد، وذلك عندما كتب فيدين فى مقدمة مجموعة المقتطفات الأدبية عن شعور الأجانب المقيمين فى مصر

بالانعزال الثقافى والنفسى بها، حيث يتجه الاتجاه الفكرى صوب مكة بينما يسبح الأوروبيون دائما عكس التيار". (١٠) وقد عبر دارلى **Darley** عن هذا الشعور فيما بعد فى رباعية الإسكندرية فى قوله "انعزلنا عن التيار الخليجى الدافئ من المشاعر والأفكار الأوروبية، لأن كافة التيارات تتجه صوب مكة"(١١). وكتب دوريل خطابا إلى ديانا جولد **Diana Gould** فى نابلس، بعد أن أبحرت من مصر ببضعة أيام، وقال فيه: "إننا منشغلون حاليًا بتجميع المقتطفات الأدبية، وقد كتب روبين مقدمة رائعة، قد تكون أروع أعماله علي الإطلاق".(١٢)

ومن المحتمل أن إعجاب دوريل بفيدين يعود أيضا إلى نجاحه فى التعامل مع النساء، وفى هذا الصدد، يعد فيدين أيضا إضافة لدوريل إلى حد الماسوشية. وكتب دوريل خطابًا إلى ديانا فى أبريل، وقال فيه: "إن روبين يفتقدك بشدة تقارب شدة افتقادى لك"، واصفا نفسه بأنه "لا يجد فى الحياة مبتغى أكبر من البحث عن الاعتدال والثروة والتوازن" (١٣). وفى أغسطس كتب خطابا قال فيه: "أجد أننى أماثل سانشو بانزا **Sancho Panza** بالنسبة له ولك فى هذا الأمر، وأتصرف بلباقة أمام طواحين الهواء الخاصة بسيدى وسيدتي". وقال لديانا: "أنت تشعرين بالتعاسة وكذلك أنا، غير أننى بلغت منها الدرك الأسفل. وكأن حالتى تشبه الجوهرة، سطحها هادئ، بيد أنها تغلى تحت هذا السطح الهادئ، وذلك عندما أنظر إلى العالم من منظور تشاؤمى مشبع بالخوف، آه من تلك الأحلام السيئة. ولكننى أصر على أن أكون سعيدًا، وهى (السعادة) علم مثلها مثل كل شيء آخر، بما فى ذلك أمور الغزل، وأنا أصبر على أن أكون سعيدًا. ومن ثم، تنتابنى المشاعر وأكرر مثل السيد كو **Coue** قائلا: "سوف تصبح سعيدًا الآن– سعيدًا بحق". ولست مريضا كما لا يعانى جسمى من كدمات، ولست أنتحب أو أرثى لحالى ولست مفعمًا بالأمل. ولكننى سعيد بأمور الحب الشديد.(١٤)

كان الملك فاروق ضيفا دائمًا فى منزل برينتون فى الإسكندرية. فضلا عن أنه كان يوقع باسمه، فقد كان أيضا يترك بصمته على دفتر الزيارات. وفى هذه المناسبة فى يوليو ١٩٤٤ ضيوف آخرون من بينهم جون و جوزى برينتون وجيمس إيسبى والذى كان يعمل لحساب إدارة الخدمات الاستراتيجية OSS وهو الاسم الأول لوكالة الاستخبارات الأمريكية CIA. كان الملك فاروق يبحث عن الدعم الأمريكى أمام البريطانيين فى ذلك الوقت.

وفى يناير ١٩٤٤ كتب السفير البريطانى لورد كيليرن **Lord Killearn** ملحوظة فى مذكراته: إن الملك فاروق يتسم بسلوك "فظ ومنفر" [١٥]. ولكن بعد مرور شهر، وخلال رحلات اصطياد البط، حيث كان أغلب الضيوف أمريكانيين، كان فاروق فى أفضل حالاته وأظهر شخصية مضيف يستحق الإعجاب. وكان من الواضح أنه يولى عناية خاصة بالاجتماع بالأمريكان، ولكن الجو بأكمله كان ألطف ما يكون ومفعمًا بالدفء.[١٦] وبعد بيرل هاربور أصبح جون برينتون الملحق العسكرى الأمريكى، وأصبح أحد ضيوف الصيد عند الملك هو المقدم جون دريج **Lieutenant- Colonel John Dregge**، رئيس جون فى الوفد الأمريكى، وكان ضيف آخر هو جيمز إسباى **James Espy**، الرئيس الإقليمى لمكتب الخدمات الإستراتيجية (OSS) والذى حلت محله وكالة الاستخبارات المركزية لاحقًا، وكان يسكن فى شقة بالقاهرة مع جون وجوسى برينتون. وكانت جوسى تشغل آنذاك منصب سكرتيرة مكتب الخدمات الإستراتيجية، وقد أكدت هذه السمة أيضًا، إذ كتبت لوالدتها خطابًا فى ١ مايو ذكرت فيه: "ذهبنا إلى إحدى العزب الخاصة بالملك فاروق بصحبته منذ بضعة أيام، وأمضينا هناك ليلة ويومًا ... وقد تعرفنا على كثير من خصاله فوجدناه ودودا وذكيا، كما أنه شديد الإعجاب بالأمريكيين."[١٧]

وكان الملك فاروق يعامل الأمريكان بتودد، وكان الأمريكان يعاملونه بالمثل. وفى ذلك الوقت، نُسبت، فى الدوائر البريطانية، تصرفات الملك فاروق الفظة تجاههم إلى حادث وقع فى شهر نوفمبر السابق، إذ اصطدمت سيارته المسرعة بسيارة حربية بريطانية، وتم علاجه فى مستشفى بريطانى عسكرى من كسر فى عظم العانة فى الحوض. وقد سبب خروجه من الحادث حيًا إحباطا عند العديد من الناس، ونقل عن الملك فاروق أنه قال كلامًا، سيعاقب عليه فيما بعد،

ونقل سرًا كوشاية على لسان عم الملك، الأمير محمد على، الذى كان مواليا للبريطانيين الذين كانوا سينصبونه العرش لو كان انقلاب قصر عابدين قد نجح، إلى كيليرن أن فاروق كانت "تسيطر عليه روح الانتقام وكان محطما".(١٨) وبعد الحادث على الفور، ساعد الأمير على الترويج لشائعة أن قدرًا كبيرًا من عظم الحوض للملك قد تحطمت، وسرت أقاويل بأن الملك أصبح عنينًا وأن سلوكه وزيادة وزنه الأخيرة كانا نتيجة اضطراب الهرمونات، رغم أن الأطباء المصريين أو البريطانيين الذين تولوا علاجه، والذين أعلنوا عن عودته إلى صحته الطبيعية فى غضون أسبوع، لم يعلنوا عن مثل ذلك.

وإلى جانب كل هذا، كان هناك هذا العداء المزعج القائم بين كيليرن وفاروق، والذى ظهر مرة أخرى فى إبريل ١٩٤٤ عندما أراد فاروق أن يفصل رئيس الوزراء مصطفى النحاس، ففى الوقت الذى تقوضت خلاله شعبية الوفد المتولى للحكومة بصورة شديدة وشاع فساده، وبينما كان العديد من المصريين يرون أن النحاس نفسه، بخلاف مكاسب عائلته غير الشرعية، أداة أجنبية تحاول الهيمنة على الملك الذى كان لايزال يحظى بشعبية منتشرة. - كان البريطانيون، رغم مضايقة النحاس لهم، قد قرروا أن الوفد والنحاس قد يسببان لهم مشكلة إذا عارضوهم ومن ثم واصلوا دعمه لهم. وفى حالة مقاومة الملك فاروق، فبالتأكيد سوف ينشأ انقلاب. وفى ١٢ إبريل، تحدث اللورد كيليرن مع أنتونى إيدن **Anthony Eden** عن مشروعهم القديم المعد سلفًا، اقترحوا فيه فى تلغراف سرى أنه قد حان الوقت لفرض سيطرة مباشرة على مصر." (١٩) وفى ٢٤ أبريل تراجع الملك فاروق، وحدث هذا فى اليوم التالى لإخماد التمرد اليونانى واستعراض قوة البريطانيين، مما دفع بالملك إلى الانتظار.

أما عائلة برينتون، وبخاصة جون، فرأت الملك فاروق من منظور آخر يختلف عن رؤية السفارة البريطانية ووزارة الخارجية، حيث اعتقد (جون) أن فاروق كان يميل إلى البريطانيين غير أنه شعر بالمرارة لأنهم يملون عليه أعماله، ولاسيما نتيجة الإذلال الذى عاناه على يد إيدن وكيليرن. واعتقد جون أنه كان يحب أن يلعب بعض الألعاب لمضايقة البريطانيين، ولكن لم تكن لديه أى رغبة فى خداعهم. وقال جون إن فاروق لم يناصر الألمان مطلقا، وإنه كان يحب الإيطاليين لأنه تربى وسطهم فى بلاط أبيه، ولكنه لم يكن مناصرًا للفاشية كذلك. ولم يكن هذا رأى جون برينتون وحده: بل كان رأى أكثر رؤساء القوات المسلحة البريطانية فى الشرق الأوسط المنتقدين معاملة كيليرن للملك فاروق، ومن بينهم كان الجنرالات وافيل **Wavell** وأوتشنليك **Auchinleck** وجامبو ويلسون **'Jumbo' Wilson** وسير آلان بروك **Sir Alan Brooke**، الذى كان رئيس هيئة قادة الإمبراطورية، والمشير الجوى سير ويليام شولتو دوجلاس **Sir William Sholto Douglas**، الذى قال إن السفير ارتكب خطئًا استراتيجيًا كبيرًا فى "معاملة الملك فاروق كما لو كان مجرد صبى مشاغب أبله... (ولا أنكر) أن فاروق مشاغب ولا يزال صغير السن... ولكنى أعتقد، ومن وجهة نظر واقعية، أنه ملك مصر" [٢٠]. وكان السير توماس راسل باشا **Sir Thomas Russell Pasha** الذى تولى رئاسة شرطة القاهرة لفترة طويلة، شديد الغضب من السفارة عندما علم بشأن حصار قصر عابدين (لم يخبره لاميسون **Lampson**، الذى اشتهر باسم كيليرن آنذاك، بذلك) حيث واجه هؤلاء الناس الذين وجدهم يدمرون جهوده وجهود زملائه وأسلافه" [٢١] فى تطوير علاقة الثقة وحسن النية بينه وبين المصريين.

وفى إحدى الأمسيات، بعد ذلك بفترة قصيرة، زار الملك فاروق شارع خليل إبراهيم فى جليميبولا. **Glymenopoulo** وكان القاضى برينتون يجلس فى مكتبته

بعد احتساء الشاى، وجلس فاروق إلى جواره وأخذ سيجارًا واستفسر عن المركبة ساموثراس **Samothrace**. وسأل عما إذا كانت معروضة للبيع، وأكد برينتون ذلك وبذلك انتهت المفاوضات: وقال الملك "سوف أطلبها فى الصباح". ولم يتم تحديد ثمن، وعلى أى حال شعر القاضى برينتون أنه لا يليق أن يناقش السعر مع صاحب السمو الملكى، ولكنه كان يعرف أن جورج ماكفادين **George McFadden** كان على استعداد لأن يبيع نظير المبلغ المؤمن عليه، فتحدث قليلا عن أوراق السفينة وسجلها وغير ذلك عندما اتجها إلى بوابة الحديقة، وقال إنها مؤمنة من ليودز **Lloyds** وذكر مبلغ التأمين ولم يعلق فاروق على هذا. ولكن بعد ذلك ببضعة أسابيع دعا الأدميرال المصرى المسئول عن السفن الملكية برينتون للحضور إلى القصر وأعطاه شيكا بالمبلغ الذى لمح به. وقام فاروق بدهان سفينة ساموراس باللون الأزرق وركب لها أشرعة من نفس اللون(٢٢)، ويمكن مشاهدتها فى المرفأ الغربى بالإسكندرية حيث تركت لتبلى.

وفى ٢٢ أغسطس، عندما كتب دوريل خطابًا إلى ميلر مرة أخرى، كان قد أرسل لتوه كتابه "زنزانة بروسبيرو" **Prospero's Cell** إلى دار فابير وفابير **Faber and Faber** للنشر فى لندن التى وافقت عليها على الفور. "والآن، لدى فكرة رائعة عن قصة فى الإسكندرية، سلسلة لكل أخبار اليونان، جنبًا إلى جنب مع محل جزارة شبحى به فتيات على شرائح اللحم". وكان ساعتها قد سافر إلى اليونان وشغل وظيفة هناك، وفى إحدى الأمسيات كان ينتظر بفارغ الصبر زيارة من سيفيرس **Seferris** "أفضل أصدقائى فى مصر"(٢٣)، الذى قد عاد لتوه من لندن حيث كان البريطانيون يخططون لإرسال قوة عسكرية لأثينا لإحباط ثورة شيوعية بعد أن اعترضوا رسائل غاية فى السرية تدور حول انسحاب ألمانيا الوشيك من اليونان. ولكن دوريل كان يفكر كثيرا فى زوجته وابنته: ولم يستطع أن يعرف أى

شيء من نانسى "التى كانت تتصرف كمبشر مجنون يعتريها شعور خفيف بالذنب مصدره أصلها الأنجلو ساكسونى. ولم تصلنى أى أخبار عن الطفلة أيضا التى كنت قد تعلقت بها كثيرا"(٢٤). وفى ذلك الوقت، ظهرت إيف "التى تقول إنها روح منطفئة من كوكب آخر، سئمت كل شيء عدا الله، وقد سئم منها". "وكانت جيبسى كوهين **Gipsy Cohen** كل يوم ترسل عاصفة حلزونية مشحونة بجمال حقيقى مفعم بالبذخ والجنون، أسره واستثاره."(٢٥)

وتوطدت العلاقة أكثر بين دوريل وميلر عندما ائتمنه على حقيقة أنه شرع فى بداية **كتاب الموتى** عندما كتب له مرة أخرى بعد ذلك فى أغسطس أو أوائل سبتمبر قائلا "مفكرتى تمتلئ بالملاحظات كالغشاء الذى يحيط الجنين حول قصة تحكى عن الإسكندرية"(٢٦). وتوحى الإشارة إلى الغشاء المحيط بالجنين إلى ميلاد عمل إبداعى وقد عرف لتوه أنه قد تم وضع حد لحبسه فى الإسكندرية: إذ كان سيتم إرساله إلى رودس ليشغل منصب مسئول المعلومات العام بمجرد تحرير الجزيرة من الألمان.

وكتب لاحقًا فى سبتمبر قائلا، "أعود إلى الحياة ببطء". "وقد كانت الأعوام الثلاثة المنصرمة كابوسا كئيبا. وأريد أن أكتب شيئا"، ثم تحدث مرة أخرى عن **كتاب الموتى**: "لدى حوارات رائعة له وحبكة حديدية. ونقل الأحداث إلى الإسكندرية وجعل الشخصيتين المحوريتين توءما" (٢٧). وزيادة على ذلك ذكر مرة إلى ميلر كتابا طموحا يدور حول التوءم، وقال إنه كتب بعضه، وأضاف أن أعظم الأعمال الأدبية التى تدور حول القلق مثل هاملت ركزت على عقد أوديب وأن المرء لكى يشب فيصبح رجلا يجب أن ينشأ من رحم عقدة أوديب(٢٨). وقد كان كتابا عن غشيان المحارم والإسكندرية"وكتب بعد بضعة أشهر: "كانتا متلازمتين هنا"(٢٩).

وعلى مدى عامين تقريبا، كان دوريل يطوف الإسكندرية مزودا بدليل فورستر "مستعيرا العديد من ومضات حكمته لزيادة الملاحظات عن الكتاب الذى أملت أن أكتبه يوما" (٣٠). وقد كان على وجه الخصوص يصف المدينة الروحية التى تعد أساسًا لهذه المدينة الدنيوية" (٣١). والواقع أن **جوستين**، المجلد الأول من **رباعية الإسكندرية** يعد رحلة إلى القسم الذى يتحدث عن المدينة الروحية فى دليل فورستر."والمثير للدهشة"، هو أن إحدى شخصيات دوريل تقول: "فهو يقدم سلسلة من المشاكل الروحية كما لو كانت شائعة ويوضحها ضاربا أمثلة بشخصياته" (٣٢).

وتتضح أولى محاولات دوريل لكتابة رواية حول الإسكندرية (التى نبتت منها **جوستين**، المجلد الأول من **الرباعية**) فى شكل مفكرة صادرة بطبعة حكومية، وكتب على غلافها بالقلم الرصاص، **كتاب الموتى** المخطوطة الأولى، العالم السفلى للورنس دوريل، وأضاف بالحبر: "**ملاحظات للإسكندرية**" "**Notes for Alex**".(٣٣) وقد كُتبت صفحاته الأولى بالرصاص وترتبط بالكتاب عن التوءم وسفاح القربى الذى ذكره إلى ميلر.

من هم السكندريون الأصليون الذين تحدث عنهم دوريل؟ تبدو أسماؤهم فى الواقع مثل شخصيات مسرحيات نويل كاوارد **Noel Coward**: تشارلز ودامين وكلوديا وجون وهوجارث والبارونة إرما وتيسا ومليسا وكوريج. وجميع الشخصيات تقريبا بريطانية الأصل، وهم على غرار دوريل وأصدقائه، وليسوا مواطنين أصليين من المدينة التى تتألف من خليط من الجنسيات، ولكنهم شخصيات حبستهم الحرب فى الإسكندرية.

وامتهن كوريج **Corege** الحلاقة، فى حين كان دامين **Damien** طيارًا وكان تشارلز **Charles** يعيش فترة من حياته مع كلوديا **Claudia**، وهذا هو تقريبا كل ما

تدور حوله قصة دوريل قبل أن يحولوا من شكلهم أو يختفوا. وتعمل مليسا Melissa التي يعرفها دوريل باسم "كوهين"ممرضة في المستشفى اليوناني، فتاة خادمة ذات عينين سوداوين تراعى كل شيء حتى المشاعر دون أن يطلب منها."[٣٤]، ولكنه آنذاك لم يتحدث عنها بأكثر من ذلك. وعوضا عن ذلك، كان دوريل منشغلا بجون John وكلوديا.

وكان جون فابر "منقسما في البيضة"، ذلك أنه كان توءما لكلوديا، وكانا يعيشان في حقيقة لا جدال فيها؛ حيث إن كليهما نصف أخ وزوج (للآخر) في نفس الوقت" [٣٥]، ولذلك فهما سويا فابر وفابر[٣٦] ("غرض مزدوج" [٣٧]، كتب دوريل إلى أحدهم أنه سوف يتبع هذه الفكرة). تزوجت كلوديا من هوجارث Hogarth وهو محلل نفسي قابلته لأول مرة في مرآة في مقهى كافيه رويال Café Royal في لندن، ولكن يبدو أنها تعاني عندما تخرج من هوية الأخت التوءم لأخ: "واكتشفت كلوديا بملاحظة الموقف لحين وصول أحد أقربائها محل الثقة": وهذا "جنون"غير أنه ليس اضطرابا نخاميا.[٣٨]، ويجتمعان سويا عند وصول فابر إلى الإسكندرية ويصبحان عاشقين، ربما ليس للمرة الأولى.

وتعود هذه الصفحات الأولى من "ملاحظات للإسكندرية" إلى مفهوم دوريل عن نفسه بأنه جزء غريب من كل، كما تعود أيضا إلى مفكرة عام ١٩٣٨ التي رسم بها خريطة لبلومزبري Bloomsbury كتب عليها "خطة كتاب الموتى"، وكتب أن المرء يفقد جزءًا منه عند مولده، ثم يبحث ببساطة عنه طوال حياته". من خلال "عالم المرايا".[٣٩] وكان دوريل يقرأ لأفلوطين Plotinus، وهو خليفة أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقي ومؤسس التصوف التأملي في الغرب. كما كتب فورستر عن أفلوطين قائلا: إن "الإسكندرية لم تنجب أفضل منه".[٤٠]

اتخذ دوريل من المرايا والأجزاء والمنشور صورا رئيسية، وفى كتاب "**ملاحظات للأسكندرية**" يصف دوريل كلوديا بأنها "تفتش عن شيء فى كتابات ديستوفيسكى تهديها إلى فهم لرؤيتها المنشورية".(٤١)، وهو ما قامت به جوستين نفسها لاحقا، ففى الرواية التى تحمل اسمها، وهى تجلس أمام عدد من المرايا عند حائكة ملابس كانت تقول: "خمس صور مختلفة للشخص ذاته". والآن إذا كتبت، أحاول رسم شخصية ثلاثية الأبعاد، نوع من الرؤية المنشورية"(٤٢)، وبصورة مماثلة، استخدم أفلوطين نفس الصور للأجزاء والمنشوريات والمرايا لشرح خبرات البشر فى العالم.

وذهب أفلوطين إلى أن كل شيء ينبع من الواحد. ويفيض الواحد مثل النافورة أو يشع نورًا كالشمس، بحيث تخرج هذه الإشعاعات ترتيبات تنازلية للواقع. ويوجد فى الأول المبدأ العقلى وهو عالم من أنماط الحقيقة السامية النقية، وبعده يأتى عالم **الروح الكلية** والذى يشع بدوره، وباستخدام هذه الصور النقية من أنماط الحقيقة السامية كنماذج تعطى شكلا للمادة، التى هى أدنى المرتبات. وعالم المادة هو العالم الذى نعيش فيه، ولكن المادة تتصرف وكأنها شكل منشورى على شعاع النور الأبيض النقى الذى ينبع من **الروح الكلية** ويتسبب فى انكسارها إلى أشعة متعددة متنوعة الألوان. وتمثل الأشعة أرواحنا الفردية، وكل منها جزء من النور المنبعث من الروح الكلية، أو كما يشبه أفلوطين فى صورة أخرى: تخرج الروح صورا شبيهة لها مثل وجه يرى انعكاسه فى عدة مرايا(٤٣).

إن العالم الذى خلقه دوريل فى "**ملاحظات للإسكندرية**" هى الحقيقة التى وصفها أفلوطين بأنها فى أدنى المراتب، حيث يمكن لفابر وكلوديا، أو أى شخص لهذه المادة، الحصول فقط على مفهوم التكامل الأكثر تجزئة. لكن لأنهم غير مدركين بوضوح ما الذى يبحثون عنه وما الذى يربكهم ضمن عالم المرايا، فإنهم لابد أن يشتاقوا إلى الكمال، فالانفصال عن الواحد يولد الحنين كى يعود؛ الحنين

الذى وضحه أفلوطين فى الصورة الحسية، قائلاً إن المحبين فى رغبتهم فى الاتحاد يريدون فقد انفصالهم كتقليد حركة الانسياب العائدة إلى هذا الواحد، لكن بالنسبة لفاير وكلوديا، كما كتب دوريل فى "**ملاحظات للإسكندرية**" "الجنس هو محاكاة هزلية لمتعة الروح فى اتحادها، مثل مقابلة صورتين فى منشور(٤٤)"، محاكاة ساخرة حلت محل العودة إلى الواحد، فظلا حبيسَى نفسيهما، وذكر دوريل أنهما "توءمان ليس لديهما تاريخ مثل الأشخاص الأخرى، ويفتقر عالمهما إلى بُعد، ولدا فى تبعية أصبحت منكمشة- بما لها من حب، وانتصارات ومخاوف ــ داخل نطاق هذه التبعية، فأصبح الحب داخليًا، لأن الرغبة التى تنبع من هذا الحب رغبة مجحفة(٤٥).

يمكن للمرء أن يدرك فى هذا العالم المتقوقع على نفسه جوًا روحيًا وجنسيًا عقيمًا، وهو الذى أسماه دوريل الموت الإنجليزى **English Death**.، كما أنه يعبر عن وجه نظر دوريل الخاصة بالثقافة الغربية، التى أصبحت فى سعيها الحثيث خلف المذهب العقلى الخالص منفصلة عن الرؤية الصوفية للكل المطلق التى كانت تمثل لدوريل عالم الشعارات النبيلة **Heraldic Universe**، وباستخدام هذين التوءمين كمثال، وصف دوريل نسقًا مماثلاً؛ عالمًا أصبح منغلقًا، بحيث لا توجد أى رؤية للكمال أو للشمول أو للقبول أو لتجربة حب صادقة، وسيقوم بوصف الإسكندرية بهذه الطريقة فى النسخة النهائية من **جوستين**. "حيث حل محل المحبين الرمزيين من العالم الإغريقى الحر أشياء مختلفة، أشياء خنثوية لا تكاد تبين، كما أنها أسيرة نفسها (٤٦).

واكتشف دوريل من خلال فورستر أن "الإسكندرية المدينة الحلم، التى هى أساس وأصل لهذا الميناء المتوسطى غير ذى الشأن كما يبدو فى الظاهر لقليلى الخبرة (٤٧)، فهنا يمكنه تخيل جذور الثقافة الغربية القاطنة فى العقل الهاجع

للإسكندرية: "فالمدينة لا تفعل شيئا. حيث لا تسمع شيئا سوى ضوضاء البحر وأصداء تاريخ غير عادي" (٤٨).

لم يكن أفلوطين آخر أعظم فلاسفة العصور القديمة فحسب، بل كان نفاذ بصيرته الداخلية على أعمال العقل سابقًا لملاحظات الفلسفة الحديثة؛ فهو أول من كتب، على سبيل المثال، عن تشويه المرايا لتحقيق الرغبات، كيف "عندما تُستثار رغباتنا، يتقدم الخيال وكأنه، يقدم لنا أهداف رغباتنا تلك." ملاحظة كان لها تأثيرها القوى على فرويد Freud(٤٩)، كما كتب أيضًا عن التأثير القوى للذكريات الدفينة على حياتنا في اليقظة (٥٠).

وربما كانت هناك تيمة فرويدية في عقل دوريل بالفعل عندما خط عام ١٩٣٣ رسمه التخطيطي الخاص لخريطة بلومزبيري **Bloomsbury** مدونًا عليها "خطط لكتاب الموت". فـ "هوجارث" شخصيته في "**ملاحظات للإسكندرية** **"Notes for Alex**" يحمل اسمًا أصليًا من بلومزبيري، فقد أسس ليونارد **Leonard** وفيرجينيا وولف **Virginia Woolf** مطبعة هوجارث **Hogarth Press**، علاوة على ذلك، تم وصف (شخصية هوجارث) بأنه محلل، مما أدى إلى الربط بينه وبين مطبعة هوجارث، التي نشرت أول أعمال فرويد بالإنجليزية. كما أن هناك ارتباطًا آخر بفرويد في ذكر البارونة إرما **Baroness Irma**، التي وصفها دوريل في "**ملاحظات للإسكندرية**"على أنها أويدا **Ouida** (٥١)، الاسم المستعار للروائية الرومانسية من العصر الفيكتوري ماري لويس دى لا رامى **Maria Louise de la Ramee**، وهي إنجليزية؛ كما يحتمل أن يعني اسم إيرما أيضًا. لكن الاسم إيرما يلمح إلى **تفسير الأحلام** **"The Interpretation of Dreams"**، فمن أجل إثبات أن هذه الأحلام لها معاني وتكشف عن أعمال العقل الباطن، حلل فرويد حلما راوده بخصوص إحدى مرضاه كان قد أعطى لها الاسم المستعار إيرما. واعتبر فرويد أن هذا الكتاب،

الذى نشر عام ١٩٠٠، إلى جانب تفسير حلمه إيرما أفضل ما توصل إليه فى حياته حيث أصبح حجر أساس لطرق التحليل النفسى، والآلة العلمية الأولى للكشف عن العقل البشرى ومعالجته.

كانت الأحلام بالنسبة لفرويد بمثابة رسل من عالم اللاوعى الغريب، حيث يبحث كل دافع عن الإشباع بطريقة مستقلة عن بقية الدوافع. وحيث الأفكار متصلة ليست بالمنطق لكن بالتلازم، حيث يتم تجاهل المتناقضات وتنتعش المتقابلات، وحيث يتم معاملة السلبيات على أنها إيجابيات والمتشابهات على أنها متماثلات، وحيث يخضع كل شيء لسمة التغير. وتقدم الأحلام دلالات عن الصراعات الذهنية، التى تعد ذات مغزى بالنسبة لفرويد، الذى كتب فى مقدمة كتابه "**تفسير الأحلام**" "**The Interpretation of Dreams**" أن" أى شخص يفشل فى شرح أصل صور الحلم، ليس لديه أمل فى فهم (أمور) كالفوبيا (الخوف المرضي) أو الاستحواذ أو المخادعة أو أن يقدم تأثيرًا علاجيًا لكى يحتملهم. [٥٢]

وكانت شخصيات دوريل هى نفسها مثل الأحلام التى تحلم بها المدينة الحلم، وكان مغزى حياتهم غامضًا، وكتب فى "**مذاكرات للإسكندرية**"، "فى ظل سنة المنفى هذه كانت الإسكندرية وحدها حرة لكى تحلم: فى حين أننا لسنا أحرارا من أجل تسجيل أحلامها أو من أجل إمعان النظر إلى معانيها" [٥٣]. وسوف يصف دوريل هذا فى **جوستين**، على سبيل المثال، عندما تجتاح المدينة عقل نسيم بأحلام تتعلق بتاريخها، فيستيقظ كى يرى "آثار الأقدام الضخمة للذكريات التاريخية التى تمتد وراء ذكريات الشخصية الفردية" [٥٤]، ولذلك "عندما يحتل معرض الأحلام التاريخية طليعة ذهنه، فإن شخصيات أصدقائه ومعارفه الشخصية، الملموسة والحقيقة، تتحرك للخلف وإلى الأمام بينهم، بين أطلال الإسكندرية القديمة، شاغلين مساحة مكانيةً وزمنية مدهشة مثلهم مثل الشخصيات الحية البارزة [٥٥]. وجسبما

قال دارلى "فإن هذا يعد ضربًا من الجنون، و"بالمعنى الحرفى، فقد شارك جميعنا فيه" (٥٦)، حيث "يتحول الإنسان لمجرد امتداد لروح المكان " (٥٧).

وأضاف دوريل عنصرًا آخر لما سبق؛ نوعًا من قوة الجسدية النفسية الشاملة المطروحة فى "كتاب عظيم غير مكتشف، ألا وهو- كتاب جرودك **Groddeck**: "كتاب الفرد **The Book of the It**" (٥٨)(تشير كلمة **It** فى عنوان الكتاب إلى الإنسان بصفه عامة ويتناول الكتاب جوانب نفسية فى شكل أقاصيص. المترجم): وتذكر إيف أن "الذى ملأ كلامه فى هذا الوقت هو جرودك"، وكان جوتش **Gotch** يتذكر هذا أيضا قائلاً: "فعرفنى بجرودك، المبهر... خرجت واشتريت نسخة على الفور."، وعلى العكس من فرويد، الذى اعتمد مجاله على العلوم المادية، فإن المحلل النفسى الذى خلفه، جورج جرودك **Georg Groddeck**، كان صوفيا مسيحيا، يرى أن العلوم خادمة لوجهة نظره المضادة للتفكير العقلى، فمع تقبل نظرية فرويد القائلة بأن تحديد السلوك يتم على أساس الصراعات بين الوعى واللاوعى، يعتقد جرودك أيضا أن الإنسان عانى من رفض ذاته للعالم. وعندما يقول الإنسان "أنا أكون"يتخيل أن له حرية التصرف، وهو كذلك بالفعل بما يتيح له معالجة محن العالم عن طريق ممارسة إرادته. لكن طالما أن الإنسان، فى الحقيقة، لا ينفك عن الارتباط مع الكون، فلكى يبرئ نفسه عليه إقامة "علاقة بين الفرد والكون.... فإننا نفهم الفرد أكثر عندما نرى كل جزء من أجزائه كاملاً، ونقترب من إدراك مفهوم العالم عندما ننظر إليه (الإنسان) على أنه جزء من كل." (٥٩)

وعلى الرغم من أن شخصيات دوريل لا تدرك الحقيقة التالية؛ فإن حياتهم متلازمة مع المدينة التى يسكنونها، "المدينة التى تعاملنا على أننا نباتاتها، ترسب فى داخلنا صراعات (هى فى الأصل) صراعاتها، ونحن نظنها خطئا صراعاتنا: تلك هى الإسكندرية المحبوبة!(٦٠).

كانت هذه هى مقدمة الكتاب الذى كان سيصبح كتاب **جوستين** للورانس دوريل، وعلى الرغم من أنه لم يكتب منه غير ما يقارب أربعًا وعشرين صفحة، فإنه كان يتوقع أن يستنزف كل طاقاته، وكتب لميللر **Miller** فى سبتمبر يخبره بأنه "لم تكن لديه القوة الكافية من أجل العمل فى هذا الكتاب، حتى وإن كان لدى ما يكفى من الوقت "، وأضاف: "كم هو مؤلم أن تكتب بكل جهازك العصبى، فأنا أنكمش فى نفسى وأشعر بالإجهاد الشديد فى إعداد **الكتاب الأسود** " **The Black Book** وسيستغرق الأمر المزيد من الوقت كى أسترد قوتى مرة أخرى" (٦١).

وقبل أن يعود إلى كتاب الموتى **The Book of the Dead**، كان فى حاجة إلى تهدئة اضطرابه النفسى واستقرار أموره العملية، فقد حان الوقت لأن يتخطى الشعور بالغربة الذى كان ينتابه فى مصر، فضلا عن انقطاع علاقته مع نانسى وطفلته، وسرعان ما عاد إلى اليونان مرة أخرى، وحزم أمره فى أن يظفر بإيف؛ فأضاف العبارة التالية فى خاتمة إقراره بالامتنان فى **زنزانة بروسبيرو Prospero's Cell**: "إلى الآنسة واى كوهين **Y Cohen** لمساعدتها القيمة فى نسخ كتاباتى الخطية " (٦٢)، والواقع أن إيف لم تتول نسخ أى كتابات خطية على الإطلاق، بل إنها لم تدر، رغم زيارتها للبرج فى فيلا أمبرون **Ambron villa**، أن دوريل فى الساعات التى يختلى فيها بنفسه كان يخط كتابا عن كورفو **Corfu**، وكذلك كان جوتش أيضا يجهل الأمر برمته. وكان سبب إقرار دوريل بالامتنان هو أن يجعلها تبدو ذات فائدة فى مساعدته، إذ كانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع أن يركن إليها لاصطحاب إيف معه إلى رودس بصفتها السكرتيرة الخاصة به، وهذا إلى أن يتم أمر حصوله على الطلاق من نانسى ليتحرر ويصبح قادرًا على الاقتران بإيف.

وقد كان دوريل يشعر كيف سيكون مذاق الحياة إذا ابتعد عن إيف، التى عملت منذ أواخر صيف عام ١٩٤٤ ممرضة فى معسكر إدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل (UNRRA) خارج أبو قير باتجاه شرق الإسكندرية فى رعاية اللاجئين اليوغوسلاف، وكانت لا تعود إلى فيلا أمبرون إلا فى العطلات الأسبوعية فقط، وكانت هذه هى المرة الأخيرة - على زعم أن هناك غيرها - التى تسنح فيها فرصة لدوريل أن يخوض مغامرات بين نساء المدينة، وعلقت إيف على هذا الأمر قائلة: "تعاملت مع هذا الأمر بطرق متقنة بعيدًا عن التجريح، فنحن نساء الإسكندرية نتميز بأجيال من أساليب التعامل مع الرجال".

ووقع أخيرًا ما كانت إيف تخشاه؛ ففى يوم كانت تسير مع دوريل وفى صحبة بعض الأصدقاء وإذا بهم يقابلون والدها، فى أثناء سيرهم إلى معهد المجلس الثقافى البريطانى لحضور جلسة مناقشة للأفكار على الملأ. ودعا دوريل والد إيف لمصاحبتهم بين الجمهور الذى كان يطرح الأسئلة على نخبة من المثقفين أمثال آلان ويس **Alan Wace**، الذى شغل منصب أستاذ فى علم الآثار القديمة فى جامعة فاروق، ورأس جوين ويليامز **Gwyn Williams** الجلسات. وقد فُتن مويز كوهين **Moise Cohen** بما تميزت به الأمسية من تجديد وتنشيط للذهن، بيد أنه كان متحيرًا كيف وجدت ابنته طريقها إلى هناك، كما لم يكن يعرف كيف كانت تسير أمورها مع هذه الرفقة.

ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى قرر دوريل أن يعلن عن نيته، فدعا والدى إيف إلى العشاء كما اصطحب جونتش وبيلى معهما قائلاً: "وددت لو تمتدحانى، لأننى أرغب فى الزواج من إيف"وقمنا بذلك أنا وبيلى، واصطحبناهم إلى مطعم على الكورنيش بالقرب من فندق سيسيل، وتحدثنا معهما، ولم يبد عليهما ما هو غير عادى بأى صورة، ولم يغضبا من أن رجلاً إنجليزيًا ورفيقًا له من مواطنيه

يتحدثان عن ابنتهما، وقد كان والدها صريحًا معنا لأقصى درجة، وأنصتا إلى كل ما قلناه، بيد أن إيف لا تتذكر شيئا عن هذا تمامًا، ولا أعرف حتى ما إذا كان لارى قد أخبرها عنه".

وأدارت مصر ظهرها - فى شهر سبتمبر من هذا العام - للبحر المتوسط، وتعلقت أنظارها بالإسكندرية حيث استضافت الحكومة المصرية المؤتمر الداعم لقضية الوحدة العربية، وعزم مصطفى النحاس، رئيس وزراء أكبر دولة ناطقة بالعربية من حيث تعداد السكان، وأكثرها تقدمًا، على أن تتبوأ بلاده موقع الريادة على باقى الدول (كالمملكة العربية السعودية واليمن والعراق وإمارة شرق الأردن وسوريا ولبنان)، ومن أجل هذه الغاية اتفق هو والملك فى الحال، فالأمر بالنسبة لفاروق كان يعد بمثابة فرصة لأن يلعب الدور القيادى فى الشرق الأوسط الجديد الذى انبثق من الوصاية الغربية بعد الحرب، أما البريطانيون فقد كانوا يأملون فى التأثير على توجه حركة القومية العربية حتى تقف حائط صد أمام المد الشيوعى - ذى الجذور المستقاة من روسيا - فى المنطقة، فقام اللورد موين **Moyne**، الذى خلف ريتشارد كاسى **Richard Casey** كوزير للدولة (وزيرًا مقيمًا)، بتشجيع هذا الاجتماع، بل وفوق ذلك سهل إجراءات حضور الوفد العربى من فلسطين، واختتم الاجتماع بنجاح حيث تم التوقيع على بروتوكول الإسكندرية فى السابع من أكتوبر ١٩٤٤، ووضع الإطار العام لتأسيس جامعة الدول العربية، التى سيكون مقرها فى القاهرة.

وفى اليوم التالى قام الملك فاروق بطرد النحاس، وكان اللورد كيليرن **Lord Killearn**، فى إجازة مؤقتة فى جنوب أفريقيا، ذلك أن فاروقًا كان مصيبًا فى أن أسهم (شعبية) النحاس قد تدنت بدرجة كبيرة حتى إن البريطانيين لم يكلفوا أنفسهم عناء الإحراج فى التوسط بينهما. وبعد عودة كيليرن إلى القاهرة فى نوفمبر عقد

جلسة حوار مع فاروق الذى بدا "فى هيئة جيدة وكان سعيدًا بنفسه "، وتحلت المناقشة كلها بروح الود، ولكنى أنتهز الفرصة كى أؤكد أنه الآن قد حقق لنفسه المكانة الجديرة بتولى مسئوليات التدابير الجديدة ". (٦٣)

لكن الذى حدا بكيليرن أن يعود سريعًا للقاهرة لم يكن عزل النحاس، بل كانت واقعة اغتيال اللورد موين التى تمت فى السادس من نوفمبر، ووالتر إدوارد جينيس **Walter Edward Guinness**، المعروف بالبارون موينى الأول **Baron 1st Moyne** هو سليل العائلة الأيرلندية المشهورة فى إنتاج البيرة، وأحد أصدقاء تشرشل المقربين، وتذكر المصريون بموته فى الحال رد الفعل البريطانى القاسى الذى تلا اغتيال السير لى ستاك **Sir Lee Stack** فى عام ١٩٢٤ مما أجل قضية الاستقلال الوطنى لما يزيد عن عقد، ولذا كان هناك ارتياح واسع عندما أكدت الأخبار أن اغتيال موين تم على يد اثنين من الإرهابيين اليهود، أرسلا من فلسطين، وهما عضوان من منظمة شتيرن **Stern Gang** الإجرامية، تلك المنظمة التى كانت ترى أن الوجود البريطانى فى الشرق الأوسط أكبر عقبة فى سبيل تحقيق الدولة اليهودية.(٦٤)

وجاء اغتيال موين بمثابة صدمة لتشرشل كما أثار غضبه، واعتبر هذا وصمة عار للحركة الصهيونية وخيانة لبريطانيا. وكان تشرشل قد أخبر فايتسمان **Weizmann** على مأدبة غداء فى تشيكيرز (المقر الريفى لرئيس الوزراء البريطانى **Chequers**) - قبيل أيام من اغتيال موين- أن أقل تسوية يجب أن يقبل بها اليهود هى التقسيم بين دولتين عربية ويهودية، ولكنهم إذا استطاعوا "أن يحصلوا على كل فلسطين "؛ فسيكون هذا "أمرًا جيدًا "(٦٥)، ولكنه الآن أخبر مجلس العموم أنه "إذا انتهت أحلامنا بالنسبة للصهيونية على دخان مسدسات القتلة، وإذا لم تتمخض جهودنا لمستقبلها إلا من خلال ظهور عصابة جديدة من المجرمين جديرة

بالانتماء لألمانيا النازية، فإن كثيرين مثلى سيتعين عليهم أن يعيدوا النظر فى موقفهم الذى يتبنونه بشكل ثابت ومنذ أمد بعيد". (٦٦)

وتم إعدام قتلة موين فى نهاية مارس عام ١٩٤٥، بعد شهر من اغتيال أحمد ماهر، رئيس الوزراء الجديد الذى عينه فاروق، برصاص أحد الوطنيين المصريين المتعصبين. وكان ماهر قد أعلن فى البرلمان- بناء على نصيحة من تشرشل، وبدعم من الملك فاروق - عن نيته فى اشتراك مصـــر فى الحرب، لأن الانضمام للحلفاء حتى في هذه المرحلة المتأخرة من الحرب يمنح مصر الفرصة فى أن تكون عضوا مؤسسًا للأمم المتحدة، إضافة إلى أنها لن تستبعد من أى تسويات تتم بعد الحرب مثلما حدث عام ١٩١٨؛ عندما حرمت من مقعد فى محادثات باريس للسلام. ولكن ما كان يريده الوفديون آنذاك، رفضه بعض الانتهازيين منهم الآن، فبمجرد خروج النحاس من (رئاسة) الوزارة، انقلب الوفديون - وحدث ما كان يخشاه كيليرن - إلى ألد أعداء البريطانيين، وأعلنوا - بمساندة الإخوان المسلمين وبعض الحركات الوطنية المسلحة الأخرى - أن ماهرًا خاضع لإرادة بريطانيا، وفى خضم هذه الدوامة من الهستيريا الوطنية، دُفع بأحد أنصارها المخلصين، وكان محاميًا شابًا بمسدسه، وفى أثناء خروج ماهر من البرلمان، بعد لحظات من إعلان انضمامه للحلفاء، أطلق القاتل ثلاث رصاصات من مسافة قريبة، وأعلن بكل فخر أن هناك العديد من أمثاله على استعداد لمهاجمة أعداء الأمة المصرية.

ولم يكن اغتيال أحمد ماهر سوى البداية، ولمدة سبع سنوات تالية، ظلت حكومات تتهاوى أو تصاب بالشلل من جراء قنابل أو طلقات أو تهديدات، وتحول القتل إلى لعنة تصيب كل سياسى يتخذ موقفًا عامًا مع ما يمكن أن يعتبره المتشددون مواليًا للبريطانيين أو ضد مصلحة الوطنية المصرية. وأصبحت القضية الوحيدة التى

يجتمع عليها كافة الفصائل هى فلسطين، وأضحى فاروق - كما لاحظ اللورد كيليرن - "وقد حقق لنفسه المكانة الجديرة بتولى مسئوليات التدابير الجديدة".

وفى بدايات مارس من عام ١٩٤٥، توجه روبين Robin ورينيه فيدين Renee Fedden إلى برج العرب لقضاء بضعة أيام مع جاسبر Jasper وجينيفا برينتون Geneva Brinton، وتحدث فيدين عن رغبته فى الرجوع إلى إنجلترا فور انتهاء الحرب، ولكن بالنسبة لدوريل كان طريق عودته لليونان مازال مغلقًا، حيث يتحتم إخراج الألمان الذين حولوا دوديكانيسيا Dodecanese إلى حامية عسكرية بعد استسلام محتليها الإيطاليين هناك، من رودس بالقوة، وفى ذات الوقت كانت انتفاضة جبهة التحرير الوطنية (EAM) فى أثينا فى صدام مع البريطانيين "ومدافعين عن الأكروبوليس عمودا عمودا "، وكتب دوريل إلى ميللر، كنتيجة لما كان يعتبره - فى مرحلة مبكرة - سياسة بريطانية خاطئة وعنيدة تجاه المقاومة اليونانية؛ فقد كان دوريل يعتبر اليونان كائنًا حيًا من الأفضل أن يترك كى يستعيد عافيته بنفسه من حالة تخبط المذاهب الفكرية (التخبط الأيديولوجى) العابرة، ويستطرد دوريل فى خطابه لميللر قائلاً : "ويالها من حقبة عجيبة من التاريخ، وياله من نهاية لأصغر دولة فى أوربا، حيث تحارب الفاشية فى ميدان المعركة، وتصارع النازية داخل حدود الوطن، والآن تواجه رد فعل أناس لطالما أحبوهم وأعجبوا بهم إعجابًا شديدًا" (٦٧).

وظل دوريل محبطًا طوال فترة الشتاء ولكن "جيبسى Gipsy ظلت طوق النجاة "(٦٨)، ونجح هو فى استكمال المتاهة المظلمة The Dark Labyrinth، وهى رواية مثيرة تدور أحداثها فى جزيرة كريت، هذا على الرغم من أنه شعر "أنه سجين يكتب على حائط بمسمار صدئ حتى يحتفظ بقواه العقلية "(٦٩). وأخبر دوريل ميللر- بعدما أرسل النسخة الخطية إلى إليوت Eliot، وفيما يعد واقعة

وحيدة للمبالغة الرقيقة، قائلاً: "لقد انتهيت منها فى شهر" (٧٠) وأضاف "وبينما أنتظر أنا هنا حتى يمكن أن أسافر إلى رودس،...يقومون هم بتحرير الجميع فى كل مكان، ولكن سريعًا ما سيأتى دوري" (٧١)، كان الأمل يملؤه تفاؤلاً، وبعد مرور أسابيع قليلة أخبر ميللر بفرح أن مجموعته الشعرية **مدن وسهول وبشر Cities, Plains, and People** على وشك أن تنشر من (دار نشر) فابير وفابير **Faber and Faber**، وستتبعها **زنزانة بروسبيرو** بوقت قليل، ثم **المتاهة المظلمة**، أما **كتاب الموتى** والذى لم "أخط (والكلام لدوريل) فيه سوى بضعة صفحات.....فقد يستغرق ما يقرب من سنة كى أنتهى منه" (٧٢).

وفى هذه الأثناء "كشف النقاب عن عدة حقائق تتعلق بمجموعة سرية (أو صوفية) من أفراد ينتمون مباشرة لسلالة من الأورفيك **Orphics**، الذين انهمكوا طوال التاريخ الأوربى فى العمل فى شكل من أشكال الخبرة عبارة عن آراء خالصة لبيثاجوراس **Pythagoras**، وعددهم لم يتجاوز ستة أفراد أو سبعة فى كل حوض البحر المتوسط، وكانوا لا يعلمون شيئًا ولا يؤكدون على شيء، بل لم يكن هناك تواصل بينهم، فهم حكماء من عصر ما قبل المسيحية، وسوف أذهب لألتقى بالسيد بالتازيان **Mr Baltazian** أحد صغار المصرفيين هنا، لأعرف كل ما يتعلق بالدائرة والمربع فى يوم من الأيام" (٧٣).

وبهذه الطريقة كان دوريل يتعمد أن يسيل لعاب ميللر، فعندما كان يكتب له عن نساء الإسكندرية، كان هذا مثالاً آخر على جنوحه للخيال الجامح (الفانتازيا)، فلم يكن للأعضاء الأكبر سنًا من الطائفة الأرمينية بالإسكندرية أدنى معرفة بالسيد بالتازيان، ولكن هذا الاسم ظهر فى كتابات دوريل فى "**ملاحظات للإسكندرية**"، وتحول فى الحال إلى "بالتازار" "**Balthazar**"، وتمت إماطة اللثام عن الشخصية

السرية (الصوفية) فيما بعد، حين ادعى كارلو سوارز **Carlo Suares** أنه هو النموذج الذى بنيت عليه شخصية بالتازار فى الرباعية (٧٤).

وهذا لا يناقض اعتقاد روبرت ليدل **Robert Liddell** أن الأساس الذى بنيت عليه شخصية بالتازار كان جاستون زنانيرى **Gaston Zananiri**؛ فكما تقول إيف إن "لارى كان يقوم بجميع أنواع الأشياء؛ فكان يأخذ مقتطفات من شخصيات لأناس عدة ليصوغ منها شخصية واحدة، وكان يطلق على مجموعة من الناس اسمًا واحدًا فى حين أن لهم شخصيات مغايرة"، ولكن عندما يقوم بهذا، فقد يتحول إبداعه أحيانًا إلى حقيقة خاصة به؛ فقد ذكر دوريل لميللر أن السيد بالتازيان ربما كان واحدًا من هذه الإبداعات، وربما كان شخصية حقيقة بالنسبة لدوريل تمامًا كشخصية زنانيرى أو سوارز.

ولد كارلو جيوسيبى سوارز فى الأسكندرية عام ١٨٩٢ وكان يعرفه أصدقاؤه باسم جو وهو ابن إدجار سوارز **Edgar Suares** الذى ترأس الطائفة اليهودية فى الإسكندرية فى أثناء الحرب العالمية الأولى ومارس ضغوطا على بريطانيا لإقامة الوطن اليهودى فى فلسطين. كان كارلو مدير بنك سوارز الذى تملكه العائلة على الرغم من أنه لم يقم بعمل جاد فى البنك.(٧٥) فبعد التدريب لمدة ستة أعوام كمهندس معمارى فى باريس، مارس هذا العمل فى الإسكندرية والقاهرة ويافا لمدة أربعة أعوام فقط حتى عام ١٩٢٤. حتى ذلك الحين، تزوج من نادين تيلشة **Nadine Tilche**، التى تنتمى عائلتها إلى صفوة يهود الإسكندرية؛ كعائلة ميناسيز أو رولوز ويمكن تعقب وجودهم فى مصر منذ القرن السادس عشر. ومنذ ذلك الحين، كرس سوارز نفسه إلى التصوير الزيتى والكتابة والأيزوتيريك (علم الذات الباطنية) وأصبح صديقا حميما لكريشنامورتى **Krishnamurti** الذى لقبته

آني بيزنت Annie Besant، زعيمة الجماعة الثيوصوفية العالمية، وهو في عمر السادسة عشر، بالمسيح المنتظر.

ولعل اهتمام دوريل بالشخصيات النادرة وولعه بمفهوم الأيزوتيريك esoteric (كل ما هو خفى أو سري) هو الذى قاده بوسائل عدة إلى أن يتردد على بيت سوارز فى شارع بورشجريفنك فى حى سابا باشا، وعلى نحو غريب، كانت هناك ثمة صلة تربط بالفعل بين سوارز ودوريل؛ ففى عام ١٩٣٧، بعد تسلم نسخة دوريل الخطية لمؤلفه **الكتاب الأسود** من كورفو، كتب ميلر قائلا: "هناك نسخة فرنسية غريبة تشبه كتابك صادرة فى مجلد يطلق عليه **La Procession enchainée** بقلم كارلو سوارز أقوم بقراءتها الآن"[٧٦]- واستخدم كلمة "فرنسية"لأن الكتاب تم نشره فى عام ١٩٣٤ فى باريس، وإلى جانب منزله فى حى الرملة (وحتى اندلاع الحرب كان له منزل آخر فى شارع النبى دانيال)، احتفظ سوارز بشقة أخرى بالقرب من برج إيفل. وظهر السيد كوكو **Monsieur Coucou**، إحدى الشخصيات فى أعمال سوارز الأولى، مرة أخرى فى **La Procession enchainée** حيث مثّل صيحة الثورة وندم الضمير الكامن فى أعماق البشر، وعبر قائلا: إنه إذا تعين عليه إعطاء معنى لكلمة "الروح"لن يجد سوى كلمة "الرغبة". ويسعى السيد كوكو لبلوغ الكمال ويعنى بها تحرير الرغبة: "إن التهذيب الوحيد الذى تحتاج الروح إليه هو إفساح مجال لكافة الرغبات ومن ثم فإن الرغبات الحقيقية إلى حد بعيد تكبت غيرها حتى تحرر الروح الرغبة الأساسية المنفردة والتى هى من جوهرها"[٧٧].

وتظهر الفكرة التى يتبناها السيد كوكو فى "**ملاحظات للإسكندرية**" التى كتبها دوريل، وفى رسائله بالتزامن مع رحلاته بالترام إلى حى سابا باشا ومحادثاته مع سوارز. فى نفس الوقت الذى كان يكتب فيه دوريل إلى ميلر عن السيد بالتازيان،

أرسل أيضا بريدًا جويًا فى ٢ أبريل إلى ديانا جولد قال فيها: "لقد قمت بإعداد ملاحظات عن الكتاب الخاص بالموتى والذى سوف يعد عن (أ) سفاح القربى، (ب) الإسكندرية، (ج) السحر المتعلق بالكيمياء القديمة. لقد قمت بدراسة مذهب القبلانيين المعاصرين واستنبطت منه فلسفة الانغماس الذاتى السكندرى فى شكلها المحسن، وعبرت شخصية المفتش الكبير فى روايتى قائلة: "ما يتعين على أن أقدمه للعالم ليس الأخلاق ولكن الجمال، حيث إن كافة الأديان تعنى بمنع السلوك الإنسانى أو استبعاده أو تطهيره، وتتضمن مبادئ الجمال لدى ما يلى: أن لدينا الهدف ذاته: التبرؤ من الحسد والطمع والرذائل الأخرى فى الطبيعة البشرية. أنا أعبر قائلا: أشبعها ولكن طهر نفسك، وارتق بها من خلالهم، وبالتالى ستطهرهم أيضا. مارس التجربة فى المختبر. لا يمكن أن تظل الخطيئة على حالها إذا شربت بهذا المبدأ الذى أطلق عليه اسم المبدأ المبشر. حيثما تراودك الرغبة فى التغلب عليها، أطلق العنان لها بعض الشيء ونقها وطهرها ولكن لا تمنعها مطلقا حيث إن الممنوع مرغوب بطبيعته" (٧٨).

وفى "**ملاحظات للإسكندرية**"التى عاد لها دوريل بعد إرسال نسخته الخطية من كتابه **المتاهة المظلمة** إلى إليوت، كرر السطور الأخيرة من خطابه بالضبط، إذا كان لأحد أن يضع وصفًا، فهو "السيد بالتازيان"والذى سيعاود الظهور فى الصفحتين التاليتين بصفته "بلتازار".(٧٩) فى نهاية الأمر يتضح ذلك فى رواية **جوستين** حيث يعبر بلتازار قائلا: "وضعت الأديان العظيمة كمًا هائلاً من المحظورات ولكن هذه المحظورات تشعل الرغبة التى من المفترض أن تعالجها. وفيما يخص هذه القبلانية يمكن أن نعبر قائلين: أشبع رغباتك ولكن ارتق بها وطهرها" (٨٠).

ولكن ما من شيء فى هذا يمت بصلة لأتباع أورفيوس أو فيثاغورس أو حكماء ما قبل المسيحية أيا كانوا. ولكنه وثيق الصلة بأحد أصدقاء سوارز ويدعى

كريشنامورتى، وقد كان ضيفًا له خلال زيارات متكررة وطويلة لكارلو ونادين فى حى سابا باشا، وفى الدائرة السابعة بباريس. وعلى الرغم من أن كريشنامورتى انفصل عن المجتمع الثيوصوفى فى عام ١٩٣٠، ويرجع ذلك بشكل أساسى لأنه وجده مجتمعا مستبدا ممزقا بالتكبر والغيبة بين الأحزاب التى تدعى أنها فئات مختارة، فإنه ظل ثيوصوفيا بالمعنى العام للكلمة ومتمسكا بفكرة أن الانسان يمكنه استقاء خبرة مباشرة وفورية من الإله، بيد أنه (الإنسان)، سعى بشكل معاكس للحرية أو الخلاص من خلال وسيط؛ فرفض أن يجتهد لتحرره الشخصى مدعيا أن العالم يجب أن يتحرر أولا. ورد كريشنامورتى بأن مشاكل العالم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمشاكل الفرد؛ (فـــ) هدئ من مخاوفك، واشعر بجمال كل تجربة تمر بها، واستمر فى أمنياتك وتخل عن مفهومك الضيق للهوية ومن ثم تستوعب كافة التجارب التى مررت بها وتضعها فى بوتقة واحدة، وعندها سوف تجد أن الحقيقة دائما موجودة وأن الخلود يتمثل فى هذه اللحظة بالذات. وأهدى سوارز نسخة من كتابه **كريشنامورتى**، والذى نشر فى باريس عام ١٩٣٢، إلى دوريل الذى وصفه بأنه ممتاز.

وكذلك جاءت فكرة دوريل عن حكماء مجموعة قبلانى البحر المتوسط من سوارز، التى تجاوزت اهتماماته خلال الثلاثينيات ما بعد كريشنامورتى، وولجت إلى عالم الصوفية اليهودية التى كانت فى مهد نهضتها. نقب سوارز على وجه التحديد عن سفر التكوين وهو وصف القرن الثالث للطريقة التى خلق الرب بها الكون، وكتب ناظمو الترانيم المقدسة: "بكلمة من الرب صنعت السموات، وبنفخة من فيه ملأ جميعها"[٨١] ومن ثم يدعى سفر التكوين أن التعبير الإلهى تضمن كافة الحروف الأبجدية للغة العبرانية والتى بتركيباتها المختلفة تكون اللغة المقدسة؛ لغة الخلق، ويخصص لكل حرف رقما ما، وعندما يدونون جميعا يشكلون الأدوات التى

خلق الله بها الكون بهذا التنوع الذى لا ينضب. بالنسبة للقبلانيين، فإن هذا النسق لنظم اللغة والأرقام سوف يكشف لهم المعنى الحقيقى، والوحى الحقيقى المتضمن فى هيئة شفرة داخل سفر التكوين والنصوص المقدسة الأخرى، ولكنها تعد أيضا وسيلة لكشف هيكل الطاقة الكونية. ويرى سوارز أن انطلاق هذه الطاقة تضمن التجاوز والترفع عن الخطايا السبع المهلكة والتى يمكن تعقب أهميتها الحقيقية حسبما يعتقد بالرجوع إلى أصل مذهب العرفان ولتحقيق فهم الذات الكامل. وقد عبر سوارز قائلا: إنه من الضرورى معرفة الطاقات الكامنة فى هذه "الخطايا" وقيمها الحقيقية، ومن ثم يمكن التحلى بالمقدرة على دمجها فى الذات.

لقد كانت لعبة ألغاز تبدو وكأنها إلهية، ولكن دوريل اعتقد فعليًا أن سوارز قد تجاوز كافة الحواجز أثناء كتابته لكتاب **كريشنامورتى**، واعتقاده الآن أنه إله. وفيما يتعلق بذاك الأمر، وليوضح أنها مسألة أذواق، رأى دوريل لوحات سوارز الزيتية المرسومة على قماش الرسم - والتى رسمها يوما ما استنادا على النظرية الثيوصوفية للألوان - مروعة، ولكنه كان يستمتع بحماس سوارز الطفولى وبراعته ولطفه والدفء الذى يترعرع داخله، وقد كان من الممكن أن تصبح نادين امرأة جبارة ومتعجرفة ولكنها كانت تبجل زوجها وتتغاضى عن خياناته الكثيرة مع رفقاء من كلا الجنسين، فكانا يرحبان سويًا بزوار منزلهما فى حى سابا باشا ويضيفانهم بأحسن ما تكون الضيافة.

ألهم سوارز وحروفه الأبجدية العبرية الملغزة دوريل بفكرة **جوستين** فى مجموعة بلتازار القبلانية وقيامها بالاستبدال مع الفلسفة المتعلقة بالكيمياء القديمة المكتوبة باللغة اليونانية بالأسلوب المحراثى. وبالرغم من الإشاعات حول عمل سوارز لحساب المخابرات الفرنسية، وحيث إن المعتقد المتمثل فى أن علاج التشوش الروحانى لليهود سيداوى عند عودتهم إلى بيت المقدس، هو أساس مذهب

القبلانية القرون الوسطى ... وعلى الرغم من ذلك لم يكن هناك أى مؤشر على أن اجتماعاته في حى سابا باشا كانت حجابا لأنشطة صهيونية، فكان ذلك من نتاج خيال دوريل الذى قرر بعد إكمال **جوستين** أن يطيل روايته **كتاب الموتى** لتصبح رواية سياسية مشوقة.

طرأ تغيير على "**مذكرات للإسكندرية**" عندما استمر دوريل فى العمل فيها خلال الربيع، حيث تبدأ الإسكندرية فى الظهور بنكهة تميزها عندما يعطى أسماء إلى شوارعها ويستبدل شخصيات روايته الأصليين من المغتربين البريطانيين بسكان من مختلف أنحاء العالم، وكان بلتازار من بينهم؛ فأصبح جون فابر جون ماسون ولاحقا جون ماكون الإنجليزى الفرنسى بلا تردد، ومن ثم نرى "كلوديا ماكون بين ذراعى أخيها"[٨٢]. وعلاوة على ذلك، يقدم دوريل شخصية جديدة يعرفها فقط بالضمير "أنا"ولكن من الآن فصاعدا "أنا"، سابق دارلى، [٨٣] سوف أتلو القصة، ومن خلال ذاكرته"سوف يدخل ثانية المدينة التى لن تغيب عن الذاكرة ويعيد السكن فيها" [٨٤] كما عبر فى رواية **جوستين** وهو يسجل خبراته "ليس بنفس الترتيب الذى وقعت به– فى التاريخ– ولكن بالترتيب الذى شكل أهمية بالنسبة لي"[٨٥] . وبتبنى هذا المنهج الجديد فى كتابة قصته، أقلع دوريل عن الكتابة بالقلم الرصاص وكتب بالحبر وثقة أكبر تغمره، كما سيستمر فى ذلك مع بعض الاستثناءات القليلة طوال كتابة "**مذكرات للإسكندرية**" وفى كافة الكتب التى تلته.

طرأ آخر تغيير مهم بعد صفحتين عندما اختفى جون ماكون وشقيقته التوءم من "**مذكرات للإسكندرية**"، أو لنقل إنهم على الأرجح تعرضوا لتحول آخر: وبقلب أسماء ماسون أو ماكون، اخترع دوريل شخصية نسيم الذى سيقدم فى الصفحات القليلة القادمة مع زوجته جوستين. ومع ذلك فنسيم وجوستين توءمان إذا جاز التعبير "زواج رهيب لحيوان برأسين" [٨٦] كما سيتضح فى **الرباعية**.

جورج ميناشا، فى الأربعينيات. كرس جورج نفسه لتجميع الأشياء الجميلة. ويمكن أن يطبق شعاره "circumspice" على العادة التى يمارسها ألا وهى تجميع الناس وكذلك على موهبته فى العلاقات الغرامية السرية.

التقى كل من تشرشل وروزفلت وستالين فى يالطا فى فبراير عام ١٩٤٥. على الرغم من أن جيوش الحلفاء الغربية لا تزال رابضة فى الراين، فى حين يحتل الجيش الأحمر أوروبا الشرقية برمتها ويبعد ثلاثين ميلا عن برلين، فإن السؤال الذى يلوح فى الأفق هو ما الذى سيفعله ستالين بعد انتهاء الحرب. كتب تشرشل إلى زوجته "إن التعاسة التى ستجابه العالم بأكمله تروعني"، "وأخشى على نحو متزايد من الصراعات الجديدة التى ستبدأ من حيث ننتهى الآن والنجاح حليفنا"(٨٧).

بعد المؤتمر أتى رئيس الوزراء والرئيس إلى مصر، حيث لاحظ جوسى بريتون أن "تشرشل بدا أسمن من أى مرة وبدا فاروق بدينا كما كان دائما"بينما "بدا روزفلت متعبا للغاية"(٨٨)، وبعد أقل من شهرين، فى ١٢ أبريل، كان جون وجوسى برفقة الملك فاروق عندما استلم برقية: "قرأها ثم قال بالفرنسية، "سيداتى سادتى يؤسفنى بشدة أن أعلن وفاة رئيس الولايات المتحدة". لم نصدق آذننا، لقد كان حزينا للغاية حيث إنه كان من أشد المعجبين بروزفلت"، وألقى القاضى برينتون خطبة فى الصلاة التى أقيمت على هذه الذكرى فى كنيسة سانت مارك المزدحمة فى الإسكندرية، ورغم أنه قد طلب منه قبل ذلك كثيرًا أن يوجه خطابا بمناسبة وفاة الزملاء "ولكن هذه هى المرة الأولى التى تمكنت فيها من التحدث بالإنجليزية فى مثل هذه المناسبة. وأنا أشعر بالراحة لأننى عبرت عن مشاعرى هكذا. فهذه الأفكار يجب التعبير عنها باللغة التى يتكلم بها الفرد"(٨٩).

في يوم وفاة روزفلت، أصيبت خطط كتابة دوريل باضطراب وتشوش. كتب إلى ديانا الأسبوع السابق "سوف أذهب إلى صومعة بيضاء صغيرة على جزيرة زرقاء صغيرة بصحبة فتاة صغيرة ذات شعر داكن" (٩٠)، معتزما أن ينهى كتاب الموتى فى جزيرة رودس، ولكن فى اليوم الثانى عشر، وصل بريد جوى من إليوت يرفض فيه المتاهة السوداء معبرا فيه قائلا بأحرف كبيرة "إن هذه الرواية تشبه القدر المغلى المليء بقدر لا يحتمل من اللحم ولكن اللحم لم يُطْهَ جيدا "ثم أضاف قائلة "هل أنت شاعر فى المقام الأول أو أنك كاتب نثر؟ هل تعلم ماذا تود أن تصبح؟(٩١).

ولم يجب دوريل على سؤال إليوت، وهو ما يعد علامة أكيدة على أن دوريل قد انزعج كثيرا منه، لكنه فى الوقت ذاته تقبل نقد إليوت لرواية "المتاهة المظلمة" أو"The Dark"Labrinyth"، موضحا أنه قد كتبها فى عُجالة لكى يحصل على مال يساعده فى دفع نفقات الطلاق، ومضيفا أنه لم يجل بخاطره أن مراجعته عملية تستحق كل ما استغرقته من وقت وجهد. غير أنه لم يكن باستطاعة دوريل فى حقيقة الأمر أن يترك الرواية على تلك الحالة، حيث قرر أن يُعيد كتابتها عند عودته إلى مدينة رودس باليونان، ويعيد كتابة حبكة القصة مع إضافة العديد من الشخصيات الجديدة، من بينها المحلل هوجارث، والذى كان عرضة للتجاهل من "ملاحظات إلى الإسكندرية".

وعندما حصلت مدينة رودس على استقلالها فى الأول من مايو، بدا فى الأفق قرب هروب دوريل من "ثورة وإزعاج الإسلام"(٩٢) ومن "بؤسنا وشقائنا الطويل فى مستنقعات بحيرة مريوط"(٩٣). واستسلمت ألمانيا بعدها بأسبوع لتنتهى الحرب فى أوروبا. وبدأت إطلالات الوداع تتوالى على الإسكندرية عندما تم إرسال بول جاونش من قبل المجلس البريطانى إلى مدينة ثيسالونيكى فى شمال

اليونان، وفجأة فَرغت الغرف التى كان يملؤها هو وزوجته وأولاده فى فيلا أمبرون، وأصبحت ساكنة بلا حراك.

وفى النهاية، تلقى دوريل تعليمات بزيارة مدينة رودس "من أجل معاينة المباني"، كما قال ذلك للسيدة إيف، وكان يعمل مسئولاً للاستعلامات العامة بوزارة الإعلام تحت إدارة الجيش البريطانى، والذى كان ليحول السيطرة على جزر دوديكانيز من الحكم الإيطالى إلى الحكم اليونانى. وفى مساء يوم ٣٠ مايو وفى جو من الترقب والانتظار المشبوب بالريبة والشك، أبحر دوريل من المرفأ الغربى فى بارجة كبيرة لإطلاق الصواريخ، وشعر وكأنه النبى يونس عليه السلام وهو فى بطن الحوت.

وعندما عاد إلى الإسكندرية بعدها بعشرة أيام، وعندما شعر أنه من الممكن أن يعود لماضيه فى اليونان، كتب دوريل إلى ميلر أنه وجد الجزيرة "جميلة على نحو شبيه بمدينة كورفو".(٩٤) غير أنه بعد مرور أكثر من أسبوعين على عودته إلى الإسكندرية، وقبل تأكد إرساله إلى رودوس، لم يكن حرا إلا فى تلك اللحظة لأن يقدم خياراته للمساعدين الاثنين بالمكتب واللذين كانا بحاجة إلى مساعدتهما. وكان على إيف أن تذهب لمقابلات شخصية فى وزارة الإعلام بالقاهرة، مسلحةً فى ذلك بسيرة ذاتية تعج بالخبرات من إعداد دوريل، وكان قد قدمها على أنها صحفيه ومتخصصة فى علم اللغة وتتمتع بمهارات ممتازة فى مجال الطباعة، حيث قالت إيف "بل إنى أحضرت أيضا نظارة لتبدو بفاعلية، وتم تدريبها تدريبا جيدا وقالت كل ما هو صحيح ومناسب، كما كانت تحمل التوجه الملائم، وتم تلقيها بالفعل بقدر كبير من الحماس من قبل الأفراد الذين قاموا بإجراء المقابلات معها"، وتم تعيين إيف سكرتيرة إدارية لدوريل فى رودس.

وأعقب ذلك أن احتاجت إيف الحصول على أوراق سفرها، غير أن الحكومة المصرية أعلمتها حينئذ أنها ليست مواطنة مصرية، ومن ثم لا يمكن منحها جواز سفر؛ فقد كانت سيدة لا وطن لها مع أنها كانت تعيش فى وطنها. ولم تحاول الحكومة المصرية أن تحدد طبيعة المصريين عن غير المصريين إلا فى عام ١٩٢٩ مع التأكيد بأنه من الرعايا السابقين للإمبراطورية العثمانية فى مصر منذ عام ١٩١٤، وكذلك أبناء الأجانب المولودين فى مصر، شريطة أن يتقدموا للحصول على حق الجنسية المصرية فى خلال سنة واحدة من تاريخ بلوغهم سن الرشد وتركهم لمواطنتهم الأجنبية. ولم تتقدم إيف أو أى من والديها بطلب للحصول على الجنسية المصرية، كما لم يتقدم كثيرون من الأفراد الآخرين الذين كانوا يعدون مصر وطنا لهم. وحتى إذا حدث أن تقدموا للحصول على الجنسية، فقد كان الحصول على أوراق الجنسية بالغ التكلفة، وهو ما لم يكن بمقدور الأفراد غير ميسورى الحال أن يقوموا به، فى حين أنه فى الأربعينيات، بدأت الحكومة تفرض قيودا على إجراءات الجنسية بالنسبة لغير المسلمين مهما كانت درجة أهليتهم من الناحية القانونية لذلك.

ولم تكن الإمبراطورية العثمانية تُميّز رعاياها من خلال جنسيتهم، بل كانت تميزهم من خلال دينهم، فأجابت الحكومة المصرية على طلب إيف بنفس الطريقة، إذ أخبرتها أن عليها أن تحصل على إذن من الحاخام الأكبر فى القاهرة قبل إصدار جواز سفر. ومن جانبها، طالبت الحاخامية بالحصول على إذن من مويز كوهين، وتقول من ثم "تمكنت من أن أُقنع والدى بكتابة خطاب، يتحدث فيه عن سعادته البالغة إذ سمح لى بالرحيل، وهو ما لم يكن صحيحا على الإطلاق، بل جاءت هذه الموافقة لأننى التى كتبت له خطابا شريرا أخبرته فيه أنه لا يهم ما ستكتبه لأننى ذاهبة على أية حال! ولذلك، فلم يكن أمام هذا المسكين إلا أن يكتب لى بالموافقة،

ولابد وأنه كان ينزف الدم بعد أن نفدت منه الدموع من بأسه وهو يكتب هذا الخطاب، ومن ثم اعتقدت أن الأمور تسير على ما يرام، ولم أعتقد شيئا بعد ذلك"– وكانت الحاخامية تريد تصديق توقيعه.

وفى نهاية المطاف، أرسل دوريل السيدة إيف إلى صديقه برنارد باروز، السكرتير الأول بالسفارة. لذلك عدت إلى برنارد وقال لى: "حسنا، ليس من المفروض أن أقوم بفعل ذلك"، لكنه وقع على الخطاب شاهدا بأن السفارة قد أقرت التوقيع على أنه توقيع والدى. وعدت إلى الحاخامية معه ومع هذه الأختام المؤثرة، وبعد وقت طويل وافقت الحاخامية، تقول: "وهكذا، أمكننى أن أغادر البلاد."

وقد حول دوريل الحادث ببراعة وانتقل إلى الحديث عن جوين ويليامز، قائلا: "لقد انفصلنا فى ظل ظروف حظ عاثر"، رغم أن هذا الأمر استغرق "كل صورة من صور التلاعب التى يعرفها البشر"، وتتضمن "السفارة والجيش وأفراد جماعة الكويكرز والبشوات".(٩٥) غير أنه كان غاضبا بدرجة أدنى من عمل الحماقة، وقد كلفه الحرمان من إيف كثيرا، وهو ما لام المصريين عليه، إذ يقول: "أشعر وكأننى أحد رجال الحملة الصليبية عندما أفكر فى مصر"، وكتب بعد ذلك إلى ميلر من مدينة رودس قائلا: "أود لو أضع أحد فيالق الجيش فى البلاد وأن أذبح جمعًا غفيرًا من هؤلاء الأوغاد المتعجرفين المصابين بالجذام!" (٩٦).

وبعد ظهر أحد الأيام وقبل رحيلهم إلى الإسكندرية، نادت إيف على دوريل فى مكتب الاستعلامات البريطانى؛ فقد كانت تريد شراء حذاء، ولذلك فقد مضيا معا فى التسوق بطول شارع طوسوم. وأمرته فجأة بأن ينتظر، واندفعت عبر الطريق. وكان ما حدث هو أن رأت روجيرو وعرفته من ظهره، وقالت: "وهكذا، أكنت تظن أنك ستمر على بدون أن تقر بأنك رأيتنى؟"رد عليها روجيرو، الذى كان لتوه قد تم إطلاق سراحه من السجن، بقوله إنه كان يزور والدته للتو، وإنه لم

يذهب قبل ذلك، وكان الذهاب إلى هناك هو المنهاج المتبع فى طلب يد إحدى الفتيات للزواج، وهو ما فهمه كلاهما غير أنهما لم يفصحا عنه. وسألها "أهو أمر جدي؟" وهو ينظر إلى دوريل. فأجابته قائلة "بالغ الجدية، فنحن ننوى الزواج". وكانت هذه هى آخر مرة رأت فيها روجيرو قبل أن ترحل. وقالت" إنك لم تفهم أبدا أننى مُلزمة بالرحيل عن مصر." فسألها قائلا: "لماذا؟"، وهو مندهش من طلب أى فرد الرحيل عن البلاد. فأجابته إيف: "ألا ترى أن الجميع يعتزمون الرحيل؟".

وفى الوقت الذى أبحر فيه دوريل وإيف من المرفأ الغربى، شعر وكأن "سحابة تتقشع":[٩٧] السبب فى ذلك أنه كان سيعود إلى اليونان. ومع كل ذلك، بقى شعر كفافيس يجول برأسه، لكنه لم يعد "ينتظر البربر". وبدلا من ذلك، ففى "مذكرات للإسكندرية" **Notes for Alexandria**"[٩٨]، ترجم دوريل المدينة **The City**، والتى أطلق عليها كفافيس اسم "الأثر الحقيقى للإسكندرية الحديثة": حيث قال:[٩٩]

لا توجد أرض جديدة، يا صاحبى، لا

لا يوجد بحر جديد، لأن المدينة ستقتفى أثرك،

ستتجول فى نفس الشوارع بلا نهاية،

وتنسل ضواحى الروح ذاتها من الشباب إلى المشيب،

وتصل فى نفس البيت إلى حالة الشحوب فى النهاية

والمدينة سجنٌ

ولا توجد أماكن أخرى،

فدائما ما تكون هى بركك الأرضى،

وليس ثم من سفينة تنجيك من نفسك التى بين جنبيك[١٠٠]

وكتب دوريل إلى جوين ويليامز من رودس، "أنا فى غاية السعادة.".[١٠١] ولم يتحرك بنفس طريقة السيد كوى هذه المرة: وبدت السعادة واضحة فى خطاباته الآن، حيث أصبح لديه من جديد "امرأة وجزيرة وشجرة". [١٠٢] وقد شاركته إيف ما يشعر به من سعادة، حيث تقول: "كانت مدينة رودس فى تلك الأيام مكانا ساحرا وفاتنا. وكانت لدينا، وكانت جزيرتنا. وكان ذلك شهر العسل بالنسبة لنا، وأسعد الأوقات التى شعرنا بها أنا ولارى معا". كما لم ينته ما يشعر به دوريل من سعادة مع إيف فى رودس من خلال كل ما تلاه من أحداث؛ فعندما عاد لزيارة الجزيرة بعد مرور ٣٠ عاما، قال: "كان هذان العاملان أسعد سنوات حياتى على الإطلاق"[١٠٣].

أما بالنسبة لجوين ويليامز فقد أصبحت الإسكندرية "فارغة وقبيحة تعج بالأشباح" [١٠٤] وذلك عند عودته لمنصبه فى جامعة الملك فاروق فى خريف ذلك العام بعد قضاء إجازة فى بريطانيا. فقد تفرق أغلب أصدقائه وقت الحرب، فمنهم من عاد إلى بلاده أو من عبر البحر المتوسط، وخلال السنوات التالية، كان يشاهد مع اتخاذ البلاد الطابع المصرى، "ليس من خلال الحى المصرى للطبقة العاملة، بل من خلال القاهرة الرسمية"، [١٠٥] حتى أصبحت مكانا مختلفا تمام الاختلاف، إذ إنه أقل فكرا وأقل انحطاطا، وأقل تحضرا" [١٠٦].

وكان المنزل المليء بالصخب فى شارع الرصافة قد أصبح فارغا. فمع وفاة زوجها ورحيل ابنها، جان الراهب الدومينيكى، الآن إلى فرنسا، ترددت روزيت دو ميناس بشكل متكرر على جناحها المفضل فى فندق سكرايب بباريس. وكان ابن زوجها، ويدعى جورج دو ميناس، يحول ماله إلى الخارج، كما كان ينقل بالتدريج أحجاره الكريمه وخزفه الصينى وكل ما لديه من مجموعته إلى خارج مصر، بمساعدة البروفيسور آلان واس، الذى رتب جزءًا منها لأن يتم نقله إلى

متحف فيتزيليام فى كمبريدج. لكن كان على واس، الذى كان لا يزال يعمل فى المخابرات البريطانية، أن ينأى بنفسه عن ميناس بعد أن علم من السير والتر سمارت فى السفارة أن صديقهم كان ينفق الكثير من ماله على تهريب اليهود إلى فلسطين [١٠٧] .

ومع ذلك، كان يمكن أن نعذر أى فرد حضر إلى حفل العشاء الذى أقامته الجمعية الأثرية الملكية فى بودروت، فى يوم الأحد الموافق ٢٦ يناير ١٩٤٦، على مراودة فكرة تقول بعدم تغير شيء من الأمر البتة. وبعد فيليت دو بويزون فيردى وتورنيدوس هينرى الخامس، جاء عرض للحياة القديمة فى الإسكندرية على النحو الذى صوره ثيوكريتوس فى الأنشودة الخامسة عشر. وقد خصص كلاير فينسيندون الملابس للطاقم، وتضمنت ابنته البالغة من العمر ٢٠ عاما فى دور براكسينوى. وقد قدم الملك بطليموس فلاديلفوس وزوجة أخته الملكة أرسينوى خدمة جليلة لحفل أدونيس فى القصر الملكى.

على حين عمل جورجو وصديقه براكسينوى على تمهيد طريقهما عبر الشوارع المزدحمة فى الإسكندرية القديمة، مشتكين من الحشد المحتشد من اليونانيين والمصريين والسوريين واليهود، ويمكن للمشاهدين أن يتخيلوا المنظر بسهولة فى المدينة الحديثة. وبمجرد الدخول، كانت البهجة تعم كافة الأرجاء، وينتشر بالقصر أنسجة مزدانة فائقة الجمال تزدان بالمشاهد الحية، ويتعجب براكسينوى قائلا:

يا له من فن يظهر حتى فى النسيج!
فالأشكال تنبض بالحياة، ولا تبدو وكأنها نُسجَت أو حيكت.
تقف وتتحرك مفعمةً بالحياة، فيالَبراعة الإنسان![١٠٨]

الأمير نيكولاس رومانوف، وريث العرش الإمبراطورى فى روسيا، والسيدة جيلدا أمبرون (فى المنتصف) والكونتيسة مارى دو زوغيب (على اليمين) فى صورة لهم فى أثناء وجودهم بالإسكندرية. وتلا ذلك أن تلقى، فى أثناء وجوده فى رودوس، أنباءً عن وفاة جيلدا فى حادث طائرة، وكان ذلك بمثابة إسدال الستار عن الإسكندرية التى كان يعرفها.

وكان الكثير ممن نزلوا فى فندق بودروت فى ذلك المساء قد تذكروا كيف تحدث فورستر فى عمله "الإسكندرية"عن الأنشودة الرعوية الخامسة عشر قائلا: "لا يمكن لنا إلا من خلال الأدب أن نستعيد أحداث الماضى، وأن نستعيد ثيوكريتس فى حالتنا هذه، الذى يستخدم ببراعة السحر المضاعف للواقع والشعر، فى خلق مدينة بالكامل من الموتى وملء شوارعها بالرجال." (١٠٩)

وبعد شهور قصيرة من تأليف الأنشودة الرعوية الخامسة عشر، تركت كلود المدينة فجأةً. كانت تعمل سكرتيرة للسيد تيم فوردى، وهو رجل أيرلندى متزوج يعمل مزوداً للأسطول الملكى بالطعام فى المرفأ الغربى، وحملت منه. يقول جاكى ماواس، ابن عم كلاودى: "كان يكبرها سنا، ولم يكن حسن المظهر، وكان فظًا غير جذاب ، كان طيبًا، لكنه لم يكن الرجل المناسب لهذه السيدة الرقيقة الجميلة". ولدفع كل اتهام يوجه إلى مجتمع الإسكندرية، اتخذت كلاير فينسندون الأمور فى يديها، وكانت ترسل كلاود إلى لندن، وهناك عملت ملحقًا صحفيًا للسفارة الفرنسية قبل أن تضع مولودة سمتها ديانا فى نوفمبر ١٩٤٦. وقد استغرق الأمر وقتا أطول لترتيب إجراءات طلاق فوردى من زوجته الأولى، ومن ثم لم يتزوجا إلا بعد أن ولدت ديانا؛ ثم ترك الأسطول بعد ذلك، وأخذ كلود معه وعاد معها إلى وطنه واستقر فى مدينة كورك، حيث أدار حانةً يقع مقرها فى ٤ جراند باراد.

وعاد كل من ألدو وإميليا أمبرون إلى إيطاليا للمرة الأولى منذ إعلان موسولينى عام ١٩٣٨ قوانين معاداة السامية، فى حين تنقلت جيلدا جيئة وذهابا فى رحلات طيران ما بين روما والإسكندرية لمساعدة الملك فيكتور إيمانويل الثالث، الذى تم نفيه من إيطاليا بعد الحرب، واستقر به الحال فى فيلته فى حى محرم بيه. ثم جاءت الأنباء التى تفيد بمصرع جيلدا أمبرون فى حادث ارتطام طائرة فى الصحراء بالقرب من مدينة مرسى مطروح عندما كانت تركب الطائرة المتجهة من القاهرة إلى مصر.[١١٠] وعندما سمع دوريل هذا الخبر فى أثناء وجوده فى رودس، شعر بصدمة كبيرة، وبدا الأمر كما لو كان ذلك الحدث قد أشار إلى نهاية عائلة أمبرون، تقول إيف: "ذلك العالم الذى عرفناه فى فيلا أمبرون أصبح بالفعل غير موجود على أرض الواقع."

خاتمة

الطريق إلى الإسكندرية

وحينئذ سوف تهجر الروح الحارس (أجاسوس دايمون) المدينة التى أقاموها وتمضى إلى ممفيس. وستكون مدينتهم مهجورة. وبذلك تكون نهاية شرورنا حينما يرى المصريون تساقط الأجانب عنهم كما تساقط أوراق الشجر من الغصن. المدينة ستكون على شاطئ البحر تجفف للصيادين شباكهم ويقول العابرون "هذه المدينة التى رعت وعاشت فيها كل أجناس العالم"

"حكمة الخزف" القرن الثالث قبل الميلاد (١)

نزل لورنس دوريل من السفينة، فى ٢٦ يناير ١٩٥٣، مع سافو وابنته من إيف فى ميناء كيرينيا وهى مدينة صغيرة على الساحل الشمالى من قبرص. ثم اشترى بيتا قديمًا فى قرية قريبة من بيلابى حيث أفرغ أدواته الخاصة برواية الإسكندرية التى خزنها لفترة طويلة وكانت تحتوى تلك المواد على كتاب إ. م فورستر الإسكندرية: تاريخ ودليل "ومذكراته عن مدينة الإسكندرية. وعلى غلاف كراس حكومى فارغ كتب : مذكرات : يوميات الإسكندرية". ثم تقلب أول صفحة كتب فيها :

الإسكندرية

(رثاء)

إلى إيف، هذه الوثائق عن مدينتنا الحبيبة

"لقد هربت إلى هذه الجزيرة ومعى بعض الكتب ومعى الطفلة، إبنة مليسا" وراح يكتب ما أصبح فيما بعد المقدمة لروايته الصادرة بعنوان جوستين. "لا أدرى لماذا لجأت إلى كلمة (هروب)". يقول القرويون على سبيل الدعابة: إن الرجل المريض فقط هو الذى يختار مكانًا بعيدًا كى يستعيد صحته. وقد جئت إلى هنا كى أتعافى، فإن شئت أن تبعده جانبا فلا بأس. فى الليل حينما تزأر الرياح ويرقد الصبى فى سريره الخشبى بجانب المدفأة أضىء المصباح وأتردد فى المكان أتذكر أصدقائى جوستين ونسيم، وميليسيا وبلتازار. فأعود وأربط بينهم بسلسلة طويلة من الذكريات الخاصة بالمدينة التى عشنا فيها معًا لفترة وجيزة"[٢].

بعد أن ترك جزيرة رودس فى عام ١٩٤٧، والتدريس لمدة عام فى المركز الثقافى البريطانى فى الأرجنتين، عمل دوريل لمدة أربعة أعوام فى وزارة الخارجية البريطانية مسئولاً إعلاميًا فى السفارة البريطانية فى بلغراد. وأخيرا، فى الشهور الختامية من عام ١٩٥٢، ومع مدخرات تكفى العائلة لمدة عام أو نحوه فى قبرص، قرر أنه فى الأربعين من العمر وقد حان أن يبدأ فى تأليف كتابه "كتاب الموتى".

لكن عندما بدأت إيف تعانى نوعًا من الاكتئاب كان مألوفًا من قبل لقائها مع دوريل، انسحبت وانطوت على نفسها وباتت مقتنعة تماما بأنه لم يعد يهتم بها. فى آخر نوفمبر عانت من الهلوسة وثارت عليه بقسوة وقالت إنها راحلة. جاء فى تقرير طبيب نفسانى من المستشفى العسكرى البريطانى فى ألمانيا "أنها تعانى من

انفصام حاد فى الشخصية واضطراب فى التفكير وأعراض اكتئاب نفسي" [٣]، بينما كتب الطبيب النفسى الذى يعالج إيف إلى دوريل: "وكما اكتشفت، أن أوهامها وتصوراتها مرتبطة بمشاعر عقدة ذنب مبكرة بسبب استثارة ذاتية للشهوة وازدواجيتها الملحوظة نحو والديها، ورغبتها الشديدة فى حب الأشياء." [٤] وقد بدأت هذه الحكاية مع طفولة إيف المضطربة التى عايشتها فى محرم بك وسحقت حياتهما حاليا.

وبعد وصوله إلى قبرص كتب دوريل إلى صديقه القديم آلان توماس فى إنجلترا يقول له: "يترك مرض الانفصام الشخصى أثرا نفسيا على المريض لمدة سنة حتى بعد شفائه تماما، ولم أقل إن هذه هى قرارات إيف التى سوف تتغير بالضرورة، ولكن على المرء أن ينتظر قليلا ليرى إن كانت هذه أفكارًا راسخة بالفعل أم عمليات تكوين أفكار." فى تلك الأثناء بينما هو ينتظر، كان يتساءل هل ستعود إيف يوما إليه... "تجدها أحيانا فى بعض الأيام مفعمة بالتفاؤل وفى أيام أخرى مكتئبة وقانطة" [٥] .

رغم أن قبرص كانت يونانية منذ حرب طروادة فإنها وقعت تحت سلطة الكثير من الحكام؛ فقد هوجمت من سكان البندقية بواسطة العثمانيين فى عام عام١٥١٧ وزُرعت بالمستعمرين الأتراك، عام ١٨٧٧ تم تسليم الجزيرة بأكملها إلى بريطانيا عام ١٨٧٧ فى مقابل تحالف دفاعى ضد الروس. كانت الجزيرة بالنسبة للبريطانيين برج مراقبة الشرق الأوسط، وكانت تمثل بالنسبة إلى دوريل عودة للمناظر الطبيعة فى أركاديا فى جزيرة كورفو أو رودس. وكتب إلى ميلير: "أشجار النخيل والإبل ورائحة سوريا غريبة وأكثر من ذلك فهى نوع ضار من الجزر... إن قبرص شرقية. وأحاول الآن تأليف كتاب قيم حقيقى عن الإسكندرية، فى الليل بعد قضاء أعمالى اليومية" [٦] .

بعد استقرار أمه في بيلابي للمساعدة في الاعتناء بسافو، بدأ دوريل في سبتمبر تدريس اللغة الإنجليزية لطلاب الصف السادس في مدرسة بانكبريان جيمانيزم في نيقوسيا بدلا من جامعة تقدم خدمة علمية متميزة في الجزيرة. كما كانت أيضا مرتعا للقومية الهيلينية. أما ماكاريوس وهو رئيس الأساقفة ومدير الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في قبرص والقائد الفعلي للجالية اليونانية الغالبة فكان من بين تلاميذه، بالإضافة إلى جورج جريفاس وهو جندي مخضرم ممن شاركوا في انهيار اليونان في الأناضول في بداية العشرينيات من القرن العشرين وقائد كتيبة من الجيش اليوناني في الحملة الألبانية في عام ١٩٤٠-١٩٤١ضد القوات الإيطالية. وبعد عام ونصف، عندما صدرت إشارة من ماكاريوس، استطاع جريفاس أن يعلن العصيان المسلح على البريطانيين بسبب الاتحاد مع اليونان.

مع بداية يومه الدراسي الذي يبدأ في السابعة صباحا كان دوريل يستيقظ في الساعة الرابعة والنصف صباحا، يتناول فنجان قهوة "سادة" ثم يكتب بعض سطور في روايته ويكتب بالتفصيل في كراسة "كبالي "حتى لا يقلق أسرته قبل الانطلاق بسيارته لمسافة ثلاثين ميلا فوق الجبال الساحلية وعلى سهل نيقوسيا. في هذه الساعات المبكرة من الفجر يقوم بترتيب أفكاره وعلى طول طريق عودته إلى بيلابيي كان يؤلف روايته في رأسه، تلك كانت فقرات كتبها على ضوء شمعة في الصباح التالي في "كبالي"، وفي نهاية الأسبوع كان يطبع نحو ألف وخمسمائة كلمة كتبها هناك، إنها عملية تقطير وتنقيح بطيئة.

وفي أكتوبر كتب دوريل إلى ميريل: "لم أعمل قط في مثل هذه الظروف الصعبة" ولكني لم أشعر قط بأني في حالة كتابة جيدة ".عند الإفصاح عن اسم قصته "جوستين" قال سوف تتكون من أربعة أبعاد. وأحاول ترتيبها واختصارها، مثل بعض الحيوانات الغريبة المعلقة في محلول[٧]. وقد رأى دوريل أن ميليشيا

وجوستين جوانب لنفس المرأة، ميليشيا وهى إيف الضعيفة التى أحبها، وجوستين هى المرأة التى خشى أن تكون إيف مثلها، أسيرة لهواجسها وذاكرة مؤلمة. يشعر أنه ينظر إلى نفس الوجه لكن من مرايا متعددة. ولكنه يرى نفسه أيضا مثل دارلى ونسيم، وهو الشاب الذى أصبح مسلوب الإرادة فى الإسكندرية والرجل المتمرس الذى يتألم. فهى رواية رأى أنها يجب أن تشمل أربعة أبعاد فقط. فمن خلال محارم التوائم من "مذكراته عن الإسكندرية والذى قلص عالمه ليشمل المحيط استقلالهم، استطاع دوريل أن يصنف شخصياته الرئيسية إلى أربع شخصيات قائلا: "نحن الأربعة مكملين لبعضنا وبيننا صلة كبيرة"[٨] فهم يقيمون معا فى الإسكندرية، كما يمكن أن يصف فى جوستين، حيث أصبح الوجود الصعب للعالم المعروف بالنسبة لنا نحن الأربعة مجرد فراغات بين الأحلام، فراغات بين طبقات الوقت المتغيرة".[٩]

دائما ما يرجع دوريل إلى "ملاحظات عن الإسكندرية" ويملأ العديد من الصفحات نحو الخلف بالخطط والروافع ومسقط الثلاثة الأجزاء فى منزله فى بيلابى، كما أنه يقوم فى الوقت ذاته بالحسابات الخاصة بالتكاليف المختلفة بما فى ذلك نجارة شباك الزجاج الملون، قام برسم قطة وأرنب لأخته. ففى "كابالي" أيضا عمل على رسم مصاعد منزله وقام بتصميم أربعة إعلانات عن سرير أطفال من الطراز التركى لسافو. وقد أثبت فى خلف "كابالي"، وبعيدا كل البعد عن القصة نفسها، نوعا من محادثة فى يوم حلم عن ابنته، وابنة ميليشيا التى تدعى أيضا ميليشيا:

"إن هذا كوخ. قذر سيئ السمعة. ولكننا نحن الاثنين ننعم بصحة جيدة. لقد بنيت غرفة لطيفة بعيدة. أشعر بالسعادة. لم أشعر بهذه السعادة من قبل. الحمد لله على كل شيء"

"وميليشيا الصغيرة؟"

"نائمة"[١٠]

كانت المحادثة مع كليا.

فى أبريل سنة ١٩٥٤ سافرت إيف إلى نيقوسيا. كان دوريل سعيدًا بعودتها كتب إلى ستيفانيد "كانت مرحة وجميلة جدا "أما شابى فقد كان سعيدًا بشكل هائل"[١١].

أراد دوريل أن يطمئن على أن إيف قد عادت فعلا إلى بيتها، وبمجرد أن وصلت نقل دوريل ملكية البيت إليها. إلا أن مزاج إيف كان يتقلب على دوريل، وقد قارنها بما كتبه الشاعر سكوت فيتزجيرالد فى سيرته الذاتية بعنوان **Tender is the Night** يتحدث فيها عن حبيبته وزوجته "زيلدا " فهى جميلة ولكنها غير متوازنة.

تتذكر إيف كيف كانت تبدو لها الأمور: "فى أقل من بضعة أيام، فى أقل من أسبوع بعد وصولى، رجعت للميدان الأول، عندما قلت يجب أن أعود كل الطريق المؤدى إلى المستشفى. وكان يعتبر موقفا انتحاريا وليس حياة. أعنى أن شيئا لم يتغير مع لارى. وقد عزمت على ألا أموت. كان لارى يتصرف فى ذلك الوقت بطريقة بغيضة. أنا من الناس الذين لا يقبلون الإساءة. فأنا لست ضحية. حاليا بدأت أدرك أنى قد اضطررت إلى اتخاذ أحد الأدوار، ثم، تعلم، أنى بدأت أقول "من هو الضحية هنا، أنت أم أنا؟ ربما أنت الضحية."اسمعنى، كنت سأقتله إذا تصاعد الأمر. يمكننى أن أقتله أدبيا. أقتله بضربة قاضية. وقد أوشكت أن أقتل شخصا كهذا من قبل، لأنه حاول أن يؤذينى: " رجل عرف والدها أنه حاول أن يغويها على شاطئ الإسكندرية. "كانت تراودنى أحلام حول تلك الأشياء. قللت من أمرها وكنت أعزى السبب لصفات برج الأسد التى أتحلى بها. أقصد إن حاولت وخوفت أسدا، فسوف ينقض عليك. وسوف أهاجمك. وهذا ما فعلته. فقد أرهبت أفكار لاري"[١٢].

وفي ذلك الوقت تقريبا استمر دوريل في استكمال قصته من "كابالي"لكن في الكراسة الزرقاء التى كتب عليها، "مسودة قصة جوستين" ورسم مشهدا للإسكندرية من البحر ومسجدًا جامعًا وكنيسة والمنارة الشامخة ويتوجها تمثال بوسيدون إله البحر، والذى يجمع ثلاث حقب لتاريخ المدينة. ثم ملأ صفحة من كراسته من ترجمة أخرى لقصيدة "المدينة"، وقبل أن يستأنف كتابة روايته بأفكار نسيم، الذى أثار غضبه بسبب سوء سلوك جوستين: "يقول فى نفسه فى هدوء: "إن مشكلتى " يتحسس جبهته ليرى إن كان يعانى من حمى ويقول : "إن المرأة التى أحببتها غمرتنى بالرضا الكامل ولم تهتم بسعادتها "... يسمع من بعيد أصداء صوت بلوتينوس وهو يروى ذكرياته عن المدينة، ولا يمضى بعيدا عن أوضاع مؤقتة ومفرطة ولكن نحو ضوء جديد، مدينة جديدة من النور "هيا بنا نهرب إلى وطننا الحبيب. ... انطوِ على نفسك وانظر "ولكن ها هو الفعل الذى يعجز عن تحقيقه حاليا"(١٢).

فى صيف ١٩٤٥ تم استدعاء دوريل، لشغل منصب مدير مكتب العلاقات العامة فى الحكومة القبرصية، فوجدها فرصة للارتقاء بالإحساس القائم منذ زمن بعيد بين بريطانيا واليونان. فالحكم البريطانى فى قبرص كان الأول فى تاريخ الجزيرة لتكون بأى شكل جزيرة خيرية ويتمتع سكانها بحرية مدنية كاملة، أى ما يعادل أغلبية المؤيدين لفكرة الاتحاد. فسوف يدير الإذاعة الحكومية لقبرص ويعيد إحياء مجلة "سايبرس ريفيو" شبه الرسمية، وتكليف الأصدقاء والزملاء المعجبين بالحضارة الهيلينة بأن يكتبوا المقالات لتعزيز التوافق الأنجلو هيلينى. فإن بريطانيا تسعى لوجود استراتيجى فى شرقى البحر المتوسط وقريبا من منطقة الشرق الأوسط المضطرب، كما يوجد أيضا وضع معقد للأقلية التركية الموجودة فى الجزيرة، فلا هم ولا الحكومة التركية فى أنقرا يريدون تسليم الجزيرة إلى اليونان.

من المؤكد أن سكان قبرص يستطيعون كسب من فهم احتياجات بريطانيا ويجدون في استمرار الحكم البريطاني ضماناً لأمنهم ولمصلحتهم الشخصية أيضاً.

ولكن سرعان ما يتهاوى غرام دوريل باليونان: ففي ديسمبر أطلقت القوات البريطانية الرصاص على المتظاهرين في ليماسول، فجرحت ثلاثة منهم، بينما أشار سيفيرى، الذى زار دوريل في أول شتاء له في بيلابي، بضرورة تجنب الاجتماعات عند المجيء إلى قبرص. وبملاحظة نشاطات دعاية دوريل، اتهمه سيفيرى باستغلال المؤسسات التعليمية في الجزيرة وصداقاته القديمة باليونانيين "من أجل تسلل الجنود واستعباد الضمائر(١٤)". وفي المجلدات الأخيرة من الرباعيات يصور دوريل الروائي القديم بورسيوردن، وهو باعتباره رجلا رأى أن صداقاته يمكن مساومتها بعمله في الخدمات الخارجية كما أحس به دوريل أيضاً.

وبعد مرور ليلة الأول من أبريل ١٩٥٥، دوت القنابل وتساقطت فوق شوارع نيقوسيا، مثل الهزات الارتدادية للزلزال وجاءت التقارير بأخبار عن كثير من الانفجارات في مدينة ليماسول ومدينة لارناكا ومدينة فماجوستا. وقد أصدر ماكاريوس رئيس الأساقفة قرارًا إلى الجنرال جريفاس بالبدء بالعصيان المسلح. وقبل نهاية العام قتل نحو ٢٤ شخصا وفي عام ١٩٥٦ قتل ٢١٤ آخرون، أكثر من نصفهم من القبارصة اليونانيين، وكان معظم أعمال القتل قد قامت به جماعة جريفاس الإرهابية EOKA والمنظمة الوطنية للمحاربين القبارصة. كتب دوريل إلى ألان توماس"لقد وجدنا مقاومة شرسة من الموقف الاتحادى الذى تم تجاهله لفترة طويلة. "لقد سجلت بضعة أهداف ولكن معظمها كانت تنقذ الرصاص. القطران ملوث بالشحم، وكتلة طينية ولقد سئمت منها فعلا "وأنا حقا متعب من كل هذه الأشياء"(١٥) كانت كل هذه الأفكار في ذهن دوريل عندما بدأ يتعقب جريان قلمه في "مسودة جوستين حيث كتب عن الإسكندرية قائلا: "في كل مكان على هذه الجدران البنية

المتحركة أرى تعويذة رئيسية للمدينة– مدموغا عليها نخلة وأصابع ممدودة، محاولين منع حالات الرعب الذى زاحم طرقات المدينة المظلمة."[١٦] وفى مفكرة شعرية تعقب ملخصا "يد سافى، إبريل ١٩٥٥، عزيزى ابنى كن سعيدا. لاري"[١٧].

سافر إلى لندن مرتين خلال شهر يوليو ليشارك فى مشاورات مع مكتب الشئون الاستعمارية. وعندما عاد للمرة الثانية قالت إيف إنها راحلة ومعها سافو. ولعل تدهور الموقف فى قبرص ساعده على الموافقة، وقد صاحبهم إلى أثينا، ولكن مشهد رحيل نانسى مع بينلوب إلى القدس مازال يتردد فى خياله وقت الطيران.

وقد شعر دوريل بعد رحيل إيف وسافو "بأسى وفتور شديد"[١٨]. بإرهاق متكرر من جراء القصف الليلى الذى يدك فى ذاكرته بضياعه، سهر طول الليل وشراب فى بار كوزموبوليتان نيقوسيا حيث فى نهاية سبتمبر كاد أن يقتل لولا تحذير نباح كلب نبهه من مسلحين مختبئين فى الحديقة الخلفية. ومنذ هذا الحين بدأ يحمل مسدساً، قائلا لميريل فى نوفمبر: "نحن هنا وسط ثورة صغيرة بشعة بالقنابل وأعمال قتل كما يحدث فى فلسطين"ومن هنا أصبح السفر إلى الجزيرة خطيرا ويجب عليه أن يوصد باب بيته فى بيلابى، لكن وسط كل هذه الفوضى والمجازر .فقد كنت أوشكت من الانتهاء من نصف كتاب جوستين الذى يحكى عن إيف ومدينة الإسكندرية قبل الحرب."[١٩]

وبعد بداية العام الجديد ١٩٥٦ كتب دوريل إلى ميريل مرة أخرى ليقول له بأنه قد "انتهى من كتاب عن الإسكندرية اسمه جوستين... وهو نوع من الشعر النثرى لواحدة من أعظم مدن القلب، عاصمة الذكريات". فبعد رحيل إيف "تقلبت بين أحضانى فتاة جميلة من الإسكندرية وألهبتنى بشعلة من الحماس للبقاء والانتهاء من الكتاب". اسمها "كلود، وهى كاتبة تتسم بالغرابة "[٢٠].

فيما عدا تغييراتها المتكررة، فقد كانت حياة كلود فينسيندون مخيبة للآمال ومبتذلة منذ رحيلها عن الإسكندرية قبل تسعة أعوام. وبعد فترة قضتها في إدارة بار ومطعم خاص بهم في كورك، قرر تيم فورد ضرورة القيام ببداية جديدة مع كلود في أستراليا. قاموا بفتح محل خضار في سيدني ضاحية فوكليز، حيث انضموا إلى بوللى أوميرا التى كانت تعمل مربية لروزيت دى ميناس ثم لابنة روزيت كلير فينسيندون. وحان دور بوللى للعمل مع كلود، التى تهتم بديانا وبطفلها الجديد بيرى، وكانت تتحدث عن الحياة كيف كانت فى أيام المنزل العريق فى شارع الرصافا، منزل فليكس وروزيت، العم جان و جورج، وكذلك عندما كانت كلود ماتزال فتاة، وكانت بالنسبة لبوللى أوميرا حياة مفعمة بالرفاهية على مدار ثلاثة أجيال من تاريخ الإسكندرية. ثم ذهبت بعد ذلك عائلة فورد إلى إسرائيل ومن خلال علاقاتهم مع ميناس استطاع تيم وكلود الحصول على وظائف فى شركة "فيدرمان إخوان مجموعة فنادق دان. ومرة أخرى انتقل إلى قبرص وهناك عرضت عليه وظيفة فى فندق فى بمباى، لكن كلود هذه المرة قالت إنها لن تذهب، وفى مطلع صيف ١٩٥٥ قدمت لوظيفة فى القسم الفرنسى بمكتب الخدمات الإذاعية القبرصية وعينها مدير العلاقات العامة فى الإذاعة.

كانت كلود تتحدث الفرنسية والإنجليزية والإيطالية بطلاقة، وتعرف القليل من اللغة الألمانية وتعرف بشكل سطحى اللغة العبرية واللغة اليونانية واللغة العربية، وهى شخصية نشيطة وعملية، حسنة المظهر وتجيد الطباعة على الآلة الكاتبة. فهى أنيقة وشقراء ونحيفة ورغم أنها تعتقد أنها أطول قليلا من دوريل فهى شخصية مرحة وتستطيع أن تجاريه فى الفصاحة واللهجة الإيرلندية، ومن بويل تعلمت اللغة الإيرلندية ومنذ أيام عملها فى البار فى كورك استطاعت أن تلتقط

بعض الكلمات فى اللغة الايرلندية. ومرة أخرى بدت فرنسية تماما، كما تكيفت كذلك مع الشرقيين. قالت لدوريل إنها إسكندرانية و"كانت تتمنى دائما الكتابة" (٢١).

بعد أن رحلت إيف عن قبرص، بدأت علاقتهما معا.. بعد ذلك وصف دوريل المشهد: "اعتدت أن أجعلها تأتى الفيلا فى وقت القصف ونضع الآلة الكاتبة على طاولة الطعام. نشرب نبيذا أحمر ونعمل مثل المجانين- كلود كانت روايتها الأولى السيدة أوMrs.O، وهى رواية تعتمد على تجربتها كصاحبة حانة فى كورك. "فى كل عشرين دقيقة نسمع انفجارا ويحدث شيء جديد فى المدينة، ويرن جرس التليفون. نتجاهل كل شيء، أرد على غرفة الخدمات، غرفة الموظفين، الجهات الحكومية، وصحافة الشرطة – ثم نعود إلى جوستين." (٢٢) وليلة بعد ليلة بدأ الاثنان يجلسان معا ويعملان فى كتابيهما، وضع كل منهما آلة الكاتبة فى مواجهة الأخرى فى نهاية طاولة عليها خريطة الإسكندرية " نتعقب وندقق بأصابعنا امتداد الشوارع على الخريطة، ونسترد ما فاتنا، الحدائق والمواخير، ومطلع الفجر على بحيرة مريوط"، وفى مقابل طلقات الرصاص وقصف القنابل بمعدل ثلاث قنابل أو أربع فى الليلة الواحدة، واستدعاء غرف العمليات لكمين آخر فى الجبال، كانت "فترة غريبة ومثيرة، وحزينة، ومثقلة بالعبث والغثيان، ولكن الغريب فى الأمر أن تكون قادرا على الحياة فى كتاب شخصي" (٢٣) .

وبعد ذلك، عند التفكير فى الأيام والليالى التى قضاها مع كلود، بدأ دوريل الكتابة فى الجزء الأخير من رباعيته، كيف استطاع دارلى أن يعود للمدينة "لقد ولدت طبيعة جديدة لمدينة الإسكندرية من خلال كلى، لقد أحيت المعانى القديمة وجددت الأماكن المنسية، كما تؤسس لونا ثريا جديدا لتاريخ جديد، لونا لسيرة ذاتية جديدة بديلة عن السيرة القديمة"(٢٤).

في يونيو ١٩٥٦ تحدث دوريل مع ألان توماس بأن فابر سعيد جدا" [٢٥] بروايته. وأن عقده مع الحكومة القبرصية أوشك على الانتهاء وقد قرر عدم تجديده. لقد ترك معظم أصدقائه في الجزيرة في شهر إبريل بعدما بدأت المنظمة الوطنية اليونانية للمحاربين القبارصة EOKA في قتل المدنيين البريطانيين، وفي مايو حذر سكرتير ماكاريوس دوريل أن حياته في خطر، وفي بداية شهر يونيو انفجرت قنبلة حارقة في مكان انتظار السيارات الخاص بدوريل."حان وقت الرحيل من قبرص، علمت أن معظم طيور السنونو قد هاجرت" [٢٦].

فلا أمل من أن قبرص يمكن أن تحتفظ بهدوئها دون قوة شديدة لا هوادة فيها، كانت بريطانيا تحارب روح اليونان" [٢٧] وليست تلك معركته.

وخلال زيارته لمدينة فاماكوستا، "وهي من أكثر المدن التي نتردد عليها في قبرص، مشبعة بذكريات ماضيها" زار أطلال الحروب الصليبية، كاتدرائية القديس نيكولاس، "تتشح مناراتها بقرون غريبة"- لقد تحولت الكنسية إلى مسجد عندما استولى الأتراك على الجزيرة من أيدي سكان مدينة البندقية. هنا اقترب من الآثار القوطية التي بدأت الحشائش تعلو عليها، تقول إن إنجلترا مثل البندقية من قبل، "قوة ولدت في البحر، كثير من رؤوس الجسور تم استثمار البحر بها لقد ألفنا واستجبنا.. وأدركنا أن يوما ما في تاريخنا (بلدنا البندقية) فيجب علينا أن نلحق بالتيارات المحتشدة التي تتقابل للأبد عند نقطة التقاء الحاضر مع الماضي في عناق الموت." [٢٨] وفي المقبرة، سجلت نقوش على المشاهد من بينهم يلموت مونتوليف، إذ استعار اسمه ليسمى به في قصة خيالية.

ورغم أن دوريل يعرف منطقة البحر المتوسط فضلا عـن إنجلتـرا، فإنـه يتحسر على زوال الإمبراطورية البحرية، أساسيات الكوزموبوليتان. ثم عاد إلـى نيقوسيا وانهماكه فى مكتبه: "صخب السجالات والخلافات بين الخطباء الـسياسين وبين الأميين التى بدأت تملأ فراغ مسرح الشئون العالمية مع صـيحات الغـضب القوية للعصر - القومية"(٢٩).

رحلت كلود مع أولادها فى نهاية شهر يوليو، فى بادئ الأمر استقرت مـع أخيها إيريك الذى يعيش حاليا فى باريس، ثم زارت خالها جورج دى ميناس فـى لندن وتركت أولادها فى مدرسة داخلية فى إنجلترا. ثم فى نهاية أغسطس لحق بها دوريل فى لندن، كانت كلود مستعدة لبدء حياة مشتركة معا، وفى مطلع عام ١٩٥٧ استقر الاثنان فى فرنسا.

ولكن قبل ذلك، فى منتصف شهر يوليو أرسل دوريل خطابا إلـى مؤسـسة طباعة ونشر "فابر وفابر"يحدثهم عن أنه : "فى مخيلتى إصدار سلسلة من الروايات لا أعرف عددها، ولكنها روايات بطريقة "جوستين" التى تتحدث عن الإسـكندرية، باستخدام نفس الشخصيات ولكن بتأليف مختلف."(٣٠) وهذا أول إعلان لدوريل بأنه سوف يبدأ بعمل أكثر من جزء، ورغم أنه ذكر من البداية: "قد خططـت لتـأليف أربع كتب"(٣١) ولم يكن هذا حقيقةً كلود الـذى أعادتـه إلـى عبـارات "عاصـمة الذكريات"وأضاف بيديه فى اللحظة الأخيرة فى هذه المخطوطة من "جوستين"وفتح عينيه على الإسكندرية التى لم يرها من قبل.

فى بداية الجزء الثانى "بلتازار" كتب دوريل: "فرصة واحدة فقط هى التـي غيرت مسار كل شيء وأعادتنى إلى طريقى حيث جوستين، وميليسيا وكليا. فهـذه شخصيات تشبهنا حقيقية- فهل ترى أنها شخصيات يمكن ترتيبها فى كتاب واحـد، أليس كذلك؟ إننى أعتقد أننى فعلت، رأيت عشاقى وأصدقائى لم يعودوا من الأحياء ولكن عندما أضفيت عليهم صفات فهم يسكنون حاليا أوراقى، فلم تعد المدينة كمـا كانت بل غدت صورًا لشخصيات"(٣٢) .

فى الحقيقة فإن تلك الفرصة الوحيدة هى لقائه مع كلود، التى بينت له أن ما عرفه عن الإسكندرية، وشخصياتها ومكائدها كانت فكرة خاطئة أو فكرة ناقصة. إن مرجع دوريل لتلك الشخصيات فى أشكالها هى إشارته إلى كلود التى حدثته عن دورها مثل دور "براكسينو فى أنشودة ثيوكريتوس الخامسة عشر، حيث تعيش الشخصيات غير محبوكة أو حاسمة. فهى شخصيات حقيقية تقف وتتحرك" .

قام فابر وفابر بتأريخ خطاب دوريل غير المؤرخ والذى يذكر نتائج جوستين الممكنة بوصل :٢٤ يوليو ١٩٥٦. وفى مقابل خلفية الأحداث المتتالية، بدأ دوريل فى كتابة بلزازار، ماونتوليف و كليا، الأجزاء التى سوف تعزز رباعية الإسكندرية.

إن خطاب دوريل غير المؤرخ والذى يذكر فيه إمكانية استكمال كتاب "جوستين"قد وضع عليه خاتم تاريخ تسلُّم مؤسسة "فابر وفابر للطباعة والنشر فى ٢٤يوليو ١٩٥٦. عكس الأحداث التالية، فقد شرع دوريل فى تأليف " **Balthazar , Mountolive, and Clea** والكتب الأخرى والتى تؤلف كتابه " **Alexandria Quartet** رباعيات الإسكندرية".

فى ٢٦يوليو، وفى الذكرى السنوية الرابعة لخلع الملك فاروق، ألقى الزعيم عبد الناصر خطابا من شرفة البورصة على ميدان احتشد فيه مليون إنسان فى ميدان محمد على. فى عام ١٩١٧ كان فورستر فى تلك الشرفة يراقب العصافير ويتذكر عندما كان مع محمد يتلقف لحظات من السعادة من آلاف غيره لن أسمع أسماءهم وأعرف أن الكثير من التاريخ لم يتم تسجيله.

تتدافع العصافير بزقزقتها على أوكارها فوق الأشجار فى كنيسة القديس مارك، بينما بدأ عبد الناصر خطابه فى الساعة الخامسة عصرا. كرر عبد الناصر اسم "دليسبس" أكثر من عشر مرات فى الساعتين والنصف الأولى من خطابه؛ إذ كان الاسم شفرة خاصة بالجيش المصرى للتحرك باتجاه قناة السويس. وأعلن أن مصر تتمتع باستقلال سياسى، ولكن الاستقلال الاقتصادى مهم أيضا، وبالنسبة للمشاعر الملتهبة للمحتشدين فقد أدان الاستعمار واتهم القوى الغربية بالسعى للسيطرة على مصر والعالم العربى من خلال إسرائيل، ومن خلال المعاهدات العسكرية والتلاعب ببيع الأسلحة ومن خلال الضغط الاقتصادى. كما اتهم بشكل خاص بريطانيا والولايات المتحدة والبنك الدولى بالتآمر فى رفضهم لتمويل بناء السد العالى فى أسوان بعد شراء صفقة أسلحة من الاتحاد السوفيتى. وقد تساءل فى بلاغة شديدة من أين حصلت مصر على الأموال اللازمة لبناء السد، وكرر اسم فرديناند ديليسبس، ورد على هتاف مفعم بالنشوة والطرب صادر من الميدان فأعلن عن جلاء القوات المستعمرة من منطقة قناة السويس وتأميم شركة القناة شركة مصرية.

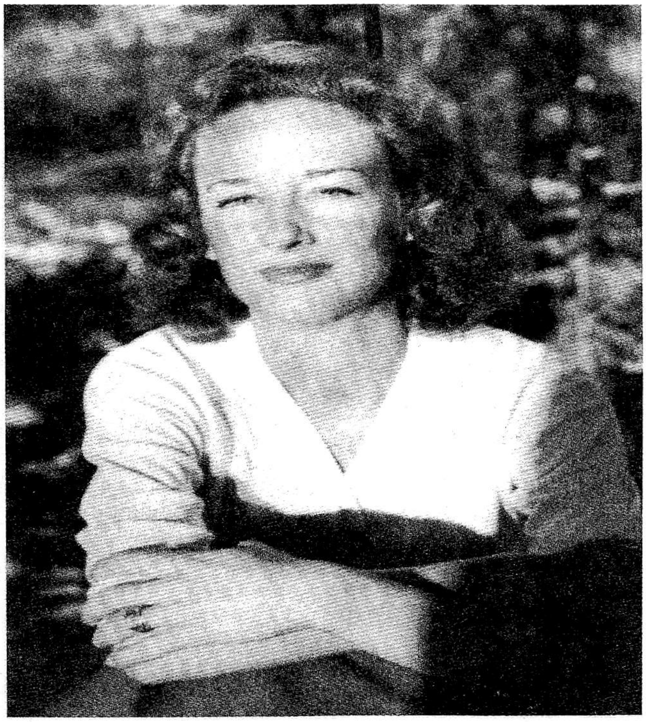

كلود فنساندون فى قبرص عام ١٩٥٥أو ١٩٥٦، ليس بزمن بعيد عن لقائهـا مع دوريل. كتب إلى هنرى ميللر "فتاة جميلة من الإسكندرية كانت ترتجف بين ذراعى وأعطتنى الحماس من أجل الانتهاء من كتابة الكتاب.

وقد سحبت بريطانيا قواتها من القناة وفقا للمعاهدة فى شهر يونيـو، تاركـة المنطقة فى أيدى أصحاب الامتياز شركة قناة السويس من البريطانيين والفرنـسيين والذين سوف يسلمونها للمصريين فى خلال اثنى عشر عاما هى المدة المتبقية فـى العقد. إلا أن عبد الناصر كان ضيق الصدر. واجه عبد الناصر معارضة شديدة من بعض الأوساط المصرية وأحس أن مركزه فى خطر، إذ أعلن تـأميم القنـاة قبـل رفض الغرب تمويل السد : وأصبح المطلب الشعبى القديم للهجوم علـى القـوات الأجنبية عموما وعلى القوات البريطانية تحديدا بات يسير المنال.

ولكن بريطانيا كانت بحساباتها القديمة موضع التفكير؛ فنحو ربع تجارة بريطانيا تمر عبر القناة، كما أن ترتيب السفن البريطانية في استخدام القناة يأتي في المرتبة الثالثة، علاوة على ذلك فإن معظم إمدادات النفط البريطانية تأتي عبر السويس.. ويرى أنتوني أيدن وهو رئيس الوزراء في ذلك الوقت، أنه إذا بقي تأميم القناة بدون رد حاسم قد يقوض نفوذ ومكانة بريطانيا بين حلفائها العرب في المنطقة، يتذكر تهدئة بريطانيا قبل الحرب مع ألمانيا بعد احتلال منطقة الراين، وبدأ إيدن يقارن عبد الناصر بهتلر ودعا إلى تحطيمه. أما فرنسا فكانت لها أسبابها التي تدعوها للتخلص من عبد الناصر، فهي تراه يهدد وجودها في الجزائر؛ إذ يقوم بإمداد الجزائريين بالسلاح لمواصلة النضال لنيل الاستقلال وهو أمر صعب لربع مليون جندي فرنسي. أما إسرائيل فقد كانت تخطط للهجوم على مصر إذا انسحب البريطانيون من إدارة القناة. في تلك اللحظة كان الجو قابلا للانفجار فقد رأت إسرائيل فرصتها في أن تشعل الموقف من خلال تقديم مبرر للغزو البريطاني الفرنسي على مصر وهدفها هو تحويل القناة للإطاحة بحكم عبد الناصر وإمكان استبداله، لذا بدأ التفكير في بعض الدوائر، من خلال ائتلاف يتزعمه مصطفى النحاس.

في يوم ٢٩ أكتوبر وبالاتفاق المسبق مع حلفائها تقدمت القوات الإسرائيلية إلى سيناء. وتحت ذريعة منع التصادم بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية، قامت القوات البريطانية والفرنسية بعملية إنزال بري في قناة السويس في فجر ٥ نوفمبر، وانطلقت القاذفات البريطانية من قبرص ومالطا لقصف المطارات المصرية لحماية إسرائيل من الهجوم المضاد، بينما انطلقت المقاتلات الفرنسية بقيادة طيارين فرنسيين يرتدون الزي الإسرائيلي وطائرات عليها العلم الإسرائيلي بعملية إبعاد الطيران المصري من الأجواء.

كانت خطة الغزو الحقيقية هى الهجوم على الإسكندرية. فتقوم القوات البريطانية والفرنسية بعملية إنزال على السلسلة الجبلية فى الغرب من خارج المدينة باتجاه برج العرب، ومن هناك يسيطرون على الميناء الغربى. وفى تلك الأثناء يقوم أسطول مؤلف من مئة سفينة بريطانية وثلاثين سفينة فرنسية بقصف الإسكندرية من البحر لإخلاء المئات من السفن الراسية بسبب تعرض البحرية للهجوم على شواطئ المدينة. وفى الأيام التالية تهبط المزيد من القوات البحرية فى الميناء الغربى حتى مئة ألف جندى ويبدأون فى التوجه إلى القاهرة باتجاه قناة السويس.

ولكن قبل شهر من الغزو تغيرت الخطة تماما، القيام بالمعركة الرئيسية فى المدينة الكبيرة لن يكون مقبولا بالنسبة للرأى العام العالمى والهجوم سيتحول إلى مدينة بورسعيد على الساحل الشمالى النهائى للقناة، ورغم أن المطارات القريبة من الإسكندرية تم قصفها، وبينما انطلقت صفارات الإنذار للغارات الجوية وسمع دويها مع غروب الشمس، فإن جيدج برينتون وأسرته كانا على ظهر سفينة بحرية أمريكية فى الميناء الغربى. فى خلال الثورة العرابية عام ١٨٨٢ حينما قامت القوات البريطانية بقصف الإسكندرية، كانت هناك بارجة أمريكية تضطلع بدور تشجيع "للبطل الغازي" و"للحكم البريطانى "كانت البارجة تبحر حول الأسطول البريطانى وفيما بعد رست على الميناء لتساعد فى استعادة النظام فى المدينة. لكن حاليا ثمة تنافس أنجلو أمريكى فى الشرق الأوسط؛ حيث إن الأمريكيين اعتقدوا أن استقلالهم عن المستعمرات السابقة يمكن أن يأتى ضمن اتفاق مع القوميين العرب، مما يعنى أن الأسطول السادس الأمريكى مشغول بإخلاء الرعايا الأمريكان والأجانب إلى جزيرة كريت.

قال جيدج برينتون وهو على متن سفينة مغادرة ميناء الإسكندرية: "إنه منظر رائع، قصر الملك فاروق ونادى اليخت، ومنارة الإسكندرية والميناء الممتد

إلى الشمال من هنا، وإلى الجنوب والشرق منظر عام للمدينة بأحواض السفن ومستودعاتها ومساجدها والمنارات."وراح يتذكر السنوات التى أبحر فيها إلى الإسكندرية كغريب يواجه مستقبلا مجهولا: "والآن تمزقت الجذور ولم تعد الحياة كما كانت تتدفق فى نفس القنوات."(٣٣) .

تتقدم القوات البريطانية والفرنسية نحو الجنوب على طول القناة وفى غضون أربع وعشرين ساعة بعد احتلال السويس أمر أنتونى إيدن بوقف أطلاق النيران فى منتصف ليل ٦ نوفمبر.

وقال رئيس الوزراء السابق وينستون تشرشل "لست متأكدا بأننى يجب أن أتوقف"ولكنى متأكد بأننى لا يجب أن أبدأ بالتوقف (٣٤)وعوضا عن ذلك انقسمت البلد فى الداخل وارتفع صوت الاتحاد السوفيتى، ولكن أقوى الضغوط جاء من الولايات المتحدة الأمريكية هى التى أضعفت إرادة بريطانيا".

سوء التقديرات للغزو البريطانى الفرنسى وما أعقبه من انسحاب مخز، وازدراء قوى أصبح انتصارا لعبد الناصر، الذى زادت شعبيته ومركزه فى الداخل وفى العالم العربى. فى عام ١٩٥٧ طرد ما تبقى من المواطنين الفرنسيين والبريطانيين من مصر، وثلث يهود مصر، ومعظمهم من جنسيات أجنبية، تم إبعادهم من مضايقات الشرطة والضغوط الاقتصادية، وباقى الجالية الأجنبية تضاءلت أعدادهم مثل أصحاب المصانع والمستورين الذين تم تمصيرهم. وفى جو من الخوف والغضب انهارت تماما كوزموبوليتان الإسكندرية(٣٥).

لقد وضع الإسكندر الأكبر بنفسه خطة لتأسيس مدينة عظيمة تخلد اسمه على مدار الزمن. ولعدم وجود طباشير فى ذلك لتخطيط المدينة فقد لجأ إلى نثر حبوب الشعير لتوضيح مسار شوارعها وأماكن أسواقها ومعابدها وما يحيط بها من أسوار عالية وفجأة تظهر أسراب الطيور من مريوطية والنيل تنذر الإسكندر بأنها تلتهم

كل ما نثره من شعير. غير أن العراقيين شجعوه وفسروا له ما حدث بأنه علامة على أن المدينة ستكون موردًا سخيًا لسكانها وحاضنة لرجال من أمم لا تحصى.

المدينة الكوزموبوليتان الجديدة رأت نفسها كانبعاث من ذلك الحلم. ولكن قوى أكبر كانت تعمل بينها وبين الأطراف التى مضت إليها، فقد كانت الإسكندرية أرضًا لقشرة خارجية. قليل من الأجانب ومعظمهم من اليونانيين، يديرون مشاريع صغيرة، فنادق صغيرة البارات والمكتبات وغيرها من تلك التى أفلتت من إجراءات التأميم فى عام ١٩٦١ والتى تم تطبيقها على المصريين أيضا. وكل الحديث عن الديمقراطية وحرية الرأى قمعه عبد الناصر، الذى أصبح حاكما مطلقا، استخدم مخابراته السرية لتصفية المعارضين. أعقبتها حرب ١٩٦٧ الكارثية وبعد وفاة عبد الناصر فى سنة ١٩٧٠ بدأت مصر تعود إلى الحرية السياسة والاقتصادية، رغم أنه يماثله صعود الإسلام المحافظ[٣٦].

لم تعد المدينة اليوم مجاورة بل فى قلب مصر ومتماثلة معها فى الثقافة رغم أنها تتعرض أحيانا لما يزعجها من بقايا الماضي؛ ففى الآونة الأخيرة ظهر اعتراض شديد على وضع تمثال برونزى للإسكندر الأكبر، وهو هدية قدمتها بلدية حكومة اليونان؛ اعترض البعض على أن يكون التمثال فى هذا المكان البارز والقريب من بوابة الشمس القديمة، بينما اعترض آخرون على نصبه من الأساس معتبرا أن مؤسس الإسكندرية هو أجنبى ولا ينتمى إليها.

قام عالم آثار بفحص الطبقات المطمورة من أطلال المدينة. ولكن الإسكندرية، رغم تدهورها حاليا وفقرها الشديد ليست مدينة مدفونة، فأنت حينما تمشى بين شوارعها ترى شيئا لم يكن مألوفا لسكانها على مدى الحياة. ولكن رغم تزايد السكان بشكل هائل - حوالى خمسة ملايين نسمة مقابل ثمانمائة ألف نسمة أو نحوها عند بداية الحرب العالمية الثانية وخمسمائة ألف نسمة فى زمن فورستر-

فإن المدينة يتملكها إحساس بالفراغ، أما بالنسبة لكل مواطنى مدينة الإسكندرية الكوزموبوليتان فإنهم رحلوا بعيدا عنها وتركوا سكانا جددا بدون ذكريات يعيشون على أطلال حياة الآخرين. بالنسبة لأولئك الذين يرون المدينة، وكلمات الفيلسوف أفلوطين : "بالنسبة لأى رؤية يجب أن تألفها العين لما تراه".

ولكن ليس كل سكان مدينة الإسكندرية الكوزموبوليتان قد تركوها؛ كثير منهم احتفظ بجنسيته اليونانية أو ديانته اليهودية أو البروتستانتية والكنيسة السريانية الكاثوليكية والمقابر اللاتينية القريبة من بوابة الشمس. هنا مقابر عائلة سالفاجوس وعائلة بيناشيس وعائلة ساويريس وعائلة ميناسى وهنا باكوس ولوريا وبادارو وزغيب، وهنا يرقد أيضا قسطنطين كفافيس، وعلى مقبرته شاهد بسيط منقوش عليها عبارة "شاعر".

وبين تلك المقابر توجد مقبرة لبطالمة قديمة جدا؛ إذ يعتقد بعض علماء الآثار أن القبر قد يكون القبر الذى يضم رفات الإسكندر الأكبر. فإن لم يكن هو ذلك القبر، فربما يكون فى مكان ما غير بعيد عن هنا. هنا رفات مؤسس المدينة التى تحمل اسم أول اسكندرانى.. وهنا أيضا يدفن آخر إسكندرانى.

المراجع

PROLOGUE

The Capital of Memory

1 Lawrence Durrell, *Justine* (1957), the first volume of *The Alexandria Quartet* (hereafter *AQ*), London 1962; all page numbers refer to the *AQ* paperback edition, London 1968, here 201.
2 *Justine*, *AQ*, 17.
3 Lawrence Durrell to Henry Miller, some time from late May to mid-July 1944, in *The Durrell-Miller Letters, 1935–80*, ed. Ian S. MacNiven, London 1988 (hereafter *DML*), 167.
4 *Justine*, *AQ*, 17.
5 LD to HM, c. January 1956, *DML*, 279.
6 Introduction to E. M. Forster, *Alexandria: A History and a Guide*, London 1982, xviii (hereafter *AHG*/1982). The first edition of Forster's *Alexandria* was published in Alexandria in 1922 and is extremely rare; the reader is more likely to obtain it in republished form. The 1922 edition was republished in New York in 1961 with a new introduction by Forster, and again in London in 1982 with Forster's 1961 introduction, a new introduction by Lawrence Durrell and an afterword and notes by Michael Haag. The afterword and notes of *AHG*/1982 were revised in a 1986 reprint published in London and New York. The second edition (hereafter *AHG*/1938) was published in Alexandria in 1938; it has never been republished.
7 Peter Adam, 'Alexandria Revisited', *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 397. Cité du Livre at 2 Rue Fuad, next door to Baudrot, was owned by Nessim Mustacchi, a Greek Jew from Thessaloniki, whose son Georges Moustaki later wrote 'Milord' for Edith Piaf.
8 *Clea* (1960), fourth volume of *AQ*, 700.
9 Adam, 'Alexandria Revisited', 400.
10 Ibid., 409.
11 Ibid., 407.
12 Ibid., 400.
13 *Justine*, *AQ*, 41f.
14 Jane Lagoudis Pinchin, *Alexandria Still*, Princeton 1977, 106. Pinchin quotes from Forster's papers at King's College, Cambridge, probably a draft for what became his essay 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', in *Two Cheers for Democracy*, London 1951.
15 Pinchin, *Alexandria Still*, 109.
16 *AHG*/1982, xix.
17 Robert Liddell, *Cavafy: A Critical Biography*, London 1974, 181.
18 *Clea*, *AQ*, 702.
19 Ibid., 846.
20 Plutarch, 'Mark Antony', in *Makers of Rome*, trans. Ian Scott-Kilvert, London 1965, 340.
21 Edmund Keeley, *Cavafy's Alexandria*, London 1976, 6.
22 Letter from Claude's brother Eric Vincendon to the author, 10 July 1995: 'Claude and Larry NEVER met in Alexandria, only in Cyprus.'
23 LD to HM, c. January 1956, *DML*, 279.
24 Diana Menuhin (née Gould) to Alan Thomas, 10 February 1968. British Library.
25 *Clea*, *AQ*, 722.
26 *Mountolive* (1958), third volume of *AQ*, 393, where incidentally 'δαίμονος' is misspelt 'διάμονος'.
27 LD to HM, 17 January 1967, *DML*, 416.
28 Adam, 'Alexandria Revisited', 401.
29 *AHG*/1982, xix.
30 Adam, 'Alexandria Revisited', 397.
31 BBC transcript *Spirit of Place*.
32 Lawrence Durrell, 'Notes for Alex', 9. British Library. This is a notebook begun in 1944,

possibly incorporating notes from 1943. The page numbers are those assigned by the British Library.

33 Adam, 'Alexandria Revisited', 397.
34 Ibid., 398.
35 Ibid., 399.
36 Ibid., 398f.
37 Ibid., 400.
38 LD to HM, 8 February 1944, *DML*, 159.
39 *AHG*/1982, xix.
40 LD to HM, 25 November 1977, *DML*, 490.
41 LD to Alan Thomas, [October 1977], postmark Alexandria. British Library. Durrell lived in the Villa Cleobolus on Rhodes after the war, a time he describes in his book *Reflections on a Marine Venus*, London 1953; see chapter 5, 'In the Garden of Villa Cleobolus'.
42 *Balthazar* (1958), second volume of *AQ*, 209.
43 *AHG*/1982, 33, translation by Robin Furness.
44 In Arabic the pronunciation of his name is closer to 'Urabi' or 'Orabi', which are alternative transliterations.
45 *AHG*/1982, 103.
46 *Justine*, *AQ*, 152. See T. S. Eliot, *Four Quartets*, 'Little Gidding', II.
47 *Justine*, *AQ*, 27.

CHAPTER 1
A Tram with a View

1 E. M. Forster, 'Letter to Mohammed el Adl' (1922–9). E. M. Forster archive, library of Kings College, Cambridge (hereafter KCC).
2 *AHG*/1982, xxi.
3 E. M. Forster, 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', in *Two Cheers for Democracy*, London 1972, 237.
4 *AHG*/1982, xxi.
5 EMF to Florence Barger, 28 April 1916. KCC.
6 E. M. Forster, 'Syed Ross Masood', in *Two Cheers*, 285.
7 E. M. Forster, *The Hill of Devi*, London 1983, 3.
8 E. M. Forster, locked journal, 1 November 1911, in Nicola Beauman, *Morgan: A Biography of E. M. Forster*, London 1993, 247.
9 EMF to Forrest Reid, 13 March 1915, in P. N. Furbank, *E. M. Forster: A Life*, London 1979, vol. 2, 14.
10 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 1, 259.
11 J. F. C. Fuller, *The Decisive Battles of the Western World*, ed. John Terraine, London 1970, vol. 2, 290.
12 EMF to Malcolm Darling, 6 November 1914, in *Selected Letters of E. M. Forster*, ed. Mary Lago and P. N. Furbank, London 1985, vol. 1, 213.
13 E. M. Forster, *Howards End*, London 1973, 60.
14 E. M. Forster, unpublished diary, 4 August 1914, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 1, 259.
15 EMF to FB, 10 August 1915, *Letters*, vol. 1, 229.
16 EMF to Syed Ross Masood, 29 July 1915, *Letters*, vol. 1, 224.
17 *Guide to Egypt and the Sudan*, seventh edition, London 1916, xv.
18 EMF to his mother, 21 November 1915, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 22.
19 *AHG*/1982, 110.
20 E. M. Forster, *A Room with a View*, Harmondsworth 1978, 36.
21 *Twentieth Century Impressions of Egypt*, ed. Arnold Wright, London 1909, 429.
22 Ibid., 423.
23 Ibid., 429.
24 Evaristo Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, English-language edition, Bergamo 1922, 2.
25 Douglas Sladen, *Queer Things about Egypt*, London 1910, 153.
26 Ibid., 155.
27 Ibid., 154.
28 Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, viiif.
29 Ibid., 59.
30 *AHG*/1982, 7.
31 Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, viif.
32 Mabel Caillard, *A Lifetime in Egypt*, London 1935, 176.
33 Robert Furness to John Maynard Keynes, 25 April 1907, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 24.
34 Laurence Grafftey-Smith, *Bright Levant*, London 1970, 70.
35 Ibid.
36 EMF to SRM, 29 December 1915, *Letters*, vol. 1, 232.
37 Edward W. Said, *The Question of Palestine*, London 1992, 20.
38 EMF to SRM, 29 December 1915, *Letters*, vol. 1, 232.
39 Foreigners were exempt from native law: civil cases were heard in the Mixed Courts, where foreign and Egyptian judges applied

the Napoleonic Code, while criminal cases were heard by the consuls.

40 Karl Baedeker, *Egypt and the Sudan*, London 1914, 15, 19.

41 *AHG*/1982, xxxi.

42 EMF to Malcolm Darling, 6 August 1916, *Letters*, vol. 1, 238. By 1911 'Anglo-Indian' had already officially replaced 'Eurasian' to describe people of mixed descent, but here Forster means a British citizen of long residence in India.

43 EMF to Edward Carpenter, 18 May 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 30.

44 EMF to Malcolm Darling, 6 August 1916, *Letters*, vol. 1, 238.

45 Robert Trevelyan, poet, was brother of the historian G. M. Trevelyan and of the Liberal MP C. M. Trevelyan, who advocated 'peace through negotiation' throughout the war. Goldsworthy Lowes Dickinson was a lecturer in political science at King's College, Cambridge, and a proponent of pacifism and of a 'league of nations' (a term he may have invented). His sisters at his London home in Langham Place were in part the inspiration for the Schlegel sisters and their home in *Howards End*.

46 EMF to SRM, 20 November 1913, in Beauman, *Morgan*, 284.

47 Benjamin Disraeli, speech at Crystal Palace, 24 June 1872, in *The Selected Speeches of the Earl of Beaconsfield*, ed. T. E. Kebbel, London 1882, 530–4.

48 Nicholas Mansergh, *Survey of British Commonwealth Affairs*, London 1952, vol. 3, 256.

49 *Howards End*, 320.

50 *The Hill of Devi*, 223.

51 *Howards End*, 320.

52 Ibid., 266.

53 Ibid., 179.

54 Ibid., 337.

55 Ibid., 258.

56 *A Room with a View*, 60.

57 E. M. Forster, 'Gippo English', *Egyptian Mail*, 16 December 1917.

58 EMF to Goldsworthy Lowes Dickinson, 28 July 1916, *Letters*, vol. 1, 236.

59 EMF to GLD, *c.* September–October 1916, in Beauman, *Morgan*, 295.

60 Working Men's College *Journal* 14, 14 March 1915, 61, 58.

61 EMF to Leonard Woolf, 12 February 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 25.

62 Forster, 'Gippo English'.

63 *AHG*/1982, 177.

64 Ibid., 178–80.

65 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 52.

66 EMF to Virginia Woolf, 15 April 1916, *Letters*, vol. 1, 234.

67 Ibid.

68 Ibid.

69 Liddell, *Cavafy*, 165.

70 EMF to Pericles Anastassiades, 1949, in *The Complete Poems of Cavafy*, trans. Rae Dalven, New York 1961, 288.

71 EMF to George Savidis, 25 July 1958, *Letters*, vol. 2, 271.

72 Now the Palace of Culture at 1 Sharia Horreya opposite the entrance to Sharia Salah-Salem, the former Rue Chérif Pasha.

73 EMF to his mother, 26 August 1916, in J. H. Stape, *An E. M. Forster Chronology*, London 1993.

74 EMF to GLD, 10 January 1917, in Stape, *Chronology*.

75 In Forster's time the trams bore coloured symbols to indicate their routes: stars, crescents, triangles, circles, trefoils, lozenges and labels.

76 Forster, 'Letter to Mohammed el Adl'.

77 EMF to Edward Carpenter, 12 April 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 35.

78 EMF to FB, 2 July 1916, *Letters*, vol. 1, 235.

79 EMF to his mother, 10 July 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 27.

80 EMF to FB, 2 July 1916, *Letters*, vol. 1, 235.

81 *AHG*/1938, iii.

82 *AHG*/1982, 33f., translation by Robin Furness.

83 Ibid., 173.

84 *AHG*/1938, iii.

85 *AHG*/1982, 182.

86 EMF to Laura Forster (aunt), 25 August 1916, *Letters*, vol. 1, 240.

87 EMF to GLD, 28 July 1916, *Letters*, vol. 1, 236.

88 EMF to FB, 16 October 1916, *Letters*, vol. 1, 243.

89 EMF to FB, 10 August 1915, *Letters*, vol. 1, 229.

90 EMF to Laura Forster, 1 January 1917, *Letters*, vol. 1, 248.

91 *AHG*/1982, 181.

92 E. M. Forster, 'The Lost Guide', lecture given at the Aldeburgh Festival of Music and Arts,

1956. KCC.

93 E. M. Forster, *The Longest Journey*, London 1989, lxvi.

94 Ibid., 3.

95 Diary, 18 August 1904, in Forster's introduction to *The Longest Journey*, lxvi.

96 *The Longest Journey*, 136.

97 Ibid., 136, 138.

98 Ibid., 137.

99 *Howards End*, 183.

100 EMF to FB, 8 November 1916, *Letters*, vol. 1, 244.

101 EMF to Malcolm Darling, 1 December 1916, *Letters*, vol. 1, 246.

102 EMF to Laura Forster, 21 December 1916, in Stape, *Chronology*, 61.

103 EMF to Laura Forster, 1 January 1917, *Letters*, vol. 1, 248.

104 EMF to FB, 6 January 1918, *Letters*, vol. 1, 280.

105 Ibid.

106 EMF to FB, 17 June 1917, *Letters*, vol. 1, 258.

107 EMF to FB, 6 January 1918, *Letters*, vol. 1, 280. For the unexpurgated text (as quoted here), see Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 37.

108 EMF to FB, 6 January 1918, *Letters*, vol. 1, 280.

109 Ibid.

110 'Letter to Mohammed el Adl'.

111 These pressures were reinforced by the law. Homosexual relations between consenting adults were decriminalised in England only in 1967, when Forster was eighty-eight.

112 EMF to FB, 29 May and 1 June 1917, *Letters*, vol. 1, 256.

113 EMF to Forrest Reid, 2 February 1913, *Letters*, vol. 1, 187.

114 'Letter to Mohammed el Adl'.

115 KCC.

116 *AHG*/1982, 170.

117 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 38.

118 EMF to FB, 18 July 1917, *Letters*, vol. 1, 262.

119 EMF to FB, 4 July 1917, *Letters*, vol. 1, 260.

120 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 38.

121 'Letter to Mohammed el Adl'.

122 'Letter to Mohammed el Adl'. The word 'muddle' – derived from 'mud', which had a special resonance for Forster in Egypt and also in *A Passage to India* – occurs frequently in his writings, public and private. In his published work it first appears in *A Room with a View* (47): old Mr Emerson, finding Lucy without a Baedeker in the Church of Santa Croce at Florence, undertakes to show her the Giottos, then suddenly speaks to her of his son. 'He has known so few women, and you have the time.... You are inclined to get muddled.... Let yourself go. Pull out from the depths those thoughts that you do not understand, and spread them out in the sunlight and know the meaning of them.'

123 William Plomer, *At Home*, London 1958, 107.

124 EMF to GLD, 25 June 1917 (continuation of 5 May 1917), *Letters*, vol. 1, 253.

125 Constantine Cavafy, *C. P. Cavafy: Collected Poems*, trans. Edmund Keeley and Philip Sherrard, London 1978, 53.

126 Ibid., 41.

127 Liddell, *Cavafy*, 93f.

128 *Cavafy: Collected Poems*, 117.

129 The Italian reads, 'Our Consulate, our new, rich, magnificent Consulate, strong as our Cadorna [then in command of the Italian army on the Austrian front], deep as our sea, lofty as our heaven that moves the other stars, and quite convenient for the Ramleh Tramways terminus.'

130 EMF to Robert Trevelyan, 6 August 1917, *Letters*, vol. 1, 266.

131 E. M. Forster, 'The Poetry of C. P. Cavafy', in *Pharos and Pharillon*, London 1923, 91f.

132 Forster, 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 233.

133 Liddell, *Cavafy*, 179.

134 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 233.

135 Ibid.

136 Quoted in Diskin Clay, 'The Silence of Hermippos: Greece in the Poetry of Cavafy', in *The Mind and Art of C. P. Cavafy*, Athens 1983, 178.

137 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 233.

138 Ibid.

139 *AHG*/1982, 104, translation by George Valassopoulos.

140 *Cavafy: Collected Poems*, 28, 75, 146, 58.

141 Forster, 'The Poetry of C. P. Cavafy', 95f., translation by George Valassopoulos.

142 Plutarch, 'Mark Antony', 344.

143 EMF to FB, 31 July 1917, *Letters*, vol. 1, 264.

144 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.

145 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.

146 EMF to FB, 18 July 1918, *Letters*, vol. 1, 262.

147 Mohammed el Adl to EMF, 31 August 1917,

Letters, vol. 1, 262.
148 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
149 Ibid.
150 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.
151 EMF to FB, 17 June 1917, *Letters*, vol. 1, 258.
152 Mohammed el Adl to EMF, 31 August 1917, *Letters*, vol. 1, 262.
153 Stape, *Chronology*, 174.
154 Lytton Strachey to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 40.
155 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
156 EMF to FB, 9 August 1917. KCC.
157 EMF to SRM, 8 September 1917, *Letters*, vol. 1, 269.
158 Liddell, *Cavafy*, 208.
159 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
160 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.
161 EMF to FB, 30 September 1917, *Letters*, vol. 1, 271.
162 EMF to FB, 31 July 1917, *Letters*, vol. 1, 264.
163 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
164 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.
165 EMF to FB, 30 September 1917, *Letters*, vol. 1, 271.
166 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
167 E. M. Forster, 'Our Diversions: *Diana's Dilemma*', *Egyptian Mail*, 26 August 1917.
168 EMF to FB, 8 October 1917, *Letters*, vol. 1, 273.
169 EMF to FB, 30 September 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
170 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 41.
171 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
172 Mohammed el Adl to EMF, 10 November 1917, *Letters*, vol. 1, 275.
173 KCC. It is a first-class ticket but at the concessionary half fare – one of the perks that so pleased Forster. Tickets were valid for stages, this one from the Ramleh terminus in town to the suburb of Cleopatra or vice versa. Most likely it dates from July 1917 or later, when Forster, following Irene, began living at Çamp de César.
174 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.

CHAPTER 2
Alexandria from the Inside

1 EMF to GLD, 5 December 1917, in Stape, *Chronology*, 63.
2 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
3 E. M. Forster, 'A View without a Room', an appendix in *A Room with a View*, 232.
4 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
5 Of the twenty-six newspaper articles Forster wrote while in Alexandria, twenty-two were written after he had clinched his affair with Mohammed.
6 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: Cotton from the Inside', *Egyptian Mail*, 3 February 1918; republished as 'Cotton from the Inside', in *Pharos and Pharillon*, 74.
7 Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, 15.
8 E. M. Forster, 'XX Century Alexandria: The New Quay', *Egyptian Mail*, 2 December 1917. The Cosmograph was a cinema.
9 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: Between the Sun and the Moon', *Egyptian Mail*, 31 March 1918; republished as 'Between the Sun and the Moon', in *Pharos and Pharillon*, 87. Forster was following the opinion of his day in placing the Gate of the Sun somewhere in the vicinity of the Municipal (today's Shallalat) Gardens. Indeed, the remains of both Arab and Ptolemaic fortification walls can be seen in the gardens, and the Arabs built their Rosetta Gate there, most likely on the site of an older Hellenistic gate. But traces of an outer line of ancient fortification walls have been found a mile or so farther to the east, and there is an argument that it was this outer gate that was called the Gate of the Sun.
10 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: Handel in Egypt', *Egyptian Mail*, 6 January 1918.
11 'Between the Sun and the Moon'.
12 E. M. Forster, 'A Musician in Egypt', *Egyptian Mail*, 21 October 1917.
13 EMF to Norman Douglas, 10 November, 1917, *Letters*, vol. 1, 275.

14 'The Poetry of C. P. Cavafy', 97.
15 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 234.
16 EMF to Robert Trevelyan, 23 August 1918, *Letters*, vol. 1, 294.
17 Liddell, *Cavafy*, 180.
18 Gaston Zananiri in conversation with the author. See also Liddell, *Cavafy*, 180.
19 Liddell, *Cavafy*, 163.
20 'The Poetry of C. P. Cavafy', 94.
21 In 1883–90 Sir Colin Scott-Moncrieff, an irrigation engineer who had worked on the vast canal system in northern India, comprehensively reorganised the irrigation system of Egypt. He divided Egypt into five circles of irrigation, two in the Nile Valley, three in the Delta, and he rebuilt Mohammed Ali's 1830s Delta Barrage and extensively recanalised the Delta, with the result that crop production, particularly cotton, increased phenomenally during the 1890s. The headquarters of the Irrigation Department was in Cairo, with the offices of the Third Circle of Irrigation devolved to Alexandria, which was immediately responsible for the western Delta, including El Beheira province, that is the 'lake province' (for Beheirat Mariut, Lake Mariut) lying west of the Rosetta arm of the Nile. The level of Lake Mariut was (and still is) controlled by a sluice opening onto the Mediterranean at Mex on the western outskirts of Alexandria.
22 The building once containing the offices of the Third Circle of Irrigation is now the Metropole Hotel near the Ramleh tram terminus. At street level is the Grand Trianon restaurant, café and patisserie, established during or just after the First World War.
23 The title has recently been restyled 'of Alexandria and all Africa', both forms recalling the title of the Roman 'Prefect of Alexandria and all Egypt' and the remark of Dio of Prusa, when visiting the city in the AD 70s, that Egypt was merely an 'appendage' of Alexandria (*Orations*, 32.36).
24 St Saba's was rebuilt in 1975, but the new church partly incorporates the old.
25 Liddell, *Cavafy*, 129.
26 *Cavafy: Collected Poems*, 34.
27 The Rue Missalla is now Sharia Safiya Zaghloul. The Café Al Salam is long gone. The Billiards Palace, on the west side of the street and towards its northern end, closed only in the early 1980s and was demolished in 1995. A shopping mall has been built in its place.
28 *Cavafy: Collected Poems*, 68.
29 'The Poetry of C. P. Cavafy', 91, 92.
30 The allusion is to the opening line of Cavafy's 'Exiles' written in 1914: 'It goes on being Alexandria still.' See *Cavafy: Collected Poems*, 146.
31 *Cavafy: Collected Poems*, 145. The title of the poem in Greek is 'Επάνοδος από την Ελλάδα', where 'επάνοδος' means not so much 'return' as 'going home', giving emphasis to the paradox that Hermippos and his friend, though Greek, are returning home from Greece.
32 Liddell, *Cavafy*, 30f.
33 Ibid., 99f.
34 The house in which Cavafy was born in the Rue Chérif Pasha was let to his family by the Zoghebs.
35 Liddell, *Cavafy*, 41.
36 Ibid., 123.
37 Ibid., 128.
38 To provide some flavour of the poems as Forster knew them, the translations of 'The God Abandons Antony' and 'Alexandrian Kings' in the previous chapter are by Valassopoulos.
39 George Valassopoulos to EMF, 2 February 1944. KCC.
40 Liddell, *Cavafy*, 168.
41 Ibid., 191.
42 *Cavafy: Collected Poems*, 59. 'Understanding', 'Tomb of Lanis' and 'Body, Remember . . .' were previously thought to have been published in January 1918 (see, for example, *Cavafy: Collected Poems* and Keeley, *Cavafy's Alexandria*). This was based on misinformation provided by George Savidis. But the author has been fortunate in seeing a copy of the October 1917 issue of *Grammata*.
43 For that matter Forster never told Cavafy about *Maurice*, writing to him in 1929, 'I quite forgot to tell you that I have written a novel . . . which cannot be published, and which I should like you to have seen.' See EMF to Constantine Cavafy, September 1929, in Pinchin, *Alexandria Still*, 141.
44 Keeley, *Cavafy's Alexandria*, 19.
45 *Cavafy: Collected Poems*, 22.
46 Ibid., 105.

47 Keeley, *Cavafy's Alexandria*, 18.
48 Ibid., 17.
49 *Cavafy: Collected Poems*, 122.
50 Ibid., 53.
51 'The Complete Poetry of C. P. Cavafy', 237.
52 EMF to Christopher Isherwood, 16 July 1933, *Letters*, vol. 2, 117.
53 E. M. Forster, 'T. S. Eliot', in *Abinger Harvest*, Harmondsworth 1967, 102.
54 *Letters*, vol. 1, xi.
55 *AHG*/1982, 35, 37.
56 EMF to Siegfried Sassoon, 2 May 1918, *Letters*, vol. 1, 289.
57 EMF to SS, 3 August 1918, *Letters*, vol. 1, 292.
58 Liddell, *Cavafy*, 186.
59 Alexander Kitroeff, *The Greeks in Egypt, 1919–1937: Ethnicity and Class*, Oxford 1989, 50.
60 EMF to Robert Trevelyan, 6 August 1917, *Letters*, vol. 1, 266.
61 E. M. Forster, 'Cnidus', in *Abinger Harvest*, 192.
62 EMF to FB, 31 July 1917, *Letters*, vol. 1, 264.

CHAPTER 3
If Love is Eternal

1 Private collection.
2 *AHG*/1982, 204f.
3 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: The Solitary Place', *Egyptian Mail*, 10 March 1918; republished as 'The Solitary Place', in *Pharos and Pharillon*, 82.
4 Horace, *Odes*, I.37.
5 *AHG*/1982, 29.
6 Ibid., 30.
7 F. E. Adcock, *Greek and Macedonian Kingship*, London 1953, 171.
8 *AHG*/1982, 16.
9 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
10 Quoted by Forster in EMF to FB, 23 March 1918, *Letters*, vol. 1, 288.
11 EMF to FB, 23 March 1918, *Letters*, vol. 1, 288.
12 Ibid.
13 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
14 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
15 EMF to FB, 14 May 1918, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 49.
16 *AHG*/1982, xxxii.
17 EMF to his mother, 30 March 1918, *Letters*, vol. 1, 306.
18 D. H. Lawrence to EMF, 11 April 1923, in Pinchin, *Alexandria Still*, 153.
19 EMF to Robert Trevelyan, 23 August 1918, *Letters*, vol. 1, 294.
20 EMF to his mother, 4 November 1918, in Stape, *Chronology*, 65.
21 *AHG*/1982, xv.
22 Ibid., xxvi.
23 Ibid., 28.
24 *Clea*, *AQ*, 832.
25 EMF to FB, 16 July 1918, *Letters*, vol. 1, 290.
26 Ibid.
27 EMF to SS, 3 August 1918, *Letters*, vol. 1, 292.
28 EMF to Bertrand Russell, 12 February 1918, in Bertrand Russell, *Autobiography*, London 1968, vol. 2, 82.
29 EMF to SS, 2 May 1918, *Letters*, vol. 1, 289.
30 EMF to SS, 3 August 1918, *Letters*, vol. 1, 292. For Timothy the Cat, see E. M. Forster, 'Timothy the Cat and Timothy Whitebonnet', in *Pharos and Pharillon*. Each in turn was a fifth-century patriarch of Alexandria but the two held opposing views on the nature of Christ in the quarrel between monophysites and diophysites. For Plotinus, see below.
31 *AHG*/1982, 141.
32 Sir David Waley, *Edwin Montagu*, London 1964, 145.
33 *AHG*/1982, xxv.
34 Ibid., 64.
35 *Howards End*, 58f.
36 Ibid., 337.
37 *AHG*/1982, 84.
38 Ibid., 69.
39 Plotinus, in *AHG*/1982, 71f., translation by Stephen MacKenna.
40 *AHG*/1982, 204.
41 'Historia Monachorum', in *The Desert Fathers*, trans. Helen Waddell, London 1936, 79f.
42 Eusebius, *The History of the Church*, trans. G. A. Williamson, Harmondsworth 1965, 9.4, 338.
43 *AHG*/1982, 56.
44 Ibid., 79.
45 Ibid., 235.
46 Ibid., 79.
47 E. M. Forster, 'St Athanasius', in *Pharos and Pharillon*, 48.

48 Arius, a priest at St Mark's, had argued that as Christ was the Son of God, so there must have been a time when Christ was not. This endangered the unity of the godhead – the Father, the Son and the Holy Ghost – and opened the way to regarding Christ's nature as being not of the same substance as God's and, indeed, of his being inferior to God. Therefore in 325 the Council of Nicaea anathematised 'those who say that there was a time when the Son of God was not, and that he was not before he was begotten, and that he was made from that which did not exist; or who assert that he is of other substance or essence than the Father, or is susceptible of change'. Today Arianism survives among Unitarians.

49 *AHG*/1982, 61.

50 Ibid., 84.

51 Ibid., 61. Forster is quoting from Butler's *Arab Conquest of Egypt*; see note 52 below.

52 Forster read of Amr's letter to the caliph in Butler's *The Arab Conquest of Egypt*, where the point is made that the figures would be more accurate if divided by ten, and that their exaggeration indicates amazement rather than indifference. See Alfred J. Butler, *The Arab Conquest of Egypt*, Oxford 1978, 368.

53 *AHG*/1982, 62.

54 Mohammed el Adl to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 50.

55 Mohammed el Adl to EMF, 2 October 1918, *Letters*, vol. 1, 298.

56 Forster, 'The Lost Guide'.

57 EMF to Jasper Y. Brinton, 5 February 1936. Private collection. Copyright, instead of remaining Forster's, was vested in Whitehead Morris. In exchange he would receive a royalty of 25 per cent of the cover price of the first thousand copies sold, yielding Forster LE62.50 (LE = *livre égyptienne*, or Egyptian pound, worth £1.05 sterling), some at least paid in advance of the sale of the books. On subsequent printings or revised editions he was to receive a royalty of 20 per cent, and this again was unusual as royalties normally start at about 10 per cent and increase with sales. The agreement would have made it hard for Whitehead Morris to show a profit on the first thousand copies and probably goes some way to explaining the subsequent curious history of Forster's *Alexandria*.

58 EMF to Laura Forster, 28 October 1918, in Stape, *Chronology*, 65.

59 EMF to Forrest Reid, 10 January 1919, *Letters*, vol. 1, 298.

60 Mohammed el Adl to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 51.

61 Ibid.

62 EMF to FB, November 1918, *Letters*, vol. 1, 296.

63 EMF to FB, January 1919, *Letters*, vol. 1, 299.

64 The title of khedive was replaced by that of sultan in 1914, when Egypt's nominal subjection to the Ottoman Empire was abrogated and Britain established its Protectorate. Fuad, the son of the deposed Khedive Ismail, came to the throne as sultan in 1917.

65 Lord Cromer's farewell speech of 1907, in Hanna Wissa, *Assiout: The Saga of an Egyptian Family*, Lewes 1994, 200.

66 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 59.

67 *Manchester Guardian*, 29 March 1919, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 58.

68 Quoted by Malcolm Darling to EMF, 11 July 1919, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 61.

69 *Daily Herald*, 30 May 1919, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 59. Winston Churchill, then secretary of state at the War Office, was giving British support to the White Russians in their attempt to overthrow Lenin's Bolshevik government. One of the few to favour a lenient peace with Germany, his policy was to 'Feed Germany; fight Bolshevism; make Germany fight Bolshevism'. Previously, as first lord of the admiralty, he had urged the Dardenelles campaign. Forster saw him as a cynical dealer in death and forever detested him above all politicians.

70 EMF to SS, May or June 1919, *Letters*, vol. 1, 302.

71 EMF to SRM, 29 December 1915, *Letters*, vol. 1, 232.

72 *AHG*/1982, 134.

73 Ibid., 177.

74 Forster's remark does a great injustice to St Mark's, which was built in 1845–54 by James Wild, who had already built the richly eclectic Christ Church, Brixton Hill, London (1839–41). Of his church in Alexandria, Wild said that though it 'agrees in plan and mass

with the style of art used by the early church architects, it carries out a general sentiment of Arabian detail' (Mark Crinson, 'Leading into Captivity: James Wild and His Work in Egypt', *Georgian Group Journal*, 1993, 62). Forster seems to have had little appreciation of Islamic or Eastern Christian architecture and decoration, his own taste running to the Renaissance, so that 'the finest building in the city' (*AHG*/1982, 111), he said, was the Banco di Roma in the Rue Chérif Pasha, a modified copy of Rome's Palazzo Farnese built by Michelangelo.

75 *AHG*/1982, 110.

76 EMF to G. H. Ludolf, 16 July 1919, *Letters*, vol. 1, 304.

77 EMF to GHL, 10 October 1919, *Letters*, vol. 1, 306.

78 EMF to GHL, 16 July 1919, *Letters*, vol. 1, 304.

79 Mohammed el Adl to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 62.

80 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 63.

81 EMF to GHL, 10 October 1919, *Letters*, vol. 1, 306.

82 Ibid.

83 *AHG*/1982, 125f.

84 Peter Fraser, *Ptolemaic Alexandria*, Oxford 1972, vol. 1, 730.

85 *AHG*/1982, 32.

86 Ibid., 103f.

87 J. C. B. Richmond, *Egypt 1798–1952: Her Advance towards a Modern Identity*, London 1977, 182f.

88 EMF to FB, 6 November 1919, *Letters*, vol. 1, 312.

89 EMF to FB, 10 November 1920, *Letters*, vol. 1, 317.

90 Labour Research Department, *The Government of Egypt*, London 1920.

91 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 76.

92 EMF to FB, 10 November 1920, *Letters*, vol. 1, 317.

93 EMF to Cavafy, 15 March 1921, in Pinchin, *Alexandria Still*, 107.

94 EMF to FB, 20 May 1921, *Letters*, vol. 2, 6.

95 'Letter to Mohammed el Adl.'

96 EMF to FB, 17 March 1921, *Letters*, vol. 2, 2.

97 EMF to SRM, 16 May 1920, in Beauman, *Morgan*, 311.

98 Lily Forster (mother) to EMF, *c.* 3 March 1921, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 67.

99 E. M. Forster, 'Kanaya', unpublished MS, in Beauman, *Morgan*, 315.

100 EMF to GLD, 6 August 1921, *Letters*, vol. 2, 10.

101 'Kanaya', in Beauman, *Morgan*, 315.

102 E. M. Forster, 'Reflections in India, 1: Too Late?', *Nation and Athenaeum*, 21 January 1922.

103 Mohammed el Adl to EMF, *c.* September 1921, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 85f.

104 'Letter to Mohammed el Adl'. Also in Beauman, *Morgan*, 320.

105 EMF to his mother, 22 January 1922 (continuation of 19 January 1922), *Letters*, vol. 2, 18.

106 EMF to FB, 28 January 1922, *Letters*, vol. 2, 21.

107 EMF to GLD, 28 January 1922, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 103.

108 *AHG*/1982, 136.

109 Ibid., 209f. The assumption that Forster visited Jennings Bramly's Burg el Arab in 1922 is based on the following. Jennings Bramly himself said that the idea for a carpet industry there came only in 1919 and that it was some months before the first women were at work, which would date the construction of the carpet factory to some time after Forster's departure from Egypt (*Wilfred Jennings Bramly, 1871–1960: Memorabilia*, Cairo 1970, 17; see also 27). From the description of Burg el Arab in Forster's *Alexandria*, Anthony de Cosson, who knew the settlement's history well, assumed that Forster had been there in 1920, not before; also prior to its removal to Burg el Arab there had been a small carpet industry at Amriya, run by Nina Baird until her death there in 1919 (see Anthony de Cosson, *Mareotis*, London 1935, 129 and 146).

110 E. M. Forster, 'A Birth in the Desert', *Nation and Athenaeum*, 8 November 1924.

111 'Letter to Mohammed el Adl'.

112 EMF to FB, 25 February 1922, *Letters*, vol. 2, 23.

113 *AHG*/1982, 103.

114 Ibid., xix.

115 EMF to Hilton Young, 15 February 1940, *Letters*, vol. 2, 171.

116 Virginia Woolf, *Diary*, London 1977, vol. 2, 171.

117 Mohammed el Adl to EMF, March 1922, in

Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 107.

118 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 108. See also *A Passage to India*, London 1924, 256, where later Forster, describing Fielding's thoughts at the death of Mrs Moore, wrote, 'It struck him that people are not really dead until they are felt to be dead. As long as there is some misunderstanding about them, they possess a sort of immortality. An experience of his own confirmed this. Many years ago he had lost a great friend, a woman, who believed in the Christian heaven, and assured him that after the changes and chances of this mortal life they would meet in it again. Fielding was a black, frank atheist, but he respected every opinion his friend held: to do this is essential in friendship. And it seemed to him for a time that the dead awaited him, and when the illusion faded it left behind it an emptiness that was almost guilt: "This is really the end", he thought, "and I gave her the final blow."'

119 EMF to GLD, 8 May 1922, *Letters*, vol. 2, 25.

120 Mohammed el Adl to EMF, 6 May 1922, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 108.

121 Mohammed el Adl to EMF, 8 May 1922, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 108.

122 EMF to his mother, 29 May 1922, *Letters*, vol. 2, 27.

123 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 109.

124 EMF to GHL, 13 July 1922, *Letters*, vol. 2, 42.

125 'Letter to Mohammed el Adl'.

126 *Cavafy: Collected Poems*, 86.

127 Egypt inherited the Capitulations (from the Latin 'capitula', meaning the heads or chapters of agreement) from the Ottoman Empire, where the system was introduced in the sixteenth century to encourage trade with Europe by exempting resident foreigners from the rigours of Islamic law and from local taxes, making them subject instead to their own consular authorities. In nineteenth- and twentieth-century Egypt there were fourteen Capitulatory powers: Belgium, Britain, Denmark, France, Greece, Holland, Italy, Portugal, Spain, Sweden, the United States, Austria, Germany and Russia – the last three losing their rights after the First World War. The system was reformed in 1875 by the creation of the Mixed Courts, in which foreign and Egyptian judges, following the Napoleonic Code, presided over civil cases involving foreigners of different nationalities or foreigners and Egyptians. In 1937 the Mixed Courts also assumed jurisdiction in criminal cases.

128 *Tachidromos*, 24 May 1921, in Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 45f.

129 Michael Salvagos to Allenby, 28 May 1921, in Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 46.

130 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 84.

131 EMF to Gerald Brenan, 27 March 1923, *Letters*, vol. 2, 36.

132 EMF to GHL, 27 January 1924, *Letters*, vol. 2, 46.

133 *The Times Literary Supplement*, 31 May 1923.

134 EMF to Cavafy, 5 July 1923, *Letters*, vol. 2, 40.

135 EMF to Christopher Plomer, 2 July 1945, *Letters*, vol. 2, 46.

136 'Letter to Mohammed el Adl'.

137 EMF to SS, 1 August 1923, *Letters*, vol. 2, 45.

138 EMF to Malcolm Darling, 10 May 1923, in Beauman, *Morgan*, 333f.

139 EMF to SS, 31 December 1923, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 120.

140 *A Passage to India*, 324.

141 Virginia Woolf, *Diary*, 23 January 1924, vol. 2, 289.

142 EMF to Malcolm Darling, 15 September 1924, *Letters*, vol. 2, 63.

143 Stape, *Chronology*, 99, states that in mid-February 1928 Forster received £23 13s 10d for the destruction of 246 copies by fire. In 'The Lost Guide' Forster says that the first edition, printed in December 1922, amounted to a thousand copies. This appears to be corroborated by a letter from Whitehead Morris to Judge Jasper Brinton dated 29 February 1936, which refers to the first edition: 'Previously we used to get rid of these books at the rate of about 100 copies a year, and to re-print less than 1,000 copies would be obviously uneconomical.' Of the original thousand copies printed in December 1922, several hundred were probably sold in the first year, and if a hundred or so were sold in each following year that would account for the 246 remaining copies destroyed early in 1928.

144 'The Lost Guide'.

145 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 159.

146 EMF to Sebastian Sprott, 8 August 1929, *Letters*, vol. 2, 76.

147 EMF to FB, 26 December 1926, *Letters*, vol. 2, 74.

148 EMF interviewed by Rika Singopoulos in *Tachidromos*, 26 September 1929, in *Forster in Egypt*, ed. Hilda Spem and Abdel Moneim Aly, London 1987.
149 EMF to Joe Ackerley, 9 September 1929, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 161.
150 EMF to Joe Ackerley, September 1929, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 161.
151 Cavafy to EMF, 15 October 1929, in Pinchin, *Alexandria Still*, 140f.
152 'Letter to Mohammed el Adl'.
153 EMF to P. N. Furbank, 16 July 1958, *Letters*, vol. 2, 271.
154 EMF to William Plomer, 20 November 1963, *Letters*, vol. 2, 287. Presumably the exception was Bob Buckingham.
155 EMF to Leonard Woolf, 24 May 1936, *Letters*, vol. 2, 140.

CHAPTER 4
High Society: A History and a Guide

1 Typescript of an article written in 1972 by Nancy B. Turck for the *Philadelphia Bulletin*, based on an interview with Jasper Yeates Brinton; the article was presumably published in that same year. Private collection.
2 Jasper Yeates Brinton, 'East and Near East: Memoirs of a Philadelphia Lawyer', unpublished manuscript, XIV, 2. Private collection.
3 Whitehead Morris to JYB, 9 February 1936. Private collection.
4 Bob Buckingham to JYB, 13 March 1936. Private collection.
5 EMF to JYB, 24 March 1936. Private collection.
6 EMF to Leonard Woolf, 27 March 1936, *Letters*, vol. 2, 139.
7 E. M. Forster, 'The Menace to Freedom', in *Two Cheers*, 10f.
8 JYB to EMF, 28 April 1938. Private collection.
9 These and the following remarks are from J. M. Marshall's typed notes 'E. M. Forster: Alexandria, A History and a Guide', where Forster's comments are written in the margins. Private collection.
10 *AHG*/1982, 112.
11 EMF to JYB, 11 June 1936. Private collection.
12 *AHG*/1982, 61.
13 Marshall first refers to *The Arab Conquest of Egypt* by A. J. Butler, listed by Forster among his authorities in his *Alexandria*, and then quotes from Breccia's *Alexandrea ad Aegyptum*, 29f., and from Forster's *Alexandria*, *AHG*/1982, 62.
14 *AHG*/1982, 32.
15 *AHG*/1938, 69, repeated from *AHG*/1982, 84.
16 *AHG*/1982, 84.
17 Ibid., 33.
18 Ibid., 103.
19 JYB, 'Memoirs', IX, 2.
20 Ibid.
21 JYB, 'Memoirs', II, 13.
22 Ibid., VI, 17.
23 Ibid.
24 Turck, typescript for *Philadelphia Bulletin* article.
25 Jasper Yeates Brinton, diary, 22 November 1926. Private collection.
26 John Brinton, 'Stanley Bay', unpublished memoir. Private collection.
27 JYB, 'Memoirs', XII, 16ff.
28 Ibid., XI, 22.
29 JYB to his mother, 11 February 1922. Private collection.
30 JYB, diary, 4 December 1926.
31 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 80.
32 JYB, 'Memoirs', XIV, 24.
33 JYB, diary, 14 November 1926.
34 Ibid., 13 November 1926.
35 Ibid., 17 November 1926.
36 Jasper Yeates Brinton, untitled notebook containing notes for 'Memoirs', 42. Private collection.
37 JYB, diary, 30 October 1926.
38 Ibid., 11 January 1927.
39. Ibid., 18 October 1926.
40 Ibid., 22 November 1926.
41 The Royal Institute of International Affairs, Information Department Papers No. 19, *Great Britain and Egypt 1914–1936*, London 1936, 14.
42 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 104.
43 JYB, 'Memoirs', XI, 21.
44 JYB, diary, 3 November 1926, 21 December 1926, 4 November 1926.
45 Ibid., 9 January 1927.
46 Ibid., 21 November 1926.
47 JYB, untitled notebook, 30.
48 Ibid.
49 JYB, diary, 18 November 1926.
50 Ibid., 30 January 1927.

51 Ibid., 18 November 1926.
52 Ibid.
53 JYB, diary, 29 November 1926.
54 Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 171.
55 Liddell, *Cavafy*, 184.
56 Ibid., 203.
57 Photograph. Marta Loria Fuller collection.
58 JYB, diary, 29 December 1926.
59 Ibid., 21 January 1927.
60 Graffrey-Smith, *Bright Levant*, 15.
61 LD to Alan Thomas, postmark 21 May 1957. British Library.
62 JYB, untitled notebook, 30.
63 JYB, 'Memoirs', XI, 8.
64 T. S. Eliot to Jean de Menasce, 11 November 1942. Private collection.
65 Obituary of Felix de Menasce, *Jewish Chronicle*, 3 September 1943.
66 Gudrun Krämer, *The Jews in Modern Egypt, 1914–1952*, Seattle 1989, 190.
67 Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, London 1973, vol. 2, 819.
68 Virtually the whole of Egypt's railway system was financed by four Sephardi families, the Menasces, the Rolos, the Suareses and the Cattaouis, the first two associated with Alexandria, the third with both Alexandria and Cairo, the last mostly with Cairo. The one significant exception was the line between Alexandria and Cairo, which was paid for by the Khedive Abbas. The first railway line in the Middle East, it was constructed in 1851–4 (as was the Alexandria railway station, still standing in Forster's time) by Robert Stephenson, son of George Stephenson, the inventor of the Rocket, the world's first steam locomotive.
69 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 79.
70 Jehuda Reinharz, *Chaim Weizmann: The Making of a Statesman*, Oxford 1993, 19.
71 Benjamin Disraeli's background was similar to that of many Alexandrian Jews: his grandfather, Benjamin D'Israeli, was born at Cento, near Ferrara, but instead of going to Egypt he left Italy for London in 1748, where he became a successful businessman and member of the Stock Exchange.
72 Reinharz, *Weizmann*, 19.
73 Ibid., 30.
74 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 279.
75 Reinharz, *Weizmann*, 252.
76 Ibid.
77 Ibid., 257.
78 Ronald Storrs, *Orientations*, London 1945, 366.
79 Samir Raafat, *Maadi 1904–1962: Society and History in a Cairo Suburb*, Cairo 1994, 65.
80 In 1924–5 Jean de Menasce was employed by Chaim Weizmann at the Zionist Organisation's Geneva bureau.
81 Jacques Mawas, son of Denise and grandson of Rosette de Menasce, in conversation with the author.
82 Chaim Weizmann, *The Letters and Papers of Chaim Weizmann*, ed. Barnet Litvinoff, Jerusalem 1977, vol. 12, series A, 240.
83 Weizmann, *Letters*, vol. 16, series A, 448. In addition to his political activities, Chaim Weizmann was a noted chemist and the driving force behind the founding in 1934 of what since 1949 has been called the Weizmann Institute of Science at Rehovot, fourteen miles south of Tel Aviv.
84 Letter from Eric Vincendon, brother of Claude Vincendon, to the author, 10 July 1995.
85 Claude (Vincendon), *Mrs O'*, London 1957. Claude wrote under her first name only.
86 London's Hotel Cecil, larger even than the Savoy, was built in the Strand in the 1890s on land that had recently been sold by Lord Salisbury, the prime minister, whose family name was Cecil.
87 LD in Paul Hogarth, *The Mediterranean Shore: Travels in Lawrence Durrell Country*, London 1988, 58.
88 *Mountolive*, *AQ*, 550.
89 *Justine*, *AQ*, 31f.
90 Gaston Zananiri, *Rythmes disperses*, Cairo 1932. These lines are translated from the French by Hala Halim in her article on Zananiri, 'In the Absence of Regret', in *Al Ahram Weekly* 265, 21–7 March 1996, ii.
91 Nagui's *School of Alexandria* now hangs in the main meeting hall of the Governorate of Alexandria on Sharia Mohafza at the corner of Sharia Abu el Dardaa.
92 Taha Hussein, the first Egyptian to be nominated for the Nobel Prize, was head of the faculty of arts at Fuad University in Cairo when Robin Furness was professor of English there.

93 The Atelier opened in 1935 in the Rue Missalla, on the site of the present-day Metro cinema in the renamed Sharia Safiya Zaghloul, but very soon moved to 2 Rue St Saba, on the east side of the street at the corner of the Rue Fuad, so that its façade along the Rue Fuad stood directly opposite Pastroudis. After the war it migrated east along the Rue Fuad to the corner of the Rue du Musée (the street of the Graeco-Roman Museum). Since 1956 it has occupied the 'Palais Karam', once the home of the Syro-Lebanese Karam family at the corner of the Rue des Pharaons and the Rue de Corinthe (the latter now called the Rue Victor Bassili) in the Quartier Grec.
94 John Brinton, 'Burg el Arab', unpublished memoir. Private collection.
95 Forster, 'A Birth in the Desert'.
96 JYB, 'Memoirs', XI, 33.
97 'A Birth in the Desert'.
98 *AHG*/1938, iv.
99 JYB, 'Memoirs', XI, 36.
100 Vivien Jennings Bramly to Geneva Brinton, undated except for 'Tuesday', but *c.* early 1937. This and Vivien Jennings Bramly's following letters are from a private collection.
101 *Mountolive*, AQ, 599.
102 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 125.
103 Ibid., 231.
104 Lord Killearn (Miles Lampson), *The Killearn Diaries 1934–1946*, ed. Trefor E. Evans, London 1972, 6 May 1936.
105 Graffety-Smith, *Bright Levant*, 138.
106 JYB, 'Memoirs', XI, 17f.
107 VJB to Geneva Brinton, undated except for 'Wednesday', but *c.* early 1937.
108 *AHG*/1982, 115.
109 VJB to Geneva Brinton, undated except for 'Monday – no Tuesday!', but *c.* first half of 1937.
110 VJB to JYB, undated except for 'Monday', but *c.* first half of 1937.
111 VJB to Geneva Brinton, undated except for 'Wednesday', but *c.* first half of 1937.
112 VJB to John Brinton, 21 July 1937.
113 John Brinton, 'Stanley Bay'.
114 Josie Brinton to her mother, 27 February 1937. This and Josie Brinton's following letters are from a private collection.
115 Josie Brinton to her mother, 3 March 1937.
116 Josie Brinton to her mother, 8 March 1937.
117 Josie Brinton to her mother, 20 March 1937.
118 Josie Brinton to her mother, 8 March 1937.
119 Josie Brinton to her mother, 21 May 1937.
120 Josie Brinton to her mother, 12 April 1937.
121 JYB, 'Memoirs', XI, 5.
122 Josie Brinton to her mother, 3 March 1937. Finney's Marlborough tapestries are now in the Victoria and Albert Museum, London.
123 Count Patrice de Zogheb, *Alexandria Memories*, Alexandria 1949, 39.
124 Josie Brinton to her mother, 3 December 1937.
125 Daphne du Maurier, *The Rebecca Notebook and Other Memories*, London 1981, 12f.
126 Josie Brinton to her mother, 8 March 1937.
127 Josie Brinton to her grandmother, 10 April 1937.
128 Draft letter from John Brinton to EMF, *c.* 1961. Private collection.
129 William Walker of Whitehead Morris to JYB, 26 November 1936. Private collection.
130 EMF to JYB, 5 March 1937. Private collection.
131 Draft letter from JYB to William Walker, 8 April 1937. Private collection.
132 EMF to JYB, 23 April 1937. Private collection.
133 EMF to William Walker, 23 April 1937 (carbon). Private collection.
134 JYB to EMF, 28 April 1938. Private collection.
135 Evelyn Waugh, *Officers and Gentlemen*, Harmondsworth 1964, 126f.

CHAPTER 5
Mixed Doubles as Usual

1 Undated article clipped from the *Egyptian Gazette* and held in the Forster archives at KCC. It is probably from December 1938, when the second edition of *Alexandria* was published, but as no archive copies of the newspaper have been found for late 1938 or early 1939, it has not been possible to date the article precisely.
2 Rudolf Hess to his mother, 1951, in Peter Padfield, *Hess: Flight for the Führer*, London 1991, 3.
3 JYB, 'Memoirs', XIII, 3f.
4 Josie Brinton to her mother, 14 June 1940.
5 Josie Brinton, diary, 14 June 1940.
6 JYB, 'Memoirs', alternative version of chapter XIII (marked 'not for publication'), 4f.
7 JYB, diary, 20 June 1940.

8 Josie Brinton, diary, 16 June 1940.
9 Ibid., 14 February 1940.
10 Ibid., 16 June 1940.
11 Ibid., 21 August 1940.
12 *A Bank in Battledress: Being the Story of Barclays Bank (Dominion, Colonial and Overseas) during the Second World War 1939–45*, no author, 'for private circulation', [London] 1948, 117.
13 Josie Brinton, diary, 8 June 1940.
14 JYB, diary, 18 June 1940.
15 Ibid., 30 June 1940.
16 In fact one battleship, four cruisers and three destroyers.
17 *Clea*, *AQ*, 677.
18 JYB, diary, 23 June 1940.
19 Ibid., 27 June 1940.
20 Martin Gilbert, *Churchill: A Life*, London 1991, 667.
21 *Clea*, *AQ*, 817.
22 Artemis Cooper, *Cairo in the War, 1939–1945*, London 1989, 53.
23 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 1.
24 Josie Brinton, diary, 13 July 1940.
25 Josie Brinton to her mother, 5 September 1940.
26 Josie Brinton, diary, 8 September 1940.
27 Ibid., 11 September 1940.
28 Gilbert, *Churchill*, 675–7.
29 JYB, diary, 13 September 1940.
30 Josie Brinton to her mother, 2 October 1940.
31 JYB, diary, 23 October 1940.
32 Eden was Churchill's secretary of state for war at this time; he soon after became foreign secretary again.
33 Gilbert, *Churchill*, 692.
34 Ibid., 646.
35 EMF to Christopher Isherwood, 16 July 1933, *Letters*, vol. 2, 117.
36 Josie Brinton, diary, 11 November 1940.
37 Ibid., 22 November 1940.
38 Ibid., 7 December 1940.
39 Jean Lugol, *Egypt and World War II*, Cairo 1945, 136f.
40 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 13.
41 Ibid., 6.
42 *Egyptian Gazette*, 11 June 1942.
43 The Karam 'palace' is now the home of the Atelier; the Rue de Corinthe has been renamed the Rue Victor Bassili.
44 Josie Brinton, diary, 20 November 1940.
45 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 7.
46 JYB, diary, 10 November 1940.
47 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 7.
48 Claude (Vincendon), *The Rum Go*, London 1958, 56.
49 Jacqueline Carol (Jacqueline Klat), *Cocktails and Camels*, New York 1960, 36.
50 Josie Brinton to her mother, 2 October 1940.
51 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 9.
52 Josie Brinton, diary, 14 December 1940.
53 Inscription by an unidentified serviceman in Geneva Brinton's 'War Chronicles', her Alexandria guest book cum diary, 27 January 1941. Private collection.
54 Rowland Langmaid, *'The Med': The Royal Navy in the Mediterranean, 1939–45*, London 1948, 49. Churchill addressed the Commons on 9 April 1941.
55 *Schindler's Guide to Alexandria*, Cairo 1943, 91.
56 Robert Crisp, *The Gods Were Neutral*, London 1960, 17ff.
57 *Schindler's Guide*, 88.
58 *Justine*, *AQ*, 47.
59 *The Guinness Book of Records*, London 1997, describes Robert Crisp as 'the only cricketer to have taken four wickets with consecutive balls more than once'. For his part in Operation Crusader against Rommel in November–December 1941 Crisp was decorated with the Military Cross.
60 Crisp, *The Gods Were Neutral*, 15ff.
61 Langmaid, *'The Med'*, 51f.
62 Crisp, *The Gods Were Neutral*, 209.
63 Fuller, *Decisive Battles*, vol. 2, 457.
64 'List of Personalities in Egypt', from Sir Miles Lampson to Anthony Eden, 22 July 1941, 65, Foreign Office file 1941: J2624/18/16: FO 371 27432. Public Record Office.
65 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 25f.
66 Ibid., 24ff.
67 John Cromer Braun, 'Lawrence Durrell's Arrival at Alexandria', in *Return to Oasis*, ed. Victor Selwyn et al., London 1980, xxviiiff.
68 Lawrence Durrell, *Spirit of Place*, ed. Alan G. Thomas, London 1971, 28.
69 This and John Cromer Braun's following remarks are from a conversation with the author.
70 LD interviewed by Ahmed Loutfi in *Le Progrès égyptien*, 1 November 1977.
71 Gerald Durrell, *My Family and Other Animals*, Harmondsworth 1959, 74.

72 George Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 83.
73 Theodore Stephanides, memoir of meetings with LD at Corfu, Athens, Cairo and Alexandria. British Library.
74 Marc Alyn, *The Big Supposer: Lawrence Durrell, a Dialogue with Marc Alyn*, London 1973, 55.
75 Stephanides, memoir.
76 Ibid.
77 LD to HM, 13 March 1941, in *DML*, 147.
78 LD to HM, before 13 February 1941, in *DML*, 144.

CHAPTER 6
Personal Landscape

1 Open letter from LD to George Seferis, *La Semaine égyptienne*, 28 October 1941, quoted in a letter from Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 82.
2 Lawrence Durrell, *Prospero's Cell*, London 1962, 131.
3 Rommel to his wife, 30 June 1942, in Erwin Rommel, *The Rommel Papers*, ed. Basil Liddell Hart, London 1953, 241.
4 Gilbert, *Churchill*, 709.
5 Killearn, *Diaries*, 27 January 1942.
6 *A Bank in Battledress*, 120f.
7 Ibid., 118f.
8 Countess Mary de Zogheb, unpublished diary, 29 June 1942. Private collection. Wrens: members of the Women's Royal Navy Service.
9 Ibid., 30 June 1942.
10 Cecil Beaton, *Near East*, London 1943, 133.
11 Ibid., 127.
12 JYB, diary, 30 June 1942.
13 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 35.
14 Jasper Yeates Brinton, 'Some Recent Discoveries at el-Alamein', *Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie* 35, 1942.
15 JYB, diary, 30 June 1942.
16 Lawrence Durrell, *Blue Thirst*, Santa Barbara 1975, 50.
17 Rommel to his wife, 4 and 5 July 1942, in *The Rommel Papers*, 249f.
18 Mary de Zogheb, diary, 5 July 1942.
19 *Justine*, *AQ*, 87.
20 Letter from Mary Bentley Honor to the author, 16 October 2003.
21 Graffety-Smith, *Bright Levant*, 228.
22 LD to Anne Ridler, 1942, in *Spirit of Place*, 75.
23 Lawrence Durrell, *Collected Poems, 1931–1974*, London 1985, 103.
24 Basil Liddell Hart, *History of the Second World War*, London 1970, 290.
25 Gilbert, *Churchill*, 726.
26 The minister of state for the Middle East, based in Cairo, was appointed by the war cabinet in London, his function to regulate the often conflicting priorities of the various British ambassadors and military commanders in the region.
27 The above account has been assembled from the *Egyptian Gazette*, 28 August 1942, Geneva Brinton's 'War Chronicles' and JYB's 'Memoirs', alternative XIII, 33f.
28 Rommel to his wife, 30 August 1942, in *The Rommel Papers*, 275.
29 *AHG*/1982, xix.
30 *Mountolive*, *AQ*, 482.
31 *Balthazar*, *AQ*, 314.
32 *AHG*/1982, xvi.
33 Ibid., xix.
34 Penelope Durrell Hope recalling her mother's memories in *Lawrence Durrell*, a BBC2 *Bookmark* programme, 15 August 1998.
35 *Collected Poems*, 25.
36 Lawrence Durrell, untitled 'Bloomsbury' notebook dated 1938. British Library.
37 Margaret Bourke-White, *Interview with India*, London 1950, 81.
38 Lawrence Durrell, *Pied Piper of Lovers*, London 1935, 230.
39 *The Big Supposer*, 24.
40 A 'letter' sent in booklet form from LD to Alan Thomas, 31 January 1957, 'Alan Thomas, Hys Booke from Larry Durrell 1957'. British Library.
41 Ibid.
42 'Cities, Plains and People', in *Collected Poems*, 158.
43 *The Big Supposer*, 25.
44 *Spirit of Place*, 15.
45 'Alan Thomas, Hys Booke from Larry Durrell'.
46 *The Big Supposer*, 25f.
47 Observation made by Eve Durrell to the author; see also Douglas Botting, *Gerald Durrell: The Authorised Biography*, London 1999, 6.

48 LD quoted in Botting, *Gerald Durrell*, 73.
49 *Blue Thirst*, 22.
50 Ibid., 34.
51 Ibid.
52 LD to Anne Ridler, late October 1939, in *Spirit of Place*, 61.
53 The exception is Durrell's first and highly autobiographical novel, *Pied Piper of Lovers*, published in 1935 and written before he had gone to Corfu, in which Indians are reduced to caricatures while India itself serves largely as the landscape of childhood's idyll. Durrell felt it had no literary merit and never allowed its republication; instead he regarded *The Black Book* as his true beginning as a novelist.
54 *The Big Supposer*, 125.
55 Gwyn Williams, *ABC of (D)GW*, Llandysul 1981, 86.
56 *AHG*/1982, xix.
57 Ibid., xviii.
58 Stephanides, memoir.
59 Letter from LD to the author, 17 February 1982.
60 Quoted in an article from an unidentified French magazine sent by LD to the author, 17 February 1982, with the remark 'The vulgar press has started to stir up the Alexandrian puddle with romantic articles – three this month of which I enclose the latest. Actually the most accurate.'
61 Killearn, *Diaries*, 24 October 1942.
62 W. E. Benyon-Tinker, *Dust upon the Sea*, London 1947, 202.
63 *Clea*, *AQ*, 732.
64 Williams, *ABC*, 62.
65 *Clea*, *AQ*, 732.
66 Rommel to his wife, 3 November 1942, in *The Rommel Papers*, 320.
67 *Egyptian Gazette*, 5 November 1942.
68 *The Rommel Papers*, 302.
69 Gilbert, *Churchill*, 734.
70 *The Big Supposer*, 60.
71 HM to LD, 1 September 1935, *DML*, 3.
72 *Blue Thirst*, 16f.
73 Lawrence Durrell, *The Black Book*, London 1977, 21.
74 HM to LD, 8 March 1937, *DML*, 56.
75 HM to LD, 13 March 1937, *DML*, 58.
76 HM to LD, 15 September 1942, *DML*, 153.
77 George Seferiades, who wrote under the name George Seferis, was awarded the Nobel Prize for Literature in 1963.
78 George Seferis, *On the Greek Style*, London 1967, 126.
79 Liddell, *Cavafy*, 204.
80 LD in conversation with the author.
81 Philip Sherrard, *The Marble Threshing Floor: Studies in Modern Greek Poetry*, London 1956, 73.
82 Ibid.
83 Ibid., 40.
84 *The Black Book*, 9.
85 LD to HM, late March 1937, *DML*, 63.
86 LD to HM, 21 July 1937, *DML*, 80. The Book of Miracles, later called the Book of Time, would eventually emerge between 1974 and 1985 as *The Avignon Quintet*.
87 HM to LD, 21 November 1942, *DML*, 156.
88 *AHG*/1982, xvii.
89 Williams, *ABC*, 86.
90 Ibid., 83.
91 Ibid., 87.
92 Ibid., 31.
93 *AHG*/1982, xvii.
94 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 134.
95 Thus Robert Liddell in *Cavafy*, 180, records the visit of '"an important English Sir" (unidentified)'; in a letter to the author dated 10 February 1987 Liddell wrote, 'I have since been told (I forget by whom) that this was my old friend Sir Walter Smart. This is most likely.'
96 Liddell, *Cavafy*, 210.
97 Seferis, *On the Greek Style*, 127.
98 Ibid., 130.
99 Liddell, *Cavafy*, 118.
100 Ibid., 211.
101 Ibid., 205.
102 Robert Liddell, 'Cavafy', essay first published in *Personal Landscape* magazine, reprinted in *Personal Landscape: An Anthology of Exile*, ed. Robin Fedden et al., London 1945, 106. *Balthazar*, *AQ*, 338.
103 *AHG*/1982, xvif. Durrell wrote 'Petrides' but meant 'Perides'. Paul Petrides was a doctor and indeed another friend of Cavafy's but not one who wrote a book about him. This is clearly an error for 'Michael Perides', whose book on Cavafy was published in Athens in 1948.
104 Letter from Bernard de Zogheb to the author, 1 March 1999: 'Robert Liddell told me that Durrell at one point lived at

Anfouchy – on the sea front – but when? and for how long? – God only knows.' Liddell and Zogheb were very close friends; Liddell dedicated his *Cavafy: A Critical Biography* 'à Bernard de Zogheb et aux autres amis alexandrins'.

105 *Justine*, AQ, 41ff.

106 *Mountolive*, AQ, 623ff.

107 *Balthazar*, AQ, 226.

108 LD in *Bimbashi McPherson: A Life in Egypt*, ed. Barry Carman and John McPherson, London 1983, 7.

109 *Justine*, AQ, 104.

110 Ibid., 105.

111 Ian MacNiven, *Lawrence Durrell: A Biography*, London 1998, 269.

112 *Collected Poems*, 154.

113 *Egyptian Gazette*, 8 April 1943.

114 *Justine*, AQ, 84f.

115 Open letter from LD to George Seferis, *La Semaine égyptienne*, 28 October 1941, quoted in a letter from Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 82.

116 George Seferis, 'The Greek Poems of Lawrence Durrell', *Labrys* 5, July 1979, 85.

117 George Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 82.

118 Seferis, 'The Greek Poems of Lawrence Durrell', 88.

119 *Collected Poems*, 99.

120 Seferis, 'The Greek Poems of Lawrence Durrell', 88.

121 Neither Anfushi nor 40 Rue Fuad are mentioned by Durrell's biographer, Ian MacNiven, who instead has him living at 11 bis (now 14) Rue des Pharaons in the Quartier Grec, a building then and now of expensive and enormous apartments, eight rooms or more. But MacNiven is uncertain from whom he obtained his information, while the evidence for 40 Rue Fuad is incontrovertible: Eve Durrell took the author to the place, and Paul Gotch, who together with his wife lived there with Durrell and Eve, has a captioned photograph of the building. Neither Gotch nor Eve knows anything about Durrell living in the Rue des Pharaons, nor for that matter about him living in Anfushi, which would have been before they knew him in Alexandria. The sole source for Anfushi is Liddell, who told Bernard de Zogheb; both are now dead.

CHAPTER 7
Mirrors

1 *Justine*, AQ, 82.

2 Baudrot stood at 2 Rue Fuad on the corner of the Rue Chérif Pasha, directly opposite the Mohammed Ali Club; it has since been converted to an office, and renumbered and renamed 1 Sharia Horreya.

3 The entrance to the Atelier was at 2 Rue St Saba, but the building (since replaced by another) flanked the Rue Fuad.

4 *Schindler's Guide*, 17.

5 Rosie Israel, 'Histoire de la famille de Maman', unpublished genealogy of the Cohen-Arazi and Palacci-Miram families, 1996. Private collection. Rosie Israel, née Cohen, is the daughter of Nessim Cohen-Arazi and Ventura Palacci-Miram, and is a cousin of Eve Durrell.

6 Ibid.

7 *Justine*, AQ, 57.

8 Lawrence Durrell, 'Notes for Alex', 9. British Library. A notebook begun in 1944, possibly incorporating notes from 1943. British Library pagination.

9 Ibid., 6.

10 Melanie's niece, Naomi 'Moughee' Athanassian, in conversation with the author and Eve Durrell.

11 Archives of the Greek Community of Alexandria, biographies file, quoted in Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 153.

12 *Justine*, AQ, 186.

13 Ibid., 188.

14 Ibid., 54f.

15 JYB, 'Memoirs', XI, 14ff.

16 Alice Brinton, daughter of John and Josie Brinton, in conversation with the author.

17 Cooper, *Cairo in the War*, 243.

18 Killearn, *Diaries*, 4 February 1942.

19 Draft of telegram sent on 24 October 1941 from the war cabinet, London, to Sir Miles Lampson, Cairo, signed 'AE' (i.e. Anthony Eden), Foreign Office files. Public Record Office.

20 Sir Miles Lampson to Lancelot Oliphant, deputy under-secretary of state, Foreign Office, 6 January 1939, in Janice J. Terry, *The Wafd: 1919–1952*, London 1982, 242.

21 Unpublished diary entry, 30 May 1940, in Cooper, *Cairo in the War*, 296.

22 Richmond, *Egypt 1798–1952*, 218.
23 The Gotches moved from Tanta to Alexandria on 28 June 1943 according to the caption accompanying a photograph of 40 Rue Fuad in Paul Gotch's photograph album of that time.
24 Lawrence Durrell, 'Imbecility File – This Egypt', scrapbook. British Library.
25 T. S. Eliot, *The Waste Land*, London 1922, lines 43 and 46; lines 372–7.
26 *Justine*, *AQ*, 126.
27 *Clea*, *AQ*, 700.
28 Ibid., 702.
29 LD to HM, probably mid-July 1944, *DML*, 167. The letter is undated and in *DML* is dated by the editor as mid-May, continued late May 1944, but this second half of the letter may well date from as late as 11–25 July.
30 Ibid.
31 *Collected Poems*, 115.
32 *Justine*, *AQ*, 197.
33 Sir John Pentland Mahaffy (1839–1919) of Trinity College, Dublin, was author of *The Empire of the Ptolemies*, 1895. This was among the works Cavafy kept in his personal library.
34 *Justine*, *AQ*, 79.
35 Ibid., 80.
36 Ibid., 18.
37 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 146.
38 B. L. Carter, *The Copts in Egyptian Politics 1918–1952*, Cairo 1988, 109.
39 Michael M. Laskier, *The Jews of Egypt, 1920–1970*, New York 1992, 48.
40 George Antonius to Walter Rogers, 24 August 1938. Archives of the Institute for Current World Affairs, Hanover, New Hampshire. Quoted in an unpublished paper by Professor William Cleveland of Simon Fraser University, British Columbia, 'George Antonius and the Making of *The Arab Awakening*', 26.
41 *Mountolive*, *AQ*, 553.
42 Sir Miles Lampson was made a baron in the New Year's Honours List of 1 January 1943, largely in reward for his Abdin Palace coup, and took the title Lord Killearn of Killearn after his birthplace in Scotland.
43 Killearn, *Diaries*, 26 January 1943.
44 Churchill's address to the Joint Session of Congress in Washington, 19 May 1943, in Langmaid, '*The Med*', 79.
45 Langmaid, '*The Med*', 101.
46 Williams, *ABC*, 31. Williams is wrong about George de Menasce's 'Wednesday afternoons', which were actually on Sundays and Tuesdays. See following chapter.
47 Gwyn Williams, 'Durrell in Egypt', *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 301. Williams is referring to Gaston Zananiri, Clea Badaro, George de Menasce, Count Patrice de Zogheb and Michael Perides, who have already been identified in these pages. Carlo ('Ioe') Suares appears later. Of the others less is known. Clement Barber, manager of the British Government Cotton Buying Commission, and his wife Margot promoted madrigal singing. Naguib (better known as Costa) Baladi was a philosopher; for him and his French wife jazz was a religion. Marcel Salinas was artistically linked with Paris; his wife Wanda later became a novelist. Jacques Fumaroli, a Corsican, was a director of financial and textile companies. Papassinessiou, if Emmanuel, was a *commerçant*. Sachs, if Freddy, was a *rentier*; if David, a banker; David died during the war and was married to Linda, a beautiful and cultured woman. Ivan Oumoff was the White Russian consul and was known as a dreamer with the heart of a child; he married an ugly but very rich Syro-Lebanese and raised a musical family. Barukh is known only to have been an *homme d'affaires*. Of Kerekreti nothing is known; he may be Bereketi who moved in Greek circles and whose daughter married first Cyril Sursock and then Prince Sadruddin Aga Khan.

CHAPTER 8
Prospero's Tower

1 LD to Diana Gould in Naples, postmark 27 April 1944. British Library.
2 Noël Coward, *Middle East Diary*, London 1944, 57.
3 *Blue Thirst*, 41.
4 Killearn, *Diaries*, 18 August 1943.
5 John Simpson, 'Noel Coward Was a Spy, Too', *Spectator*, 17–24 December 1994.
6 Coward, *Middle East Diary*, 92f.
7 Ibid., 91f.

8 By the summer of 1943 the British and American governments were well aware of the Nazis' 'final solution' but believed that their best course was to win the war as quickly as possible and meanwhile not to arouse public criticism for failing to take specific and probably impracticable action against the genocide. The suppression of information ceased only in 1944.
9 In Paul Gotch's photograph album of the time, the caption reads: 'Move from 40 Fouad-el-Awal [Fuad the First] to 17 Maamoun – Moharrem Bey October 1st 1943.'
10 LD to HM, *c.* 25 December 1943, *DML*, 159.
11 LD to HM, 23 May 1944, *DML*, 171.
12 *Balthazar*, *AQ*, 234 and 365.
13 Ibid., 365.
14 Ibid., 234f.
15 JYB, diary, 30 October 1926.
16 MacNiven, *Lawrence Durrell*, 283.
17 *Justine*, *AQ*, 107.
18 Much of the biographical information on Clea Badaro is taken from the book by her sister, Jeanne Engalytcheff-Badaro, *Clea Badaro, 1913–1968: Sa vie, son oeuvre*, Alexandria 1978.
19 *Justine*, *AQ*, 197.
20 *Balthazar*, *AQ*, 371.
21 *Justine*, *AQ*, 199.
22 'Notes for Alex', 37.
23 LD to HM, mid-January 1937, *DML*, 42.
24 *Justine*, *AQ*, 108.
25 Charles Gibson Cowan, *The Voyage of the Evelyn Hope*, London 1946, 83.
26 Artemis Cooper, *Writing at the Kitchen Table: The Authorised Biography of Elizabeth David*, London 1999, 87.
27 LD in conversation with the author.
28 Henry Romilly (Robin) Fedden, 'A Study of the Monastery of St Anthony in the Eastern Desert', *University of Egypt, Faculty of Arts Bulletin* 5, 1937.
29 Henry Romilly (Robin) Fedden, *Suicide: A Social and Historical Study*, London 1938.
30 Robin Fedden, *Personal Landscape* (an account of the genesis of the wartime magazine *Personal Landscape*), London 1966, 5.
31 Fedden, *Personal Landscape*, 7.
32 Josie Brinton, diary, 8 February 1942.
33 Robin Fedden, 'Personal Landscape', *Personal Landscape* 1, January 1942, 8.
34 Lisa Chaney, *Elizabeth David: A Biography*, London 1998, 163.
35 Chaney, *Elizabeth David*, 165.
36 Cooper, *Writing at the Kitchen Table*, 89.
37 Caroline Lassalle, widow of George Lassalle, in conversation with the author.
38 Cooper, *Writing at the Kitchen Table*, 106f.
39 LD in conversation with the author.
40 Eve Durrell interviewed by Paul Gotch, 22 August 1996, corroborated by Eve Durrell's conversations with the author.
41 Chaney, *Elizabeth David*, 171.
42 Reported to the author by Lisa Chaney, who was told by George Lassalle's ex-wife Judith.
43 *Justine*, *AQ*, 69.
44 Eve Durrell interviewed by Paul Gotch, 10 May 1992.
45 Hugh Shire, 'George de Menasce OBE, 1890–1967', in *The George de Menasce Collection*, part 1, Spink, London 1971, 5.
46 Laskier, *The Jews of Egypt*, 104.
47 Cooper, *Cairo in the War*, 33 and 191, mistakenly reports that George de Menasce played the piano behind a screen owing to a phobia about showing his hands; in fact that was Count Patrice de Zogheb.
48 *Justine*, *AQ*, 148f.
49 *Mountolive*, *AQ*, 395.
50 LD to Tambimuttu, in Victor Selwyn, 'Preface', *Return to Oasis*, xx.
51 Gwyn Williams, 'To Robin Furness', in Gwyn Williams, *Flyting in Egypt: The Story of a Verse War, 1943–45*, Port Talbot 1991, 15.
52 Bernard Spencer, 'From Cairo', in Williams, *Flyting*, 14.
53 Lawrence Durrell, 'Against Cairo: An Ode', in Williams, *Flyting*, 19.
54 Gwyn Williams, 'Lines Written upon Contemplation of the Mystery of the Sex Life o Mr Terence Rogers Tiller', in Williams, *Flyting*, 20.
55 Robin Furness, 'Upon Tease: Epig.', in Williams, *Flyting*, 21.
56 Lawrence Durrell, 'Premature Epitaphs and All', unpublished typescript, six bound copies produced for friends, 1944. British Library.
57 Liddell, 'From Cleopatra', in Williams, *Flyting*, 26.
58 *Justine*, *AQ*, 49.
59 *Collected Poems*, 158.
60 HM to LD, 12 November 1943, *DML*, 158.

40 *AHG/1982*, 70.
41 'Notes for Alex', 15 left.
42 *Justine*, *AQ*, 28.
43 Plotinus, *Enneads*, trans. Stephen MacKenna, London 1991, I.1.8, 10.
44 'Notes for Alex', 14 left.
45 Ibid., 5 right.
46 *Justine*, *AQ*, 18.
47 *AHG/1982*, xv.
48 Ibid., xvf.
49 Sigmund Freud, *The Interpretation of Dreams*, London 1991, 214, where Freud makes reference to Plotinus' *Enneads*, IV.4.17.
50 Plotinus, *Enneads*, IV.4.4.
51 'Notes for Alex', 6 left.
52 Freud, *The Interpretation of Dreams*, 44.
53 'Notes for Alex', 23 right.
54 *Justine*, *AQ*, 143.
55 Ibid., 144.
56 Ibid., 156.
57 Ibid., 143.
58 LD to HM, c. September 1944, in MacNiven, *Lawrence Durrell*, 298.
59 Georg Groddeck, *The Book of the It*, London 1949, xxiv. *The Book of the It* was first published in 1923 by the Internationaler Psychoanalytischer Verlag in Vienna, whose founding directors were Sigmund Freud, Sandor Ferenczi and Otto Rank.
60 *Justine*, *AQ*, 17.
61 LD to HM, September 1944, *DML*, 175.
62 *Prospero's Cell*, 9.
63 Killearn, *Diaries*, 14 November 1944.
64 The Stern Gang, named after its founder Avraham Stern, was run from 1940 to 1945 by Yitzhak Shamir, the future leader of the right-wing Likud party, who from 1983 to 1984 and again from 1986 to 1992 was prime minister of Israel.
65 Gilbert, *Churchill*, 803.
66 Ibid.
67 LD to HM, c. 1 March 1945, *DML*, 179.
68 LD to HM, spring 1945, in *A Private Correspondence*, 200.
69 LD to HM, c. 1 March 1945, *DML*, 179.
70 LD to HM, spring 1945, in *A Private Correspondence*, 200.
71 LD to HM, c. 1 March 1945, *DML*, 179.
72 LD to HM, spring 1945, in *A Private Correspondence*, 200.
73 Ibid.
74 Jack Sarfatti to the author, 5 January 2001. The remark was made by Carlo Suares to Jack Sarfatti in Paris in 1973; Sarfatti also says he heard it repeated by 'the Krishnamurti/Theosophists when I was in Ojai'.
75 Gabriel Josipovici in conversation with the author.
76 HM to LD, 5 April 1937, *DML*, 68.
77 Summary of *La Procession enchaînée* in *Fondation Carlo Suarès*, 1, Paris 1978, 8.
78 LD to DG, 2 April 1945. British Library.
79 'Notes for Alex', 19 left, 20 left and right.
80 *Justine*, *AQ*, 85.
81 Psalms, 33:6.
82 'Notes for Alex', 26 right.
83 Throughout all Durrell's notes and drafts and throughout *Justine* itself, this character is identified as 'I'. Only towards the end of *Balthazar* is he named as Darley – see *AQ*, 356.
84 *Justine*, *AQ*, 96.
85 Ibid., 97.
86 Ibid., 33.
87 Gilbert, *Churchill*, 816.
88 Josie Brinton to her mother, 22 February 1945.
89 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 10.
90 LD to DG, 2 April 1945. British Library.
91 MacNiven, *Lawrence Durrell*, 300.
92 LD to T. S. Eliot, 17 November 1945, *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 356.
93 LD to T. S. Eliot, early summer 1945, *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 355.
94 LD to HM, 22 June 1945, *DML*, 181.
95 LD to Gwyn Williams, summer 1945, *Flyting*, 10; also *Spirit of Place*, 78.
96 LD to HM, 28 February 1946, *DML*, 194.
97 LD to HM, c. October 1945, *DML*, 186.
98 'Notes for Alex', 29 left.
99 *AHG/1982*, xix.
100 *Justine*, *AQ*, 201.
101 *Spirit of Place*, 79.
102 *Collected Poetry*, 99.
103 Lawrence Durrell, *The Greek Islands*, London 1978, 128.
104 Gwyn Williams to LD, 7 November 1945, in MacNiven, *Lawrence Durrell*, 320.
105 Williams, 'Durrell in Egypt', 301.
106 Williams, *ABC*, 32.
107 Elizabeth French, daughter of Alan Wace, in conversation with the author. It is not certain by what route Wace found out about

Menasce, but the embassy was following Zionist activities in Egypt and reports were being sent to Smart.

108 The palace scene was translated by M. E. F. Maxwell; J. S. Blake-Reed translated the hymn of Adonis and M. S. A. Wright translated the street scene. All three men were members of the Royal Archaeological Society; the first two were judges at the Mixed Courts.

109 *AHG*/1982, 37f.

110 Victor Emmanuel later moved to a villa in Smouha, a development built in the 1930s on the drained lake-bed of Hadra, between Moharrem Bey and Abou el Nawatir. In his final illness, however, he returned to the Ambron villa; he died there on 28 December 1947 and is buried behind the altar in St Catherine's, Alexandria's Roman Catholic cathedral. But Gilda Ambron's name is not among those 'which the passer-by may one day read upon the tombs in the cemetery': her body, if it was found, seems to have been taken to Italy: there is no record of her burial in the registers of either the Italian or the Jewish communities in Alexandria.

EPILOGUE
A Passage from Alexandria

1 See Fraser, *Ptolemaic Alexandria*, vol. 1, 681ff, and Alan K. Bowman, *Egypt after the Pharaohs*, London 1986, 31.

2 'The Caballi', 3 right. In 'The Caballi' the text runs continuously over left- and right-hand pages. See *Justine*, *AQ*, 17.

3 Memorandum signed by Captain D. Sherret, RAMC, psychiatrist, Psychiatric Division, British Military Hospital, Hanover, BAOR, 5 [January 1953]. Eve Durrell collection.

4 H. Pozner, psychiatrist, British Military Hospital, Hanover, to LD, 5 January 1953. Eve Durrell collection.

5 LD to Alan Thomas, [spring 1953]. British Library.

6 LD to HM, May (?) 1953, *DML*, 269.

7 LD to HM, postmark 24 October 1953, *DML*, 272. In referring to a '4-dimensional' novel which is 'taut and very short', Durrell clearly means the book in hand; the remark does not indicate that he had any intention of writing a quartet.

8 *Justine*, *AQ*, 165.

9 Ibid., 21. A year or two later Durrell would read Sigmund Freud's letter to Wilhelm Fliess, 1 August 1899, in Sigmund Freud, *The Origins of Psychoanalysis*, London 1954. 'Now for bisexuality!' wrote Freud, and Durrell would quote what followed (above the quotation from the Marquis de Sade) as a preface to *Justine*: 'I am accustoming myself to the idea of regarding every sexual act as a process in which four persons are involved. We shall have a lot to discuss about that.' The four persons are the female and male aspects of the man and the male and female aspects of the woman, a theme Freud addressed in many of his writings and which Durrell also made part of the 'four-dimensional' nature of his novel *Justine*.

10 'The Caballi', last pages.

11 LD to Theodore Stephanides, [April 1954]. British Library.

12 Lawrence Durrell, 'Justine Rough Draft', cover. British Library. Inside the front cover of this blue notebook Durrell at some later point wrote, 'Draft begun in Venice 21st Jan 1954 on notes from '46–'47 – some passages – shoot Mareotis – in 1943. Kyrenia 6 months with S. alone. Terribly happy – dog tired –'. His dating is confusing and can be misleading unless one examines the matter carefully. January 1954 does not indicate when Durrell began writing in this notebook; rather the inscription was written some time later and is meant as a summary of his work in 'Notes for Alex', 'The Caballi' and now in 'Justine Rough Draft'. In fact Durrell sailed from Venice in January 1953, and indeed he did first write 1953 but changed it to 1954, both the inscription and his correction probably being written in 1955, for immediately below it there is an outline of a hand which he has inscribed as 'Sapphy's hand March 1955'. Durrell offered a similar sort of summary when at some time he wrote on the back cover of 'The Caballi' '1944–1954', which does not mean he began the notebook in 1944, as it was apparently manufactured by the government only in 1949; rather he is taking into account his earlier work in 'Notes for Alex'. To summarise

the chronology, then: in 'Notes for Alex', begun in 1944, Durrell works out his ideas and characters; in 'The Caballi', begun in 1953, he begins telling the story as it would more or less appear in the published version of *Justine*; and in 'Justine Rough Draft', begun in 1954, he continues that same story. Whatever notes he had from 1943 of his experience at a duck shoot were not after all put to use in 'Justine Rough Draft', as he abandoned writing in this notebook just as he was approaching the climactic duck shoot scene.

13 'Justine Rough Draft', 2. British Library pagination. The ellipsis represents about a dozen lines that Durrell copied out of Forster's quotation from Plotinus. See *Justine*, *AQ*, 147f.

14 MacNiven, *Lawrence Durrell*, 419.

15 LD to Alan Thomas, [1955]. British Library.

16 First written in 'Justine Rough Draft', these lines appear in *Justine*, *AQ*, 153.

17 Lawrence Durrell, poetry notebook. British Library.

18 LD to HM, c. January (?) 1956, *DML*, 279.

19 LD to HM, c. November 1955, *DML*, 278.

20 LD to HM, c. January (?) 1956, *DML*, 279.

21 LD to Richard Aldington, after 11 October 1957, in *Literary Lifelines*, ed. Ian S. MacNiven and Harry T. Moore, New York 1981, 31.

22 Ibid.

23 LD to HM, c. January (?) 1956, *DML*, 279.

24 *Clea*, *AQ*, 832.

25 LD to Alan Thomas, postmark 13 June 1956. British Library.

26 Lawrence Durrell, *Bitter Lemons*, London 1959, 214.

27 Ibid., 216.

28 Ibid., 163f.

29 *Balthazar*, *AQ*, 235.

30 *Bitter Lemons*, 164.

31 LD to Alan Pringle, editor at Faber and Faber, received 24 July 1956.

32 LD interviewed by Edwin Newman on *Speaking Freely*, WNBC TV, 6 April 1970, broadcast a week later. After telling Faber in July 1956 that he wanted to write 'a series, I don't know how many', Durrell was still undecided about their number a month before the publication of *Justine*, writing to Miller in December 1955 that he was thinking of writing *five* Alexandrian novels.

33 *Balthazar*, *AQ*, 209f.

34 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.

35 Jasper Yeates Brinton, 'A Philadelphian Describes the Mass Evacuation from Egypt', *Philadelphia Sunday Bulletin*, 25 November 1956.

36 Hugh Thomas, *The Suez Affair*, London 1967, 164.

المؤلف فى سطور:

مايكل هاج

هو كاتب ومصور فوتوغرافى وناشر.

وتعتبر قصة الإسكندرية لمايكل هاج إنجازًا بارزًا، لأنها لا تعتبر فقط مؤلف السيرة الذاتية لفورستر وكافانى وديوريل وعلاقاتهم بالمدينة ولكن لأن ذلك يعتبر تسجيلاً لتاريخ الإسكندرية الحافل بالتفاصيل الرائعة.

المترجمة فى سطور:

فضيلة محجوب محمد

- تخرجت فى كلية الألسن وحصلت على ماجستير فى الأدب من جامعة القاهرة.
- عملت مترجمة لدى سفارة نيجيريا بالقاهرة، ومركز الدراسات الإستراتيجية بالأهرام.

المراجع فى سطور:

طاهر البربرى

كاتب ومترجم مصرى

صدر له فى مجال الترجمة:

١- أرض المساء وقصائد أخرى (مختارات من أشعار ديفيد هربت لورانس **David Herbert Lawrence**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

٢- (إله الأشياء الصغيرة **The God of Small Things**) للكاتبة الهندية آرونداتى روى **Aruundhati Roy**، طبعة ثانية: دار نينوى للنشر، دمشق ٢٠٠٩.

٣- (من لا عزاء لهم **The Unconsoled**) للكاتب البريطانى كازو إيشيجورو **Kazou Ishigoruo** ، المركز القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٥.

٤- (عندما كنا يتامى **When we were Orphans**)، للكاتب البريطانى كازو إيشيجورو **Kazou Ishigoruo**، المركز القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٨.

٥- (أجنحة الغبار **Wings of Dust**)، للكاتب البريطانى السودانى جمال محجوب **Jamal NahJoub**، المركز القومى للترجمة، القاهرة ٢٠١٠.

B القيام بأعمال المراجعة والتحرير والتقديم للكتب التالية:

١- الطفل الخامس (دوريس ليسبنج)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٩.

٢- موعد مع أخي، رواية للكاتب الكورى مون يـول، المركـز القـومى للترجمة، ٢٠٠٩.

٣- العيش بالأمل: شعوب تتحدى العولمة (مجموعة باحثين من الولايـات المتحدة)، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.

أعمال إبداعية منشورة:

١- توقيعات على جسد المساء: (شعر) الهيئة المـصرية العامـة لقـصور الثقافة، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، ١٩٩٧.

٢- مدن فارهة للنسيان: (شعر) الهيئة المـصرية العامـة للكتـاب، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، ٢٠٠١.

٣- قنص الأحلام: (رواية) طبعة أولى، الهيئة العامـة (قـصور الثقافـة، ٢٠٠٣، طبعة ثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣.

٤- ظلالهم كانت هنا: (رواية)، دائرة الشارقة للثقافـة والإعـلام، دولـة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٦.

التصحيح اللغوى: حـــامد أحـــمـــد
الإشـــراف الفنى: حـــــــسن كامـــل